سر الأسرار ومظهر الأنوار فيما يحتاج إليه الأبرار

ويليه

فتوح الغيب

كلاهما لشيخ الإسلام عبد القادر بن موسى الجيلاني
المتوفى ٥٦١ هـ

ويليه

قلائد الجواهر

في مناقب تاج الأولياء ومعدن الأصفياء وسلطان الأولياء
الشيخ محيي الدين عبد القادر الجيلاني
للعلامة الشيخ محمد بن يحيى التاذفي المتوفى سنة ٩٦٣ هـ

ويليه

السيف الرباني

في عنق المعترض على الغوث الجيلاني

للإمام المحدث محمد بن مصطفى بن عزوز المكي الإدريسي المتوفى سنة ١٣٣٤ هـ

تحقيق وتعليق
أحمد فريد المزيدي




دار الكتب العلمية
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون



دار الكتب العلمية

الطبعة الثانية

٢٠٠٧ م - ١٤٢٨ هـ

منشورات محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

الإدارة : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت

Ramel Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg., 1st Floor

هاتف وفاكس: ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ (٩٦١ ١)

فرع عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية

Aramoun Branch - Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Bldg.

هاتف: ١٠/١١/١٢ ٨٠٤٨١٠ ٥ (٩٦١+) — ص.ب: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

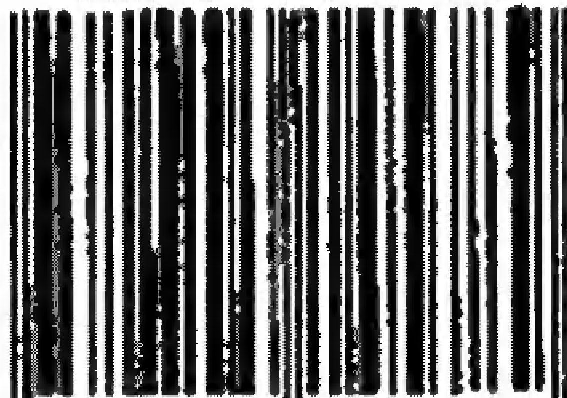
فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ (٩٦١+) — رياض الصلح - بيروت ٢٢٩٠ ١١٠٧

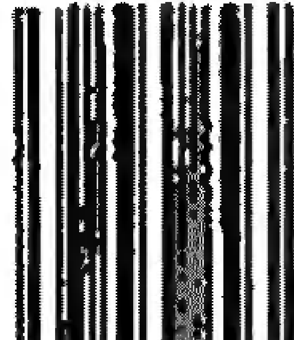
http://www.al-ilmiyah.com

e-mail: sales@al-ilmiyah.com

info@al-ilmiyah.com

baydoun@al-ilmiyah.com





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله مُبدع المعاني والصور، ومُبَيِّن آثار كمال أهل الكمال، ومُظهِر عجائب الوجود من خزائن جوده بفيض من الآيات والعبر. أحمده بمقتضى جماله وجلاله كما يستحق ولِما أمر، وأشكره على جميع أفعاله إنه المُعِزّ المقتدر، فإنما المزيد لمَن شكر، وأُصلّي على نبيّه الحبيب المخصوص بتجلّي ذاته في ظهوره بين ما ظهر. سيّدنا محمد بن عبد المطلب فخر آل مُضر، صاحب الوسيلة العظمى، والمكانة الزلفى واسطة مَن يأتي ومَن غَبَر، وعلى آله الطيّبين، وعترته الذين هم من خير البشر، وصحبه المقرّبين أُولي الاختصاص كما في محكم الآيات والسّور.

أما بعد... فهذه مجموعة مباركة تتعلق بتاج الأولياء، وشمس الأقطاب والنبلاء، سيدي محيي الدين عبد القادر بن أبي صالح عبد الله بن جَنكي دُوست الجيلاني - الكيلاني - الجبلي الشافعي الحنبلي قُدِّس سرّه.

فالأول: وهو سرّ الأسرار ومُظهِر الأنوار فيما يحتاج إليه الأبرار، من مصنفاته البارعة، وهو كتاب بديع في مضمونه حيث تتضمن الجمع بين الشريعة والحقيقة، ومن أصل مخطوطاته: نسخة بغداد الواقعة تحت رقم (٩١٧٧).

ونسخة الظاهرية تحت رقم (٣٩٥٦) عامّ.

وكذلك بها نسخة تحت رقم (٦٩١٩)، وكذلك (١١٢٤٢) ونسخة رقم (٧٣٨٩).

ونسخة مكتبة الأستانة بحماة (٥٧٠٧)، وغيرها من النسخ مع اختلاف أحوالها.

وكذلك المطبوع، فجزى الله مَن أفاد طلاب العلم وأعان على إخراج تراث أهل القرب والحق لهم.

والثاني: فتوح الغيب وهو للشيخ قُدِّس سرّه، وقد قام بجمعه عن ولده عبد الرزاق: الشيخ محمد بن يحيىٰ التاذفي الحنبلي قُدِّس سرّه بإضافة بعض مناقبه، وذكر عقيدته الشريفة، وقصيدته العينية، وبعض ما نُسب إليه من قصائد ودُرَر.

وقد طُبع الكتاب من قبل، قديمًا.

الثالث: قلائد الجواهر في مناقب الشيخ عبد القادر للشيخ التاذفي رضي الله عنه، وهو كتاب قد استفاد فيه مصنّفه من بهجة الأسرار ومعدن الأنوار للشيخ الشطنوفي المتوفى سنة ٧١٣ هـ. وقد طبع في دار الكتب العلمية ـ بيروت (بتحقيقنا) وقلائد الجواهر قد طُبع قديمًا.

الرابع: السيف الرباني في عنق المعترض على الغوث الجيلاني لابن عزوز المكي، وهو اسم على مسمّى حيث ردعه بالبراهين الساطعة، والحجج الباهرة في ردّ المعترض وكل مَن اعترض على أهل الله في هذه الأيام التي نرى فيها عجبًا من أناس لا يعرفون من العلم إلا رسمه، وإذا ما ذكر أمامهم قطبًا ربانيًا كسيدي عبد القادر، أو غيره من أهل الله رضي الله عنهم، فيُعيب ويُخطِّىء من غير علم ورحم الله ابن رجب الحنبلي حينما قال نقلًا عن العز بن عبد السلام: لا نعلم أحدًا نُقلت إلينا كراماته بالتواتر عدا سيدي عبد القادر الجيلاني، وآخرًا نسأل الله الإخلاص والقبول والتوفيق لخدمة تراث السادة الصالحين، أهل الحقيقة والشريعة. وصلّى الله على سيّدنا محمدٍ وآله وصحبه وسلّم.

كتبــه
أحمد فريد المزيدي
كلية أصول الدين جامعة الأزهر

ذكر بعض المصادر
التي ترجمت لسيدي عبد القادر
قدّس الله سرّه

١ ـ **الأنساب**، للسمعاني (٣/ ٤١٥).

٢ ـ **المنتظم**، لابن الجوزي (١٠/ ٢١٩).

٣ ـ **الكامل**، لابن الأثير (١١/ ٣٢٣).

٤ ـ **مرآة الزمان**، للشيخ اليافعي (٨/ ٩٦٤).

٥ ـ **العِبَر**، للذهبي (٤/ ١٧٥).

٦ ـ **دول الإسلام**، له (٢/ ٧٥).

٧ ـ **سِيَر أعلام النبلاء**، له (٢/ ٧٥).

٨ ـ **فوات الوفيات**، لابن شاكر (٢/ ٢٧٣).

٩ ـ **البداية والنهاية**، لابن كثير (٢/ ٢٥٢).

١٠ ـ **ذيل طبقات الحنابلة**، لابن رجب (١/ ٢٩٠، ٣١٠).

١١ ـ **النجوم الزاهرة**، لتغري بردي (٥/ ٣٧١).

١٢ ـ **الطبقات الكبرى**، للشيخ الشعراني (١/ ١٠٨).

١٣ ـ **شذرات الذهب**، لابن العماد الحنبلي (٤/ ١٩٨).

١٤ ـ **جامع الكرامات**، لحسن الكوهن (ص ٧٨، ٧٩).

١٥ ـ **الكواكب الدرية في المناقب القادرية**، لمحمد رشيد الرافعي.

١٦ ـ **بهجة الأسرار ومعدن الأنوار**، للشيخ الشطنوفي ـ بتحقيقنا.

١٧ ـ **مختصر بهجة الأسرار**، للشيخ عبد العزيز الدريني ـ مخطوط.

١٨ ـ **كنوز الأولياء ورموز الأصفياء**، لأبي الليث الزيلي (ص ٣٤، ٣٥).

١٩ ـ **الباز الأشهب**، في حياة الشيخ عبد القادر الكيلاني لآرتين آصادور بيان.

٢٠ ـ **الأعلام للزركلي**، (٤/ ٤٧).

٢١ ـ **معجم المؤلفين**، لكحالة (٢/ ٢٠٠).

٢٢ ـ **رسالة في مناقب**، الشيخ عبد القادر للحافظ بن حجر ـ طبع دار الكتب العلمية ـ بيروت.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدّمة المؤلف

الحمد لله القادر العليم، النّاظر الحليم، الجواد الكريم، الرّبّ الرّحيم، مُنَزّل الذّكر الحكيم، والقرآن العظيم، على المبعوث بالدّين القويم، والصّراط المستقيم. والصّلاة والسّلام على خاتم الرّسالة، والهادي من الضّلالة، المُشرّف المُرسَلِ بأشرف الكتب إلى العَجم والعرب، محمّد النّبيّ الأميّ العربيّ الأمين صلّى الله عليه وسلّم وعلى آله هُداة المهتدين، وأصحابه الأخيار المُنتَجَبين، وسلّم تسليمًا، وحمدًا كثيرًا كثيرًا.

وبعد:

فالعلم أشرف منقبة، وأجلُّ مرتبة، وأبهى مفخرة، وأربح مَتجَرة، إذ به يُتوصّل إلى توحيد ربّ العالمين، وتصديق أنبيائه المُرسَلين صلوات الله عليهم أجمعين.

صار العلماء خواصَّ عباد الله الّذين اجتباهم إلى معالم دينه، وهداهم إليه بمزية الفضل، فآثرهم واصطفاهم، وهم ورثة الأنبياء وخلفاؤهم، وسادة المسلمين وعرفاؤهم، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [فاطر: الآية ٣٢]. وكما قال النّبيّ ﷺ: «العُلَمَاءُ وَرَثَةُ الأنبياءِ بِالعِلم، يُحِبُّهُمْ أَهْلُ السَّمَاء، وَتَسْتَغْفِرُ لَهُمُ الحِيتَانُ في البَحْرِ إلى يَوْم القِيَامَةِ»[1]. قال صلّى الله عليه وآله وسلّم: «يَبْعَثُ اللهُ العِبَادَ يَوْمَ القِيَامَةِ ثُمّ يُمَيِّزُ العُلَمَاءَ، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: يا مَعْشَرَ العُلَمَاءِ إنّي لَمْ

---

(١) رواه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٥/ ٤٨)، وابن ماجه (١/ ٨١)، وابن حبان (١/ ٢٨٩)، والبيهقي في الشعب (٢/ ٢٦٢) والمحاملي في أماليه (١/ ٣٣٠).

أَضَعْ عِلْمِي فِيْكُمْ إِلَّا لِعِلْمِي بِكُمْ، وَلَمْ أَضَعْهُ فِيْكُم لأُعَذِّبَكُمْ، انطَلِقُوا إلى الجَنَّةِ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُم»[١].

والحمد لله ربّ العالمين على كلّ حال، الّذي جعل الجنّة الدّرجة حظًّا للعابدين، والقربة للعارفين.

أمّا بعـد:

فلمّا خلق الله روح محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم أوّلًا من نور جماله كما قال الله تعالى في الحديث القدسيّ: «خَلَقْتُ مُحَمَّدًا أوَّلًا مِنْ نُورِ وَجْهِي»[٢]. وكما قال النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: «أَوَّلُ ما خَلَقَ اللهُ رُوْحِي، وَأَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ نُورِي، وَأَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمَ، وَأَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ العَقْلَ»[٣]. والمراد منهم شيء واحد وهو الحقيقة المحمّديّة، لكن سُمّي نورًا لكونه صافيًا عن الظّلمانيّة الجلاليّة كما قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ﴾ [المائدة: الآية ١٥]. وعقلًا لكونه مدركًا للكلّيّات. وقلمًا لكونه سببًا لنقل العلم، كما أنّ القلم سبب نقل العلم في عالم الحروفات؛ فالرّوح المحمّديّ خلاصة الأكوان، وأوّل الكائنات وأصلها كما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «أَنَا مِنَ اللهِ، والمُؤْمِنُونَ مِنّي»[٤]. فخلق منه الأرواح كلّها في عالم اللاهوت في أحسن التّقويم الحقيقيّ، وهو اسم حجلة الأنس في ذلك العالم، وهو الوطن الأصليّ. فلمّا مضى عليها أربعة آلاف سنة خلق الله العرش من نور عين محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم، وبواقي الكلّيّات منه، فرُدّت الأرواح إلى درك أسفل الكائنات ـ أعني الأجساد ـ كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ۝٥﴾ [التّين: الآية ٥] ـ يعني أنزلهم أوّلًا من عالم اللاهوت إلى عالم الجبروت، وألبسهم الله تعالى بنور الجبروت كسوة بين الحرمين ـ وهو الرّوح السّلطانيّ ـ ثمّ أنزلهم بهذه الكسوة إلى عالم الملكوت، ثمّ كساهم بنور الملكوت ـ وهو الرّوح الرّوانيّ ـ ثمّ أنزلهم إلى عالم الملك وكساهم بنور الملك

---

(١) رواه الروياني في مسنده (١/٣٥٣)، والطبراني في الأوسط (٤/٣٠٢).

(٢) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وأورده ابن عراق في تنزيه الشريعة (١/٣٣٧). بلفظ: «خلقني الله من نوره».

(٣) رواه أبو داود (٤٧٠٠).

(٤) رواه الديلمي في الفردوس كما في كشف الخفاء (١/٢٣٧)، والقاري في الأسرار المرفوعة (ص ١١٩).

- وهو الرّوح الجسمانيّ - ثمّ خلق الله الأجساد كما قال الله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ...﴾ [طه: الآية ٥٥]. ثمّ أمر الله تعالى الأرواح أن تدخل في الأجساد فدخلت بأمر الله تعالى كما قال الله تعالى: ﴿...وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي...﴾ [الحجر: الآية ٢٩]. فلمّا تعلّقت الأرواح بالأجساد نسيت ما اتّخذت من عهد الله الميثاق في يوم: ﴿...أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ...﴾ [الأعراف: الآية ١٧٢] فلم ترجع إلى الوطن الأصليّ، فترحّم الرّحمن المستعان عليهم فأنزل إليهم كتابًا سماويًا، تذكرة لهم بذلك الوطن الأصليّ كما قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: الآية ٥] - أي: أيام وصاله فيما سبق مع الأرواح - فجميع الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام جاؤوا في الدّنيا وذهبوا إلى الآخرة لذلك التّنبيه، فقلّما يذكر منهم وطنه الأصليّ ويرجع ويشتاق إليه، ويصل إلى العالم الأصليّ، حتّى أفضت النّبوّة إلى الرّوح الأعظم المحمّديّ خاتم الأنبياء عليه أفضل الصّلوات وأكمل التّحيّات وعلى جميع الأنبياء والمرسلين فأرسله الله تعالى إلى هؤلاء النّاس الغافلين ليفتح عين بصيرتهم من نوم الغفلة، ويدعوهم إلى الله حالي ووصاله، ولقاء جماله كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى...﴾ [يوسف: الآية ١٠٨] والبصيرة عين الرّوح، تُفْتَحُ في مقام الفؤاد للأولياء، وذلك لا يحصل بعلم الظّاهر بل بعلم الباطن اللّدنيّ كما قال الله تعالى: ﴿...وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: الآية ٦٥] فالواجب على الإنسان تحصيل تلك العين من أهل البصائر بأخذ التّلقين من وليّ مرشد يخبر من عالم اللّاهوت.

فيا أيّها الإخوان: انتبهوا وسارعوا إلى مغفرة من ربّكم بالتّوبة فادخلوا في الطّريق، وارجعوا إلى ربّكم مع هذه القوافل الرّوحانيّة، فعن قريب ينقطع الطّريق ولا يوجد الرّفيق إلى ذلك العالم، فما جئنا بتنقية هذه الدّنيا الدّنيّة الخرابيّة ولنقنع بالمهمّات النّفسانيّة الخبيثة فنبيكم عليه الصّلاة والسّلام لأجلكم منتظر مغموم كما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «غَمّي لأَجْلِ أُمَّتِي الَّذِيْنَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ».

فالعلم المنزّل علينا علمان؛ ظاهر وباطن - يعني الشّريعة والمعرفة - فأمر بالشّريعة على ظاهرنا، وبالمعرفة على باطننا، لينتج من اجتماعهما علم الحقيقة كما قال الله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾ [الرّحمن: الآيتان ١٩، ٢٠] وإلّا فبمجرّد علم الظّاهر لا تحصل الحقيقة، ولا يصل إلى المقصود،

والعبادة الكاملة بهما، لا بواحدهما، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: الآية ٥٦] - أي: ليعرفوني - فمن لم يعرفه كيف يعبده؟.

فالمعرفة إنّما تحصل بكشف حجاب النّفس عن مرآة القلب بتصفيته؛ فيرى فيها جمال الكنز المخفيّ في سرّ لبّ القلب كما قال الله تعالى في الحديث القدسيّ: «كُنْتُ كَنْزًا مَخْفِيًّا فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُعْرَف، فَخَلَقْتُ الخَلْقَ لِكَي أُعْرَف» فلمّا بيّن الله تعالى خلق الإنسان لمعرفته وجبت عليه معرفته.

فالمعرفة نوعان: معرفة صفات الله، ومعرفة ذات الله.

فمعرفة الصّفات تكون حظّ الجسم في الدّارين، ومعرفة الذّات تكون حظّ الرّوح القدسيّ في الآخرة كما قال الله تعالى: ﴿... وَأَيَّدْنَهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ...﴾ [البقرة: الآية ٨٧] وهم مؤيدون بروح القدس.

وهاتان المعرفتان لا تحصلان إلّا بالعلمين؛ علم الظّاهر وعلم الباطن كما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «العِلْمُ عِلْمَانْ: عِلْمٌ بالِلّسان؛ وَذَلِكَ حُجَّةُ اللهِ تَعَالَى على ابنِ آدَمَ. وَعِلْمٌ بالجنَانِ؛ فَذَلِكَ العِلْمُ النَّافِعُ»[١].

والإنسان يحتاج أوّلًا إلى علم الشّريعة ليُحصّل الرّوحُ كسبَ البدن به وهو الدّرجات. ثمّ يحتاج إلى علم الباطن ليُحصّل الرّوحُ كسبَ معرفته في علم المعرفة، وذلك لا يحصل إلّا بترك الرّسومات الّتي هي مخالفة للشّريعة والطّريقة، وحصوله بقبول المشقّات النفسانيّة والرّوحانيّة لرضاء الله تعالى بلا رياء ولا سمعة كما قال الله تعالى: ﴿... فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: الآية ١١٠].

وعالم المعرفة: عالم اللّاهوت، وهو الوطن الأصليّ المذكور الّذي خُلق فيه الرّوح القدسيّ في أحسن التّقويم.

والمراد من الرّوح القدسيّ الإنسان الحقيقيّ الّذي أُودع في لبّ القلب، ويظهر وجوده بالتّوبة والتّلقين. وملازمة كلمة لا إله إلا الله بلسانه أوّلًا، وبعده بحياة القلب

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٨٢)، وفي شعب الإيمان (٢/ ٢٥٢)، وابن المبارك في الزهد (ص ٤٠٧)، وأحمد بن حنبل في الورع (ص ٢٠٠).

وبعد حياة القلب يحصل بلسان الجنان، وتسميه المتصوفة: طفل المعاني؛ لأنّه من المعنويات القدسيّة وتسميته طفلًا لِنكاتٍ:

أحدها: أنّ تولّده من القلب كتولّد الطّفل من الأمّ فيربّيه القلب كتربية الأمّ الولَد فيكبر قليلًا قليلًا إلى البلوغ.

والثّانية: أنّ تعليم العلم للأطفال غالب؛ فتعليم علم المعرفة لهذا الطّفل أيضًا غالب.

والثّالثة: أنّ الطّفل مُطَهّر من أدناس الذّنوب، فهذا أيضًا مُطَهّر من دنس الشّرك والغفلة والجسمانيّة.

والرّابعة: أنّ الأكثر في الرّوح يُرى في هذه الصّورة الصّافية للولد؛ ولذلك يُرى في المنامات على صورة المرد كالملائكة.

والخامسة: أنّ الله تعالى وصف أبناء جنّته بالطّفليّة بقوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الواقِعَة: الآية ١٧]، وبقوله تعالى: ﴿... غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الطُور: الآية ٢٤].

والسّادسة: أنّ هذا الاسم كان له باعتبار لطافته ونظافته.

والسّابعة: أنّ إطلاقه على سبيل المجاز باعتبار تعلّقه بالبدن، وتمثيله بصورة البشر بناء على أنّ إطلاقه عليه لأجل ملاحته لا لأجل استصغاره، وبالنّظر إلى بداية حاله، وهو الإنسان الحقيقيّ؛ لأنّ له أُنسيّة مع الله تعالى.

فالجسم والجسمانيّ ليس مَحْرَمًا له لقوله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «لِي مَعَ اللهِ وَقْتٌ لا يَسَعُ فِيهِ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ».

والمراد من النّبيّ المرسل بشريّة النّبيّ. ومن المَلك المقرّب روحانيّته الّتي خلقت من نور الجبروت، كما أنّ الملك من نور الجبروت فلا يدخل في نور اللّاهوت. وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «إن لله جنّة لا فيها حور ولا قصور ولا جنان ولا عسل ولا لبن»، بل يُنظر إلى وجه الله تعالى كما قال الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القِيامَة: الآيتان ٢٢، ٢٣] وكما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ»[1] ولو دخل المَلك والجسمانيّة في هذه العالم لاحترقا كما قال الله تعالى في الحديث القدسيّ:

---

(١) رواه البخاري (١/٢٠٣، ٢٠٩)، (٤/١٨٣٦)، ومسلم (١/٤٢٩).

«لو كَشَفْتُ سُبُحَاتُ وَجْهِي جَلَالِي لاحْتَرَقَ كُلُّ مَا مَدَّ بَصَرِي»، وكما قال جبرائيل عليه السّلام: «لو دنوت أُنملة لاحترقت»[1].

وهذا الكتاب على أربعة وعشرين فصلًا بعدد حروف كلمة لا إله إلّا الله محمّد رسول الله، وبعدد ساعات اللّيل والنّهار؛ لأنّ ساعاتهما أربع وعشرون ساعة.

(١) رواه أبو الشيخ في العظمة (٢/ ٦٧٧).

الفصل الأول
في بيان رجوع الإنسان إلى وطنه الأصليّ

فالإنسان على نوعين: جسمانيّ وروحانيّ.

فالجسمانيّ إنسان عامّ، والرّوحانيّ خاصّ مُحرِم إلى وطنه وهو القربة.

فرجوع الإنسان العامّ إلى وطنه هو الرّجوع إلى الدّرجات، بسبب عمل علم الشّريعة والطّريقة والمعرفة إذا عمل عملًا صالحًا بلا رياء ولا سمعة؛ لأنّ الدّرجات ثلاث طبقات.

أحدها: الجنّة في عالم المُلك، وهي جنّة المأوى.

والثّاني: الجنّة في عالم الملكوت، وهي جنّة النّعيم.

والثّالث: الجنّة في عالم الجبروت، وهي جنّة الفردوس.

وهذه نِعم الجسمانيّة، فلا يصل الجسم إلى هذه العوالم إلّا بثلاثة علوم؛ وهي علم الشّريعة وعلم الطّريقة وعلم المعرفة كما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «الحِكْمَةُ الجَامِعَةُ مَعْرِفَةُ الحَقّ، وَالعَمَلُ بِها مَعْرِفَةُ البَاطِنِ»[1]. وكما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «اللهُمّ أرِنَا الحَقّ حَقًّا وارزُقْنَا اتّبَاعَهُ، وأرِنا البَاطِلَ بَاطِلًا وارْزُقْنَا اجْتِنَابَهُ»[2]. وكما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ وَخَالَفَهَا فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ وتابعه».

ورجوع الإنسان الخاصّ ووصوله إلى وطنه وهو القربة بعلم الحقيقة، وهو التوحيد في عالم اللّاهوت في عالم خيالته في الدّنيا، بسبب عبادته سواء كان نائمًا أو

(١) أورده القاشاني في الاصطلاحات (ص ٦٣) بدون رفعه.
(٢) أورده ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٤٤).

غيره، بل إذا نام الجسد وجد القلب فرصة فيذهب إلى وطنه الأصلي إمّا بكلّيته، أو بجزئيته - كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: الآية ٤٢] ولذلك قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «نَوْمُ العَالِمِ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ الجَاهِلِ»[١] - بعد حياة القلب بنور التّوحيد، وملازمة أسماء التّوحيد بلسان السّر بغير حروف ولا صوت كما قال الله تعالى في الحديث القدسيّ: «الإِنْسَانُ سِرِّي وَأَنَا سِرُّهُ»[١]، وقال الله تعالى في الحديث القدسيّ: «إنَّ عِلمَ البَاطِنِ هُوَ سِرٌّ مِنْ سِرِّي، أَجْعَلَهُ في قَلْبِ عَبْدِي، وَلَا يَقِفُ عَلَيْه أَحَدٌ غَيْرِي»[٢].

والمراد من وجود الإنسان هو علم التّفكّر كما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «تَفَكُّرُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سَبْعِيْنَ سَنَةً». وهو علم الفرقان هو التّوحيد، وبه يصل العارف إلى معروفه ومحبوبه ونتيجة علم العارف الطّيران بالرّوحانيّة إلى عالم القربة. فالعارف طيّار إلى القربة والعابد سيّار إلى الجنّة.

قال بعضهم في حقّه: [الوافر]

قُلُوبُ العَارِفِينَ لَها عُيُونٌ تَرَى مَا لا يَرَاهُ النَّاظِرُونَ
وَأَجْنِحَةٌ تَطِيرُ بِغَيْرِ رِيشٍ إلى مَلَكُوتِ رَبِّ العَالَمِينَ

فهذا الطّيران في باطن العارف هو الإنسان الحقيقيّ، وهو حبيب الله عزّ وجلّ ومحرمه وعروسه كما قال أبو يزيد البسطاميّ رحمه الله تعالى: «أولياء الله هم عرائسه، لا يرى العرائس إلّا المحارم، فهم مخدرون عنده في حجاب الأنس، ولا يراهم أحد في الدّنيا ولا في الآخرة» غير الله تعالى كما قال الله تعالى في الحديث القدسيّ: «أَوْلِيَائِي تَحْتَ قِبَابِي لَا يَعْرِفُهُمْ غَيْرِي»[٣] ولا يرى النّاس في الظّاهر من العروس إلّا ظاهر زينتها.

قال يحيى بن معاذ الرّازيّ رحمه الله تعالى: «الوليّ ريحان الله تعالى في أرضه، يشمّه الصّدّيقون، فتصل رائحته إلى قلوبهم؛ فيشتاقون به إلى مولاهم، وتزداد عبادتهم على تفاوت أخلاقهم»، بحسب الفناء؛ لأنّ زيادة القربة بزيادة فناء الفاني.

---

(١) لم أقف عليه.
(٢) رواه الديلمي في الفردوس (٤١٠٤)، عن الإمام علي بنحوه.
(٣) رواه ابن جرير في التفسير (١٥/ ١٢٠) بنحوه.

فالوليّ هو الفاني في حاله، والباقي في مشاهدة الحقّ، ولم يكن له عن نفسه اختيار، ولا له مع أحد غير الله قرار.

والوليّ من أيّده بالكرامات، وغُيّبت عنه لأنه لا يرى الإفشاء؛ فإنّ إفشاء سرّ الرّبوبيّة كفر كما ذكر صاحب المرصاد رحمه الله تعالى: أصحاب الكرامات كلّهم محجوبون، والكرامة حيض الرّجال، فالوليّ له ألف مقام، أوله باب الكرامة من جاوز منها نال الباقي.

الفصل الثاني

في بيان ردّ الإنسان إلى أسفل السّافلين

لمّا خلق الله تعالى الرّوح القدسيّ في أحسن تقويم في عالم اللّاهوت ثم أراد أن يردّه إلى الأسفل لزيادة الأنسيّة والقربيّة كما قال تعالى: ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: الآية ٥٥] ردّه أوّلًا إلى عالم الجبروت، ومعه بِذْرُ التّوحيد فزرع من نورانيّته في ذلك العالم، وأُلبس - الرّوح القدسيّ - الكسوة من ذلك العالم، وكذا إلى عالم الملكوت، ثم إلى عالم المُلك، فخلق له منه كسوة عنصريّة كيلا يحترق به عالم المُلك - يعني هذا الجسد الكثيف - فيسمّى باعتبار الكسوة الجبروتيّة روحًا سلطانيًا، وباعتبار الملكوتيّة روحًا سيرانيًا روانيًا، وباعتبار الملكيّة روحًا جسمانيًا.

والمقصود من مجيئه إلى الأسفل كسب زيادة قربة ودرجة بواسطة القلب والقالب، فيزرع بذر التّوحيد في أرض القلب، فتنبت في أرض القلب شجرة التّوحيد أصلها ثابت في هواء السّرّ، وتثمر منه ثمرة التّوحيد لرضاء الله تعالى. وزرع بذر الشّريعة في أرض القالب لتنبت فيها شجرة الشّريعة، وتثمر منه ثمرة الدّرجة.

فأمر الله تعالى الأرواح كلّها بدخول الجسد، فقسم لكلّ واحد منها موضعًا منه.

فموضع الرّوح الجسمانيّ في الجسد ما بين اللّحم والدّم. وموضع الرّوح الرّوانيّ القلب. وموضع الرّوح السلطانيّ الفؤاد. وموضع الرّوح القدسيّ السّرّ.

فلكلّ واحد منها حانوت في بلد الوجود، وله أمتعة وربح وتجارة لن تبور. فينبغي لكلّ إنسان أن يعرف معاملته في وجوده؛ لأنّ ما يُحصّل هنا يُعلّق في عنقه كما قال الله تعالى: ﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾﴾

[العاديات: الآيتان ٩، ١٠]، وكما قال الله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ...﴾ [الإسراء: الآية ١٣].

الفصل الثّالث

في بيان حوانيت الأرواح في الأجساد

فحانوت الرّوح الجسمانيّ البدن مع الجوارح الظّاهرة، ومتاعه الشّريعة، ومعاملته العمل بالمفروضات الّتي أمر الله تعالى بها من الأحكام الظّاهرة بغير شركة كما قال الله تعالى: ﴿... وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: الآية ١١٠]، وكما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا الطَّيِّبَ»[١]. وكما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «إِنَّ اللهَ وِتْرٌ يُحِبُّ الوِتْرَ»[٢] والمراد منه العمل بلا رياء ولا سمعة.

وربحه في الدّنيا الولاية والمكاشفة والمشاهدة في عالم المُلك من تحت الثّرى إلى السّماء، ومثله الكرامة الكونيّة من المراتب الرّهبانيّة كالمشي على الماء، والطّيران في الهواء، وطيّ المكان، والسّمع من البعيد، والرّؤية في سرّ البدن، ونحو ذلك.

وأمّا ربحه في الآخرة فهو الجنّة والحور والقصور والغلمان والشّراب وسائر النّعم ومسكنه في الجنّة الأولى وهي جنة المأوى.

وحانوت الرّوح الرّوانيّ القلب، ومتاعه علم الطّريقة، ومعاملته اشتغاله بالأسماء الأربعة الأولى من أصول الأسماء الاثني عشر كما قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا...﴾ [الأعراف: الآية ١٨٠]. وهذه إشارة إلى أنّ الأسماء محل الشّغل وهو علم الباطن، والمعرفة نتيجة أسماء التّوحيد كما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ»[٣].

والمراد من الإحصاء أن يكون منعوتًا بها، ومتخلّقًا بأخلاقها، وهذه الأسماء الاثني عشر أصول أسماء الله تعالى على عدد حروف لا إله إلا الله، فحروف هذه الكلمة اثنا عشر حرفًا، فأثبت الله تعالى في أطوار القلوب لكلّ حرف اسمًا واحدًا، ولكلّ عالم ثلاثة أسماء فيثبّت الله تعالى بها قلوب المحسنين كما قال الله تعالى:

---

(١) رواه مسلم (٢/ ٧٠٣). (٢) رواه مسلم (٤/ ٢٠٦٢).

(٣) رواه البخاري (٢/ ٩٨١)، (٦/ ٢٦٩١)، ومسلم (٤/ ٢٠٦٢).

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: الآية ٢٧].

وأنزل عليهم سكينة الأنس، وأنبت فيها شجرة التّوحيد، أصلها ثابت في الأرض السّابعة، بل في تحت الثّرى، وفرعها في السّماء السّابعة، بل إلى ما فوق العرش كما قال الله تعالى: ﴿... كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: الآية ٢٤].

وربحه حياة القلب. ومشاهدته في عالم الملكوت مثل مشاهدة الجنان وأهلها وأنوارها وملائكتها، ومثل نطق الباطن بلسانه بملاحظة أسماء الباطن بلا نطق ولا حرف. ومسكنه في الآخرة الجنّة الثّانية وهي جنة النّعيم.

وحانوت الرّوح السّلطانيّ الفؤاد، ومتاعه المعرفة، ومعاملته بملازمة الأسماء الأربعة من المتوسطات بلسان الجنان كما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «العِلْمُ عِلْمَانِ: عِلْمٌ باللّسانِ؛ وَذَلِكَ حُجَّةُ الله تَعَالَى عَلَى ابْنِ آدَمَ. وَعِلْمٌ بالجِنانِ؛ فَذَلِكَ العِلْمُ النَّافِعُ»[١]؛ لأنّ أكثر منافع العلم في هذه الدّائرة. وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «إنَّ لِلقُرْآنِ ظَهْرًا وَبَطْنًا، وَلِبَطْنِهِ بَطْنًا، إلَى سَبْعَةِ أبْطُنٍ»[٢]، وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «إنَّ الله أَنْزَلَ القُرْآنَ عَلَى عَشَرَة أبطن»[٣]. فكلّ ما هو أبطن فهو أنفع وأربح لأنّه مِفَنٌّ».

وهذه الأسماء بمنزلة اثنتي عشرة عينًا انفجرت من ضربِ بعصا موسى عليه الصّلاة والسّلام كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ...﴾ [البقرة: الآية ٦٠].

فعلم الظّاهر كالماء المُطَهِّريّ العارضيّ. وعلم الباطن كالماء العينيّ الأصليّ، وهو الأنفع من الأوّل ولا ينقطع كما قال الله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ﴾ [يس: الآية ٣٣].

---

(١) رواه الدارمي (١/ ١١٤)، والربيع في مسنده (١/ ٣٦٥)، وابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٨٢).

(٢) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وروى ابن حبان نحوه في صحيحه (١/ ٢٧٦)، وعبد الرزاق في المصنف (٣/ ٣٥٨)، والبزار في مسنده (٥/ ٤٢)، وأبو يعلى في مسنده (٩/ ٢٧٨)، والطبراني في الكبير (١٠/ ١٠٥)، وفي الأوسط (١/ ٢٣٦).

(٣) انظر: الذي قبله.

أخرج الله تعالى من الأرض الآفاق حبًا هو قوت الحيوانات النفسانيّة، وأخرج من الأرض الأنفسيّة حبًا وهو قوت الأرواح الرّوحانيّة كما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «مَنْ أَخْلَصَ لله تَعَالَى أَرْبَعِينَ صَبَاحًا ظَهَرَتْ يَنَابِيعُ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ على لِسَانِهِ»[١].

وأمّا ربحه فرؤية عكس جمال الله تعالى كما قال الله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [النّجم: الآية ١١]، وكما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «المُؤْمِنُ مِرْآةُ المُؤْمِنِ»[٢]. والمراد من المؤمن الأوّل قلب العبد المؤمن. ومن الثّاني هو الله ﴿. . . ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ. . .﴾ [الحشر: الآية ٢٣]، قال صاحب المرصاد رحمه الله تعالى: ومسكن هذه الطّائفة في الجنّة الثّالثة وهي جنة الفردوس.

وحانوت الرّوح القدسيّ في السّرّ كما قال الله تعالى في الحديث القدسيّ: «الإنْسَانُ سِرِّي وَأَنَا سِرُّه»[٣]. ومتاعه علم الحقيقة: وهو علم التّوحيد. ومعاملته ملازمة أسماء التّوحيد، وهي الأربعة الأخيرة بلسان السّرّ في السّرّ بلا نطق كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾﴾ [طه: الآية ٧] ولا يطّلع عليه غير الله تعالى.

وأمّا ربحه فظهور طفل المعاني ومشاهدته ومعاينته، ونظره إلى وجه الله تعالى جلالًا وجمالًا بعين السّرّ كما قال الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: الآيتان ٢٢، ٢٣] بلا كيف ولا كيفيّة ولا تشبيه كما قال الله تعالى: ﴿. . . لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية ١١].

فلما بلغ الإنسان إلى مقصوده انحسرت العقول، وتحيّرت القلوب، وكلّت الألسن، ولم يستطع أن يخبر عن ذلك؛ لأنّ الله تعالى منزّه عن المثال، فإذا بلغ مثل الأخبار إلى العلماء فينبغي لهم أن يفهموا مقامات القلوب، ويرغبوا حقائقها،

---

(١) رواه أحمد في المسند (٥/ ١٤٧)، وابن المبارك في الزهد (ص ٣٥٩)، والطبراني في الشاميين (٢/ ١٧٧)، والقضاعي في الشهاب (١/ ٢٨٥)، وبنحوه.

(٢) رواه البيهقي في الكبرى (٨/ ١٦٧)، وأبو داود (٤/ ٢٨٠)، والطبراني في الأوسط (٢/ ٣٢٥)، والقضاعي (١/ ١٠٥)، والضياء (٦/ ١٧٩).

(٣) لم أقف عليه.

ويتوجهوا إلى أعلى العلّيّين ويجتهدوا إلى أن يصلوا إلى مقام علم الله اللّدنيّ وهو معرفة الذّات الأحديّ من غير أن يتعرّضوا وينكروا هذا المقام الّذي ذكرناه.

الفصل الرابع

في بيان عدد العلوم

فالعلم الظّاهر له اثنا عشر فنًّا، وكذا علم الباطن، له اثنا عشر فنًّا، فقسّم بين العوام والخواصّ وأخصّ الخواصّ على قدر الاستعداد.

فالعلوم منحصرة في أربعة أنواع:

الأوّل: ظاهِر الشّريعة من الأمر والنّهي وسائر الأحكام.

والثّاني: باطنها ـ الشّريعة ـ ويسمّى علم الطّريقة.

والثّالث: باطن الطّريقة ويسمّى علم المعرفة.

والرّابع: بطن البواطن ويسمّى علم الحقيقة.

ولا بدّ من حصولها كلّها كما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «الشّريعة شجرة، والطّريقة أغصانها، والمعرفة أوراقها، والحقيقة أثمارها، والقرآن جامعٌ بجميعها بالدلالة والإشارة تفسيرًا وتأويلًا».

قال صاحب المجمع رحمه الله تعالى: التّفسير للعوام، والتّأويل للخواصّ؛ لأنّهم العلماء الرّاسخون، لأنّ معنى الرّسوخ الثّبات والاستقرار والاستحكام في العلم، كشجرة النّخل أصلها ثابت في الأرض، وفرعها في السّماء، وهذا الرّسوخ نتيجة الكلمة الطّيبة المزروعة في لبّ القلب بعد التّصفية، وقد عطف قوله تعالى: ﴿... وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ...﴾ [آل عِمرَان: الآية ٧]، على قوله تعالى: ﴿... إِلَّا ٱللَّهُ ...﴾ [البَقَرَة: الآية ٨٣] على أحد الأقوال.

قال صاحب التّفسير الكبير رضي الله عنه[١]: لو فُتح هذا الباب لانفتحت أبواب البواطن.

ثمّ العبد مأمور بقيام الأمر والنّهي، ومخالفة النّفس في كلّ دائرة من هذه الدّوائر الأربع.

(١) انظره في (٧/١٦٦، ١٧٨) للفخر الرازي.

فالنّفس توسوس في دائرة الشّريعة من المخالفات، وفي دائرة الطّريقة من الموافقات تلبيسًا كدعوى النّبوة والولاية، وفي دائرة المعرفة من الشّرك الخفيّ من النّورانيّات كدعوى الرّبوبيّة كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ...﴾ [الجاثية: الآية ٢٣].

وأمّا دائرة الحقيقة فلا مدخل فيها للشّيطان والنّفس ولا الملائكة، لأنّ غير الله تعالى يحترق فيها كما قال جبرائيل عليه السّلام: «لو دنوت أُنملة لاحترقت»[١]، فيخلص العبد عندئذٍ من الخصمان النّفس والشّيطان، فيكون مخلصًا كما قال الله تعالى: ﴿...فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: الآيتان ٨٢، ٨٣] ومن لم يصل إلى الحقيقة لم يكن مخلصًا؛ لأنّ الصّفات البشريّة لا تفنى إلّا بتجلّي الذّات، ولا ترتفع الجهوليّة إلّا بمعرفة الذّات سبحانه وتعالى، فيعلّمه الله بلا واسطة من لدنه علمًا لدنيًا فيعرفه بتعريفه، ويعبده بتعليمه كالخضر عليه السّلام. وهناك يشاهد الأرواح القدسيّة، ويعرف نبيّه محمّدًا صلّى الله عليه وآله وسلّم، فتنطبق نهايته إلى بدايته، والأنبياء يبشّرونه بالوصال الأبديّ كما قال الله تعالى: ﴿...وَحَسُنَ أُولَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النّساء: الآية ٦٩].

فمن لم يصل بهذا العلم لم يكن عالمًا في الحقيقة ولو قرأ ألف ألف من الكتب بحيث لا يبلغ إلى الرّوحانيّة[٢].

فعمل الجسمانيّة بظاهر العلوم جزاؤه الجنّة فقط، وتجلّي عكس الصّفات بثمّة، فالعالِم لا يدخل بمجرّد علم الظّاهر إلى حرم القدس والقربة؛ لأنّه عالَم الطّيران، والطّير لا يطير إلّا بجناحيه، فالعبد الّذي يعلم العلمين: الظّاهر والباطن يصل إلى ذلك العالَم كما قال الله تعالى في الحديث القدسيّ: «يا عَبْدِي إذَا أَرَدْتَ أَنْ تَدْخُلَ حَرَمِي فَلَا تَلْتَفِتْ إلَى المُلْكِ والمَلَكُوْتِ والجَبَرُوتِ، لأنّ المُلْكَ شَيْطَانُ العَالِمْ، والمَلَكُوتُ شَيْطَانُ العَارِف، والجَبَرُوتُ شَيْطَانُ الوَاقِفِ، مَنْ رَضِيَ بِأَحَدٍ مِنْهَا فَهُوَ مَطْرُودٌ عِنْدِي»[٣]. والمراد منه مطرود القربة لا مطرود الدّرجات، وهم يطلبون القربة ولا يصلون إليها؛ لأنهم طمعوا غير مطمع، لأنّ لهم جناحًا واحدًا، ولأنّ لأهل القربة

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) انظر: إتحاف السادة المتقين للمرتضى الزبيدي (١٠/ ٤٤).
(٣) لم أقف عليه.

الكاملة فيها: «مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»[1]. وهي جنّة القربة لا فيها حور ولا قصور ولا عسل ولا لبن.

وينبغي للإنسان أن يعرف مقداره، ولا يدّعي لنفسه ما ليس بحقّ له.

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه: (رحم الله امرئ عرف قدره، ولم يتعدّ طوره، ويحفظ لسانه، ولم يضع عمره).

وينبغي للعالِم أن يُحَصِّلَ معنى حقيقة الإنسان المسمّى بطفل المعاني، ويربّيه بملازمة أسماء التوحيد، ويخرج من عالم الجسمانيّة إلى عالم الرّوحانيّة، وهو عالم السّرّ ليس فيه غير الله ديّار، وهو كمثل صحراء من نور لا نهاية له. وطفل المعاني يطير فيها، ويرى العجائب والغرائب فيها، لكن لا يمكن الإخبار عنها، وهي مقام الموحّدين الّذين فَنَوْا من تعيينهم في عين الوحدة، فليس لهم في السّرّ إلّا رؤية نور جمال الله تعالى كما لا يرى إلا الله نفسه، فإذا امتلأت الشّمس فيه، فلا جَرَمَ أنّ الإنسان لا يرى نفسه بمقابلة جمال الله تعالى لغلبة الحيرة والمحويّة في نفسه، وقال الشيخ زين الدين عطاء رحمه الله: كما قال عيسى ابن مريم عليه الصّلاة والسّلام: (لن يلج الإنسان إلى ملكوت السّمٰوات حتّى يولد مرّتين كما يولد الطّير مرّتين). والمراد منه تولّد الطّفل المعنويّ الرّوحانيّ من حقيقة قابلية الإنسان، وهو سرّه، يظهر وجوده وعلومه من اجتماعُ نور علم الشّريعة والحقيقة؛ لأنّ الولد لا يحصل إلّا من اجتماع نطفتين من الرّجل والمرأة كما قال الله تعالى: ﴿... إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ...﴾ [الإنسان: الآية ٢].

وبعد ظهور هذا المعنى يحصل العبور من بحور الخلق إلى قعور الأمر، بل كلّ العالَم في جنب عالم الرّوح كقطرة ماء من بحر. وبعد ذلك تُفاض العلوم الرّوحانيّة واللّدنيّة بلا حرف ولا صوت.

الفصل الخامس

في بيان التوبة والتلقين

اعلم أنّ المراتب المذكورة لا تحصل إلّا بالتّوبة النّصوح وبالتّلقين من أهله كما قال الله تعالى: ﴿... وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ...﴾ [الفتح: الآية ٢٦]. - أي: كلمة

(١) رواه البخاري (٣/ ١١٨٥)، ومسلم (٤/ ١١٧٤)، وأحمد في المسند (٢/ ٣١٣، ٣٦٩، ٤٠٧، ٤١٦، ٤٣٨).

لا إلٰه إلّا الله ـ بشرط أخذه من قلب تقيّ نقيّ ممّا سوى الله، لا كلّ كلمة تسمع من أفواه العامّة، وإن كان اللّفظ واحدًا ولكن المعنى متفاوت، لأنّ القلب إنّما يحيىٰ إذا أخذ بِذَر التّوحيد من قلب حيّ، فيكون بَذْرًا كاملًا، والبَذْرُ غير البالغ لا ينبت، ولذلك بَذّرَ كلمة التّوحيد في القرآن العظيم في موضعين.

أحدهما: مقارن بالقول الظّاهريّ كما قال الله تعالى: ﴿... إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ...﴾ [الصّافات: الآية ٣٥]، فهذا في حقّ العوام.

والثّاني: مقرون بالعلم الحقيقيّ كما قال الله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمّد: الآية ١٩]. فهذا التّلقين بسبب نزول هذه الآية لأجل التّلقين للخواصّ كما قال في بستان الشّريعة: (أوّل من تمنى أقرب الطّريق وأفضلها وأسهلها من النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه) فانتظر النّبيُّ صلّى الله عليه وآله وسلّم فنزل جبرائيل عليه السّلام على النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ولقّن هذه الكلمة ثلاث مرات، ثمّ قال النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم كما قال جبرائيل ثمّ لقّن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم عليًا رضي الله عنه، ثمّ جاء إلى أصحابه فلقّنهم جميعًا، فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «رَجَعْنَا مِنَ الجِهَادِ الأَصْغَرِ إِلَى الجِهَادِ الأَكْبَرِ»[1]، والمراد من الجهاد الأكبر جهاد النّفس كما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «أَعْدَى أَعْدَائِك نَفْسُكَ الّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ»[2]. فلا تحصل محبّة الله تعالى إلّا بعد قهر الأعداء في وجودك من النّفس الأمّارة واللّوامة والملهمة، فتطهّر من الأخلاق الذّميمة البهيميّة، كمحبّة زيادة الأكل والشّرب والنّوم، واللّغو والسّبعيّة كالغضب والشّتم والضّرب والقهر، والشّيطانيّة كالكبر والعُجب والحسد والحقد وغير ذلك من الآفات البدنيّة والقلبيّة. وإذا تطهّرت منها فقد تطهّرت من أصل الذّنوب، فأنت من المتطهّرين والتّوابين كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: الآية ٢٢٢]. فمن تاب عن مجرّد ظاهر الذّنب لا يدخل في هذه الآية، وإن كان تائبًا، لكن ليس بتوّاب. فإنّه لفظ المبالغة، والمراد منه توبة الخواصّ.

(١) رواه البيهقي في الزهد الكبير (٣٧٣)، والخطيب في تاريخ بغداد (١٣/ ٤٩٣).
(٢) رواه البيهقي في الزهد الكبير (٣٤٣)، وأورده العجلوني في كشف الخفاء (١/ ١٦٠).

مثال من يتوب عن مجرّد الذّنوب الظّاهرة كمن يقطع حشيش الزّرع من فرعه ولا يشتغل بقلعه من أصوله، فينبت ثانيًا لا محالة، بل أكثر ممّا ينبت أوّلًا.

ومثال التوّاب من الذّنوب والأخلاق الذّميمة كمن يقطعه من أصوله، فلا جَرَمَ أنّه لا ينبت بعده إلّا نادرًا.

فالتّلقين آلة قطع ما سوى الله تعالى من قلب المتلقن؛ لأنّ من لم يقطع الشّجر المرّ لا يصل إلى الشّجر الحلو موضعه، فاعتبر، فافهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ...﴾ [الشورى: الآية ٢٥]، وكما قال الله تعالى ﴿...مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ...﴾ [الفرقان: الآية ٧٠].

فالتّوبة على نوعين: توبة العامّ، وتوبة الخاصّ.

فتوبة العامّ: أن يرجع من المعصية إلى الطّاعة، ومن الذّميمة إلى الحميدة، ومن الجحيم إلى الجنّة، ومن راحة البدن إلى مشقّة النّفس بالذّكر والجهد والسّعي القويّ.

وتوبة الخاصّ: أن يرجع بعد حصول هذه التّوبة من الحسنات إلى المعارف، ومن المعارف إلى الدّرجات، ومن الدّرجات إلى القربة، ومن القربة واللّذّات النّفسانيّة إلى اللّذّات الرّوحانيّة، وهو ترك ما سوى الله تعالى والأُنس به، والنّظر إليه بعين اليقين.

وهؤلاء المذكورات من كسب الوجود، وكسب الوجود ذنب كما قيل: وجودك ذنب لا يقاس به ذنب آخر كما قالوا: «حسنات الأبرار سيئات المقرّبين، وسيّئات المقرّبين حسنات الأبرار»[1]. ولذلك كان النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم يستغفر كلّ يوم مئة مرّة كما قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر: الآية ٥٥؛ ومحمد: الآية ١٩] ـ أي: لذنب وجودك ـ وهذا هو الإنابة؛ فإنّ الإنابة الرّجوع عن كلّ ما سوى الله إليه، والدّخول في سلّم القربة في الآخرة، والنّظر إلى وجه الله تعالى كما قال صلّى الله عليه وآله وسلّم: «إنَّ لله عِبَادًا أَبْدَانُهُمْ في الدُّنْيَا وَقُلُوبُهُمْ تَحْتَ العَرْشِ»[2]. فإنّ رؤية الله لا تحصل في الدّنيا، بل تحصل رؤية صفات الله تعالى

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٤٢٨).
(٢) لم أقف عليه.

في مرآة القلب كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: رأى قلبي ربّي - أي: بنور ربّي. فالقلب مرآةٌ لعكس جمال الله تعالى.

وهذه المشاهدة لا تحصل إلّا بتلقين شيخ واصل مقبول من السّابقين، ثمّ ردّ إلى تكميل النّاقصين بأمر الله تعالى، وبواسطة نبيّه صلّى الله عليه وآله وسلّم.

فإنّ الأولياء للخواصّ مُرسَلون لا للعوام، فرقًا بين النّبيّ والوليّ؛ فإن النّبيّ يُرسَل إلى العلوم والخواصّ جميعًا مستقلّاً بنفسه والوليّ المرشد يُرسَل للخواصّ فقط غير مستقل بنفسه؛ فإنّه لا سَعة إلّا بمتابعة النّبيّ، حتّى لو ادّعى الاستقلال كفر، وإنّما شبّه النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم علماء أُمّته بأنبياء بني إسرائيل لأنّهم كانوا متابعين لشريعة المُرْسَلْ وهو موسى عليه الصّلاة والسّلام، لكنّ علماؤهم كانوا يجدّدونها، ويؤكدون أحكامها من غير إتيانٍ بشريعة أخرى، فكذا علماء هذه الأمّة من الأولياء، يرسلون للخواصّ لتجديد الأمر والنّهي واستحكام العمل على التأكيد الأبلغ، وتصفية أهل الشّريعة. وهي في القلب موضع المعرفة، وهم يخبرون بعلم النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم كأصحاب الصّفّة كانوا ينطقون بأسرار المعراج قبل عروج النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم فالوليّ كامل الولاية المحمّديّة الّتي هي جزء النّبوّة، وباطنه أمانة عنده، وليس المراد منه من ترسّم بظاهر العلم؛ لأنّه وإن كان من الورثة النّبويّة لكن هو من قبيل ذوي الأرحام، فالوارث الكامل من يكون بمنزلة الابن لأنه من أقرب العصبات، فالولد سرّ الأب ظاهرًا وباطنًا، ولذلك قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «إنَّ مِنَ العِلْمِ كَهَيْئَةِ المَكْنُوْنِ لَا يَعْلَمُهُ إلّا العُلَمَاءُ بِالله تَعَالَى، فَإذَا نَطَقُوْا بِهِ لَمْ يُنْكِرْهُ إلّا أَهْلُ الغِرَّةِ»[1]. وهذا هو السّرّ الّذي استُودع في قلب النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ليلة المعراج في أبطن البطون الثّلاثين ألفًا، لم يفشها على أحدٍ من العامّة سوى أصحابه المقرّبين وأصحاب الصّفّة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ونفعنا الله ببركاتهم وأفاض علينا من برّهم وإحسانهم آمين يا رب العالمين آمين وببركة ذلك السّرّ قيام الشّريعة المطهرة إلى يوم القيامة.

فالعلم الباطن يهدي إلى ذلك السّرّ، وكلّ العلوم والمعارف كلّها قشر ذلك السّرّ، وأمّا العلماء الظّاهرة منهم ورثة السّرّ، بعضهم بمنزلة صاحب الفروض،

(١) رواه الديلمي في مسند الفردوس (١/ ٢١٠)، وأورده المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٥٨) وعزاه للسلمي في الأربعين في التصوف.

وبعضهم بمنزلة العصبات، وبعضهم بمنزلة ذوي الأرحام موكّلون على قشور العلم بالدّعوة إلى سبيل الله تعالى بالموعظة الحسنة، والمشايخ السنيّة المتسلسلة سلسلتهم إلى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه موكّلون بمغزى العلم على باب العلوم بالدّعوة إلى الله تعالى بالحكمة كما قال الله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ...﴾ [النحل: الآية ١٢٥] وقولهم في الأصل واحد، وفي الفرع مختلف، وهذه المعاني الثّلاثة في الآية كانت مجموعة في ذات النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم، فلم يُعْطَ أحد بعده جملة ذلك، فقُسّم على ثلاثة أقسام.

القسم الأوّل: وهو لبّها: وهو علم الحال، أعطي للرّجال، وهمّة الرّجال به كما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «هِمَّةُ الرِّجَالِ تَقْلَعُ الجِبَالَ»[(١)]. والمراد من الجبال قساوة القلب يمحو بدعائهم وتضرعهم كما قال الله تعالى: ﴿...وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا...﴾ [البقرة: الآية ٢٦٩].

والقسم الثّاني: قشر ذلك اللّبّ: أُعطي للعلماء الظّاهرة، وهو الموعظة الحسنة، والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر كما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «العَالِمُ يَعِظُ بِالعِلْمِ والأدَبِ، والجَاهِلُ يَعِظُ بالضَّرْبِ والغَضَبِ»[(٢)].

والقسم الثّالث: وهو قشر القشر؛ أُعطي للأمراء، وهو العدل الظّاهريّ والسّياسة المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: الآية ١٢٥] فلهم مظاهر القهر، وسبب صيانة نظام الدّين كالقشر الأخضر من الجوز، ومقام العلماء الظّاهر كالقشر الأحمر الشّديد، ومقام الفقراء من المتصوّفين العارفين هو المغزى المقصود من خلف الشّجر وهو اللّبّ؛ ولذلك قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «عَلَيْكُمْ بِمُجَالَسَةِ العُلَماءِ، واسْتِمَاعِ كَلَامِ الحُكَمَاءِ، فإنَّ الله تَعَالَى يُحْيِي القَلْبَ المَيِّتَ بِنُورِ الحِكْمَةِ. كَمَا يُحْيِي الأَرْضَ المَيْتَةَ بِمَاءِ المَطَرِ»[(٣)] وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «كَلِمَةُ الحِكْمَةِ ضَالَّةُ الحَكِيْمِ أَخَذَهَا

---

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٤٤) وقال: لم أقف عليه أنه حديث، لكن نقل بعضهم عن الشيخ أحمد الغزالي: «همة الرجال تقلع الجبال».

(٢) لم أقف عليه.

(٣) رواه الطبراني في الكبير (٨/ ١٩٩)، وأبو نعيم في الحلية (٨/ ٧٢)، وأورده المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٦٣).

حَيْثُ وَجَدَهَا»(١). والكلمة الّتي في أفواه العوام نزلت من اللّوح المحفوظ وهو عالم الجبروت من الدّرجات، والكلمة الّتي في أفواه الرّجال الواصلين نزلت في اللّوح الأكبر بلسان القدس بلا واسطة في القربة، فكلّ شيء يرجع إلى أصله، ولذلك طلب أهل التّلقين فرض بحياة القلب كما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «طَلَبُ العِلْمِ فَرِيْضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ»(٢). والمراد منه علم المعرفة والقربة والبواقي من العلوم الظّاهرة لا يحتاج إليها إلّا ما يؤدّي بها الفرائض كما قال الإمام الغزالي رحمة الله عليه: [الوافر]

حَـيـاةُ الـقَـلْبِ عِـلْمٌ فـادَّخِـرْهُ ... وَمَوْتُ القَلْبِ جَهْلٌ فَاجتَنِبْهُ
وَخَـيـرُ مُـرَادِكَ الـتَّـقْـوى فَـزِدْهُ ... كَـفَـاكَ بِما وَعَـظْـتُـكَ فـاتَّـعِـظْهُ

كما قال الله تعالى: ﴿... وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ...﴾ [البقرة: الآية ١٩٧] فرضاء الله تعالى أن يجاوز عبيده إلى القربة، ولا يلتفت إلى الدّرجات كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...﴾ [البقرة: الآية ٢٧٧] وكما قال الله تعالى: ﴿... قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ...﴾ [الشورى: الآية ٢٣]، والمراد منه عالم القربة في أحد الأقاويل.

الفصل السادس

في بيان أهل التصوّف

ولم يسمّ أهل التّصوّف إلّا لتصفية باطنهم بنور المعرفة والتّوحيد، أو لأنّهم انتسبوا لأصحاب الصّفّة، أو للبسهم الصّوف؛ للمبتدىء صوف الغنم، وللمتوسّط صوف المعز، وللمنتهي صوف المعز، وهو الصوف المربّع. وكذا حالهم في الباطن على حسب مراتب أحوالهم. وكذا لطيبات الأطعمة. قال صاحب تفسير المجمع: يليق بأهل الزّهد كلّ خشن من الملبس والمطعم والمشرب، ويليق بأهل المعرفة كلّ ليّن منها؛ فإنّ إنزال النّاس من منازلهم من السّنّة؛ كي لا يتعدّى أحد طوره، أو لأنّهم في الصّفّ الأوّل في الحضرة الأحديّة.

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٨٧) والقضاعي في الشهاب (١/ ٦٥) بنحوه.

(٢) رواه ابن ماجه (٢٢٤)، وأبو يعلى في مسنده (١/ ٢٥٧)، وابن جميع في معجمه (ص ١٧٧)، والبزار في مسنده (١/ ١٧٢)، والطبراني في الأوسط (٢/ ٢٩٧)، (٣/ ٥٧)، (٤/ ٢٤٥)، (٦/ ٩٦)، (٨/ ١٩٥).

فلفظ التّصوّف أربعة أحرف: التّاء والصّاد والواو والفاء.

فالتّاء: من التّوبة، وهي على وجهين: توبة الظّاهر، وتوبة الباطن.

فتوبة الظّاهر: أن يرجع بجميع أعضائه الظّاهرة من الذّنوب والذّمائم إلى الطّاعات، ومن المخالفات إلى الموافقات قولًا وفعلًا.

وتوبة الباطن: أن يرجع بجميع أطوار الباطن عن المخالفات الباطنة إلى الموافقات بتصفية القلب، وإذا حصل تبديل الذّميمة إلى الحميدة فقد تمّ مقام التّاء، ويسمونه تائبًا.

والصّاد: من الصّفاء، وهو على نوعين: صفاء القلب، وصفاء السّرّ.

فصفاء القلب: أن يصفّي قلبه من الكدرات البشريّة، مثل العلاقات الّتي تحصل في القلب من كثرة الأكل والشّرب من الحلال، وكثرة الكلام، وكثرة النّوم، وكثرة الملاحظات الدّنيويّة، مثل حبّ زيادة الكسب، وزيادة الجماع، وزيادة محبّة الأولاد وأهله ونحو ذلك من المناهي النّفسانيّة.

وتصفية القلب من هذه الكدرات لا تحصل إلّا بملازمة ذكر الله تعالى بالتّلقين جهرًا في الابتداء إلى أن يبلغ مقام الحقيقة كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ...﴾ [الأنفال: الآية ٢] - أي: خشيت قلوبهم - والخشية لا تكون إلّا بعد انتباه القلب من نوم الغفلة وتصقيله، فينقش فيه صور الغيب من الخير والشّر كما ورد: (العالم ينقش والعارف يصقل).

وصفاء السّرّ: الاجتناب عن ملاحظة ما سوى الله تعالى ومحبته بملازمة أسماء التّوحيد بلسان سرّه. وإذا حصلت هذه التّصفية فقد تمّ مقام الصّاد.

والواو: من الولاية، تترتب على التّصفية كما قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس: الآية ٦٢] ونتيجة الولاية أن يتخلّق بأخلاق الله تعالى كما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «تَخَلَّقُوا بِأَخْلَاقِ اللهِ» - أي: اتّصفوا بصفات الله تعالى، فتُلبَسُ خِلَعَ صفات الله بعد خَلْعِ الصّفات البشريّة كما قال الله تعالى في الحديث القدسيّ: «إِذَا أَحْبَبْتُ عَبْدًا كُنْتُ لَهُ سَمْعًا وَبَصَرًا وَيَدًا وَلِسَانًا، فَبِي يَسْمَعُ وَبِي يُبْصِرُ وَبِي يَبْطِشُ وَبِي يَنْطِقُ وَبِي يَمْشِي» فتهذبوا ممّا سوى الله تعالى كما قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ...﴾ [الإسراء: الآية ٨١] فحصل مقام الواو.

والفناء: وهو الفناء في الله ـ يعني عن غير الله تعالى ـ إذا فنيت الصّفات البشرية بقيت الصّفات الأحديّة وهي لا تفنى ولا تبغي ولا تزول فبقي العبد الفاني مع الرّبّ الباقي ومرضاته، وبقي قلب الفاني مع سرّ الباقي ونظره كما قال الله تعالى: ﴿... كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ...﴾ [القَصَص: الآية ٨٨] يحتمل أن يؤوّل بالرّضاء ـ أي: إلى ما يوجّه إليه من الأعمال الصّالحة لوجهه ورضائه، فيبقى المرضيّ مع الرّاضي.

ونتيجة العمل الصّالح حياة حقيقة الإنسان المسمّى بطفل المعاني كما قال الله تعالى: ﴿... إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ...﴾ [فاطر: الآية ١٠]. فكلّ عمل يكون لغير الله تعالى فيه شركة فهو هالك لعامله، فإذا تمّ الفناء فيه حصل البقاء في عالم القربة كما قال الله تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: الآية ٥٥] وهو مقام الأنبياء والأولياء في عالم اللّاهوت كما قال الله تعالى: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: الآية ١١٩].

فالحادث إذا اقترن بالقديم لم يبق له وجود كما قيل بيت: [الوافر]

صِفَاتُ الذَّاتِ والأَفْعَالِ طُرًّا قَدِيمَاتٌ مَصُونَاتُ الزَّوَالِ

فإذا تمّ الفناء بقي الصّوفي مع الحقّ أبدًا كما قال الله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٨٢].

الفصل السابع
في بيـــان الأذكــار

فقد هدى الله الذّاكرين بقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٩٨] إلى مراتب ذكركم، وقال النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: «أَفْضَلُ مَا أَقُولُ أَنَا وَمَا قَالَهُ النَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي لا إِلَهَ إِلَّا الله»(١).

فلكلّ مقام مرتبة خاصّة، إمّا جهرًا أو خفية، فالأول هداهم إلى ذكر اللّسان، ثمّ إلى ذكر النّفس، ثمّ إلى ذكر القلب، ثمّ إلى ذكر الرّوح، ثمّ إلى ذكر السّرّ، ثمّ إلى ذكر الخفيّ، ثم إلى ذكر أخفى الخفيّ.

فأمّا ذكر اللّسان: فكأنه بذلك يذكّر القلب ما نسيَ من ذكر الله تعالى.

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٨٥) ومالك في الموطأ (٣٢) بنحوه.

وأمّا ذكر النّفس: فهو ذكر غير مسموع بالحروف والصّوت، بل مسموع بالحسّ والحركة في الباطن.

وأمّا ذكر القلب: فهو ملاحظة القلب ما في ضميره من الجلال والجمال.

وأمّا نتيجة ذكر الرّوح: فهو مشاهدة أنوار تجلّيات الصّفات.

وأمّا ذكر السّرّ: فهو مراقبة مكاشفة الأسرار الإلـٰهية.

وأمّا ذكر الخفيّ: فهو معاقبة أنوار جمال الذّات الأحديّة في مقعد صدق.

وأمّا ذكر أخفى الخفيّ: فهو النّظر إلى حقيقة الحقّ اليقين، ولا يطّلع عليه غير الله تعالى. كما قال الله تعالى: ﴿...فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: الآية ٧] وذلك أبلغ كلّ عوالم، وأنهى كلّ مقاصد.

اعلم أن ثمّة روحًا آخر، وهو ألطف من الأرواح كلّها: وهو طفل المعاني، وهو لطيفه داعية بهذه الأطوار إلى الله تعالى. وقالوا: هذه الرّوح لا تكون لكلّ واحد بل هي للخواصّ كما قال الله تعالى: ﴿...يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ...﴾ [غافر: الآية ١٥] وهذه الرّوح مُلازِمَةُ عالم القدرة، ومشاهدة عالم الحقيقة لا تلتفت إلى غير الله تعالى قطّ كما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «الدُّنْيَا حَرَامٌ عَلَى أَهْلِ الآخِرَةِ، والآخِرَةُ حَرَامٌ عَلَى أَهْلِ الدُّنيا، وَهُمَا حَرَامَانِ عَلَى أَهْلِ اللهِ»(١).

وطريق الوصول إلى الله تعالى متابعة الجسم على الصّراط المستقيم بأحكام الشّريعة ليلًا ونهارًا، ودوام ذكر الله تعالى فرض قائم على الطّالبين كما قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ...﴾ [آل عمران: الآية ١٩١]. والمراد من القيام النّهار، ومن القعود اللّيل، ومن الجنوب، والقبض، والبسط، والصّحة، والسّقامة، والغنى والفقر، والعزّ والخلد، وما أشبه ذلك.

الفصل الثّامن

في بيان شرائط الذّكر

وهو أن يكون الذّاكر على وضوء تامّ، وأن يذكر بضرب شديد وصوت قويّ حتّى يحصل أنوار الذّكر في بواطن الذّاكرين، وتصير قلوبهم أحياء بهذه الأنوار،

---

(١) رواه الديلمي في الفردوس (٣١١٠) بنحوه.

حياة أبديّة أخرويّة كما قال الله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان: الآية ٥٦] وكما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «الأَنْبِيَاءُ والأَوْلِيَاءُ يُصَلُّونَ فِي قُبُورِهِم كَمَا يُصَلُّونَ في بُيُوتِهِمْ»[(١)] - يعني: يناجون ربّهم أبدًا - وليس معناه ظاهر الصّلاة من القيام والرّكوع والسّجود والقعود بل مجرّد المناجاة من قبل العبد، والهديّة المعرفة من قِبَل الحقّ، فيكون العارف مُحرمًا إلى الله تعالى بزيادة المناجاة في قبره كما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «المُصَلِّي يُنَاجِي رَبَّهُ»[(٢)] فكما لا ينام القلب الحيّ فكذلك لا يموت وكما قال النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: «تَنَامُ عَيْنِي وَلَا يَنَامُ قَلْبِي»[(٣)] وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «مَنْ مَاتَ في طَلَبِ العِلْمِ بَعَثَ اللهُ في قَبْرِهِ مَلَكَيْنِ يُعَلِّمَانِهِ علْمَ المَعْرِفَةِ، وَقَامَ مِنْ قَبْرِهِ عَالِمًا وَعَارِفًا»[(٤)] والمراد من الملكين روحانيّة النّبيّ والوليّ؛ لأنّ المَلَكَ لا يدخل في عالم المعرفة ولا يعلّمانه وقال النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: «كَمْ مِنْ رَجُلٍ مَاتَ جَاهِلًا وَقَامَ يَوْمَ القِيَامَةِ عَالِمًا وَعَارِفًا. وَكَمْ مِنْ رَجُلٍ مَاتَ عَالِمًا وَقَامَ يَوْمَ القِيَامَةِ جَاهِلًا وَمُفْلِسًا»[(٤)] كما قال الله تعالى: ﴿... أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ...﴾ [الأحقاف: الآية ٢٠] وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»[(٥)]. وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «نِيَّةُ المُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ، وَنِيَّةُ الفَاسِقِ شَرٌّ مِنْ عَمَلِهِ»[(٦)]؛ لأنّ النّيّة بناء الأعمال كما ورد: (بناء الصحيح على الصحيح صحيح، وبناء الفاسد على الفاسد فاسد). وقال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى: الآية ٢٠].

---

(١) رواه أبو يعلى في مسنده (٦/ ١٤٧)، والديلمي في الفردوس (١/ ١١٩)، وأورده الذهبي في الميزان (٢/ ٢٠٠، ٢٧٠)، والحافظ في اللسان (٢/ ١٧٥).

(٢) رواه مالك في الموطأ (٢٩).

(٣) رواه البخاري (٣/ ١٣٠٨)، وابن حبان (١٤/ ٢٩٧).

(٤) لم أقف عليه.

(٥) رواه البخاري (١/ ٣).

(٦) رواه الديلمي من الفردوس (٦٨٤٢)، بنحوه، وانظر: فيض القدير للمناوي (٦/ ٢٩٢)، ومجمع الزوائد (١/ ١٠٩).

فالواجب على العبد طلب حياة القلبيّة الأخرويّة من أهل التّلقين في الدّنيا قبل فوت الوقت كما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «مَنْ طَلَبَ الدُّنيَا بِأَعْمَالِ الآخِرَةِ فَلَا نَصِيْبَ لَهُ فِي الآخِرَةِ»(١) فالدّنيا مزرعة الآخرة، فإذا لم يزرعه في هذه لم يحصد في الآخرة. والمراد من المزرعة: أرض الوجود لا الآفاق.

الفصل التّاسع

في بيان رؤية الله تعالى

فالرّؤية على نوعين: رؤية جمالية في الآخرة بلا واسطة مرآة القلب. ورؤية صفاته في الدّنيا بواسطة مرآة القلب بنظر الفؤاد من عكس أنوار الجمال كما قال الله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ١١﴾ [النّجم: الآية ١١]، وقال النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: «الْمُؤْمِنُ مِرْآةُ الْمُؤْمِنِ»(٢) والمراد من المؤمن الأوّل قلب عبد المؤمن، ومن الثّاني هو الله تعالى كما قال الله تعالى: ﴿... ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ...﴾ [الحشر: الآية ٢٣] فمن رأى صفاته في الدّنيا يرى ذاته في الآخرة بلا كيف. وجميع الدعاوى الّتي صدرت عن الأولياء في رؤية الله تعالى كقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: رأى قلبي ربي - أي: بنور ربي - وقول عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: لا أعبد ربًا لم أره. فذلك كلّه مشاهدة الصّفات، كما أنّ من رأى شعاع الشّمس من المشكاة ونحوها صحّ له أن يقول رأيت الشّمس على سبيل التّوسع، وقد مثّل الله تعالى نوره في كلامه باعتبار صفاته بقوله تعالى: ﴿... كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ...﴾ [النّور: الآية ٣٥] فقد قالوا: المشكاة قلب المؤمن والمصباح سرّ الفؤاد، وهو الرّوح السّلطانيّ، والزّجاجة الفؤاد، وُصِفَتْ بالدّريّة في شدّة نورانيّة، ثمّ بيّن المعدن فقال الله تعالى: ﴿... يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ...﴾ [النور: الآية ٣٥]، وهي شجرة التّلقين، والتّوحيد الخاصّ يكون من لسان القدس بلا واسطة كما تعلّق القرآن بالنّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم منه في الأصل، ثم نزل جبرائيل عليه السّلام لمصلحة العوام، وإنكار الكافر والمنافق. والدّليل عليه قوله تعالى: ﴿... لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النّمل: الآية ٦] ولذلك يشرع النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ويسبق جبرائيل عليه السّلام في الوحي، حتّى نزلت فيه آية كما قال الله تعالى: ﴿... وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ...﴾

---

(١) رواه مسلم (٢٩٧).

(٢) تقدم تخريجه.

[طه: الآية ١١٤] ولذا تأخر جبرائيل عليه السّلام ليلة المعراج، ولم يستطع أن يتجاوز من سدرة المنتهى.

ثمّ وصف الشّجرة بقوله تعالى: ﴿...لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ...﴾ [النّور: الآية ٣٥] لا يعرضها الحدوث والعدم والطّلوع والغروب بل أزليّة لم تزل كما أنّ الله واجب الوجود قديم أزليّ لم يزل ولا يزال أبديّ. فكذا صفاته تعالى لأنّها أنواره وتجلّياته. وهي نسبة قائمة بذاته فلا يبعد أن يكشف حجاب النّفس من وجه القلب، فيحيئ القلب بإضافة تلك الأنوار، فيشاهد الرّوح من تلك المشكاة صفات الحقّ مع أنّ المقصود من خلق العالم كشف ذلك الكنز المخفيّ كما مرّ البيت.

وأمّا رؤية ذات الله تعالى فهي في الآخرة بلا واسطة المرآة ـ إن شاء الله تعالى ـ بنظر السّرّ، وهو المسمّى بطفل المعاني كما قال الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: الآيتان ٢٢، ٢٣].

ولعل المراد من قول النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: «رَأَيْتُ رَبِّي عَلَى صُورَةِ شَابٍّ أَمْرَدٍ»[١] هو طفل المعاني، ويتجلى الرّبّ على هذه الصّورة في مرآة الرّوح بلا واسطة بين المتجلّي والمُتَجلّى له، وإلّا فالحقّ منزّه عن الصّورة والمادّة وخواصّ الأجسام، فالصّورة مرآة المرئيّ غير المرآة والرّائي فافهم، فإنّه لبّ السّرّ، وهذا في عالم الصّفات لأنّ في عالم الذّات تحترق الوسائط ويمحو، ولا يسع في ذلك غير الله تعالى كما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «عَرَفْتُ رَبِّي بِرَبِّي»[٢]. ـ أي: بنور ربي ـ.

وحقيقة الإنسان مُحرِم لذلك النّور كما قال الله تعالى في الحديث القدسيّ: «الإِنْسَانُ سِرِّي وَأَنَا سِرُّهُ»[٣]، كما قال النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: «أَنَا مِنَ الله تَعَالَى، والمُؤْمِنُونَ مِنِّي»[٤]. وقال الله تعالى في الحديث القدسيّ: «خَلَقْتُ مُحَمَّدًا مِنْ نُورِ وَجْهِي»[٤]، والمراد من الوجه الذّات المقدسة المتجلّية في صفات الأرحميّة كما

---

(١) أورده السيوطي في اللآلىء (١/ ٣٠)، عن ابن عباس. وكذلك أورده الذهبي في الميزان (٢/ ٣٦٣)، وابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ٣٦)، والقاري في المصنوع (ص ١٠٢)، والعجلوني في كشف الخفاء (١/ ٥٢٧). قلت: والحديث لا يحتمل إلا الرؤية المناهية، لا على الحقيقة، ونسلم بأن النبي ﷺ رأى ربه، وجواز الرؤية للمؤمنين في الآخرة، ولا ينكر ذلك إلا معتزلي» وعزّ الله عن الشبيه والمثلية.

(٢) لم أقف عليه مرفوعاً، وقد تقدم من قول الفاروق عمر.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) تقدّم تخريجه.

قال الله تعالى في الحديث القدسيّ: «سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي»[١]، وقال الله تعالى لنبيّه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء: الآية ١٠٧]، وقال الله تعالى: ﴿...قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: الآية ١٥]، وقال الله تعالى في الحديث القدسيّ: «لَوْلَاكَ لَوْلَاكَ لَمَا خَلَقْتُ الأَفْلَاكَ»[٢].

الفصل العاشر

في بيان الحُجُب الظّلمانية والنورانية

قال الله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ۝٧٢﴾ [الإسراء: الآية ٧٢]، والمراد منه عمى القلب كما قال الله تعالى: ﴿...فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: الآية ٤٦].

وسبب إعماه ظلمات الحجب والغفلة والنسيان بسبب بُعد العهد من ربّه.

وسبب الغفلة: الجهل من حقيقة الأمر الإلٰهي.

وسبب الجهل: استيلاء الصّفات الظّلمانيّة عليه كالكبر والحقد والحسد والبخل والعُجب والغيبة والنّميمة والكذب ونحو ذلك من الذّمائم. وسبب تنزّله إلى أسفل السّافلين هذه الصّفات.

وإزالة هذه الصّفات الذّمائم بتصقيل مرآة القلب بمصقل التّوحيد وبالعلم والعمل والمجاهدة القويّة باطنًا وظاهرًا؛ فتحصل حياة القلب بنور الأسماء والصّفات فيذكر وطنه الأصليّ فيشتاق إليه فيرجع ويصل بعناية الرّحمٰن.

وبعد ارتفاع هذه الحجب الظّلمانيّة تبقى النّورانيّة، ويصير بصيرًا ببصيرة الرّوح، ومنوّرًا بنور الأسماء والصّفات حتّى ترتفع الحجب النّورانيّة تدريجًا؛ فينوّر بنور الذّات.

واعلم أنّ للقلب في الباطن عينين: عين الصّغرى، وعين الكبرى.

فعين الصّغرى: تشاهد تجلّيات الصّفات بنور الأسماء والصّفات إلى انتهاء عالم الدّرجات.

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٢٧٤٥)، ومسلم (٤/ ٢١٠٨).

(٢) أورده القاري في الأسرار المرفوعة (٣٨٥).

وعين الكبرى: تشاهد تجلّي أنوار الذّات في عالم اللّاهوت، وهو القربة بنور التّوحيد الأحديّة. وحصول هذه المراتب للإنسان بالموت، وقبل الموت بالفناء من البشريّة النّفسانيّة، ووصل العبد إلى ذلك العالم بقدر الانقطاع من البشريّة النّفسانيّة.

وليس معنى الوصول إلى الله تعالى من قبيل وصول الجسم إلى المجسم، ولا العلم بالمعلوم، ولا العقل بالمعقول، ولا الوهم بالموهوم. فمعنى الوصول: بقدر الانقطاع عن غيره بلا قرب ولا بعد ولا جهة ولا مقابلة ولا اتصال ولا انفصال. فسبحان من في ظهوره وخفائه وتجلّيه واستتاره وفي معرفته حكمة عظيمة.

فمن حصّل ذلك المعنى في الدّنيا وحاسب نفسه قبل أن يحاسب فهو من المفلحين، وإلّا فمستقبله عقوبات من عذاب القبر والحشر والحساب والميزان والصّراط وغير ذلك من شدائد الآخرة.

الفصل الحادي عشر

في بيان السّعادة والشّقاوة

اعلم أنّ النّاس لا يخلو من هذين القسمين، وكذا هما يوجدان في إنسان واحد. فإذا غلبت حسناته وإخلاصه تبدّلت جهة شقاوته إلى السّعادة ـ يعني: تبدّلت نفسانيّته إلى روحانيّته ـ وإذا اتبع هواه انعكس الأمر، وإذا استوت الجهتان فالرّجاء والخير كما قال الله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا . . .﴾ [الأنعام: الآية ١٦٠] فزاد به وضع الميزان لأجلهما؛ لأنّ تبدّل النّفسانيّة إلى الرّوحانيّة بالكلّية، فلا حاجة إلى الميزان، فهو يجيء بغير حساب ويدخل الجنّة، وكذا عكسه يدخل النّار بلا حساب. فمن ترجح حسناته دخل الجنّة بلا عذاب كما قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧﴾ [القارعة: الآيتان ٦، ٧].

ومن ترجح سيئاته يعذّب بقدر جنايته، ثمّ يخرج من النّار إن كان له إيمان ويدخل الجنّة.

ومرادنا من السّعادة والشّقاوة معنى الحسنات والسّيئات يتبدل أحدهما بالأخرى كما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «السَّعِيدُ قَدْ يَشْقَى، وَالشَّقِيُّ قَدْ يَسْعَدُ»[1]. فإذا غلبت الحسنات يكون سعيدًا، وإذا غلبت السّيئات يكون شقيًّا، فمن

---

(١) لم أقف عليه.

تاب وآمن وعمل صالحًا يبدّل الله شقاوته إلى السّعادة وأمّا القدر في الأزل من السّعادة والشّقاوة لكلّ واحد جامع، قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «السَّعِيدُ سَعِيدٌ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، وَالشَّقِيُّ شَقِيٌّ فِي بَطْنِ أُمِّهِ»[1]. فليس لأحد أن يبحث فيه؛ لأنّه من سرّ القدر، ولا يجوز أن يحتج أحد بسر القدر.

قال صاحب تفسير البخاريّ: إنّ كثير من الأسرار يُعلم ولا يُتكلم به كسرّ القدر، فإنّ إبليس أحال أمره إلى سرّ القدر فلُعن بذلك، وإنّ آدم عليه السّلام أضاف عصيانه إلى نفسه فأفلح ورُحِم. وفي الرّوايات ناجي بعض العارفين: إلٰهي أنت قدّرت، وأنت أردت، وأنت خلقت المعصية في نفسي، فهتف به هاتف: يا عبدي هذا من شرط التّوحيد، فما شرط العبوديّة؟ فعاد فقال: أنا أخطأت، وأنا أذنبت، وأنا ظلمت نفسي، فعاد الهاتف فقال: أنا غفرت، وأنا عفوت، وأنا رحمت.

وقد أوّلوا أنّ المراد من الأمّ في الحديث مجمع العناصر الّذي تتولّد منه قوى البشريّة، فالتّراب والماء مظهر السّعادة؛ لأنّهما محييًا ومنبتًا العلم والإيمان والتّواضع في القلب. وأمّا النّار والرّيح فالعكس؛ لأنّهما محرقان ومميتان. فسبحان من جمع بين هذه الأضداد في جسم واحد كما يجمع بين الماء والنّار، وبين النّور والظّلمة في السّحاب كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾﴾ [الرعد: الآية ١٢].

سئل يحيىٰ بن معاذ الرّازيّ: بمَ عرف الله تعالى؟ فقال: بجمع بين الأضداد.

ولذلك كان الإنسان نسخة أمّ الكتاب، ومرآة الحقّ جلالًا وجمالًا، ومجموعة الكون، ويسمّى كونًا جامعًا وعالَمًا كبرى؛ لأنّ الله خلقه بيديه - أي: بصفات القهر واللّطف - لأنّه لا بد للمرآة من الجهتين - يعني: الكثافة واللّطافة - فيكون مظهر الاسم الجامع بخلاف سائر الأشياء، فإنّها خلقت بيد واحدة - أي: بصفة واحدة -.

أمّا صفة اللّطف فقط كالملائكة، هم مظهر اسم السّبوح والقدّوس فقط.

وأمّا صفة القهر كإبليس وذرّيته وهو مظهر اسم الجبّار، ولذلك تجبّروا وتكبّروا عن السّجدة لآدم عليه الصّلاة والسّلام.

---

(١) رواه مسلم بنحوه (٢٦٤٥).

فلما كان الإنسان جامعًا للخواصّ بجميع الكائنات علوًا وسفلًا لم يخلُ الأنبياء والأولياء من الزّلة، فإنّ الأنبياء معصومون من الكبائر بعد النّبوّة والرّسالة دون الصّغائر، والأولياء ليسوا معصومين، وقد قيل: الأولياء محفوظون بعد كمال الولاية من الكبائر.

قال الشّقيق البَلْخيّ رحمة الله عليه: علامة السّعادة خمسة: لين القلب، وكثرة البكاء، والزّهد في الدّنيا، وقصر الأمل، وكثرة الحياء.

وعلامة الشّقاوة خمسة: قسوة القلب، وجمود العين، والرّغبة في الدّنيا، وطول الأمل، وقلّة الحياء.

وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «عَلَامَةُ السَّعِيدِ أَرْبَعَةٌ: إذَا اؤتمن عَدَلَ، وَإِذَا عَاهَدَ وَفَى، وإذَا تَكَلَّمَ صَدَقَ، وإذَا خَاصَمَ لَمْ يَشْتُمْ. وَعَلَامَةُ الشَّقِيِّ أَرْبَعَةٌ: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا عَاهَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا تَكَلَّمَ كَذَبَ، وَإِذَا خَاصَمَ يَشْتُمُ النَّاسَ وَلَا يَعْفُوْ عَنْهُمْ»[1]. كما قال الله تعالى: ﴿... فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى ٱللَّهِ ...﴾ [الشورى: الآية ٤٠].

واعلم أنّ تبدُّل الشّقاوة إلى السّعادة أو عكسه يكون بالتّربية كما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى فِطْرَةِ الإِسْلَامِ وَلَكِنْ أَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»[2]. وهذا الحديث يدلّ على أنّ في كلّ واحد قابليّة السّعادة والشّقاوة، فلا يجوز أن يقال: هذا الرّجل سعيد محض، أو شقيّ محض، بل يجوز أن يقال: سعيد إذا غلبت حسناته على سيئاته، وكذا عكسه. ومن غيّر هذه فقد ضلّ؛ لأنّه اعتقد أنّ من النّاس مَنْ يدخل الجنّة بلا عمل وتوبة، أو يدخل النّار بلا معصية، فهذا القول خلاف النصوص لأنّ الله تعالى وعد الجنّة لأهل الصّلاح والنّار لأهل المعاصي والشّرك والكفر كما قال الله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فُصّلت: الآية ٤٦]، وقال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ...﴾ [غافر: الآية ١٧]، وقال الله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [النجم: الآيتان ٣٩، ٤٠]، وقال الله تعالى: ﴿...وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: الآية ١١٠].

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) رواه البخاري (١/٤٥٦)، ومسلم (٤/٢٠٤٧).

الفصل الثّاني عشر

في بيان الفقراء

قال بعضهم: إنّما سمّوا صوفيًا لأنّهم كانوا يلبسون الصّوف.

وقال بعضهم: لأنّهم صفّوا قلوبهم عمّا سوى الله تعالى. وقال بعضهم: لأنّهم قائمون يوم القيامة في الصّفّ الأوّل، وهو عالم القربة؛ لأنّ العالم أربعة: عالم المُلك والملكوت والجبروت واللّاهوت، وهي عالم الحقيقة.

وكذا العلم أربعة: فعلم الشّريعة، وعلم الطّريقة، وعلم المعرفة، وعلم الحقيقة.

وكذا الأرواح أربعة: روح جسمانيّ، وروح روانيّ سيرانيّ، وروح سلطانيّ، وروح قدسيّ.

وكذا التّجلّيات أربعة: تجلّي الآثار، وتجلّي الأفعال، وتجلّي الصّفات، وتجلّي الذّات.

وكذا العقل أربعة: عقل المعاشيّ، وعقل المعاديّ، وعقل الزّمانيّ، وعقل الكلّ.

والنّاس مقيّدون لما في مقابلة العلم الأربعة المذكورة ـ يعني: العلوم الأربعة والأرواح والتّجلّيات والعقول ـ.

فبعض النّاس مقيّدون بالأُول بالعلم الأوّل، وبالرّوح الأوّل، وبالعقل الأوّل في الجنّة الأولى، وهي جنّة المأوى.

وبعضهم مقيّدون بالثّواني في الجنّة الثّانية وهي جنّة النّعيم.

وبعضهم مقيّدون بالثّوالث في الجنّة الثّالثة وهي جنّة الفردوس. وقد غفلوا عن حقيقة هذا الأمر.

وأهل الحقّ من الفقراء العارفين نفذوا من هذه الأمور كلّها إلى القربة، لم يتقيدوا بشيء ممّا سوى الله تعالى واتّبعوا قول الله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ...﴾ [الذّاريات: الآية ٥٠]، كما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «وَهُمَا حَرَامَانِ عَلَى أَهْلِ اللهِ»[(١)]، وقال الله تعالى في الحديث القدسيّ: «مَحَبَّتِي مَحَبَّةُ

(١) تقدم تخريجه.

الفُقَرَاءِ»[١]، وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «الفَقْرُ فَخْرِي»[٢]، والمراد من الفقر الفناء في الله، لا يبقى في نفسه لنفسه شيء، ولا يسع في قلبه غيرَ الله وحبّه كما قال الله تعالى في الحديث القدسيّ: «لَا يَسَعُنِي أَرْضِي وَلَا سَمَائِي وَلَكِنْ يَسَعُنِي قَلْبُ عَبْدِي المُؤْمِنِ»[٣] - أي: المؤمن الّذي صفا قلبه من الصّفات البشريّة، وخلا من الأغيار فوسع الحقّ جلّ جلاله في قلبه بالعكس.

قال أبو يزيد البسطاميّ قدّس الله سرّه: لو أنّ العرش وما حواه أُلقي في زاوية من زوايا قلب العارف ما أحسّ به، فمن أحبّ هؤلاء المحبّين فهو معهم في الآخرة، وعلامة حبّهم حبّ صحبتهم، والاشتياق إلى الله ولقائه كما قال الله تعالى في الحديث القدسيّ: «أَلَا طَالَ شَوقُ الأَبْرَارِ إِلَى لِقَائِي، وَإِنِّي لأَشَدُّ شَوْقًا إِلَيْهِم»[٤].

وأمّا لباسهم فعلى ثلاثة أوجه: صوف الغنم للمبتدىء، وصوف المعز للمتوسّط، وصوف المعز للمنتهي وهو الصّوف المربّع.

قال صاحب تفسير المجمع: يليق بالزّهاد كلّ خشن من الملبس والمطعم والمشرب، لأنّهم أهل الابتداء. ويليق بالعرفاء الواصلين كلّ ليّن منها.

فعمل المبتدىء متلوّن بالحميدة وبالذّميمة. وعمل المتوسّط متلوّن بألوان الحميدة مثل نور الشّريعة والطّريقة والمعرفة، فلباسهم متلوّن مثل البياض والزُّرقة والخضرة. وعمل المنتهي خال عن الألوان كلّها مثل نور الشّمس، فنورها لا يقبل الألوان، وكذا لباسهم لا يقبل الألوان مثل السّواد، وهو علامة الفناء، وهو نقاب نور معرفتهم كما أنّ اللّيل نقاب نور الشّمس، وقد قال الله تعالى: ﴿...يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ...﴾ [الأعراف: الآية ٥٤]، وكما قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠﴾ [النّبأ: الآية ١٠] وفيه إشارة لطيفة لمن له لبّ.

وأيضًا يكون أهل القربة في الدّنيا في سجن وغربة وغمّ وغُصّة ومحنة وشدّة وظُلمة كما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «الدُّنْيَا سِجْنُ المُؤْمِنِ»[٥].

---

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وروى ابن ماجه نحوه (٤١٢١).
(٢) رواه الديلمي في الفردوس (٢٣٩٩) بنحوه.
(٣) أورده العراقي في المغني عن حمل الأسفار (٣/ ١٥) وقال: لم أرد له أصلاً، ورواه أحمد في الزهد (ص ١٠٣) عن وهب بن منبه نحوه.
(٤) رواه الديلمي في الفردوس (٥/ ٢٤٠)، وذكره الفتني في تذكرة الموضوعات (ص ١٩٦).
(٥) رواه مسلم (٤/ ٢٢٧٢)، والحاكم (٣/ ٦٩٩)، وابن حبان (٢/ ٤٦٣).

فيليق بالظّلمة لباس الظّلمة، وقد صح في الحديث أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم لبس الأسود وتعمم بعمامة سوداء، وهذا لباس البلاء ولباس المتعزّين المصابين بنور القابلية من المشاهدة والمكاشفة والمعاينة، وبموت الحياة الأبديّة مثل الشّوق والعشق والرّوح القدسيّ، ومرتبة القربة والوصلة، وهؤلاء من أعظم المُصيبات ولا بدّ من لباس المتعزّين في مدّة عمره؛ لأنّه فاتته منفعة الأخرويّة، وكانت المرأة الّتي مات زوجها أمرها الله تعالى بلباس العزاء أربعة أشهر وعشرة أيام بفوت المنفعة الدّنيويّة. فمدة عزاء المنفعة الأخرويّة غير متناهية كما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً النَّبِيُّونَ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلِ»[١]. وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «المُخْلِصُونَ عَلَى خَطَرٍ عَظِيمٍ»[٢]. فهذا كلّه من صفة الفقر والفناء، وفي الخبر: «الفَقْرُ سَوَادُ الوَجْهِ فِي الدَّارَيْنِ»[٣] معناه أنّه لا يقبل الألوان غير نور وجه الله تعالى، والسّواد بمنزلة خال على وجه جميل يزيد به حُسن جماله وملاحته، فإذا نظر أهل القربة إلى جماله فبعد ذلك لا يقبل نور أعينهم غير الله تعالى، ولا ينظرون إلى ما سوى الله تعالى بالمحبّة بل يكون محبوبهم ومطلوبهم هو الله تعالى في الدّارين، ولا يقصدون غير الله تعالى؛ لأنّ الله تعالى خلق الإنسان لمعرفته ووصلته.

فالواجب على الإنسان أن يطلب ما خُلق لأجله في الدّارين كي لا يضيع عمره بما لا يعنيه، ولا يندم أبدًا بعد الموت لتضييع عمره.

الفصل الثّالث عشر

في بيان الطّهارة

فالطّهارة على نوعين: طهارة الظّاهر، وطهارة الباطن.

فطهارة الظّاهر تحصل بماء الشّريعة.

وطهارة الباطن تحصل بماء التّوبة والتّلقين والتّصفية وسلوك الطّريق، فإذا انتقض وضوء الشّريعة ـ بخروج النّجس ـ يجب تجديد الوضوء كما قال رسول الله صلّى الله

(١) رواه الترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٢٣).

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٣٤٥)، والخطيب في اقتضاء العلم العمل (٢٩)، بنحوه، وأورده العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٤١٥).

(٣) روى الديلمي في الفردوس (٤٤٢٢) نحوه، وأورده العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ١٣١).

عليه وآله وسلّم: «مَنْ جَدَّدَ الوُضُوءَ جَدَّدَ اللهُ إِيمَانَهُ»[(١)] فإذا انتقض وضوء الباطن بالأفعال الذّميمة والأخلاق الرّديّة ـ كالكبر والحقد والحسد والعُجب والغيبة والكذب والخيانة؛ يعني: مثل خيانة العين واليدين والرجلين والأذنين كما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «العَيْنَانِ تَزْنِيَانِ والأُذُنَانِ تَزْنِيَانِ»[(٢)] ـ فتجديده وضوء الباطن بإخلاص التّوبة عن هذه المفسدات، وتجديد الإنابة بالنّدم والاستغفار والاشتغال بقمعها من الباطن.

وينبغي للعارف أن يحفظ توبته من هذه الآفات فتكون صلاته تامّة كما قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾﴾ [ق: الآية ٣٢].

فوضوء الظّاهر وصلاته مؤقتة، ووضوء الباطن وصلاته مؤبدة في جميع عمره، في كلّ يوم وليلة متصلة.

الفصل الرّابع عشر

في بيان صلاة الشريعة والطّريقة

أمّا صلاة الشّريعة: فقد علمت بهذه الآية: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ...﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٣٨] والمراد منها أركان الجوارح الظّاهرة بحركة الجسمانيّة مثل القيام والقراءة والرّكوع والسّجود والقعود والصّوت والألفاظ؛ ولذلك جاء الفضل الجمع ـ يعني قال الله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ...﴾ ـ.

وأمّا صلاة الطّريقة: فهي صلاة القلب، وهي مؤبّدة فقد عُلمت بهذه الآية: ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٣٨]، والمراد من الصّلاة الوسطى صلاة القلب؛ لأنّ القلب خُلق في وسط الجسد بين اليمين والشّمال، وبين العلويّ والسّفليّ، وبين السّعادة والشّقاوة كما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «القَلْبُ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمٰنِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ»[(٣)] والمراد من الأصبعين صفتي القهر واللّطف، لأنّ الله تعالى منزّه عن الأصابع فبدليل هذه الآية والحديث يُعلم أنّ الأصل صلاة القلب، فإذا غفل عن صلاته فسدت صلاته وصلاة الجوارح كما قال

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين (١/ ١٣٥).

(٢) رواه أحمد في المسند (١/ ٤١٢)، ومسلم بنحوه (٢٦٥٧)، وابن حبان (١٠/ ٢٦٧)، والشاشي في مسنده (١/ ٣٨١، ٣٨٢).

(٣) رواه مسلم (٤/ ٢٠٤٥)، والحاكم (١/ ٧٠٦)، (٢/ ٣١٧)، (٤/ ٢٣٠، ٣٥٧).

رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «لا صَلَاةَ إلّا بِحُضُورِ القَلْبِ»(١)؛ لأنّ المصلّي يناجي ربّه، ومحلّ المناجاة القلب، فإذا غفل القلب بطلت صلاته ونقضت صلاة الجوارح؛ لأنّ القلب أصل والباقي تابع له كما قال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: «أَلَا إنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إذَا صَلَحَت صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ وَإذَا فَسَدتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ القَلْبُ»(٢).

وصلاة الشّريعة: مؤقّتة في كلّ يوم وليلة خمس مرّات، والسُّنَّةُ أن يصلّي هذه الصّلاة في المسجد بالجماعة متوجهًا إلى الكعبة، وتابعًا بالإمام بلا رياء ولا سمعة.

وأمّا صلاة الطّريقة: فهي مؤبّدة في عمره، ومسجدها القلب، وجماعتها اجتماع قوى الباطن على الاشتغال بأسماء التّوحيد بلسان الباطن، وإمامها الشّوق في الفؤاد، وقبلتها الحضرة الأحديّة وجمال الصّمديّة وهي قبلة الحقيقة. والقلب والرّوح مشغول بهذه الصّلاة على الدّوام، فالقلب لا يموت ولا ينام، وهو مشغول في النّوم واليقظة بحياة القلب بلا صوت ولا قيام ولا قعود، فهو مخاطب بقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفاتحة: الآية ٥] متابعًا للنّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم.

قال في تفسير القاضي: في هذه الآية إشارة إلى حال العارف وانتقاله من حال الغيبة إلى الحضرة، فاستحقّ بمثل هذا الخطاب كما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «الأَنْبِيَاءُ وَالأَوْلِيَاءُ يُصَلُّونَ فِي قُبُورِهِمْ كَمَا يُصَلُّونَ فِي بُيُوتِهِمْ»(٣) ـ أي: مشغولون بالله ومناجاته لحياة قلوبهم ـ فإذا اجتمعت صلاة الشّريعة والطّريقة ظاهرًا وباطنًا فقد تمّت الصّلاة ـ يعني: تكون صلاته صلاة تامّة ـ وأجرها عظيم في القربة بالرّوحانيّة، والدّرجات بالجسمانيّة، فيكون هذا الرّجل عابدًا في الظّاهر، وعارفًا في الباطن. وإذا لم تحصل صلاة الطّريقة بحياة القلب فهو ناقص وأجره يكون من الدّرجة لا من القربة.

الفصل الخامس عشر

في بيان الطّهارة المعرفة في عالم التجريد

الطّهارة المعرفة على نوعين: طهارة معرفة الصّفات، وطهارة معرفة الذّات.

---

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وانظر: الإحياء (١/ ١٦٠).
(٢) رواه البخاري (١/ ٢٨)، ومسلم (٣/ ١٢١٩).
(٣) لم أقف عليه.

فطهارة معرفة الصّفات: لا تحصل إلّا بالتّلقين، وتصفية مرآة القلب بالأسماء من النّفوس البشريّة والحيوانيّة؛ فيصفو القلب، ويحصل له النّظر بعين القلب من نور الله، لينظر بنور الصّفات إلى عكس جمال الله تعالى في مرآة القلب كما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «المُؤْمِنُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ»[(١)] و«المُؤْمِنُ مِرْآةُ المُؤْمِنِ»[(٢)] وقيل: «العالم ينقش والعارف يصقل».

وإذا تمتْ التّصفية بملازمة الأسماء، حصلت معرفة الصّفات بمشاهدتها في مرآة القلب.

وأمّا طهارة معرفة الذّات في السّرّ: فلا تحصل إلّا بملازمة أسماء التّوحيد الثّلاثة الأخيرة من الأسماء الاثني عشر في عين السّرّ بنور التّوحيد. فإذا تجلّت أنوار الذّات ذابت وفنيت بالكلّيّة، فهذا مقام الاستهلاك، وفناء الفناء، وهذا التّجلّي يمحو جميع الأنوار كما قال الله تعالى: ﴿... كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ...﴾ [القَصَص: الآية ٨٨] فبقي الرّوح القدسيّ بنور القدس ناظرًا إليه، ناظرًا به منه معه، فيدلّه بلا كيفيّة ولا تشبيه؛ لأنّ الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: الآية ١١]، فبقي النّور المطلق محضًا، ولا يمكن الإخبار عما وراء ذلك؛ لأنّه عالم المحو، فلا يبقى ثمّة عقل يخبر عنه ولا تحوم ثمّة غير الله تعالى كما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «لِي مَعَ اللهِ وَقْتٌ لَا يَسَعُ فِيهِ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ»[(٣)].

فهذا عالم التّجريد من غير الله تعالى كما قال الله تعالى في الحديث القدسيّ: «تَجَرَّدْ تَصِلْ»[(٤)] والمراد من التّجرد: فناء الكلّ من صفات البشريّة، فيبقى في عالمه متصفًا بصفة الله تعالى كما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «تَخَلَّقُوا بِأَخْلَاقِ اللهِ»[(٥)] يعني اتصفوا بصفات الله تعالى.

---

(١) هو حديث الفراسة رواه الترمذي (٣١٢٧) وهو مختلف في الحكم عليه سنداً، وقد صحّ عن السادة الصوفية كشفاً.

(٢) تقدّم تخريجه.

(٣) رواه ابن حبان (٥/ ٢٧٩)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٤٨)، والشافعي في مسنده (ص ٧١)، وابن ماجه (١/ ٣٤٤).

(٤) لم أقف عليه.

(٥) انظر: الجامع الصغير للسيوطي (١/ ٢١٧، ٢٢٠).

الفصل السادس عشر

في بيان زكاة الشّريعة والطّريقة

زكاة الشّريعة: هي أن يعطي من كسب الدّنيا إلى مصارفه مؤقتة معينة في كلّ سنة مرّة من نصاب معيّن.

أمّا زكاة الطّريقة: فهي أن يعطي من كسب الآخرة كلّه في سبيل الله إلى فقراء الدّين والمساكين الأخرويّة.

والزّكاة زكاة الشّريعة: سمّيت صدقة في القرآن كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: الآية ٦٠]، وإنّما سمّيت صدقة لأنّ الصّدقة تصل إلى يد الله قبل أن تصل إلى يد الفقراء، والمراد منه قبول الله تعالى.

وزكاة الطّريقة: فهي مؤبّدة، وهو أن يعطي ثواب كسب الآخرة للعاصين لرضاء الله تعالى، فيغفر الله تعالى لهم مثل ثواب الصّلاة والزّكاة والصّوم والحجّ، وثواب التّسبيح والتّهليل، وثواب تلاوة القرآن والسّخاوة وغير ذلك من الحسنات، فلا يُبقي لنفسه شيئًا من ثواب حسناته، ويُبقي نفسه مفلسًا، فالله يحب السّخاوة والإفلاس كما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «المُفْلِسُ فِي أَمَانِ اللهِ فِي الدَّارَيْنِ».

فالعبد وما في يده كان لمولاه، فإذا كان يوم القيامة أعطاه الله تعالى بكلّ حسنة عشر أمثالها كما قال الله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا...﴾ [الأنعام: الآية ١٦٠].

وفي معنى الزّكاة أيضًا: تزكية القلب من صفة النّفس كما قال الله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً...﴾ [البقرة: الآية ٢٤٥]، والمراد من القرض: أن يعطي ما له من الحسنات في سبيل الله تعالى إحسانًا إلى خلقه لوجهه الكريم، وشفقته بلا مِنّة كما قال الله تعالى: ﴿...لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: الآية ٢٦٤] ولا طلب عوض في الدّنيا؛ وهذا من قسم الإنفاق في سبيل الله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: الآية ٩٢] في سبيل الله تعالى.

الفصل السّابع عشر

في بيان الصّوم الشّريعة والطّريقة

صوم الشّريعة: أن يمسك عن المأكولات والمشروبات، وعن وقاع النّساء في النّهار.

وأمّا صوم الطّريقة: فهو أن يمسك عن جميع أعضائه المحرّمات والمناهي والذّمائم مثل العُجب والكبر والبخل وغير ذلك، ظاهرًا وباطنًا، فكلّها يبطل صوم الطّريقة.

فصوم الشّريعة مؤقّتٌ: **وصوم الطّريقة** مؤبّدٌ في جميع عمره، **فلذلك** قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «رُبَّ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إلّا الجُوعُ...»[١]، فلذلك قيل: كم من صائم مفطر وكم من مفطر صائم ـ أي: يمسك أعضاءه عن الآثام، وإيذاء النّاس بالجوارح كما قال الله تعالى في الحديث القدسيّ: «إنَّ الصَّوْمَ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ»[٢]. وقال الله تعالى في الحديث القدسيّ: «يَصِيرُ لِلْصَّائِم فَرْحَتَانِ: فَرْحَةٌ عِنْدَ الإِفْطَارِ، وَفَرْحَةٌ عِنْدَ رُؤْيَةِ جَمَالِي»[٣].

قال أهل الشّريعة: المراد من الإفطار الأكل عند غروب الشّمس، ومن الرّؤية رؤية الهلال في ليلة العيد. وقال أهل الطّريقة: الإفطار عند دخول الجنّة بالأكل ممّا فيها من النّعيم، وفرحة عند الرّؤية ـ أي: عند لقاء الله يوم القيامة ـ بنظر السّرّ معاينة.

وأمّا صوم الحقيقة: فهو إمساك الفؤاد عن محبّة ما سوى الله تعالى، وإمساك السّرّ عن محبّة مشاهدة غير الله كما قال الله تعالى في الحديث القدسيّ: «الإِنْسَانُ سِرِّي وَأَنا سِرُّهُ»[٤] والسّرّ من نور الله تعالى فلا يميل إلى غير الله تعالى، وليس له سواه محبوب ومرغوب ومطلوب في الدّنيا والآخرة، فإذا وقعت فيه محبّة غير الله فسد صوم الحقيقة، فله قضاء صومه، وهو أن يرجع إلى الله تعالى ولقائه، وجزاء هذا الصّوم لقاء الله تعالى في الآخرة.

---

(١) رواه أحمد في المسند (٢/ ٤٤١)، وابن أبي عاصم في الزهد (ص ٤٥)، والقضاعي في الشهاب (٢/ ٣٠٩).

(٢) رواه البخاري (٦/ ٢٧٢٣)، ومسلم (٢/ ٨٠٧).

(٣) رواه البخاري (٦/ ٢٧٢٣)، ومسلم (٢/ ٨٠٧)، وأحمد في المسند (١/ ٤٤٦)، (٢/ ٣٤٥).

(٤) لم أقف عليه.

الفصل الثّامن عشر

في بيان الحجّ الشّريعة والطّريقة

الحجّ على نوعين: حجّ الشّريعة، وحجّ الطّريقة.

فحجّ الشّريعة: بحجّ بيت الله تعالى بشرائطه وأركانه، حتّى يحصل ثواب الحجّ، فإذا نقص شيء من شرائطه نقص ثواب الحجّ؛ لأنّ الله تعالى أمرنا بإتمام الحجّ بقوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ...﴾ [البقرة: الآية ١٩٦].

فمن شرائطه: الإحرام أوّلًا، ثمّ دخول مكّة، ثمّ طواف القدوم، ثمّ الوقوف بعرفة، ثمّ الوقوف بمزدلفة، ثمّ ذبح الأضحية في منى، ثمّ دخول الحرم، ثمّ طواف الكعبة سبعة أشواط، ثمّ شرب ماء زمزم، ثمّ يصلّي ركعتي الطّواف في مقام إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، ثمّ يحلّل ما حرّم الله تعالى عليه من الصّيد ونحوه. فجزاء هذا الحجّ العتق من الجحيم، والأمن من القهر كما قال الله تعالى: ﴿...وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا...﴾ [آل عمران: الآية ٩٧] ثمّ طواف الصّدور، ثمّ الرّجوع إلى وطنه.

وأمّا حجّ الطّريقة: فزاده وراحلته أوّلًا الميل إلى صاحب التّلقين وأخذه منه، ثمّ ملازمة الذّكر باللّسان، وملاحظة معناه حتّى تحصل حياة القلب له، ثمّ يشتغل بذكر الباطن حتّى يصفّيه بملازمة أسماء الصّفات، فتظهر كعبة السّرّ بأنوار الصّفات كما أمر الله تعالى إبراهيم وإسماعيل عليهما الصّلاة والسّلام بتطهير الكعبة أوّلًا كما قال الله تعالى: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ...﴾ [البقرة: الآية ١٢٥] الآية.

فكعبة الظّاهر: تطهيرها لأجل الطّائفين من المخلوقات. وكعبة الباطن: تطهيرها لنظر الخالق ممّا أخذ زهدة التّطهير ممّا سواه، ثمّ أحرم بنور الرّوح القدسيّ، ثمّ دخل كعبة القلب، ثمّ طواف القدوم بملازمة الاسم الثّاني، ثمّ ذهب إلى عرفات القلب؛ وهي موضع المناجاة، فوقف فيها بملازمة الاسم الثّالث والرّابع، ثمّ ذهب إلى مزدلفة الفؤاد، وجمع بين الاسم الخامس والسّادس، ثمّ ذهب إلى منى السّرّ؛ وهي ما بين الحرمين، فوقف بينهما، ثمّ ذبح النّفس المطمئنة بملازمة الاسم السّابع؛ لأنّه اسم الفناء، ورافع حجاب الكفر كما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «الكُفْرُ وَالإِيمَانُ مَقَامَانِ مِنْ وَرَاءِ العَرْشِ، وَهُمَا حِجَابَانِ

بَيْنَ العَبْدِ وَبَيْنَ الحَقِّ أَحَدُهُمَا أَسْوَدُ والثَّانِي أَبْيَضُ»[1] ثمّ حلق رأس الرّوح من الصّفات البشريّة بملازمة الاسم الثّامن، ثمّ دخل حرم السّرّ بملازمة الاسم التّاسع، ثمّ وصل رؤية العاكفين، فيعتكف في بساط القربة والأنس بملازمة الاسم العاشر، ثمّ رأى جمال الصّمديّة بلا كيف ولا تشبيه، ثمّ طاف سبعة أشواط بملازمة الاسم الحادي عشر، ومعه ستة أسماء من الفروعات، ثمّ يشرب من يد القدرة كما قال الله تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: الآية ٢١] بقدح الاسم الثّاني عشر، ويرفع برفع الوجه الباقي المقدّس فينظر بنوره إليه، وهذا معنى قوله تعالى في الحديث القدسيّ: «مَا لَا عَيْنٌ رَأَت...»[2] - يعني: لقاء الله تعالى - «...وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ...» - يعني: كلام الله تعالى بلا واسطة الحروف والصّوت - «...وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ...» - يعني: ذوق الرّؤية والخطاب - ثمّ حلّل ما حرّم الله، بتبديل السّيّئات إلى الحسنات، بتكرار أسماء التّوحيد كما قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: الآية ٧٠]، ثمّ العِتْق من التّصرفات النّفسانيّة، ثمّ الأمن من الخوف والحزن كما قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس: الآية ٦٢] - رزقنا الله وإياكم - بفضله وكرمه، ثمّ طاف الصّدور بتكرار الأسماء كلّها، ثمّ الرّجوع إلى وطنه الأصليّ في عالم القدسيّ في أحسن التّقويم بملازمة الاسم الثّاني عشر، وهو متعلّق بعالم اليقين، وهذه التّأويلات في دائرة اللّسان والعقل. وأمّا ما وراء ذلك فلا يمكن الإخبار عنه، لأنّه لا تدركه الأفهام والأذهان، ولا تسع الخواطر في ذلك كما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «إِنَّ مِنَ العِلْمِ كَهَيْئَةِ المَكْنُونِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا العُلَمَاءُ بِاللهِ فَإِذَا نَطَقُوا بِهِ لَمْ يُنْكِرهُ إِلَّا أَهْلُ الغِرَّةِ»[2] فالعارف يقول ما دونه، والعالم بالله يقول ما فوقه، فإنّ علم العارف سرّ الله تعالى، لا يعلمه غير الله تعالى كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٥] - أي: الأنبياء والأولياء - كما قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [طه: الآيتان ٧، ٨].

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) تقدم تخريجه.

الفصل التّاسع عشر

في بيان الوجد والصّفاء

قال الله تعالى: ﴿... تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزّمَر: الآية ٢٣]، وقال الله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزّمَر: الآية ٢٢]، وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «جَذْبَةٌ مِنْ جَذَبَاتِ الحَقِّ تُوازِي عَمَلَ الثَّقَلَيْن»(١). وقال عليّ كرّم الله وجهه: «من لا وجد له لا دين له».

قال الجنيد البغداديّ: الوجد في مصادفة الباطن من الله واردٌ يورث سرورًا وحزنًا.

فالوجد على نوعين: وجد الجسمانيّة النّفسانيّة، ووجد الرّوحانيّة الرّحمانيّة.

فالوجد النّفسانيّة: أن يتواجده بقوّة الجسم بغير قوّة الجذبة الغالبة الرّوحانيّة مثل الرّياء والسّمعة والشّهرة، وهذا القسم كلّه باطل لأنّ اختياره غير مغلوب ومسلوب، ولا يجوز الموافقة بمثل هذا الوجد.

وأمّا وجد الرّوحانيّة: بقوّة الجذبة بمثل قراءة القرآن بصوت حسن، أو شعر موزون، أو ذكر مؤثر، فلا يبقى للجسم قوّة واختيار، وهذا الوجد روحانيّ ورحمانيّ فيستحب موافقته، وإليه إشارة في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ...﴾ [الزّمَر: الآيتان ١٧، ١٨]، وكذا صوت العشّاق والطّيور وألحان الأغاني، فكلّ ذلك قوّة للرّوح لا مدخل للنّفس والشّيطان في مثل هذا الوجد، لأنّ الشّيطان يتصرّف في الظّلمانيّة النّفسانيّة ولا يتصرّف في النّورانيّة الرّوحانيّة، لأنّه يذوب فيها كما يذوب الملح في الماء، وكذا في الحديث لأنّه قال قراءة الآيات وأشعار الحكمة والمحبّة والعشق والأصوات الحزينة قوّة نورانيّ للرّوح. فالواجب أن يصل النّور إلى النّور، وهو الرّوح كما قال الله تعالى: ﴿وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ [النّور: الآية ٢٦].

أمّا إذا كان الوجد شيطانيًا ونفسانيًا فلا يكون فيه نور، بل يكون ظلمانيًا وكفرًا، والظّلمة تصل إلى الظّلمانيّ وهي النّفس فيغري بجلسته كما قال الله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ...﴾ [النّور: الآية ٢٦] وليس للرّوح فيها قوّة.

---

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٣٩٧).

فحركات الوجد نوعان: اختياريّة واضطراريّة.

فالأولى الحركات الاختياريّة: كحركة الإنسان الصّحيح ليس في جسده ألم ولا مرض ولا سقم، فهذه الحركات غير مشروعة كما مرّ.

والثّانية الحركات الاضطراريّة: وهي الّتي تحصل بسبب آخر مثل قوّة الرّوح، فلا تقدر النّفس على منعه؛ لأنّ هذه الحركات غالبة على حركة الجسمانيّة مثل حركة الحمّى، فإذا غلبت الحمّى عجزت النّفس عن تحمّلها، فلا اختيار لها حينئذٍ.

فالوجد إذا غلبت عليه الحركات الرّوحانيّة يكون حقيقيًا ورحمانيًا.

والوجد والسّماع آلة محركة كما في قلوب العشّاق والعارفين.

والوجد طعام المحبّين، ومقوي الطّالبين.

وقيل: «إنّ السّماع لقوم فرض ولقوم سنّة ولقوم بدعة» الفرض للخواصّ، والسّنّة للمحبّين، والبدعة للغافلين، ولذلك كانت الطّيور تقف على رأس داود عليه الصّلاة والسّلام لاستماع صوته.

وحركة الوجد على عشرة أوجه: بعضها جليّ يظهر أثرها في الحركات. وبعضها خفيّ، يظهر أثرها في الجسد كميل القلب إلى ذكر الله تعالى، وقراءة القرآن بالصّوت الحسن، ومنها بالبكاء والتألّم، والخوف والحزن، والتأسّف والحيرة عند ذكر الله تعالى، والتّجرّد والنّصرة، والتّغيُّر في الباطن والظّاهر، ومنها الطّلب والشّوق، والحرارة.

الفصل العشرون

في بيان الخلوة والعزلة

فالخلوة والعزلة على وجهين: ظاهر، وباطن.

فالخلوة الظّاهرة: عزل نفسه، وحبس بدنه عن النّاس لئلا يؤذي النّاس بأخلاقه الذّميمة وبترك النّفس مألوفاتها، وحبس حواسها الظّاهرة لفتح الخواصّ الباطنة، بنيّة الإخلاص والموت بالإرادة ودخول القبر، ويكون نيّته في ذلك رضاء الله تعالى، ودفع شرّ نفسه عن المسلمين كما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»[1] وكفّ لسانه عما لا يعنيه كما قال رسول الله صلّى

---

(١) رواه البخاري (١/ ١٣)، (٥/ ٢٣٧٩)، ومسلم (١/ ٦٥).

الله عليه وآله وسلّم: «سَلَامَةُ الإنْسَانِ مِنْ قِبَلِ اللِّسَانِ»(١) وكفّ عينيه عن الخيانة والنّظر إلى الحرام وكذا كفّ أذنيه ويديه ورجليه كما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «العَيْنَانِ تَزْنِيَانِ...»(٢) الحديث، ويحصل من كلّ زنى من هذه الأعضاء شخص قبيح في صورة خبيثة يقوم معه يوم القيامة، ويشهد عليه عند الله تعالى، ويأخذ صاحبه فيعذّبه في النّار، فإذا تاب منه وحبس نفسه ـ كما قال الله تعالى: ﴿...وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النّازعات: الآيتان ٤٠، ٤١] تبدّل صورته الخبيثة إلى صورة أمرد مليح، ويأخذ صاحبه إلى الجنّة، وينجو من شرّه، فكأن الخلوة حصّنته من المعاصي، فيبقى عمله صالحًا، ويكون محسنًا كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التّوبَة: الآية ١٢٠]، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٥٦]، وقال الله تعالى: ﴿...فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا...﴾ [الكهف: الآية ١١٠].

وأمّا الخلوة الباطنة: أن لا يُدخِل في قلبه من التفكّرات النفسانيّة والشّيطانيّة مثل محبّة المأكولات والمشروبات، ومثل محبّة الأهل والعيال، ومثل محبّة الحيوانات والرّياء والسّمعة والشّهرة كما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «الشّهْرَةُ آفَةٌ وَكُلٌّ يَتَمَنَّاهَا، وَالخُمُولُ رَاحَةٌ وَكُلٌّ يَتَوَقَّاهَا»(٣) ولا يُدْخِل في قلبه باختياره مثل الكبر والعُجب والبخل وغير ذلك من الذّمائم، فإذا دخل في قلب الخلوتي من هذه الذّمائم فسدت خلوته وقلبه، وفسد ما في قلبه من الأعمال الصّالحة والإحسان، فبقي القلب بلا منفعة كما قال الله تعالى: ﴿...إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: الآية ٨١]، فكلّ من كان فيه من هذه المفسدات فهو من المفسدين، وإن كان في الظّاهر صورة الصّالحين كما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «الغَضَبُ يُفْسِدُ الإيمَانَ كَمَا يُفْسِدُ الخَلُّ العَسَلَ»(٤). وكذلك قال النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: «الْحَسَدُ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ»(٥). وقال رسول الله صلّى الله عليه

---

(١) لم أقف عليه، وانظر: الصمت لابن أبي الدنيا (ص ١٠، ١٣).

(٢) تقدّم تخريجه.

(٣) أورده السخاوي في المقاصد الحسنة (٤٥٨)، وكشف الخفاء للعجلوني (١/ ٤٦٠).

(٤) أورده الغزالي في إحياء علوم الدين (٣/ ١٦٥)، والعراقي في المغني (٣/ ١٦٥).

(٥) رواه أبو داود (٤٩٠٣)، وابن ماجه (٤٢١٠)، وأوردناه في كتابنا «أحاديث مشهورة لكنها لا تصح» طبع بالمكتب الإسلامي العربي.

وآله وسلَّم: «الْغِيبَةُ أَشَدُّ مِنَ الزِّنَى»[١]. وقال رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: «الفِتْنَةُ نَائِمَةٌ لَعَنَ الله مَنْ أَيْقَظَهَا»[٢]. وقال رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: «البَخِيْلُ لَا يَدْخُلِ الجَنَّةَ وَلَو كَان عَابِدًا وَزَاهِدًا»[٣]. وقال رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: «الرِّيَاءُ شِرْكٌ خَفِيٌّ»[٤]، وتركه كفر وقال رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: «النَّمَّامُ لا يَدْخُلِ الْجَنَّةَ»[٥] وغير ذلك من الأحاديث في الأخلاق الذّميمة، فهذا محلّ الاحتياط.

والمقصود أوّلًا من التّصوّفات: تصفية القلب لها، وقلع هوى النفس من أصلها بالخلوة والرّياضة والصّمت وملازمة الذّكر بالإرادة والمحبّة والإخلاص والتّوبة والاعتقاد الصّحيح السُّنّي تَبَعًا على آثار السّلف الصّلحاء من الصّحابة والتّابعين من المشايخ والعلماء العاملين، فإذا جلس المؤمن الموحّد في الخلوة بالتّوبة والتّلقين مع هذه الشّرائط المذكورة خلّص الله عمله، ونوّر الله قلبه، وليّن جلده، وطهّر لسانه، وجمع حواسّه من الظّاهر والباطن، ورفع عمله إلى حضرته، وسمع دعاءه كما يقول: سمع الله لمن حمده أي: قَبِلَ الله دعوته وثناءه وتضرّعه، وأنال عوضه إلى عبده من القربة والدّرجة كما قال الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: الآية ١٠].

والمراد من الكَلِم الطّيب: أن يحفظ لسانه من اللّغويات بعد كونه آلة لذكر الله تعالى وتوحيده كما قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ [المؤمنون: الآيات ١ - ٣] فيرفع الله العلم والعمل والعامل إلى قربته ورحمته ودرجاته بالمغفرة والرّضوان.

وإذا حصلت للخلوتي هذه المقامات كان قلبه كالبحر لا يتغيّر بإيذاء النّاس كما قال رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: «كن بحرًا لا يتغيّر» فتموت البريات النّفسانيّة فيه كما غرق فرعون وآله في البحر، ولم يفسد البحر، ثمّ تكون سفينة الشّريعة سليمة جارية عليه، ويكون الرّوح القدسيّ غوّاصًا إلى قعره، فيصل إلى درّ

(١) رواه الديلمي في الفردوس (٤٣٢٠)، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٩١).
(٢) أورده المناوي في فيض القدير (٤/ ٤٦١).
(٣) روى الترمذي بنحوه (١٩٦١)، وانظر: البخلاء للخطيب، والدر المنضود في ذم البخل ومدح الجود للمناوي كلاهما بتحقيقنا.
(٤) روى ابن ماجه نحو (٤٢٠٤). (٥) رواه مسلم (١٠٥).

الحقيقة ويخرج من لؤلؤ المعرفة ومرجان اللّطائف المكنونة كما قال الله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ [الرّحمٰن: الآية ٢٢] لأنّ هذا البحر حصل لمن جمع بحر الظّاهر والباطن، فلا يمكث بعده الفساد في القلب، وتكون توبته ناصحًا له، وعمله نافعًا، ولا يميل إلى المناهي قصدًا، ويكون السّهو والنّسيان معفوًّا عنه بالاستغفار والنّدم إن شاء الله تعالى.

الفصل الحادي والعشرون

في بيان أوراد الخلوة

ينبغي للخلوتي أن يفيء بالصّوم إن استطاع، ويصلّي الصّلوات الخمس بالجماعة في المسجد بأوقاتها مع سنتها وشرائطها وأركانها، لا على التّعطيل. ويصلّي اثنتي عشرة ركعة بعد نصف اللّيل وثلثه بنيّة التّهجّد كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: الآية ٧٩]، وكما قال الله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [السّجدة: الآية ١٦].

ويصلّي ركعتين بنيّة الإشراق بعد طلوع الشّمس، وركعتين بعدها بنيّة الاستعاذة بالمعوّذتين، وركعتين بعدها بنيّة الاستخارة، يقرأ في كلّ ركعة فاتحة الكتاب مرّة وآية الكرسيّ مرّة وسورة الإخلاص سبعًا، وست ركع بعدها بنيّة الضّحى، وركعتين بعدها بنيّة كفارة البول يقرأ في كلّ ركعة: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾﴾ [الكوثر: الآية ١] سبع مرّات بعد الفاتحة. فإذا صلّى ذلك كفّر ذنوب البول ونجا من عذاب القبر كما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «اسْتَنْزِهُوا مِنَ البَوْلِ فَإِنَّ عَامَّةَ عَذَابِ القَبْرِ مِنْهُ»[1] ويصلّي أربع ركعات بنيّة التّسبيح، يقرأ في كلّ ركعة فاتحة الكتاب وسورة معها، ويقول بعد القراءة في القيام: سبحان الله، والحمد لله، ولا إلٰه إلا الله، والله أكبر خمس عشرة مرّة، ثمّ يكبّر ويركع ويقول في ركوعه: سبحان الله عشر مرّات. ثمّ يكبّر ويرفع رأسه، ثمّ يقول عشر مرّات ويسجد، ثمّ في السّجدة الأولى أيضًا عشر مرّات، ثمّ يرفع رأسه ويقول عشر مرّات بين السّجدتين أيضًا، ثمّ يقول عشر مرّات في السّجدة الثّانية، ثمّ يقول أيضًا عشر مرّات بعد السّجدتين، وكذا يفعل في الرّكعة الثّانية والثّالثة والرّابعة. ويصلّي هذه الصّلاة في كلّ يوم وليلة

(١) أورده الحسيني في البيان والتعريف (ص ٩٤)، ورواه ابن أبي حاتم في العلل (١/ ٢٦)، والدارقطني في سننه (١/ ١٢٨)، والحاكم (١/ ١٨٣، ١٨٤).

من استطاع، وإلّا ففي كلّ جمعة مرّة، وإلّا ففي كلّ شهر مرّة، وإلّا ففي كلّ سنة مرّة، وإلّا ففي كلّ عمرة مرّة، وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: لعمه العبّاس رضي الله تعالى عنه: «من صلّى هذه الصلاة غفر الله ذنوبه كلها، وإن كانت أكثر من عدد الرّمال وعدد نجوم السّماء وعدد الأشياء كلّها»[1].

وينبغي للطّالب أن يقرأ الدّعاء السّيفيّ في كلّ يوم مرّة أو مرّتين، ويقرأ من القرآن في كلّ يوم مقدار مئتي آية، ثمّ يذكر الله كثيرًا إمّا جهرًا إن كان من أهل الجهر أو خفية إن كان من أهل الخفية، ومقام الخفية يكون بعد حياة القلب ونطقها بلسان السّرّ كما قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ﴾ [البقرة: الآية ١٩٨]. ثمّ في كلّ يوم اسم والربّ يعرف أهله ثمّ يقرأ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: الآية ١] في كلّ يوم مئة مرّة، ويصلّي على النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أيضًا في كلّ يوم مئة مرّة، ويقول: أستغفر الله وأتوب إليه أيضًا في كلّ يوم، وإن استطاع زاد ما شاء من النّوافل والتّلاوة، ولا يضيع أجره عند الله كما قال الله تعالى: ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [التوبة: الآية ١٢٠].

الفصل الثّاني والعشرون

في بيان الوقعات في المنام والسّنة

فالوقعات معبرة في النّوم والسّنة كما قال الله تعالى: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ﴾ [الفتح: الآية ٢٧]، وكما قال النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: «لَمْ يَبْقَ مِنَ النُّبُوَّةِ إلّا الْمُبَشِّرَاتِ...»[2] يراها المؤمنون أو ترى لهم كما قال الله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ [يونس: الآية ٦٤]، والمراد منه الرّؤيا الصّالحة في قول البعض كما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِت وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ»[3] وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «مَنْ رَآنِي في الْمَنَامِ فَقَدْ رَآنِي في الْيَقَظَةِ لأنَّ الشَّيْطَانَ لا يَتَمَثَّلُ بِي وَبِمَنْ تَبِعَنِي»[4] ـ أي: تابعني بنور عمل الشّريعة والطّريقة والمعرفة، وبنور الحقيقة

(١) رواه أبو داود (١٢٩٧).

(٢) رواه البخاري (٦/ ٢٥٦٤)، ومالك في الموطأ (٢/ ٩٥٧)، والطبراني في الكبير (٣/ ١٧٩).

(٣) رواه البخاري (٣/ ١١٩٨)، ومسلم (١/ ٣٤٨)، (٤/ ١٧٧٢)، والترمذي في الشمائل (٣٩٥) بتحقيقنا.

(٤) رواه البخاري (٦٥٩٢)، والترمذي (٢٢٧٦)، وفي الشمائل (٣٨٩)، بتحقيقنا. وانظر: أشرف=

والبصيرة. كما قال الله تعالى: ﴿...ٱدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى...﴾ [يُوسُف: الآية ١٠٨].

فلا يتمثّل الشّيطان بهذه الأنوار اللّطيفة كلّها.

قال صاحب المظهر: هذا ليس للاختصاص بالنّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم، بل لا يتمثّل بكلّ ما هو مظهر الرّحمة واللّطف والهداية كجميع الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام والأولياء والكعبة والشّمس والقمر والسّحاب الأبيض والمصحف وأمثال ذلك لأنّ الشّيطان مظهر القهر، فلا يظهر إلّا في صورة الاسم المضلّ فمن كان مظهر للاسم الهادي كيف يظهر بصورته، فالضّد لا يظهر بصورة الضّد لما بينهما من التّنافر والبعد، وليميّز الحقّ والباطل كما قال الله تعالى: ﴿... كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ...﴾ [الرّعد: الآية ١٧].

وأمّا تمثّله يكون في صورة الرّبوبيّة، ودعوى الرّبوبيّة يجيء منه لأنّ صفة الله جلال وجمال، والشّيطان يتمثّل بصفة الجلال لأنّه مظهر القهر فظهور تمثّل ربوبيّته، ودعواه من اسم المضلّ فقط كما مرّ، ولا يظهر في صورة اسم الجامع لما فيه من معنى الهداية، وفيه كلام كثير يطول شرحه وقوله تعالى: ﴿...عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى...﴾ [يُوسُف: الآية ١٠٨] إشارة إلى الوارث الكامل المرشد ـ أي: الإرشاد بعدي لمن له بصيرة باطنة مثل بصيرتي من وجه ـ والمراد منه الولاية الكاملة كما أشار إليه بقوله: ﴿...وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: الآية ١٧].

ثمّ اعلم أنّ الرّؤيا على نوعين: آفاقي، وأنفسي. وكلّ واحد منهما على نوعين.

فالأنفسي: إمّا من الأخلاق الحميدة أو الذّميمة. فالحميدة مثل رؤية الجنان ونعيمها، ومثّل الحور والقصور والغلمان والصّحراء النّورانيّ الأبيض، ومثل الشّمس والقمر والنّجوم وما أشبه ذلك متعلّق بالقلب.

وأمّا ما يتعلّق بالنّفس المطمئنة مثل مأكول اللّحم من الحيوانات والطّيور؛ لأنّ معيشة المطمئنة في الجنّة تكون بهذه الأنواع كشويّ الغنم والطّيور. وأمّا البقر فهو آت من الجنّة لآدم عليه الصّلاة والسّلام لأجل زراعته في الدّنيا. والإبل أيضًا منها لأجل سفر كعبة الظّاهر والباطن.

▪ الوسائل إلى فهم الشمائل (ص ٥٩٦) بتحقيقنا.

والخيل آت أيضًا منها آلة الجهاد الأصغر والأكبر. فكلّ ذلك للآخرة، وفي الحديث: «أنَّ الغَنَمَ خُلِقَ مِنْ عَسَلِ الجَنَّةِ، والبَقَرَ مِنْ زَعْفَرَانِها، والإبِلَ مِنْ نُورِهَا، وَالخَيْلَ مِنْ رِيْحِهَا»(١) وأمّا البغل فهو من أدنى صفة المطمئنة من رآه في المنام فتعبيره أن يكون الرّائي كسلًا في العبادة، وثقلًا في القيام والقعود، ولا يكون لكسبه نتيجة في الحقيقة إلّا التّوبة: ﴿...وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ...﴾ [الكهف: الآية ٨٨]. والحمير من حجارتها لأجل مصلحة آدم عليه الصّلاة والسّلام وذرّيته لكسب الآخرة في الدّنيا.

وأمّا ما يتعلّق منها بالرّوح فكالشّابّ الأمرد، تتجلّى عليه الأنوار الإلٰهية؛ لأنّ أهل الجنّة كلّهم على هذه الصّورة كما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «أَهْلُ الْجَنَّةِ جُرْدٌ مُرْدٌ كُحْلٌ...»(٢) الحديث. وكما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «رَأَيْتُ رَبِّي بِصُورَةِ شَابٍّ أَمْرَدٍ»(٣). قال بعضهم: المراد من هذه الصّورة تجلّي الحقّ بصفة الرّبوبيّة على مرآة الرّوح، وهو الّذي يسمّونه طفل المعاني؛ لأنّه مربّ الجسد، ووسيلة بينه وبين الرّبّ. وقال أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه: «لولا المربي لما عرفت ربّي»، وهذا المربي مربي الباطن، وهو إنّما يحصل بسبب تربية مربٍّ ظاهريّ بالتّلقين، فالأنبياء والأولياء مربو القوالب ومربو القلوب ما يحصل من تربيتهم من لقاء الرّوح الآخر كما مرّ، كما قال الله تعالى: ﴿...يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ...﴾ [غافر: الآية ١٥]. وطلب المرشد لأجل هذا الرّوح الّذي يحيىٰ به القلب ويعرف به ربّه فافهم.

قال الإمام الغزاليّ رحمة الله عليه: يجوز أن يُرى الرّبُّ في المنام على صورة جميلة أخرويّة على هذا التّأويل المذكور. قال: لأنّ مثل المرئيّ مثال ما يخلقه الله تعالى على قدر استعداد الرّائي ومناسبته، وليس الحقيقة الذّاتيّة؛ لأنّ الله تعالى منزّه عن الصّورة، أو يُرى بذاته في الدّنيا كرؤية النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم وعلى هذا القياس يجوز أن يُرى في صورة مختلفة على قدر مناسبة استعداد الرّائي، ولا يرى الحقيقة المحمّديّة إلّا الوارث الكامل في عمله وعلمه وحاله وبصيرته، ظاهرًا وباطنًا، لا في حاله. وكذا في شرح المسلم: يجوز رؤية الله تعالى في الصّورة البشريّة النّورانيّة على التّأويل المذكور. والقياس على تجلّي كلّ صفة على هذا النّهج كما

---

(١) لم أقف عليه.
(٢) رواه الترمذي (٢٥٣٩).
(٣) تقدّم تخريجه.

تجلّى لموسى عليه الصّلاة والسّلام في صورة النّار من شجر العنّاب كما قال الله تعالى: ﴿... لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ...﴾ [طه: الآية ١٠]، ومن صفة الكلام كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [طه: الآية ١٧] وكانت تلك النّار نورًا، لكن سمّيت نارًا على زعم موسى عليه الصّلاة والسّلام وطلبه، وليس الإنسان أدنى مرتبة من الشّجرة، فلا عجب أن يتجلّى بصفة من صفات الله تعالى في الحقيقة الإنسانيّة بعد التّصفية من الصّفات الحيوانيّة إلى الإنسانيّة كما تجلّى على بعض الأولياء كأبي يزيد البسطاميّ حيث قال: «سبحاني ما أعظم شأني» وكالجنيد البغداديّ حيث قال: «ليس في جبّتي سوى الله» ونحو ذلك، وفي ذلك المقام لطائف عجيبة لأهل التّصوّف يطول شرحها.

ثمّ في التّربية لا بدّ من المناسبة، فالمبتدىء من أوّل أمره لا مناسبة بينه وبين الله وبين نبيّه صلّى الله عليه وآله وسلّم فاحتاج لا محالة إلى تربية الوليّ أوّلًا، لأنّ الوليّ مناسبة بينه وبين المبتدىء من جهة البشريّة كما للنّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم حال حياته فإذا كان النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم في الحياة الدّنيا لما احتاج أحد إلى غيره، فإذا انتقل إلى الآخرة انقطع من صفة التّعلّق، ووصل إلى محض التجرّد، وكذا الأولياء إذا انتقلوا إلى الآخرة لا يصل أحدًا منهم الإرشاد إلى المقصود فافهم إن كنت من أهل الفهم. وإن لم تكنَ فاطلب الفهم بالرّياضة النّورانيّة الغالبة على النّفسانيّة الظّلمانيّة لأنّ الفهم يحصل بالنورانيّة لا بالظّلمانيّة ولأنّ النّور لا يجيء بموضع إلّا يكون مُدْنيًا مشرقًا، فلم يبق للمبتدىء مناسبة له.

وأمّا الوليّ الّذي يكون في الحياة فله مناسبة، لأنّ له جهتين التّعلّقيّة الجسمانيّة، والتّجرديّة الرّوحانيّة، من جهة الوراثة الكاملة، فيتوالى إليه مدد الولاية النّبويّة من النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ويتعرف بها النّاس. فافهم فإنّ وراء ذلك سرًّا عميقًا يدركه أهله. قال الله تعالى: ﴿... وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: الآية ٨].

وأمّا تربية الأرواح في الباطن، فروح الجسمانيّ مربى في الجسم أوّلًا، ثمّ روح الرّوانيّ مربى في القلب، ثمّ روح السّلطانيّ مربى في الفؤاد، ثمّ روح القدسيّ مربى في السّرّ وهو الواسطة بينه وبين الحقّ، ومترجم من الحقّ إلى الخلق؛ لأنّه أهل الله ومحرمه.

وأمّا الرّؤيا الّتي هي من الأخلاق الذّميمة من صفة الأمّارة واللّوامة والملهمة فهي من السّباعات كالنّمر والأسد والدّب والذّئب والكلب والخنزير، ومثل الأرنب

والثّعلب والفهد والهرّة والحيّة والعقرب والزّنبور وغير ذلك من المؤذيات، فهذه من صفة الذّميمة الّتي يجب الاحتراز عنها، وإزالتها عن طريق الرّوح.

وأمّا النّمر: فهو من صفة العُجب، وهو الكبر على الله تعالى.

وأمّا الأسد: فهو من صفة الكبر والتّعظيم على الخلق.

وأمّا الدّب: فهو من صفة الغضب والغلبة على من في تحت يده.

وأمّا الذّئب: فهو من صفة أكل الحرام وحبّ الدّنيا والقهر والغضب لأجلها.

وأمّا الخنزير: فهو من صفة الحقد والحسد والحرص على الشّهوات.

وأمّا الأرنب: فهو من صفة الخيانة والمكر بمعاملات الدّنيا الدّنيّة، والثّعلب أيضًا، ولكن في الأرنب الغفلة غالبة.

وأمّا الفهد: فهو من صفة العزة الجاهلية، وحبّ الرّياسة.

وأمّا الهرّة: فهي من صفة البخل والنّفاق.

وأمّا الحيّة: فهي من صفة الإيذاء باللّسان كالشتم والغيبة والكذب. ويرى في ذلك السّباع في معاني حقيقية يدركها أهلها بالبصيرة.

وأمّا العقرب: فهو من صفة الغمز والهمز والنّميمة.

وأمّا الزّنبور: فهو من صفة إيذاء الخلق باللّسان خفيًا، وقد تدلّ الحيّة على العداوة مع النّاس، فإذا رأى السّالك في نفسه أنّه يحارب مع المؤذيات، ولم يتغلّب عليها بعد الرّؤية فليجتهد بالعبادة والذّكر حتّى يتغلّب عليها ويقهرها بقتلها أو يبدّلها إلى الصّورة البشريّة، فإنْ قهرها وقتلها بالكلّيّة فهو معنى تكفير السّيئات كما قال الله تعالى في حقّ بعض التّائبين: ﴿... كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمّد: الآية ٢] وإن رأى أنّها تبدّلت إلى صورة الإنسانيّة، فهو معنى تبديل السيئات إلى الحسنات كما قال الله تعالى في حقّ التّوابين: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ...﴾ [الفرقان: الآية ٧٠] فقد خلص منها هذه المرّة، فينبغي أن لا يأمن منها بعد ذلك؛ لأنّه إذا وجد النّفس قويّة من خبائث العصيان والنّسيان تقوّت وغلبت على المطمئنة، ولذلك أمر الله تعالى أن يتجنّب العبد من المناهي في جميع الأوقات ما دام في الدّنيا.

وقد يرى ذات النّفس الأمّارة على صورة الكفّار، واللّوامة على صورة اليهوديّ، والملهمة على صورة النّصرانيّ. وكذا في صورة المبتدعة.

الفصل الثّالث والعشرون

في بيان أهل التّصوّف

وهم اثنا عشر نفرًا واحدهم سُنّيُّون: وهم الّذين أفعالهم وأقوالهم موافقة للشّريعة والطّريقة، وهم أهل السّنّة والجماعة، وبعضهم يدخلون الجنّة بغير حساب، وبعضهم يدخلون الجنّة بعد العذاب، والبواقي بدعيّون.

فمنهم: الحلويّة، والحاليّة، والأوليائيّة، والشّمراخيّة، والحبيّة، والحوريّة، والإباحيّة، والمتكاسلة، والحدية والمتجاهلة، والواقفيّة، والهاميّة.

فأمّا مذهب **الحلوتية**: فإنّهم يقولون: إنّ النّظر إلى الوجه الجميل من النّساء والأمرد حلال، وفيه صفة الحقّ، فيرقصون ويدّعون التّقبيل والمعانقة، وهذا كفر محضٌ.

وأمّا **الحالية**: فإنهم يقولون: الرّقص وضرب اليد حلال، ويقولون للشّيخ حالة لا يعبر عنها الشّرع، وهذه بدعة ليست في سنّة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم.

وأمّا **الأوليائية**: فإنّهم يقولون: إذا وصل العبد إلى مرتبة الأولياء سقطت عنه تكاليف الشّرع. ويقولون: الوليّ أفضل من النّبيّ؛ لأنّ علم النّبيّ بواسطة جبرائيل عليه السّلام، وعلم الوليّ بغير واسطة جبرائيل عليه السّلام، وهذا التّأويل خطأ، وهم هلكوا بذلك الاعتقاد، وهذا كفر.

وأمّا **الشّمراخية**: فإنّهم يقولون: الصّحبة قديمة، وبها يسقط الأمر والنّهيّ، ويُحِلّون الدّف والطّنبور وباقي المناهي شرعًا، وابنتهم حلال من جهة النّساء. وهم كفّار، ودمهم مباح.

وأمّا **الحبية**: فإنهم يقولون: إذا وصل العبد إلى درجة المحبّة عند الله تعالى تسقط عنه التّكاليف، ولا يسترون عورتهم بينهم.

وأمّا **الحورية**: فإنّهم كالحاليّة، لكن يدّعون وطء الحور في حالاتهم، فإذا أفاقوا اغتسلوا فكذبوا فهلكوا به.

وأمّا **الإباحيّة**: فيتركون الأمر بالمعروف، ويحلّون الحرام، ويبيحون النّساء.

وأمّا مذهب **المتكاسلة**: فيتركون الكسب ويسألون من الأبواب، ويدّعون ترك الدّنيا، وهلكوا به.

وأمّا **المتجاهلة**: فيلبسون لباس الفُسّاق على ظهورهم، ويدّعون في بواطنهم، وهلكوا به كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ...﴾ [هُود: الآية ١١٣].

وأمّا **الواقفيّة**: فإنّهم يقولون: لا يعرفُ الله غيرُ الله تعالى قط، ويتركون طلب المعرفة، وهلكوا به.

وأمّا **الهاميّة**: فيتركون العلم، وينهون عن التّدريس، وتابعوا الحكماء. ويقولون: القرآن حجاب، والأشعار قرآن الطّريقة، ويعتقدون بذلك القول، ويتركون القرآن، ويعلّمون الأشعار أولادهم، ويتركون الوِرد وهلكوا بذلك الاعتقاد، وفي نفسهم الباطل يقولون نحن أهل السّنّة والجماعة.

وليسوا منهم ويقول أهل السّنّة والجماعة: إنّ الصّحابة كانوا أهل الجذبة بقوّة صحبة النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم، ثم انتشرت تلك الجواذب بعد عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه إلى مشايخ الطّريقة، ثمّ تشعّبت إلى سلاسل كثيرة، حتّى ضعفت وانقطعت عن كثير منهم، فبقي منهم الرّسوم في صورة الشّيوخة بلا معنى، ثمّ تشعّب منهم أهل البدعة، ثمّ انتسب بعضهم إلى قلندر، وبعضهم إلى حيدر، وبعضهم إلى أدهم، وغير ذلك ويطول شرحها. ففي هذا الزّمان أهل الفقر والإرشاد أقلّ من القليل، ويُعلم أهل الحقّ بشاهدين: أحدهما ظاهر، والآخر باطن.

فالظّاهر: الاستحكام على الشّريعة أمرًا ونهيًا.

والباطن: أن يكون سلوكه على مشاهدة البصيرة، فيرى من يقتدي به، وهو النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ويكون واسطة بين الله وبين روحانيّة النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم وجسمانيته في محلّه، فإنّ الشّيطان لا يتمثّل به، فيكون منه إشارة إليه، وإلى مريديه السّالكين، فلا يكون سلوكهم على العمى وهٰهنا دقائق العلامات في التّمييز لا يدركها إلّا القليل.

الفصل الرّابع والعشرون

في بيان الخاتمة النزعة

ينبغي أن يكون السّالك فطنًا بصيرًا ناظرًا إلى خواتيم الأمور، ويتفكّر في إدبارها، ولا يغترّ بظاهر الأحوال، فقد اتّفق أهل التّصوّف أنّ السّالك إلى الأحوال يغفل عن محوّلها كما قال الله تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٩٩]، وكذلك قال الله تعالى في الحديث القدسيّ: «يا مُحَمَّدُ بَشِّرِ المُذْنِبِيْنَ بِأَنِّي غَفُورٌ، وَأَنْذِرِ الصَّادِقِيْنَ بِأَنِّي غَيُورٌ»[1].

فإنّ كرامات الأولياء وأحوالهم غير مأمونة من المكر والاستدراج، بخلاف معجزات الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام فإنّها مأمونة من ذلك أبدًا، وقيل خوف سوء الخاتمة سبب النّجاة من سوء الخاتمة غالبًا لئلا تخدعه البشريّة؛ فيقطع سبيله من حيث لا يشعرون.

قالوا: في الصّحة يكون الخوف غالبًا، وفي المرض يكون الرّجاء غالبًا، قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «لَو وُزِنَ خَوْفُ المُؤْمِنِ وَرَجَاؤُهُ لاستَوَيَا»[2]. وأمّا في حالة النّزع فينبغي للمؤمن أن يكون رجاؤه بفضل الله أغلب. قال النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: «لا يموتن أحدكم إلّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ باللهِ»[3] ـ يعني: يتفكّر بسُبْقَةِ رحمته على غضبه وبسَعَةِ رحمته واستعانته، إنّه أرحم الرّاحمين، فَيَفِرُّ من قهره إلى لطفه، ويفرُّ منه إليه متذلّلًا متضرعًا معتذرًا متملّقًا معترفًا بذنبه في بابه، فيتوقّع فيض ألطافه ورحمته على ذنبه، إنّ الله هو البرّ الرّحيم، والجواد الكريم.

اللّهمّ يا هادي المضلّين، ويا أرحم المذنبين، علمك كاف عن المقال، وكرمك كاف عن السؤال، اللّهمّ صلّ على سيّد المرسلين، وآله وصحبه أجمعين، يا ربّ العالمين.

تمّت الرّسالة بتوفيق الله تعالى

---

(١) رواه الحكيم الترمذي في النوادر (٤/ ٧٨)، بنحوه عن الله تعالى قوله: «يا داود بشر المذنبين...».

(٢) رواه أحمد في الزهد (ص ٢٩٣)، بنحوه، وانظر: الدرر للسيوطي (٣٤٩).

(٣) رواه مسلم (٢٨٧٧)، وأبو داود (٣١١٣)، وأحمد في المسند (٣/ ٢٩٣).

فتوح الغيب

لشيخ الإسلام عبد القادر بن موسى الجيلاني

المتوفى ٥٦١ هـ

تحقيق وتعليق

أحمد فريد المزيدي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال الشيخ عبد الرزاق ولد المؤلّف: قال والدي رضي الله تعالى عنه مؤيد الأئمة سيد الطوائف أبو محمد محيي الدين عبد القادر الجيلاني الحسني الحسيني الصديقي، ابن أبي صالح موسى جنكي دوست ابن الإمام عبد الله ابن الإمام يحيىٰ الزاهد ابن الإمام محمد ابن الإمام داود ابن الإمام موسى ابن الإمام عبد الله ابن الإمام موسى الجون ابن الإمام عبد الله المحض ابن الإمام الحسن المثنى ابن الإمام أمير المؤمنين سيّدنا الحسن السبط ابن الإمام الهمام أسد الله الغالب، فخر بني غالب، أمير المؤمنين سيدنا عليّ بن أبي طالب، كرّم الله وجهه، ورضي عنه وعنهم أجمعين آمين:

الحمد لله ربِّ العالمين أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا عدد خلقه ومداد كلماته، وزِنة عرشه، ورِضا نفسه، وعدد كل شفع ووتر، ورطب ويابس في كتاب مبين، وجميع ما خلق ربنا وذرأ وبرأ، خالق بلا مثال أبدًا سرمدًا طيبًا مباركًا، الذي خلق فسوّى، وقدّر فهدى، وأمات وأحيا، وأضحك وأبكى، وقرّب وأدنى، وأرحم وأخزى، وأطعم وأسقى، وأسعد وأشقى، ومنع وأعطى. الذي بكلمته قامت السبع الشداد، وبها رست الرواسي والأوتاد واستقرت الأرض المهاد، فلا مقنوطًا من رحمته ولا مأمونًا من مكره وغيرته، وإنفاذ أقضيته وفعله وأمره، ولا مستنكفًا عن عبادته، ولا مخلوًا من نعمته. فهو المحمود بما أعطى، والمشكور بما زوى، ثم الصلاة على نبيه المصطفى ﷺ، الذي من اتبع ما جاء به اهتدى ومن صدف عنه ضل وارتدى، النبي الصادق المصدوق الزاهد في الدنيا، الطالب الراغب في الرفيق الأعلى، المجتبى من خلقه، المنتخب من بريته، الذي جاء الحق بمحبته، وزهق الباطل بظهوره، وأشرقت الأرض بنوره.

ثم الصلوات الوافيات، والبركات الطيبات، الزاكيات المباركات عليه ثانيًا وعلى آله الطيبين، وأصحابه والتابعين، لهم بإحسان، الأحسنين لربهم فعلًا، الأقومين له قيلًا. والأصوبين إليه طريقًا وسبيلًا، ثم تضرعنا ودعاؤنا ورجوعنا إلى ربنا، ومنشئنا وخالقنا ورازقنا، ومطعمنا ومسقينا، ونافعنا وحافظنا، وكالئنا ومحيينا. والذاب والدافع عنا جميع ما يؤذينا ويسوءنا، كل ذلك برحمته وتحننه وفضله ومنته بالحفظ الدائم في الأقوال والأفعال في السر والإعلان. والإظهار والكتمان والشدة والرخاء والنعمة والبأساء والضراء، إنه فعال لما يريد، الحاكم بما يشاء، العالم بما يخفى، المطلع على الشؤون والأحوال، من الزلّات والطاعات والقربات، السامع للأصوات، المجيب للدعوات، لمن يشاء من غير تنازع ولا تردد.

أما بعد ـ فإن نعم الله على كثيرة متواترة، في آناء الليل وأطراف النهار والساعات، واللحظات الخطرات وجميع الحالات، كما قال عزّ وجلّ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: الآية ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: الآية ٥٣] فلا يدان لي ولا جنان ولا لسان في إحصائها وأعدادها، فلا يدركها التعداد ولا تضبطها العقول والأذهان، ولا يحصيها الجنان، ولا يعبرها اللسان. فمن جملة ما مكّن عن تعبيرها اللسان، وإظهارها الكلام وكتبها البنان، ويفسره البيان، وكلما برزت وظهرت لي من [فتوح الغيب] فحلت في الجنان، فأشعلت المكان فأنتجها وأبرزها صدق الحال، فتولى إبرازها لطفل المنان، ورحمة الأنام في قالب صواب المقال، لمريدي الحق والطلاب.

المقالة الأولى

فيما لا بدّ لكل مؤمن

قال رضي الله تعالى عنه وأرضاه: لا بد لكل مؤمن في سائر أحواله من ثلاثة أشياء: أمر يمتثله، ونهي يجتنبه، وقدر يرضى به، فأقل حالة المؤمن لا يخلو فيها من أحد هذه الأشياء الثلاثة، فينبغي له أن يلزم همها قلبه؛ وليحدث بها نفسه؛ ويؤاخذ الجوارح بها في سائر أحواله.

المقالة الثانية

في التواصي بالخير

قال رضي الله تعالى عنه وأرضاه: اتبعوا ولا تبتدعوا، وأطيعوا ولا تمرقوا، ووحدوا ولا تشركوا، ونزهوا الحق ولا تتهموا، وصدقوا ولا تشكوا، واصبروا ولا

تجزعوا واثبتوا ولا تنفروا، واسألوا ولا تسأموا، وانتظروا وترقبوا ولا تيأسوا، وتواخوا ولا تعادوا، واجتمعوا على الطاعة ولا تتفرقوا، وتحابوا ولا تباغضوا، وتطهروا عن الذنوب وبها لا تدنسوا ولا تتلطخوا وبطاعة ربكم فتزينوا، وعن باب مولاكم فلا تبرحوا، وعن الإقبال عليه فلا تتولوا، وبالتوبة فلا تسوفوا، وعن الاعتذار إلى خالقكم في آناء الليل وأطراف النهار فلا تملوا، فعلكم ترحمون وتسعدون، وعن النار تبعدون، وفي الجنة تحبرون، وإلى الله توصلون، وبالنعيم وافتضاض الأبكار في دار السلام تشتغلون وعلى ذلك أبدًا تخلدون وعلى النجائب تركبون، وبحور العين وأنواع الطيب وصوت القيان مع ذلك النعيم تحبرون، ومع الأنبياء والصديقين والشهداء الصالحين ترفعون.

المقالة الثالثة

في الابتلاء

قال رضي الله تعالى عنه وأرضاه: إذا ابتلى العبد ببلية تحرك أولًا في نفسه بنفسه، فإن لم يتخلص منها استعان من الخلق كالسلاطين وأرباب المناصب وأرباع الدنيا وأصحاب الأحوال وأهل الطب في الأمراض والأوجاع، فإن لم يجد في ذلك خلاصًا رجع إلى ربه بالدعاء والتضرع والثناء، ما دام يجد بنفسه نصرة لم يرجع إلى الخلق، وما دام يجد به عند الحق نصرة لم يرجع إلى الخالق، ثم إذا لم يجد عند الخالق نصرة استطرح بين يديه مديمًا للسؤال والدعاء والتضرع والثناء والافتقار مع الخوف والرجاء، ثم يعجز الخالق عزَّ وجلَّ عن الدعاء ولم يجيبه حتى ينقطع عن جميع الأسباب، فحينئذٍ ينفذ فيه القدر ويفعل فيه الفعل، فيفنى العبد عن جميع الأسباب والحركات، فيبقى روحًا فقط، فلا يرى إلا فعل الحق فيصير موقنًا موحدًا ضرورة يقطع أن لا فاعل في الحقيقة إلا الله لا محرك ولا مسكن إلا الله ولا خير ولا شر ولا ضر ولا نفع ولا عطاء ولا منع ولا فتح، ولا غلق، ولا موت ولا حياة، ولا عز ولا ذل إلا بيد الله فيصير في القدر كالطفل الرضيع في يد الظئر والميت الغسيل في يد الغاسل والكرة في صولجان الفارس يقلب ويغير ويبدل، ويكون ولا حراك به في نفسه ولا في غيره فهو غائب عن نفسه في فعل مولاه، فلا يرى غير مولاه وفعله، ولا يسمع ولا يعقل من غيره إن بصر وإن سمع، وعلم، فلكلامه سمع، ولعلمه علم، وبنعمته تنعم، وبقربه تسعد، وبتقريبه تزين وتشرف، وبوعده طاب وسكن، وبه اطمأن، وبحديثه أنس، وعن غيره استوحش ونفر، وإلى ذكره التجأ وركن، وبه عزَّ وجلَّ وثق وعليه توكل، وبنور معرفته اهتدى وتقمص وتسربل، وعلى

غرائب علومه اطلع، وعلى أسرار قدرته أشرف، ومنه سمع ووعى، ثم على ذلك حمد وأثنى وشكر ودعا.

المقالة الرابعة

في الموت المعنوي

قال رضي الله تعالى عنه وأرضاه: إذا مت عن الخلق قيل لك رحمك الله وأماتك عن الهوى، وإذا مت عن هواك قيل لك رحمك الله وأماتك عن إرادتك ومناك، وإذا مت عن الإرادة قيل لك رحمك الله وأحياك حياة لا موت بعدها، وتغنى غنى لا فقر بعده، وتعطى عطاء لا منع بعده، وتراح براحة لا شقاء بعدها، وتنعم بنعمة لا بؤس بعدها، وتعلم علمًا لا جهل بعده، وتؤمن أمنًا لا خوف بعده، وتسعد فلا تشقى، وتعز فلا تذل، وتقرب فلا تبعد، وترفع فلا توضع، وتعظم فلا تحقر، وتطهر فلا تدنس، لتحقق فيك الأماني، وتصدق فيك الأقاويل، فتكون كبريتًا أحمر فلا تكاد ترى، وعزيزًا فلا تماثل، وفريدًا فلا تشارك، وحيدًا فلا تجانس، فردًا بفرد ووترًا بوتر، وغيب الغيب، وسر السر، فحينئذٍ تكون وارث كل نبي وصديق ورسول بك تختم الولاية. وإليك تصور الأبدال وبك تنكشف الكروب، وبك تسقى الغيوث، وبك تنبت الزروع، وبك يدفع البلاء والمحن عن الخاص والعام وأهل الثغور والراعي بها والرعايا، والأئمة والأمة وسائر البلايا، فتكون شحنة البلاد والعباد، فتنطلق إليك الرجل بالسعي، والوجال والأيدي بالذل والعطاء والخدمة بإذن خالق الأشياء في سائر الأحوال، والألسن بالذكر الطيب والحمد والثناء وجميع المجال، ولا يختلف فيك اثنان من أهل الإيمان، يا خير من سكن البراري وجال بها ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾ [الجُمُعَة: الآية ٤].

المقالة الخامسة

في بيان حال الدنيا والحث على عدم الالتفات إليها

قال رضي الله عنه وأرضاه: إذا رأيت الدنيا في يدي أربابها بزينتها وأباطيلها وخدعها ومصائدها وسمومها القتالة، مع لين مس ظاهرها، وضراوة باطنها وسرعة إهلاكها، وقتلها لمن مسها واغتر بها وغفل عن وليها وغيرها بأهلها ونقض عهدها، فكن كمن رأى إنسانًا على الغائط بالبراز بادية سوأته وفاتحة رائحته، فإنك تغض بصرك عن سوأته، وتسد أنفك من رائحته ونتنه، فهكذا كن في الدنيا. إذا رأيتها غض

بصرك عن زينتها. وسدّ أنفك عما يفوح من روائحها وشهواتها ولذاتها، فتنجو منها ومن آفاتها ويصل إليك قسمك منها وأنت مهنأ، قال الله تعالى لنبيه المصطفى ﷺ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه: الآية ١٣١].

المقالة السادسة

في الفناء عن الخلق

قال رضي الله تعالى عنه وأرضاه: «افن عن الخلق بإذن الله تعالى، وعن هواك بأمر الله ﴿فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: الآية ٢٣] وعن إرادتك بفعل الله تعالى، وحينئذٍ تصلح أن تكون وعاء لعلم الله تعالى، فعلامة فنائك عن خلق الله تعالى انقطاعك عنهم وعن التردد إليهم واليأس مما في أيديهم، وعلامة فنائك عن هواك ترك التكسب والتعلق بالسبب في جلب النفع ودفع الضر فلا تحرك فيك ولا تتعمد عليك لك ولا تذب عنك ولا تنفر نفسك، تكل ذلك كله إلى الله تعالى لأنه تولاه أولًا فيتولاه آخرًا، كما كان ذلك موكولًا إليه في حال كونك مغيبًا في الرحم، وكونك رضيعًا طفلًا في مهدك وعلامك فنائك عن إرادتك بفعل الله أنك لا تريد مرادًا قط، ولا يكون لك غرض، ولا يبقى لك حاجة ولا مرام، فإنك لا تريد مع إرادة الله سواها، بل يجري فعل الله فيك، فتكون أنت عند إرادة الله وفعله ساكن الجوارح مطمئن الجنان منشرح الصدر منور الوجه عامر البطن غنيًا عن الأشياء بخالقها، تقلبك يد القدرة، ويدعوك لسان الأزل، ويعلمك رب الملل، ويكسوك أنوارًا منه والحلل، وينزلك من أولى العلم الأول. فتكون منكسرًا أبدًا. فلا يثبت فيك شهوة وإرادة كالإناء المنثلم الذي لا يثبت فيه مائع وكدر، فتنقى عن أخلاق البشرية. فلن يقبل باطنك شيئًا غير إرادة الله عزَّ وجلَّ، فحينئذٍ يضاف إليك التكوين وحرق العادات، فيرى ذلك منك في ظاهر الفعل والحكم، وهو فعل الله وإرادته حقًا في العالم، فتدخل في زمرة المنكسرة قلوبهم الذين كسرت إرادتهم البشرية وأزيلت شهواتهم الطبيعية فاستؤنفت لهم إرادة ربانية كما قال النبي ﷺ: «حبب إلي من دنياكم ثلاث: الطيب، والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة» فأضيف ذلك بعد أن خرج منه وزال عنه تحقيقًا بما أشرنا، وتقدم. قال الله تعالى: «أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي»، فإن الله تعالى لا يكون عندك حتى تنكر جملة هواك وإرادتك، فإذا انكسرت ولم يثبت فيك شيء أنشأك الله فجعل فيك

إرادة، فتزيد بتلك الإرادة، فإذا صرت في تلك الإرادة المنشأة فيك كسرها الرب تعالى بوجودك فيها، فتكون منكسر القلب أبدًا، فهو لا يزال يجد فيك إرادة ثم يزيلها عند وجودك فيها هكذا إلى أن يبلغ الكتاب أجله، فيحصل اللقاء، فهذا هو معنى «عند المنكسرة قلوبهم من أجلي» ومعنى قولنا عند وجودك فيها هو ركونك وطمأنينتك إليها. قال الله تعالى في حديثه القدسي، الذي يرويه ﷺ: «لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش به، ورجله التي يمشي بها» وفي لفظ آخر: «فبي يسمع، وبي يبطش، وبي يعقل» وهذا إنما يكون في حالة الفناء لا غير، فإذا فنيت عنك وعن الخلق، والخلق إنما هو خير وشر، وكذلك أنت خير وشر. فلم ترج خيرهم ولا تخاف شرهم بقي الله وحده كما كان، ففي قدر الله خير وشر، فيؤمنك من شره ويغرقك في بحار خيره، فيكون وعاء كل خير، ومنبعًا لكل نعمة وسرور وحبور وضياء وأمن وسكون، فالفناء والمنى والمبتغى والمنتهى حد ومرد ينتهي إليه مسير الأولياء، وهو الاستقامة التي طلبها من تقدم من الأولياء والأبدال أن يفنوا عن إرادتهم وتبدل بإرادة الحق عزَّ وجلَّ، فيريدون بإرادة الحق أبدًا إلى الوفاء، فلهذا سموا أبدالًا رضي الله عنهم، فذنوب هؤلاء السادة أن يشركوا إرادة الحق بإرادتهم على وجه السهو والنسيان وغلبة الحال والدهشة، فيدركهم الله تعالى برحمته بالتذكرة واليقظة، فيرجعوا عن ذلك ويستغرفوا ربهم، إذ لا معصوم عن الإرادة إلا الملائكة، عصموا عن الإرادة، والأنبياء عصموا عن الهوى، وبقية الخلق من الإنس والجن المكلفين لم يعصموا منها غير أن الأولياء بعضهم يحفظون عن الهوى، والأبدال عن الإرادة، ولا يعصمون منهما على معنى يجوز في حقهم الميل إليهما في الأحيان، ثم يتداركهم الله عزَّ وجلَّ باليقظة برحمته.

المقالة السابعة

في إذهاب غمّ القلب

قال رضي الله تعالى عنه وأرضاه: اخرج من نفسك وتنح عنها، وانعزل عن ملكك وسلّم الكل إلى الله، فكن بوابه على باب قلبك، وامتثل أمره في إدخال من يأمرك بإدخاله، وانته بنهيه في صد من يأمرك بصده، فلا تدخل الهوى قلبك بعد أن خرج منه، فإخراج الهوى من القلب بمخالفته، وترك متابعته في الأحوال كلها،

وإدخاله في القلب بمتابعته وموافاته، فلا ترد إرادة غير إرادته وغير ذلك منك تمن وهو وادي الحمقاء، وفيه حتفك وهلاكك وسقوطك من عينه وحجابك عنه، احفظ أبدًا أمره، وانته أبدًا نهيه وسلم أبدًا لمقدره، ولا تشركه بشيء من خلقه، فإرادتك وهواك وشهواتك كلها خلقه، فلا ترد ولا تهو ولا تشته كيلا تكون مشركًا. قال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: الآية ١١٠] ليس الشرك عبادة الأصنام فحسب، بل هو متابعتك هواك، وأن تختار مع ربك شيئًا سواه من الدنيا وما فيها والآخرة وما فيها، فما سواه عزَّ وجلَّ غيره، فإذا ركنت إلى غيره فقد أشركت به عزَّ وجلَّ غيره، فاحذر ولا تركن، وخف ولا تأمن وفتش، فلا تغفل فتطمئن، ولا تضف إلى نفسك حالًا ولا مقامًا، ولا تدع شيئًا من ذلك، فإن أعطيت حالًا أو أقمت في مقام فلا تختر شيئًا واحدًا من ذلك، فإن الله كل يوم هو في شأن، في تغيير وتبديل، وأنه يحول بين المرء وقلبه، فيزيلك عما أخبرت به، ويغيرك عما تخيلت ثباته وبقاءه، فتخجل عند من أخبرته بذلك بل احفظ ذلك فيك ولا تعده إلى غيرك فإنه كل الثبات والبقاء، فتعلم أنه موهبة وتسأل التوفيق للشكر واستر رؤيته وإن كان غير ذلك كان فيه زيادة علم ومعرفة ونور وتيقظ وتأدب. قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [البقرة: الآية ١٠٦] فلا تعجز الله في قدرته، ولا تتهمه في تقديره ولا تدبيره، ولا تشك في وعده، فليكن لك في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، نسخت الآيات والسور النازلة عليه المعمولة بها المقروءة في المحاريب المكتوبة في المصاحف، ورفعت وبدلت وأثبت غيرها مكانها، ونقل ﷺ إلى غيرها، هذا في ظاهر الشرع، وأما في الباطن والعلم والحال فيما بينه وبين الله عزَّ وجلَّ فكان يقول: «إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في كل يوم سبعين مرة» ويروى «مائة مرة» وكان ﷺ ينقل من حالة إلى أخرى ويسير به في منازل القرب وميادين الغيب، ويغير عليه خلع الأنوار، فتبين الحالة الأولى عند ثانيها ظلمة ونقصانًا وتقصيرًا في حفظ الحدود، فيلقن الاستغفار لأنه أحسن حال العبد، والتوبة في سائر الأحوال لأن فيها اعترافه بذنبه وقصوره، وهما صفتا العبد في سائر الأحوال، فهما وراثة من أبي البشر آدم عليه السلام إلى المصطفى ﷺ حين اعتورت صفاء حالة ظلمة النسيان للعهد والميثاق، وإرادة الخلود في دار السلام، ومجاورة الحبيب الرحمٰن المنان، ودخول الملائكة الكرام عليه بالتحية والسلام، فوجدت هناك نفسه مشاركة إرادته لإرادة الحق، فانكسرت

لذلك تلك الإرادة، وزالت تلك الحلة، وانعزلت تلك الولاية، فانهبطت تلك المنزلة وأظلمت تلك الأنوار وتكدر ذلك الصفاء، ثم تنبه وذكر صفي الرحمٰن، فعرف الاعتراف بالذنب والنسيان، ولقن الإقرار فقال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٢٣]، فجاءت أنوار الهداية وعلوم التوبة ومعارفها، والمصالح المدفونة فيها ما كان غائبًا من قبل، فلم تظهر إلا بها، فبدلت تلك الإرادة بغيرها والحالة الأولى بأخرى، وجاءته الولاية الكبرى والسكون في الدنيا ثم في العقبى، فصارت الدنيا له ولذريته منزلًا، والعقبى لهم موئلًا ومرجعًا وخلدًا، فلك برسول الله وحبيبه المصطفى وأبيه آدم صفي الله عنصر الأحباب والأخلاء أسوة في الاعتراف بالقصور والاستغفار في الأحوال كلها.

المقالة الثامنة

في التقرّب إلى الله

قال رضي الله تعالى عنه وأرضاه: إذا كنت في حالة لا تختر غيرها أعلى منها، ولا أدنى، فإذا كنت على باب دار الملك لا تختر الدخول إلى الدار حتى تدخل إليها جبرًا لا اختيارًا، وأعني بالجبر أمرًا عنيفًا متأكدًا متكررًا، ولا تكتف بمجرد الإذن في الدخول، لجواز أن يكون ذلك مكرًا وخديعة من الملك، ولكن اصبر حتى تجبر على الدخول فتدخل الدار جبرًا محضًا وفضلًا من الملك، فحينئذٍ لا يعاقبك الملك على فعله، إنما تتعرض العقوبة لك لشؤم تخيرك وشرهك، وقلة صبرك وسوء أدبك، وترك الرضى بحالتك التي أقمت فيها، فإذا حصلت فكن مطرقًا غاضًا لبصرك متأدبًا، محافظًا لما تؤمر به من الشغل والخدمة فيها غير طالب للترقي إلى الذروة العليا. قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ١٣١﴾ [طه: الآية ١٣١]، فهذا تأديب منه عزَّ وجلَّ لنبيه المختار ﷺ في حفظ الحال والرضا بالعطاء بقوله: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: الآية ١٣١]، أي ما أعطيتك من الخير والنبوة والعلم والقناعة والصبر وولاية الدين والغزوة فيه أولى مما أعطيت غيرك وأحرى، فالخير كله في حفظ الحال والرضا بها وترك الالتفات إلى ما سواها، أو أنه لا يخلو إما أن يكون قسمك أو قسم غيرك، أو أنه لا قسم لأحد بل أوجده الله فتنة، فإن كان قسمك وصل إليك شئت أم أبيت فلا ينبغي أن يظهر منك سوء الأدب والشره في طلبه «فإن ذلك غير

محمود في قضية العلم والعقل، وإن كان قسم غيرك فلا تتعب فيما تناوله ولا يصل إليك أبدًا، وإن كان ليس بقسم لأحد بل هو فتنة فكيف يرضى العاقل ويستحسن أن يطلب لنفسه فتنة ويستجلبها لها، فقد ثبت أن الخير كله والسلامة في حفظ الحال فإذا رقيت إلى الغرفة ثم إلى السطح فكن كما ذكرنا من الحفظ والإطراق والأدب، بل يتضاعف ذلك منك، لأنك أقرب إلى ظلك وأدنى بالخطر، فلا تتمن الانتقال منها إلى أعلى منها ولا إلى أدنى، ولإثباتها وبقاءها، ولا تغير وصفها وأنت فيها، ويكون لك في ذلك اختيار ألبتة. فإن ذلك كفر في نعمة الحال والكفر يحل بصاحبه الهوان في الدنيا والآخرة فاعمل على ما ذكرنا أبدًا حتى ترقى إلى حالة تصير لك مقامًا تقام فيه فلا تزال عنه» فتعلم حينئذٍ أنه موهبة ظهر بيانها ودليلها فتمسكه ولا تزل، فالأحوال للأولياء والمقامات للأبدال، والله يتولى هداك.

المقالة التاسعة

في الكشف والمشاهدة

قال رضي الله تعالى عنه وأرضاه: يكشف للأولياء والأبدال في أفعال الله ما يبهر العقول ويخرق العادات والرسوم فهي على قسمين جلال وجمال. فالجلال والعظمة يورثان الخوف المقلق والوجل المزعج، والغلبة العظيمة على القلب بما يظهر على الجوارح، كما روى النبي ﷺ: «كان يسمع من صدره أزيز كأزيز المرجل في الصلاة من شدة الخوف» لما يرى من جلال الله عزَّ وجلَّ وينكشف له من عظمته، ونقل مثل ذلك عن إبراهيم خليل الرحمٰن صلوات الله عليه وعمر الفاروق رضي الله عنه.

أما مشاهدة الجمال: فهي تحلي القلوب بالأنوار والسرور والألطاف، والكلام اللذيذ والحديث الأنيس، والبشارة بالمواهب الجسام والمنازل العالية، والقرب منه عزَّ وجلَّ مما سيؤول أمرهم إلى الله، وجف به القلم من أقسامهم في سابق الدهور فضلًا منه ورحمة، وإثباتًا منه لهم في الدنيا إلى بلوغ الأجل وهو الوقت المقدور، لئلا يفرط بهم المحبة من شدة الشوق إلى الله تعالى فتنفطر مرائرهم. فيهلكون ويضعفون عن القيام بالعبودية إلى أن يأتيهم اليقين الذي هو الموت، فيفعل ذلك بهم لطفًا منه ورحمة ومداواة، وتربية لقلوبهم ومداراة لها ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: الآية ١٣٩] لطيف بهم، ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: الآية ١٢٨] ولهذا رُوِيَ عن النبي ﷺ أنه كان

يقول لبلال المؤذن رضي الله عنه: «أرحنا يا بلال بالإقامة، لندخل في الصلاة» لمشاهدة ما ذكرنا من الحال، ولهذا قال: «وجعلت قرة عيني في الصلاة».

المقالة العاشرة

في النفس وأحوالها

قال رضي الله تعالى عنه وأرضاه: إنما هو الله ونفسك وأنت المخاطب والنفس ضد الله وعدوه، والأشياء كلها تابعة لله، والنفس لله خلقًا وملكًا، وللنفس ادعاء وتمن وشهوة ولذة بملابستها، فإذا وافقت الحق عز وجمل في مخالفة النفس وعدوانها فكنت لله خصمًا على نفسك كما قال الله عزَّ وجلَّ لداود عليه السلام: «يا داود أنا بدك اللازم فالزم بدك. العبودية أن تكون خصمًا على نفسك» فتحققت حينئذٍ موالاتك وعبوديتك لله عزَّ وجلَّ، وأتتك الأقسام هنيئًا مريئًا مطيبًا وأنت عزيز ومكرم، وخدمتك الأشياء وعظمتك وفخمتك، لأنها بأجمعها تابعة لربها موافقة له إذ هو خالقها ومنشئها، وهي مقرة له بالعبودية. قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: الآية ٤٤]، ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: الآية ١١]، فالعبادة كل العبادة في مخالفة نفسك. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: الآية ٢٦]، وقال لداود عليه السلام: «اهجر هواك فإنه منازع».

والحكاية المشهورة عن أبي يزيد البسطامي رحمه الله لما رأى رب العزة في المنام فقال له كيف الطريق إليك؟ قال: اترك نفسك وتعال، فقال: فانسلخت من نفسي كما تنسلخ الحية من جلدها، فإذا الخير كله في معاداتها في الجملة والأحوال كلها، فإن كنت في حال التقوى فخالف النفس، بأن تخرج من حرام الخلق وشبههم ومنتهم والاتكال عليهم والثقة بهم والخوف منهم، والرجال لهم والطمع فيما عندهم من أحكام الدنيا، فلا تبرح عطاياهم على طريق الهداية والزكاة والصدقة أو النذر، فاقطع همك منهم من سائر الوجوه والأسباب حتى إن كان لك نسب ذو مال لا تتمنَ موته لترث ماله، فاخرج من الخلق جدًا واجعلهم كالباب يرد ويفتح، وشجرة توجد فيها ثمرة تارة وتختل أخرى وكل ذلك بفعل فاعل وتدبير مدبر وهو الله جل وعلا، لتكون موحدًا للرب، ولا تنس مع ذلك كسبهم لتخلص من مذهب الجبرية، واعتقد أن الأفعال لا تتم بهم دون الله لا تعبدهم وتنسى الله، ولا تقل فعلهم دون لله فتكفر فتكون قدريًا، لكن قل هي لله خلقًا وللعباد كسبًا كما جاءت به الآثار. نيان موضع

الجزاء من الثواب والعقاب، وامتثل أمر الله فيهم، وخلص قسمك منهم بأمره ولا تجاوزه فحكم الله قائم بحكمه عليك وعليهم؛ فلا تكن أنت الحاكم، وكونك معهم قدر والقدر ظلمة فادخل بالظلمة في المصباح وهو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، لا تخرج عنهما فإن خطر خاطر أو وجد إلهام فاعرضه على الكتاب والسنة، فإن وجدت فيها تحريم ذلك مثل أن نلهم بالزنا والرياء ومخالطة أهل الفسق والفجور وغير ذلك من المعاصي، فادفعه عنك واهجره ولا تقبله ولا تعمل به، واقطع بأنه الشيطان اللعين وإن وجدت فيها إباحة كالشهوات المباحة من الأكل أو الشرب أو اللبس أو النكاح فاهجر أيضًا ولا تقبله، واعلم أنه من إلهام النفس وشهواتها وقد أمرت بمخالفتها وعداوتها وإن لم تجد في الكتاب والسنة تحريمه وإباحته، بل هو أمر لا تعقله مثل السائق لك، ائت موضع كذا وكذا، الق فلانًا صالحًا، ولا حاجة لك هناك ولا في الصالح لاستغنائك عنه بما أولاك الله من نعمته من العلم والمعرفة، فتوقف في ذلك ولا تبادر إليه فتقول هذا إلهام من الحق جل وعلا فاعمل به بل انتظر الخير كله في ذلك وفعل الحق عزَّ وجلَّ بأن ينكر ذلك الإلهام وتؤمر بالسعي، أو علامة تظهر لأهل العلم بالله عزَّ وجلَّ يعقلها العقلاء من الأولياء والمؤيدون من الأبدال، وإنما لم يتبادر إلى ذلك لأنك لا تعلم عاقبته وما يتول الأمر إليه، وما كان فيه فتنة وهلاك ومكر من الله وامتحان فاصبر حتى يكون هو عزَّ وجلَّ الفاعل فيك، فإذا تجرد الفعل وحملت إلى هناك واستقبلتك فتنة كنت محمولًا محفوظًا فيها، لأن الله لا يعاقبك على فعله وإنما تتطرق العقوبة نحوك لكونك في الشيء، وإن كنت في حالة الحقيقة وهي حالة الولاية فخالف هواك واتبع الأمر في الجملة.

واتباع الأمر على قسمين: أحدهما أن تأخذ من الدنيا القوت الذي هو حق النفس وتترك الحظ، وتؤدي الفرض وتشتغل بترك الذنوب ما ظهر منها وما بطن.

والقسم الثاني ما كان بأمر باطن، وهو أمر الحق عزَّ وجلَّ، يأمر عبده وينهاه، وإنما يتحقق بهذا الأمر في المباح الذي ليس له حكم في الشرع على معنى ليس من قبيل النهي ولا من قبيل الأمر الواجب، بل هو مهمل ترك العبد يتصرف فيه باختياره فسمي مباحًا فلا يحدث العبد فيه شيئًا من عنده بل ينتظر الأمر فيه، فإذا أمل امتثل فتصير حركاته وسكناته بالله عزَّ وجلَّ ما في الشرع حكمه فبالشرع وما ليس له حكم في الشرع فبالأمر الباطن فحينئذٍ يصير محقًا من أهل الحقيقة، وما ليس فيه أمر باطن فهو مجرد الفعل حالة التسليم. وإن كنت في حالة حق الحق وهي حالة المحو والفناء

وهي حالة الأبدال المنكسري القلوب لأجله الموحدين العارفين أرباب العلوم والعقل السادة الأمراء الشحن خفراء الخلق خلفاء الرحمـٰن وأخلائه وأعيانه وأحبائه عليهم السلام. فاتباع الأمر فيها بمخالفتك إياك بالتبري من الحول والقوة. وأن لا يكون لك إرادة وهمة في شيء البتة دنيا وعقبى. فتكون عبد الملك لا عبد الملك وعبد الأمر لا عبد الهوى. كالطفل مع الظئر. والميت الغسيل مع الغاسل، والمريض المقلوب على جنبيه بين يدي الطبيب فيما سوى الأمر والنهي، والله أعلم.

المقالة الحادية

عشرة في الشهوة

قال رضي الله تعالى عنه وأرضاه: وإذا ألقيت عليك شهوة النكاح في حالة الفقر وعجزت عن مؤنته فصبرت عنه منتظر الفرج من الباري عزَّ وجلَّ، إما بزوالها وإقلاعها عنك بقدرته التي ألقاها عليك وأوجدها فيك فيعينك أو يصونك وحيويتك عن حمل مؤنتها أيضًا أو بإيصالها إليك موهبة مهنئًا مكفيًا من غير ثقل في الدنيا ولا تعب في العقبى، وسماك الله عزَّ وجلَّ صابرًا شاكرًا لصبرك عنها راضيًا بقسمته فزادك عصمة وقوة. فإن كانت قسمًا لك ساقها إليك مكفيًا مهنئًا فينقلب الصبر شكرًا، وهو عزَّ وجلَّ وعد الشاكرين بالزيادة في العطاء. قال عزَّ وجلَّ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: الآية ٧].

وإن لم تكن قسمًا لك فالغنى عنها بقلعها من القلب إن شاءت النفس أو أبت، فلازم الصبر وخالف الهوى وعانق الأمر وارض بالقضاء، وارج بذلك الفضل والعطاء، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزُمَر: الآية ١٠].

المقالة الثانية عشرة

في النهي عن حبّ المال

قال رضي الله عنه وأرضاه: إذا أعطاك الله عزَّ وجلَّ مالًا فاشتغلت به عن طاعتك حجبك به عنه دنيا وأخرى، وربما سلبك إياه وغيرك وأفقرك لاشتغالك بالنعمة عن المنعم، وإن اشتغلت بطاعته عن المال جعله لك موهبة ولم ينقص منه حبة واحدة وكان المال خادمك وأنت خادم المولى، فتعيش في الدنيا مدللًا وفي العقبى مكرمًا مطيبًا في جنة المأوى مع الصديقين والشهداء والصالحين.

المقالة الثالثة عشرة

في التسليم لأمر الله

قال رضي الله عنه: لا تختر جلب النعماء ولا دفع البلوى فالنعماء إليك إن كانت قسمك استجلبتها أو كرهتها، والبلوى حالة بك إن كانت قسمك مقضية عليك سواء كرهتها أو رفعتها بالدعاء أو صبرت أو تجلدت لرضى المولى، بل سلم في الكل، فيفعل الفعل فيك، فإن كانت النعماء فاشتغل بالشكر، وإن كانت البلوى فاشتغل بالتصبر والصبر، أو الموافقة والتنعم بها أو العدم أو الفناء فيها على قدر ما تعطي من الحالات وتنقل فيها. وما تسير في المنازل في طريق المولى الذي أمرت بطاعته والموالاة. لتصل إلى الرفيق الأعلى، فتقام حينئذٍ مقام من تقدم ومضى من الصديقين والشهداء والصالحين، لتعاين من سبقك إلى المليك ومنه دنا. ووجد عنده كل طريقة وسرورًا وأمنًا. وكرامة ونعمًا.

دع البلية تزورك. خل من سبيلها، ولا تقف ولا تجزع من مجيئها وقربها. فليس نارها أعظم من نار جهنم ولظى. فقد ثبت في الخبر المروي عن خير البرية. وخير من حملته الأرض وأظلته السماء محمد المصطفى ﷺ أنه قال: «إن نار جهنم تقول للمؤمن جزيًا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي» فهل كان نور المؤمن الذي أطفأ لهب النار في لظى إلا الذي صحبه في الدنيا الذي لمن يمر بها من أطاعها وعصى، فليطفىء هذا النور لهب البلوى، ولتجد برد صبرك وموافقتك للمولى وهيج ما حل بك من ذلك ومنك دنا. فالبلية لم تأتك لتهلكك، لكنها تأتيك لتجربك وتحقق صحة إيمانك وتوثيق عروة يقينك ويبشرك باطنها مع مولاك بمباهاته بك. قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: الآية ٣١]، فإذا ثبت مع الخلق إيمانك ووافقته في فعله بيقينك كل ذلك بتوفيق منه ومنة، فكن حينئذٍ أبدًا صابرًا موافقًا مسلمًا لا تحدث فيك ولا في غيرك حادثة ما خرج عن الأمر والنهي، فإذا كان أمره عزَّ وجلَّ فتسامع وتسارع وتحرك ولا تسكن ولا تسلم للقدر والفعل، بل ابذل طوقك ومجهودك لتؤدي الأمر، فإن عجزت فدونك الالتجاء إلى مولاك عزَّ وجلَّ، فالتجىء إليه وتضرع واعتذر، وفتش عن سبب عجزك عن أداء أمره وصدّك عن التشوّق لطاعته لعل ذلك لشؤم دعائك وسوء أدبك في طاعته، ورعونتك واتكالك على حولك وقوتك، وإعجابك بعلمك وشركك إياك بنفسك وخلقه، فصدك عن بابه، وعزلك عن طاعته وخدمته، وقطع عنك مدد

توفيقه، وولي عنك وجهه الكريم، ومقتك وقلاك، وشغلك ببلائك دنياك وهواك، وإرادتك ومناك.

أما تعلم أن كل ذلك مشغول عن ذلك، وقاطعك عن عين الذي خلقك ورباك، وخولك وأعطاك وحياك.

احذر لا يلهيك عن مولاك غيره مولاك، وكل من سوى مولاك غيره، فلا تؤثر عليه غيره فإنه خلقك له، فلا تظلم نفسك فتشغل بغيره عن أمره فيدخلك النار التي وقودها الناس والحجارة فتندم، فلا ينفعك الندم، وتعتذر فلا تعذر، وتستعتب فلا تعتب، وتسترجع إلى الدنيا لتستدرك وتصلح فلا ترجع.

ارحم نفسك وأشفق عليها، واستعمل الآلات والأدوات التي أعطيتها في طاعة مولاك من الفعل والإيمان والمعرفة والعلم.

استضيء بنورها في ظلمات الأقدار، وتمسك بالأمر والنهي، وسيرهما في طريق مولاك وسلم ما سواهما إلى الذي خلقك وأنشأك، فلا تكفر بالذي خلقك من تراب ورباك، ثم من نطفة ثم رجلًا سوّاك، ولا ترد غير أمره، ولا تكره غير نهيه.

اقنع من الدنيا والأخرى بهذا المراد واكره فيهما هذا المكروه، فكل ما يراد تبع لهذا المراد، وكل مكروه تبع لهذا المكروه.

إذا كنت مع أُسرة كانت الأكوان في أمرك، وإذا كرهت نهيه فرت منك المكاره أين كنت وحللت.

قال الله عزَّ وجلَّ في بعض كتبه: «يا ابن آدم أنا الله لا إله إلا أنا أقول للشيء كن فيكون، أطعني أجعلك تقول للشيء كن فيكون». وقال عزَّ وجلَّ: «يا دنيا من خدمني فاخدميه ومن خدمك فأتعبيه»، فإذا جاء نهيه عزَّ وجلَّ فكن كأنك مسترخي المفاصل، مسكن الحواس، مضيق الذرع، متماوت الجسد زائل الهوى، منطمس الوسوم، منمحي الرسوم، منسي الأثر مظلم القنا، متهدم البناء، خاوي البيت، ساقط العرش، لا حس ولا أثر، فليكن سمعك كأنه أصم وعلى ذلك مخلوق وبصرك كأنه معصب أو مرمود أو مطموس، وشفتاك كأن بهما قرحة وبثورًا، ولسانك كأن به خرسًا وكلولًا وأسنانك كأن بهما ضربانًا وألمًا نشورًا، ويداك كأن بهما شللًا وعن البطش قصورًا، ورجلاك كأن بهما رعدة وارتعاشًا وجروحًا، وفرجك كأن به عنة وبغير ذلك الشأن مشغولًا، وبطنك كأن به امتلاء وارتواء وعن الطعام غنى، وعقلك كأنك مجنون

ومخبول، وجسدك كأنك ميت وإلى القبر محمول، فالتسامع والتسارع في الأمر، والتقاعد والتجاهد والتقاصر في النهي، والتماوت والتعادم والتفاني في القدر، فاشرب هذه الشربة، وتداو بهذا الدواء، وتغذ بهذا الغذاء تنجح وتشفى، وتعافى من أمراض الذنوب وعلل الأهواء، بإذن الله تعالى إن شاء الله.

المقالة الرابعة عشرة

في اتباع أحوال القوم

قال رضي الله تعالى عنه وأرضاه: لا تدع حالة القوم يا صاحب الهوى أنت تعبد الهوى وهم عبيد المولى، أنت رغبتك في الدنيا ورغبة القوم في العقبى، أنت ترى الدنيا وهم يرون رب الأرض والسماء، وأنت أنسك بالخلق وأنس القوم بالحق، أنت قلبك متعلق بمن في الأرض وقلوب القوم برب العرش، أنت يصطادك من ترى وهم لا يرون من ترى، بل يرون خالق الأشياء وما يرى، فـز القوم به وحصلت لهم النجاة، وبقيت أنت مرتهنًا بما تشتهي من الدنيا وتهوى، فنوا عن الخلق والهوى والإرادة والمنى فوصلوا إلى الملك الأعلى، فأرفقهم على غاية ما رام منهم من الطاعة والحمد والثناء ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: الآية ٥٤] فلازموا ذلك وواظبوا بتوفيق منه وتيسير بلا عناء، فصارت الطاعة لهم روحًا وغذاء، وصارت الدنيا إذ ذاك في حقهم نقمه وخزيًا، فكأنها لهم جنة المأوى إذ ما يرون شيئًا من الأشياء حتى يروا قبله فعل الذي خلق وأنشأ فيهم ثبات الأرض والسماء، وقرار الموت والإحياء إذ جعلهم مليكهم أوتادًا للأرض التي دحى، فكن كالجبل الذي رسا، فتنح عن طريقهم ولا تزاحم من لم يفده عن قصده الآباء والأبناء، فهم خير من خلق ربي وبث في الأرض وذرأ، فعليهم سلام الله وتحياته ما دامت الأرض والسماء.

المقالة الخامسة عشرة

في الخوف والرجاء

قال قُدِّس سرّه العزيز: رأيت في المنام كأني في موضع شبه مسجد وفيه قوم منقطعون، فقلت: لو كان لهؤلاء فلان يؤدبهم ويرشدهم، فأشرت إلى رجل من الصالحين فاجتمع القوم حولي فقال واحد منهم: فأنت لأي شيء لا تتكلم؟ فقلت: إن رضيتموني لذلك، ثم قلت: إذا انقطعتم من الخلق إلى الحق فلا تسألوا الناس

شيئًا بألسنتكم، فإذا تركتم ذلك فلا تسألوهم بقلوبكم، فإن السؤال بالقلب كالسؤال باللسان.

ثم اعلموا أن الله كل يوم هو في شأن، في تغيير وتبديل ورفع وخفض، فقوم يرفعهم إلى عليين، وقوم يحطهم إلى أسفل سافلين، فخوف الذين رفعهم إلى عليين أن يحطهم إلى أسفل سافلين، ورجاؤهم أن يبقيهم ويحفظهم على ما هم عليه من الرفع. وخوف الذين حطهم إلى أسفل سافلين، أن يبقيهم ويخلدهم على ما هم فيه من الحط، ورجاؤهم أن يرفعهم إلى عليين، ثم انتبهت.

المقالة السادسة عشرة

في التوكّل ومقاماته

قال رضي الله عنه: ما حجبت عن فضل الله والبدء بنعمه إلا لاتّكالك على الخلق والأسباب، والصنائع والاكتساب، فالخلق حجابك عن الأكل بالسنة وهو المكسب، فما دمت قائمًا مع الخلق راجيًا لعطاياهم وفضلهم سائلًا لهم مترددًا إلى أبوابهم فأنت مشرك بالله خلقه، فيعاقبك بحرمان الأكل بالسنة الذي هو الكسب من حلال الدنيا، ثم إذا تبت عن القيام مع الخلق وشركك بربك عزَّ وجلَّ إياهم ورجعت إلى الكسب فتأكل بالكسب وتتوكل على الكسب وتطمئن إليه وتنسى فضل الرب عزَّ وجلَّ، فأنت مشرك أيضًا، إلا أنه شرك خفي أخفى من الأول؛ فيعاقبك الله عزَّ وجلَّ ويحجبك عن فضله والبداءة به، فإذا تبت عن ذلك وأزلت الشرك عن الوسط، ورفعت اتكالك عن الكسب والحول والقوة، ورأيت الله عزَّ وجلَّ هو الرزاق، وهو المسبب والمسهل والمقوي على الكسب، والموفق لكل خير، والرزق بيده تارة يواصلك به بطريق الخلق على وجه المسألة لهم في حالة الابتلاء أو الرياضة أو عند سؤالك له عزَّ وجلَّ، وأخرى بطريق الكسب معاوضة وأخرى من فضله مبادأة من غير أن ترى الواسطة والسبب، فرجعت إليه واستطرحت بين يديه، رفع الحجاب بينك وبين فضله. وباداك وغذاك بفضله، عند كل حاجة على قدر ما يوافق حالك، كفعل الطبيب الشفيق الرفيق الحبيب للمريض حماية منه عزَّ وجلَّ، وتنزيهًا لك عن الميل إلى من سواه، يرضيك بفضله، فإذا ينقطع عن قلبك كل إرادة وكل شهوة ولذة ومطلوب ومحبوب، فلا يبقى في قلبك سوى إرادته عزَّ وجلَّ، فإذا أراد أن يسوق إليك قسمك الذي لا بد من تناوله وليس هو رزقًا لأحد من خلقه سواك، أوجد عندك شهوة ذلك القسم وساقه إليك، فيواصلك به عند الحاجة، ثم يوفقك ويعرفك أنه منه

وهو سائقه إليك ورازقه لك، فتشكره حينئذٍ وتعرف وتعلم، فيزيدك خروجًا من الخلق وبعدًا من الأيام وأخليت الباطن عما سواه عزّ وجلّ. ثم إذا قوي علمك ويقينك، وشرح صدرك ونور قلبك، وزاد قربك من مولاك ومكانتك لديه عنده، وأهليتك لحفظ الأسرار علمت متى يأتيك قسمك كرامة لك وإجلالًا لحرمتك فضلًا منه ومنة وهداية، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: الآية ٢٤]، وقال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: الآية ٦٩]، وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: الآية ٢٨٢]. ثم يرد عليك التكوين فتكون بالإذن الصريح الذي هو لا غبار عليه والدلالات اللائحة كالشمس المنيرة، وبكلامه اللذيذ الذي هو ألذ من كل لذيذ، وإلهام صدق من غير تلبس مصفى من هواجس النفس ووساوس الشيطان اللعين.

قال الله تعالى في بعض كتبه: «يا ابن آدم أنا الله الذي لا إله إلا أنا أقول للشيء كن فيكون، أطعني أجعلك تقول للشيء كن فيكون» وقد فعل ذلك بكثير من أنبيائه وأوليائه وخواصه من بني آدم.

المقالة السابعة عشرة

في كيفية الوصول إلى الله بواسطة المرشد

قال رضي الله تعالى عنه: إذا وصلت إلى الله وقربت بتقريبه وتوفيقه. ومعنى الوصول إلى الله عزّ وجلّ خروجك عن الخلق والهوى والإرادة والمنى، والثبوت مع فعله ومن غير أن يكون منك حركة فيك ولا في خلقه بك، بل بحكمه وأمره، وفعله فهي حالة الفناء يعبر عنها بالوصول. فالوصول إلى الله عزّ وجلّ ليس كالوصول إلى أحد من خلقه المعقول المعهود ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية ١١] جلّ الخالق أن يشبه بمخلوقاته أو يقاس على مصنوعاته، فالواصل إليه عزّ وجلّ معروف عند أهل الوصول بتعريفه عزّ وجلّ لهم كل واحد على حِدَة لا يشاركه فيه غيره، وله عزّ وجلّ مع كل واحد من رسله وأنبيائه وأوليائه سر من حيث هو لا يطلع على ذلك أحد غيره، حتى أنه قد يكون للمريد سر لا يطلع عليه شيخه، وللشيخ سر لا يطلع عليه مريده الذي قد دنا سيره إلى عتبة باب حالة شيخه، فإذا بلغ المريد حالة شيخه أفرد عن الشيخ وقطع عنه، فيتولاه الحق عزّ وجلّ فيفطمه عن الخلق جملة، فيكون الشيخ كالظئر

والداية، لإرضاع بعد الحولين، ولا خلق بعد زوال الهوى والإرادة. الشيخ يحتاج إليه ما دام ثم هوى وإرادة لكسرهما، وأما بعد زوالهما فلا، لأنه لا كدورة ولا نقصان. فإذا وصلت إلى الحق عزَّ وجلَّ على ما بينا فكن آمنًا أبدًا من سواه عزَّ وجلَّ فلا ترى لغيره وجودًا البتة، لا في الضر ولا في النفع، ولا في العطاء ولا في المنع، ولا في الخوف ولا في الرجاء، هو عزَّ وجلَّ أهل التقوى وأهل المغفرة، فكن أبدًا ناظرًا إلى فعله مترقبًا لأمره، مشتغلًا بطاعته، مباينًا عن جميع خلقه دنيا وأخرى.

لا تعلق قلبك بشيء منهم واجعل الخليفة أجمع كرجل كتفه سلطان عظيم ملكه شديد أمره، مهولة صولته وسطوته، ثم جعل الغل في رقبته مع رجليه، ثم صلبه على شجرة الأذرة على شاطىء نهر عظيم موجه، فسيح عرضه، عميق غوره، شديد جريه، ثم جلس السلطان على كرسيه، عظيم قدره، عال سماؤه، بعيد مرامه ووصوله، وترك إلى جنبه أحمالًا من السهام والرماح والنبل وأنواع السلاح والقسى ومما لا يبلغ قدرها غيره، فجعل يرمي إلى المصلوب بما شاء من ذلك السلاح، فهل يحسن لمن يرى ذلك أن يترك النظر إلى السلطان والخوف منه والرجاء له وينظر إلى المصلوب ويخاف منه ويرجوه، أليس من فعل ذلك يسمى في قضية العقل عديم العقل والحس مجنونًا. بهيمة إنسان؟ نعوذ بالله من العمى بعد البصيرة، ومن القطيعة بعد الوصول، ومن الصدود بعد الدنو والقرب، ومن الضلالة بعد الهداية، ومن الكفر بعد الإيمان. فالدنيا كالنهر العظيم الجاري الذي ذكرناه كل يوم في زيادة ماء وهي شهوات بني آدم ولذاتهم فيها، والدواهي التي تصيبهم منها. وأما السهام وأنواع السلاح فالبلايا التي يجري بها القدر إليهم، فالغالب على بني آدم في الدنيا البلايا والنفع والآلام والمحن، وما يجدون من النعم واللذات فيها فمشوبة بالآفات إذا اعتبرها كل عاقل لا حياة له ولا عيش ولا راحة إلا في الآخرة إن كان مؤمنًا، لأن ذلك خصوصًا في حق المؤمن. قال النبي ﷺ: «لا عيش إلا عيش الآخرة»، وقال عليه الصلاة والسلام: «لا راحة للمؤمن دون لقاء ربه» ذلك في حق المؤمنين، وقال ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»، وقال عليه الصلاة والسلام: «التّقى ملجم» فمع هذه الأخبار والعيان كيف يُدعى طيب العيش في الدنيا. فالراحة كل الراحة في الانقطاع إلى الله عزَّ وجلَّ وموافقته، والاستطراح بين يديه؛ فيكون العبد بذلك خارجًا عن الدنيا، فحينئذٍ يكون الدلال رأفة ورحمة ولطفًا وصدقة وفضلًا، والله أعلم.

المقالة الثامنة عشرة

في النهي عن الشكوى

قال رضي الله عنه: الوصية لا تشكونّ إلى أحد ما نزل بك من بلاءٍ كائنًا مَن كان صديقًا أو عدوًّا ولا تتهمنّ الرب عزَّ وجلّ فيما فعل فيك وأنزل بك من البلاء، بل أظهر الخير والشكر، فكذبك بإظهارك للشكر من غير نعمة عندك خير من صدقك في إخبارك جلية الحال بالشكوى، من الذي خلا من نعمة الله عزَّ وجلّ؟ قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: الآية ٣٤] فكم من نعمة عندك وأنت لا تعرفها؟ لا تسكن إلى أحد من الخلق، ولا تستأنس به، ولا تطلع أحد على ما أنت فيه، بل يكون أنسك بالله عزَّ وجلّ وسكونك إليه وشكواك منه إليه لا ترى ثانيًا، فإنه ليس لأحد ضر ولا نفع، ولا جلب ولا دفع، ولا عز ولا ذل، ولا رفع ولا خفض، ولا فقر ولا غنى، ولا تحريك ولا تسكين، الأشياء كلها خلق الله عزَّ وجلّ بيد الله عزَّ وجلّ، بأمره وإذنه جريانها، و﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد: الآية ٢؛ فاطر: الآية ١٣؛ الزمر: الآية ٥]، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: الآية ٨]، لا مقدم لما أخر، ولا مؤخر لما قدم، قال الله عزَّ وجلّ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس: الآية ١٠٧] فإن شكوت منه عزَّ وجلّ وأنت معافى وعندك نعمة طالبًا للزيادة وتعاميًا عن ما له عندك من النعمة والعافية استهزاء بها، غضب عليك وأزالهما عنك، وحقق شكواك، وضاعف بلواك، وشدد عقوبتك ومقتك وقلاك، وأسقطك من عينه، احذر الشكوى جدًا ولو قُطعت وقُرض لحمك بالمقاريض.

إياك إياك ثم إياك، الله الله ثم الله، النجاة النجاة، الحذر الحذر، فإن أكثر ما ينزل بابن آدم من أنواع البلاء بشكواه من ربه عزَّ وجلّ. كيف يشتكي منه عزَّ وجلّ ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: الآيتان ٦٤ و٩٢]، و﴿خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٨٧]، ﴿حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: الآية ١]، ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: الآيتان ١١٧ و١٢٨؛

---

(١) رواه الربيع في «مسنده» (١/ ٣٧٦)، والبزار في البزار (١/ ٤١٢)، وعبد بن حميد في مسنده (١/ ١٨٧)، والطبراني في الأوسط (٣/ ٢٣٢).

النور: الآية ٢٠؛ الحشر: الآية ١٠]، ﴿لَطِيفٌ بِعِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: الآية ١٩]، و﴿لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: الآية ١٨٢؛ الأنفال: الآية ٥١؛ الحج: الآية ١٠]، كطبيب حكيم، حبيب شفيق، لطيف وقريب، هل تتهم الوالدة الرحيمة؟ قال النبي ﷺ: «الله أرحم بعبده من الوالدة بولدها»[١]. أحسن الأدب يا مسكين، تصبر عند البلاء إن ضعفت عن الصبر، ثم اصبر إن ضعفت عن الرضا والموافقة. ثم ارضَ ووافق إن وجدت، ثم افْنَ إذا فقدت. أيها الكبريت الأحمر أين أنت أين توجد وترى؟ أما تسمع إلى قوله عزَّ وجلَّ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٢١٦] طوى عنك علم حقيقة الأشياء وحجبك عنه، فلا تسيء الأدب فتكره بك أو تحب بك، بل اتبع الشرع في جميع ما ينزل بك إن كنت في حالة التقوى التي هي القدم الأولى، واتبع الأمر في حالة الولاية وخمود وجود الهوى ولا تجاوزه وهي القدم الثانية، وارض بالفعل ووافق، وافْنَ في حالة البدلية والغوثية والقطبية والصديقية، وهي المنتهى. تنح عن طريق القدر، خل عن سبيله، رد نفسك وهواك، كف لسانك عن الشكوى، فإذا فعلت ذلك، إن كان خيرًا زادك المولى طيبة وسرورًا ولذة؛ وإن كان شرًا حفظك في طاعته فيه، وأزال عنك الملامة، وأفقدك فيه حتى يتجاوز عنك، ويرحل عند انقضاء أجله، كما ينقضي الليل فيسفر عن النهار، والبرد في الشتاء فيسفر عن الصيف، ذلك أنموذج عندك، فاعتبر بهم، ثم ذنوب وآثام وإجرام وتلويثات بأنواع المعاصي والخطيئات ولا يصلح لمجالسة الكريم إلا الطاهر عن أنجاس الذنوب والزلّات، ولا يقبل على سدته إلا طيبًا من درن الدعاوى والوهوسات، كما لا يصلح لمجالسة الملوك إلا الطاهر من الأنجاس وأنواع النتن والأوساخ، فالبلايا مكفِّرات مطهِّرات قال النبي ﷺ: «حمى يوم كفارة سنة»[٢] صدق ﷺ.

---

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٤٤٠) وقال: «قال في المقاصد: رواه القضاعي في مسنده عن ابن مسعود مرفوعًا في حديث: بلفظ حمى ليلة تكفر خطايا سنة وله شاهد» رواه ابن أبي الدرداء موقوفًا، بلفظ. . .» «حمى ليلة كفارة سنة» ورواه تمام في فوائده عن أبي هريرة رضي الله عنه رفعه بلفظ الترجمة، وزاد حمى يومين كفارة سنتين، وحمى ثلاثة أيام كفارة ثلاث سنين، ولابن الدنيا عن الحسن مرسلاً رفعه: «إن الله ليكفر روايته له إنه من جيد الحديث. . .».

المقالة التاسعة عشرة

في الأمر بوفاء الوعد والنهي عن خلفه

قال رضي الله عنه: إذا كنت ضعيف الإيمان واليقين ووعدت بوعد وفِ بوعدك، ولا تحلف كيلا يزول إيمانك ويذهب يقينك، وإذا قوي ذلك في قلبك وتمكنت خوطبت بقوله: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: الآية ٥٤] وتكرر هذا الخطاب لك حالًا بعد حال فكنت من الخواص بل من خواص الخواص ولم يبق لك إرادة ولا مطلب، ولا عمل تعجب به ولا قربة تراها، ولا منزلة تلمحها «فتسمو همتك إليها»، فصرت كالإناء المنثلم الذي لا يثبت فيه مائع، فلا يثبت فيك إرادة ولا خلق ولا همة إلى شيء من الأشياء دنيا وأخرى، وطهرت مما سوى الله تعالى، وأعطيت رضاك عن الله عزَّ وجلَّ، ووعدت برضوانه عزَّ وجلَّ عنك، ولذذت ونعمت بأفعال الله عزَّ وجلَّ أجمع، فحينئذٍ توعد بوعد، فإذا اطمأننت إليه ووجدت فيه أمارة إرادة ما نقلت عن ذلك الوعد إلى ما هو أعلى منه، وصرفت إلى أشرف منه، وعوضت عن الأول بالغنى عنه، وفتحت لك أبواب المعارف والعلوم وأطلعت على غوامض الأمور وحقائق الحكمة والمصالح المدفونة في الانتقال من الأول إلى ما يليه ويزاد حينئذٍ في مكانتك في حفظ الحال ثم المقام، وفي أمانتك في حفظ الأسرار وشرح الصدور وتنوير القلب وفصاحة اللسان والحكمة البالغة في إلقاء المحبة عليك، فجعلت محبوب الخليقة أجمع الثقلين وما سواهما دنيا وأخرى. إذا صرت محبوب الحق عزَّ وجلَّ، والخلق تابع للحق جل وعلا، ومحبتهم مندرجة في محبته، كما أن بغضهم يندرج في بغضه عزَّ وجلَّ. فإذا بلغت هذا المقام الذي ليس لك فيه إرادة شيء البتة جعلت لك إرادة شيء من الأشياء، فإذا تحققت إرادتك لذلك الشيء أزيل الشيء وأعدم، وصرفت عنه فلم تعطه في الدنيا، وعوضت عنه في الأخرى بما يزيدك قربة وزلفى إلى العلي الأعلى، وما تقربه عيناك في الفردوس الأعلى وجنة المأوى، وإن كنت لم تطلب ذلك وتأمله وترجوه وأنت في دار الدنيا التي هي دار الفناء والتكاليف والعناء، بل رجاؤك وأنت فيها وجه الذي خلق وبرأ ومنع وأعطى، وبسط الأرض ورفع السماء إذ ذاك هو المراد والمطلوب والمنى، وربما عوضت عن ذلك بما هو أدنى منه أو مثله في الدنيا بعد انكسار قلبك وبصرك، حينئذٍ يصدك عن ذلك المطلوب والمراد، وتحقيق العوض في الأخرى على ما ذكرنا وبينا، والله سبحانه أعلم.

المقالة العشرون

في قوله ﷺ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»[(١)]

قال رضي الله عنه: دع ما يريبك إذا اجتمع مع ما لا يريبك فخذ بالعزيمة الذي لا يشوبها ريب ولا شك، ودع ما يريبك، فأما إذا تجرد المريب المشوب الذي لم يصف عن حز القلب وحكه فتوقف فيه وانظر الأمر فيه، فإن أمرت بتناوله فدونك وإن أمرت بالكفّ عنه ومنعت فكفّ، فليكن ذلك عندك كأنه لم يكن ولم يوجد، ارجع إلى الباب وابتغ عند ربك الرزق، وإن ضعفت عن الصبر أو الموافقة أو الرضا أو الفنا فهو عزَّ وجلَّ لا يحتاج أن يذكر فليس بغافل عنك وعن غيرك، وهو عزَّ وجلَّ يطعم الكفار والمنافقين والمدبرين عنه فكيف ينساك أيها المؤمن الموحّد المقبل على طاعته والقائم بأمره في آناء الليل وأطراف النهار؟.

(وجه آخر) دع ما في أيدي الخلق فلا تطلبه ولا تعلق قلبك به، ولا ترجو الخلق ولا تخافهم، وخذ من فضل الله عزَّ وجلَّ وهو ما لا يريبك. وليكن لك مسؤول واحد ومُعْطٍ واحد ومرجوٌ واحد ومخوُف واحد وموجود واحد وهمّة واحدة، وهو ربك عزَّ وجلَّ، الذي نواصي الملوك بيده وقلوب الخلق بيده التي هي أمراء الأجساد، وأموال الخلق له عزَّ وجلَّ، وهم وكلاؤه وأُمناؤه، وحركة أيديهم بالعطاء لك بإذنه عزَّ وجلَّ وأمره وتحريكه وكفّها عن عطائك كذلك قال عزَّ من قائل: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء: الآية ٣٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: الآية ١٧]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: الآية ١٨٦]، وقال تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: الآية ٦٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات: الآية ٥٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: الآية ٣٧].

---

(١) رواه البخاري (٢/ ٧٢٤)، وابن حبان في صحيحه (٢/ ٤٩٨)، والترمذي (٤/ ٦٦٨)، والدارمي (٢/ ٣١٩)، وأحمد في مسنده (١/ ٢٠٠، ٣/ ١١٢، ١٥٣)، والنسائي (٨/ ٣٢٧) وفي الكبرى (٣/ ٢٣٩).

المقالة الحادية والعشرون

في مكالمة إبليس عليه اللعنة

قال رضي الله عنه: رأيت إبليس اللعين في المنام وأنا في جمع كثير فهممت بقتله، فقال لي لعنة الله لم تقتلني وما ذنبي؟ إن جرى القدر بالشر فلا أقدر أغيره إلى خير وأنقله إليه، وإن جرى بالخير فلا أقدر أغيره إلى شر وأنقله إليه، فأي شيء بيدي؟ وكانت صورته على صورة الخنائى لين الكلام مشوه الوجه طاقات شعر في ذقنه حقير الصورة دميم الخلقة، ثم تبسم في وجهي تبسم خجل ووجل وذلك في ليلة الأحد ثاني عشر ذي الحجة من سنة ستة عشر وخمسمائة، والله الهادي لكل خير.

المقالة الثانية والعشرون

في ابتلاء المؤمن على قدر إيمانه

قال رضي الله عنه وأرضاه: لا يزال الله يبتلي عبده المؤمن على قدر إيمانه، فمن عظم إيمانه وكثر وتزايد عظم بلاؤه، الرسول بلاؤه أعظم من بلاء النبي، لأن إيمانه أعظم، والنبي بلاؤه أعظم من بلاء البدل وبلاء البدل أعظم من بلاء الولي، كل واحد على قدر إيمانه ويقينه. وأصل ذلك قول النبي ﷺ: «إنا معشر الأنبياء أشد الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل»[1] فيديم الله تعالى البلاء لهؤلاء السادات الكرام حتى يكونوا أبدًا في الحضرة ولا يغفلوا عن اليقظة، لأنه يحبهم، فهم أهل المحبة يحبون الحق، والمحب أبدًا لا يختار بعد محبوبه، فالبلاء خطاف لقلوبهم وقيد لنفوسهم، يمنعهم عن الميل إلى غير مطلوبهم والسكون والركون إلى غير خالقهم، فإذا دام ذلك في حقهم ذابت أهويتهم وانكسرت نفوسهم وتميز الحق من الباطل فتنزوي الشهوات والإرادات، والميل إلى اللذات والراحات دنيا وأخرى بأجمعها إلى ما يلي النفس ويصير السكون إلى وعد الحق عزَّ وجلَّ، والرضا بقضائه، والقناعة بعطائه، والصبر على بلائه، والأمن من شر خلقه إلى ما يلي القلب، فتقوى شوكة القلب، فتصير الولاية على الجوارح إليه، لأن البلاء يقوي القلب واليقين، ويحقق الإيمان والصبر، ويضعف النفس والهوى، لأنه كلما وصل الألم ووجد من المؤمن الصبر والرضا والتسليم لفعل الرب عزَّ وجلَّ، رضي الرب تعالى عنه وشكره، فجاءه المدد والزيادة

(١) رواه البخاري (٥/ ٢١٣٩)، وابن حبان (٧/ ١٦٠، ١٨٤).

والتوفيق. قال الله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: الآية ٧]، وإذا تركت النفس بطلب شهوة من شهواتها ولذة من لذاتها من القلب فأجابها القلب إلى مطلوبها ذلك من غير أمر من الله تعالى وإذن منه حصلت بذلك غفلة عن الحق تعالى وشرك ومعصية، فعمهما الله تعالى بالخذلان والبلايا وتسليط الخلق، والأوجاع والأمراض، والإيذاء والتشويش، فينال كل واحد من القلب والنفس حظ وإن لم يجب القلب والنفس إلى مطلوبها حتى يأتيه الإذن من قبل الحق عزَّ وجلَّ بإلهام في حق الأولياء، ووحي صريح في حق المرسلين والأنبياء. عليهم الصلاة والسلام، فعمل ذلك عطاء ومنعًا، وعمهما الله بالرحمة والبركة، والعافية والرضا، والنور والمعرفة، والقرب والغنى والسلامة من الآفات، والنصر على الأعداء، فاعلم ذلك واحفظه، واحذر البلاء جدًا في المسارعة إلى إجابة النفس والهوى، بل توقف وترقب في ذلك إذن المولى جل جلاله، فتسلم في الدنيا والعقبى إن شاء الله تعالى.

المقالة الثالثة والعشرون

في الرضاء بما قسم الله تعالى

قال رضي الله عنه وأرضاه: ارضَ بالدون والزمه جدًّا حتى يبلغ الكتاب أجله فتنقل إلى الأعلى والأنفس، وبه تهنأ وفيه تبقى وتحفظ بلا عناء دنيا وأخرى ولا تبعة ولا عدوى، ثم ترقى من ذلك إلى ما هو أقر عينًا منه وأهنأ.

واعلم أن القسم لا يفوتك بترك الطلب، وما ليس بقسم لا تناله بحرصك في الطلب والجد والاجتهاد، فاصبر والزم الحال وارضَ به، لا تأخذ بك حتى تؤمر، ولا تعط بك حتى تؤمر ولا تتحرك بك ولا تسكن بك، فتبتلي بك وبمن هو شر منك من الخلق، لأنك بذلك تظلم والظالم لا يغفل عنه. قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ [الأنعام: الآية ١٢٩] لأنك في دار ملك عظيم أمره شديد وشوكته، كثير جنده نافذة مشيئته قاهر حكمه باقٍ ملكه دائم سلطانه دقيق علمه بالغة حكمته عدل قضاؤه. ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ: الآية ٣] لا يجاوزه ظلم ظالم فأنت أعظمهم ظلمًا وأكبرهم جريمة، لأنك أشركت بتصرفك فيك وفي خلقه عزَّ وجلَّ بهواك. قال الله تعالى: ﴿لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: الآية ١٣]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: الآية ٤٨] اتق الشرك جدًا ولا تقربه، واجتنبه في حركاتك

وسكناتك وليلك ونهارك، في خلوتك وجولتك. واحذر المعصية في الجملة في الجوارح والقلب واترك الإثم ما ظهر منه وما بطن. لا تهرب منه عزَّ وجلَّ فيلركك، ولا تنازعه في قضائه فيقصمك، وتتهمه في حكمه فيخذلك، ولا تغفل عنه فينبهك ويبتليك، ولا تحدث في داره حادثة فيهلكك، ولا تقل في دينه بهواك فيرديك ويظلم قلبك، ويسلب إيمانك ومعرفتك، ويسلط عليك شيطانك ونفسك وهواك وشهواتك وأهلك وجيرانك وأصحابك وأخلاءك وجميع خلقه حتى عقارب دارك وحياتها وجنها وبقية هوامها فينغص عيشك في الدنيا ويطيل عذابك في العقبى.

المقالة الرابعة والعشرون

في الحث على ملازمة باب الله تعالى

قال رضي عنه وأرضاه: احذر معصية الله عزَّ وجلَّ جدًّا، والزم بابه حقًّا، وابذل طوقك وجهدك في طاعته معتذرًا متضرعًا مفتقرًا خاضعًا، متخشعًا مطرقًا، غير ناظر إلى خلقه ولا تابع لهواك، ولا طالب للأعواض دنيا وأخرى، ولا ارتقاء إلى المنازل العالية والمقامات الشريفة، واقطع بأنك عبده والعبد وما ملك لمولاه، لا يستحق عليه شيئًا من الأشياء، أحسن الأدب ولا تتّهم مولاك، فكل شيء عنده بمقدار، لا مقدّم لما أخّر ولا مؤخّر لما قدّم، يأتيك ما قُدّر لك عند وقته وأجله إن شئت أو أبيت، لا تشره على ما سيكون لك، ولا تطلب وتلهف على ما هو لغيرك، فما ليس هو عندك لا يخلو إما أن يكون لك أو لغيرك، فإن كان لك فهو إليك صائر وأنت إليه مقاد ومسير، فاللقاء عن قريب حاصل، وما ليس لك فأنت عنه مصروف وهو عنك مول فأنى لكما التلاق فاشغل بإحسان الأدب فيما أنت بصدده من طاعة مولاك عزَّ وجلَّ في وقتك الحاضر، ولا ترفع رأسك ولا تمل عنقك إلى ما سواه. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه: الآية ١٣١] فقد نهاك الله عزَّ وجلَّ عن الالتفات إلى غير ما أقامك فيه ورزقك من طاعته وأعطاك من قسمه ورزقه وفضله، ونبهك أن ما سوى ذلك فتنة افتتنهم به، ورضاك بقسمك خير لك وأبقى وأبرك وأحرى وأولى، فليكن هذا دأبك ومتقلبك ومثواك، وشعارك ودثارك ومرادك ومرامك، وشهوتك ومناك، تنل به كل المرام، وتصل به إلى كل مقام وترقى به إلى كل خير ونعيم وطريف وسرور ونفيس. قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟

يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السَّجدَة: الآية ١٧] ولا عمل بعد العبادات الخمس وترك الذنوب، ولا أجمع ولا أعظم ولا أشرف ولا أحب إلى الله عزَّ وجلَّ، ولا أرضى عنده مما ذكرنا لك، وفّقنا الله وإياك لما يحبّ ويرضى بمنّه.

المقالة الخامسة والعشرون

في شجرة الإيمان

قال رضي الله عنه وأرضاه: لا تقولنّ يا فقير اليد، يا مولّي عنه الدنيا وأبناؤها، يا خامل الذكر بين ملوك الدنيا وأربابها، يا جائع يا نايع يا عريان الجسد يا ظمآن الكبد يا مشتتًا في كل زاوية من الأرض من مسجد وبقاع خراب، ومردودًا من كل باب، ومدفوعًا عن كل مراد، ومنكسرًا ومزدحمًا في قلبه كل حاجة ومرام. إن الله تعالى أفقرني وذوى عني الدنيا وعزّني، وتركني وقلاني وفرّقني ولم يجمعني وأهانني ولم يعطني من الدنيا كفاية، وأخملني ولم يرفع ذكري بين الخليقة وإخواني، وأسبل على غيري نعمة منه سابغة يتقلب فيها في ليله ونهاره، وفضله عليّ وعلى أهل دياري وكلانا مسلمان مؤمنان ويجمعنا أبونا آدم وأُمّنا حوّاء عليهما السلام، أما أنت فقد فعل الله ذلك بك، لأن طينتك حرة وندى رحمة الله متدارك عليك من الصبر والرضا واليقين والموافقة والعلم وأنوار الإيمان والتوحيد متراكم لديك، فشجرة إيمانك وغرسها وبذرها ثابتة مكينة مورقة مثمرة متزايدة متشعّبة غضّة مظلّلة متفرعة، فهي كل يوم في زيادة ونموّ، فلا حاجة بها إلى سباطة وعلف لتنمى بها وتربى، وقد فرغ الله عزَّ وجلَّ من أمرك على ذلك، وأعطاك في الآخرة دار البقاء وخوّلك فيها، وأجزل عطاءك في العقبى مما لا عين رأت ولا أُذُن سمعت ولا خطر على قلب بشر. قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السَّجدَة: الآية ١٧] أي ما عملوا في الدنيا من أداء الأوامر، والصبر على ترك المناهي، والتسليم والتفويض إليه في المقدور، والموافقة له في جميع الأمور. وأما الغير الذي أعطاه الله عزَّ وجلَّ الدنيا وخوله ونعمه بها وأسبغ عليه فضله فعل به ذلك، لأن محل إيمانه أرض سبخة وصخر لا يكاد يثبت فيها الماء وتنبت فيها الأشجار، ويتربى فيها الزرع والثمار فصبّ عليها أنواع سباطه وغيرها مما يربى به النبات والأشجار، وهي الدنيا وحطامها ليحفظ بها ما أنبت فيها من شجرة الإيمان وغرس الأعمال، فلو قطع ذلك عنها لجفّ النبات والأشجار، وانقطعت الثمار، فخرجت الديار، وهو عزَّ وجلَّ مريد

عمارتها، فشجرة إيمان الغني ضعيفة المنبت وجالٍ عما هو مشحون به منبت شجرة إيمانك يا فقير، فقوتها وبقاؤها بما ترى عنده من الدنيا وأنواع النعيم، فلو قطع ذلك عنه مع ضعف الشجرة جفت، فكان كفرًا وجحودًا وإلحاقًا بالمنافقين والمرتدين والكفار، اللهم إلا أن يبعث الله عزَّ وجلَّ إلى الغنى عساكر الصبر والرضا واليقين والتوفيق والعلم وأنواع المعارف فيقوي الإيمان بها فحينئذٍ لا يبالي بانقطاع الغنى والنعيم، والله الهادي الموفق.

المقالة السادسة والعشرون

في النهي عن كشف البرقع عن الوجه

قال رضي الله عنه وأرضاه: لا تكشف البرقع والقناع عن وجهك حتى تخرج من الخلق وتوليهم ظهر قلبك في جميع الأحوال ويزول هواك، ثم تزول إرادتك ومناك، فتفنى عن الأكوان دنيا وأخرى، فتصير كإناء منثلم لا يبقى فيك غير إرادة ربك عزَّ وجلَّ فتمتلىء به عزَّ وجلَّ وبحكمه، إذا خرج الزور دخل النور، فلا يكون لغير ربك في قلبك مكان ولا مدخل وجعلت بواب قلبك، وأعطيت سيف التوحيد والعظمة والجبروت، فكل من رأيته دنا من ساحة صدرك إلى باب قلبك ندرت رأسه من كاهله فلا يكون لنفسك وهواك إرادتك ومنياك في دنياك وأخراك عندك رأس امتثال ولا كلمة مسموعة، لا أرى متبع إلا اتباع أمر الرب عزَّ وجلَّ، والوقوف معه والرضا بقضائه وقدره، بل الفناء في قضائه وقدره، فتكون عبد الرب عزَّ وجلَّ وأمره لا عبد الخلق وآرائهم فإذا استمر الأمر فيك كذلك، ضربت حول قلبك سرادقات الغيرة وخنادقي العظمة وسلطان الجبروت، وحف بجنود الحقيقة والتوحيد، ويقام دون ذلك حراس من الحق عزَّ وجلَّ، كيلا يخلص الخلق إلي، تطلب القلب من الشيطان والنفس والهوى، والإرادات والأماني الباطلة، والدعاوى الكاذبة الناشئة من الطباع والنفس الآمرة بالسوء، والضلالات الناشئة من الهوى فحينئذٍ إن كان في القدر مجيء الخلق وتواترهم إليك وتتابعهم وتطابقهم عليك، ليصيبوا من الأنوار اللائحة والعلامات المنيرة والحكم البالغة، ويروا من الكرامات الظاهرة وخوارق العادة المستمرة، ويزداد بذلك من القربات والطاعات والمجاهدات والمكايدات في عبادة ربهم عزَّ وجلَّ، حفظت عنهم أجمعين، وعن ميل النفس إلى هواها، وعجبها ومباهاتها، وتعاظمها بالتكبر بهم وبقبولهم لك وإقبال وجوههم إليك وكذلك إن قدر مجيء زوجة حسناء جميلة بكفايتها وسائر مؤنتها حفظت من شرّها

وحمل أثقالها وأتباعها وأهلها، وصارت عندك موهبة مكفاة مهناة منقاة مصفاة من الغش والخبث والغل والحقد والغضب والخيانة في الغيب، فتكون لك مسخرة، وهي وأهلها محمولة عنك مؤنتها، مدفوعة عنك أذيتها، وإن قدر منها ولد كان صالحًا ذرية طيبة قرة عين. قال الله تعالى: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ [الأنبياء: الآية ٩٠]، وقال تعالى: ﴿هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: الآية ٧٤]، وقال تعالى: ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: الآية ٦] فتكون هذه الدعوات التي في هذه الآيات معمولًا بها مستجابة في حقك إن دعوت بها أو لم تدع، إذ هي في محلها وأهلها، وأولى من يعامل بهذه النعمة ويقابل بها من كان أهلًا لهذه المنزلة، وأقيم في هذا المقام وقدر له من الفضل والقرب هذا المقدار، وكذلك إن قدر مجيء شيء من الدنيا وإقبالها لا يضر إذ ذاك، فما هو قسمك منها فلا بد من تناوله وتصفيته لك بفعل الله عزَّ وجلَّ، وورود الأمر بتناوله وأنت ممتثل للأمر مثاب على تناوله، كما تثاب على فعل صلوات الفرض وصيام الفرض، وتؤمر فيما ليس بقسمك منها بصرفه إلى أربابه من الأصحاب والجيران والإخوان المستحقين الفقراء منهم وأصحاب الأقسام على ما يقتضي الحال، فالأحوال تكشفها وتميزها. ليس الخبر كالمعاينة، فحينئذٍ تكون من أمرك على بيضاء نقية لا غبار عليها ولا تلبيس ولا تخليط ولا شك ولا ارتياب، فالصبر الصبر، الرضا الرضا، حفظ الحال حفظ الحال، الخمول الخمول، الخمود الخمود السكوت السكوت، الصموت الصموت، الحذر الحذر، النجا النجا، الوحا الوحا، الله الله ثم الله، الإطراق الإطراق، الإغماض الإغماض الحياء الحياء إن يبلغ الكتاب أجله، فيؤخذ بيدك فتقدم وينزع عنك ما عليك ثم تغوص في بحار الفضائل والمنن والرحمة ثم تخرج منها فتخلع عليك خلع الأنوار والأسرار والعلوم والغرائب المدنية، ثم تقرب وتحدث فيه بإعلام وإلهام وتكلم وتعطي وتغني وتشجع وترفع، وتخاطب بـ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: الآية ٥٤] فحينئذٍ اعتبر حالة يوسف الصديق عليه السلام حين خوطب بهذا الخطاب على لسان ملك مصر وعظيمها وفرعونها، كان لسان الملك قائلًا معبرًا بهذا الخطاب والمخاطب هو الله عزَّ وجلَّ على لسان المعرفة، سلم إليه المالك الظاهر وهو ملك مصر، وملك النفس وملك المعرفة والعلم والقربة والخصوصية وعلو المنزلة عنده عزَّ وجلَّ. قال تعالى في ملك الملك: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يوسف: الآية ٢١] أي في أرض مصر،

﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: الآية ٥٦]، قال تعالى في ملك النفس: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: الآية ٢٤]، وقال تعالى في ملك المعرفة والعلم: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: الآية ٣٧]، فإذا خوطبت بهذا الخطاب يا أيها الصديق الأكبر، أعطيت الحظ الأوفر، من العلم الأعظم، ومنحت وهنيت بالتوفيق والمنن والقدرة والولاية العامة، والأمر النافذ على النفس وغيرها من الأشياء والتكوين، بإذن إله الأشياء في الدنيا قبل الآخرة. وأما في الأخرى في دار السلام والجنة العليا، فالنظر إلى وجه المولى الكريم زيادة ومنه، وهو المنى الذي لا غاية له ولا منتهى، والله الموفق لحقائق ذلك، إنه رؤوف رحيم.

المقالة السابعة والعشرون

في أن الخير والشر ثمرتان

قال رضي الله عنه وأرضاه: اجعل الخير والشر ثمرتين من غصنين من شجرة واحدة، أحد الغصنين يثمر حلوًا والآخر مرًا، فاترك البلاد والأقاليم ونواحي الأرض التي يحمل إليها هذه الثمار المأخوذة من هذه الشجرة، وابعد منها ومن أهلها واقترب من الشجرة وكن سائسها وخادمها القائم عندها، واعرف الغصنين والثمرتين والجانبين، فكن إلى جانب الغصن المثمر حلوًا، فحينئذٍ يكون غذاؤك وقوتك منها، واجتنب أن تقدم إلى جانب الغصن الآخر فتأكل من ثمرته فتهلك من مرارتها، فإذا دمت على هذا كنت في دعة وأمن وراحة وسلامة من الآفات كلها، إذ الآفات وأنواع البلايا تتولد من تلك الثمرة المرة، وإذا غبت عن تلك الشجرة وهِمْتَ في الآفاق وقدم بين يديك من تلك الثمرتين وهي مخلطة غير متميزة الحلوة من المرة هنا فتناولت منها، فربما وقعت يدك على المرة فأدنيتها من فيك فأكلت منها جزءًا ومضغته، فسرت المرة إلى أعماق لهواتك وباطن حلقك ودماغك وخياشيمك، فعملت فيك وسرت في عروقك وأجزاء جسدك فهلكت بها، ولفظك الباقي من فيك وغسل أثره لا ينفع ولا يدفع عنك ما قد سرى في جسدك ولا ينفعك، وإن أكلت ابتداء من الثمرة الحلوة وسرت حلاوتها في أجزاء جسدك وانتفعت بها وسررت فلا يكفيك ذلك، فلا بد تتناول غيرها ثانيًا، فلا تأمن أن تكون الثانية من المرة فيحل بك ما ذكرته لك، فلا خير في البعد عن الشجرة والجهل بثمرتها والسلامة في قربها

والقيام معها، فالخير والشر بفعل الله عزَّ وجلَّ، والله هو فاعلهما ومجريهما. قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصَّافات: الآية ٩٦]. وقال النبي ﷺ: «الله خلق الجازر وجزوره» وأعمال العباد خلق الله عزَّ وجلَّ وكسبهم. قال تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: الآية ٣٢] سبحانه ما أكرمه وأرحمه أضاف العمل إليهم وأنهم استحقوا الدخول إلى الجنة بعملهم، وهو بتوفيقه ورحمته لهم في الدنيا والآخرة.

قال ﷺ: «لا يدخل الجنة أحد بعمله، فقيل له ولا أنت يا رسول الله؟ فقال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته ووضع يده على رأسه»[1]، مروي ذلك في حديث عائشة رضي الله عنها: «فإذا كنت طائعًا لله عزَّ وجلَّ ممتثلًا لأمره منتهيًا لنهيه مسلمًا له في قدره، حماك عن شره وتفضل عليك بخيره وحماك عن الأسواء جميعها دينًا ودنيا. أما دنيا: فقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: الآية ٢٤]، وأما دينًا فقوله عزَّ وجلَّ: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء: الآية ١٤٧] مؤمن شاكر ما يفعل البلاء عنده وهو إلى العافية أقرب من البلاء، لأنه في حمل المزيد أيضًا، لأنه شاكر. قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: الآية ٧] فإيمانك يطفىء لهب النار في الآخرة التي هي عقوبة كل عاص، فكيف لا يطفىء نار البلايا في الدنيا؟ اللهم إلا أن يكون العبد من المجذوبين المختارين للولاية والاصطفاء والاجتباء، فلا بد من البلاء ليصفي به من خبث الهوى والميل إلى الطباع، والركون إلى شهوات النفس ولذاتها، والطمأنينة إلى الخلق والرضا بقربهم، والسكون إليهم والثبوت معهم والفرح بهم، فيبتلى حتى يذوب جميع ذلك، ويتنظف القلب بخروج الكل، ويبقى توحيد الرب عزَّ وجلَّ ومعرفته وموارد الغيب من أنواع الأسرار والعلوم وأنوار القرب، لأنه بيت لا يسعه اثنان، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: الآية ٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ [النمل: الآية ٣٤] فأخرجوا الأعزّة عن طيب المنازل ونعيم العيش، وكانت الولاية على القلب للشيطان والهوى والنفس والجوارح متحركة بأمرهم من

(١) رواه الربيع في مسنده (١/ ٢٨٢)، والطبراني في مسند الشاميين (١/ ٤٠٢)، وأورده الحافظ في الفتح (١١/ ٢٩٥، ١٣/ ٦١)، والحناوي في فيض القدير (٤/ ٥٢٢).

أنواع المعاصي والأباطيل والترهات فزالت تلك الولاية فسكنت الجوارح وفرغت دار الملك التي هي القلب وتنظفت الساحة التي هي الصدر. فأما لقلب فصار مسكينًا للتوحيد والمعرفة والعلم. وأما الساحة فمهبط الموارد والعجائب من الغيب؛ كل ذلك نتيجة البلايا وثمراتها، قال النبي ﷺ: «إنا معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل» وقال ﷺ: «أنا أعرفكم بالله وأشدكم منه خوفًا» فكل من قرب من الملك اشتد خطره وحذره، لأنه في مرأى من الملك لا يخفى عليه تصاريفه وحركاته.

فإن قلت: فالخليقة عند الله عزَّ وجلَّ بأجمعهم كشخص واحد لا يخفى عليه منهم شيء، فأي فائدة لهذا الكلام؟.

فنقول لك: لما علت منزلته وشرفت رتبته عظم خطره، لأنه وجب عليه شكر ما أولاه من جسيم نعمه وفضله فأدنى الالتفات عن خدمته تقضبر في شكره وذلك نقصان في طاعته. قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: الآية ٣٠]، قال ذلك لهنّ لتمام نعمه عزَّ وجلَّ عليهن باتصالهن بالنبي ﷺ، فكيف من كان مواصلًا بالله عزَّ وجلَّ وقربه، تعالى الله علوًا كبيرًا عن التشبيه بخلقه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية ١١] والله الهادي.

المقالة الثامنة والعشرون

في تفصيل أحوال المريد

قال رضي الله تعالى عنه وأرضاه: «أتريد الراحة والسرور والدعة والحبور، والأمن والسكون والنعيم والدلال وأنت بعد في كير السبك والتذويب وتمويت النفس ومجانبة الهوى وإزالة المرادات والأعواض دنيا وأخرى وقد بقيت فيك بقية من ذلك ظاهرة لائحة؟ على رسلك يا مستعجل مهلًا مهلًا، يا مترقب الباب مسدود إلى ذلك، وقد بقيت عليك منه وفيك ذرة ومنه والمكاتب عبد ما بقي عليه درهم» أنت مصدود عن ذلك ما بقي عليك من الدنيا مقدار مصّ نواة، والدنيا هواك ومرادك، ورؤيتك بشيء من الأشياء أو طلبك بشيء من الأشياء وتشوق نفسك إلى شيء من الأعواض دنيا وأخرى؛ فما دام فيك شيء من ذلك فأنت في باب الإفناء، فاسكن حتى يحصل الفناء على التمام والكمال، فتخرج من الكِبْر وتكمل صياغتك وتجلى وتكسى وتطيب

وتبخر، ثم ترفع إلى الملك الأكبر فتخاطب: «﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يُوسُف: الآية ٥٤] فتؤانس وتلاطف، وتطعم من الفضل ومنه تسقي وتقرب وتدني وتطلع على الأسرار وهي عنك لا تخفى فتغني بما تعطي من ذلك عن جميع الأشياء. ألا ترى إلى قراضة الذاهب متفرقة مبتذلة متداولة غادية رائحة في أيدي العطارين والبقالين والقصابين والدباغين والنقاطين والكناسين والكفافين أصحاب الصنائع النفيسة والرذيلة الدنية الخبيثة، ثم تجمع فتجعل في كير الصائغ فتذوب هناك بإشعال النار عليها، ثم تخرج منه فتطرق وترقق وتطلع وتصاك فتجعل حليًا، ثم تجلى وتطيب فتترك في خير المواضع والأمكنة من وراء الأخلاق في الخزائن والصناديق والأحقاق وتحلى بها العروس وتزين وتكرم» وقد تكون العروس للملك الأعظم فتنقل القراضة من هذه إلى قرب الملك ومجلسه بعد السبك والدق، هكذا أنت يا مؤمن إذا صبرت على مجاري الأقدار فيك ورضيت بالقضاء في جميع الأحوال قربت إلى مولاك عزَّ وجلَّ في الدنيا، فتنعم بالمعرفة والعلوم والأسرار، وتسكن في الآخرة دار السلام مع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين في جوار الله وداره وقربه عزَّ وجلَّ، فاصبر ولا تستعجل، وارض بالقضاء ولا تتهم، فسينالك برد عفو الله ولطفه وكرمه بمنه تعالى.

المقالة التاسعة والعشرون

في قوله ﷺ: «كاد الفقر أن يكون كفرًا»

قال رضي الله عنه وأرضاه: «يؤمن العبد بالله ويسلم الأمور كلها إليه عزَّ وجلَّ، ويعتقد تسهيل الرزق منه، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، ويؤمن بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: الآيتان ٢، ٣]، ويقول ذلك ويؤمن به وهو في حال العافية والفناء ثم يبتليه الله عزَّ وجلَّ بالبلاء والفقر فيأخذ في السؤال والتضرع فلا يكشفهما عنه، فحينئذٍ يتحقق قوله ﷺ: «كاد الفقر أن يكون كفرًا»[١] فمن تلطف الله به كشف عنه ما به فأدركه بالعافية والغنى ويوفقه للشكر والحمد والثناء ويديم له ذلك إلى اللقاء ومن يرد الله فتنته يديم بلاءه

---

(١) رواه القضاعي في مسند الشهاب (١/ ٣٤٢)، وأورد الحيار كفوري في تحفة الأحوذي (٧/ ١٧)، (١٠/ ٤٥)، والحناوي في فيض القدير (٤/ ٥٤٢، ٥/ ٤٥٨)، والعجلوني في كشف الخفاء (٢/ ١٤١).

وفتنته وفقره فيقطع عنه مدد إيمانه فيكفر بالاعتراض والتهمة له عزَّ وجلَّ والشك في وعده فيموت كافرًا بالله عزَّ وجلَّ جاحدًا لآياته ومسخطًا على ربه، وإليه أشار رسول الله ﷺ بقوله: «إن أشد الناس عذابًا يوم القيامة رجل جمع الله له بين الدنيا وعذاب الآخرة» نعوذ بالله من ذلك وهو الفقر المنسي الذي استعاذ منه النبي ﷺ، والرجل الثاني هو الذي أراد الله عزَّ وجلَّ اصطفاء واجتباءه وجعله من خواصه وأحبابه وأخلائه وورث أنبياءه وسيد أوليائه، ومن عظماء عباده وعلمائهم وحكمائهم وشفعائهم وشيخهم ومتبوعهم ومعلمهم وهاديهم إلى مولاهم، ومرشدهم إلى سبيل الهدى واجتناب سبل الردى، فأرسك إليه جبال الصبر وبحار الرضى والموافقة والغنى في قضائه وفعله، ثم يدركه بجزيل العطاء ويدعو الله في آناء الليل وأطراف النهار في الجلوة والخلوة في الظاهرة مرة وفي الباطن أخرى بأنواع اللطف وفنون الجذبات فيتصل له ذلك إلى حين اللقاء، والله الهادي.

المقالة الثلاثون في النهي

عن قول الرجل أي شيء أعمل وما الحيلة؟

قال رضي الله عنه وأرضاه: وأكثر ما تقول إيش أعمل وما الحيلة، فيقال لك قف مكانك ولا تجاوز حدك حتى يأتيك الفرج ممن أمرك بالقيام فيما أنت فيه. قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ٢٠٠] أمرك بالصبر يا مؤمن، ثم بالمصابرة والمرابطة والمحافظة والملازمة ثم حذرك تركه فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٩] في ترك ذلك: أي لا تتركوا الصبر فإن الخير والسلامة فيه، وقال النبي ﷺ: «الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد» وقيل: كل شيء ثوابه بمقدار إلا ثواب الصبر فإنه جزاف بغير مقدار، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزُّمَر: الآية ١٠] فإذا اتقيت الله عزَّ وجلَّ حفظك للصبر ومحافظة الحدود وأنجز لك ما وعدك في كتابه وهو قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: الآيتان ٢، ٣] وكنت بصبرك حتى يأتيك الفرج من المتوكلين وقد وعدك الله عزَّ وجلَّ بالكفاية فقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطّلاق: الآية ٣] وكنت مع صبرك وتوكلك من المحسنين، وقد وعدك بالجزاء فقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأنعام: الآية ٨٤] ويحبك الله مع ذلك، لأنه قال: ﴿إِنَّ

ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٩٥] فالصبر رأس كل خير وسلامة دنيا وأخرى، ومنه يترقى المؤمن إلى حالة الرضى والموافقة، ثم الفناء في أفعال الله عزَّ وجلَّ حالة البدلية والغيبية، فاحذر أن تتركه فيخذلك في الدنيا والآخرة ويفوتك خيرهما، نعوذ بالله من ذلك.

المقالة الحادية والثلاثون

في البغض في الله

قال رضي الله عنه وأرضاه: إذا وجدت بقلبك بغض شخص أو حبه فاعرض أعماله على الكتاب والسنة، فإن كانت فيهما مبغوضة فأبشر بموافقتك الله عزَّ وجلَّ ورسوله، وإن كانت أعماله فيهما محبوبة وأنت تبغضه فاعلم بأنك صاحب هوى تبغضه بهواك ظالمًا له ببغضك إياه وعاص لله عزَّ وجلَّ ولرسوله مخالف لهما، فتب إلى الله عزَّ وجلَّ من بغضك واسأله عزَّ وجلَّ محبة ذلك الشخص وغيره من أحبائه وأوليائه وأصفيائه والصالحين من عباده، لتكون موافقًا له عزَّ وجلَّ، وكذلك افعل بمن تحبه يعني أعرض أعماله على الكتاب والسنة، فإن كانت محبوبة فيهما فأحببه، وإن كانت مبغوضة فابغضه كيلا تحبه بهواك وقد أمرت بمخالفة هواك. قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [صٓ: الآية ٢٦].

المقالة الثانية والثلاثون

في عدم المشاركة في محبة الحق

قال رضي الله عنه وأرضاه: ما أكثر ما تقول كل من أُحِبُّه لا تدوم محبتي إياه فيُحال بيننا إما بالغَيْبَة أو بالموت أو بالعداوة وأنواع المال بالتلف والفوات من اليد، فيقال لك: أما تعلم يا محبوب الحق المعني المنظور إليه المغار له وعليه. ألم تعلم أن الله عزَّ وجلَّ غيور، خلقك له وتروم أن تكون لغيره؟ أما سمعت قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المَائدة: الآية ٥٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾ [الذاريَات: الآية ٥٦]، أما سمعت قول الرسول ﷺ: «إذا أحب الله عبدًا ابتلاه، فإن صبر اقتناه». قيل: يا رسول الله وما اقتناه؟ قال: «لم يذر له مالًا ولا ولدًا»، وذلك لأنه إذا كان له مال وولد أحبهما فتنقص وتجزي، فتصير مشتركة بين الله عزَّ وجلَّ وبين غيره، والله تعالى لا يقبل الشريك، وهو غيور قاهر، فوق كل شيء، فيهلك شريكه ويعدمه ليخلص قلب عبده له من غير

شريك، فيتحقق حينئذٍ قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ حتى إذا تنظف القلب من الشركاء والأنداد من الأهل والمال والولد واللذات والشهوات وطلب الولد والرياسات والكرامات والحالات والمنازل والمقامات والجنات والدرجات والقربات والزلفات فلا يبقى في القلب إرادة ولا أمنية، يصير كالإناء المنثلم الذي لا يثبت فيه مائع لأنه انكسر لفعل الله عزَّ وجلَّ، وأنه كلّما تجمعت فيه إرادة كسرها فعل الله وغيرته، فضربت حوله سرادقات العظمة والجبروت والهيبة، وأحضرت من دونها خنادق الكبرياء والسطوة، فلم يخلص إلى القلب إرادة شيء من الأشياء، فحينئذٍ لا يضر القلب الأسباب من المال والولد والأهل والأصحاب والكرامات والحكم والعلم والعبادات، فإن جميع ذلك يكون خارج القلب فلا يغار الله عزَّ وجلَّ بل يكون جميع ذلك كرامة من الله لعبده ولطفًا به ونعمة ورزقًا ومنفعة للواردين عليه، فيكرمون به ويرحمون ويحفظون لكرامته على الله عزَّ وجلَّ، فيكون خفيرًا لهم وكنفًا وحرزًا وشفيعًا دنيا وأخرى.

المقالة الثالثة والثلاثون

تقسيم الرجال إلى أربعة أقسام

قال رضي الله عنه وأرضاه: الناس أربعة رجال:

(رجل) لا لسان له ولا قلب وهو العاصي الغر الغبي لا يعبأ الله به، لا خير فيه، وهو وأمثاله حثالة لا وزن لهم إلى أن يعمهم الله عزَّ وجلَّ برحمته، فيهدي قلوبهم للإيمان به ويحرك جوارحهم بالطاعة له عزَّ وجلَّ، فاحذر أن تكون منهم، ولا تكترث بهم ولا تقم فيهم فإنهم أهل العذاب، والغضب والسخط سكان النار وأهلها، نعوذ بالله عزَّ وجلَّ منهم، إلا أن تكون من العلماء بالله عزَّ وجلَّ ومن معلمي الخير وهداة الدين وقواده ودعاته، فدونك فإنهم وادعهم إلى طاعة الله عزَّ وجلَّ، وحذرهم معصيته فتكتب عند الله جهبذًا، فتعطي ثواب الرسل والأنبياء، قال رسول الله ﷺ لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لأن يهدي الله بهداك رجلًا خير لك مما طلعت عليه الشمس».

(الرجل الثاني) رجل له لسان بلا قلب فينطق بالحكمة ولا يعمل بها، يدعو الناس إلى الله وهو يفر منه عزَّ وجلَّ، يستقبح عيب غيره ويدوم هو على مثله في نفسه، يظهر للناس تنسكًا ويبارز الله عزَّ وجلَّ بالعظائم من المعاصي، إذا خلا كأنه

ذئب عليه ثياب، وهو الذي حذر منه النبي ﷺ بقوله: «أخوف ما أخاف على أمتي من كل منافق عليم اللسان». وفي حديث آخر: «أخوف ما أخاف على أمتي من علماء السوء». نعوذ بالله من هذا، فابعد منه وهرول، لئلا يختطفك بلذيذ لسانه فتحرقك نار معاصيه، ويقتلك فتن باطنه وقلبه.

(والرجل الثالث) قلب بلا لسان، وهو مؤمن ستره الله عزَّ وجلَّ من خلقه، وأسبل عليه كنفه، ويصره بعيوب نفسه، ونور قلبه، وعرفه غوائل مخالطة الناس وشؤم الكلام والنطق، وتيقن أن السلامة في الصمت والانزواء والانفراد، واسمع قول النبي ﷺ: «من صمت نجا»[١]. واسمع قول بعض العلماء: العبادة عشر أجزاء، تسعة منها في الصمت، فهذا رجل ولي الله عزَّ وجلَّ، في ستر الله محفوظ ذو سلامة وعقل وافر، جليس الرحمـٰن منعم عليه، فالخير كل للخير عنده، فدونكه ومصاحبته ومخالطته وخدمته والتحبب إليه بقضاء حوائج تسنح له ومرافق يرتفق بها، فيحبك الله ويصطفيك، ويدخلك في زمرة أحبائه وعباده الصالحين ببركته إن شاء الله تعالى.

(والرجل الرابع) المدعو في الملكوت بالعظيم كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «مَن تعلّم وعلّم، وعمل دُعِيَ في الملكوت عظيمًا»[٢]، وهو العالم بالله عزَّ وجلَّ وآياته، استودع الله عزَّ وجلَّ قلبه غرائب علمه، وأطلعه على أسرار طواها عن غيره، واصطفاه واجتباه وجذبه إليه ورقاه، وإلى باب قربه هداه، وشرح صدره لقبول تلك الأسرار والعلوم، وجعله جهبذًا وداعيًا للعباد ونذيرًا لهم وحجة فيهم، هاديًا مهديًا شافعًا مشفعًا صادقًا صديقًا، بدلًا لرسله وأنبيائه عليهم صلواته وسلامه وتحياته وبركاته.

فهذه هي الغاية القصوى في بني آدم، لا منزلة فوق منزلته إلا النبوة، فعليك به واحذر أن تخالفه وتنافره وتجانبه وتعاديه وتترك القبول منه والرجوع إلى نصيحته، وقوله: فإن السلامة فيما يقول عنده، والهلاك والضلال عند غيره إلا من يوفقه الله عزَّ وجلَّ ويمده بالسداد والرحمة.

فقد قسمت لك الناس، فانظر لنفسك إن كنت ناظرًا، واحترز لها إن كنت محترزًا لها شفيقًا عليها، هدانا الله وإياك لما يحبه ويرضاه.

---

(١) رواه الترمذي (٤/ ٦٦٠)، والدارمي (٢/ ٣٨٧)، وأحمد في المسند (٢/ ١٥٩، ١٧٧)، والطبراني في الأوسط (٢/ ٢٦٤)، والقضاعي في الشهاب (١/ ٢١٩).
(٢) لم أقف عليه.

المقالة الرابعة والثلاثون

في النهي عن السخط على الله تعالى

قال رضي الله عنه وأرضاه:

ما أعظم تسخطك على ربك وتهمتك له عزَّ وجلَّ، واعتراضك عليه وانتسابك له عزَّ وجلَّ بالظلم، واستبطائك في الرزق والغنى وكشف الكروب والبلوى، أما تعلم أن لكل أجل كتاب، ولكل زيادة بلية وكربة غاية منتهى ونفاد، لا يتقدم ذلك ولا يتأخر، أوقات البلايا لا تقلب فتصير عوافي ووقت البؤس لا ينقلب نعيمه، وحالة الفقر لا تستحيل غنى.

أحسِن الأدب والزم الصمت والصبر والرضا والموافقة لربك عزَّ وجلَّ، وتب عن تسخطك عليه وتهمتك له في فعله، فليس هناك استيفاء وانتقام من غير ذنب، ولا عرض على الطبع كما هو في حق العبيد بعضهم في بعض، هو عزَّ وجلَّ منفرد بالأزل وسبق الأشياء، خلقها وخلق مصالحها ومفاسدها وعلم ابتداءها وانتهاءها وانقضاءها، وهو عزَّ وجل حكيم في فعله متقن في صنعه لا تناقض في فعله، لا يفعل عبثًا ولا يخلق باطلًا لعبًا، ولا تجوز عليه النقائص ولا اللوم في أفعاله، فانتظر الفرج حتى إن عجزت عن موافقته وعن الرضا والغنى في فعله حتى يبلغ الكتاب أجله، فتسفر الحالة عن ضدها بمرور الزمان وانقضاء الآجال، كما ينقضي الشتاء فيسفر عن الصيف، وينقضي الليل فيسفر عن النهار، فإذا طلبت نور ضوء النهار ونوره بين العشاءين لم تعطه، بل يزداد في ظلمة الليل حتى إذا بلغت الظلمة غايتها وطلع الفجر وجاء النهار بضوئه طلبت ذلك وأردته وسكت عنه وكرهته، فإن طلبت إعادة الليل حينئذٍ لم تجب دعوتك ولم تعطه لأنك طلبت الشيء في غير حينه ووقته فتبقى حسيرًا منقطعًا متسخطًا خجلًا، فأرخ هذا كله وألزم الموافقة وحسن الظن بربك عزَّ وجلَّ والصبر الجميل، فما كان لك لا تسلبه، وما ليس لك لا تعطاه: لعمري إنك تدعو وتبتهل إلى ربك عزَّ وجلَّ بالدعاء والتضرع وهو عبادة وطاعة امتثالًا لأمره عزَّ وجلَّ في قوله تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: الآية ٦٠]، وقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء: الآية ٣٢] وغير ذلك من الآيات والأخبار، أنت تدعو وهو يستجيب لك عند حينه وأجله إذا أراد وكان لك في ذلك مصلحة في دنياك وأخراك ويوافق في ذلك قضاءه وانتهاء أجله، لا تتهمه في تأخير الإجابة ولا تسأم من دعائه، فإنك إن لم تربح لم تخسر، وإن

لم يجبك عاجلًا أثابك آجلًا، فقد جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ، "والعبد يرى في صحائفه حسنات يوم القيامة لا يعرفها فيقال له إنها بدل سؤالك في الدنيا الذي لم يقدر قضاؤه فيها"(١)، أو كما ورد ثم أقل أحوالك أنك تكون ذاكرًا لربك عزَّ وجلَّ موحدًا له حيث تسأله ولا تسأل أحدًا غيره، ولا تترك حاجتك لغيره تعالى، فأنت بين الحالتين في زمانك كله ليلك نهارك وصحتك وسقمك وبؤسك ونعمائك وشدتك ورخائك، وإما أن تمسك عن السؤال، وترضى بالقضاء وتوافق وتسترسل لفعله عزَّ وجلَّ، كالميت بين يدي الغاسل، والطفل الرضيع في يدي الظئر، والكرة بين يدي الفارس يقلبها بصولجانه، فيقلبك القدر كيف يشاء، إن كان النعماء فمنك الشكر والثناء ومنه عزَّ وجلَّ المزيد في العطاء. كما قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: الآية ٧]، وإن كان البأساء فالصبر والموافقة منك بتوفيقه والتثبت والنصرة والصلاة والرحمة منه عزَّ وجلَّ بفضله وكرمه كما قال عز من قائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٥٣] بنصره وتثبيته، وهو لعبده ناصر له على نفسه وهواه وشيطانه. وقال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محَمَّد: الآية ٧] إذا نصرت الله في مخالفة نفسك وهواك بترك الاعتراض عليه والسخط بفعله فيك وكنت خصمًا لله على نفسك سياقًا عليها كلما تحركت بكفرها وشركها حززت رأسها بصبرك وموافقتك لربك والطمأنينة إلى فعله ووعده والرضا بهما كان عزَّ وجلَّ لك معينًا وأما الصلاة والرحمة، فقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البَقَرَة: الآيات ١٥٥ - ١٥٧]. والحالة الأخرى أنك تبتهل إلى ربك عزَّ وجلَّ بالدعاء والتضرع إعظامًا له وامتثالًا لأمره، وفيه وضع الشيء في موضعه، لأنه ندبك إلى سؤاله والرجوع إليه، وجعل ذلك مستراحًا ورسولًا منك إليه وموصلة ووسيلة لديه بشرط ترك التهمة والسخط عليه عند تأخير الإجابة إلى حينها، اعتبر ما بين الحالتين ولا تكن ممن تجاوز عن حديهما، فإنه ليس هناك حالة أخرى، فاحذر أن تكون من الظالمين المعتدين فيهلك عزَّ وجلَّ ولا يبالي كما أهلك من مضى من الأمم السالفة في الدنيا بتشديد بلائه وفي الآخرة بأليم عذابه.

(١) لم أقف عليه.

المقالة الخامسة والثلاثون

في الورع

قال رضي الله عنه وأرضاه: عليك بالورع وإلا فالهلاك في زيقك ملازم لك لا تنجو منه أبدًا إلا أن يتغمدك الله تعالى برحمته، فقد ثبت في الحديث المروي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن ملاك الدين الورع، وهلاكه الطمع، وإن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، كالراتع إلى جنب الزرع يوشك أن يمد فاه إليه لا يكاد أن يسلم الزرع منه»[١]. وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: كنا نترك سبعين بابًا من المباح مخافة أن نقع في الجناح. وعن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: كنا نترك تسعة أعشار الحلال مخافة أن نقع في الحرام، فعلوا ذلك تورعًا في مقاربة الحرام أخذًا بقول النبي ﷺ: «لكل ملك حمى»[٢]، وإن حمى الله محارمه، فمن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، فمن دخل حصن الملك فجاز الباب الأول ثم الثاني والثالث حتى قرب من سدته خير ممن وقف على الباب الأول الذي يلي البر «فإنه إن أغلق عنه غلق الباب الثالث لم يضره وهو من وراء بابين من أبواب القصر ومن دونه حراس الملك وجنده، وأما إذا كان على الباب الأول فأغلقوا عنه بقي في البر وحده فأخذته الذئاب والأعداء وكان من الهالكين»، فهكذا من سلك العزيمة ولازمها: إن سلب عنه مدد التوفيق والرعاية وانقطعت عنه حصل في الرخص ولم يخرج عن الشرع: فإذا أدركته المنية كان على العبادة والطاعة ويشهد له بخير العمل، ومن وقف على الرخص ولم يتقدم إلى العزيمة إن سلب عنه التوفيق فقطعت عنه أمداده، فغلب الهوى عليه وشهوات النفس، فتناول الحرام يخرج من الشرع فصار في زمرة الشياطين أعداء الله عزَّ وجلَّ الضالين عن سبل الهدى، فإن أدركته المنية قبل التوبة كان من الهالكين إلا أن يتغمده الله تعالى برحمته وفضله، فالخطر في القيام مع الرخص، والسلامة كل السلامة مع العزيمة، والله الهادي إلى سواء الطريق.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (١/ ٢٨)؛ ومسلم (٣/ ١٢١٩)، وأبو داود في سننه (٣/ ٢٤٣)، والنسائي في المجتبى (٧/ ٢٤٢)، وابن حبان في صحيحه (٢/ ٤٩٧، ١٥/ ٣٨٠).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (١/ ٢٨)، ومسلم (٣/ ١٢١٩)، وابن حبان (١٢/ ٣٨٠)، والترمذي في سننه (٣/ ٥١١)، والدارمي (٢/ ٣١٩)، والبيهقي في السنن الكبرى (٥/ ٢٦٤، ٥/ ٣٣٤)، وابن ماجه (٢/ ١٣١٨)، وأحمد في مسنده (٤/ ٢٧٠، ٢٧١)، والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ١٢٧، ١٢٨).

المقالة السادسة والثلاثون

في بيان الدنيا والآخرة وما ينبغي أن يعمل فيهما

قال رضي الله عنه وأرضاه: اجعل آخرتك رأس مالك ودنياك ربحه، واصرف زمانك أولًا في تحصيل آخرتك. ثم إن فضل من زمانك شيء اصرفه في دنياك وفي طلب معاشك، ولا تجعل دنياك رأس مالك وآخرتك ربحه. ثم إن فضل من الزمان فضلة صرفتها في آخرتك تقضي فيها الصلوات تسبكها سبيكة واحدة ساقطة الأركان، مختلفة الواجبات من غير ركوع وسجود وطمأنينة بين الأركان، أو يلحقك التعب والإعياء فتنام عن القضاء جملة، جيفة في الليل بطالًا في النهار، تابعًا لنفسك وهواك وشيطانك، وبائعًا آخرتك بدنياك عند النفس ومطيتها، أمرت بركوبها وتهذيبها ورياضتها والسلوك بها في سبيل السلامة وهي طرفه الآخرة وطاعة مولاها عزَّ وجلَّ فظلمتها بقبولك منها وسلمت زمامها إليها وتبعتها في شهواتها ولذاتها وموافقتها وشيطانها وهواها ففاتك خير الدنيا والآخرة وخسرتهما فدخلت القيامة أفلس الناس وأخسرهم دينًا ودنيا، وما وصلت بمتابعتها إلى أكثر من قسمك من دنياك، ولو سلكت بها طريق الآخرة وجعلتها رأس مالك ربحت الدنيا والآخرة ووصل إليك قسمك من الدنيا هنيئًا مريئًا وأنت مصون مكرم كما قال النبي ﷺ: «إن الله يعطي الدنيا على نية الآخرة ولا يعطي الآخرة على نية الدنيا»[1]. وكيف لا يكون كذلك ونية الآخرة هي طاعة الله لأن النية روح العبادات وذاتها.

وإذا أطعت الله بزهدك في الدنيا أو طلبك دار الآخرة كنت من خواص الله عزَّ وجلَّ وأهل طاعته ومحبته، وحصلت لك الآخرة وهي الجنة وجوار الله عزَّ وجلَّ وخدمتك الدنيا فيأتيك قسمك الذي قدر لك منها، إذ الكل تبع لخالقها ومولاها وهو الله عزَّ وجلَّ، وإن اشتغلت بالدنيا وأعرضت عن الآخرة غضب الرب عليك ففاتتك الآخرة وتعاصت الدنيا عليك وتعسرت وأتعبتك في إيصال قسمك إليك لغضب الله عزَّ وجلَّ عليك لأنها مملوكته، تهين من عصاه وتكرم من أطاعه، فيتحقق حينئذٍ قوله ﷺ: «الدنيا والآخرة ضرتان، إن أرضيت إحداهما أسخطت عليك الأخرى»[2]. قال تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: الآية

---

(١) رواه القضاعي في مسند الشهاب (٢/ ١٦٤).

(٢) لم أقف عليه.

١٥٢] يعني به أبناء الآخرة، فانظر من أبناء أيهما أنت؟ ومن أي القبيلتين تحب أن تكون وأنت في الدنيا؟ ثم إذا صرت إلى الآخرة فالخلق فريقان فريق في طلب الدنيا وفريق في طلب الآخرة، وهم أيضًا يوم القيامة فريقان (فريق في الجنة وفريق في السعير) فريق في الموقف قيام في طول الحساب في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون كما قال تعالى، وفريق في ظل العرش كما أخبر النبي ﷺ: «إنكم تكونون يوم القيامة في ظل العرش عاكفون على الموائد، عليها أطايب الطعام والفواكه والشهد أبيض من الثلج»[1]. كما جاء في الحديث: «وينظرون منازلهم في الجنة حتى إذا فرغ من حساب الخلق دخلوا الجنة»[2]، يهتدون إلى منازلهم كما يهتدي أحد الناس في الدنيا إلى منزله، فهل وصلوا إلى هذه إلا بتركهم الدنيا واشتغالهم بطلب الآخرة والمولى. وهل وقع أولئك الحساب وأنواع الشدائد والذل إلا لاشتغالهم بالدنيا ورغبتهم فيها وزهدهم في الآخرة وقلة المبالاة بأمرها ونسيان يوم القيامة وما سيصيرون إليه غدًا مما ذكر في الكتاب والسنة.

فانظر لنفسك نظر رحمة وشفقة، واختر لها خير القبيلتين وأفردها عن أقوال السوء من شياطين الإنس والجن، واجعل الكتاب والسنة أمامك وانظر فيهما واعمل بهما، ولا تغتر بالقال والقيل والهوس. قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [الحشر: الآية ٧] ولا تخالفوه فتتركوا العمل بما جاء به وتخترعوا لأنفسكم عملًا وعبادة كما قال عزَّ وجلَّ في حق قوم ضلوا سواء السبيل ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد: الآية ٢٧] الآية، ثم إنه زكي هو عزَّ وجلَّ نبيه ﷺ ونزهه عن الباطل والزور فقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: الآيتان ٣، ٤] أي ما آتاكم به فهو من عندي لا من هواه ونفسه فاتبعوه. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٣١] فبيّن أن طريق المحبة اتباعه قولًا وفعلًا، فالنبي عليه الصلاة والسلام قال: «الاكتساب سُنّتي، والتوكل حالتي»[3] أو كما قال، فأنت بين سنته وحالته وإن ضعف إيمانك فالتكسب الذي هو سنته وإن قوي إيمانك فحالته التي

---

(١) روى نحوه الطبراني في الكبير (١١/ ١٢٥).

(٢) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٢٣). ورواه الطبراني في الأوسط (٣/ ٢٤٩) بنحوه، وقال الهيثمي: وهو ضعيف.

(٣) لم أقف عليه.

هي التوكل قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: الآية ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: الآية ٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: الآية ١٥٩]، فقد أمرك بالتوكل ونبهك عليه كما أمر نبيه ﷺ في قوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: الآية ٨١] فاتبع أوامر الله عزَّ وجلَّ في سؤاله في أعمالك فهي مردودة عليك، قال النبي ﷺ: «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد»[1]، هذا يعلم طلب الرزق والأعمال والأقوال، ليس لنا نبي غيره فنتبعه ولا كتاب غير القرآن فنعمل به، فيضلك هواك والشيطان. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: الآية ٢٦] فالسلامة مع الكتاب والسنة، والهلاك مع غيرهما، وبهما يترقى العبد إلى حالة الولاية والبدلية والغوثية، والله أعلم.

المقالة السابعة والثلاثون

في ذم الحسد والأمر بتركه

قال رضي الله عنه وأرضاه: ما لي أراك يا مؤمن حاسدًا لجارك في مطعمه ومشربه وملبسه ومنكحه ومسكنه وتقلبه في غناه ونِعَم مولاه عزَّ وجلَّ وقسمه الذي قسم له؟ أما تعلم أن هذا مما يضعف إيمانك ويسقطك من عين مولاك عزَّ وجلَّ ويبغضك إليه؟ أما سمعت الحديث المروي على النبي ﷺ أنه قال: «قال الله تعالى في بعض ما تكلم به: الحسود عدو نعمتي»[2]. وما سمعت قول النبي ﷺ: «إن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»[3] ثم على أي شيء تحسده يا مسكين؟ أعلى قسمه أم على قسمك؟ فإن حسدته على قسمه الذي قسمه الله في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الزخرف: الآية ٣٢] فقد ظلمته، رجل يتقلب في نعمة مولاه التي تفضل بها عليه وقدرها له ولم يجعل لأحد فيها حظًا ولا نصيبًا، فمن يكون أظلم وأبخل وأرعن وأنقص عقلًا منك؟ وإن حسدته على قسمك فقد جهلت غاية الجهل، فإن قسمك لا يعطي غيرك ولا يتنقل منك إليه، حاش لله. قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ [ق: الآية ٢٩] إن الله

---

(١) رواه البخاري (٢/ ٧٥٣، ٩٥٩)، ومسلم (٣/ ١٣٤٣).

(٢) لم أقف عليه.

(٣) رواه أبو داود (٤/ ٢٧٦)، وابن ماجه (٢/ ١٤٠٨). وابن أبي شيبة في المصنف (٥/ ٣٣٠)، وأبو يعلى في مسنده (٦/ ٣٣٠)، وعبد بن حميد (١/ ٤١٨).

عزَّ وجلَّ لا يظلمك فيأخذ ما قسم وقدر لك فيعطي غيرك، فهذا جهل منك وظلم لأخيك، ثم حسدك للأرض التي هي معدن الكنوز والذخائر من أنواع الذهب والفضة والجواهر مما جمعته الملوك المتقدمة من عاد وثمود وكسر وقيصر أولى من حسدك لجارك المؤمن أو الفاجر، فإن ما في بيته لا يكون جزءًا من أجزاء ألف ألف جزء مما هناك، فما حسدك لجارك إلا كمثل رجل رأى ملكًا مع سلطانه وجنوده وحشمه وملكه وعلى أراضي واجباته خراجها وارتفاعها لديه وتنعمه بأنواع النعم واللذات والشهوات فلم يحسده على ذلك ثم رأى كلبًا بريًا يخدم كلبًا من كلاب ذلك الملك يقوم ويقعد ويصيح فيعطي من مطبخ الملك بقايا الطعام ورداءته فيتقوت به فأخذ يحسده ويعاديه ويتمنى موته وهلاكه وكونه مكانه وأن يخلفه في ذلك خسة ودناءة لا زهدًا ودينًا وقناعة، فهل يكون في الزمان رجل أحمق منه وأرعن وأجهل؟.

ثم لو علمت يا مسكين ما سيلقى جارك غدًا من طول الحساب يوم القيامة إن لم يكن أطاع الله فيما خوّله وأدّى حقه فيها، وامتثال أمره وانتهاء نهيه فيها، واستعان بها على عبادته وطاعته ما يتمنى أنه لم يعط من ذلك ذرة ولا رأى نعيمًا يومًا قط، أما سمعت ما قد ورد في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «ليتمنينّ أقوام يوم القيامة أن تقرض لحومهم بالمقاريض مما يرون لأصحاب البلاء من الثواب». فيتمنى جارك غدًا مكانك في الدنيا لما يرى من طول حسابه ومناقشته وقيامه خمسين ألف سنة في حر الشمس في القيامة، لأجل ما يمتنع به من النعيم في الدنيا وأنت في معزل عن ذلك في ظل العرش آكلًا شاربًا متنعمًا فرحًا مسرورًا مستريحًا، لصبرك على شدائد الدنيا وضيقها وآفاتها وبؤسها وفقرها، ورضاك وموافقتك لربك عزَّ وجلَّ فيما دبر وقضى من فقرك وغناء غيرك، وسقمك وعافية غيرك، وشدتك ورخاء غيرك، وذلك وعز غيرك، جعلنا الله وإياك ممن صبر عند البلاء، وشكر على النعماء، وفوّض الأمور إلى ربّ السماء.

المقالة الثامنة والثلاثون

في الصدق والنصيحة

قال رضي الله عنه وأرضاه: من عامل مولاه بالصدق والنصاح؛ استوحش مما سواه في المساء والصبح.

يا قوم لا تدعوا ما ليس لكم، ووحدوا، ولا تشركوا، والله إن سهام القدر تصيبكم خدشًا لا قتالًا، من كان في الله تلفه فعلى الله خلفه.

المقالة التاسعة والثلاثون

في تفسير الشقاق والوفاق والنفاق

قال رضي الله عنه وأرضاه: الأخذ مع وجود الهوى من غير الأمر عناد وشقاق، والأخذ مع عدم الهوى وفاق وإنفاق وتركه رياء ونفاق.

المقالة الأربعون

متى يصحّ السالك أن يكون في زمرة الروحانيين

قال رضي الله عنه وأرضاه: لا تطمع أن تدخل في زمرة الروحانيين حتى تعادي جملتك، وتباين جميع الجوارح والأعضاء، وتنفرد عن وجودك وحركاتك وسكناتك وسمعك وبصرك وكلامك وبطشك وسعيك وعملك وعقلك، وجميع ما كان منك قبل وجود الروح فيك وما أوجد فيك بعد نفخ الروح، لأن جميع ذلك حجابك عن ربك عزّ وجلّ، فإذا صرت روحًا منفردة، سر السر، غيب الغيب، مباينًا للأشياء في سرك، متخذًا للكل عدوًّا وحجابًا وظلمة.

كما قال إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٧﴾ (٠١٧)
[الشُّعَرَاء: الآية ٧٧] قال ذلك للأصنام، فاجعل أنت جملتك وأجزاءك أصنامًا مع سائر الخلق، فلا تطع شيئًا من ذلك ولا تتبعه جملة، فحينئذٍ تؤمن على الأسرار والعلوم اللدنية وغرائبها، ويرد إليك التكوين وخرق العادات التي هي من قبيل القدرة التي تكون للمؤمنين في الجنة، فتكون في هذه الحالة كأنك أحييت بعد الموت في الآخرة، فتكون كليتك قدرة، تسمع بالله، وتنطق بالله، وتبصر بالله، وتبطش بالله، وتسعى بالله، وتعقل بالله، وتطمئن وتسكن بالله، فتعمى عن سواه وتصم عنه، فلا ترى لغيره وجودًا مع حفظ الحدود والأوامر والنواهي، فإن انخرم فيك شيء من الحدود فاعلم أنك مفتون متلاعبة بك الشياطين، وارجع إلى حكم الشرع ودع عنك رأي الهوى، لأن كل حقيقة لم تشهد لها الشريعة فهي زندقة والله أعلم.

المقالة الحادية والأربعون

مثل في الفناء وكيفيته

قال رضي الله عنه وأرضاه: نضرب لك مثلًا في الفناء فنقول: ألا ترى أن الملك يولي رجلًا من العوام ولاية على بلدة من البلاد، ويخلع عليه ويعقد له ألوية ورايات، ويعطيه الكؤوس والطبل والجند فيكون على برهة من الزمان، حتى إذا اطمأن واعتقد بقاءه وثباته، وعجب به ونسي حالته الأولى ونقصانه وذله وفقره وخموله، وداخلته النخوة والكبرياء جاءه العزل من الملك في أشر ما كان من أمره، ثم طالبه الملك بجرائم صنعها وتعدي أمره ونهيه فيها، فحبسه في أضيق الحبوس وأشدها، وطال حبسه ودام ضره وذله وفقره، وذابت نخوته وكبرياؤه، وانكسرت نفسه وخمدت نار هواه، وكل ذلك في عين الملك ثم تعطف الملك عليه فنظره بعين الرأفة والرحمة، فأمر بإخراجه من الحبس والإحسان إليه، والخلعة عليه ورد الولاية إليه ومثلها معها وجعلها له موهبة، فدامت له وبقيت مصفاة مكفاة مهنأة وكذلك المؤمن إذا قربه الله إليه واجتباه فتح قبالة عين قلبه باب الرحمة والمنة والإنعام، فيرى بقلبه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، من مطالعة الغيوب من ملكوت السمٰوات والأرض، وتقريب وكلام لذيذ لطيف ووعد جميل، ووفاء به، وإجابة دعاء وكلمات حكمة وتصديق وعد، فإنها ترمى إلى قلبه قذفًا من مكان بعيد فتظهر على لسانه، ومع ذلك يسبغ عليه نعمه ظاهرة على جسده وجوارحه، في المأكول والمشروب والملبوس والمنكوح الحلال والمباح وحفظ الحدود والعبادات الظاهرة؛ فيديم الله عزَّ وجلَّ ذلك لعبده المؤمن المجذوب برهة من الزمان، حتى اطمأن العبد إلى ذلك واغتر به واعتقد دوامه فتح عليه أبواب البلايا وأنواع المحن في النفس والمال والأهل والولد والقلب، فينقطع عنه جميع ما كان أنعم الله عليه من قبل، فيبقى متحيرًا حسيرًا منكسرًا مقطوعًا به.

إن نظر إلى ظاهره رأى ما يسوؤه، وإن نظر إلى قلبه وباطنه رأى ما يحزنه، وإن سأل الله تعالى كشف ما به من الضر لم ير إجابته، وإن طلب وعدًا جميلًا لم يجده سريعًا وإن وعد بشيء لم يعثر على الوفاء به، وإن رأى رؤيا لم يظفر بتعبيرها وتصديقها، وإن رام الرجوع إلى الخلق لم يجد إلى ذلك سبيلًا، وإن ظهرت له في ذلك رخصة فعمل بها تسارعت العقوبات نحوه وتسلطت أيدي الخلق على جسمه

وألسنتهم على عرضه، وإن طلب الإقالة مما قد أدخل فيه من الحالة الأولى قبل الاجتباء لم يقل، وإن طلب الرضا أو الطيبة والتنعم بما به من البلاء لم يعط فحينئذٍ تأخذ النفس في الذوبان والهوى في الزوال والإرادة والأماني في الرحيل والأكوان في التلاشي، فيدام له ذلك بل يزداد تشديدًا وعصرًا وتأكيدًا، حتى إذا فني العبد من الأخلاق الإنسانية والصفات البشرية وبقي روحًا فقط يسمع نداء في باطنه ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾ [صَ: الآية ٤٢] كما قيل لسيدنا أيوب عليه السلام، فيمطر الله عزَّ وجلَّ في قلبه بحار رحمته ورأفته ولطفه ومنته، ويحييه بروحه ويطيبه بمعرفته ودقائق علومه، ويفتح عليه أبواب رحمته ونعمته ودلاله، وأطلق إليه الأيدي بالبذل والعطاء والخدمة في سائر الأحوال والألسن بالحمد والثناء، والذكر الطيب في جميع المحال، والأرجل بالترحال، وذلل له وسخر له الملوك والأرباب، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، تربيته ظاهرة بخلقه ونعمه، ويستأثره تربيته باطنة بلطفه وكرمه، وأدام له ذلك إلى اللقاء، ثم يدخله فيما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، كما قال جلّ وعلا: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: الآية ١٧].

المقالة الثانية والأربعون

في بيان حالتي النفس

قال رضي الله عنه وأرضاه: النفس لها حالتان لا ثالث لهما حالة عافية، وحالة بلاء، فإذا كانت في بلاء فالجزع والشكوى والسخط والاعتراض والتهمة للحق جل وعلا لا صبر ولا رضى ولا موافقة، بل سوء الأدب والشرك بالحق والأسباب والكفر، وإذا كانت في عافية فالشره والبطر واتباع الشهوات واللذات، كلما نالت شهوة طلبت أخرى، واستحقرت ما عندها من النعم من مأكول ومشروب وملبوس ومنكوح ومسكون ومركوب، فتخرج لكل واحدة من هذه النعم عيوبًا ونقصًا، وتطلب أعلى منها وأسنى مما لم يقسم لها، وتعرض عما قسم لها، فتوقع الإنسان في تعب طويل، ولا ترضى بما في يديها وما قسم لها، فيرتكب الغمرات ويخوض المهالك في تعب طويل لا غاية له ولا منتهى في الدنيا، ثم في العقبى، كما قيل: إن من أشد العقوبات طلب ما لا يقسم. وإذا كانت في بلاء لا تتمنى سوى انكشافها وتنسى كل نعيم وشهوة ولذة ولا تطلب شيئًا منها، فإذا عوفيت منها

رجعت إلى رعونتها وشرها وبطرها وإعراضها عن طاعة ربها وأنهما كهافي معاصيه، وتنسى ما كانت فيه من أنواع البلاء والضر وما حل بها من الويل، فترد إلى أشد ما كانت عليه من أنواع البلاء والضر، لما اجترحت وركبت من العظائم فطما لها وكفا عن المعاصي في المستقبل، إذ لا تصلح لها العافية والنعمة بل حفظها في البلاء والبؤس، فلو أحسنت الأدب عند انكشاف البلية ولازمت الطاعة والشكر والرضى بالمقسوم لكان خيرًا لها دنيا وأخرى، وكانت تجد زيادة في النعيم والعافية والرضى من الله عزَّ وجلَّ والطيبة والتوفيق، فمن أراد السلامة في الدنيا والأخرى فعليه بالصبر والرضا، وترك الشكوى إلى الخلق وإنزال حوائجه بربه عزَّ وجلَّ ولزوم طاعته وانتظار الفرج منه والانقطاع إليه عزَّ وجلَّ، إذ هو خير من غيره ومن جميع خلقه، حرمانه عطاء، عقوبته نعماء، بلاؤه دواء، وعده نقد، قوله فعل مشيئة حاله، إنما قوله وأمره ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: الآية ٨٢] كل أفعاله حسنة وحكمة ومصلحة، غير أنه طوي علم المصالح من عباده يتفرد به؛ فالأولى واللائق بحاله والرضى والتسليم، واشتغاله بالعبودية من أداء الأوامر وانتهاء النواهي والتسليم في القدر، وترك الاشتغال في الربوبية التي هي علة الأقدار ومحاربتها، والسكوت عن لم وكيف ومتى؟ والتهمة للحق عزَّ وجلَّ في جميع حركاته وسكناته، وتستند هذه الجملة إلى حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وهو ما رُوِيَ عن عطاء بن عباس رضي الله عنهما قال: «بينما أنا رديف رسول الله ﷺ إذ قال لي يا غلام: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، فإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، جف القلم بما هو كائن، فلو جهد العباد أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه، ولو جهد العباد أن يضروك بشيء لم يقضه الله عليك لم يقدروا عليه فإن استطعت أن تعامل الناس بالصدق واليقين فاعمل، وإن لم تستطع فإن الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا. واعلم أن النصرة بالصبر والفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا»[(١)] فينبغي لكل مؤمن أن يجعل هذا الحديث مرآة لقلبه وشعاره ودثاره وحديثه، فيعمل به في جميع حركاته وسكناته حتى يسلم في الدنيا والآخرة ويجد العزة فيهما، برحمة الله عزَّ وجلَّ.

---

(١) رواه الترمذي (٤/ ٦٦٧)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٦٢٣)، والضياء في المختارة (١٠/ ٢٤)، وأحمد في المسند (١/ ٢٩٣).

المقالة الثالثة والأربعون

في ذم السؤال من غير الله تعالى

قال قَدَّس الله سرّه: ما سأل الناس من سأل إلا لجهله بالله عزَّ وجلَّ وضعف إيمانه ومعرفته ويقينه وقلة صبره، وما تعفف من تعفف عن ذلك إلا لوفور علمه بالله عزَّ وجلَّ وقوة إيمانه ويقينه وتزايد معرفته بربه عزَّ وجلَّ في كل يوم ولحظة وحياته منه عزَّ وجلَّ.

المقالة الرابعة والأربعون

في سبب عدم استجابة دعاء العارف بالله تعالى

قال قَدَّس الله سرّه: إنما لم يستجب للعارف كلما يسأل ربه عزَّ وجلَّ ويوفي له بكل وعد لئلا يغلب عليه الرجاء فيهلك، لأن ما من حالة ومقامٍ إلا ولذلك خوف ورجاءهما كجناحي طائر لا يتم الإيمان إلا بهما وكذلك الحال والمقام، غير أن خوف كل حالة ورجاءها بما يليق بها، فالعارف مقرب وحالته ومقامه أن لا يريد شيئًا سوى مولاه عزَّ وجلَّ ولا يركن ولا يطمئن إلى غيره عزَّ وجلَّ، ولا يستأنس بغيره، فطلبه لإجابة سؤاله والوفاء بعهده غير ما هو بصدده ولائق بحاله ففي ذلك أمران اثنان: أحدهما لئلا يغلب عليه الرجاء والغرة بمكر ربه عزَّ وجلَّ فيغفل عن القيام بالأدب فيهلك، والآخر شركه بربه عزَّ وجلَّ بشيء سواه، إذ لا معصوم في العالم في الظاهر بعد الأنبياء عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، فلا يجيبه ولا يوفي له كيلًا، يسأل عادة ويريده طبعًا لا امتثالًا للأمر، لما في ذلك من الشرك والشرك كبيرة في الأحوال كلها والأقدام جميعها والمقامات بأسرها.

وأما إذا كان السؤال بأمر فذلك مما يزيده قربًا كالصلاة والصيام وغيرهما من الفرائض والنوافل، لأنه يكون في ذلك ممتثلًا للأمر.

المقالة الخامسة والأربعون

في النعمة والابتلاء

قال رضي الله عنه وأرضاه: إن الناس رجلان: منعم عليه، ومبتلي بما قضى ربه عزَّ وجلَّ، فالمنعم لا يخلو من المعصية والتكدر فيما أنعم عليه، فهو في أنعم ما يكون من ذلك إذ جاء القدر بما يكدره عليه من أنواع البلايا من الأمراض والأوجاع

والمصائب في النفس والمال والأهل والأولاد فيتعظ بذلك، فكأنه لم ينعم عليه قط وينسى ذلك النعيم وحلاوته وإن كان الغني قائمًا بالمال والجاه والعبيد والإماء والأمن من الأعداء فهو في حال النعماء كأن لا بلاء في الوجود، كل ذلك لجهله بمولاه عزَّ وجلَّ ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هُود: الآية ١٠٧] يبدل، ويحلي ويمر؛ ويغني ويفقر، ويرفع ويخفض، ويعز ويذل، ويحيي ويميت، ويقدم ويؤخر. لما اطمأن إلى ما به من النعيم، ولما اغتر به. ولما أيس من الفرج في حالة البلاء، وبجهله أيضًا بالدنيا اطمأن إليها وطلب بها صفاء لا يشوبه كدر، ونسي أنها دار بلاء وتنغيص، وتكاليف وتكدير وأن أصلها بلاء وطارفها نعماء فهي كشجرة الصبر أول ثمرتها مر وآخرها شهد حلو، لا يصل المرء إلى حلاوتها حتى يتجرع مرارتها، فلن يبلغ إلى الشهد إلا بالصبر على المر، فمن صبر على بلائها حلي له نعيمها، إنما يعطي الأجير أجره بعد عروق جبينه وتعب جسده وكرب روحه وضيق صدره وذهاب قوته وإذلال نفسه وكسر هواه في خدمة مخلوق مثله، فلما تجرع هذه المرائر كلها أعقبت له طيب طعام وإدام وفاكهة ولباس وراحة وسرور ولو أقل قليل، فالدنيا أولها مرة كالصحفة العليا من عسل في ظرف مشوبة بمرارة، فلا يصل الآكل إلى قرار الظرف ويتناول الخالص منه إلا بعد تناول الصحفة العليا، فإذا صبر العبد على أداء أوامر الرب عزَّ وجلَّ وانتهاء نواهيه، والتسليم والتفويض فيما يجري به القدر، وتجرع مرائر ذلك كله وتحمل أثقاله، وخالف هواه وترك مراده. أعقبه الله عزَّ وجلَّ بذلك طيب العيش في آخر عمره والدلال والراحة والعزة، ويتولاه ويغذيه كما يغذى الطفل الرضيع من غير تكلف منه وتحمل مؤنة وتبعة في الدنيا والأخرى كما يتلذذ آكل المر من الصحفة العليا من الغسل يأكله من قرار الظرف، فينبغي للعبد المنعم عليه أن لا يأمن مكر الله عزَّ وجلَّ، فيغتر بالنعمة ويقطع بدوامها، ويغفل عن شكرها ويرخي قيدها بتركه لشكرها. قال النبي ﷺ: «النعمة وحشية فقيدوها بالشكر»[1] فشكر نعمة المال الاعتراف بها للمنعم المتفضل وهو الله عزَّ وجلَّ والتحدث بها لنفسه في سائر الأحوال ورؤية فضله ومنته عزَّ وجلَّ وأن لا يتملك عليه ولا يتجاوز حده فيه، ولا يترك أمره فيه، ثم بأداء حقوقه من الزكاة والكفارة والنذر والصدقة وإغاثة الملهوف، وافتقاد أرباب الحاجات وأهلها في الشدائد عند تقلب الأحوال وتبدل الحسنات بالسيئات، أعني ساعات النعيم

(١) لم أقف عليه.

والرخاء بالبأساء والضراء. وشكر نعمة العافية في الجوارح والأعضاء في الاستعانة بها على الطاعات والكف عن المحارم والسيئات والمعاصي والآثام. فذلك قيد النعم عن الرحلة والذهاب، وسقي شجرتها وتنمية أغصانها وأوراقها، وتحسين ثمرتها. حلاوة طعمها، وسلامة عاقبتها، ولذة مضغها، وسهولة بلعها، وتعقب عافيتها وريعها في الجسد، ثم ظهور بركتها على الجوارح من أنواع الطاعات والقربات والأذكار، ثم دخول العبد بعد ذلك في الآخرة في رحمة الله عزَّ وجلَّ. والخلود في الجنان مع النبيين ـ والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا ـ فإن لم يفعل ذلك واغتر بما ظهر من زينة الدنيا وبما ذاق من لذتها، واطمأن إلى بريق سرابها وما لاح من بريقها وما هب من نسيم أول نهار قيظها، ونعومة جلود حياتها وعقاربها، وغفل وعمي عن سمومها القاتلة المودعة في أعماقها، ومكامنها ومصايدها المنصوبة لأخذه وحبسه وهلاكه، فليهنأ للردى وليستبش بالعطب والفقر العاجل، مع الذل والهوان في الدنيا والعذاب الآجل في النار ولظى.

وأما المبتلي. فتارة يبتلى عقوبة ومقابلة لجريمة ارتكبها ومعصية اقترفها وأخرى يبتلى تكفيرًا وتمحيصًا، وأخرى يبتلى لارتفاع الدرجات وتبليغ المنازل العاليات ليلحق بأولي العلم من أهل الحالات والمقامات، مما سبقت لهم عناية من رب الخليقة والبريات، وسيرهم مولاهم ميادين البليات على مطايا الرفق والألطاف، وروحهم بنسيم النظرات واللحظات في الحركات والسكنات، إذ لم يكن ابتلاهم للإهلاك والإهواء في الدركات، ولكن اختبرهم بها للاصطفاء والاجتباء واستخراج بها منهم حقيقة الإيمان وصفاها وميزها من الشرك والدعاوى والنفاق، ونحلهم بها أنواع العلوم والأسرار والأنوار، فجعلهم من الخلص الخواص، ائتمنهم على أسراره، وارتضاهم لمجالسته، قال النبي ﷺ: «الفقراء الصبراء جلساء الرحمٰن يوم القيامة»[١] دنيا وأخرى في الدنيا بقلوبهم وفي الآخرة بأجسادهم، فكانت البلايا مطهرة لقلوبهم من دون الشرك، والتعلق بالخلق والأسباب والأماني والإرادات، وذوابة لها وسباكة من الدعاوى والهوسات، وطلب الأعواض بالطاعات من الدرجات والمنازل العاليات في الآخرة في الفردوس والجنات.

---

(١) لم أقف عليه.

فعلامة الابتلاء على وجه المقابلة والعقوبات، عدم الصبر عند وجودها والجزع والشكوى إلى الخليقة والبريات.

وعلامة الابتلاء تكفيرًا وتمحيصًا للخطيات وجود الصبر الجميل من غير شكوى وإظهار الجزع إلى الأصدقاء والجيران والتضجر بأداء الأوامر والطاعات.

وعلامة الابتلاء ارتفاع وجود الرضا والموافق، وطمأنينة النفس والسكون بفعل إلـٰه الأرض والسمٰوات، والفناء فيها إلى حين الانكشاف بمرور الأيام والساعات.

المقالة السادسة والأربعون

في قوله ﷺ عن الحديث القدسي «من شغله ذكري...»[(١)] إلى آخره

قال رضي الله عنه وأرضاه: في قول النبي ﷺ عن ربي عزَّ وجلَّ: «من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين» وذلك أن المؤمن إذا أراد الله عزَّ وجلَّ اصطفاءه واجتباءه، سلك به الأحوال وامتحنه بأنواع المحن والبلايا فيفقره بعد الغنى ويضطره إلى مسألة الخلق في الرزق عند سد جهاته عليه، ثم يصونه عن مسألتهم ويضطره إلى الكسب ويسهله عليه وييسره له فيأكل بالكسب الذي هو السنة، ثم يعسره عليه ويلهمه السؤال للخلق، ويأمره به بأمر باطن يعلمه ويعرفه ويجعل عبادته فيه ومعصيته في تركه، ليزول بذلك هواه وتنكسي نفسه وهي حالة الرياضة فيكون سؤاله على وجه الإجبار لا على وجه الشرك بالجبار، ثم يصونه عن ذلك ويأمره بالفرض منهم أمرًا جزمًا لا يمكنه تركه كالسؤال من قبل ثم ينقله من ذلك ويقطعه عن الخلق ومعاملتهم، فيجعل رزقه في السؤال له عزَّ وجلَّ فيسأله جميع ما يحتاج إليه فيعطيه عزَّ وجلَّ ولا يقطعه إن سكت وأعرض عن السؤال، ثم ينقله من السؤال باللسان إلى السؤال بالقلب فيسأله بقلبه جميع ما يحتاج فيعطيه حتى أنه لو سأله بلسانه لم يعطه أو سأل الخلق لم يعطوه، يغنيه عنه وعن السؤال جملة ظاهرًا وباطنًا. فيناديه بجميع ما يصلحه ويقوم به أوده من المأكول والمشروب والملبوس وجميع مصالح البشر من غير أن يكون هو فيها أو تخطر بباله. فيتولاه عزَّ وجلَّ وهو

---

(١) رواه الترمذي (٥/ ١٨٤)، والدارمي (٢/ ٢٣٨)، والقضاعي في الشهاب (١/ ٣٤٠)، (٢/ ٣٢٦).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦﴾ [الأعراف: الآية ١٩٦] فيتحقق حينئذٍ قوله عزَّ وجلَّ: «من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أُعطي السائلين» وهي حالة الفناء التي هي غاية أحوال الأولياء والأبدال ثم قد يرد إلى التكوين فيكون جميع ما يحتاج إليه بإذن الله وهو قوله جل وعلا في بعض كتب: «يا ابن آدم أنا الله الذي لا إله إلا أنا أقول للشيء كن فيكون، أطعني أجعلك تقول للشيء كن فيكون».

المقالة السابعة والأربعون

في التقرب إلى الله تعالى

قال رضي الله عنه وأرضاه: سألني رجل شيخ في المنام فقال: أي شيء يقرب العبد إلى الله عزَّ وجلَّ؟ فقلت: لذلك ابتداء وانتهاء، فابتداؤه الورع وانتهاؤه الرضى والتسليم والتوكّل.

المقالة الثامنة والأربعون

فيما ينبغي للمؤمن أن يشتغل به

قال رضي الله عنه وأرضاه: ينبغي للمؤمن أن يشتغل أولًا بالفرائض، فإذا فرغ منها اشتغل بالسنن، ثم يشتغل بالنوافل والفضائل، فما لم يفرغ من الفرائض فالاشتغال بالسنن حمق ورعونة، فإن اشتغل بالسنن والنوافل قبل الفرائض لم يقبل منه وأهين، فمثله مثل رجل يدعوه الملك إلى خدمته فلا يأتي إليه ويقف في خدمة الأمير الذي هو غلام الملك وخادمه وتحت يده وولايته.

عن أمير المؤمنين سيّدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مثل مصلي النوافل قبل الفرائض كمثل حبلى حملت فلما دنا نفاسها أسقطت فلا هي ذات حمل ولا هي ذات ولادة»[1]. كذلك المصلي لا يقبل الله له نافلة حتى يؤدي الفريضة. ومثل المصلي كمثل التاجر لا يخلص له ربحه حتى يأخذ رأس ماله، وكذلك المصلي بالنوافل لا تقبل له نافلة حتى يؤدي الفريضة، وكذلك من ترك السنة واشتغل بنافلة لم ترتب مع الفرائض ولم ينص عليها ويؤكد أمرها فمن الفرائض ترك الحرام والشرك بالله عزَّ وجلَّ في خلقه، الاعتراض عليه في

---

(١) رواه البيهقي في الكبرى (٢/ ٣٨٧).

قدره وقضائه وإجابة الخلق وطاعتهم، والإعراض عن أمر الله عزَّ وجلَّ وطاعته. قال النبي ﷺ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»[(١)].

المقالة التاسعة والأربعون

في ذمّ النوم

قال رضي الله عنه وأرضاه: من اختار النوم على الذي هو سبب اليقظة فقد اختار الأنقص والأدنى واللحوق بالموت والغفلة عن جميع المصالح، لأن النوم أخو الموت ولهذا لا يجوز النوم على الله لما انتفى عزَّ وجلَّ عن النقائص أجمع، وكذلك الملائكة لما قربوا منه عزَّ وجلَّ نفى النوم عنهم، وكذلك أهل الجنة لما كانوا في أرفع المواضع وأطهرها وأنفسها وأكرمها نفى النوم عنهم لكونه نقصًا في حالتهم، فالخير كل الخير في اليقظة، والشر كل الشر في النوم والغفلة، فمن أكل بهواه أكل كثيرًا فشرب كثيرًا فنام كثيرًا فندم كثيرًا طويلًا وفاته خير كثير، ومن أكل قليلًا من الحرام كان كمن أكل كثيرًا من المباح بهواه، لأن الحرام يغطي الإيمان ويظلمه كالخمر يظلم العقل ويغطيه، فإذا أظلم الإيمان فلا صلاة ولا عبادة ولا إخلاص، ومن أكل من الحلال كثيرًا بالأمر كان كمن أكل منه قليلًا في النشاط في العبادة والقوة، فالحلال نور في نور، والحرام ظلمة في ظلمة، لا خير فيه. أكل الحلال بهواه بغير الأمر، وأكل الحرام مستجلبان للنوم، فلا خير فيه.

المقالة الخمسون

في علامة دفع العبد عن الله تعالى، وبيان كيفية التقرب منه تعالى

قال رضي الله عنه وأرضاه: لا يخلو أمرك من قسمين:

إما أن تكون غائبًا عن القرب من الله أو قريبًا منه وأصلًا إليه، فإن كنت غائبًا عنه فما قعودك وتوانيك عن الحظ الأوفر والنعيم والعز الدائم والكفاية الكبرى والسلامة والغنى والدلال في الدنيا والأخرى؟ فقم وأسرع في الطيران إليه عزَّ وجلَّ بجناحين: أحدهما: ترك اللذات والشهوات الحرام منها والمباح والراحات أجمع. والآخر احتمال الأذى والمكاره وركوب العزيمة والأشد، والخروج من الخلق والهوى والإرادات والمنى دنيا وأخرى حتى تظفر بالوصول والقرب، فتجد عند ذلك جميع ما

---

(١) رواه الترمذي (٤/٢٠٩)، وأحمد في المسند (١/١٣١).

نتمنى، وتحصل لك الكرامة العظمى والعزة الكبرى فإن كنت من المقربين الواصلين إليه عزَّ وجلَّ ممن أدركتهم العناية وشملتهم الرعاية وجذبتهم المحبة ونالتهم الرحمة والرأفة، فأحسن الأدب ولا تغتر بما أنت فيه، فتقصر في الخدمة، ولا تخلد إلى الرعونة الأصلية من الظلم والجهل والعجل في قوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: الآية ٧٢]، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: الآية ١١]، واحفظ قلبك من الالتفات إلى ما تركته من الخلق والهوى والإرادة والتخير وترك الصبر والموافقة والرضا عند نزول البلاء، واستطرح بين يدي الله عزَّ وجلَّ كالكرة بين يدي الفارس يقلبها بصولجانه، والميت بين يدي الغاسل، والطفل الرضيع في حجر أمه وظئره، تعامى عمن سواه عزَّ وجلَّ فلا ترى لغيره وجودًا ولا ضرًا ولا نفعًا ولا عطاءً ولا منعًا، اجعل الخليقة والأسباب عند الأذية والبلية كسوطه عزَّ وجلَّ يضربك به، وعند النعمة والعطية كيده يلقمك بها.

المقالة الحادية والخمسون

في الزّهد

قال رضي الله عنه وأرضاه: الزاهد يثاب بسبب الأقسام مرتين يثاب في تركها أولًا، فلا يأخذها بهواه وموافقة النفس، بل يأخذها بمجرد الأمر، فإذا تحققت عداوته لنفسه ومخالفته لهواه عد من المحققين وأهل الولاية وأدخل في زمرة الأبدال والعارفين أمر حينئذٍ بتناولها والتلبس بها، إذ هي قسمة لا بد له منها لم تخلق لغيره، جف بها القلم وسبق بها العلم، فإذا امتثل الأمر فتناول أو اطلع بالعلم فتلبس بها بجريان القدر والفعل فيه من غير أن يكون هو فيه، لا هوى ولا إرادة ولا همة أثيب بذلك ثانيًا، هو ممتثل للأمر بذلك أو موافق لفعل الحق عزَّ وجلَّ فيه.

فإن قال قائل: كيف أطلقت القول بالثواب لمن هو في المقام الأخير الذي ذكرته من أنه أدخل في زمرة الأبدال والعارفين المفعول فيهم، الفانين عن الخلق والأنفس والأهوية والإرادات والحظوظ والأماني والأعواض على الأعمال الذين يرون جميع طاعاتهم وعباداتهم فضلًا من الله عزَّ وجلَّ ونعمة ورحمة وتوفيقًا وتيسيرًا منه عزَّ وجلَّ ويعتقدون أنهم عبيد الله عزَّ وجلَّ، والعبد لا يستحق على مولاه حقًّا، إذ هو برمته مع حركاته وسكناته وأكسابه ملك لمولاه، فكيف يقال في حقه يثاب وهو لا يطلب ثوابًا ولا عوضًا على فعله ولا يرى له عملًا، بل يرى نفسه من البطالين وأفلس المفلسين من الأعمال.

فنقول: صدقت، غير أن الله عزَّ وجلَّ يواصله بفضله ويدلله بنعمه ويربيه بلطفه ورأفته وبره ورحمته وكرمه، إذ كف يده عن مصالح نفسه وطلب الحظوظ لها وجلب النفع إليها ودفع الضر عنها، فهو كالطفل الرضيع الذي لا حراك له في مصالح نفسه وهو مدلل بفضل الله عزَّ وجلَّ ورزقه الدار على يدي والديه الوكيلين الكفيلين، فلما سلب عنه مصالح نفسه عطف قلوب الخلق عليه وأوجد رحمة وشفقة له في القلوب حتى كل واحد يرحمه ويتعطف عليه ويبره، فهكذا الكل فإن عن سوى الله الذي لا يحركه غير أمره أو فعله مواصل بفضل الله عزَّ وجلَّ دنيا وأخرى مدلل فيهما مدفوع عنه الأذى متولي، قال تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّـۧ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٩٦].

المقالة الثانية والخمسون

في سبب ابتلاء طائفة من المؤمنين

قال رضي الله عنه وأرضاه: إنما يبتلي الله طائفة من المؤمنين الأحباب من أهل الولاية ليردهم بالبلاء إلى السؤال فيحب سؤالهم، فإذا سألوا يجب إجابتهم فيعطي الكرم والجود حقهما لأنهما يطالبان لأنه عزَّ وجلَّ عند سؤال المؤمنين من الإجابة، وقد تحصل الإجابة ولا يحصل النقد والنقاد لتعويق القدر لا على وجه عدم الإجابة والحرمان، فليتأدب العبد عند نزول البلاء، وليفتش عن ذنوبه في ترك الأوامر وارتكاب المناهي ما ظهر منها وما بطن. والمنازعة في القدر إذا تعاقب عليه، إنما يبتلى بذلك مقابلة، فإن انكشف البلاء، وإلا، فليتخذ إلى الدعاء والتضرع والاعتذار فيديم بالسؤال لجواز أن يكون ابتلاه ليسأله، ولا يتهمه لتأخير الإجابة لما بيناه، والله أعلم.

المقالة الثالثة والخمسون

في الأمر بطلب الرضى من الله، والفناء به تعالى

قال رضي الله عنه وأرضاه: اطلبوا من الله عزَّ وجلَّ الرضا أو الفناء، لأنه هو الراحة الكبرى والجنة العالية المنفرة في الدنيا، وهو باب الله الأكبر وعلة محبة الله لعبده المؤمن، فمن أحبه الله لم يعذبه في الدنيا والآخرة فيه اللحوق بالله عز وجلّ والوصول إليه، ولا تشتغلوا بطلب الحظوظ وأقسام لم تقسم أو قسمت، فإن كانت لم تقسم فالاشتغال بطلبها حمق ورعونة وجهالة، وهو أشد العقوبات، كما قيل: من أشد

العقوبات طلب ما لا يقسم وإن كانت مقسومة فالاشتغال بها شره وحرص وشرك من باب العبودية والمحبة الحقيقية، لأن الاشتغال بغير الله عزَّ وجلَّ شرك، وطالب الحظ ليس بصادق في محبته وولايته فمن احتال مع الله غيره فهو كذاب وطالب العوض على عمله غير مخلص، وإنما المخلص من عبد الله ليعطي الربوبية حقها للمالكية والحقيقة، لأن الحق عزَّ وجلَّ يملكه ويستحق عليه العمل والطاعة له بحركاته وسكناته وسائر أكسابه، والعبد وما في يده ملك لمولاه كيف وقد بينا في غير موضع أن العبادات بأسرها نعمة من الله وفضل منه على عبده إذ وفقه لها وأقدره عليها، فالاشتغال بالشكر لربه خير وأولى من طلبه من الأعواض أو الجزاء عليها، ثم كيف تشتغل بطلب الحظوظ وقد ترى خلقًا كثيرًا كلما كثرت الحظوظ عندهم وتواترت وتتابعت اللذات والنعم والأقسام إليهم زاد سخطهم على ربهم وتضجرهم وكفرهم بالنعمة وكثرة همومهم وغمومهم وفقرهم إلى أقسام لم تقسم غير ما عندهم وحقرت وصغرت وقبحت أقسامهم عندهم وعظمت وكبرت وحسنت أقسام غيرهم وانحلت قواهم، وكبرت سنهم وشتتت أحوالهم وتعبت أجسادهم وعرقت جباههم وسودت صحائفهم بكثرة آثامهم وارتكاب عظائم الذنوب في طلبها وترك أوامر ربهم فلم ينالوها وخرجوا من الدنيا مفاليس لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، لا شكروا ربهم فيما قسم لهم من أقسامهم فاستعانوا بها على طاعته. وما نالوا ما طلبوا من أقسام غيرهم، بل ضيعوا دنياهم وآخرتهم، فهم أشر الخليقة وأجهلهم وأحمقهم وأخسهم عقولًا وبصيرة، فلو أنهم رضوا بالقضاء وقنعوا بالعطاء وأحسنوا طاعة المولى لأتتهم أقسامهم من الدنيا من غير تعب ولا عناء، ثم نقلوا إلى جوار العلي الأعلى فوجدوا عنده كل مراد ومنى، جعلنا الله وإياكم ممن رضي بالقضاء، وجعل سؤاله ذلك والفناء وحفظ الحال والتوفيق بما يحبه ويرضى.

المقالة الرابعة والخمسون

فيمن أراد الوصول إلى الله تعالى وبيان كيفية الوصول إليه تعالى

قال رضي الله عنه وأرضاه: من أراد الآخرة فعليه بالزهد في الدنيا، ومن أراد الله فعليه بالزهد في الآخرة، فيترك دنياه لآخرته وآخرته لربه، فما دام في قلبه شهوة من شهوات الدنيا ولذة من لذاتها وطلب راحة من راحتها من سائر الأشياء من مأكول أو مشروب وملبوس ومنكوح ومسكون ومركوب، وولاية، ورياسة وطبقة في علم من فنون العلم من الفقه فوق العبادات الخمس، ورواية الحديث وقراءة القرآن

بروايته، والنحو واللغة والفصاحة والبلاغة، وزوال الفقر ووجود الغنى وذهاب البلية ومجيء العافية، وفي الجملة انكشاف الضر ومجيء النفع فليس بزاهد حقًّا لأن كل واحد من هذه الأشياء فيه لذة النفس وموافقة الهوى وراحة الطبع وحب له، وكل ذلك من الدنيا ومما يحبب البقاء فيها ويحصل السكون والطمأنينة إليها، فينبغي أن يجاهد في إخراج جميع ذلك عن القلب، ويأخذ نفسه بإزالة ذلك وقلعه والرضا بالعدم والإفلاس والفقر الدائم، فلا يبقى من ذلك مقدار مص نواة ليخلص زهده في الدنيا، فإذا تم له ذلك زالت الغموم والأحزان من القلب والكرب عن الحشا، وجاءت الراحات والطيب والأنس بالله كما قال ﷺ: «الزهد في الدنيا يريح القلب والجسد»[١] فما دام في قلبه شيء من ذلك فالهموم والخوف والوجل قائم في القلب والخذلان لازم له، والحجاب عن الله عزَّ وجلَّ وعن قربه متكاثف متراكم فلا ينكشف جميع ذلك إلا بزوال حب الدنيا على الكمال وقطع العلائق بأثرها، ثم يزهد في الآخرة، فلا يطلب الدرجات والمنازل العاليات والحور والولدان والدور والقصور والبساتين والمراكب، والخيل والحلى والمآكل والمشارب وغير ذلك مما أعده الله تعالى لعباده المؤمنين، فلا يطلب على عمله جزاء أو أجرًا من الله عزَّ وجلَّ البتة لا دنيا ولا أخرى، فحينئذٍ يجد الله عزَّ وجلَّ فيؤتيه حسابه تفضلًا منه ورحمة، فيقربه منه ويدنيه ويلطف به ويتعرف إليه بأنواع ألطافه وبره كما هو دأبه عزَّ وجلَّ مع رسله وأنبيائه وأوليائه وخواصه وأحبابه أولى العلم به عزَّ وجلَّ فيكون العبد كل يوم في مزيد أمره مدة حياته. ثم ينتقل إلى دار الآخرة إلى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، مما تضيق عنه الأفهام وتعجز عن وصفه العبارات، والله أعلم.

المقالة الخامسة والخمسون

في ترك الحظوظ

قال رضي الله عنه وأرضاه: ترك الحظوظ ثلاث مرات: الأولى يكون العبد مارًا في عشواه متخبطًا فيه متصرفًا بطبعه في جميع أحواله من غير تعبد لربه ولازم في الشرع يرده ولا جده من جدود ينتهي إليه عن حكمه، فبينما هو على ذلك ينظر الله

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (٦/ ١٧٧)، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٨٦)، وقال: فيه أشعث بن نزار ولم أعرفه، وبقية رجاله وثقوا على ضعف في بعضهم.

إليه يعني يرحمه، فيبعث الله إليه واعظًا من خلقه من عباده الصالحين فينبهه، ويثنيه بواعظ من نفسه، فيتضافر الواعظان على نفسه وطبعه، فتعمل الموعظة عملها، فتبين عندها عيب ما هي فيه من ركوب مطية الطبع والمخافة فتميل إلى الشرع في جميع تصرفاتها فيصير العبد مسلمًا قائمًا مع الشرع فانيًا عن الطبع، فيترك حرام الدنيا وشبهاتها ومنن الخلق، فيأخذ مباح الحق عزَّ وجلَّ وحلال الشرع في مأكله ومشربه وملبسه ومنكحه ومسكنه وجميع ما لا بد منه، لتحتفظ البنية ويتقوى على طاعة الرب عزَّ وجلَّ، وليستوفي قسمه المقسوم له الذي لا يتجاوزه ولا سبيل إلى الخروج من الدنيا قبل تناوله والتلبس به واستيفائه فيسير على مطية المباح والحلال في الشرع في جميع أحواله تنتهي به هذه المطية إلى عتبة الولاية والدخول في زمرة المحققين والخواص أهل العزيمة مريدي الحق، فيأكل بالأمر، فحينئذٍ يسمع نداء من قبل الحق عزَّ وجلَّ من باطنه: اترك نفسك وتعال، اترك الحظوظ والخلق إن أردت الخالقَ، واخلع نعليك، ودنياك وآخرتك، وتجرد عن الأكوان والموجودات وما سيوجد والأماني بأسرها، وتعر عن الجميع وافن عن الكل وتطيب بالتوحيد واترك الشرك وصدق الإرادة. ثم وطء البساط بالأدب مطرقًا، لا تنظر يمينًا إلى الآخرة ولا شمالاً إلى الدنيا ولا إلى الخلق ولا إلى الحظوظ، فإذا دخل في هذا المقام، وتحققَ الوصول جاءت الخلعة من قبل الحق عزَّ وجلَّ، وغشيته أنواع المعارف والعلوم وأنواع الفضل، فيقال له: تلبس بالنعم والفضل ولا تسيء الأدب بالرد وترك التلبس، لأن رد نعم الملك افتئاتًا على الملك واستخفافًا بحضرته وحينئذٍ يتلبس بالفضل والقسمة بالله من غير أن يكون هو فيه ومن قبل كأن يتلبس بهواه ونفسه فله أربع حالات في تناول الحظوظ والأقسام.

الأولى بالطبع وهو الحرام. والثانية بالشرع وهو المباح والحلال. والثالثة بالأمر وهي حالة الولاية وترك الهوى. والرابعة بالفضل وهي حالة زوال الإرادة وحصول البدلية وكونه مرادًا قائمًا مع القدر الذي هو فعل الحق وهي حالة العلم والاتصاف بالصلاح، فلا يسمى صالحًا على الحقيقة إلا وصل إلى هذا المقام، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الأعراف: الآية ١٩٦] فهو العبد الذي كفت يده عن جلب مصالحه ومنافعه وعن رد مضاره ومفاسده، كالرضيع مع الظئر، والميت الغسيل مع الغاسل، فتتولى يد القدر تربيته من غير أن يكون له اختيار وتدبير، فإن عن جميع ذلك لا حالاً ولا مقامًا ولا إرادة، بل القيام مع القدرة، تارة يبسط وتارة يغني وتارة يفقر، ويختار ولا يتمنى زوال ذلك

وتغيره، بل الرضى الدائم والموافقة الأبدية، فهو آخر ما تنتهي إليه أحوال الأولياء قدست أسرارهم.

المقالة السادسة والخمسون

في فناء العبد عن الخلق والهوى والنفس والإرادة والأماني

قال رضي الله عنه وأرضاه: إذا فني العبد عن الخلق والهوى والنفس والإرادة والأماني دنيا وأخرى ولم يرد إلا الله عزّ وجلّ وخرج الكل عن قلبه وصل إلى الحق، واصطفاه واجتباه، وأحبه وحببه إلى خلقه، وجعله يحبه ويحب قربه، ويتنعم بفضله ويتقلب في نعمه وفتح عليه أبواب رحمته، ووعده أن لا يغلقها عنه أبدًا «فيختار العبد حينئذٍ الله، ويدبر بتدبيره ويشاء بمشيئته، ويرضى برضاه ويمتثل أمره دون غيره»، ولا يرى لغيره عزّ وجلّ وجودًا ولا فعلًا، فحينئذٍ يجوز أن يعده الله بوعد ثم لا يظهر للعبد وفاء بذلك، ولا يغير ما قد توهمه من ذلك، لأن الغيرية قد زالت بزوال الهوى والإرادة فصار في فعل الله عزّ وجلّ وإرادته فيصير الوعد حينئذٍ في حقه مع الله عزّ وجلّ كرجل عزم على فعل شيء في نفسه ونواه ثم صرفه إلى غيره كالناسخ والمنسوخ فيما أوحى الله عزّ وجلّ إلى نبينا محمد ﷺ قوله عزّ وجلّ: ﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ١٠٦]، لما كان النبي ﷺ منزوع الهوى والإرادة سوى المواضع التي ذكرها الله عزّ وجلّ في القرآن من الأسر يوم بدر ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [الأنفال: الآية ٦٧]، و﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال: الآية ٦٨] كذا قالوا، وغيره وهو مراد الحق عز جل لم يترك على حالة واحدة بل نقله إلى القدر إليه فصرفه في القدر وقلبه منها، نبهه بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٠٦] يعني أنك في بحر القدر تقلبك أمواجه تارة كذا وتارة كذا، فمنتهى أمر الولي ابتداء أمر النبي ما بعد الولاية والبدلية إلا النبوة، والله أعلم.

المقالة السابعة والخمسون

في عدم المنازعة في القدر والأمر بحفظ الرضا به

قال رضي الله عنه وأرضاه: الأحوال قبض كلها، لأنه يؤمر الولي بحفظها وكل ما يؤمر بحفظه فهو قبض، والقيام مع القدر بسط كله، لأنه ليس هناك شيء يؤمر

بحفظه سوى كونه موجودًا في القدر، فعليه أن لا ينازع في القدر بل يوافق ولا ينازع في جميع ما يجري عليه مما يحلو ويمر. الأحوال معدودة فأمر بحفظ حدودها، والفضل الذي هو القدر غير محدود فيحفظ.

وعلامة أن العبد دخل في مقام القدر والفعل والبسط أنه يؤمر بالسؤال في الحظوظ بعد أن أمر بتركها والزهد فيها، لأنه لما خلا باطنه من الحظوظ ولم يبق فيه غير الرب عزَّ وجلَّ بوسط فأمر بالسؤال والتشهي وطلب الأشياء التي هي قسمه، ولا بد من تناولها والتوصل إليه بسؤاله، ليستحق كرامته عند الله عزَّ وجلَّ ومنزلته، وامتنان الحق عزَّ وجلَّ عليه بإجابته إلى ذلك، والإطلاق بالسؤال في عطاء الحظوظ من أكثر علامات البسط بعد القبض، والإخراج من الأحوال والمقامات والتكاليف في حفظ الحدود.

فإن قيل: هذا يدل على زوال التكلف والقول بالزندقة والخروج من الإسلام، ورد قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: الآية ٩٩]، قيل لا يدل على ذلك ولا يؤدي إليه بل الله أكرم ووليه أعز عليه من أن يدخله في مقام النقص والقبيح في شرعه ودينه، بل يعصمه من جميع ما ذكر ويصرفه عنه ويحفظه وينبهه ويسدده لحفظ الحدود، فتحصل العصمة وتتحفظ الحدود من تكليف منه ومشقة، وهو عن ذلك في غيبة في القرب. قال عزَّ وجلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف: الآية ٢٤]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ [الحجر: الآية ٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الصافات: الآية ٤٠] يا مسكين هو محمول الرب وهو مراده، وهو يربيه في حجر قربه ولطفه، أنى يصل الشيطان إليه وتتطرق القبائح والمكاره في الشرع نحوه؟ أبعدت النجعة وأعظمت الفرية وقلت قولًا فظيعًا، تبًا لهذه الهمم الخسيسة الدنية والعقول الناقصة البعيدة والآراء الفاسدة المتخلخلة، أعاذنا الله والإخوان من الضلالة المختلفة بقدرته الشاملة ورحمته الواسعة، وسترنا بأستاره التامة المانعة الحامية، وربانا بنعمه السابغة وفضائله الدائمة بمنه وكرمه تعالى شأنه.

المقالة الثامنة والخمسون

في صرف النظر عن كل الجهات وطلب جهة فضل الله تعالى

قال رضي الله عنه وأرضاه: تقام عن الجهات كلها ولا تبصبص على شيء منها، فما دمت تنظر إلى واحدة منها لا يفتح لك جهة فضل الله عزَّ وجلَّ وقربه.

فسد الجهات جميعًا بتوحيده وإمحاء نفسك ثم فنائك ومحوك وعلمك، فحينئذٍ يفتح عين قلبك جهة فضل الله العظيم، فتراها بعيني رأسك إذ ذاك شعاع نور قلبك وإيمانك ويقينك فيظهر عند ذلك النور من باطنك على ظاهرك كنور الشمعة التي في البيت المظلم في الليلة الظلماء، يظهر من كوى البيت ومنافذه فيشرق ظاهر البيت بنور باطنه، فتسكن النفس والجوارح إلى وعد الله وعطائه عن عطاء غيره ووعد غيره عزَّ وجلَّ.

وارحم نفسك ولا تظلمها ولا تلقها في ظلمات جهلك ورعونتك، فتنظر إلى الجهات وإلى الخلق والحول والقوة والكسب والأسباب فتوكل إليها، فتسد عنك الجهات ولم تفتح لك جهة فضل الله عزَّ وجلَّ عقوبة ومقابلة لشركك بالنظر إلى غيره عزَّ وجلَّ، فإذا وجدته ونظرت إلى فضله ورجوته دون غيره وتعاميت عما سواه، قربك وأدناك، ورحمك ورباك وأطعمك وسقاك، وداواك وعافاك، وأعطاك وأغناك، فلا ترى بعد ذلك لا فقرك ولا غناك.

المقالة التاسعة والخمسون

في الرِّضا على البَلِيّة، والشكر على النعمة

قال رضي الله عنه وأرضاه: لا تخلو حالتك إما أن تكون بلية أو نعمة. فإن كانت بلية فتطالب فيها بالتصبر، وهو الأدنى، والصبر وهو أعلى منه. ثم الرضا والموافقة، ثم الفناء، وهو للأبدال، وإن كانت نعمة فتطالب فيها بالشكر عليها. والشكر باللسان والقلب والجوارح.

أما باللسان فالاعتراف بالنعمة أنها من الله عزَّ وجلَّ: «وترك الإضافة إلى الخلق لا إلى نفسك وحولك وقوتك وكسبك ولا إلى غيرك من الذين جرت على أيديهم، لأنك وإياهم أسباب وآلات وأداة لها، وإن قاسمها ومجريها وموجدها والشاغل فيها والمسبب لها هو الله عزَّ وجلَّ والقاسم هو الله» والمجرى هو والموجد هو، فهو أحق بالشكر من غيره.

لأنظر إلى الغلام الحمال للهدية إنما النظر إلى الأستاذ المنفذ المنعم بها قال الله تعالى في حق من عدم هذا المنظر ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الرّوم: الآية ٧] فمن نظر إلى الظاهر والسبب ولم يجاوز علمه ومعرفته فهو الجاهل الناقص قاصر العقل، إنما سمي العاقل عاقلًا لنظره في العواقب.

وأما الشكر بالقلب، فبالاعتقاد الدائم. والعقد الوثيق الشديد المتبرم.

إن جميع ما بك من النعم والمنافع واللذات في الظاهر والباطن في حركاتك وسكناتك من الله عزَّ وجلَّ لا من غيره، ويكون شكرك بلسانك معبرًا عما في قلبك. وقد قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: الآية ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: الآية ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: الآية ٣٤] فمع هذا لا يبقى لمؤمن منعم سوى الله تعالى.

وأما الشكر بالجوارح فبأن تحركها وتستعملها في طاعة الله عزَّ وجلَّ دون غيره من الخلق، فلا تجيب أحدًا من الخلق، فيما فيه إعراض عن الله تعالى، وهذا يعم النفس والهوى والإرادة والأماني وسائر الخليقة، كجعل طاعة الله أصلًا ومتبوعًا وإمامًا وما سواها فرعًا وتابعًا ومأمومًا، فإن فعلت غير ذلك كنت جائرًا ظالمًا حاكمًا بغير حكم الله عزَّ وجلَّ الموضوع لعباده المؤمنين، وسالكًا غير سبيل الصالحين. قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: الآية ٤٤]، وفي آية أخرى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: الآية ٤٥]، وفي أخرى: ﴿هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: الآية ٥٥] فيكون انتهاؤك إلى التي وقودها الناس والحجارة، وأنت لا تصبر على حمى ساعة في الدنيا وأقل بسطة وشرارة من النار فيها، فكيف صبرك على الخلود في الهاوية مع أهلها النجا النجا، الوحا الوحا، الله الله، احفظ الحالتين وشروطهما، فإنك لا تخلو في جميع عمرك من أحديهما إما البلية وإما النعمة فأعط كل حالة حظها وحقها من الصبر والشكر على ما بينت لك، فلا تشكون في حالة البلية إلى أحد من خلق الله، ولا تظهرن الضجر لأحد ولا تتهمن ربك في باطنك. ولا تشكن في حكمته واختر الأصلح لك في دنياك، وآخرتك، فلا تذهبن بهمتك إلى أحد من خلقه في معافاتك فذاك إشراك منك به عزَّ وجلَّ، لا يملك معه عزَّ وجلَّ في ملكه أحد شيئًا لا ضار ولا نافع ولا دافع، ولا جالب ولا مسقم ولا مبلى، ولا معاف ولا مبرىء غيره عزَّ وجلَّ، فلا تشتغل بالخلق لا في الظاهر ولا في الباطن، فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئًا، بل ألزم الصبر والرضا والموافقة والفناء في فعله عزَّ وجلَّ، فإن حرمت ذلك كله فعليك بالاستغاثة إليه عزَّ وجلَّ، والتضرّع من شؤم النفس، ونزاهة الحق عزَّ وجلَّ والاعتراف له بالتوحيد بالنعيم، والتبري من الشرك، وطلب الصبر والرضا والموافقة، إلى حين يبلغ الكتاب أجله، فتزول البلية وتنكشف الكربة، وتأتي

النعمة والسعة والفرحة والسرور، كما كان في حق نبي الله أيوب عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأشرف السلام، كما يذهب سواد الليل ويأتي بياض النهار، ويذهب برد الشتاء ويأتي نسيم الصيف وطيبه لأن لكل شيء ضدًا وخلافًا وغاية وبدءًا ومنتهى، فالصبر مفتاحه وابتداؤه وانتهاؤه وجماله كما جاء في الخبر «الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد». وفي لفظ «الصبر الإيمان كله». وقد يكون الشكر هو التلبس بالنعم وهي أقسامه المقسومة لك، فشكر التلبس بها في حال فنائك، وزوال الهوى والحمية والحفظ، وهذه حالة الأبدال وهي المنتهى، اعتبر ما ذكرت لك ترشد إن شاء الله تعالى.

المقالة الستون

في البداية والنهاية

قال رضي الله تعالى عنه وأرضاه: البداية. هي الخروج من المعهود إلى المشروع ثم المقدور، ثم الرجوع إلى المعهود. ويشترط حفظ الحدود، فتخرج من معهودك من المأكول والمشروب والملبوس والمنكوح والمسكون والطبع والعادة إلى أمر الشرع ونهيه، فتتبع كتاب الله وسنة رسوله ﷺ كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: الآية ٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: الآية ٣١] فتفنى عن هواك ونفسك ورعونتها في ظاهرك وباطنك فلا يكون في باطنك غير توحيدك له وفي ظاهرك غير طاعة الله وعبادته مما أمر ونهى، فيكون هذا دأبك وشعارك ودثارك في حركتك وسكونك، في ليلك ونهارك، وسفرك وحضرتك، وشدتك ورخائك، وصحتك وسقمك، وأحوالك كلها، ثم تحمل إلى وادي القدر فيتصرف فيك القدر، فتفنى عن جدك واجتهادك وحولك وقوتك، فتساق إليك الأقسام التي جف بها القلم وسبق بها العلم، فتلبس بها وتعطي منها الحفظ والسلام فتحفظ فيها الحدود ويحصل فيها الموافقة لفعل المولى، ولا تنخرق قاعدة الشرع إلى الزندقة وإباحة المحرم قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: الآية ٩]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: الآية ٢٤] فتصحب الحفظ والحمية وإنما هي أقسامًا معدة لك، فحبسها عنك في حال سيرك وطريقك وسلوكك فيافي الطبع ومفاوز الهوى المعهود، لأنها أثقال أحمال ما زيحت عنك، لئلا يثقلك فتضعفك إلى حين الوصول إلى عتبة

الفناء، وهو الوصول إلى قرب الحق عزَّ وجلَّ والمعرفة به، والاختصاص بالأسرار والعلوم الدينية، والدخول في بحار الأنوار، حيث لا تضر ظلمة الطبائع والأنوار، فالطبع باق إلى أن تفارق الروح الجسد لاستيفاء الأقسام، إذ لو زال الطبع من الآدمي لالتحق بالملائكة وبطلت الحكمة، فبقي الطبع يستوفي الأقسام والحظوظ، فيكون ذلك وظائفًا لا أصليًا كما قال النبي ﷺ: «حبب إلي من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة» فلما فني النبي ﷺ عن الدنيا وما فيها ردت إليه أقسامه المحبوسة عنه في حال سيره إلى ربه عزَّ وجلَّ، فاستوفاها موافقة لربه تعالى والرضا بفعله ممتثلًا لأمره، قدست أسمائه وعمت رحمته، شمل فضله لأوليائه وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام، فهكذا الولي في هذا الباب ترد إليه أقسامه وحظوظه مع حظ الحدود، فهو الرجوع من النهاية إلى البداية، والله أعلم.

المقالة الحادية والستون

في التوقف عند كل شيء حتى يتبين له إباحة فعله

قال رضي الله عنه وأرضاه: كل مؤمن مكلف بالتوقف والتفتيش عند حضور الأقسام عن التناول والأخذ، حتى يشهد له الحكم بالإجابة، والعلم بالقسمة، والمؤمن فتاش والمنافق لقاف. وقال ﷺ: «المؤمن وقاف»[(١)]. وقال ﷺ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»[(٢)] فالمؤمن يقف عند كل قسم من مأكول ومشروب وملبوس ومنكوح وسائر الأشياء التي تفتح له فلا يأخذ حتى يحكم له بجواز الأخذ والتناول كحكمه إذا كان في حالة التقوى. أو حتى يحكم له بذلك الأمر إذا كان في حالة الولاية. أو حتى يحكم العلم في حالة البدلية والغوثية، والفعل الذي هو القدر المحض وهي حالة الفناء، ثم تأتيه حالة أخرى تتناول كل ما يأتيه ويفتح له ما لم يعترض عليه الحكم والأمر والعلم، فإذا اعترض أحد هذه الأشياء امتنع من التناول، فهي ضد الأولى.

ففي الأولى الغالب عليه التوقف والتثبت. وفي الثانية الغالب عليه التناول والأخذ والتلبس بالفتوح. ثم تأتي الحالة الثالثة.

---

(١) رواه البيهقي في الكبرى (٢/ ٣٤١).

(٢) رواه البخاري (٢/ ٧٢٤)، وابن خزيمة في صحيحه (٤/ ٥٩)، وابن حبان (٢/ ٤٩٨)، والحاكم في المستدرك (١/ ١١٦)، (٢/ ١٥)، والترمذي (٤/ ٦٦٨)، والدارمي (٢/ ٣١٩).

فالتناول المحض والتلبس بما يفتح من النعم من غير اعتراض أحد الأشياء الثلاثة وهي حقيقة الفناء، فيكون المؤمن فيها محفوظًا من الآفات وخرق حدود الشرع مصانًا مصروفًا عنه الأسواء، كما قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسُف: الآية ٢٤] فيصير العبد مع الحفظ عن خرق الحدود كالمقرض إليه المأذون له والمطلق له في الإباحات الميسر له الخير، ما يأتيه قسمه المصفى له من الآفات والتبعات في الدنيا والآخرة، والموافق لإرادة الحق ورضاه وفعله ولا حالة فوقها وهي الغاية، وهي السادة الأولياء الكبار الخلص أصحاب الأسرار، الذين أشرفوا على عتبة أحوال الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين.

المقالة الثانية والستون

في المحبة والمحبوب وما يجب في حقهما

قال رضي الله عنه وأرضاه: ما أكثر ما يقول المؤمن قرب فلان وبعدت، وأعطى فلان وحرمت، وأغنى فلان وأفقرت وعوفي فلان وأسقمت، وعظم فلان وحقرت، وحمد فلان وذممت، وصدق فلان وكذبت. أما يعلم أنه الواحد. وأن الواحد يحب الوحدانية في المحبة، ويحب الواحد في محبته.

إذا قربك بطريق غيره نقصت محبتك له عزَّ وجلَّ وشعبت فربما دخلك الميل إلى من ظهرت المواصلة والنعمة على يديه، فتنقص محبة الله في قلبك، وهو عزَّ وجلَّ غيور لا يحب شريكه فكف أيدي الغير عنك بالمواصلة ولسانه عن حمدك وثنائك ورجليه عن السعي إليك كيلا تشتغل به عنه، أما سمعت قول النبي ﷺ: «جبلت القلوب على حب من أحسن إليها»[1] فهو عزّ وجلّ يكفّ الخلق عن الإحسان إليك من كل وجه وسبب حتى توحّده وتحبه، وتصير له من كل وجه بظاهرك وباطنك في حركاتك وسكناتك، فلا ترى الخير إلا منه ولا الشر إلا منه عزَّ وجلَّ، وتفني عن الخلق وعن النفس، وعن الهوى والإرادة والمنى، وعن جميع ما سوى المولى، ثم يطلق الأيدي إليك بالبسط والبذل والعطاء، والألسن بالحمد والثناء فيدللك أبدًا في الدنيا ثم في العقبى، فلا تسيء الأدب،

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (١/ ٣٨١)، (٦/ ٤٨١)، والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ٣٥٠)، والحكيم في النوادر (١/ ١٤٩).

انظر إلى من ينظر إليك، وأقبل على من أقبل إليك، وأحب من يحبك واستجب من يدعوك وأعط يدك من يثبتك من سقطك ويخرجك من ظلمات جهلك، وينجيك من هلكك ويغسلك من نجاسك، وينظفك من أوساخك، ويخلصك من جيفك ونتنك، ومن أوهامك الردية، ومن نفسك الأمارة بالسوء وأقرانك الضلال المضلين شياطينك، وأخلائك الجهال قطاع طريق الحق الحائلين بينك وبين كل نفيس وثمين وعزيز.

إلى متى المعاد، إلى متى الحق، إلى متى الهوى، إلى متى الرعونة إلى متى الدنيا، إلى متى الآخرة، إلى متى سوى المولى؟ أين أنت من خالقك والأشياء، المكون الأول الآخر الظاهر الباطن، والمرجع والمصدر إليه، وله القلوب وطمأنينة الأرواح ومحط الأثقال والعطاء والامتنان، عز شأنه.

المقالة الثالثة والستون

في نوع من المعرفة

قال رضي الله عنه وأرضاه: رأيت في المنام كأني أقول يا مشرك بربه في باطنه بنفسه وفي ظاهره بخلقه وفي عمله بإرادته، فقال رجل إلى جنبي ما هذا الكلام؟ فقلت هذا نوع من المعرفة.

المقالة الرابعة والستون

في الموت الذي لا حياة فيه، والحياة التي لا موت فيها

قال رضي الله عنه وأرضاه: ضاق بي الأمر يومًا فتحرك في النفس، فقيل لي: ماذا تريد؟ فقلت أريد موتًا لا حياة فيه وحياة لا موت فيها؟ فقيل لي: ما الموت الذي لا حياة فيه وما الحياة التي لا موت فيها؟ قلت: الموت الذي لا حياة فيه موتي عن جنسي من الخلق فلا أراهم في الضر والنفع، وموتي عن نفسي وهوائي وإرادتي ومناتي في الدنيا والأخرى فلا أحس في جميع ذلك ولا أجد.

وأما الحياة التي لا موت فيها: فحياتي بفعل ربي عزَّ وجلّ بلا وجودي فيه، والموت في ذلك وجودي معه عزَّ وجلّ، فكانت هذه الإرادة أنفس إرادة أردتها منذ عقلت.

المقالة الخامسة والستون

في النهي عن التسخط على الله في تأخير إجابة الدعاء

قال رضي الله عنه وأرضاه: ما هذا التسخط على ربك عزَّ وجلَّ من تأخير إجابة الدعاء؟ تقول حرم على السؤال للخلق وأوجب على السؤال وأنا أدعوه وهو لا يجيبني فيقال لك أحر أنت أم عبد فإن قلت: أنا حر فأنت كافر وإن قلت: أنا عبد لله، فيقال لك: أمتهم أنت لوليك في تأخير إجابة دعائك وشاك في حكمته ورحمته بك وبجميع خلقه وعلمه بأحوالهم أو غير متهم له عزَّ وجلَّ؟ فإن كنت غير متهم له ومقر بحكمته وإرادته ومصلحته لك وتأخير ذلك فعليك بالشكر له عزَّ وجلَّ، لأنه اختار لك الأصلح والنعمة ودفع الفساد، وإن كنت متهمًا له في ذلك فأنت كافر بتهمتك له، لأنك بذلك نسبت له الظلم وهو ليس بظلام للعبيد، لا يقبل الظلم ويستحيل عليه أن يظلم إذ هو مالكك ومالك كل شيء، فلا يطلق عليه اسم الظلم، وإنما الظالم من يتصرف في ملك غيره بغير إذنه فانسد عليك سبيل التسخط عليه في فعله فيك بما يخالف طبعك وشهوة نفسك وإن كان في الظاهر مفسدة لك.

فعليك بالشكر والصبر والموافقة، وترك التسخط والتهمة والقيام مع رعونة النفس وهواها الذي يضل عن سبيل الله.

وعليك بدوام الدعاء وصدق الالتجاء، وحسن الظن بربك عزَّ وجلَّ، وانتظار الفرج منه، والتصديق بوعده، والحياء منه، والموافقة لأمره، وحفظ توحيده والمسارعة إلى أداء أوامره، والتماوت عن نزول قدره بك وبفعله فيك، وإن كان لا بد أن تتهم وتسيء الظن فنفسك الأمارة بالسوء العاصية لربها عزَّ وجلَّ أولى بهما، ونسبتك الظلم إليها أحرى من مولاك. فاحذر موافقتها وموالاتها، والرضى بفعلها وكلامها في الأحوال كلها، لأنها عدوة الله وعدوتك، وموالية لعدو الله وعدوك الشيطان الرجيم، هي خنيلته وجاسوسته ومصافيته، الله الله ثم الله، الحذر الحذر النجا النجا، اتهمها وأنسب الظلم إليها واقرأ عليها قوله عزَّ وجلَّ: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ [النساء: الآية ١٤٧]، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [يونس: الآية ٤٤] وغيرها من الآيات والأخبار.

كن مخاصمًا لله على نفسك مجادلًا لها عنه عزَّ وجلَّ، ومحاربًا وسيافًا وصاحب جنده وعسكره، فإنها أعدى عدو الله عزَّ وجلَّ، قال الله تعالى: يا داود اهجر هواك فإنه لا منازع ينازعني في ملكي غير الهوى.

المقالة السادسة والستون

في الأمر بالدعاء، والنهي عن تركه

قال رضي الله عنه وأرضاه: لا تقل لا أدعو الله، فإن كان ما أسأله مقسومًا فسيأتي إن سألته أم لم أسأله، وإن كان غير مقسوم فلا يعطيني بسؤال، بل اسأله عزَّ وجلَّ جميع ما تريد وتحتاج إليه من خير الدنيا والآخرة ما لم يكن فيه محرم ومفسدة لأن الله تعالى أمر بالسؤال له وحث عليه.

قال تعالى: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: الآية ٦٠]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾ [النساء: الآية ٣٢]، ﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾ [النساء: الآية ٣٢]. قال النبي ﷺ: «اسألوا الله وأنتم موقنون بالإجابة»[١]. وقال ﷺ: «اسألوا الله ببطون أكفكم»[٢] وغير ذلك من الأخبار. ولا تقل إني أسأله فلا يعطيني فإذا لا أسأله، بل دم على دعائه، فإن كان ذلك مقسومًا ساقه إليك بعد أن تسأله، فيزيد ذلك إيمانًا ويقينًا وتوحيدًا، وترك سؤال الخلق والرجوع إليه في جميع أحوالك وإنزال حوائجك به عزَّ وجلَّ، وإن لم يكن مقسومًا لك أعطاك الغناء عنه والرضا عنه عزَّ وجلَّ بالقصص. فإن كان فقرًا أو مرضًا أرضاك بهما وإن كان دينًا قلب الدائن من سوء المطالبة إلى الرفق والتأخر والتسهيل إلى حين ميسرتك أو إسقاطه عنك أو نقصه، فإن لم يسقط ولم يترك منه في الدنيا أعطاك عزَّ وجلَّ ثوابًا جزيلًا ما لم يعطك بسؤلك في الدنيا، لأنه كريم غني رحيم، فلا يخيب سائله في الدنيا والآخرة فلا بد من فائدة، ونائلة إما عاجلًا وإما آجلًا، فقد جاء في الحديث: «المؤمن يرى في صحيفته يوم القيامة حسنات لم يعملها ولم يدر بها فيقال له أتعرفها؟ فيقول: ما أعرفها من أين لي هذه؟ فيقال له: إنها بدل مسألتك التي سألتها في دار الدنيا» وذلك أنه بسؤال الله عزَّ وجلَّ يكون ذاكرًا لله وموحدًا وواضع الشيء في موضعه، ومعطي الحق أهله، ومتبرئًا من حوله وقوته،

---

(١) رواه الترمذي (٥/٥١٧)، والحاكم في المستدرك (١/٦٧٠)، وأحمد في المسند (٢/١٧٧).
(٢) رواه الحاكم في المستدرك (١/٧١٩)، والبيهقي في الكبرى (٢/٢١٢)، وأبو داود (٢/٧٨).

وتاركًا للتكبر والتعظم والأنفة، وجميع ذلك أعمال صالحة ثوابها عند الله عزَّ وجلَّ.

المقالة السابعة والستون

في جهاد النفس وتفصيل كيفيته

قال رضي الله عنه وأرضاه: كلما جاهدت نفسك وغلبتها وقتلتها بسيف المخالفة أحياها الله، ونازعتك وطلبت منك الشهوات واللذات الجناح منها والمباح، لتعود إلى المجاهدة ليكتب لك ثوابًا دائمًا، وهو معنى قول النبي ﷺ: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»، أراد مجاهدة النفس لدوامها واستمرارها على الشهوات واللذات، وانهماكها في المعاصي، وهو معنى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: الآية ٩٩] أمر الله عزَّ وجلَّ لنبيه ﷺ بالعبادة وهي مخالفة النفس، لأن العبادة كلها تأباها النفس وتريد ضدها إلى أن يأتيه اليقين يعني الموت.

فإن قيل: كيف تأبى نفس رسول الله ﷺ العبادة وهو عليه الصلاة والسلام لا هوى له ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: الآيتان ٣، ٤] فيقال إنه عزَّ وجلَّ خاطب نبيّه ﷺ ليتقرر به الشرع فيكون عامًّا بين أمته إلى أن تقوم الساعة. ثم إن الله عزَّ وجلَّ أعطى نبيّه عليه الصلاة والسلام القوة على النفس والهوى، كيلا يضراه ويحوجاه إلى المجاهدة، بخلاف أمته، فإذا دام المؤمن على هذه المجاهدة إلى أن يأتيه الموت ويلحق بربه عزَّ وجلَّ بسيف مسلول ملطخ بدم النفس والهوى أعطاه ما ضمن له من الجنة، لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: الآيتان ٤٠، ٤١] فإذا أدخله الجنة وجعلها داره ومقره ومصيره، أمن من التحويل عنها والانتقال إلى غيرها والعودة إلى دار الدنيا جدد له كل يوم وكل ساعة من أنواع النعيم وتغير عليه أنواع الحال والحلى إلا ما لا نهاية له ولا غاية ولا نفاد، كما جدد في الدنيا كل يوم وكل ساعة ولحظة مجاهدة النفس والهوى.

وأما الكافر والمنافق والعاصي لما تركوا مجاهدة النفس والهوى في الدنيا وتابعوها، ووافقوا الشيطان تمرجوا في أنواع المعاصي من الكفر والشرك وما دونهما حتى أتاهم الموت من غير الإسلام والتوبة، أدخلهم الله النار التي أعدت للكافرين في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [آل عمران: الآية ١٣١] فإذا

أدخلهم فيها وجعلها مقرهم ومصيرهم، فأحرقت جلودهم ولحومهم جدد لهم عزَّ وجلَّ جلودًا ولحومًا كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: الآية ٥٦] يفعل عزَّ وجلَّ بهم ذلك كما وافقوا أنفسهم وأهواءهم في الدنيا في معاصيه عزَّ وجلَّ، فأهل النار تجدد لهم كل وقت جلود ولحوم لإيصال العذاب والآلام إليهم، وأهل الجنة يجدد لهم كل وقت نعيم لتتضاعف الشهوات واللذات لديهم. وسبب ذلك مجاهدة النفس وعدم موافقتها في دار الدنيا وهذا معنى قول النبي ﷺ: «الدنيا مزرعة الآخرة»(١).

المقالة الثامنة والستون

في قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمٰن: الآية ٢٩]

قال رضي الله عنه وأرضاه: إذا أجاب الله عبدًا ما سأله وأعطاه ما طلبه لم تنخرم إرادته ولا ما جف به القلم وسبق به العلم، لكنه يوافق سؤاله مراد ربه عزَّ وجلَّ في وقته، فتحصل الإجابة وقضاء الحاجة في الوقت المقدر الذي قدره له في السابقة لبلوغ القدر وقته كما قال أهل العلم قوله عزَّ وجلَّ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمٰن: الآية ٢٩] أي يسوق المقادير إلى المواقيت، يعطي الله أحدًا شيئًا في الدنيا بمجرد دعائه، وكذلك لا يصرف عنه شيئًا بدعائه المجرد، والذي ورد في الحديث: «ولا يرد القضاء إلا الدعاء» قيل إن المراد به لا يرد القضاء إلا الدعاء الذي قضى أن يرد لقضائه، وكذلك لا يدخل أحد الجنة في الآخرة بعمله، بل برحمة الله عزَّ وجلَّ، لكنه يعطي العباد في الجنة الدرجات على قدر أعمالهم.

وقد ورد في حديث عائشة رضي الله عنها: «أنها سألت النبي ﷺ هل يدخل أحد الجنة بعمله؟ فقال: لا برحمة الله، فقالت: ولا أنت؟ فقال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته ووضع يده على هامته»(٢) وذلك لأن الله عزَّ وجلَّ لا يجب عليه لأحد حق ولا يلزمه الوفاء بالعهد، بل يفعل ما يريد يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء، ويرحم من يشاء، فعال لما يريد ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، يرزق من يشاء بغير حساب بفضل رحمته ومنته، ويمنع من شاء بعدله، وكيف لا يكون كذلك

---

(١) أورده القاري في المصنوع (ص ١٠١)، والعجلوني في كشف الخفاء (١/ ٤٩٥)، (٢/ ٣٢٩)، والفتوحي في أبجد العلوم (١/ ٣٥٤).

(٢) رواه ابن حبان (٢/ ٦٠)، والربيع في مسنده (١/ ٢٨٢)، وأحمد في المسند (٣/ ٥٢، ٣٣٧)، والطبراني في الأوسط (٦/ ٣٣٢)، (٨/ ٧٤).

والخلق من لدن العرش إلى الثرى التي هي الأرض السابعة السفلى ملكه وصنعه، لا مالك لهم غيره ولا صانع لهم غيره، قال عزَّ وجلَّ: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: الآية ٣]، وقال تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل: الآية ٦٠]، وقال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: الآية ٦٥]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾ [آل عمران: الآيتان ٢٦، ٢٧].

المقالة التاسعة والستون

في الأمر بطلب المغفرة والعصمة والتوفيق والرضا والصبر من الله تعالى

قال رضي الله عنه وأرضاه: لا تطلبن من الله شيئًا سوى المغفرة للذنوب السابقة والعصمة منها في الأيام الآتية اللاحقة، والتوفيق لحسن الطاعة، وامتثال الأمر والرضا بمر القضاء والصبر على شدائد البلاء، والشكر على جزيل النعماء والعطاء ثم الوفاة بخاتمة الخير، واللحوق بالأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا ولا تطلب منه الدنيا ولا كشف الفقر والبلاء إلى الغناء والعافية، بل الرضا بما قسم ودبر، واسأله الحفظ الدائم على ما أقامك فيه وأحلك وابتلاك، إلى أن ينقلك منه إلى غيره وضده، لأنك لا تعلم الخير في أيهما، في الفقر أو في الغناء، في البلاء أو في العافية، طوى عنك علم الأشياء وتفرد هو عزَّ وجلَّ بمصالحها ومفاسدها.

فقد ورد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا أبالي على أي حال أصبح، على ما أكره أو على ما أحب، لأني لا أدري الخير في أيهما. قال ذلك لحسن رضاه بتدبير الله عزَّ وجلَّ، والطمأنينة على اختياره وقضائه. قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: الآية ٢١٦].

كن على هذا الحال إلى أن يزول هواك وتنكسر نفسك فتكون ذليلة مغلوبة تابعة ثم تزول إرادتك وأمانيك، وتخرج الأكوان من قلبك ولا يبقى في قلبك شيء سوى الله تعالى، فيمتلىء قلبك بحب الله تعالى، وتصدق إرادتك في طلبه وعزَّ وجلَّ فيرده إليك الإرادة بأمره بطلب حظ من الحظوظ دنيوية وأخروية، فحينئذٍ تسأله عزَّ وجلَّ

بذلك وتطلبه ممتثلًا لأمره، إن أعطاك شكرته وتلبست به، وإن منعك لم تتسخط عليه ولم تتغير عليه في باطنك ولا تتهمه في ذلك ببخل، لأنك لم تكن طلبته بهواك وإرادتك، لأنك فارغ القلب عن ذلك غير مريد له، بل ممتثلًا لأمره بالسؤال والسلام.

المقالة السبعون

في الشكر والاعتراف بالتقصير

قال رضي الله عنه وأرضاه: كيف يحسن منك العجب في أعمالك ورؤية نفسك فيها وطلب الأعواض عليها، وجميع ذلك بتوفيق الله تعالى وعونه وقوته وإرادته وفضله وإن كان ترك معصيته فبعصمته وحفظه وحميته.

أين أنت من الشكر على ذلك والاعتراف بهذه النِّعَم التي أَوْلاكَها، ما هذه الرعونة والجهل، تعجب بشجاعة غيرك وسخائه وبذل ماله إذا لم تكن قاتلًا بعودك إلا بعد معاونة شجاع ضرب في عدوك ثم تمنيت قتله، لولاه كنت مصروعًا مكانه وبدله، ولا باذلًا لبعض مالك إلا بعد ضمان صادق كريم أمين ضمن لك عوضه وخلفه، لولا قوله وطمعك فيما وعد لك وضمن لك ما بذلت حبة منه، كيف تعجبك بمجرد فعلك.

أحسن حالك الشكر والثناء على المعين والحمد لله الدائم وإضافة ذلك إليه في الأحوال كلها إلا الشر والمعاصي واللوم، فإنك تضيفها إلى نفسك وتنسبها إلى الظلم وسوء الأدب وتتهمها به، فهي أحق بذلك لأنها مأوى لكل شر وأمارة بكل سوء وداهية وإن كان هو عزَّ وجلَّ خالقك وخالق أفعالك مع كسبك، أنت الكاسب وهو الخالق كما قال بعض العلماء بالله عزَّ وجلَّ: تجيء ولا بد منك، وقوله ﷺ: «اعلموا وقاربوا وسددوا فكل ميسر لما خلق له»[1].

المقالة الحادية والسبعون

في المريد والمراد

قال رضي الله عنه وأرضاه: لا يخلو إما أن تكون مريدًا أو مرادًا.

---

(١) رواه البخاري (٤/ ١٣٩١)، (٦/ ٢٧٤٤)، ومسلم (٤/ ٢٠٤٠)، وأبو داود (٤/ ٢٢٨)، والترمذي (٥/ ٢٨٩)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٥١٧)، وابن ماجه (١/ ٣٠، ٣٥)، (٢/ ٧٢٥)، وأحمد في المسند (١/ ٥، ٨٢، ١٥٧)، (٣/ ٣٠٤)، (٤/ ٦٧، ٤٣١).

فإن كنت مريدًا فأنت محمل وحمال يحمل كل شديد وثقيل، لأنك طالب والطالب مشقوق عليه حتى يصل إلى مطلوبه ويظفر بمحبوبه ويدرك مرامه، ولا ينبغي لك أن تنفر من بلاء ينزل بك في النفس والمال والأهل والولد، إلى أن يحط عنك الأعمال، ويزال عنك الأثقال، ويرفع عنك الآلام ويزال عنك الأذى والإذلال، فتصان عن جميع الرذائل والأدران والأوساخ والمهانات والافتقار إلى الخليقة والبريات؛ فتدخل في زمرة المحبوبين المدللين المرادين.

وإن كنت مرادًا فلا تتهمن الحق عزَّ وجلّ في إنزال البلية بك أيضًا، ولا تشكن في منزلتك وقدرك عنده عزَّ وجلّ، لأنه قد يبتليك ليبلغك مبلغ الرجال، ويرفع منزلتك إلى منازل الأولياء.

أتحب ما يحط منزلتك عن منازلهم ودرجاتك عن درجاتهم وأن تكون خلعتك وأنوارك ونعيمك دون مالهم، فإن رضيت أنت بالدون فالحق عزَّ وجلّ لا يرضى لك بذلك. قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢١٦] يختار لك الأعلى والأسنى والأرفع والأصلح وأنت تأبى.

فإن قلت: كيف يصلح ابتلاء المراد مع هذا النعيم والبيان مع أن الابتلاء إنما هو للمحب، والمدلل إنما هو المحبوب.

يقال لك ذكرنا الأغلب أولًا وسمرنا بالنادر الممكن ثانيًا.

لا خلاف أن النبي ﷺ كان سيد المحبوبين أشد الناس بلاء، وقد قال ﷺ: «لقد خفت في الله ما لا يخافه أحد، ولقد أُوذيت في الله ما لم يؤذه أحد، ولقد أتى عليّ ثلاثون يومًا وليلة وما لنا طعام إلا شيء يواريه إبط بلال»، وقد قال ﷺ: «إنّا معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل»، وقال ﷺ: «أنا أعرفكم بالله وأشدكم منه خوفًا»، فكيف يبتلى المحبوب ويخوف المدلل؟ المراد ولم يكن ذلك إلا بما أشرنا إليه من بلوغ المنازل العالية في الجنة لأن المنازل في الجنة لا تشيد ولا ترفع بالأعمال في الدنيا.

الدنيا مزرعة الآخرة، وأعمال الأنباء والأولياء بعد أداء الأوامر وانتهاء النواهي الصبر والرضا والموافقة في حالة البلاء يكشف عنهم البلاء ويواصلون بالنعيم والفضل والدلال واللقاء أبد الآباد، والله أعلم.

المقالة الثانية والسبعون

فيمن إذا دخل الأسواق ومالَ إلى ما فيها ومَن إذا دخلها وصبر

قال رضي الله تعالى عنه وأرضاه: الذين يدخلون الأسواق من أهل الدين والنسك في خروجهم إلى أداء ما أمر الله تعالى من صلاة الجمعة، الجماعة وقضاء حوائج تسنح لهم على أضرب:

منهم من إذا دخل السوق ورأى فيه من أنواع الشهوات واللذات تقيد بهما وعلقت بقلبه فتن، وكان ذلك سبب هلاكه وتركة دينه ونسكه ورجوعه إلى موافقة طبعه واتباع هواه إلا أن يتداركه عزَّ وجلَّ برحمته وعصمته وإصباره إياه عنها فتسلم.

ومنهم من إذا رأى ذلك كاد أن يهلك بها رجع إلى عقله ودينه وتصبر وتجرع مرارة تركها، فهو كالمجاهد ينصره الله تعالى على نفسه وطبعه وهواه، ويكتب له الثواب الجزيل في الآخرة.

كما جاء في بعض الأخبار عن النبي ﷺ أنه قال: «يكتب للمؤمنين بترك شهوة عند العجز عنها أو عند المقدرة سبعون حسنة» أو كمال قال.

ومنهم من يتناولها ويتلبس بها ويحصلها بفضل نعمة الله عزَّ وجلَّ التي عنده من سعة الدنيا والمال، ويشكر الله عزَّ وجلَّ عليها.

ومنهم من لا يراها ولا يشعر بها، فهو أعمى عن ما سوى الله عزَّ وجلَّ، فلا يرى غيره، وأصم عما سواه فلا يسمع من غيره، عنده شغل عن النظر إلى غير محبوبه واشتهائه، فهو في معزل عما العالم فيه فإذا رأيته وقد دخل السوق فسألته عما رأى في السوق يقول ما رأيت شيئًا. نعم قد رأى الأشياء لكن قد رآها ببصر رأسه لا ببصر قلبه، ونظرة فجاءة لا نظرة شهوة، نظر صورة لا نظر معنى، نظر الظاهر لا نظر الباطن، فبظاهره ينظر إلى ما في السوق وبقلبه ينظر إلى ربه عزَّ وجلَّ، إلى جلاله تارة وإلى جماله تارة أخرى.

ومنهم من إذا دخل السوق امتلأ قلبه بالله عزَّ وجلَّ رحمة لهم، فتشغله الرحمة لهم عن النظر إلى ما لهم وبين أيديهم فهو من حين دخوله إلى حين خروجه في الدعاء والاستغفار والشفاعة لأهله والشفقة والرحمة عليهم ولهم، وعينه مغرورقة ولسانه

في ثناء وحمد لله عزَّ وجلَّ بما أولى الكافة من نعمه وفضله فهذا يسمى شحنة البلاد والعباد، وإن شئت سميته عارفًا وبدلًا وزاهدًا وعالمًا غيبًا وبدلًا محبوبًا مرادًا ونائبًا في الأرض على عباده، وسفيرًا وجهبذًا ونفاذًا وهاديًا ومهديًا ودالًا ومرشدًا فهذا هو الكبريت الأحمر وبيضة العقعق، رضوان الله عليه وعلى كل مؤمن مريد لله وصل إلى انتهاء المقام، والله الهادي.

المقالة الثالثة والسبعون

في قسم من الأولياء قد يطلعه الله على عيوب غيرهم

قال رضي الله عنه وأرضاه: قد يطلع الله تعالى وليّه على عيوب غيره وكذبه ودعوته وشركه في أفعاله وأقواله وإضماره ونيته، فيغار ولي الله لربه ولرسوله ودينه فيشتد غضب باطنه ثم ظاهره حاضرًا وغائبًا، كيف يدعي السلامة مع العلل والأوجاع الباطنة والظاهرة؟ وكيف يدعي التوحيد مع الشرك، والشرك كفر وبعد عن قرب الله وهو صفة العدو والشيطان اللعين، والمنافقين المقطوع لهم بالدرك الأسفل من النار والخلود فيها فيجري على لسان الولي ذكر عيوبه وأفعاله الخبيثة ووقاحته بعريض دعاويه أحوال الصديقين ومزاحمته للفانين في قدر الله وفعله، والمراد من على وجه الغيرة لله عزَّ وجلَّ، مرة على وجه الإنكار له والموعظة له أخرى، وعلى وجه الغلبة بفعل الله عزَّ وجلَّ وإرادته وشدة غضبه على الكذب أخرى فيضاف إلى الله عزَّ وجلَّ غيبة، فيقال أيغتاب الولي وهو يمنع منها أو يذكر الغائب والحاضر بما يظهر عند الخواص والعوام؟ فيصير ذلك الإنكار في حقهم كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢١٩] في الظاهر إنكار المنكر وفي الباطن إسخاط الرب والاعتراض عليه فيصير حاله الخيرة، فيكون فرضه فيها السكوت والتسليم وطلب المساعي لذلك في الشرع، والجواز لا الاعتراض على الرب والولي يطعنان لافترائه وكذبه، وقد يكون ذلك سببًا لإقلاعه وتوبته ورجوعه عن جهله وحيرته، فيكون كرهًا للولي نفعًا للمغرور الهالك بغروره ورعونته. ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢١٣].

المقالة الرابعة والسبعون

فيما ينبغي للعاقل أن يستدل به على وحدانية الله تعالى

قال رضي الله عنه وأرضاه: أول ما ينظر العاقل في صفة نفسه وتركيبه ثم في جميع المخلوقات والمبدعات فيستدل بذلك على خالقها ومبدعها، لأن فيه

دلالة على الصانع وفي القدرة المحكمة آية على الحكيم؛ فإن الأشياء كلها موجودة به.

وفي معناه ما ذكر عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجَاثيَة: الآية ١٣] فقال في كل شيء اسم من أسمائه واسم كل شيء من اسمه، فإنما أنت بين أسمائه وصفاته وأفعاله، باطن بقدرته وظاهر بحكمته، ظهر بصفاته وبطن بذاته حجب الذات بالصفات وحجب الصفات بالأفعال، وكشف العلم بالإرادة وأظهر الإرادة بالحركات، وأخفى الصنع والصنيعة وأظهر الصنعة بالإرادة، فهو باطن في غيبه وظاهر في حكمته وقدرته ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية ١١].

ولقد أظهر في هذا الكلام من أسرار المعرفة ما لا يظهر إلا من مشكاة فيها مصباح، أمره برفع يد العصمة اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل، أنالنا الله تعالى بركاتهم وحشرنا في زمرتهم وحرمتهم آمين.

المقالة الخامسة والسبعون

في التصوّف وعلى أيّ شيء مبناه

قال رضي الله تعالى عنه وأرضاه: أوصيك بتقوى الله وطاعته، ولزوم ظاهر الشرع وسلامة الصدر، وسخاء النفس، وبشاشة الوجه، وبذل الندى، وكف الأذى، وتحمل الأذى والفقر، وحفظ حرمات المشايخ والعشرة مع الإخوان، والنصيحة للأصاغر والأكابر، وترك الخصومة. والإرفاق، وملازمة الإيثار ومجانبة الإدخار، وترك صحبة من ليس من طبقتهم، والمعاونة في أمر الدين والدنيا.

وحقيقة الفقر أن لا تفتقر على من هو مثلك وحقيقة الغنى أن تستغني عمن هو مثلك.

والتصوف ليس أخذ عن القيل والقال ولكن أخذ عن الجوع وقطع المألوفات والمستحسنات، ولابتداء الفقير بالعلم وإبدائه بالرفق، فإن العلم يوحشه والرفق يؤنسه.

والتصوف مبني على ثمانِ خصال (السخاء) لسيدنا إبراهيم عليه السلام (والرضا) لإسحٰق عليه السلام (والصبر) لأيوب عليه السلام (والإشارة) لزكريا عليه السلام (والغربة) ليحيىٰ عليه السلام (والتصوف) لموسىٰ عليه السلام (والسياحة) لعيسى عليه

السلام (والفقر) لسيدنا ونبينا محمد ﷺ وعلى إخوانه من النبيين والمرسلين وآل كل وصحب كل وسلم أجمعين.

المقالة السادسة والسبعون

في الوصية

قال رضي الله عنه وأرضاه: أوصيك أن تصحب الأغنياء بالتعزز، والفقراء بالتذلل، وعليك بالتذلل والإخلاص، وهو دوام رؤية الخالق، ولا تتهم الله في الأسباب واستكن إليه في جميع الأحوال، ولا تضع حقّ أخيك اتكالاً على ما بينك وبينه من المودة.

وعليك بصحبة الفقراء بالتواضع وحسن الأدب والسخاء، وأمت نفسك حتى تحيي، وأقرب الخلق من الله تعالى أوسعهم خلقًا، وأفضل الأعمال: رعاية السر عن الالتفات إلى ما سوى الله تعالى.

وعليك بالحق والصبر، وحسبك من الدنيا شيئان: صحبة فقير وخدمة ولي، والفقير هو الذي لا يستغنى بشيء دون الله تعالى.

والصولة على من هو دونك ضعف، وعلى من هو فوقك فخر، وعلى من هو مثلك سوء خلق.

والفقر والتصوّف جدان فلا تخلطهما بشيء من الهزل، وفقنا الله وإياكم والمسلمين آمين.

يا وليّ عليك بذكر الله في كل حال فإنه للخير جامع. وعليك بالاعتصام بحبل الله فإنه للمضار دافع. وعليك بالتأهب لتلقي موارد القضاء فإنه واقع.

واعلم أنك مسؤول عن حركاتك وسكناتك، فاشتغل بما هو أولى في الوقت وإياك وفضول تصرفات الجوارح.

وعليك بطاعة الله ورسوله ومن والاه وأد إليه حقه ولا تطالبه بما يجب عليه، وادع في كل حال.

وعليك بحُسْن الظن في المسلمين وإصلاح النية لهم، وتسعى بينهم في كل خير، وأن لا تبيت ولأحد في قلبك شر ولا شحناء ولا بغض، وأن تدعو لمن ظلمك، وراقب الله عزَّ وجلّ.

وعليك بأكل الحلال، والسؤال لأهل العلم بالله فيما لا تعلم، وعليك بالحياء من الله سبحانه وتعالى.

واجعل صحبتك مع من الله معه واصحب من سوى الله بصحبته، وتصدق في كل صباح بقرصك وإذا أمسيت فصل صلاة الجنازة على كل من مات من المسلمين في ذلك اليوم وإذا صليت المغرب فصلاة الاستخارة وتقول بكرة وعشيًا سبع مرات «اللهم أجرنا من النار» وحافظ على قول أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾ [الحشر: الآية ٢٢] إلى آخر سورة الحشر، والله الموفق والمعين، إذ لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

المقالة السابعة والسبعون

في الوقوف مع الله والفناء عن الخلق

قال رضي الله عنه وأرضاه: كن مع الله عزّ وجلّ كأن لا خلق، ومع الخلق كأن لا نفس، فإذا كنت مع الله عزّ وجلّ بلا خلق وجدت، وعن الكل فنيت. وإذا كنت مع الخلق بلا نفس عدلت وبقيت ومن التبعات سلمت، واترك الكل على باب خلوتك، وادخل وحدك تر مؤنسك في خلوتك بعين سرك، وتشاهد ما وراء العيان، وتزول النفس ويأتي مكانها أمر الله وقربه، فإذن جهلك علم، وبعدك قرب، وصمتك ذكر، ووحشتك أنس.

يا هذا: ما ثم إلا خلق وخالق، فإذا اخترت الخالق فقل لهم ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشّعراء: الآية ٧٧].

ثم قال رضي الله عنه وأرضاه: من ذاق عرف، فقيل له: من غلبت عليه مرارة صفرته كيف يجد حلاوة الذوق؟ فقال: يتعمل في الشهوات من قبله بقصد وتكلف.

يا هذا: المؤمن إذا عمل صالحًا انقلبت نفسه قلبًا وأدرك مدركات قلب، ثم انقلب قلبه سرًا ثم انقلب الفناء فصار وجودًا وبقاء.

ثم قال رضي الله عنه وأرضاه: الأحباب يسعهم كل باب.

يا هذا: الفناء إعدام الخلائق، وانقلاب طبعك عن طبع الملائكة، ثم الفناء عن طبع الملائكة، ثم لحوقك بالمنهاج الأول، وحينئذٍ يسقيك ربك ما يسقيك، ويزرع فيك ما يزرع.

إن أردت هذا فعليك بالإسلام ثم الاستسلام، ثم العلم بالله ثم المعرفة ثم الوجود. وإذا كان وجودك له كان كلك له.

الزهد عمل ساعة، والورع عمل ساعتين والمعرفة عمل الأبد:

المقالة الثامنة والسبعون

في أهل المجاهدة والمحاسبة وأُولي العزم، وبيان خصالهم

قال رضي الله عنه وأرضاه: لأهل المجاهدة والمحاسبة وأُولي العزم عشر خصال جربوها، فإذا أقاموها وأحكموها بإذن الله تعالى وصلوا إلى المنازل الشريفة:

الأولى: أن لا يحلف بالله عزَّ وجلَّ صادقًا ولا كاذبًا عامدًا ولا ساهيًا، لأنه إذا أحكم ذلك من نفسه وعود لسانه رفعه ذلك إلى ترك الحلف ساهيًا وعامدًا، فإذا اعتاد ذلك فتح الله له بابًا من أنواره يعرف منفعة ذلك في قلبه، ورفعه في درجة وقوة في عزمه وفي صبره والثناء عند الإخوان، والكرامة عند الجيران حتى يأتم به من يعرفه ويهابه من يراه.

والثانية: يجتنب الكذب لا هازلًا ولا جادًا، لأنه إذا فعل ذلك وأحكمه من نفسه واعتاده لسانه شرح الله تعالى به صدره وصفا به علمه، كأنه لا يعرف الكذب، وإذا سمعه من غيره عاب ذلك عليه وعيره به في نفسه، وإن دعا له بزوال ذلك كان له ثواب.

الثالثة: أن يحذر أن يعد أحدًا شيئًا فيخلفه، ويقطع العدة البتة فإنه أقوى لأمره وأقصد بطريقه، لأن الخلف من الكذب فإذا فعل ذلك فتح له باب السخاء ودرجة الحياء وأعطى مودة في الصادقين ورفعه عند الله جل ثناؤه.

الرابعة: أن يجتنب أن يلعن شيئًا من الخلق، أو يؤذي ذرة فما فوقها، لأنها من أخلاق الأبرار والصديقين، وله عاقبة حسنة في حفظ الله تعالى في الدنيا مع ما يدخر له من الدرجات، ويستنقذ من مصارع الهلاك، ويسلمه من الخلق، ويرزقه رحمة العباد، ويقربه منه عزَّ وجلَّ.

الخامسة: أن يجتنب الدعاء على أحد من الخلق وإن ظلمه فلا يقطعه بلسانه. ولا يكافئه بقول ولا فعل، فإن هذه الخصلة ترفع صاحبها إلى الدرجات العلى. وإذا تأدب بها ينال منزلة شريفة في الدنيا والآخرة، والمحبة والمودة في قلوب الخلق

أجمعين من قريب وبعيد، وإجابة الدعوة والغلوة في الخلق، وعز في الدنيا في قلوب المؤمنين.

السادسة: أن لا يقطع الشهادة على أحد من أهل القبلة بشرك ولا كفر ولا نفاق، فإنه أقرب للرحمة، وأعلى في الدرجة وهي تمام السنة، وأبعد عن الدخول في علم الله، وأبعد من مقت الله وأقرب إلى رضاء الله تعالى ورحمته، فإنه باب شريف كريم على الله تعالى يورث العبد الرحمة للخلق أجمعين.

السابعة: أن يجتنب النظر إلى المعاصي ويكف عنها جوارحه، فإن ذلك من أسرع الأعمال ثوابًا في القلب والجوارح في عاجل الدنيا، مع ما يدخره الله له من خير الآخرة.

نسأل الله أن يمن علينا أجمعين ويعلمنا بهذه الخصال، وأن يخرج شهواتنا عن قلوبنا.

الثامنة: يجتنب أن يجعل على أحد من الخلق منه مؤنة صغيرة ولا كبيرة، بل يرفع مؤنته عن الخلق أجمعين مما احتاج إليه واستغنى عنه، فإن ذلك تمام عزة العابدين وشرف المتقين، وبه يقوي على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويكون الخلق عنده أجمعين بمنزلة واحدة، فإذا كان كذلك نقله الله إلى الغناء واليقين والثقة به عزَّ وجلَّ، ولا يرفع أحدًا سواه، وتكون الخلق عنده في الحق سواء، ويقطع بأن هذه أسباب عز المؤمنين وشرف المتقين، وهو أقرب باب الإخلاص.

التاسعة: ينبغي له أن يقطع طمعه من الآدميين، ولا يطمع نفسه فيما في أيديهم، فإنه العز الأكبر، والغنى الخاص، والملك العظيم، والفخر الجليل، واليقين الصافي، والتوكل الشافي الصريح وهو باب من أبواب الثقة بالله عزَّ وجلَّ، وهو باب من أبواب الزهد، وبه ينال الورع ويكمل نسكه، وهو من علامات المنقطعين إلى الله عزَّ وجلَّ.

العاشرة: التواضع لأن به يشيد محل العابد وتعلو منزلته، ويستكمل العز والرفعة عند الله سبحانه وعند الخلق، ويقدر على ما يريد من أمر الدنيا والآخرة وهذه الخصلة أصل الخصال كلها وفرعها وكمالها، وبها يدرك العبد منازل الصالحين الراضين من الله تعالى في السراء والضراء وهي كمال التقوى.

والتواضع: وهو أن لا يلقي العبد أحدًا من الناس إلا رأى له الفضل عليه، ويقول عسى أن يكون عند الله خيرًا من وأرفع درجة، فإن كان صغيرًا قال هذا لم

يعص الله تعالى وأنا قد عصيت فلا شك أنه خير مني، وإن كان كبيرًا قال هذا عبد الله قبلي، وإن كان عالمًا هذا أعطى ما لم أبلغ، ونال ما لم أنل، وعلم ما جهلت، وهو يعمل بعلمه وإن كان جاهلًا قال هذا عصى الله بجهل وأنا عصيته بعلم، ولا أدري بم يختم لي وبم يختم له، وإن كان كافرًا قال لا أدري عسى أن يسلم فيختم له بخير العمل، وعسى أكفر فيختم لي بسوء العمل، وهذا باب الشفقة والوجل «وأولى ما يصحب وآخر ما يبقى على العباد»، فإذا كان العبد كذلك سلمه الله تعالى من الغوائل، وبلغ به منازل النصيحة لله عزَّ وجلَّ وكان من أصفياء الرحمٰن وأحبائه، وكان من أعداء إبليس عدو الله لعنه الله وهو باب الرحمة ومع ذلك يكون قطع باب الكبر وجبال العجب، ورفض درجة العلو في نفسه في الدين والدنيا والآخرة، وهو مخ العبادة، وغاية شرف الزاهدين، وسيما الناسكين، فلا شيء منه فضل، ومع ذلك يقطع لسانه عن ذكر العالمين وما لا يعني، فلا يتم له عمل إلا به، ويخرج الغل والكبر والبغي من قلبه في جميع أحواله، وكان لسانه في السر والعلانية واحدًا، ومشيئته في السر والعلانية واحدة، وكلامه كذلك، والخلق عنده في النصيحة واحد، ولا يكون من الناصحين، وهو يذكر أحدًا من خلق الله بسوء أو يعيره بفعل، أو يحب أن يذكره عنده واحد بسوء. وهذه آفة العابدين، وعطب النساك، وهلاك الزاهدين إلا من أعانه الله تعالى وحفظ لسانه وقلبه برحمته وفضله وإحسانه.

تكملة في ذكر وصاياه لأولاده قُدِّست أسرارهم وبعض مقالات نافعة أوردها ومرضه ووفاته، رضي الله عنه وأرضاه

إنه رضي الله تعالى عنه وأرضاه لما مرض مرضه الذي مات فيه وقال له ابنه عبد الوهاب قدّس سرّه، أوصني يا سيدي بما أعمل به بعدك، فقال رضي الله عنه وأرضاه: عليك بتقوى الله عزَّ وجلَّ، ولا تخف أحدًا سوى الله، ولا ترج أحدًا سوى الله، وكل الحوائج إلى الله عزَّ وجلَّ، ولا تعتمد إلا عليه، واطلبها جميعًا منه تعالى، ولا تتكل على أحد غير الله سبحانه، التوحيد التوحيد جماع الكل.

وقال رضي الله عنه وأرضاه: إذا صح القلب مع الله عزَّ وجلَّ لا يخلو منه شيء ولا يخرج منه شيء.

وقال رضي الله عنه وأرضاه: أنا لب بلا قشر.

وقال رضي الله عنه لأولاده: أبعدوا من حولي فإني معكم بالظاهر ومع غيركم بالباطن.

وقال رضي الله عنه: قد حضر عندي غيركم فأوسعوا لهم وتأدبوا معهم، هٰهنا رحمة عظيمة، ولا تضيقوا عليهم المكان.

وكان رضي الله تعالى عنه يقول: عليكم السلام ورحمة الله وبركاته، غفر الله لي ولكم، تاب الله علي وعليكم، بسم الله غير مودعين. قال ذلك يومًا وليلة.

وقال رضي الله تعالى عنه: ويلكم أنا لا أبالي بشيء، لا بملك ولا بملك الموت، منح لنا من يتولانا سواك، وصاح صيحة عظيمة وذلك في اليوم الذي مات في عشيته رضي الله عنه.

وأخبر ولداه الشيخ عبد الرزاق والشيخ موسى قدست أسرارهما أن حضرة الغوث رضي الله عنه كان يرفع يديه ويمدها ويقول، وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته: توبوا وادخلوا في الصف إذا جيء إليكم.

وكان رضي الله عنه يقول: أوقفوا، ثم أتاه الحق وسكرة الموت.

وقال رضي الله عنه: بيني وبينكم وبين الخلق كلهم بعد ما بين السماء والأرض، فلا تقيسوني بأحد ولا تقيسونا على أحد، ثم سأله ولده الشيخ عبد العزيز قدّس سرّه عن ألمه وحاله فقال رضي الله عنه، لا يسألني أحد عن شيء، أنا أتقلب في علم الله عزّ وجلّ.

وقال رضي الله عنه وقد سأله ولده الشيخ عبد العزيز قدّس سرّه أيضًا عن مرضه، فقال رضي الله عنه: إن مرضي لا يعلمه أحد ولا يعقله أحد إنس ولا جن ولا ملك، ما ينقص علم الله بحكم الله، الحكم يتغير والعلم لا يتغير ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد: الآية ٣٩]، و﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٢٣] أخبار الصفات تمرّ كما جاءت.

وسأله ولده الشيخ عبد الجبار قدّس سرّه: ماذا يؤلمك من جسمك؟ فقال رضي الله عنه: جميع أعضائي تؤلمني إلا قلبي فما به ألم وهو مع الله عزّ وجلّ، ثم أتاه الموت فكان رضي الله عنه يقول: استعنت بلا إلـه إلا الله سبحانه وتعالى، والحي الذي لا يخشى الفوت، سبحان من تعزز بالقدرة وقهر عباده بالموت، لا إلـه إلا الله محمد رسول الله.

وأخبر ولده الشيخ موسى قدّس سرّه أنه قال: لما قربت وفاة حضرة الشيخ رضي الله عنه وأرضاه كان يقول: تعزز ولم يؤدها على الصحة فما زال يكررها حتى إذا قال تعزز ومد بها صوته وشدها حتى صاح لسانه، ثم قال الله الله الله ثم خفي صوته ولسانه ملتصق بسقف حلقه، ثم خرجت روحه الكريمة رضوان الله تعالى عليه.

في بيان تاريخ وفاته وولادته وكم له من العمر حين دخل بغداد وكم عاش قدّس الله سرّه ورضي عنه

فأما ولادته رضي الله عنه ففي عام أربعمائة وسبعين.

وأما وفاته رضي الله عنه في عام خمسمائة وأحد وستين.

وأما عمره رضي الله عنه فأحد وتسعون سنة.

ودخل بغداد، وله من العمر ثمانية عشر سنة.

ولله در بعضهم حيث جمع ذلك كله، يعني تاريخ الولادة والوفاة والعمر في بيت مفرد حيث قال:

إن بــاز الله ســلطــان الـرجــال جاء في عشق ومات في كمال

فعلى هذا كلمة (عشق) عددها بالجمل أربعمائة وسبعين، فهو تاريخ الولادة، وكلمة (كمال)، أحد وتسعون فهو قدر العمر.

وإذا ضمينا كلمة (عشق) مع كلمة (كمال) يكون الحاصل من العدد خمسمائة وأحد وستون، فهو تاريخ الوفاة، وكذا حققه في البهجة، وقلائد الجواهر، ونزهة الخاطر، والله أعلم.

في بيان تكملة نسب حضرة الغوث قُدِّس سرّه من والدته أيضًا رضي الله عنها

قد تقدم نسب حضرة المؤلف قدّس الله سرّه ورضي عنه وعنا به، الذي من جهة والده قدّس الله سرّه متصل بحضرة سيدنا أمير المؤمنين الحسن السبط رضي الله عنه.

وليعلم أيضًا أن نسبه الشريف متصل بحضرة سيد الشهداء أبي عبد الله الحسين رضي الله عنه، وذلك من جهة والدته الكريمة رضي الله عنها.

فكان الغرض من ذكر آخر الكتاب للمناسبة الواضحة وهي تقدم الذكور على الإناث طبعًا، وأن سيدنا الحسن رضي الله عنه أكبر سنًّا من حضرة سيدنا الحسين رضي الله عنه، ولأن يكون التأليف محصنًا مسورًا من أوله وآخره بالنسبين الشريفين.

وأيضًا حضرة الشيخ المشار إليه نسبه العالي له اتصال بحضرة خليفة رسول الله ﷺ ورفيقه في الغار أمير المؤمنين سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

فأقول وبالله العون ومنه التوفيق لأقوم طريق.

اعلم أن حضرة قطب العارفين الشيخ عبد القادر الكيلاني قدّس الله تعالى سرّه والدته الكريمة رضي الله عنها اسمها أم الخير، أمة الجبار فاطمة بنت السيد عبد الله الصومعي الزاهد ابن الإمام أبي جمال الدين السيد محمد، ابن الإمام السيد محمود ابن الإمام السيد أبي العطاء عبد الله، ابن الإمام السيد كمال الدين عيسى، ابن الإمام السيد أبي علاء الدين محمد الجواد رضي الله عنه، ابن الإمام الهمام علي الرضى

رضي الله عنه، ابن الإمام الهمام موسى الكاظم رضي الله عنه، ابن الإمام الهمام جعفر الصادق رضي الله عنه، ابن الإمام الهمام محمد الباقر رضي الله عنه، ابن الإمام الهمام زين العابدين رضي الله عنه؛ ابن الإمام الهمام سيد شباب أهل الجنة وقرة أعين أهل السنة سيد الشهداء أبي عبد الله الحسين رضي الله عنه وعنا به آمين.

وأما اتصال النسب العالي بسيدنا أمير المؤمنين أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

فهو أن حضرة والدة والد حضرة الغوث المشار إليه قدّس سرّه اسمها أم سلمة رضي الله عنها (كريمة) الإمام محمد رضي الله عنه ابن الإمام طلحة رضي الله عنه، ابن الإمام عبد الله رضي الله عنه، ابن الإمام عبد الرحمٰن رضي الله عنه ابن حضرة الإمام أمير المؤمنين سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه ورضي عنا به آمين.

وأما اتصال النسب العالي بحضرة سيدنا ذي النورين أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه.

فهو أن سيدنا عبد الله المحض الجد التاسع لحضرة الغوث المشار إليه لقب (بالمحض) لأن لفظ محض يطلق على الخالص من كل شيء (وسيدنا) عبد الله المشار إليه نسبه الشريف خالص من الموالي من جهة الأم والأب فلقب به لأن أباه سيدنا الحسن المثنى ابن سيدنا الحسن السبط رضي الله عنه ابن الإمام سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي عنهم أجمعين (وأمه) فاطمة رضي الله عنها، بعد وفاة أبيه، تزوجها السيد عبد الله بن المظفر رضي الله عنه، ابن عمر رضي الله عنه وابن أمير المؤمنين سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وأما اتصال النسب العالي بسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

فاعلم أن عبد الله بن المظفر المتقدم ذكره والدته الكريمة اسمها (حفصة) رضي الله عنها (كريمة) سيّدنا عبد الله رضي الله عنه، ابن سيّدنا عمر رضي الله عنه، فعلى هذا يكون هذا النسب الشريف له اتصال بسيّدنا الصديق وبسيّدنا الفارق وبسيّدنا ذي النورين، وبساداتنا الحسنين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

وأما بيان سلسلة طريقته الشريفة المتصلة إلى النبي ﷺ فهو أن حضرة المشار إليه تلقن الذكر الشريف، وبعد تخلف ولبس الخرقة القادرية العلية من شيخه ومرشده، العارف بالله تعالى الشيخ أبي سعيد المبارك بن علي المخزومي رضي الله عنه.

وبعد أن تولى حضرة الغوث درجة القطبية حضرة الشيخ أبي سعيد أيضًا تخلف وليس من حضرة الغوث المشار إليه قدست أسرارهما (وشيخهما في الخرقة) شيخ الإسلام العارف بالله تعالى الشيخ أبو الحسن علي بن يوسف القرشي الهكاري رضي الله عنه (وهو لبس الخرقة من شيخه) العارف بالله الشيخ أبي الفرج الطرسوسي رضي الله عنه (وهو لبس الخرقة من شيخه) العارف بالله الشيخ أبي بكر دلف بن جحدر الشبلي رضي الله عنه (وهو لبس الخرقة من شيخه) العارف بالله الشيخ أبي القاسم الجنيدي ببغدادي رضي الله عنه (وهو لبس الخرقة من شيخه) العارف بالله الشيخ سري الدين السقطي رضي الله عنه (وهو لبس الخرقة من شيخه) العارف بالله الشيخ أبي محفوظ معروف الكرخي رضي الله عنه (وهو لبس الخرقة من شيخه) العارف بالله الشيخ داود الطائي رضي الله عنه (وهو لبس الخرقة من شيخه) العارف بالله الشيخ حبيب العجمي رضي الله عنه (وهو لبس الخرقة من شيخه) العارف بالله الشيخ حسن البصري رضي الله عنه عن حضرة شيخه ومرشده سيدنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه عن حضرة سيد المرسلين ورسول رب العالمين سيدنا ونبينا محمد المصطفى ﷺ وشرف وكرم ومجد وعظم.

وأما بيان أولاده رضي الله عنه فهم الشيخ عبد الوهاب والشيخ عبد الرزاق والشيخ عبد العزيز والشيخ عبد الجبار والشيخ عبد الغفور والشيخ عبد الغني والشيخ صالح والشيخ محمد والشيخ موسى والشيخ عيسى والشيخ إبراهيم والشيخ يحيى وهو أصغرهم وكريمته أمة الجبار العلوية فاطمة قدست أسرارهم أجمعين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هذه عقيدة الباز الأشهب قُدِّس سرّه

الحمد لله الذي كيّف الكيف وتنزّه عن الكيفية، وأين الأين، وتعزّز عن الأينية، ووجد في كل شيء وتقدس عن الظرفية، وحضر عند كل شيء وتعالى عن العندية، فهو أول كل شيء وليس له آخرية.

وإن قلت أين فقد طالبته بالأينية، وإن قلت كيف فقد طالبته بالكيفية، وإن قلت متى فقد زاحمته بالوقتية، وإن قلت ليس فقد عطلته عن الكونية، وإن قلت لو فقد قابلته بالنقصية وإن قلت لم فقد عارضته في الملكوتية.

سبحانه وتعالى لا يسبق بقبلية ولا يلحق ببعدية، ولا يقاس بمثلية ولا يقرن بشكلية؛ ولا يعاب بزوجية ولا يعرف بجسمية.

سبحانه وتعالى لو كان شبحًا لكان معروف الكمية، ولو كان جسمًا لكان متألف البنية، بل هو واحد ردًّا على البنوية، صمد ردًّا على الوثنية، لا مثل له طعنًا على الحشرية؛ لا كقوله ردًا على من ألحد بالوصفية، لا يتحرك متحرك في خير أو شر أو سر أو جهر في بر أو بحر إلا بإرادته ردًّا على القدرية، لا تضاهي قدرته ولا تتناهى حكمته تكذيبًا للهذلية، حقوقه الواجبة وحجته البالغة، ولا حق لأحد عليه إذا طالبه نقضًا لقاعدة النظامية، عادل لا يظلم في أحكامه، صادق لا يخلف في إعلامه متكلم بكلام قديم أزلي لا خالق لكلامه.

أنزل القرآن فأعجز الفصحاء في نظامه إرغامًا لحجج المرادية، يستر العيوب ربنا ويغفر الذنوب لمن يتوب، فإن امرؤ إلى ذنبه عاد فالماضي لا يعاد محضًا للبشر، تنزه عن الزيف وتقدس عن الحيف.

وتؤمن أنه ألف بين قلوب المؤمنين، وأنه أضل الكافرين ردًّا على الهشامية.

ونصدق أن فساق هذه الأمة خير من اليهود والنصارى والمجوس ردًا على الجعفرية.

ونقر أنه يرى نفسه ويرى غيره، وأنه سميع بكل نداء، بصير بكل خفاء، ردًا على الكعبية.

خلق خلقه في أحسن فطرة، وأعادهم بالغناء في ظلمة الحفرة، وسيعيدهم كما بدأهم أول مرة ردًا على الدهرية، فإذا جمعهم ليوم حسابه يتجلى لأحبابه فيشاهدونه بالبصر يرى كالقمر، لا يحجب إلا من أنكر الرؤيا من المعتزلة، كيف يحجب عن أحبابه أو يوقفهم دون حجابه وقد تقدمت مواعيده القديمة الأزلية: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ [الفجر: الآيتان ٢٧، ٢٨].

أترى ترضى من الجنان بحورية؟ أم تقنع من البستان بالحلل السندسية؟

كيف يفرح المجنون بدون ليلى العامرية؟ كيف يرتاح المحبون بغير النفحات العنبرية؟ أجساد أذيبت في تحقيق العبودية كيف لا تتنعم بالمقاعد العندية؟ أبصار سهرت في الليالي الديجورية؟ كيف لا تتلذذ بالمشاهدة الأنسية؟ وألباب عذبت باللبانات الحبية، كيف لا تشرب من المدامة الربية؟ وأرواح حبست في الأشباح الحسية، كيف لا تسرح في الرياض القدسية وترتع في مراتعها العلية، وتشرب من مواردها الروية، وتنهي ما بها من فرط شوق ووجد شرح الحال عن تلك الشكية ويبرز حاكم العشاق جهرًا ويفصل عن تلك القضية.

إذا خوطبت عند التلاق لمولاها ابتدأها بالتحية، فيأمرها إلى جنات عدن فتأبى أنفسًا منها أبية، وتقسم فيه أن لا نظرت سواه ولا عقدت لسواه نية، ولا رضيت من الأكوان شيئًا ولا كانت مطالبها دنية، فما هجرت لذيذ العيش إلا لتحظى منه بالصلة السنية، ويسقيها مدير الراح كأسًا صفاه من صفو صفواته هنية.

إذا أدبرت على الندماء جهرًا حفت بالبواكر والعشية، تزيدهم ارتياحًا واشتياقًا إلى أنوار طلعته البهية.

وحقك إن عينًا لن تريها جمالك فإنها عين شقية، قتلت بحسنك العشاق جمعًا بحق هواك رفقًا بالرعية، قلوب تذوب إليك شوقًا ولم يبق الهوى منها بقية، فإن أقضي وما قضيت قصدي فإني من هواك على وصية، ولست بآيس عند التلاقي يا إلهي بأن تمحو عواطفك الخطية.

كيف يكون الرد يا إخواني وفي الأسحار أوقات ربانية، وإشارات سماوية، ونفحات ملكية؟ والدليل على صدق هذه القضية: غناء الأطيار في الأشجار بالألحان الداودية، وتصفيق الأنهار المنكسرة في الرياض الروضية، ورقص الأغصان بالحلل السندسية، من الجنة كل ذلك إذعانًا واعترافًا له بالوحدانية.

ألا يا أهل المحبة إن الحق يتجلى في وقت السحر، وينادي هل من تائب فأتوب عليه توبة مرضية؟ هل من مستغفر فأغفر له الخطايا بالكلية؟ هل من مستعط فأجز له النعم والعطية؟

ألا وإن الأرواح إذا صفت كانت ببهجته مشرقة مضية وتساوت في الأحوال وهان عليها كل رزية.

لا جرم أن رائحة دموعهم في الآفاق عطرية، ويصبرهم على بعض الهجر استحقوا الوصل من المراتب العلية، وصحة أحاديثهم في طبقات المحبين مسندة مروية، وراحوا من غير سؤال حاجاتهم مقضية، هدية الحب قد أصبحت واضحة جلية، فيا لها من قواف بهية، وعقيدة سنية، على أصول مذاهب الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية عصمني الله تعالى وإياكم من الذين فرقوا فمرقوا كما يمرق السهم من الرمية، وجعلني وإياكم من الذين لهم غرف من فوقها غرف مبنية.

وصلّى الله على سيدنا محمد أشرف البرية، وعلى آله وأصحابه وخصهم بأشرف التحية، وسلم تسليمًا كثيرًا دائمًا، متجددًا مترادفًا في كل بكرة وعشية، والحمد لله رب العالمين.

وهذه القصيدة العينية
من نظم القطب الغوث الرباني
سيدي عبد القادر الجيلاني

فؤاد به شمس المحبة طالع ... وليس لنجم العذل فيه مواقع
صحا الناس من سكر الغرام وما صحا ... وأفرق كل وهو في الحان جامع
حميا هواه غير قهوة غيره ... مدام دوامًا تقتنيها الأضالع
هوى وصبابات ونار محبة ... وتربة صبر قد سقتها المدامع
أولع قلبي من زرود بمائه ... ويا ولهي كم مات ثمة والع
ولي مطمع بين الأجارع عهده ... قديم وكم خابت هناك المطامع

أيا زمن الرند الذي بين لعلع تقضي لنا هل أنت يا عصر راجع
لقد كان لي في ظل جاهك مرتع هني ولي بالرقمتين مراتع
أجرّ ذيول اللهو في ساح اللقا وأجني ثمار القرب وهي أيانع
وأشرب كأس الوصل راحًا براحة تصفق بالراحات منها الأصابع
تصرم ذاك العمر حتى كأنني أعيش بلا عمر وللعيش مانع
مذ اغبرّ خضر العيش وابيض لمّتي تسود صبحي فالدموع فواقع
وشرب من الغزلان فبهن فتية لنا هن في سقط الغرير رواتع
عفرن بدورًا مذ قلمنا عقاربا من الشعر خلنا أنهن براقع
رعى الله تلك السرب لي ورعى الحمى ولا صنعت سربا وأي صنائع
صليت بنار أضرمنها ثلاثة غرام وشوق والديار الشواسع
يخيل لي أن العذيب وماءه منام ومن فرط الغرام الأرجارع
فلا نار إلا ما فؤادي محله وما السحر إلا ما الجفون تدافع
ولا وجد إلا ما أقاسيه في الهوى ولا موت إلا ما إليه أسارع
فلو قيس ما قاسيته بجهنم من الوجد كانت بعض ما أنا جارع
جفوني بها نوح فطوفانها الدما وتوحي رعد والزفر اللوامع
وجسمي به أيوب قد حل للبلا وإن مسني ضر فما أنا جازع
وما نار إبراهيم إلا كجمرة من الجمرات اللت حوتها الأضالع
فسرى في بحر الصبابة يونس تلقمه حوت الهوى وهو خاشع
وكم في فؤادي من شعيب كآبة تشعب إذ شطت مزارًا مرائع
حكى زكريا وهن عظمى من الضنا أيحيئ اصطباري وهو في الموت واقع
أبا يوسف الدنيا لفقدك في الحشا من الحزن يعقوب فهل أنت راجع
أتينا تجار الذل نحو عزيزكم وأرواحنا المزجاة تلك البضائع
فإن تك عطفًا أنت أهل لأهله أما إن يكن عون العذيب موانع
تحكم بما تهواه في فإنني فقير لسلطان المحبة طائع
فكل الذي يقضيه في رضاكم مرامي وفوق القصد ما أنت صانع
حبيبتك لا لي بل لأنك أهله ولا لي في شيء سواك مطامع
فصل إن ترد أودع وعد عن اللقا وأوعد وعد وعدًا فما أنا قانع

تمكن مني الحب فامتحق الحشى وأتلفني الوجد الشديد المنازع
وأشغلني شغلي بها عن سوائها وأذهلني عن الهوى والجوامع
وقد فتكت روحي بقارعة الهوى وأفنيت عن نحوي بما أنا فارع
تلذ لي الآلام إذ أنت مسقمي وإن تمتحني فهي عندي صنائع
فقام الهوى عندي مقامي فكنته وغيبت عن كوني فعشقي جامع
غرامي غرام لا يقاس بغيره ودون هيامي للمحبين مانع
فؤادي والتبريح للروح لازم وسقمي والآلام للجسم تابع
وبعدي وأشجاني وشوقي ولوعتي لجوهر ذاتي في الغرام طبائع
وشوقي نار والهوى فهو الهوى وتربى والما وذلتي والمدامع
يلوم الورى نفسي لفرط جنونها وليس بأذني للملامة سامع
ومذ أودعت أحشائي حبك إنني لسهم قسى النائبات مواقع
وما لي إن حل البلاء التفاتة وما لي إن جاء النعيم مراتع
ولا أن من يسلو ببعض غرائب عن البعض بل بالكل ما أنا قانع
وشوقي ما شوقي وقيت فإنه جحيم له بين الضلوع فراقع
وبي كمد لو حملته جبالها لدكت برضواها وهدت صوامع
يخيل لي أن السماء على الثرى طباقًا وأني بين ذلك واقع
ولي كبد حراء من جزع بها عليك ولم تبرد عليك مصالع
ونفسي نفس أي نفس أبية ترى الموت نصب العين وهي تسارع
فهمي وفهمي ذا عليك وفيك ذا وجدي ووجدي زائد ومتابع
وعزمي زعمي أنه فوق كلما تراءى ودمعي إنما هو نافع
تسامر عيني السها لسهادها وتسأل بل ما سال إلا المدامع
ويطرق منك الطيف جفن بغيتي وكم زاره طيف وما هو هاجع
يخبرني عنك الصبا وهو جاهل فتلتذ من أخباركم والمسامع
إذ زمزمت ورق على غصن بانة وجاوب قمري على الأيك ساجع
فأُذني لم تسمع سوى نغمة الهوى ومنكم فإني لا من الطير سامع
وعن أي أمن كان إن هب ضائع لكم فيه من عطر الغرام بضائع
وإن زجر الرعد الحجازي بالصفا وأبرق من شعبي جياد لوامع

يصور لي الوهم المخيل أن ذا ثناك وهذا من ثناياك ساطع
فأسمع عنكم كل أخرس ناطقًا وأشهدكم في كل شيء مواقع
إذا شاهدت عيني جمال ملاحة فما نظري إلا بعينك واقع
وما هز من غصن فتى تحت طلعه من البدر أبدت ما خفتها الأضالع
ولا سلسلت أعناقها بغرامها تصافيق جهد خطهن وقائع
ولا نقطت خال الملاحة بهجة على وجنة إلا وحرفك طالع
فأنت الذي لي فيه يظهر حسنه به لا بنفسي ما له من ينازع
وإن حس جلدي من كثيف خشونة فلي فيه من ألطاف حسنك دارع
تخذتك وجهًا والأنام بطانة فأنجمهم غابت وشمسك طالع
فديني وإسلامي وتقواي إنني بحبك فإن لائتمارك طائع
إذا قيل قل لا قلت غير جمالها وإن قيل إلا قلت حسنك شائع
أصلي إذا صلى الأنام وإنما صلاتي بأني لاعتزازك خاضع
أكبر في التحريم ذاتك عن سوى وباسمك تسبيحي إذا أنا خاشع
أقوم أصلي أي أقوم على الوفا بأنك فرد واحد الحسن جامع
وقرأ من قرآن حسنك آية فذلك قرآني إذا أنا راكع
فأسجد كي أفنى وأفنى عن الفنا وأسجد أخرى والمتيم والع
وقلبي مذا أبقاه حسنك عنده تحياته منكم إليكم تسارع
صيامي هو الإمساك عن رؤية السوى وفطري أني نحو وجهك راكع
وبذلي نفسي في هواك صبابة زكاة جمالي منك في القلب ساطع
أرى مرج قلبي مع وجودي جنابة فماء طهوري أنت والغير مانع
أيا كعبة الآمال وجهك حجتي وعمرة نسكي إنني فيك والع
وتجريد نفسي من مخيط ثيابها بوصل وإحرام عن الغير قاطع
ويلتذ مني أن أدلك مهجتي لما منك في دار من الحسن مانع
كأن صفاة منك تدعو إلى العلا فلبت بقلبي فاستبانت شواسع
فتركي لطيبي والنكاح فإن ذا صفاتي وذا ذاتي فهن موانع
وإعفاء حلق الرأس ترك رئاستي وشرط الهوى أن المتيم خاضع
إذا ترك الحجاج تقليم ظفرهم تركت من الأفعال ما أنا صانع

وكنت كآلات وأنت الذي بها تصرف بالمقدور ما هو واقع
وما أن جبري لعقيدة أنني مُجبٌ فني فيمن حوته الأضالع
فها أنا في تطواف كعبة حسنها أدور ومعنى الدور أني راجع
ومذ علمت نفسي طوافك سبعة فأعداد تطوافي جمال سوابع
أقبلي خال الحسن والحجر الذي لنا من قديم العهد فيه ودائع
ومعناه أن النفس فيها لطيفة بها تقبل الأوصاف والذات شائع
وأستسلم الركن اليماني إنه به نفس الرحمٰن والنفس سالع
وأختم تطواف الغرام بركعة من المحو عما أحدثته الطبائع
ترى هل لموسى القلب في زمزم اللقا مراضع لا حرمت تلك المراضع
فيذهب وصفي في صفات صفاتكم ليسعى لمرو الذات وهي تسارع
وليس الصفاء إلا الصفاء ومروة بأني على تحقيق حقي صادع
وما القصر إلا عن سواكم حقيقة وما الحلق إلا ترك ما هو قاطع
ولا عرفات الوصل إلا جنابكم فطوبي لمن في حضرة القرب يانع
على علمي معناك ضدان جمعا ويا لهفي ضدان كيف التجامع
بمزدلفات في طريق غرامكم عوائق من دون اللقا وقواطع
فإن حصل الإشعار في زمزم اللقا وساعد جذب العزم فالفوز واقع
على مشعر التحقيق عظمت في الهوى تبيعا بحكم أصلته الشرائع
وكم من منى لي في منى حضراتكم ويا حسرتي إن المحسر شاسع
رميت جمار النفس في الروح فانثنت جهنمها ماء وصاحت ضفادع
وأبدل رضوان بمالك وأنبتت بها شجر الجرجير والغصن يانع
فقاضت على ذاتي ينابيع وصفها وناهيك صرف الحق تلك الينابع
وطفت طوفًا للإفاضة بالحمى وقمت مقامًا للخليل أتابع
فمكنت من ملك الغرام وها أنا مليك وسيفي في الصبابة قاطع
وحققت علمًا واقتدارًا جميع ما تضمنه ملكي وما لي منازع
ولما قضينا النسك من حجة الهوى وتمت لنا من حي ليلى بدائع
حثثنا مطايا العزم نحو محمد وطفنا وداعًا والدموع هوامع
وجبنا بتهنئة النفوس مفاوزًا سباسب فيها الرجال مصارع

حمى درست في العالمين طريقه فعزوكم قد خاب في العز طامع
محل بحال القرب حالت رسومه وأرج منيع دونه البرق لامع
ينكس رأس الريح عند ارتفاعه فكم زال عنه السحب والغيث هامع
حوى تحته بهرام في الأوج ساجدا وكيوان من فوق السمٰوات راكع
فكم رامح مذرامه صار أعزلا وفي قلبه من عقرب الفقر لاذع
سريت به والليل أدجى من العمى على باذل أفديه ما هو طائع
يجوب الفلا جوب الصواعق في الدجا ويرحل عن مرعى الكلا وهو جائع
وإن مر بعد العسر بالماء إنه على ظمأ من ذاك باليسر قانع
هي النفس نعمت مركبًا ومطية فليس لها دون المرام موانع
فيا سعد إن رمت السعادة فاغتنم فقد جاء في نظم البديع بدائع
مفاتيح أقفال القلوب أتتك في خزائن أقوالي فهل أنت سامع
أكشفت عن أسرار الشريعة فانحها فما وضعت إلا لتلك شرائع
وها أنا ذا أخفي وأظهر تارة رمز الهوى ما السر عندي ذائع
وإياك أعني واسمعني جارتي وما يصرح إلا جاهل أو مخادع
ولكنني آتيك بالبدر أبلجا وأخفيه أخرى كي تصان الودائع
خذا الأمر بالإيمان من فوق أوجه ونازع إذا نفسًا أتتك تنازع
فللمرء في التنزيل أو في أدلة ولكن قلبي في الحقيقة والع
وفي السنة الزهراء كل عبارة بها من إشارات الغرام وقائع
فإن كنت فيمن ما له يد ماجد سوى أن بتصريح التشكل قانع
سأنشي روايات إلى الحق أسندت وأضرب أمثالًا بما أنا واضع
وأوضح بالمعقول سر حقيقة لمن هو ذو قلب إلى الحق راجع
تجلى حبيبي مراني جماله ففي كل مرأى للحبيب طلائع
فلما تبدى حسنه متنوعًا تسمى بأسماء فهن مطالع
وأبرز منه فيه آثار وصفه فذالكم آثار من هو صانع
فأوصافه والاسم والأثر الذي هو الكون عين الذات والله جامع
فما ثم من شيء سوى الله في الورى وما ثم مسموع وما ثم سامع
هو العرش والكرسي والمنظر العلي هو السدرة اللاتي إليها المراجع

هو الأصل حقًّا والرسوم مع الهوى ... هو الفلك الدوار وهو الطبائع
هو النور والظلمات والماء والهوى ... هو العنصر الناري وهو الطبائع
هو الشمس والبدر المنير مع السها ... هو الأفق وهو النجم وهو المواقع
هو المركز الحكمي والأرض والسما ... هو المظلم العتام وهو اللوامع
هو الدار وهو الحي والأثل والغضا ... هو الناس والسكان وهو المرابع
هو الحكم والتأثير والأمر والقضا ... هو العز والسلطان والمتواضع
هو اللفظ والمعنى وصورة كلما ... يجول من المعقول أو هو واقع
هو الجنس وهو النوع والفصل إنه ... هو الواجب الذاتي والمتمانع
هو العرض الطاري نعم وهو جوهر ... هو المعدن الصلدي وهو الموالع
هو الحيوان الحي وهو حياته ... هو الوحش والإنسي وهو السواجع
هو القيس بل ليلى وهو بثينة ... أجل نشرها والخيف وهو الأرجاع
هو العقل وهو النفس والقلب والحشا ... هو الجسم وهو الروح والمتدافع
هو الموجد الأشيا وعين وجودها ... وعين ذوات الكل وهو الموانع
بدت في نجوم الخلق أنوار شمسه ... فلم يبق حكم النجم والشمس طالع
حقائق ذات في مراتب حقه ... تسمى باسم الخلق والخلق واسع
وفي فيه روحي نفحت كناية ... هل لروح إلا عينه يا منازع
ونزّهه عن حكم الحلول فما له ... سوى وإلى توحيده الأمر راجع
فيا أحدي الذات في عين كثرة ... ويا موجد الأشياء ذاتك شائع
تجليت في الأشياء حين خلقتها ... فها هي ميطت عنك فيها البراقع
قطعت الورى من ذات نفسك قطعة ... ولم يك موصولًا ولا فصل قاطع
ولكنما أحكام رتبتك اقتضت ... ألوهية للضد فيك التجامع
فأنت الورى حقًّا وأنت إمامنا ... وأنك ما يعلو وما هو واضع
وما الخلق في التمثال إلا كثلجة ... وأنت بها الماء الذي هو نابع
فما الثلج في تحقيقنا غير مائه ... وغير أن في حكم دعته الشرائع
ولكن يذوب الثلج يرفع حكمه ... ويوضع حكم الماء والأمر واقع
تجمعت الأضداد في واحد البها ... وفيه تلاشت فهو عنهن ساطع
فكل بهاء في ملاحة صورة ... على كل قد شابه الغصن يانع

وكل اسوداد في تصافيق طرة وكل احمرار في الطلائع صانع
وكل كحيل الطرف يقتل صبه بماض كسيف الهند حال مضارع
وكل اسمرار في القوائم كالقنا عليه من الشعر الوسيم شرائع
وكل مليح بالملاحة قد زها وكل جميل بالمحاسن بازع
وكل لطيف جل أو دق حسنه وكل جليل وهو باللطف صادع
محاسن من أنشاه ذلك كله فوحد ولاتشرك به فهو واسع
وإياك لا تلفظ بغيرية إليها فما ثم غير وهو بالحسن بادع
وكل قبيح إن نسبت لحسنه أتتك معاني الحسن فيه تسارع
ولا تحسبنّ الحُسْن ينسب وحده إليه البها والقبح بالذات راجع
يكمل نقصان القبيح جماله وما ثم نقصان ولا ثم بانع
ويرفع مقدار الوضيع جلاله إذا لاح فيه فهو للوضع رافع
فلا تحتجب عنه لشيء بصورة فخلف حجاب العين للنور لامع
وأطلق عنان الحق في كل ما ترى فتلك تجليات من هو صانع
لقد خلق الأرضين بالحق ورسما كذا جاء في القرآن إن أنت سامع
وما الحق إلا الله لا شيء غيره فثم شذاه فهو في الخلق ضائع
وشاهده حقًّا فيك منك فإنه هويتك اللاتي بها أنت دالع
ففي أينما حقًّا تولوا وجوهكم فما ثم إلا الله هل من يطالع
فبع منك نفسًا بالإله وكنهه تكون كما إن لم تكن وهو صادع
ودع عنك أوصافًا بها كنت عارفًا لنفسك فيها للإله ودائع
وشاهد بوصف الحق نفسك أنت هو ولا تلتبس للحق ما أنت خاضع
وكن باليقين الحق للخلق جاحدًا وجمعك خله إن فرقك قاطع
ولا تحتقر بالاسم فالاسم دارس ولا تختصر بالعين فالعين تابع
وإياك حزمًا لا يهولك أمرها فما نالها إلا الشجاع المقارع
حنانيك واحذر من تأدب جاهل فيا رب آداب لقوم قواطع
وكن ناظرًا في القلب صورة حسنه على هيئة للنفس يظهر طابع
فقد صحّ في متن الحديث «تخلقوا بأخلاقه» ما للحقيقة مانع
وها هو سمع بل لسان أجل بدا لنا هكذا بالنقل أخبر شارع

فنعم قوانا والجوارح كسونه … لسانًا وسمعًا ثم رجلًا تسارع
وكنا شواهد للجوارح والقوى … هو الكل منا ما لقولي دافع
ويكفيك ما قد جاء في الخلق إنه … على صورة الرحمٰن آدم واقع
ولو لم يكن في وجه آدم عينه … لما سجد الأملاك وهي خواضع
ولو شاهدت عين لإبليس وجهه … على آدم لم يعص وهو مطاوع
ولكن جرى المقدور فهو على عمى … عن العين إذ حالت هناك موانع
ولا تكُ من إبليس في شبه سيره … ودع قيده العقلي فالعقل رادع
وخُض في بحار الاتحاد منزهًا … عن المزج بالأغيار إن أنت خاشع
وإياك والتنزيه فهو مقيد … وإياك والتشبيه فهو مخادع
وشبهه في تنزيه سبحات وجهه … ونزهه في تشبيه ما هو ضارع
وقل هو ذا بل غيره وهو غير ما … عرفت وعين العلم فالحق شائع
ولا تكُ محجوبًا برؤية حسه … عن الذات أنت الذات أنت المجامع
فعينك شاهدها مجدًا لأصلها … فإن عليها للجمال لوامع
أنيتك التي هي القصد والمنى … بها الأمر مرموز وحسنك بارع
ونفسك تحوي بالحقيقة كلما … أشرت بجد القول ما أنا خادع
تهنى بها واعرف حقيقتها وما … كعرفانها شيء لذاتك نافع
فحقق وكن حقًا فأنت حقيقة … لحقك والمخلوق بالذات جامع
ووجده في الأشياء فهو متره … وخلف حجاب الكون للنور ساطع
ولا تطلبن فيها الدليل فإنه … وراء كتاب العقل تلك الوقائع
ولكن بإيمان وحسن تتبع … إذا رمت جاءتك الأمور توابع
وإن قيدتك النفس فاطلق عنانها … وسر معها حتى تهون الوقائع
وبرهن لها التحقيق عقلًا مقيدًا … بنقل به جاءت إليك شرائع
فثم أصول في الطريق لأهلها … رهن إلى سبل النجاة ذرائع
تمسك بها تنجو وزن كل وارد … بقسطاسها عدلًا فثم قواطع
ودع ما تراه مال عن خط عدلها … إلى أن تناجيك الشموس الطوالع
فذاك سبيلي رده إن ترد العلا … ولا تعد عنه تعتريك قواطع

.... (١)

وإني ومن في الحب أهدي بهديه بأنك لا تهدي من أحببت قانع
فدع عنك دعوى القول في نكت الهوى فراحلة الألفاظ في السير طالع
وسر في الجوى بالروح واصغ إلى الهوى لتسمع منه سر ما أنت والع
ومن دون هذا الاستماع مهالك وما كل أذن فيه تلك المسامع
فشمر ولذ بالأولياء لأنهم لهم من كتاب الله تلك الوقائع
هم الذخر للملهوف والكنز للرجا ومنهم ينال الصب ما هو طامع
بهم يهتدي للعين من ضل في الهوى بهم تجذب العشاق والربع شاسع
هم القصد والمطلوب والسؤال والمنى وأنسهم للصب في الحب شائع
هم الناس فالزم إن عرفت جنابهم ففيهم لضير العالمين منافع
وإن جهلوا فانظر بحسن عقيدة إلى كل من تلقاه بالفقر ضارع
وحافظ مواقيت الإرادة قائمًا بشرع الهوى إن أنت في الحب شارع
وداوم على شرطين ذكر أحبة وتسليك نفس للخلاف تسارع
ولا تهملن ذكر الأحبة لمحة فميل الفتى عما يحاول رادع
ولا ساعد المقدور أو سافك القضا إلى شيخ حق في الحقيقة بارع
فقم في رضاه واتبع لمراده ودع كلما من قبل كنت تسارع
وكن عنده كالميت عند مغسل يقلبه ما شاء وهو مطاوع
ولا تعترض فيما جهلت من أمره عليه فإن الاعتراض تنازع
وسلم له فيما تراه ولو يكن على غير مشروع فثم مخادع
ففي قصة الخضر الكريم كفاية بقتل غلام والكليم يدافع
فلما أضاء الصبح عن ليل سره وسل حسامًا للغياهب قاطع
أقام له العذر الكليم وإنه كذلك علم القوم فيه بدائع
وواظب شهود الحق فيك فإنه هو الحق والأنوار فيك سواطع
ورق مقام القلب عن نجم ربه إلى قمر الرحمٰن إذ هو طالع
إلى شمس تحقيق الألوهة رافعًا إلى ذاته في العذر إن أنت رافع

---

(١) بياض بالأصل.

فلله خلف الاسم والوصف مظهر … وعنه عيون العالمين هواجع
وليس ترى الرحمٰن إلا بعينه … وذلك حكم في الحقيقة واقع
وإياك لا تستبعد الأمر إنه … قريب على من فيه للحق تابع
وها أنا ذا أنبيك عن سبل الهوى … وأفصح عما قد حوته المشارع
أقصّ حديثًا تم لي عن بدايتي … لنحو انتهائي علة لك نافع
برزت من النور الإلٰهي لمعة … لحكمة ترتيب اقتضتها البدائع
إلى سقف عرش الله في أفق العلا … ومنه إلى الكونين وهي تسارع
إلى القلم الأعلى ولبى منه مدة … إلى اللوح لوح الأمر والخلق واسع
إلى المنتهى السامي وقبل مكرمًا … نزلت الهيولى وهو للخلق جامع
هناك تلقتني العناصر حكمة … ومنها أحلتني حماها الطبائع
وأنزلني المقدور في أوج أطلس … هو الفلك العالي الذرى وهو تاسع
ومنه هبوطي للكواكب نازلًا … على فلك كيوان ثمة سابع
فلما نزلت المشتري وهو سادس … سماء به للكون في السعد تابع
أتيت سما بهرام من بعدها بطا … على فلك الشمس والشمس رابع
وبالكرة الزهراء أعني سماءها … حثثت مطايا السير والدار شاسع
على كاتب الأفلاك وهو عطارد … وفدت فكانت لي هناك مرابع
فبالقمر الباهي نزلت وشرعت … على الفلك الناري الأشد شرائع
ومنه هواء الأمر في فلك الهوى … ركائب عزم ما لهن موانع
وبالكرة المائية العين إذ سرت … إضافة ركب العزم فيها البلاقع
وهذا نزول الجسم من عند ربه … وللروح تنزيل لخلق متابع
وذلك أن الروح في المركب الذي … لها هي روح الحق فافهم أسامع
فليس لها فيه هبوط منزل … وليس لها فيه صعود مرافع
وذلك للأرواح أخلق حقيقة … وذلك تنزيل لها وقواطع
ففي المثل المفروض وجه تنوعت … سرائره حتى بدا متتابع
فيبرز في حكم المرات إلى الورى … على الجرم والمقدار إذ ذاك طابع
فتنويعها ذاك التجلي هو الذي … تسميه روحًا وهو بالنفخ واقع

وإلا فلا اسم غير [......... ....][1]
[.......................][1] وليس له إلا الصفات مواضع
تنزه ربي عن حلول بقدسه وحاشاهما بالاتحاد بواقع
ومهما تجد الروح جسمًا فإنها لتصوير ذاك الجسم في الصور تابع
فيتبعها في صورها وارتفاعها ويتبعه إن جر يومًا طبائع
فمن سبقت لله فيه عناية فغير مكوث في التراب يسارع
فإن روفقت بالتزكيات رقت به إلى المركز العالي الذي هو رافع
وإن ضعفت واستولت النفس والهوى فكن تبعًا للجسم إذ قام تابع
فتشقى به في سجن طبع ولو رقت به كان مسعودًا وفي العز راتع
وإن نزول الجسم للخلق في الثرى سواء فما من بعد ذاك تنازع
ومن بعدته السابقات فإنه له بين نبت والثريا تراجع
[........................ ....][1]
تركت لها الأسباب شغلًا بحبها ووجدًا بنار قد حوتها الأضالع
وأشغلني شغلي بها عن شواغلي وفيها فإني للعذار مخالع
خلعت عذارى في الهوى وزهدت في مكاني وإمكاني وما أنا جامع
وألقيت إنساني فألقيت مهجتي وجافيت نومي بل جفتني المضاجع
وسلمت نفسي للصبابة راضيًا بحكم الهوى تحت المذلة خاضع
وفوّضت أمري في هواها توكلًا ليقطع في حكمي بما هو قاطع
فأنزلني من أوج عزي ذلة فلي بعد رفع الاقتدار تواضع
عنيت فأغناني عنائي بحبها وعندي أمان نحوها وضرائع
طرحت على أرض الهوان رئاستي لها نعمة طرحًا لقدري رافع
لبست لباس الوجد فيها خلاعة لباس الهوى في الحب ما أنا خالع
وقد أودعتني تربة الذل والشقا وجرد راجي راحل وموادع
ولي في هواها هتكة وتبذذ على أن قلبي في هواها مضارع
جعلت اعتقادي في هواها وسيلتي فيا ضعف مشفوع له الفقر شافع

---

(١) ما بين [ ] بياض بالأصل.

وجئت إليها راغبًا متولهًا ... ولكن بها مني إليها أسارع
سكنت الفلا مستوحشًا عن أنيسها ... ومستأنسًا بالوحش هن روائع
أنوح فتشجيني حمام سواجع ... وأبكي فتحكيني غمام هوامع
ولي إن عوى ذيب على فقد إبنه ... زفير له في الخافقين ضرائع
وإن غردت قمرية فوق أيكة ... وجاوب قمري على الأيك ساجع
فإني لآفاتي وتكدير لوعتي ... بتلك الفيافي والظلام أراجع
ولي بمريض الجفن سقم مبرح ... ولي في عصى القلب دمع مطاوع
نحلت من الآلام حتى كأنني ... مقدر مفروض وما هو واقع
فلو نقط الخطاط حرفًا لهيكلي ... على سطح لوحي ما رآه مطالع
فجسمي وأسقامي محال وواجب ... ودمعي وخدي أحمر وفواقع
أُسائل من لاقيت والدمع سائل ... عن القلب والسكان والقلب جازع
تجارب صبري والكرى فنباينا ... وسالم قلبي الحرق فهو مبائع
وقد قيدت بالنجم أهداب مقلتي ... كما أطلقت عن قيدهن المدامع
وأسقط قدري في الهوى شنعة الهوى ... وعندي أن العز تلك الشنائع
فكم مر بي من كنت أرفع قدره ... كأني له من بعد ذلك واضع
وينكف إن ألقاه بي متطيرًا ... وما لي إن حدّثته لي سامع
فما لي في الأحياء إن عشت صاحب ... وما لي حقًّا إذ أموت مشائع
ولا لي إن حدثتهم من محادث ... ولا إذ دهاني الخطب فيهم مدافع
كأن لم أكن في الحي أرفع أهله ... مكانًا وقدري في المكانة رافع
ذللت إلى أن خلت أني لم أزل ... أذل لهم قدرًا فها أنا خاضع
وأحسب أن الأرض تنكف أن ترى ... ولي في ثراها مذهب ومشاع
رعى الله إخوانًا رعوا لمودتي ... فهن لقلبي حين كن توابع
نعم وسقى وجد مدى الدهر مؤنسي ... فكم لك يا وجدي على صنائع
فيا زفراتي اصعدي وتنفسي ... فقد هبطت من ضيق جفني المدامع
ويا كبدي في الحب ذوبي صبابة ... ويا كمدي دم إنني بك يانع
ويا جسدي هل فيك من رمق فما ... أراك سوى بالوهم عندي طالع
ويا مهجتي الرسم منك قد اندرس ... ويا طلل الأحشاء فجعك صادع

ويا جفني المقروح قد فنى الدما ويا قلبي المجروح هل أنت فازع
ويا ذاتي المعدوم هل لك بعثة ويا صبري المهزوم هل أنت راجع
ويا خفقان القلب زدني كآبة وبنار وجدي قد منين أضالع
ويا نفسي الحراء موتي تلفها فما لك في ذنب المحبة شافع
ويا روحي المبعوث صبرًا على البلا ويا عقلي المسلوب هل أنت راجع
ويا ما بقي في الوهم مني وجوده عدمتك شيئًا وقعه متمانع
ويا مسقمي زدني أسًى وتبددًا فليس لسقمي غير صبري نافع
ويا عاذلي كم تعذلني وإن أكن إلى العذل أصغى فللذكر سامع
ويا قاضيًا في الحب يقضي بعدله تحكم بجور إنني لك طائع
جعلت وجودي ما يمن لها به وإن وجودي مكرة وخدائع
فمن مصر أرضي قد خرجت المدين الـ ـعلي وشعيب القلب فيه صرائع
تلاقيت بنتي عادتي وطباتعي يذودان أغنامي ومائي نابع
سقيت من الماء الغنيم غنائمها ومن رعى زهر العلم هن شوابع
وجاء على استحياء ذاتي بربها بتوحيدها إحداهما وتسارع
فلما تزوجت الحقيقة صنتها وأمهرها مني حماة شرائع
صعدت معالي طور قلبي مناديًا لربي حتى أن بدت لي لوامع
وخلفت أهلي وهي نفسي تركتها وجئت إلى النار التي هي ساطع
فناداني التوحيد نعليك دعهما فها أنا ذا للروح والجسم خالع
وكلمني التحقيق من شجر الحشا بأني بالوادي المقدس راتع
وسرت بعقلي أي فتاي وحوته إلى مجمع البحرين والعقل تابع
هناك نسيت الحوت وهو أنيتي فسبح في بحر الحقيقة شارع
على أثري ارتديت حتى وجدتني هو الأصل إذ نفس أنا وهو طالع
فلما تعارفنا ولم يبق نكرة أردت اتباعًا كي يفوز المتابع
فأخرق في بحر الإله سفينتي ونحر غلام الشرك إذ هو خادع
وجاء بلاد الله قوية غزة وفيها لقلبي منجع ومخادع
أردنا ضيافات أبوا أن يضيفوا لمسدل في وجه البدور طوالع
هناك جدار الشرع خضرى أقامه لئلا ترى بالعين تلك الشوارع

فإن فهمت أحشاك ما قلت مجملًا … وإلا فبالتفصيل ما أنا واضع
وإني على تنزيه ربي لقائل … بأوصافه عني فحقي صادع
أنا الحق والتحقيق جامع خلقه … أنا الذات والوصف الذي هو تابع
فأحوى بذاتي ما علمت حقيقة … ونوري فيها قد أضاء فلامع
ويسمع تسبيح الصوامت مسمعي … وإني لأسرار الصدور أطالع
وأعلم ما قد كان في زمن مضى … وحالا وأدري ما أفاد مضارع
ولو خطرت في أسود الليل نملة … على صخرة صماء إني طالع
أعدى الثرى رملًا مثاقيل ذرة … وأحصى عديد القطر وهي هوامع
وأحكم موج البحر وسط خطيمها … عيارًا ومقدارًا وما هو واقع
وأنظر تحقيقًا بعيني محققًا … قصور جنان الخلد وهي قلائع
وأتقن علمًا بالإحاطة جملة … لأوراق أشجار هناك أيانع
وكل طباق في الجحيم عرفتها … وأعرف أهليها ومن يك واضع
وأنواع تعذيب هناك علمتها … وأهوالها طرًّا وهن فظائع
وأملاكها حقًّا عرفت ولم يكن … على بخاف من أنا له واضع
وكل عذاب ثم ذقت ولم أبل … أأخشى وإني للمقامين واضع
وكل نعيم إني لمنعم … به وهو لي ملك وما ثم رادع
وكل عليم في البرية إنه … كقطرة ماء من بحاري دافع
وكل حكيم كان أو هو كائن … فمن نوري الوضاح في الخلق لامع
وكل عزيز بالتجبر قاهر … ببطش اقتداري في البرية قامع
وكل هدى في العالمين فإنه … هداي ومالي في الوجود منازع
أصور مهما شئت من عدم كما … أقدر مهما شئت فهو مطاوع
وأفنى إذا شئت الأنام بلمحة … وأحيي بلفظي من حوته البلاقع
وأجمع ذرات الرسوم من الثرى … وأنشى كما كانت وإني بادع
وفي البحر لو نادى باسمي حوته … أجبت وإني للمناجين سامع
وفي البر لوهب الرياح على الثرى … أحيط وأحصى ما حوته البلاقع
وخلف معالي قاف لو يستغيث بي … مغاث فإني ثم للضر دافع
وأقلب أعيان الجبال فلو أقل … لها ذهبا كوني فهن فواقع

وأجرى إذا شئت السفائن في الثرى وفي البحر لو أبغي المطي تسارع
وأن طباق العرش تحت قوائم ورجلي على الكرسي ثمة رافع
وبيتي بسقف العرش حاشاي ليس لي مكان ومن فيضي خلقن المواضع
وسدرة أوج المنتهى لي موطيء وغاية غايات الكمال مصارع
وكل معاش الخلق تجريه راحتي لراحتهم جودًا ولست أصانع
وفي كل جزء من تراكيب هيكلي لو سعى والكرسي والعرش ضائع
فلا فلك إلا وتحويه قدرتي ولا ملك إلا لحكمي طائع
وأمحو لما قد كان في اللوح ثابتًا فتثبت إذ وقعت ثم وقائع
وإني على هذا عن الكل فارغ وليس به لي همة وتنازع
ووصفي حقًّا فوق ما قد وصفته وحاشاي من حصر ولا لي قاطع
وإني على مقدار فهمك واضع وإلا فلي من بعد ذاك بدائع
وثم أمور ليس يمكن كشفها بها قلدتني عقدهن شرائع
قفوت بها آثار أحمد تابعًا فأعجب بمتبوع وها هو تابع
بنى له فوق المكانة رتبة ومن عينه للناهلين منابع
عليه سلام الله مني وإنما سلامي على نفسي النفيسة واقع

ومن النظم المنسوب إليه رضي الله عنه ونفعنا به

على الأولياء ألقيت سري وبرهاني فهاموا به في سر سري وإعلاني
فأسكرهم كأسي فهاموا بخمرتي سكارى حيارى من وجودي وعرفاني
أنا كنت قبل القبل قطبًا مبجلًا تطوف بي الأكوان والرب أسماني
خرقت جميع الحجب حتى وصلته مقامًا به قد كان جدي له داني
وقد كشف الأستا عن نور وجهه ومن خمرة التوحيد بالكأس أسقاني
نظرت إلى المحفوظ والعرش نظرة فلاحت لي الأنوار والرب أعطاني
أنا قطب أقطاب الوجود بأسرها أنا بازهم والكل يدعى بغلماني
ولو أنني ألقيت سري لدجلة لغارت وراح الماء في سر إعلاني
ولو أنني ألقيت سري إلى لظى لأخمدت النيران من عظم سلطاني
ولو أنني لقيت سري لميت لقام بإذن الله في الحال ناداني

سلوا عني السرى سلوا عني المنا — سلوا عني القاضي سلوا عني الداني
سلوا عني العلا سلوا عني الثرى — وما كان تحت التحت والإنس والجان
فيا معشر الأقطاب هلموا لحضرتي — وطوفوا بحاناتي واسعوا لأركاني
وغوصوا بحارى تظفروا بجواهري — وتبرى وياقوتي ودرى ومرجاني
وقفت على الإنجيل جمعًا شرحته — أخي ورفيقي كان موسى بن عمران
وحليت رمزًا كان عيسى بحله — به كأن يحيي الموتى والرمز سرياني
وخضت بحار العلم من قبل نشأتي — وفككت في التوراة رمزة عبراني
فمن في رجال الله نال مكانتي — وجدي رسول الله في الأصل رباني
ووالدتي الزهراء بنت محمد — أبوها رسول الخلق عزّ بهم شاني
أنا الكوكب الدرّي أنا شمس خلتها — أنا الفرد قد ألبست في الحب تيجاني
أنا قادري الوقت عبد القادر — واسمي محيي الدين والأصل كيلاني

انتهت

وقد زاد في صدرها الشيخ الإمام المنزلي بيتًا للترجيع فقال:

صلاتي على المختار من خير عدنان — سلامي على الجيلاني شيخي وبرهان

ومن النظم المنسوب إليه
رضي الله عنه ونفعنا به

دنوت من المحبوب أعلى المراتب — فأوهبني بالقرب أزكى المواهب
وتوجني تاجًا على خلع الرضى — بأثنى ملابيس فنلت مآربي
وقلدت تصريف الوجود بأسره — خليفة بالكرسي أجلست نائبي
ونادمني من غير واسطة وقد — بدا لي جهرًا لا حجاب وحاجب
أنا خادم في حضرة نبوية — قريب له قربًا كقوس حواجب
فوصف جميعي لا يحاط بقدره — وهزمي لخاني ينثني وهو هائبي
وحكمني كل الدنان وخانها — فلا ثمل إلا تلاني عاقب
وما شرب العشاق قدمًا وبعدنا — من الحان إلا بعض سؤر مشاربي
سلكت طريقًا ليس يسلكه سالك — وكان حبيبي لي دليلًا مصاحبي
خلوت بمن أهوى بغير مزاحم — فيا حبذا ما طبت لي من مآرب

ولـي هـمّـة تـعلو عـلى كـل هـمـة ومطلب عزمي مهلك كل طالب
أنا في الـهـوى سلطان كـل متيم لمملكتي في الأرض حنث ركائبي
لـواء لـوائـي فـي الـوجـود مخيـم مـحـقـق تـمـلأ الـخـافـقـيـن ذوائـبـي
نشرت بأعلامي على كل عاشق مـشـارق أرض الله ثـم الـمـغـارب
وأهل الهوى جندي وحكمي عليهم وفـي سائر الآفاق سارت مواكبي
وجالت خيولي الأرض شرقًا ومغربًا وفي طولها والعرض دارت نجائبي
أنا قطب أقطاب الوجود حقيقة وجـمـلـتـهـم لـي يـتـبـعـون مذاهبي
إذا اجتمعوا في جامع العشق جئتهم خطيبًا أعظهم من بليغ عجائبي
وكـلـهـم بـي يـقـتـدون حـقـيـقـة بعصري وبعدي هكذا كل طالب
قعود جلوس ينظروا تحت منبري ويـجـروا دمـوعًـا بـالـدماء سواكب
وأقـدامـهـم مـن بـعـد ذلـك راعـيًـا إمامًا لـهـم بي يقتدي كل راغب
وقد أفلت جميع الشموس وشمسنا لـيـوم الـلـقـا إشـراقـهـا فـي كـواكـب
وبي وله قبل الوجود وكونه ولي قـدم قـد جـال فـي جـذب جـاذبـي
وهـذا مـقـامـي واتـصـالـي بـخـالـقـي وذكرى لحظي من حبيب الحبائب
مـحـمـد الـمـرسـول لـلخلق رحمة وجـاهـد فـي كـفـارهـم بـالـقـواضـب
إمـامـي رسـول الله جـدي وقـدوتـي وعـاهـدنـي مـن كـفـه وهـو طـالـبـي
أتـانـي مرارًا قبل عهدي وقال لي أنا جدك افخر بي فخرت بخاطب
ولي خيمة خضراء في مشرق لها وفـي مـغـرب أطـنـابـهـا بـتـراكـب
وتـنـصـب فـي حشر علينا تظلنا رجالي وأصحابي بها في مناصب
وما قلت هذا القول فخرًا وإنما أتـى الإذن حـتـى تـعـرفـون مراتبي
ودقت لي السادات في الأرض والهوى طبولًا لعزي كم لها ألف ضارب
فبلغ سلامي خير من وطىء الثرى وأشـــرف خـــلـق الله مـــاش وراكـــب

انتهت

وقد زاد فيها بعض الفضلاء المريدين بيتًا للترجيع والتبرك فقال:

صلاتي على المختار بدر الكواكب وآله والأصحاب أهل المناهب

ومن نظم الشيخ المنسوب إليه
رضي الله عنه ونفعنا به

رفعت على أعلى الورى أعلامنا لما بلغنا في الغرام مرامنا
نحن الملوك على سلاطين الملا والكائنات ومن بها خدامنا
فبذلنا للحب نلنا عزة وعلى الرؤوس تنقلت أقدامنا
إنا وإن أُخر الزمان فإننا فقنا الذين تقدموا قدامنا
فبقربنا من قاب قوسين لقد رشقت قلوب المنكرين سهامنا
فجمالنا ملأ الوجود وحالنا لا يستطاق ولا يفل حسامنا
ضربت طبول العز في ساحاتنا وعلى السما شرفًا بدت خيامنا
ولأجلنا وجد الزمان وكونه والدهر عبد والزمان غلامنا
ولنا الولاية من «ألست بربكم» وإمامنا المهدي فهو ختامنا
ثم الصلاة على النبي محمد والآل والأصحاب ثم صحابنا

ومن نظمه أيضًا
رضي الله عنه وأرضاه ونفعنا به آمين

سألتك يا جبار يا سامع الندا ويا حاكم احكم في الذي قد تجبرا
فأنت الذي ترجى لدفع مضرتي وأنت مغيث من دعاك من الورى
سألتك بالاسم العظيم فمن بغى علي امتحنه بالعماء فلا يرى
أجب دعوة المظلوم يشكو مصيبة كسير الجناح لا نصير له يرى
فإن لم يقع غيث فما وجه حيلتي وأين الفرار من عدو تجورا
فيا عالم النجوى ويا سامع الندا ويا مستغاث أهلكن من تجبرا
فكل مصاب يستغاث بمثله وإني لا أشكو لغيرك ما جرى
فكيف يخيب من بقلبه قد دعا وأمرك في القرآن يتلى على الورى
فأنت المغيث والنصير على العدا وقولك حق لا خلال ولا امترا
بطه مع الفرقان والبقرة قبلها وسبح مع الأنفال مع سورة البَرَا
ويس مع حم كل مع النسا وبالأنبياء المرسلين ومن قرا

انتهى ما وجد من هاته القصيدة وكنت أعرف أنها أطول من هذا القدر الذي أثبته هنا.

ومن نظمه أيضًا
رضي الله عنه ونفعنا بعلومه

أتطلب أن تكون كثير مال ... ويسمك منك دومًا في كل قال
ومن كل النساء ترى ودادًا ... تسري به ومن كل الرجال
ويأتيك الغنى وترى سعيدًا ... مهابًا مكرمًا من كل وال
وتكفي كل حادثة وضسر ... وتبقى آمنًا في كل حال
فقل يا حي يا قيوم ألفًا ... مكملة على عدد الليالي
بليل أو نهار فإن فيما ... ذكرته يرخص كل غال
وفي ذكراك يا وهاب سر ... ينبيك ما تريد من السؤال
وتكبر عند كل الناس طرًا ... وتقبض باليمين وبالشمال
فلازم ما ذكرت ولا تدعه ... ففيه تبلغ الرتب العوالي

وله أيضًا
رضي الله عنه ونفعنا به وبما جاء آمين

أنا القرآن والسبع المثاني ... وروح الروح لا روح الأواني
فؤادي عند محبوبي مقيم ... يناجيه وعندكم لساني
فلا تنظر بطرفك نحو جسمي ... وعد عن التناغم بالمغاني
وغص في بحر ذات الذات تنظر ... معاني ما تبدت للعيان
وأسراري قراءة مبهمات ... مسترة بأرواح المعاني
فمن فهم الإشارة فليصُنها ... وإلا سوف يقتل بالسنان
كحلاج المحبة إذ تبدت ... له شمس الحقيقة بالتداني
وقال أنا هو الحق الذي لا ... بغير ذاته مر الزمان

وله أيضًا
رضي الله عنه ونفعنا به آمين

ولما صفا قلبي وطابت سريرتي ... ومني دنا صحوي بفتح البصيرة
شهدت بأن الله مولى الولاية ... وقد من بالتصريف في كل حالة

سقاني ربي من كؤوس شرابه … فأسكرني حقًا فهمت بسكرتي
وملكني كل الجنان وما حوى … وكل ملوك العالمين رعيتي
وفي حالنا فادخل ترى الكأس دائرًا … وما شرب العشاق إلا بقيتي
رفعت على مَن يدّعي الحب في الهوى … فقربني المولى وفزت بنظرتي
وجالت خيولي في الأراضي جميعها … وزفت لي الكاسات من كل وجهة
ودقت لي الرايات في الأرض والسما … وأهل السما والأرض تعلم سطوتي
وشاوش ملكي سار شرقًا ومغربًا … وصرت لأهل الكرب غوثًا ورحمة
فمن كان مثلي يدّعي فيكم الهوى … يطاولني إن كان يقوى لسطوتي
أنا كنت في العليا بنور محمد … وفي قاب قوسين اجتماع الأحبة
شربت بكاسات الغرام سلافة … بها انتعشت روحي وجسمي ومهجتي
وصرت أنا الساقي لمن كان حاضرًا … أدير عليهم كرة بعد كرة
وقمت بباب الله وحدي موحدًا … ونوديت يا جيلاني ادخل لحضرتي
ونوديت يا جيلاني ادخل ولا تخف … عطيت اللوا من قبل أهل الحقيقة
ذراعي من فوق السمٰوات كلها … ومن تحت بطن الحوت مديت راحتي
وأعلم نبت الأرض كم من نباته … وأعلم رمل الأرض كم هو رملة
وأعلم علم الله أحصى حروفه … وأعلم موج البحر كم هو موجة
وما قلت هذا القول فخر وإنما … أتى الإذن حتى تعرفون حقيقتي
وما قلت حتى قيل لي قل ولا تخف … فأنت ولي في مقام الولاية
أنا كنت مع نوح بأعلى سفينة … بحارًا وطوفانًا على كف قدرتي
وكنت وإبراهيم ملقى بناره … وما برد النيران إلا بدعوتي
وكنت مع إسماعيل في الذبح شاهدًا … وليس نزول الكبش إلا بفتيتي
وكنت مع يعقوب في غشو عينه … وما برئت عيناه إلا بتفلتي
وكنت وموسى في مناجاة ربه … وموسى عصاه من عصاي استمدت
وكنت مع عيسى وفي المهد ناطقًا … وأعطيت داودًا حلاوة نغمتي
أنا كنت مع أيوب في زمن البلا … وما برئت بلواه إلا بدعوتي
ولي نشأة في الحب من قبل آدم … وسري سري في الكون من قبل نشأتي
أنا الذاكر المذكور وذكر الذاكر … أنا الشاكر المشكور شكر بنعمة

أنا العاشق المعشوق في كل مضمر ... أنا السامع المسموع في كل نغمة
أنا الواحد الفرد الكبير بذاته ... أنا الواصف الموصوف علم الطريقة
ملكت بلاد الله شرقًا ومغربًا ... وإن شئت أفنيت الأنام بلحظتي
وقالوا فأنت القطب قلت مشاهدًا ... وتال كتاب الله في كل ساعة
وناظر ما في اللوح من كل آية ... وما قد رأيت من شهود بمقلتي
فمن كان يهوانا يجي لمحلنا ... ويدخل حمى السادات يلق الغنيمة
فلا عالم إلا بعلمي عامل ... ولا سالك إلا بفرضي وسنتي
وقالوا أيا هذا تركت صلاتك ... ولم يعلموا أني أصلي بمكة
ولا مسجد إلا ولي فيه ركعة ... ولا منبر إلا ولي فيه خطبة
ولولا رسول الله بالعهد سابق ... لأغلقت أبواب الجحيم بعظمتي
مريدي لك البشرى تكون على الوفا ... إذا كنت في ضيق فتنجو بهمتي
مريدي تمسك بي وكن بي واثقًا ... فأحميك في الدنيا ويوم القيامة
أنا لمريدي حافظ ما يخافه ... وأحرسه من كل شر بلية
وكن يا مريدي حافظًا لعهودنا ... أكن حاضر الميزان يوم القيامة
وإن شحت الميزان والله أنالها ... فعني عنايات بلطف الحقيقة
حوائجكم مقضية غير أنني ... أريدكم تمشوا الطريق الحميدة
وأوصيكم كسر النفوس فإنها ... مراتب عز عند أهل الطريقة
ومن حدثته نفسه بتكبر ... تجده صغيرًا في عيون الأقلة
ومن كان في حالاته متواضعًا ... مع الله عزته جميع البرية
فجدي رسول الله طه محمد ... أنا عبد قادر وشيخ الطريقة

واعلم بأن البيت الأول منها لم يعرف في أول القصيدة عند أهل الطريقة رضوان الله عليهم أجمعين ونفعنا ببركاتهم آمين.

ومن نظمه رضي الله عنه وأرضاه وهدانا بهداه

نظرت بعين الفكر في حان حضرتي ... حبيبًا تجلى للقلوب فجنتي
سقاني بكأس من مدامة حبه ... فكان من الساقي خماري وسكرتي
ينادمني في كل يوم وليلة ... ولا زال يرعاني بعين العناية

ضريحي بيت الله من جاء زاره   بهرولة يحظى بعز ورفعة
وأمري بأمر الله إن قلت كن يكن   وكل بأمر الله حكمي وقدرتي
فأصبحت بالوادي المقدس جالسًا   على طور سينا قد سموت بخلوتي
وطافت بي الأكوان من كل جانب   فصرت لها أهلًا بتحقيق نسبتي
ولي علم في ذروة المجد قائم   رفيع البنا تأوى له كل أمة
فلا علم إلا من بحار وردتها   ولا نقل من صحيح روايتي
على الدرة البيضاء كان اجتماعنا   وفي قاب قوسين اجتماع الأحبة
وعاينت إسرافيل واللوح والرضا   وشاهدت أنوار الجلال بنظرتي
وشاهدت ما فوق السمٰوات كلها   كذا العرش والكرسي في طي قبضتي
وكل بلاد الله، ملكي حقيقة   وأقطابها من تحت حكمي وطاعتي
وجودي سري في سر سر الحقيقة   ومرتبتي فاقت على كل رتبة
كرى جلا الأبصار بعد غشائها   وأحيا فؤاد الصب بعد القطيعة
حفظت جميع العلم صرت طرازه   على خلعة التشريف في حسن خلوتي
قطعت جميع الحجب للحب صاعدًا   ولا زلت أرقى سائرًا بمحبتي
تجلّى لي الساقي وقال إلى قم   فهذا شراب الحب في حان حضرتي
تقدم ولا تخش كشفنا حجابنا   تجلى بحاني والشراب ورؤيتي
شطحت بها شرقًا وغربًا وقبلة   وبرًا وبحرًا من نفائس خمرتي
فلاحت لي الأسرار من كل جانب   وبانت لي الأنوار من كل وجهة
وشاهدت معنى لو بدا كشف سره   لصم الجبال الراسيات لدكت
ومطلع شمس الأفق ثم مغيبها   وأقطع أرض الله في حال خطوتي
قلبها في راحتي ككورة   أطوف بها جمعًا كأسرع لمحة
أنا قطب أقطاب الوجود حقيقة   على سائر الأقطاب قولي وحرمتي
توسل بنا في كل هول وشدة   أغيثك في الأشياء طرًا بهمتي
أنا لمريدي حافظ ما يخافه   وأحرسه من كل شر وفتنة
مريدي إذا ما كان شرقًا ومغربًا   أغثه إذا ما سار في أي بلدة
فيا منشدًا للنظم قله ولا تخف   فإنك محروس بعين العنا
وكن قادري الوقت لله مخلصًا   تعش سعيدًا صادقًا بمحبتي
ونثني صلاة الله ثم سلامه   على خير خلق الله جدي ونسبتي

هذه القصيدة المباركة المنسوبة: القطب الرباني والغوث الصمداني سيدنا السيد عبد القادر الجيلاني قُدِّس سرّه، مشهور اسمها عند العوام بالقصيدة الغوثية وعند الخواص بالخمرية أنشدها حضرة الشيخ في حالة الجذبة والاستغراق، وخواصها كثيرة

منها أن من داوم على قراءتها كل يوم إحدى عشرة مرة يصير مقبولًا عند الله تعالى ومحبوبًا عند الخلق.

ومنها أن من جعلها من أوراده تزيد فيه قوة الحفظ فلا ينسى ما قرأ أو سمع.

ومنها أن من قرأ يزيد فهمه بالعربية وإن لم يكن من أهلها.

ومنها أن من قرأها أربعين يومًا لأي حاجة كانت فلا يتم الأربعون إلا وقد قضيت حاجته بإذن الله تعالى.

ومنها من حملها معه وقرأها كل يوم ثلاث مرات أو سمعها من غيره ونظر إليها كل صباح مع حسن الاعتقاد يرى إن شاء الله تعالى في منامه صاحبها أعني غوث الثقلين ويتبرك بزيارته وكلامه، ويكون معظمًا عند الأمراء والملوك.

ومنها أن بركاتها عامة فبأي نية يقرؤها التالي يحصل مراده مع الاعتقاد الصحيح، وكلما أراد أن يقرأها يهدي أولًا فاتحة الكتاب لصاحبها قطب الغوث ثم يصلي على النبي ﷺ ثلاث مرات بهذه الصيغة الجليلة وهي: اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد معدن الجود والكرم ومنبع العلم والحلم والحكم، وبارك وسلم.

والقصيدة المذكورة هي هذه

سقاني الحب كاسات الوصال ... فقلت لخمرتي نحوي تعالي
سعت ومشت لنحوي في كؤوس ... فهمت بسكرتي بين الموالي
وقلت لسائر الأقطاب لموا ... بحاني وادخلوا أنتم رجالي
وهيموا واشربوا أنتم جنودي ... فساقي القوم بالوافي ملا لي
شربتم فضلتي من بعد سكري ... ولا نلتم علوي واتصالي
مقامكم العلا جمعًا ولكن ... مقامي فوقكم ما زال عالي
أنا في حضرة التقريب وحدي ... يصرفني وحسبي ذو الجلال

أنا البازي أشهب كل شيخ ومن ذا في الرجال أعطي مثالي
درست العلم حتى صرت قطبًا ونلت السعد من مولى الموالي
كساني خلعة بطراز عز وتوجني بتيجان الكمال
وأطلعني على سر قديم وقلدني وأعطاني سؤالي
طبول في السما والأرض دقت وشاويش السعادة قد بدا لي
أنا الحسني والمخدع مقامي وأقدامي على عنق الرجال
وولاني على الأقطاب جمعًا فحكمي نافذ في كل حال
نظرت إلى بلاد الله جمعًا كخردلة على حكم اتصال
فلو ألقيت سري فوق نار لخمدت وانطفت من سر حالي
ولو ألقيت سري فوق ميت لقام بقدرة المولى مشالي
ولو ألقيت سري في جبال لدكت واختفت بين الرمال
ولو ألقيت سري في بحار لصار الكل غورًا في الزوال
وما منها شهور أو دهور تمر وتنقضي إلا أتى لي
وتخبرني بما يأتي وهو يجري وتعلمني فأقصر عن جدالي
بلاد الله ملكي تحت حكمي ووقتي قبل قلبي قد صفا لي
مريدي لا تخف واش فإني عزوم قاتل عند القتال
مريدي لا تخف الله ربي عطاني رفعة نلت المعالي
مريدي هم وطب واشطح وغنى وافعل ما تشا فالاسم عالي
وكل ولي له قدم وإني على قدم النبي بدر الكمال
أنا الجبلي محيي الدين اسمي وأعلامي على رأس الجبال
وعبد القادر المشهور اسمي وجدي صاحب العين الكمال

ومن النظم المنسوب إليه
رضي الله عنه ونفعنا به هاته القصيدة

رُوِي أنها مجرَّبة لقضاء الحوائج وتفريج الكروب:

يا من تحل بذكره عقد النوائب والشدائد
يا مَن إليه المشتكى وإليه أمر الخلق عائد

يا حيّ يا قيوم يا صمد تنزه عن مضادد
أنت العليم بما بليت به وأنت عليه شاهد
أنت المُنَزَّه يا بديع الخلق عن ولد ووالد
أنت الرقيب على العباد وأنت في الملكوت واحد
أنت المعزّ لمن أطاعك والمذل لكل جاحد
إني دعوتك والهموم جيوشها قلبي تطارد
فرِّج بحولك كربتي يا من له حسن العوائد
أنت المُيسّر المسبب والمسهّل والمساعد
يسّر لنا فرجًا قريبًا يا إلهي لا تباعد
فخفيّ لطفك يستعان به على الزمن المعاند
كن راحمي فلقد أيست من الأقارب والأباعد
وعلى العِدا كن ناصري لا تشمتن بي الحواسد
ثم الصلاة على النبي وآله الغر الأماجد
ما جنّ ليل أو سجى أو خرّ للرحمٰن ساجد

ومن نظمه أيضًا رضي الله عنه ونفعنا به آمين

طف بحاني سبعًا ولذ بذمامي وتجرد لزورتي كل عام
أنا سر الأسرار من سر سري كعبتي راحتي وبسطي مدامي
أنا نشر العلوم والدرس شغلي أنا شيخ الورى وكل إمام
أنا في مجلسي نرى العرش حقًّا وجميع الأملاك فيه قيام
قالت الأوليا جميعًا بعزم أنت قطب على جميع الأنام
قلت كفّوا ثم اسمعوا نص قولي إنما القطب خادمي وغلامي
كل قطب يطوف بالبيت سبعًا وأنا البيت طائف بخيامي
كشف الحجب والستور لعيني ودعاني لحضرة ومقامي
فاخترقت الستور جمعًا لحبي عند عرش الإلٰه كان مقامي
وكساني بتاج تشريف عز وطراز وخلعة باختتام
فرس العزّ تحت سرج جوادي ووكابي عال وغمدت محامي
وإذا ما جذبت قوس مرامي كان نار الجحيم منها سهامي

سائر الأرض كلها تحت حكمي ... وهي في قبضتي كفرخ الحمام
مطلع الشمس ثم أقصى الغروب ... خطوتي وأقلها باهتمام
أمر يدي لك الهنا بدوام عيـ ... ـش عز ورفعة واحترام
ومريدي إذا دعاني بشرق ... أو بغرب أو نازل بحر طام
فأغثه لو كان فوق هواء ... أنا سيف القضا لكل خصام
أنا في الحشر شافع لمريدي ... عند ربي فلا يرد كلامي
أنا شيخ وصالح وولي ... أنا قطب وقدوة للأنام
أنا عبد لقادر طاب وقتي ... جدي المصطفى شفيع الأنام
فعليه الصلاة في كل وقت ... وعلى آله بطول الدوام

ومن نظمه أيضًا رضي الله عنه

ما في الصبابة منهل مستعذب ... إلا ولي فيه الألذ الأطيب
أوفا الوصال مكانة مخصوصة ... إلا ومنزلتي أعز وأقرب
وهبت لي الأيام رونق صفوها ... فحلت مناهلها وطاب المشرب
وغدوت مخطوبًا لكل كريمة ... لا يهتدى فيها اللبيب فيخطب
أنا من رجال لا يخاف جليسهم ... ريب الزمان ولا يرى ما يرهب
قوم لهم في كل مجد رتبة ... علوية وبكل جيش موكب
أنا بلبل الأفراح أملا دوحها ... طربًا وفي العلياء باز أشهب
أضحت جيوش الحب تحت مشيئتي ... طوعًا ومهما رمته لا يعزب
أصبحت لا أملًا ولا أمنية ... أرجو ولا موعودة أترقب
ما زلت أرتع في ميادين الرضا ... حتى وهبت مكانة لا توهب
أضحى الزمان كحلة مرقومة ... تزهو ونحن لها الطراز المذهب
أفلت شموس الأولين وشمسنا ... أبدًا على فلك العلى لا تغرب

ومن كلام بعض مُحِبِّيه فيه رضي الله عنه

بك الشهور تهنى والمواقيت ... يا من بألفاظه تعلو اليواقيت
الباز أنت فإن تفخر فلا عجب ... وسائر الناس في عيني فواخيت
أشم من قدميك الصدق مجتهدًا ... لأنه قدم في نعله الصيت

ومن النظم المنسوب إليه
رضي الله عنه ونفعنا به

إذا ضاق حالي اشتكيت لخالقي | قدير على تيسير كل عسير
فما بين إطباق الجفون وحلها | انجبار كسير وانفكاك أسير
أيظلمني دهري وأنت وسيلتي | وأشكو من الأسوا وأنت مجيري
وأظما وأنت العذب في كل مورد | وأظلم في الدنيا وأنت نصيري
وعار على حامي الحمى وهو قادر | إذا ضاع في البيدا عقال بعير
ولا حامي المملوك إلا أميرة | فها أنا مملوك وأنت أميري

ومن النظم المنسوب إليه
رضي الله عنه ونفعنا به

سقاني حبيبي من شراب ذوي المجد | فأسكرني حقًا فغبت على وجدي
وأجلسني في قاب قوسين سيدي | على منبر التخصيص في حضرة المجد
حضرت مع الأقطاب في حضرة اللقا | فغبت به عنهم وشاهدته وحدي
فما شرب العشاق إلا بقيتي | وفضلة كاسات بها شربوا بعدي
ولو شربوا ما قد شربت وعاينوا | من الحضرة العليا شراب ذوي الود
لأمسوا سكارى قبل أن يقربوا لها | وأمسوا حيارى من مصادمة الورد
أنا البدر في الدنيا وغيري كواكب | وكل فتى يهوي فذالكم عبدي
وبحري محيط بالبحار بأسرها | وعلمي حدي ما كان قبلي وما بعدي
سرى له الأسرار تزجر في الدجا | كزجر سحاب الأفق من ملك الرعد
فإن شئت أن تحظى بعز وقربة | فداوم على حبي وحافظ على عهدي

ومن النظم المنسوب إليه
رضي الله عنه ونفعنا به

رفع الحجاب عن بدور الكمال | مرحبًا مرحبًا بأهل الجمال
ملكوا بحبهم ورضوا بي | عبد رق فسدت بين الموالي
فرحوني بصرف راح هواهم | فتربيت في حجور الدلال

عاملوني بلطفهم في غرامي ... فحلا في بصائر الناس حالي
إن أرادوا الصدود يفنى وجودي ... رحموني وأنعموا بالوصال
وإن ضللت عنهم هدوني ... هكذا هكذا تكون الموالي
سادتي سادتي بحقي عليكم ... إنني عندكم عزيز وغالي
ما بقا لي حبيب قلب سواكم ... مات وهمي بكم وبان خيالي
بحياتي عليكم يا سقاتي ... روقوا الكاس إن حبي ملالي
وأديروا الكؤوس بين الندامى ... فجميع الأنام سكري بحالي

ومن النظم المنسوب إليه
رضي الله عنه ونفعنا به

أيا نفحة الألطاف من لطف ربنا ... ويا سرعة اليسر المشتت للعسر
ويا رحمة المولى السماوية التي ... تهب هبوب الريح من حيث لا أدري
إغاثة ملهوف أردت بحاله ... نوائب لا تخفاك يا عالم السر
ولما دهاني الحال واشتد خطبه ... شكرت إلى رحماك يا رب من ضر
فمن ذا الذي أرجو سواك لفاقتي ... وضعفي تداركني بلطفك في الأمر
فعجّل وسارع يا سريع بحل ما ... تضايق بي يا واسع الفضل والبر
فأنت القريب المستجيب لمن دعا ... غني كريم دائم العفو واليسر

تمّ بحمد الله تعالى وفضله
وصلّى الله على سيّدنا محمد وسلّم تسليمًا كثيرًا

قلائد الجواهر

في مناقب تاج الأولياء ومعدن الأصفياء وسلطان الأولياء

الشيخ محيي الدين عبد القادر الجيلاني

للعلامة الشيخ محمد بن يحيى التادفي

المتوفى سنة ٩٦٣هـ

تحقيق وتعليق

أحمد فريد المزيدي

ترجمة مختصرة
للمصنّف

هو الشيخ الإمام العالِم العلّامة الفقيه المؤرّخ المفسّر اللغوي الأديب القاضي:

جلال الدين، أبو البركات محمد بن يحيىٰ بن يوسف الربعي، التاذفي، الحلبي، الحنبلي، ثم الحنفي.

وُلِدَ بحلب في عاشر ربيع الأول، وأخذ عن جماعة بحلب والقاهرة، ووُلّي نيابة قضاء الحنابلة بحلب عن أبيه، ثم وُلّي نظر الجامع الأموي بدمشق عن والده، وضم إليه نظر الحرمين الشريفين، ثم سافر إلى القاهرة، فناب للحنابلة بمحكمة الصالحية النجمية ثم بباب الشعرية، ثم وُلّي نظر وقف الأشراف بالقاهرة، فقضاء رشيد فقضاء المنزلة مرتين، فقضاء حوران، من أعمال دمشق. وتوفي بحلب سنة ٩٦٣ هـ.

من آثاره:

١ ـ قلائد الجواهر في مناقب الشيخ عبد القادر ـ كتابنا هذا. . .

٢ ـ القول المذهب في بيان ما في القرآن الروحي المعرب.

وانظر: شذرات الذهب (٨/ ٣٣٩، ٣٤٠)، والأعلام (٨/ ١١)، ومعجم المؤلفين (٣/ ٧٧٢).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾

[يُونس: الآية ٦٢]

يقول العبد الفقير، المعترف بالذنب والتقصير، الراجي عفو من لطفه خفي، محمد بن يحيىٰ التاذفي غفر الله ذنوبه، وملأ من الخيرات ذنوبه.

الحمد لله الذي فتح لأوليائه طرق الهدى، وأجرى على أيديهم أنواع الخيرات ونجاهم من الردى. فمن اقتدى بهم انتصر واهتدى، ومن عرج عن طريقهم انتكس وتردى، ومن أم حماهم أفلح وسلك ومن أعرض عنهم بالإنكار انقطع وهلك. أحمده حمد من علم أن لا ملجأ منه إلا إليه. وأشكره شكر من اعتقد أن النعم والنقم بيديه. وأصلي وأسلم على سيدنا محمد وعلى آله. عدد أنعام الله وأفضاله.

أما بعد، فإني لمّا طالعت التاريخ المعتبر في أنباء مَن غبر تأليف قاضي القضاة مجير الدين عبد الرحمٰن العليمي العمري المقدسي الحنبلي تغمده الله برحمته وجدت المؤلف قد اختصر في ترجمة سيدنا ومولانا وشيخنا وقدوتنا إلى الله تعالى الشيخ عبد القادر الجيلي الحنبلي رضي الله عنه ولم يذكر إلا اليسير من مناقبه، فتعجبت من ذلك وقلت في نفسي لعله اكتفى بشهرته رضي الله عنه فاختصر، واقتفى ما سلكه العلامة ابن الجوزي رحمة الله عليه واقتصر. فحركتني الإرادة لنيل السعادة أن أجمع مما وقفت عليه في كتب متفرقة ومما سمعته من الثقات ومما هو على خاطري من مناقبه قدّس الله سره، ونور ضريحه، وأتبعها بعد أن أذكر نسبه الشريف بتخلفه وخلقه وعمله وعلمه وطرقه ووعظه وقوله وفعله وما رزقه الله من الأولاد وتعظيم الأولياء له اعترافًا بحقه، وأذكر شيئًا من مناقبهم ومناقب من انتمى إلى جنابه. ولازم الوقوف بعتبة بابه، فإن علو قدر الاتباع من شرف المتبوع، ومزيد فيض الأنهار من عظم الينبوع. واذكر مولده ووفاته واختم ذلك بشيء من مناقبه وما قيل فيه مختصرًا ذلك

عن الإطالة. خوف السآمة والملالة، ووسمته (بقلائد الجواهر، في مناقب الشيخ عبد القادر) وبالله أستعين وهو حسبي ونعم المعين.

فأقول: هو سيدنا شيخ الإسلام مقتدى الأولياء العظام علم الهدى الذي من انتمى إليه كان من السعداء القطب الرباني والفرد الجامع الصمداني والأصل الطاهر محيي الدين أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح جنكي دوست وقيل جنكا دوست موسى بن أبي عبد الله بن يحيىٰ الزاهد بن محمد بن داود بن موسى بن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله المحض وينعت بالمجل أخذه من الإجلال ابن الحسن المثنى ابن أمير المؤمنين أبي محمد الحسن ابن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ابن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نذار بن معد بن عدنان القرشي الهاشمي العلوي الحسني الجيلي الحنبلي سبط سيدنا عبد الله الصومعي الزاهد المذكور، كان من جملة مشايخ جيلان ورؤساء زهادهم له الأحوال السنية والكرامات الجلية لقي جماعة من عظماء مشايخ العجم رضي الله عنهم، وأن الشيخ أبا عبد الله محمد القزويني، قال الشيخ عبد الله الصومعي كان مجاب الدعوة وإذا غضب انتقم الله عزَّ وجلَّ سريعًا وإذا أحب أمرًا فعله الله تعالى كما يختار وكان مع ضعف قوته وكبر سنه كثير النوافل دائم الذكر ظاهر الخشوع صابرًا على حفظ حاله ومراعاة أوقاته ولقد كان يخبر بالأمر قبل وقوعه فيقع كما يخبر.

قال: وحكى لنا بعض أصحابنا أنهم خرجوا تجارًا في قافلة فخرجت عليهم خيل في صحراء سمرقند قال: فصحنا بالشيخ عبد الله الصومعي فإذا هو قائم بيننا ونادى سبوح قدوس ربنا الله تفرقي يا خيل عنا ففرت بهم في رؤوس الجبال وبطون الأودية وسلمنا منهم وطلبنا الشيخ من بيننا فلم نجده ولم نر أين ذهب ولما رجعنا إلى جيلان وأخبرنا الناس بذلك قالوا: والله ما غاب الشيخ رضي الله عنه، وقال الحافظان الذهبي وابن رجب: إن أباه صالح عبد الله بن جنكي دوست والله أعلم، أقول وجنكي دوست لفظ عجمي معناه يحب القتال والله سبحانه وتعالى أعلم.

وأمه أم الخير أمة الجبار فاطمة بنت الشيخ عبد الله الصومعي الحسيني الزاهد وكان لها حظ وافر من الخير والصلاح نقل عنها أنها كانت تقول لما وضعت ابني عبد القادر كان لا يرضع ثديه في نهار رمضان وغم على الناس هلال رمضان فأتوني

وسألوني عنه فقلت لهم لم يلقم اليوم ثديًا ثم اتضح أن ذلك اليوم كان من رمضان واشتهر ذلك ببلاد جيلان أنه ولد للأشراف ولد لا يرضع في نهار رمضان وقيل إن أمه حملت به وهي بنت ستين سنة، ويقال لا تحمل لستين سنة إلا قرشية ولا تحمل لخمسين إلا عربية.

ولما وضعته رضي الله عنه تلقته يد الكرامة وحف بالتوفيق من خلفه وأمامه ولم يزل رضي الله عنه مربى في حجر الكرم مغذى بلبان النعم محفوظًا بالحماية ملحوظًا بالعناية إلى أن قدم إلى بغداد في السنة التي مات فيها التميمي وهي سنة ثمان وثمانين وأربعمائة وعمره ثمان عشرة سنة، وكان الخليفة ببغداد إذ ذاك المستظهر بالله أبو العباس أحمد بن المقتدى بأمر الله أبو القاسم عبد الله العباسي رحمه الله تعالى، قال الشيخ الإمام تقي الدين محمد الواعظ اللبناني عفا الله عنه في كتابه الموسوم بروضة الأبرار ومحاسن الأخيار فلما دخل إلى بغداد وقف له الخضر عليه السلام ومنعه الدخول، وقال له: ما معي أمر بأن تدخل إلى سبع سنين، فأقام على الشط سبع سنين يلتقط من البقالة من المباح حتى صارت الخضرة تبين من عنقه ثم قام ذات ليلة فسمع الخطاب يا عبد القادر أدخل بغداد فدخل وكانت ليلة مطيرة باردة فجاء إلى زاوية الشيخ حماد بن مسلم الدباس، فقال الشيخ: أغلقوا باب الزاوية وأطفئوا الضوء، فجلس الشيخ عبد القادر على الباب فألقى الله تعالى عليه النوم فنام فأجنب ثم قام فاغتسل فألقى الله تعالى عليه النوم فأجنب ولم يزل كذلك سبع عشرة مرة وهو يغتسل عيب كل مرة فلما كان عند الصبح فتح الباب فدخل الشيخ عبد القادر فقام إليه الشيخ حماد فاعتنقه وضمه إليه، وبكى وقال له: يا ولدي عبد القادر الدولة اليوم لنا وغدًا لك فإذا وليت فاعدل بهذه الشيبة انتهى كلامه.

وقال الشيخ الإمام الأوحد نور الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن جرير بن معضاد بن فضل الشافعي اللخمي مؤلف بهجة الأسرار فيا له من قادم تواردت بقدومه مقدمات السعادة لأرض نزل بلادها وترادفت عليها سحائب الرحمة فعمت طارفها وتلادها وتضاعف فيها الهدى فأضاءت أبدالها وأوتادها وتتابعت إليها وفود التهاني فأصبحت كل أحيانها أعيادها، وأضحى قلب العراق بنور وده بالبشر متواجد ولسان ثغره بأقبال وجهه ينطق لله بالمحامد:

لمقدمه أنهل السحاب وأعشب العـ ـراق وزال الغي واتّضح الرّشد
فعيدانه رند وصحراؤه حمى وحصباؤه در وأنواره شهد

يميس به صدر العراق صبابة   وفي قلب نجد من محاسنه وجد
وفي الشرق برق من مقابس نوره   وفي الغرب من ذكرى جلالته رعد

انتهى كلامه ملخصًا.

ولما علم رضي الله عنه أن طلب العلم على كل مسلم فريضة وأنه شفاء للأنفس المريضة إذ هو أفصح منهاج التقى سبيلًا، وأبلغها حجة، وأظهرها دليلًا، وأرفع معارج اليقين، وأعلى مدارج المتقين، وأعظم مناصب الدين، وأفخر مراتب المهتدين شمر عن ساعد الجد والاجتهاد في تحصيله وسارع في طلب فروعه وأصوله وقصد أشياخ الأئمة أعلام الهدى علماء الأمة، وتفقه بعد أن قرأ القرآن العظيم حتى أتقنه وعمر بدراسته سره وعلنه بأبي الوفاء علي بن عقيل الحنبلي وأبي الخطاب محفوظ الكلوذاني الحنبلي وأبي الحسن محمد ابن القاضي أبي يعلى محمد بن الحسين بن محمد بن الفراء الحنبلي والقاضي أبي سعيد، وقيل أبو سعيد المبارك بن علي المخرمي الحنبلي مذهبًا وخلافًا وفروعًا وأصولًا، وقرأ الأدب على أبي زكريا يحيىٰ بن علي التبريزي وسمع الحديث من جماعة منهم أبو غالب محمد بن الحسن الباقلاني وأبو سعيد محمد بن عبد الكريم بن خشيشا، وأبو الغنائم محمد بن محمد بن علي بن ميمون الفرسي وأبو بكر أحمد بن المظفر وأبو جعفر بن أحمد بن الحسين القاري السراج وأبو القاسم علي بن أحمد بن بنان الكرخي وأبو طالب عبد القادر بن محمد بن يوسف وابن عمه عبد الرحمٰن بن أحمد وأبو البركات هبة الله بن المبارك وأبو العز محمد بن المختار وأبو نصر محمد وأبو غالب أحمد وأبو عبد الله يحيىٰ أولاد علي البنا وأبو الحسن بن المبارك بن الطيور وأبو منصور عبد الرحمٰن القزاز وأبو البركات طلحة العاقولي وغيرهم وصحب رضي الله عنه أبا الخير حماد بن مسلم بن دروه الدباس، وأخذه عنه علم الطريقة وتأدب به وسلك على يده رضي الله عنهما.

وأخذ رضي الله عنه الخرقة الشريفة ولبسها من القاضي أبي سعيد المبارك المخرمي السابق ذكره ولبسها المخرمي من الشيخ أبي الحسن علي بن محمد القرشي ولبسها القرشي من أبي الفرج الطرسوسي ولبسها الطرسوسي من أبي الفضل عبد الواحد التميمي ولبسها التميمي من يد شيخه الشيخ أبي بكر الشبلي ولبسها الشبلي من الشيخ أبي القاسم الجنيد ولبسها الجنيد من خاله السري السقطي ولبسها السري السقطي من الشيخ معروف الكرخي ولبسها الكرخي من داود الطائي ولبسها

داود الطائي من سيدي حبيب العجمي ولبسها حبيب العجمي من الشيخ حسن البصري ولبسها البصري من مولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وعلي رضي الله عنه أخذها من سيد المرسلين وحبيب رب العالمين محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ومحمد ﷺ أخذ عن جبريل عليه السلام وجبريل أخذ عن الحق جل جلاله وتقدست أسماؤه.

وسئل سيدي الشيخ عبد القادر ما الذي أخذه عن الحق جل وعلا؟ فقال: العلم والأدب وللخرقة طريقة أخرى إلى علي بن موسى الرضى ولا تثبت مسندة مثل الحديث وإنما المعتبر فيها الصحبة والمخرمي بضم الميم وفتح الخاء المعجمة وكسر الراء المهملة وتشديدها ثم ميم وبعدها ياء النسبة نسبة إلى محلة المخرم ببغداد نزلها بعض ولد يزيد بن المخرم فسميت به. قال القاضي أبو سعيد المخرمي المذكور لبس عبد القادر الجيلي مني خرقة ولبست منه خرقة يتبرك كل واحد منّا بالآخر.

ونقل العلّامة إبراهيم الديري الشافعي مؤلف مختصر الروض الزاهر أنه أخذ التصوف عن الشيخ أبي يعقوب يوسف بن أيوب بن يوسف بن الحسين بن وهرة الهمداني الزاهد الآتي ذكره لما قدم بغداد ولقي رضي الله عنه جماعة من أعيان زهاد الزمان، وكان لأبي سعيد المخرمي مدرسة لطيفة بباب الأزج ففوضت إلى سيدنا الشيخ عبد القادر فتكلم فيها على الناس بلسان الوعظ والتذكير وظهر له كرامات وصيت وقبول وضاقت المدرسة بالناس من ازدحامهم على مجلسه ومن شدة الازدحام والضيق كان يجلس للناس عند السور مستندًا إلى باب الرباط على الطريق ثم وسعت بما أضيف إليها من المنازل والأمكنة التي حولها وبذل الأغنياء في عمارتها أموالهم وعمل الفقراء فيها بأنفسهم وجاءته امرأة مسكينة بزوجها وكان من الفعلة، وقالت له: هذا زوجي ولي عليه من مهري عشرون دينارًا ذهبًا ووهبت له النصف بشرط أن يعمل في مدرستك بالنصف الباقي فقبل الزوج ذلك وأحضرت المرأة الخط وسلمته للشيخ فكان يشغله في المدرسة ويعطيه يومًا أجرته ويومًا لا يعطيه لعلمه بأنه فقير محتاج لا يملك شيئًا إلى أن عمل بخمسة دنانير فأخرج له الخط ودفعه له وقال: أنت في حل من الباقي رضي الله عنه، وتكملت المدرسة في سنة ثمان وعشرين وخمسمائة وصارت منسوبة إليه وتصدر بها للتدريس والفتوى والوعظ مع الاجتهاد في العلم والعمل وقصد بالزيارات والنذور من جميع الأقطار والبلاد واجتمع عنده بها من العلماء والصلحاء جماعة من الآفاق فحملوا عنه وسمعوا منه وانتهت إليه تربية

المريدين بالعراق واختلفت الألسن ببدائع أوصافه فمن واصف له بذي البيانين ومن ناعت له بكريم الجدين والطرفين ومن ملقب له بصاحب البرهانين والسلطانين ومن داع له بإمام الفريقين والطريقين ومن مسم له بذي السراجين والمنهاجين ولذلك انتمى إليه جمع من العلماء وتلمذ له خلق كثير لا يحصون فممن انتمى إليه من المشايخ وأخذ عنه من العلوم الشيخ الإمام القدوة أبو عمرو عثمان بن مرزوق بن حميد بن سلامة القرشي نزيل مصر.

قال الشيخ عبد الرزاق: لما حجّ والدي رحمه الله تعالى في السنة التي كنت معه فيها اجتمع به في عرفات الشيخان ابن مرزوق وأبو مدين ولبسا منه خرقة بركة وسمعا عليه جزءًا من مروياته وجلسا بين يديه، وقال الشيخ سعد بن عثمان بن مرزوق المذكور وكان أبي رحمه الله تعالى يقول: قال شيخنا عبد القادر كذا وكذا رأيت سيدنا الشيخ عبد القادر يفعل كذا سمعت أستاذنا الشيخ أبا محمد عبد القادر يقول: كذا كان إمامنا وقدوتنا الشيخ عبد القادر يفعل كذا، والشيخ الإمام العالم القاضي أبو يعلى محمد بن خمد الفراء الحنبلي، قال عبد العزيز بن الأخضر سمعت أبا يعلى يقول: جالست الشيخ عبد القادر كثيرًا وقلت بإرادته والشيخ الفقيه أبو الفتح نصر المنى، والشيخ أبو محمد محمود بن عثمان البقال والإمام أبو حفص عمر بن أبي نصر بن علي الغزال، والشيخ أبو محمد الحسن الفارسي، والشيخ عبد الله بن أحمد الخشاب، والإمام أبو عمرو عثمان الملقب بشافعي زمانه، والشيخ محمد بن الكيزان، والشيخ الفقيه رسلان بن عبد الله بن شعبان، والشيخ محمد بن قائد الأواني وعبد الله بن سنان الرديني والحسن بن عبد الله بن رافع الأنصاري، والشيخ طلحة بن مظفر بن غانم العلثمي وأحمد بن سعد بن وهب بن علي الهروي ومحمد بن الأزهر الصيرفيني ويحيىٰ بن البركة محفوظ الديبقي وعلي بن أحمد بن وهب الأزجي وقاضي القضاة عبد الملك بن عيسى بن هرباس المارائي وأخوه عثمان وولده عبد الرحمٰن وعبد الله بن نصر بن حمزة البكري وعبد الجبار بن أبي الفضل القفصي وعلي بن أبي ظاهر الأنصاري وعبد الغني بن عبد الواحد المقدسي الحافظ والإمام موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد قدامة المقدسي الحنبلي وإبراهيم بن عبد الواحد المقدسي الحنبلي. قال الشيخ شمس الدين عبد الرحمٰن بن أبي عمر المقدسي، سمعت عمي الشيخ موفق الدين يقول لبست أنا والحافظ عبد الغني الخرقة من يد شيخ الإسلام عبد القادر في وقت واحد واشتغلنا عليه بالفقه وسمعنا منه وانتفعنا بصحبته ولم يدرك من حياته غير خمسين ليلة ومحمد بن أحمد بن بختيار وأبو محمد عبد الله بن أبي الحسن

الجبائي وخلف بن عباس المصري وعبد المنعم بن علي الحراني وإبراهيم الحداد اليمني وعبد الله الأسدي اليمني وعطيف بن زياد اليمني وعمر بن أحمد اليمني الهجري ومدافع بن أحمد وإبراهيم بن بشارة العدلي وعمر بن مسعود البزار وأستاذه مير بن محمد الجيلاني وعبد الله البطائحي نزيل بعلبك ومكي بن أبي عثمان السعدي، وولده عبد الرحمٰن وصالح وعبد الله بن الحسن بن العكبري وأبو القاسم بن أبي بكر أحمد وأخوه أحمد وعتيق وعبد العزيز بن أبي نصر الجنايدي ومحمد بن أبي المكارم الحجة اليعقوبي وعبد الملك بن ديال وولده أبو الفرج وأبو أحمد الفضيلة وعبد الرحمٰن بن نجم الخزرجي ويحيىٰ التكريني وهلال بن أمية العدني ويوسف مظفر العاقولي وأحمد بن إسماعيل بن حمزة وعبد الله بن أحمد بن المنصوري سدونة الصيريفيني وعثمان الباسري ومحمد الواعظ الخياط وتاج الدين بن بطة وعمر بن المدايني وعبد الرحمٰن بن يقا ومحمد النخال وعبد العزيز بن كلف وعبد الكريم بن محمد المصري وعبد الله بن محمد بن الوليد وعبد المحسن بن الدويرة ومحمد بن أبي الحسين ودلف الحريمي وأحمد بن الدبيقي ومحمد بن أحمد المؤذن ويوسف بن هبة الله الدمشقي وأحمد بن مطيع وعلي بن النفيس المأموني ومحمد بن الليث الضرير والشريف أحمد بن منصور وعلي بن أبي بكر بن إدريس ومحمد بن نصرة وعبد اللطيف بن محمد الحراني وغيرهم ممن لا يمكن إثبات اسمه بهذا المختصر خوف الإطالة والضجر.

قال الشيخ موفق الدين بن قدامة المقدسي رحمه الله تعالى: كان شيخنا محيي الدين عبد القادر رضي الله عنه نحيف البدن ربع القامة عريض الصدر واللحية طويلها أسمر مقرون الحاجبين خفيًا ذا صوت جهوري، وسمت وقدر علي وعلم وفي رضي الله عنه.

قال الشيخ الإمام العلامة أبو الحسن علي المقري الشطنوفي المصري في كتابه البهجة الذي فيه أخبار سيدنا وشيخنا محيي السنة والدين الشيخ عبد القادر الجيلي ومناقبه وكراماته رضي الله عنه، عن قاضي القضاة أبي عبد الله محمد ابن الشيخ العماد إبراهيم عبد الواحد المقدسي، قال: سمعت شيخنا موفق الدين بن قدامة، يقول: دخلنا بغداد سنة إحدى وستين وخمسمائة فإذا الشيخ عبد القادر مما انتهت إليه الرياسة بها علمًا وعملًا وحالًا واستفتاء كان يكفي طالب العلم عن قصد غيره من كثرة ما اجتمع فيه من العلوم والصبر على المشتغلين وسعة الصدر كان ملء العين وجمع الله فيه أوصافًا جميلة وأحوالًا عزيزة وما رأيت بعده مثله. وقال غيره

كان الشيخ رضي الله عنه سكوته أكثر من كلامه وكان يتكلم على الخواطر وله قبول تام لا يخرج من مدرسته إلا يوم الجمعة إلى الجامع أو إلى رباطه وتاب على يديه معظم أهل بغداد وأسلم معظم اليهود والنصارى وكان يصدع بالحق على المنبر وينكر على مَن يولي الظلمة، ولما ولى المقتفي لأمر الله أمير المؤمنين للقاضي أبي الوفا يحيىٰ بن سعيد بن المظفر المشهور بابن المزحم الظالم، قال على المنبر: وليت على المسلمين أظلم الظالمين، ما جوابك غدًا عند رب العالمين أرحم الراحمين. فارتعد الخليفة وبكى وعزل القاضي المذكور لوقته، وقال الحافظ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي في تاريخه، أنبأنا أبو بكر بن طرخان أن الشيخ الموفق أخبره، قال: وقد سئل عن الشيخ عبد القادر رضي الله عنه أدركناه في آخر عمره فأسكننا في مدرسته وكان يعنى بنا وربما أرسل إلينا ابنه يحيىٰ فيسرج لنا السراج وربما أرسل إلينا طعامًا من منزله وكان يصلي الفريضة بنا إمامًا وكنت أقرأ عليه من حفظي من كتاب الخرقي غدوة، ويقرأ عليه الحافظ عبد الغني من كتاب الهداية في الكتاب وما كان أحد يقرأ عليه ذلك الوقت سوانا فأقمنا عنده شهرًا وتسعة أيام ثم مات وصلينا عليه ليلًا في مدرسته ولم أسمع عن أحد يحكي من الكراميات أكثر مما يحكي عنه ولا رأيت أحدًا يعظمه الناس من أجل الدين أكثر منه، وسمعنا عليه أجزاء يسيرة وقال في تاريخ الإسلام الشيخ أبو محمد محيي الدين والسنة عبد القادر بن أبي صالح عبد الله بن جنكا دوست الجيلي الزاهد صاحب الكرامات والمقامات وشيخ الفقهاء والفقراء، وكان إمام زمانه وقطب عصره وشيخ شيوخ الوقت بلا مدافعة، وقال في آخر ترجمته كان الشيخ عبد القادر رضي الله عنه رأسًا في العلم والعمل وفي الجملة فكراماته متواترة جمة ولم يخلف بعده مثله، وقال في سيرة النبلاء الشيخ الإمام العالم الزاهد العارف القدوة شيخ الإسلام علم الأولياء تاج الأصفياء محيي السنة مميت البدعة معقل العلم السيد الشريف الحسيب النسيب الحافظ الأحاديث جده سيد المرسلين محمد ﷺ الشيخ محيي الدين أبو محمد عبد القادر بن صالح الجيلي الحنبلي شيخ بغداد وغفيرها رضي الله عنه انتهى كلامه ملخصًا.

وقال في العبر الشيخ عبد القادر بن أبي صالح عبد الله بن جنكي دوست الجيلي شيخ بغداد الزاهد شيخ العصر وقدوة العارفين وصاحب المقامات والكرامات ومدرس الحنابلة محيي الدين انتهى إليه التقدم في الوعظ والكلام على الخواطر رضي الله عنه.

وقال الحافظ أبو سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني في تاريخه أبو محمد عبد القادر من أهل جيلان إمام الحنابلة وشيخهم في عصره ففيه صالح دين خير كثير الذكر دائم الفكر سريع الدمعة كتبت عنه انتهى.

وقال محب الدين محمد بن النجار في تاريخه عبد القادر بن أبي صالح بن جنكا دوست الزاهد من أهل جيلان أحد أئمة المسلمين العاملين بعلمهم صاحب الكرامات الظاهرة. ذكر أنه دخل بغداد في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة وله ثمان عشرة سنة فقرأ الفقه وأحكم الأصول والفروع والخلاف وسمع الحديث واشتغل بالوعظ إلى أن برز فيه ثم لازم الانقطاع والخلوة والرياسة والسياحة والمجاهدة الشديدة وتحمل الأحوال المشقة والدخول في الأمور الصعبة من مخالفة النفس وملازمة السهر والجوع والمقام في الخراب والصحارى وصحب الشيخ حمادًا الدباس الزاهد وأخذ عنه علم الطريقة، ثم إن الله أظهره للخلق وأوقع القبول العظيم عند الخاص والعام. اهـ.

وقال الحافظ زيد الدين بن رجب في طبقاته: عبد القادر بن أبي صالح عبد الله بن جنكي دوست بن أبي عبد الله الجيلي ثم البغدادي الزاهد شيخ العصر وعلامة الحين وقدوة العارفين وسلطان المشايخ وسيد أهل الطريقة محيي الدين أبو محمد إلى أن قال في أثناء ترجمته ظهر للناس وحصل له القبول التام وانتصر أهل السنة الشريفة بظهوره وانخذل أهل البدع والأهواء واشتهرت أحواله وأقواله وكراماته ومكاشفاته وجاءته الفتاوى من سائر الأقطار والبلاد وهابه الخلفاء والوزراء والملوك فمن دونهم انتهى كلامه ملخصًا.

وقال قاضي القضاة محب الدين العليمي في تاريخه كان سيدنا الشيخ عبد القادر رضي الله عنه إمام الحنابلة وشيخهم في عصره وله كتاب الغنية لطالبي طريق الحق وكتاب فتوح الغيب، وقال الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد البرزالي الأشبيلي رحمه الله تعالى في كتاب المشيخة البغدادية للرشيد بن مسلمة عبد القادر الجيلاني فقيه الحنابلة وشافعية ببغداد وشيخ جماعتهما وله القبول التام عند الفقهاء والفقراء والعوام وهو أحد أركان الإسلام وانتفع به الخاص والعام، وكان مجاب الدعوة سريع الدمعة دائم الذكر كثير الفكر رقيق القلب دائم البشر كريم النفس سخي اليد غزير العلم شريف الأخلاق طيب الأعراق مع قدم راسخ في العبادة والاجتهاد. وقال إبراهيم بن سعد الداري كان شيخنا عبد القادر رضي الله عنه يلبس

لباس العلماء ويتطيلس ويركب البغلة وترفع الغاشية بين يديه ويتكلم على كرسي عال وكان في كلامه سرعة وجهر وله كلمة مسموعة إذا أنصت له وإذا أمر ابتدر لأمره وإذا رآه القلب القاسي خشع.

وقال الحافظ عماد الدين بن كثير في تاريخه الشيخ محيي السنة والدين عبد القادر بن أبي صالح أبو محمد الجيلي دخل بغداد فسمع الحديث واشتغل به حتى برع فيه إلى أن قال وكان له اليد الطولى في الحديث والفقه والوعظ وعلوم الحقائق وكان له صمت حسن وصمت عن غير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإنه كان يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر للخلفاء والوزراء والسلاطين والقضاة والخاصة والعامة يصدعهم بذلك على رؤوس الأشهاد ورؤوس المنابر وفي المحافل وينكر على من يولي الظلمة ولا يأخذه في الله لومة لائم وكان فيه زهد كثير وله أحوال خارقات للعادات ومكاشفات وبالجملة كان من سادات المشايخ الكبار قدس الله سرّه ونور ضريحه انتهى كلامه ملخصًا.

وكان رضي الله عنه يأمر كل ليلة بمد السماط ويأكل مع الأضياف ويجالس الضعفاء ويصبر على طلبة العلم لا يظن جليسه أن أحدًا أكرم عليه منه ويتفقد من غاب من أصحابه ويسأل عن شأنهم ويحفظ ودهم ويعفو عن سيئاتهم ويصدق من حلف له ويخفي علمه فيه، وكان له حنطة مرباة من الحلال بيد بعض أصحابه من الرستاق يزرعها له كل سنة وكان بعض أصحابه يطحنها ويخبز له منها أربعة أقراص أو خمسة ويأتي بها إليه آخر النهار فكان رضي الله عنه يفرق منها على من حضره كسرة كسرة والباقي يدخره لنفسه وكان غلامه مظفر يقف على باب داره والطبق فيه الخبز على يده ويقول من يريد الخبز من يريد العشاء من يريد المبيت وإذا أهديت إليه هدية فرقها أو بعضها على من حضره ويكافىء عليها مهديها وكان يقبل النذر ويأكل منه رضي الله عنه.

قال العلامة ابن النجار في تاريخه، قال الجبائي، قال لي الشيخ عبد القادر فتشت الأعمال كلها فما وجدت فيها أفضل من إطعام الطعام ولا أشرف من الخلق الحسن أو دلو كانت الدنيا بيدي أطعمها الجائع وقال قال لي: كفى مثقوبة لا تضبط شيئًا لو جاءني ألف دينار لم تبت عندي. وقال أحمد بن المبارك المرفعاني وكان من جملة من يتفقه على الشيخ عبد القادر رجل أعجمي اسمه أبي وكان بعيد الخاطر بعيد الذهن لا يكاد يفهم الشيء إلا بعد تعب ومشقة فبينا هو بعض الأيام

يقرأ على الشيخ إذ دخل ابن السمحل لزيارة الشيخ فتعجب من صبر الشيخ عليه فلما قام أبي قال ابن السمحل للشيخ لقد عجبت من صبرك على هذا المتفقه، فقال الشيخ: قد بقي من تعبي معه دون الأسبوع ويمضي إلى الله تعالى فتعجبنا لذلك وأخذنا نعد يومًا بعد يوم حتى مات أبي في آخر يوم من الأسبوع وحضر ابن السمحل ذلك اليوم للصلاة عليه وتعجب من إعلام الشيخ بموته قبل دنو أجله رحمه الله ورضي الله عن سيدنا الشيخ.

وقال الشيخان أبو العباس أحمد وأبو صالح المطبقي: أجدبت جيلان مرة واستسقى أهلها فلم يجابوا ولم يسقوا فأتوا إلى عمة الشيخ عبد القادر رضي الله عنه وكانت امرأة صالحة وكان لها كرامات ظاهرة واسمها عائشة وكنيتها أم محمد بنت عبد الله رضي الله عنها وسألوها الاستسقاء لهم فقامت إلى رحبة بيتها وكنست الأرض، وقالت: يا رب أنا كنست فرش أنت فلم يلبثوا أن أمطرت السماء كأفواه للقرب ورجعوا إلى بيوتهم يخوضون في الماء رضي الله عنها.

وقال الشيخ محمد بن قائد الأواني رحمة الله عليه: كنت عند سيدي الشيخ عبد القادر رضي الله عنه فسألته مسائل منها علام بنيت أمرك؟ فقال: على الصدق ما كذبت قط ولا لما كنت في المكتب، ثم قال في المكتب، ثم قال: كنت صغيرًا في بلدنا فخرجت إلى السواد في يوم عرفة وتبعت بقرة حراثة فالتفتت إلى بقرة، وقالت: يا عبد القادر ما لهذا خلقت فرجعت فزعًا إلى دارنا وصعدت إلى سطح الدار فرأيت الناس واقفين بعرفات فجئت إلى أمي وقلت لها: هبيني لله عزَّ وجلَّ وائذني لي في المسير إلى بغداد اشتغل بالعلم وأزور الصالحين، فسألتني عن سبب ذلك فأخبرتها خبري فبكت وقامت إلى ثمانين دينارًا أورثها أبي فتركت لأخي أربعين دينارًا وخاطت في دلقي أربعين دينارًا وأذنت لي في المسير وعاهدتني على الصدق في كل أحوالي وخرجت مودعة لي، وقالت: يا ولدي أذهب فقد خرجت عنك لله عزَّ وجلَّ فهذا وجه لا أراه إلى يوم القيامة فسرت مع قافلة صغيرة بطلب بغداد فلما تجاوزنا همذان وكان بأرض ربيك خرج علينا ستون فارسًا فأخذوا القافلة ولم يتعرض لي أحد فاجتاز بي أحدهم، وقال: يا فقير ما معك، فقلت: أربعون دينارًا، فقال: وأين هي، فقلت: مخاطة في دلقي تحت إبطي فظن أني أستهزىء به فتركني وانصرف ومر بي آخر، فقال مثل ما قال الأول وأجبته كجواب الأول فتركني وتوافيا عند مقدمهم وأخبراه بما سمعاه مني فقال علي به فأتى بي إليه وإذا هم على تل يقتسمون أموال القافلة فقال لي: ما معك، قلت: أربعون دينارًا، قال: وأين هي،

قلت: مخاطة في دلقي تحت إبطي فأمر بدلقي ففتق فوجد فيه أربعون دينارًا، فقال لي: ما حملك على هذا الاعتراف، قلت: إن أمي عاهدتني على الصدق وأنا لا أخون عهدها. فبكى وقال: أنت لم تخن عهد أمك وإني إلى اليوم كذا وكذا سنة أخون عهد ربي فتاب على يدي فقال له أصحابه: أنت مقدمنا في قطع الطريق وأنت الآن مقدمنا في التوبة فتابوا كلهم على يدي وردوا على القافلة ما أخذوه منهم فهم أول من تاب على يدي. وقيل له رضي الله عنه: متى علمت إنك ولي الله تعالى، قال: كنت وأنا ابن عشر سنين في بلدنا أخرج من دارنا وأذهب إلى المكتب فأرى الملائكة عليهم السلام تمشي حولي فإذا وصلت إلى المكتب سمعت الملائكة يقولون افسحوا لولي الله حتى يجلس فمر بنا يومًا رجل ما عرفته يومئذٍ فسمع الملائكة يقولون ذلك فقال لأحدهم: ما هذا الصبي، فقال له أحدهم: هذا من بيت الأشراف، قال: سيكون لهذا شأن عظيم هذا يعطي فلا يمنع ويمكن فلا يحجب ويقرب فلا يمكر به، ثم عرفت ذلك الرجل بعد أربعين سنة فإذا هو من إبدال ذلك الوقت، وقال رضي الله عنه: كنت صغيرًا في أهلي كلما هممت أن ألعب مع الصبيان أسمع قائلًا يقول لي: إلي يا مبارك فأهرب فزعًا منه وألقي نفسي في حجر أمي وإني لا أسمع الآن هذا في خلواتي.

وقال الشيخ طلحة بن مظفر العلثمي: قال شيخنا عبد القادر رضي الله عنه: أقمت ببغداد عشرين يومًا ما أجد ما أقتات به ولا أجد مباحًا فخرجت إلى إيوان كسرى أطلب مباحًا فوجدت هناك سبعين رجلًا من الأولياء كلهم يطلبون، فقلت: ليس من المروءة أن أزاحمهم، فرجعت إلى بغداد فلقيني رجل لا أعرفه من أهل بلدي فأعطاني قراضة وقال: هذه بعثت بها أمك إليك معي فأخذت منها قطعة تركتها لنفسي وأسرعت بالباقي إلى خراب الإيوان وفرقت القراضة على أولئك السبعين، فقالوا: ما هذا، قلت: إنه قد جاءني هذا من عند أمي وما رأيت أن أختص به دونكم ثم رجعت إلى بغداد واشتريت بالقطعة التي معي طعامًا وناديت الفقراء فأكلنا جميعًا.

وقال أبو بكر التيمي: سمعت سيدنا الشيخ محيي الدين رضي الله عنه يقول: بلغت بي الضائقة في غلاء نزل ببغداد إلى أن بقيت أيامًا لا آكل فيها طعامًا بل كنت أتتبع منبوذات أطعمها فخرجت يومًا من شدة الجوع إلى الشط لعلي أجد ورق الخس والبقل وغير ذلك من المنبوذات أتقوت به فما ذهبت إلى موضع إلا وجدت غيري قد سبقني إليه، وإن أدركت شيئًا وجدت جماعة من الفقراء ولا أستحسن مزاحمتهم عليه

فرجعت أمشي وسط المدينة فلا أدرك موضعًا قد كان فيه شيء منبوذ إلا وقد سبقت إليه حتى وصلت إلى مسجد في سوق الريحانيين وقد أجهدني الجوع وعجزت عن التماسك فدخلت عليه وقعدت في جانب منه وقد كنت أصافح الموت إذ دخل شاب أعجمي معه خبز رصافي وشواء وجلس يأكل فكنت أكاد كلما رفع يده باللقمة أفتح فمي من شدة الجوع حتى أنكرت على نفسي، وقلت: ما هذا ما هٰهنا إلا الله وما قضاه من الموت إذ التفت إلى العجمي فرآني فقال: بسم الله يا أخي، فأبيت عليه فأقسم علي فبدرت نفسي إلى إجابته فأكلت مقصرًا وأخذ يسألني ما شغلك ومن أين أنت ومن تعرف، فقلت: أما شغلي فمتفقه وأما من أين أنا فمن جيلان، فقال لي: وأنا من جيلان فهل تعرف شابًا جيلانيًا يسمى عبد القادر، فقلت: أنا هو فاضطرب لذلك وتغير لونه، وقال: والله يا أخي لقد وصلت إلى بغداد ومعي بقية نفقة لي فسألت عنك فلم يرشدني أحد إلى أن نفدت نفقتي وبقيت بعدها ثلاثة أيام لا أجد ثمن قوتي إلا مما لك معي فلما كان هذا اليوم وهو الثالث قلت: قد تجاوزتني ثلاثة أيام لم آكل فيها طعامًا وقد أحل لي الشارع أكل الميتة فأخذت من وديعتك ثمن الخبز والشواء فكل طيبًا فإنما هو لك وأنا الآن ضيفك بعد أن كان في الظاهر لي وأنت ضيفي، فقلت: وما ذاك، فقال: إن أمك وجهت لك معي ثمانية دنانير فاشتريت منها هذا الطعام وأنا معتذر به إليك من خيانتي لك مع فسحة الشرع لي في بعض ذلك فسكنته وطيبت من نفسه وفضل من طعامنا ما دفعته إليه مع شيء من الذهب فقبله وانصرف.

وقال الشيخ عبد الله السلمي: سمعت سيدنا الشيخ عبد القادر يقول: بقيت أيامًا لم أستطعم فيها بطعام فبينا أنا في محلة القطيعة الشرقية وإذا رجل قد جعل في يدي قرطاسة مصرورة وانصرف فأقبلت حتى دفعتها لبعض البقالين وأخذت منه خبزًا سميذًا وخبيصًا وجئت إلى مسجد مفرد كنت أخلو فيه لإعادة الدرس وتركت ذلك في القبلة بين يدي وأخذت أفكر هل آكل أم لا فلمحت قرطاسًا مطويًا في ظل الحائط فتناولته فإذا فيه مكتوب، قال الله في بعض كتبه السالفة: ما للأقوياء والشهوات إنما جعلت الشهوات لضعفاء المؤمنين ليستعينوا بها على الطاعات، فأخذت المنديل وتركت ما كان فيه في القبلة وصليت ركعتين وانصرفت رضي الله عنه.

وقال الشيخ أبو عبد الله النجار: قال لي سيدنا الشيخ عبد القادر: كانت ترد علي الأثقال الكثيرة لو وضعت على الجبال تفسخت فإذا كثرت علي وضعت جنبي على الأرض، وقلت: فإن مع العسر يسرًا إن مع العسر يسرًا، ثم أرفع رأسي وقد

انفجرت عني تلك الأثقال قال وقال لي: كنت أشتغل بالفقه على المشايخ وأخرج إلى الصحراء ولا آوي بغداد وأجلس في الخراب بالليل والنهار، وكنت ألبس جبة صوف وعلى رأسي خريقة وكنت أمشي حافيًا في الشوك وغيره وأقتات بخرنوب الشوك وقمامة البقل وورق الخس من جانب النهر والشط وما هالني شيء إلا سلكته وكنت آخذ نفسي بالمجاهدة حتى طرقني من الله عزَّ وجلَّ طارق وكان يطرقني بالليل والنهار وآتي الصحراء فأصرخ وأهج على وجهي. وما كنت أعرف إلا بالتخارس والجنون وحملت إلى البيمارستان وطرقتني الأحوال حتى مت وجاؤوا بالكفن والغاسل وجعلوني على المغتسل ليغسلوني ثم سرى عني.

وقال الشيخ أبو السعود الحريمي: سمعت سيدي الشيخ عبد القادر رضي الله عنه يقول: أقمت في صحاري العراق وخرابه خمسة وعشرين سنة مجردًا سائحًا لا أعرف الخلق ولا يعرفوني تأتيني طوائف من رجال الغيب والجان أعلمهم الطريق إلى الله عزَّ وجلَّ ورافقني الخضر عليه السلام في أول دخولي إلى العراق، وما كنت عرفته وشرط أن لا أخالفه، وقال لي: اقعد هنا، فجلست في المكان الذي أقعدني فيه ثلاث سنين يأتيني في كل سنة مرة ويقول لي: مكانك حتى آتيك، وكانت الدنيا وزخرفها وشهواتها تأتيني في صورها فيحميني الله عزَّ وجلَّ من الالتفات إليها وتأتيني الشياطين في صور شتى مزعجات ويقاتلونني فيقويني الله عليهم وتبرز إلى نفسي في صورة فتارة تتضرع إلي فيما تريده، وتارة تحاربني فينصرني الله عليها. وما آخذت نفسي في حال البداية بطريق من طرق المجاهدات إلا ولازمته واعتنقته وأخذته بكلتا يدي وأقمت زمانًا في خراب المدائن آخذ نفسي بطريق المجاهدات فمكثت سنة آكل المنبوذ ولا أشرب الماء وسنة أشرب الماء ولا آكل المنبوذ وسنة لا آكل ولا أشرب ولا أنام ونمت بإيوان كسرى في ليلة شديدة البرد فاحتلمت فقمت وذهبت إلى الشط فاغتسلت فاحتلمت تلك الليلة أربعين مرة واغتسلت في الشط أربعين مرة ثم صعدت إلى الإيوان خوف النوم وأقمت في خراب الكوخ سنين لا أقتات فيها إلا بالبردى ويأتيني رجل في رأس كل سنة بجبة صوف، ودخلت في ألف فن حتى أستريح من دنياكم وما كنت أعرف إلا بالتخارس والبلم والجنون وكنت أمشي حافيًا في الشوك وغيره وما هالني شيء إلا سلكته ولا غلبتني نفسي فيما تريده قط ولا أعجبني من زينة الدنيا شيء قط رضي الله عنه.

وقال الشيخ عمر: سمعت سيدنا الشيخ عبد القادر رضي الله عنه يقول: كانت الأحوال تطرقني في بداية سياحتي فأقاربها فأملكها فأغيب فيها عن وجودي وأعدو وأنا

لا أدري فإذا سرى عني من ذلك وجدت نفسي في مكان بعيد عن المكان الذي كنت فيه وطرقني الحال مرة وأنا في خراب بغداد وعدوت قدر ساعة وأنا لا أدري ثم سرى عني وإذا أنا في بلاد ششتر بيني وبين بغداد اثنا عشر يومًا فبقيت مفكرًا في أمري وإذا امرأة تقول لي أتعجب من هذا الأمر وأنت الشيخ عبد القادر رضي الله عنه.

وقال الشيخ عثمان الصيرفيني: سمعت سيدنا الشيخ عبد القادر يقول: كنت أجلس في الخراب بالليل والنهار ولا آوي في بغداد وكانت الشياطين تأتيني صفوفًا رجالًا بأنواع السلاح وأزعج الصور يقاتلوني ويرموني بالنار فأجد في قلبي تثبتًا لا يعبر عنه وأسمع مخاطبًا من بطين يقول: قم إليهم يا عبد القادر فقد ثبتناك تثبيتًا وأيّدناك بنصرنا فما هو إلا أن أنهض إليهم فيفرون يمينًا وشمالًا ويذهبون من حيث أتوا، وكان يأتيني الشيطان منهم وحده ويقول لي: اذهب من هنا وإلا فعلت وفعلت ويحذرني تحذيرًا كثيرًا فألطمه بيدي فيفرّ مني فأقول: لا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم، فيحترق وأنا أنظر إليه. وأتاني مرة شخص كريه المنظر مُنتن الريح وقال: أنا إبليس أتيتك أخدمك فقد أعييتني وأعييت أتباعي، فقلت: اذهب فإني لا آمنك. فجاءت يد من فوقه وضربت أم رأسه فغاص في الأرض، ثم أتاني ثانية وبيده شهاب من نار يقاتلني به فأتاني رجل ملثّم راكب فرسًا أشهب وناولني سيفًا فنكص إبليس على عقبيه، ثم رأيته ثالثة جالسًا بالبعد مني وهو يبكي ويحثو التراب على رأسه ويقول: قد آيست منك يا عبد القادر، فقلت له: اخسأ بالعين فإني لا أزال حذرًا منك، فقال: هذه أشد من مقامع العذاب، ثم كشف لي عن أشراك كثيرة ومصايد ومخايل فقلت: ما هذه؟ فقيل لي: هذه أشراك الدنيا يصيد بها مثلك، قال: فنهرته فولّى هاربًا فتوجهت في أمرها سنة حتى تقطعت كلها، ثم كشف لي عن أسباب كثيرة متصلة بي من كل جهة، فقلت: ما هذه؟ فقيل لي: هذه أسباب الخلق متصلة بك فتوجهت في أمرها سنة أخرى حتى تقطعت كلها وانفردت عنها. ثم كشف لي عن باطني فرأيت قلبي مناطًا بعلائق كثيرة، فقلت: ما هذه؟ فقيل لي: هذه إرادتك واختياراتك فتوجهت في أمرها سنة أخرى حتى تقطعت جميعها وتخلص منها قلبي. ثم كشف لي عن نفسي فرأيت أدواءها باقية وهواها حيًا وشيطانها ماردًا فتوجهت في ذلك سنة أخرى فبرئت أدواء نفسي ومات الهوى وأسلم الشيطان وصار الأمر كله لله تعالى. وبقيت وحدي الوجود كله من خلفي وما وصلت إلى مطلوبي بعد فاجتذبت إلى باب التوكل لأدخل منه على مطلوبي وإذا عنده زحمة فجزته ثم اجتذبت إلى باب الشكر لأدخل منه وإذا عنده زحمة فجزته ثم اجتذبت إلى باب الغنى لأدخل منه فوجدت عنده زحمة

فجزته ثم اجتذبت لي باب القرب لأدخل منه على مطلوبي فإذا عنده زحمة فجزته ثم اجتذبت إلى باب المشاهدة لأدخل منه على مطلوبي فإذا عنده زحمة فجزته ثم اجتذبت إلى باب الفقر فإذا هو خال فدخلت منه فإذا فيه كل ما تركته وفتح لي منه الكنز الأكبر وأتيت فيه العز الأعظم والغنى السرمد والحرية الخالصة ومحقت البقايا ونسخت الصفات وجاء الوجد الثاني.

وقال الشيخ أبو محمد عبد الله الجبائي: قال لي الشيخ عبد القادر: كنت يومًا جالسًا على مكان بالصحراء أكرر الفقه وأنا في مشقة من الفقر، فقال لي قائل: لم أر شخصه، اقترض ما تستعين به على الفقه، أو قال على طلب العلم، فقلت: كيف أقترض وأنا فقير وليس لي شيء أقضيه منه، فقال لي: اقترض وعلينا الوفاء فجئت إلى رجل يبيع البقل فقلت له: تعاملين بشرط إذا سهل الله لي شيئًا أعطيك وإن مت تجعلني في حل تعطيني كل يوم رغيف وبنصف رغيف رشادًا، قال: فبكى البقال، وقال: يا سيدي أنا بحلك أي شيء أردت فخذ مني فكنت آخذ منه كل يوم رغيفًا وبنصف رغيف رشادًا فأقمت على ذلك مدة فضاق صدري يومًا لكوني لا أقدر على شيء أعطيه فقيل لي امض إلى الموضع الفلاني فأيش رأيت على الدكة فخذه وادفعه إلى البقال أو قال فاقض به دينك فلما جئت إلى ذلك الموضع رأيت على الدكة قطعة ذهب كبيرة فأخذتها وأعطيتها للبقال، قال وقال لي الشيخ عبد القادر: كان جماعة من أهل بغداد يشتغلون بالفقه فإذا كان أيام الغلة يخرجون إلى الرستاق يطلبون شيئًا من الغلة فقالوا لي يوماً: اخرج معنا إلى يعقوبًا نحصل منها شيئًا وكنت صبيًا فخرجت معهم وكان في يعقوبًا رجل صالح يقال له الشريف اليعقوبي فمضيت لأزوره فقال لي: مريدو الحق والصالحون لا يسألون الناس شيئًا ونهاني أن أسأل الناس فما خرجت إلى موضع قط بعد ذلك قال وقال: طرقني ذات ليلة الحال فصرخت صرخة عظيمة فسمع العيارون ففزعوا من المسالحة فجاؤوا حتى وقفوا علي وأنا مطروح على الأرض فعرفوني فقالوا: هذا عبد القادر المجنون أزعجتنا لأذكرك الله بخير.

فائدة: العيارون جمع عيار وهو لغة من يكثر المجيء والذهاب وهنا هم المتلصصة والمسالحة بفتح الميم والسين والحاء المهملتين هم الحرس لأنهم يكونون أصحاب سلاح والله أعلم.

وقال الشيخ عبد الله الجبائي: قال لي الشيخ عبد القادر رضي الله عنه: وقع في نفسي أن أخرج من بغداد لكثرة الفتن التي بها فأخذت مصحفي وعلقته على كتفي

ومشيت إلى باب الحلبة لأخرج منه إلى الصحراء فقال لي قائل: أين تمشي ودفعني دفعة خررت منها أظنه قال: على ظهري، وقال: ارجع فإن للناس فيك منفعة، قال فقلت: إيش على من الخلق أنا أريد سلامة ديني، قال: ارجع ولك سلامة دينك ولم أر شخص القائل ثم بعد ذلك طرقتني أحوال أشكلت علي فكنت أتمنى على الله أن يسهل لي من يكشفها فلما كان من الغد اجتزت بالمظفرية ففتح رجل باب داره، وقال لي: يا عبد القادر تعالى، فجئت فوقفت عليه فقال لي: إيش طلبت البارحة، أو قال: إيش سألت الله بالليل. فسكت ولا أدري ما أقول فاغتاظ مني ودفع الباب في وجهي دفعة عظيمة حتى طار الغبار من جوانب الباب إلى وجهي فلما مشيت قليلًا ذكرت الذي سألت الله ووقع في نفسي أنه من الصالحين أو قال من الأولياء فرجعت أطلب الباب فلم أعرفه فضاق صدري وكان ذلك الرجل الشيخ حماد الدباس ثم عرفته وصحبته وكشف لي ما كان يشكل علي وكنت إذا غبت عنه لطلب العلم ورجعت إليه يقول لي: إيش جاء بك إلينا أنت فقيه سر إلى الفقهاء فأسكت وكان يؤذيني أذية كبيرة ويضربني وإذا غبت عنه لطلب العلم وجئت إليه يقول: قد جاءنا اليوم الخبز الكثير والفالوذج وأكلنا وما خبأنا لك شيئًا فطمع في أصحابه لكثرة ما يرونه يؤذيني وجعلوا يقولون: أنت فقيه إيش تعمل هنا أو إيش جاء بك إلينا فلما رآهم يؤذونني غار علي، وقال لهم: يا كلاب لم تؤذونه والله ما فيكم مثله أحد أنا أؤذيه لامتحنه فأراه جبلًا لا يتحرك رضي الله عنه قال وقال لي الشيخ عبد القادر: كنت آمر وأنهي النوم واليقظة وكان يغلب على الكلام ويزدحم على قلبي إن لم أتكلم أكاد أختنق ولا أقدر أن أسكت وكان يجلس عندي رجلان أو ثلاثة يسمعون كلامي ثم تسامع الناس وازدحم على الخلق فكنت أجلس في المصلى بباب الحلبة ثم ضاق على الناس فأخرجوا الكرسي إلى داخل السرر بين التنانير وكان الناس يجيئون في الليل على الشمع والمشاعل يأخذون لهم مواضع ثم ضاق على الناس الموضع فحمل الكرسي إلى خارج البلد وجعل في المصلى وكان الناس يجيئون على الخيل والبغال والحمير الجمال ويقفون بما دار في المجالس كالسرر وكان يحضر المجلس نحو من سبعين ألفًا رضي الله عنه.

وقال أستاذنا الشيخ عبد القادر رضي الله عنه: رأيت رسول الله ﷺ قبل الظهر فقال لي: يا بني لم لا تتكلم؟ فقلت: يا أباه أنا رجل أعجمي كيف أتكلم على فصحاء بغداد؟ فقال لي: افتح فاك ففتحته فتفل فيه سبعًا، وقال تكلم على الناس وادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة. فصليت الظهر وجلست وحضرني

خلق كثير فارتج علي فرأيت عليًا رضي الله عنه فقال: افتح فاك ففتحته فتفل فيه ستًا فقلت: لم لا تكلمها سبعًا، قال: أدبًا مع رسول الله ثم توارى عني فقلت: غواص الفكر يغوص في بحر القلب على درر المعارف فيستخرجها إلى ساحل الصدر فينادي عليها سمسار ترجمان اللسان فتشتري بنفائس أثمان حسن الطاعة في بيوت أذن الله أن ترفعْ وأنشد:

على مثل ليلى يقتل المرء نفسه ويحلو له مر المنايا ويعذب

ورأيت في بعض النسخ أنه قال: نوديت في سري يا عبد القادر ادخل بغداد وتكلم علي الناس فدخلت بغداد فرأيت الناس على حالة لم تعجبني فخرجت من بينهم فنوديت ثانية يا عبد القادر ادخل وتكلم على الناس فإن لهم بك منفعة، فقلت: ما لي وللناس علي بسلامة ديني، فقيل لي: ارجع ولك سلامة دينك فأخذت من ربي سبعين موثقًا أنه لا يمكر بي وأن لا يموت لي مريد إلا عن توبة فرجعت فتكلمت على الناس فرأيت الأنوار تخترق وهي تأتي إلي فقلت: ما هذا الحال وما الخبر، فقيل لي: إن رسول الله يأتي إليك ليهنيك بما فتح الله عليك، ثم زادت الأنوار فطرقني الحال فتمايلت طربًا فرأيت رسول الله ﷺ أمام المنبر في الهواء فقال لي: «يا عبد القادر» فخطوت في الهواء سبع خطوات، فرحًا برسول الله ﷺ فتفل في فمي سبعًا ثم جاءني على بعده فتفل في فمي ثلاثًا، فقلت: لم لا فعلت مثل ما فعل النبي ﷺ فقال: أدبًا معه، ثم ألبسني رسول الله ﷺ خلعة فقلت: ما هذه، فقال: «هذه خلعة ولايتك مخصوصة بالقطبية على الأولياء» ففتح علي فتكلمت على الناس فجاءني أبو العباس الخضر عليه السلام ليمتحني بما امتحن به الأولياء من قبلي فكشف لي سريرته ففتح علي بما خاطبته به ثم قلت له وهو مطرق: أن يا خضر إن كنت، قلت لموسى: إنك لن تستطيع معي صبرًا فإنك أنت لن تستطيع معي صبرًا يا خضر، إن كنت إسرائيليًا فإنك إسرائيلي وأنا محمدي فها أنا وأنت وهذه الكرة وهذا الميدان هذا محمد وهذا الرحمٰن وهذا فرسي مسرج ملجم وقوسي موتر وسيفي شاهر رضي الله عنه.

وقال الخطاب خادم سيدنا الشيخ محيي الدين عبد القادر رضي الله عنه: كان الشيخ يومًا يتكلم على الناس فخطا في الهواء خطوات وقال: يا إسرائيلي قف فاسمع كلام المحمدي، ثم رجع إلى مكانه فقيل له في ذلك، فقال: مر أبو العباس الخضر عليه السلام فخطوت إليه وقلت له: ما سمعتم فوقف رضي الله عنه.

وقال شيخنا وقدوتنا إلى الله تعالى الشيخ عبد القادر الجيلي: لا يجوز لشيخ أن يجلس على سجادة النهاية ويتقلّد بسيف العناية حتى يكمل فيه اثنتا عشرة خصلة؛ خصلتان من الله تعالى، وخصلتان من النبي ﷺ، وخصلتان من أبي بكر رضي الله عنه، وخصلتان من عمر رضي الله عنه، وخصلتان من عثمان رضي الله عنه، وخصلتان من علي رضي الله عنه. فأما اللتان من الله تعالى يكون ستّارًا غفارًا، وأما اللتان من النبي ﷺ يكون شفيقًا رفيقًا، وأما اللتان من أبي بكر رضي الله عنه يكون صادقًا متصدقًا، وأما اللتان من عمر رضي الله عنه يكون أمّارًا نهّاءً، وأما اللتان من عثمان رضي الله عنه يكون طعامًا للطعام مصليًا بالليل والناس نيام، وأما اللتان من عليّ رضي الله عنه يكون عالمًا شجاعًا. ومما ينسب إليه رضي الله عنه هذه الأبيات:

إذا لم يكن في الشيخ خمس فوائد ... وإلا فدجال يقود إلى الجهل
عليم بأحكام الشريعة ظاهرًا ... ويبحث عن علم الحقيقة عن أصل
ويظهر للوراد بالبشر والقرى ... ويخضع للمسكين بالقول والفعل
فذاك هو الشيخ المعظم قدره ... عليم بأحكام الحرام من الحل
يهذب طلاب الطريق ونفسه ... مهذبة من قبل ذو كرم كلي

وقال رضي الله عنه: وصفة المقتدى به للسلوك أن يكون عارفًا بالعلوم الشرعية والطبية ومصطلح السادة الصوفية ولا غاية عن ذلك.

وقال سيد الطائفة وشيخها الجنيد رضي الله عنه: علمنا مضبوط بالكتاب والسُّنَّة فمن لم يحفظ الحديث ويكتبه ويحفظ الكتاب العزيز ويتفقه في الدين ومصطلح الصوفية وإلا لا يقتدى به رضي الله عنهم.

أقول والذي يجب على الشيخ المسلك في تأديب المريد أن يقبله الله عزَّ وجلَّ لا لنفسه ولا لعلة وأن يعاشره بحكم النصيحة ويلاحظه بعين الشفقة ويلاينه بالرفق عند عجزه عن احتمال الرياضة وأن يربيه تربية الوالدة لولدها والوالد الشفيق الحليم اللبيب لولده وغلامه فيأخذه بالأسهل ولا يحمله ما لا طاقة له به ثم يأمره بالأشد بعد أن يأخذ عليه العهد بالرجوع عن المعاصي والدوام على طاعة الله تعالى. فإن العهد له أصل جاءت به الأحاديث الشريفة عن النبي ﷺ في مبايعته للصحابة رضي الله عنهم فلا حاجة إلى إيراد شيء منها، وأن يلقّنه الذكر بالسلسلة فإن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه سأل النبي ﷺ: أي الطرق أقرب إلى الله وأسهلها على عباده وأفضلها

عنده؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «يا علي عليك بمداومة ذكر الله تعالى في الخلوات». فقال علي رضي الله عنه: هكذا فضيلة الذكر وكل الناس ذاكرون فقال عليه الصلاة والسلام: «مه يا علي لا تقوم الساعة وعلى وجه الأرض من يقول الله». فقال عليّ رضي الله عنه: كيف أذكر؟ فقال ﷺ: «اسمع مني ثلاث مرات ثم قل أنت ثلاث مرات وأنا أسمع»، فقال ﷺ: «لا إلـه إلا الله ثلاث مرات مغمضًا عينيه رافعًا صوته» وعلي رضي الله عنه يسمع، ثم قال عليّ رضي الله عنه: لا إلـه إلا الله ثلاث مرات مغمضًا عينيه رافعًا صوته والنبي ﷺ يسمع فهذا أصل تلقين ذكر الله تعالى الذي هو كلمة التوحيد. نسأل الله تعالى أن يوفقنا لذلك.

قال سيدنا الشيخ عبد القادر رضي الله عنه: إن الإنسان إذا لم يكن تلقن الذكر الشريف الذي هو التوحيد من شيخ مرشد له نسبة متصلة بالنبي ﷺ وإلا فبعيد أن يستحضرها عند الحاجة إليها في وقت مصيبة الموت، ولهذا كان الشيخ رضي الله عنه كثيرًا ما ينشد:

مليحة التكرار والتثني   لا تغفلين في الوداع عني

وقال علي رضي الله عنه هذه الأبيات:

إذا المرء ربّى نفسه بمراده   لقد شاد بنيانًا على غير أسه
ومَن لم تربيه الرجال وتسقه   لبانًا لهم قد درّ من ثدي قدسه
فذاك لقيط ما له نسبة الولا   ولن يتعدى غير أبناء جنسه
إذا المرء لم يرتدِ رداء من التّقى   على يد أستاذ خبير بنفسه
يُريه رعونات النفوس وكيدها   ويشهده المحجوب عنه بحسّه
ولم يكُ مجذوبًا على يد قدوة   وتحفظه الألطاف من غير لبسه
ويبدو له المكنون من سر كونه   وتجلى له الكاسات في حال أُنسه
ويحسن منه الخلق والخلق والحجى   ويثمر مغناه بإيناع غرسه
فذاك لعمري ناقص الحظ عاجز   يربد سبيلًا وهو يأتي بعكسه
أقل مبادي القوم إن يك هكذا   ومن جاء بالبهتان راح بجنسه

وكان المشايخ يثنون عليه ويعظّمونه ويتأدبون معه في مجلسه رضي الله عنه، وأما مريدوه فلا يحصون وهم السعداء في الدنيا والآخرة لا يموت أحدهم إلا على توبة ومريد ومريديه إلى سبعة يدخلون الجنة.

قال الشيخ علي الغرثني رضي الله عنه: قال الشيخ عبد القادر رضي الله عنه: سألت مالكًا خازن النار هل عندك من أصحابي أحد؟ فقال: لا وعزة الله، وإن يدي على مريدي كالسماء على الأرض إن لم يكن مريدي جيدًا فأنا جيد وعزة ربي لا برحت قدماي من بين يدي ربي عزّ وجلّ حتى ينطلق بي وبكم إلى الجنة. وقال قيل للشيخ عبد القادر: أرأيت أن تسمي لك رجل ولم يأخذ منك ولم يلبس لك خرقة هل يعد من أصحابك؟ فقال: من تسمي لي أو أنتمي إلى قبله الله تعالى ولو كان على سبيل مكروه فهو من جملة أصحابي.

وقال الشيخ عبد القادر رضي الله عنه: أيما مسلم عبر على باب مدرستي فإن عذاب يوم القيامة يخفف عنه، وجاء رجل من أهل بغداد وقال له: يا سيدي أبي قد مات ورأيته البارحة في المنام، وقد ذكر لي أنه يعذب في قبره، وقال لي: يا بني اذهب إلى الشيخ عبد القادر وسله لي في الدعاء، فقال له: أعبر أبوك على باب مدرستي، قال: نعم، فسكت ثم عاد إليه ثاني يوم، وقال له: يا سيدي رأيت والدي البارحة ضاحكًا وعليه حلة خضراء، وقال لي: قد رفع عني العذاب ببركة الشيخ عبد القادر وقد كسيت حلة كما ترى فعليك يا ولدي بملازمته. فقال الشيخ رضي الله عنه: إن ربي عزّ وجلّ قد وعدني أن يخفف العذاب عن كل من عبر على باب مدرستي من المسلمين، وقيل له: إنه يسمع صراخ ميت من قبر له بمقبرة باب الأزج فقال: ألبس مني خرقة؟ فقيل له: ما نعلم، قال: أفحضر مجلسي؟ قالوا: ما نعلم ذلك، قال: أفصلّى خلفي؟ قالوا: ما نعلم، فقال المفرط: أولى بالخسارة وأطرق ساعة فتجللته الهيبة وعلاه الوقار، ثم رفع رأسه وقال: إن الملائكة عليهم السلام قالت لي: إنه رأى وجهك وأحسن بك الظن وإن الله تعالى رحمه بك أو قال بذلك ولم يسمع له صراخ بعد ذلك ببركة الشيخ رضي الله عنه.

وقال الشيخ أبو النجيب عبد القاهر السهروردي رحمة الله عليه: كان الشيخ حماد الدباس يسمع عنده كل ليلة دوي كدوي النحل، فقال أصحابه للشيخ عبد القادر في سنة ثمان وخمسمائة وكان يومئذٍ في صحبته اسأله عن ذلك فسأله، فقال له: إن لي اثني عشر ألف مريد وإني أذكر أسماءهم كل ليلة وأسأل لكل منهم حاجته إلى الله عزّ وجلّ وإذا أصاب مريد إلى ذنب فلا تنقضي عنه شهوة ذلك إلا ويتوب إشفاقًا عليه أن يتمادى فيه، فقال الشيخ عبد القادر: لئن أعطاني الله تعالى منزلة عنده لأخذت من ربي تبارك وتعالى عهد المريدي إلى يوم القيامة أن لا يموت أحدهم إلا على توبة

ولأكونن بذلك ضمينًا لهم، فقال الشيخ حماد: أشهد أن الله سيعطيه ذلك ويبسط ظل جاهه عليهم رضي الله عنهم أجمعين.

وقال عبد الله الجبائي كان للشيخ عبد القادر تلميذ يقال له عمر الحلاوي فخرج من بغداد وغاب سنين فلما رجع إلى بغداد قلت له: أين كنت؟ قال: طفت بلاد الشام ومصر والمغرب وأظنه قال: وبلاد العجم، ولقيت ثلاثمائة وستين شيخًا من الأولياء فما منهم من أحد إلا ويقول الشيخ عبد القادر شيخنا وقدوتنا إلى الله تعالى.

وقال ابن النجار في أول تاريخه: قرأت في تاريخ أبي شجاع بن الدهان بخطه إنه في سنة ست وعشرين وخمسمائة بدؤوا في بناء سور بغداد ولم يبق عالم ولا واعظ إلا خرج بجماعته وعمل في السور ورأيت يوم نوبة أهل باب الأزج صحبة الشيخ عبد القادر رجلًا على بهيمة وعلى رأسه لبنتان انتهى كلامه.

أقول وهذا يدل على إنه لم يكن ببغداد إذ ذاك أعظم من الشيخ عبد القادر رضي الله عنه والشيخ عبد القادر في صحبته فجاء فجلس بين يديه متأدبًا ثم قام فسمعت الشيخ حمادًا يقول بعد قيام الشيخ عبد القادر لهذا العجمي: قدم تعلو في وقتها على رقاب الأولياء في ذلك وليؤمرن أن يقول قدمي هذه على رقبة كل ولي لله وليقولن ولتوضعن له رقاب الأولياء في زمانه. وقال الشيخ حماد الدباس رضي الله عنه وقد ذكر عنده الشيخ عبد القادر وهو يومئذٍ شاب رأيت على رأسه علمين قد نصبا من البهموت الأسفل إلى الملكوت الأعلى وسمعت الشاويش يصيح له في الأفق الأعلى رضي الله عنه.

وقال محمود النعال: سمعت أبي يقول: كنت عند الشيخ حماد الدباس فجاء الشيخ عبد القادر وهو شاب يومئذٍ فقام إليه وتلقاه، وقال: مرحبًا بالجبل الراسخ والطود المنيف الذي لا يتحرك وأجلسه إلى جانبه وقال له: ما الفرق بين الحديث والكلام؟ فقال: الحديث ما استدعيت من الجواب والكلام ما صدمك عن الخطاب وانزعاج القلب لدعوة الانتباه أرجح من أعمال الثقلين، فقال الشيخ حماد: أنت سيد العارفين في عصرك ولا بد أن ينشر سنجقك من المشارق إلى المغارب وتوضع لك الرقاب من أهل زمانك وتعلو درجتك على أقرانك وتعلو درجتك على أقرانك ويكون مشروبك منه إليك رضي الله عنهما. وقال أبو النجيب السهروردي رحمة الله عليه: كنت عند الشيخ حماد الدباس رضي الله عنه ببغداد سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة وكان الشيخ عبد القادر عنده فتكلم بكلام عظيم فقال له الشيخ حماد: يا عبد القادر

تتكلم بعجب ألم تخف أن يمكر الله بك فوضع الشيخ عبد القادر كفه على صدر الشيخ حماد، وقال له: انظر بعين قلبك ما في كفي مكتوبًا فسها سهوة ثم رفع الشيخ عبد القادر كفه عن صدر الشيخ حماد فقال الشيخ حماد: قرأت في كفه أنه أخذ من الله تعالى سبعين موثقًا إنه لا يمكر به، قال قال الشيخ حماد: لا بأس بعدها لا بأس بعدها، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم رضي الله عنهم أجمعين.

وقال المشايخ أبو السعود عبد الله ومحمد الأواني وعمر البزاز رضي الله عنهم ضمن سيدنا الشيخ عبد القادر لمريديه إلى يوم القيامة أن لا يموت أحد منهم إلا على توبة وأعطى أن مريديه ومريدي مريديه إلى سبعة يدخلون الجنة وإنه قال: أنا كافل لمريد المريد إلى سبعة ولو انكشفت عورة لمريدي بالمغرب وأنا بالمشرق لسترتها وأمرنا من حيث الحال، والقدر أن نحفظ بهممنا أصحابنا وطوبى لمن رآني وأنا حسرة لمن لم يرني رضي الله عنه ورضي عنا به. وقال الشيخ علي القرشي، قال سيدنا الشيخ عبد القادر رضي الله عنه: أعطيت سجلًا مد البصر فيه أسماء أصحابي ومريدي إلى يوم القيامة وقيل لي قد وهبوا لك. وقال سهل بن عبد الله التستري افتقد أهل بغداد سيدي الشيخ عبد القادر رضي الله عنه فقيل لهم: توجه نحو الدجلة فانطلقوا يطلبونه فإذا هو يمشي مقبلًا إلينا على الماء والحيتان يأتونه أفواجًا أفواجًا يسلمون عليه فبينما نحن ننظر إليه وإلى تقبيل السمك يديه وكان قد حان وقت صلاة الظهر وإذا بسجادة عظيمة خضراء مرصعة بالذهب والفضة عليها مكتوب سطران الأول: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس: الآية ٦٢]، والسطر الثاني: سلام عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد. فأمدت السجادة بين السماء والأرض فوق الدجلة كأنها بساط سليمان عليه السلام فأقبلت رجال كأنها الأسود يقدمهم رجل عليه وقار وهيبة عظيمة وسكينة فأتى حتى وقف هو وأصحابه مقابل السجادة مطرقين باكين ليس لهم حركة كأنهم ألجموا بلجام القدرة فلما أقيمت الصلاة تقدم الشيخ عبد القادر رضي الله عنه، وقد تردى برداء الهيبة وصلى على السجادة وصلت الرجال وسيدهم وأهل بغداد وراء الشيخ فكان كلما كبر كبرت معه حملة العرش وكلما سبح سبحت معه ملائكة السمٰوات السبع، وإذا حمد الله خرج من فمه نور أخضر حتى يبلغ عنان السماء فلما فرغ من الصلاة رفع يديه وسمعناه يقول في دعائه: اللهم إني أسألك بحق جدي محمد حبيبك وخيرتك من خلقك وآبائي إنك لا تقبض روح مريد أو مريدة لا ذوابي إلا على توبة، فسمعنا كبكبة

الملائكة وهم يؤمنون على دعائه فوافقنا تأمين الملائكة على الدعاء وإذا النداء من العلا أبشر فإني قد استجبت لك انتهى كلامه ملخصًا رضي الله عنه.

وقال السادة المشايخ الحافظ عبد الغني والشيخ موفق الدين بن قدامة وعبد الملك بن ديال رحمة الله عليهم: سمعنا شيخنا عبد القادر رضي الله عنه يقول على الكرسي وقد سئل عن فضل من انتمى إليه البيضة منا بألف والفرخ لا يقوم.

وقال الشيخ أبو الحسن الجوسقي: حضر عند سيدنا الشيخ عبد القادر سلام الله عليه الشيخ علي الهيتي والشيخ بقا بن بطو، فقال الشيخ عبد القادر لي من كل طوالة فحل لا يقاوي ولي في كل أرض خيل لا تسابق ولي في كل جيش سلطان لا يخالف ولي في كل منصب خليفة لا يعزل، فقال الشيخ علي الهيتي: يا سيدي أنا وجميع أصحابي غلمانك رضي الله عنهم، وقال الشيخ داود البغدادي: رأيت في منامي في سنة ثمان وأربعين وخمسمائة الشيخ معروفًا الكرخي رضي الله عنه، فقال لي: يا داود هات قصتك أعرضها على الله تعالى، قال فقلت: وشيخي عزلوه أعني الشيخ عبد القادر، فقال: لا والله ما عزلوه ولا يعزلونه، فاستيقظت وأتيت في السحر إلى مدرسة الشيخ وجلست على باب داود لا خبرة فناداني من داخل داره قبل أن أراه وأكلمه يا داود شيخك ما عزلوه ولا يعزلونه هات قصتك أعرضها على الله تعالى فوعزته ما عرضت قصة لأصحابي ولا لغيرهم فردت على مسألتي فيها.

وقال الحافظ محمد بن رافع في تاريخه: سمعت إبراهيم بن سعد بن محمد بن غانم بن عبد الله الثعلبي الرومي في ثامن عشر من ذي القعدة سنة تسع وثلاثين وستمائة بدار الحديث بالقاهرة يقول سمعت الشيخ عبد القادر الجيلي يقول وقد سئل عن الحلاج فقال لي: جناح طال دعواه فسلط عليه مقراض الشريعة فقصه، وقال الشيخ عمر البزار سمعت سيدي الشيخ عبد القادر يقول: عثر حسين الحلاج فلم يكن في زمنه من يأخذ بيده ولو كنت في زمنه لأخذت بيده وأنا لكل من عثر به مركبه من أصحابي ومريدي ومحبي إلى يوم القيامة، آخذ بيده ولسيدنا الشيخ عبد القادر كلام كثير في شأن حسين الحلاج مذكور في كتاب درر الجواهر الذي جمعه الحافظ أبو الفرج بن الجوزي من كلام الشيخ عبد القادر وفي كتاب البهجة الذي ألفه الشيخ الإمام نور الدين أبو الحسن علي اللخمي في مناقب الشيخ عبد القادر ومناقب أهل طبقته من الأولياء فمن أراد ذلك فليطالع الكتابين المذكورين. وقال الشيخ أبو الفتح الهروي سمعت الشيخ علي بن الهيتي يقول: لأمر يدين بشيخهم أسعد من مريدي

الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى، وقال سمعت الشيخ أبا سعيد القيلوي، وقيل أبو سعد يقول: ما رجع سيدنا الشيخ عبد القادر إلى العالم الأعلى إن من تمسك بذيله نجا. وقال الشيخ بقا بن بطو رأيت أصحاب سيدنا الشيخ عبد القادر كلهم غرا في جحفل السعداء رضي الله عنهم. وقال بعضهم إنه قيل للشيخ عبد القادر رضي الله عنه في مريدك البار والفاجر فقال: البار لي والفاجر أنا له. وقال الشيخ عدي بن أبي البركات صخر بن صخر بن مسافر سمعت والدي يقول: عمي الشيخ عدي بن مسافر رضي الله عنه سنة أربع وخمسين وخمسمائة بزاويته بالجبل من سألني من أصحاب المشايخ أن ألبسه خرقة فعلت له ذلك إلا أصحاب الشيخ عبد القادر فإنهم منغمسون في الرحمة وهل يترك أحد البحر ويأتي الساقية رضي الله عنهم.

وقال الشيخ علي بن إدريس اليعقوبي: أخذ سيدي الشيخ علي بن الهيتي بيدي وأتى بي إلى سيدي الشيخ عبد القادر رضي الله عنهما سنة خمسين وخمسمائة وقال له: هذا غلامي علي فخلع ثوبًا كان عليه وألبسني إياه، وقال لي: يا علي لبست قميص العافية فكنت منذ أُلبسته خمسة وستين سنة ما حدث لي فيها ألم، وقال: وأتى بي إليه أيضًا سنة ستين وخمسمائة فأطرق مليًا فرأيت بارقة من نور قد برزت عنه واتصلت بي فرأيت في الوقت الحاضر أصحاب القبور وأحوالهم والملائكة ومقاماتهم وسمعت تسبيحهم باختلاف اللغات وقرأت المكتوب على جبين كل إنسان وكشفت لي عن أمور جليلة كشفًا جليًا، فقال الشيخ رضي الله عنه: خذها ولا تخف، فقال له الشيخ علي: يا سيدي إني أخاف عليه زوال العقل، قال فضرب بيده على صدري فوجدت في باطني شيئًا على هيئة السندان فلم أفزع من شيء مما رأيت وسمعت تسبيح الملائكة عليهم السلام وأنا إلى الآن أستضيء في طرق الملكوت من تلك البارقة وقال: لما دخلت إلى بغداد ما كنت أعرف فيها أحدًا ولا مكانًا فألجئت إلى مدرسته رضي الله عنه فلم يكن بها وقتئذٍ غيري فسمعت قائلًا يقول: من داخل داره يا عبد الرزاق اخرج وانظر من. ثم جاءنا فخرج ودخل وقال: ما ثم جاءنا إلا صبي سوادي، فقال: لهذا الصبي شأن عظيم. ثم خرج الشيخ رضي الله عنه إليّ ومعه خبز وطعام وما كنت رأيته قبل فقمت إجلالًا له فقال لي: علي أنت هنا، ووضع ذلك قدامي وقال: نفع بك ثلاثًا سيأتي زمان يفتقر إليك وتصير عليًا فإنا بدعوة سيدي الشيخ عبد القادر رضي الله عنه. وقال سيدنا الشيخ عبد الوهاب رحمة الله عليه: كان والدي يتكلم في الأسبوع ثلاث مرات بالمدرسة بكرة الجمعة وعشية الثلاثاء وبالرباط بكرة الأحد وكان يحضره العلماء والفقهاء والمشايخ وغيرهم ومدة كلامه على الناس

أربعون سنة أولها سنة إحدى وعشرين وخمسمائة وآخرها سنة إحدى وستين وخمسمائة ومدة تصدره للتدريس والفتوى ثلاث وثلاثون سنة أولها سنة ثمان وعشرين وآخرها سنة إحدى وستين وكان يقرأ في مجلسه إخوان قراءة مرسلة مجردة بغير ألحان، ويقرأ أيضًا في مجلسه الشريف مسعود الهاشمي وكان يموت في مجلسه الرجلان والثلاثة ويكتب ما يقول في مجلسه أربعمائة محبرة عالم وغيره وكان كثيرًا ما يخطو في الهواء في مجلسه على رؤوس الناس خطوات ثم يرجع إلى الكرسي رضي الله عنه.

وقال الشيخ عمر الكيماني: لم تكن مجالس سيدنا الشيخ عبد القادر رضي الله عنه تخلو ممن يسلم من اليهود والنصارى ولا ممن يتوب من قطاع الطريق وقاتل النفس وغير ذلك من الفساد ولا ممن يرجع عن معتقد شيء وأتاه راهب وأسلم على يديه في المجلس. ثم قال للناس إني رجل من أهل اليمن وإن الإسلام وقع في نفسي وقوى عزمي على أن لا أسلم إلا على يد خير أهل اليمن في ظني، وجلست متفكرًا إلى الأرض فغلب علي النوم فرأيت عيسى ابن مريم عليه السلام يقول لي: يا سنان اذهب إلى بغداد وأسلم على يد الشيخ عبد القادر فإنه خير أهل الأرض في هذا الوقت. قال وأتاه في مرة أخرى ثلاثة عشر رجلًا من النصارى وأسلموا على يديه في مجلس وعظه وقالوا: نحن من نصارى العرب وأردنا الإسلام وترددنا فيمن نقصده لنسلم على يديه فهتف بنا هاتف نسمع كلامه ولا نرى شخصه يقول: أيها الركب ذا الفلاح ائتوا بغداد وأسلموا على يد الشيخ عبد القادر فإنه يوضع في قلوبكم من الإيمان عنده ببركته ما لم يوضع فيها عند غيره من سائر الناس في هذا الوقت رضي الله عنه.

وقال سيدنا الشيخ عبد القادر رضي الله عنه ببغداد على الكرسي سنة ثمان وخمسين وخمسمائة: مكثت خمسًا وعشرين سنة متجردًا سائحًا في براري العراق وخرابه وأربعين سنة أصلي الصبح بوضوء العشاء ثم أفتتح القرآن وأنا واقف على رجل واحدة ويدي في وتد مضروب في الحائط خوف النوم حتى أنتهي إلى آخر القرآن عند السحر وكنت ليلة طالعًا في سلم فقالت لي نفسي: لو نمت ساعة فقمت فوقفت موضع خطر لي هذا الأمر ثم انتصبت على رجل واحدة وافتتحت القرآن حتى أتيت آخره وأنا على هذه الحالة. وقال رضي الله عنه: أقمت في البرج المسمى الآن ببرج العجمي إحدى عشرة سنة ولطول إقامتي فيه سمي برج العجمي وكنت بايعت الله تعالى فيه: أن لا آكل حتى ألقم ولا أشرب حتى أسقى فبقيت فيه مدة أربعين يومًا لا

آكل شيئًا فبعد الأربعين جاء رجل معه خبز وطعام ووضعه بين يدي ومضى وتركني فعادت نفسي تقع على الطعام فقلت: والله لا حلت عما عاهدت الله عليه فسمعت صارخًا من باطني ينادي الجوع فلم أرتع له قال رضي الله عنه: فاجتاز بي أبو سعيد المخرمي فسمع الصوت فدخل علي وقال: ما هذا يا عبد القادر، قلت: هذا قلق النفس وأما الروح فساكنة في مولاها عزَّ وجلَّ فقال لي: تعال إلى باب الأزج. ثم مضى وتركني على حالي فقلت في نفسي: لا أخرج من هذه إلا بأمر، قال رضي الله عنه فجاءني الخضر عليه السلام وقال لي: قم وانطلق إلى أبي سعيد، قال: فجئت فإذا هو واقف على باب داره ينتظرني، وقال لي: يا عبد القادر ألم يكفك قوله: تعال إلي ثم ألبسني الخرقة بيده، ولازمت بعد ذلك الاشتغال عليه رضي الله عنه.

وقال الجبائي: قال لي سيدنا الشيخ عبد القادر: أتمنى أن أكون في الصحاري والبراري كما كنت في الأول لا أرى الخلق ولا يروني، ثم قال: أراد الله عزَّ وجلَّ مني منفعة الخلق فإنه قد أسلم على يدي أكثر من خمسة آلاف من اليهود والنصارى وتاب على يدي من العيارين والمسالحة أكثر من مائة ألف وهذا خير كثير رضي الله عنه.

وقال إبراهيم الداري: كان شيخنا الشيخ عبد القادر رضي الله عنه إذا مر إلى الجامع يوم الجمعة وقف الناس في الأسواق ليسألوا الله به حوائجهم وكان له صيت وصوت وسمت وصمت ولقد عطس يوم الجمعة فشمته الناس حتى سمع من في الجامع ضجة عظيمة يقولون: يرحمك الله ويرحم بك، وكان المستنجد بالله الخليفة في مقصورة الجامع فقال: ما هذه الضجة، قيل له: قد عطس الشيخ عبد القادر فهاله ذلك. وقال ابن نقطة الصيريفيني كان الشيخ بقا والشيخ علي بن الهيتي والشيخ القيلوي يأتون إلى مدرسة الشيخ عبد القادر ويكنسون بابها ويرشون ولا يدخلون عليه إلا بإذن فإذا دخلوا عليه يقول لهم: اجلسوا، فيقولون: ولنا الأمان، فيقول: ولكم الأمان، فيجلسون متأدبين وكان من حضر منهم يرفع الغاشية بين يديه إذا ركب ويمشي بها خطوات وكان ينهاهم عن ذلك فيقولون بمثل هذا يتقرب إلى الله تعالى قال: أرى كثيرًا من مشايخ العراق الذين عاصروا الشيخ إذا دخلوا إلى مدرسته أو رباطه قبلوا العتبة قال:

تزاحم تيجان الملوك ببابه ... ويكثر في وقت السلام ازدحامها
إذا عاينته من بعيد ترجلت ... وإن هي لم تفعل ترجل هامها

وقال الشيخ بقية السلف أبو الغنائم مقدام البطايحي: جاء رجل من أصحاب الشيخ عبد القادر لزيارة الشيخ عثمان بن مروزة البطايحي، فقال له يا ولدي: الشيخ عبد القادر خير أهل الأرض في هذا الوقت رضي الله عنه. وقال الشيخ المعمر جرادة: ما رأت عيناي أحسن خلقًا ولا أوسع صدرًا ولا أكرم نفسًا ولا أعطف قلبًا ولا أحفظ عهدًا وودًا من سيدنا الشيخ عبد القادر ولقد كان مع جلالة قدره وعلو منزلته وسعة علمه يقف مع الصغير ويوقر الكبير ويبدأ بالسلام ويجالس الضعفاء ويتواضع للفقراء وما قام لأحد من العظماء ولا الأعيان ولا ألم بباب وزير ولا سلطان.

وقال البطايحي: دخلت على سيدنا وشيخنا الشيخ محيي الدين عبد القادر رضي الله عنه ببيته يومًا فوجدت عنده أربعة أنفار وما رأيتهم قبل ذلك فوقفت مكاني فلما قاموا من عنده قال الشيخ: الحقهم واسألهم الدعاء لك، فلحقتهم في صحن المدرسة وسألتهم الدعاء فقال لي أحدهم: لك البشرى أنت خادم رجل ببركته يحرس الله الأرض سهلها ووعرها وبرها وبحرها وبدعوته يرحم الله الخليقة برها وفاجرها ونحن سائر الأولياء في خفارة أنفاسه وتحت ظل قدمه وفي دائرة أمره. ثم خرجوا فلم أرهم فرجعت إلى الشيخ متعجبًا فقال لي قبل أن أخبره بشيء: يا عبد الله لا تخبر أحدًا بما قالوا لك وأنا حي، فقلت: يا سيدي ومن هؤلاء؟ فقال: رؤساء جبل قاف وهم الآن في مواضعهم رضي الله عنهم. وحكى محمد بن الخضر عن أبيه أنه قال: خدمت سيدي الشيخ عبد القادر ثلاث عشرة سنة فما رأيته فيها تمخط ولا تنخع ولا قعدت عليه ذبابة ولا قام لأحد من العظماء ولا ألم بباب ذي سلطان ولا جلس على بساطه ولا أكل من طعامه إلا مرة واحدة، وكان يرى الجلوس على بسط الملوك ومن يليهم من العقوبات المعجلة وكان يأتيه الملك والوزير ومن له الحرمة الوافرة وهو جالس فيقوم ويدخل داره فإذا جلسوا خرج الشيخ من داره لئلا يقوم لهم وأنه ليكلمهم الكلام الخشن ويبالغ لهم في العظة وهم يقبلون يده ويجلسون بين يديه متواضعين متصاغرين وكان إذا كاتب الخليفة يكتب إليه عبد القادر يأمرك بكذا أو أمره عليك نافذ وطاعته عليك واجبة وهو لك قدوة وعليك حجة. فإذا وقف على ورقته قبلها وقال صدق الشيخ. وقال الشيخ الفقيه أبو الحسن: إن الوزير ابن هبيرة قال له الخليفة المقتفي لأمر الله محمد قد شكا من الشيخ عبد القادر قال: إنه يستخف بي ويذكرني ويقول للنخلة التي برباطه: يا نخلة لا تتعدي أقطع رأسك، وإنما يشير إلي امض إليه وقل له في خلوة ما يحسن بك أن تتعرض للإمام أصلًا وأنت تعرف خدمة الخلافة قال

فذهبت إليه فوجدت عنده جماعة فجلست أنتظر منه الخلوة فسمعته يحدث ويقول في أثناء كلامه: نعم أقطع رأسها، فعرفت أن الإشارة إلي فقمت وذهبت فقال لي الوزير: بلغت فأعدت عليه ما جرى فبكى الوزير وقال: لا شك في صلاح الشيخ عبد القادر ثم حمل نفسه إلي عنده وجلس بين يديه متأدبًا فوعظه الشيخ فأبلغ له في الموعظة حتى أبكاه ثم تلطف به رضي الله عنه، وقال مفتي العراق محيي الدين أبو عبد الله محمد بن حامد البغدادي رحمة الله عليه كان الشيخ عبد القادر رضي الله عنه سريع الدمعة شديد الخشية كثير الهيبة مجاب الدعوة الهيبة تلوح من سمته كريم الأخلاق طيب الأعراق أبعد الناس عن الفحش أقرب الناس إلى الحق شديد البأس إذا انتهكت محارم الله عزَّ وجلَّ لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لغير ربه لا يرد سائلًا ولو بأحد ثوبيه كان التوفيق رائده والتأييد معاضده والعلم مهذبه والقرب مؤدبه والمحاضرة كنزه والمعرفة حرزه والخطاب مشيره واللحظ سفيره والإنس نديمه والبسط نسيمه والصدق رايته والفتح بضاعته والحلم صناعته والذكر وزيره والفكر سميره والمكاشفة غذاءه والمشاهدة شفاءه وآداب الشريعة ظاهره وأوصاف الحقيقة سرائره. وأنشد فيه:

لله أنت لقد رحبت جنايا ... وشرفت أصلًا طاهرًا ونصابا
وعظمت قدرًا شامخًا حتى غدا ... قوس الغمام لأخمصيك ركابا
وبنيت بيتًا في المعالي أصبحت ... زهر الكواكب حوله أطنابا
يا ملبس الدنيا برونق مجده ... بعد المشيب نضارة وشبابا
طلبتك أبكار العلى نجم الهدى ... وهي التي قد أعيت الطلابا
لما رأتك حسانها كفؤًا لها ... خطبت إليك وردت الخطابا
وأتتك مسمحة القياد مناقب ... كانت علي من أمهن صعابا
رجل يروقك منظرًا وجلالة ... ومكارمًا وحلائقًا وخطابا
وترى عليه من المحاسن ملبسًا ... ومن المهابة والعلا جلبابا

قال سيدي الشيخ موسى ابن سيدنا الشيخ عبد القادر رضي الله عنهما: سمعت والدي يقول: خرجت في بعض سياحتي إلى البرية ومكثت أيامًا لا أجد ماء فاشتد بي العطش فظللتني سحابة ونزل علي منها شيء يشبه الندى فترويت به ثم رأيت نورًا أضاء به الأفق وبدت صورة ونوديت منه: يا عبد القادر أنا ربك وقد أحللت لك المحرمات أو قال ما حرمت على غيرك فقلت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم اخسأ يا لعين وإذا ذلك النور ظلام وتلك الصورة دخان. ثم خاطبني وقال: يا عبد القادر

نجوت مني بعلمك وبحكم ربك وفقهك في أحوال منازلاتك ولقد أضللت بمثل هذه الواقعة سبعين من أهل الطريق فقلت لربي: الفضل والمنة فقيل له: كيف علمت أنه شيطان، فقال بقوله: أحللت لك المحرمات فعلمت أن الله لا يأمر بالفحشاء. وقال الشيخ علي بن إدريس اليعقوبي سئل الشيخ علي بن الهيتي وأنا أسمع عن طريق سيدنا الشيخ عبد القادر فقال: كانت قدمه التفويض والموافقة في التبري من الحول والقوة وطريقه تجريد التوحيد وتوحيد التفريد مع الحضور في وقت العبودية بسر قائم في مقام العبدية لا بشيء ولا لشيء وكانت عبوديته مستمدة من محض كمال الربوبية فهو عبد سما عن مصاحبة التفرقة إلى مطالع الجمع مع أحكام الشرع. وقال الشيخ عدي بن أبي البركات صخر بن صخر بن مسافر سمعت أبي يقول: قيل لعمي الشيخ عدي بن مسافر وأنا أسمع ما طريق الشيخ عبد القادر، فقال الذبول تحت مجاري الأقدار بموافقة القلب والروح واتحاد الباطن والظاهر وانسلاخه من صفات النفس مع الغيبة عن رؤية النفع والضر والقرب والبعد رضي الله عنهم.

وقال خليل بن أحمد الصرصري: سمعت الشيخ بقا بن بطو يقول: طريق سيدنا الشيخ عبد القادر رضي الله عنه اتحاد القول والفعل واتحاد النفس والوقت ومعانقة الإخلاص والتسليم وموافقة الكتاب والسنة في كل خطرة ولحظة ونفس ووارد وحال والثبوت مع الله عزَّ وجلَّ. وقال الشيخ أبو سعيد القيلوي قدوة سيدنا الشيخ عبد القادر رضي الله عنه مع الله وفي الله وبالله ضعفت عندها قوى الصناديد ولقد سبق كثيرًا من المتقدمين بعروة من طريقة لا انفصام لها ولقد رفعه الله تعالى إلى مقام عزيز بتدقيقه في تحقيقه، وقال الشيخ المظفر منصور بن المبارك الواسطي المعروف بجدادة دخلت وأنا شاب على الشيخ محيي الدين عبد القادر رضي الله عنه مع جماعة ومعي كتاب مشتمل على شيء من الفلسفة وعلوم الروحانيات فلما دخلنا عليه قال لي من دون الجماعة قبل أن ينظر في الكتاب أو يسألني عما فيه بئس الرفيق كتابك هذا قم فاغسله فعزمت أن أقوم من بين يديه أطرحه في شيء ثم لا أحمله بعد ذلك خوفًا من الشيخ ولم تسمح نفسي بغسله لمحبتي فيه وكان قد علق بذهني شيء من مسائله وأحكامه فنهضت لا قوم على هذه النية فنظر إلى الشيخ كالمتعجب مني فلم أستطع النهوض وإذا حالي مقيد علي فقال: ناولني كتابك هذا، قال: ففتحه فإذا هو كاغد أبيض لا حرف مكتوب فيه فأعطيته إياه فتصفح أوراقه وقال: هذا كتاب فضائل القرآن لابن الضريس محمد وأعطانيه فإذا هو فضائل القرآن لابن الضريس مكتوبًا بأحسن خط، فقال له الشيخ رضي الله عنه: تتوب أن تقول بلسانك ما ليس في قلبك فقلت: نعم يا

سيدي، فقال: قم فنهضت فإذا أنا قد أنسيت الفلسفة وأحكام الروحانيات ونسخ من باطني حتى كأنه لم يمر بي قط، وقال شهدته رضي الله عنه مرة متوسدًا فقيل له: إن فلانًا وسمي رجلًا كان مشهورًا في ذلك الوقت بالكرامات والعبادة في الخلوات والزهد والطاعات نقل عنه أنه قد قال قد تجاوزت مقام يونس بن متى نبي الله عليه السلام فتبين الغضب في وجهه حتى استوى جالسًا وتناول الوسادة بيده وألقاها بين يديه وقال: قد أصبت قلبه فنهضنا مسرعين إليه فوجدناه قد فاضت نفسه في ذلك الوقت وكان قبل ذلك سويًا لا علة به ثم رأيته في المنام وحالته حسنة، فقلت له: ما فعل الله بك، فقال: غفر لي واستوهب لي كلمتي من نبيه يونس بن متى وكان سيدي عبد القادر شفيعي عند الله وعند يونس بن متى ونلت خيرًا كثيرًا ببركة الشيخ رضي الله عنه.

وقال الشيخ عبد الرحمٰن بن أبي الحسن علي البطائحي الرفاعي: قدمت بغداد وحضرت الشيخ محيي الدين عبد القادر سلام الله عليه فرأيت من حاله وفراغ قلبه وخلو سره ما أذهلني فلما رجعت إلى أم عبيدة أخبرت خالي الشيخ أحمد عنه بذلك فقال: يا ولدي من يطيق مثل قوة الشيخ عبد القادر وما هو عليه وما وصل إليه؟ وقال أبو محمد الحسن: سمعت الشيخ عليًا القرشي يقول لرجل: لو رأيت الشيخ عبد القادر لرأيت رجلًا فاقت قوته في طريقه إلى ربه قوى أهل الطريق شدة ولزومًا كانت طريقته التوحيد وصفًا وحكمًا وحالًا وتحقيقه الشرع ظاهرًا وباطنًا ووصفه قلب فارغ وكون غائب ومشاهدة رب حاضر بسريرة لا يتجاوبها الشكوك وسر لا يتنازعه الأغيار وقلب لا تفرقه البقايا جعل الملكوت الأكبر من ورائه والملك الأعظم تحت قدمه رضي الله عنه. وقال الشيخ محمد الشنبكي: سمعت شيخنا أبا بكر بن هوارا يقول: أوتاد العراق ثمانية معروف الكرخي والإمام أحمد بن حنبل وبشر الحافي ومنصور بن عمار والجنيد والسري وسهل بن عبد الله التستري وعبد القادر الجيلاني، قلت: ومن عبد القادر؟ قال: عجمي شريف يسكن بغداد يكون ظهوره في القرن الخامس وهو أحد الصديقين الأوتاد الأفراد أعيان الدنيا أقطاب الزمان.

قال سيدنا الشيخ عبد القادر رضي الله عنه: رأيت رسول الله ﷺ ببغداد وأنا على الكرسي وهو ﷺ راكب وموسى عليه السلام إلى جانبه فقال: يا موسى أفي أمتك رجل كهذا، قال: لا، فقال لي: يا عبد القادر وهو في الهواء فعانقني وألبسني خلعة كانت عليه، وقال هذه خلعة القطبية على الرجال والإبدال ثم تفل في فمي ثلاثًا

وردني إلى المنبر فترنمت هذه الأبيات:

سأشربها في كل دير وبيعة وأظهر للعشاق ديني ومذهبي
وأضرب فوق السطح بالدف جلوة لكاساتها لا في الزوايات مختي

وقال الخضر الحسيني الموصلي: رأيت الشيخ قضيب البان الموصلي رضي الله عنه متواضعًا متصاغرًا وسمعته يقول: الشيخ عبد القادر رضي الله عنه قائد ركب المحبين وقدوة السالكين وإمام الصديقين وحجة العارفين وصدر المقربين في هذا الوقت ومن الطبقة التي تليهم رضي الله عنه.

وقال الحافظ أبو العز عبد المغيث بن حرب البغدادي وغيره: كنا حاضرين في مجلس الشيخ عبد القادر الجيلي ببغداد برباطه بالحلبة وكان في مجلسه عامة مشايخ العراق يومئذٍ منهم الشيخ علي بن الهيتي وبقا بن بطو وأبو سعيد القيلوي وموسى بن ماهين وقيل ماهان وأبو النجيب السهروردي وأبو الكرم وأبو عمر وعثمان القرشي ومكارم الأكبر ومطر وجاكير وخليفة وصدقة ويحيى المرتعش والضيا إبراهيم الجوني وأبو عبد الله محمد القزويني وأبو عمر وعثمان البطائحي وقضيب البان وأبو العباس أحمد اليماني وأبو العباس أحمد القزويني وتلميذه داود كان يصلي الخمس بمكة وأبو عبد الله محمد الخاص وأبو عمر وعثمان العراقي الشوكي يقال: إنه من رجال الغيب السيارة وسلطان المزين وأبو بكر الشيباني وأبو العباس أحمد بن الأستاذ وأبو محمد الكوسج ومبارك الحميري وأبو البركات وعبد القادر البغدادي وأبو السعود العطار وأبو عبد الله الأواني وأبو القاسم البزار والشهاب عمر السهروردي وأبو البقا البقال وأبو حفص الغزالي وأبو محمد الفارسي وأبو محمد اليعقوبي وأبو حفص الكيماني وأبو بكر المزين وجميل صاحب الخطوة والزعقة وأبو عمر الصريفيني وأبو الحسن الجوسقي وأبو محمد الحريمي والقاضي أبو يعلى الفراء وغيرهم والشيخ يتكلم عليهم وقد حضر قلبه فقال: قدمي هذه على رقبة كل ولي لله، فقام الشيخ علي بن الهيتي وصعد الكرسي وأخذ قدم الشيخ وجعلها على عنقه ودخل تحت ذيله ومد الحاضرون كلهم أعناقهم، وقال الشيخ عدي بن أبي البركات صخر بن صخر بن مسافر، قال أبي صخر قلت لعمي الشيخ عدي بن مسافر رضي الله عنه: أعلمت أن أحدًا من المشايخ المتقدمين، قال: قدمي هذه على رقبة كل ولي لله غير الشيخ عبد القادر، قال: لا، قلت: فما معناها، قال: هي مصفحة عن مقام الفردية في وقته، قلت ولكل وقت فرد، قال: نعم ولكن لم يؤمر أحد أن يقول هذا القول سوى الشيخ عبد القادر رضي

الله عنه قال قلت: أو أمر بقولها، قال: قد أمر وإنما وضعت كلهم رؤوسهم لمكان رؤوسهم لمكان الأمر ألا ترى إلى الملائكة عليهم السلام لم يسجدوا لآدم إلا لورد الأمر عليهم بذلك.

وقال الشيخ بقا بن بطو النهر ملكي لما قال الشيخ عبد القادر: قدمي هذه على رقبة كل ولي لله، قال إبراهيم الأعزب ابن الشيخ أبي الحسن علي الرفاعي البطائحي رضي الله عنه، قال أبي لخالي سيدي الشيخ أحمد الرفاعي هل قال الشيخ عبد القادر رضي الله عنه: قدمي هذه على رقبة كل ولي لله تعالى بأمر أم بلا أمر، قال: بل، قالها بأمر رضي الله عنهم. ورُوِي بالإسناد إلى الشيخ أبي بكر بن هوارا نفع الله به أنه قال في مجلسه يومًا بين أصحابه: سوف يظهر بالعراق رجل من العجم عالي المنزلة عند الله والناس اسمه عبد القادر وسكنه ببغداد يقول: قدمي هذه على رقبة كل ولي لله ويدين له الأولياء في عصره ذلك الفرد في وقته، وسئل شيخ الإسلام شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني تغمده الله برحمته عن معنى قول سيدنا الشيخ عبد القادر رضي الله عنه: قدمي هذه على رقبة كل ولي لله، فأجاب رحمه الله تعالى بما نصه كلام يطول منه ظهور الخوارق على البشر واقعة لا ينكرها إلا معاند وقد ذكر أئمتنا لما يظهر من الخوارق ضابطًا يتميز به المقبول من المردود، فقالوا: إن كان الواقع ذلك له أو منه على المنهاج المستقيم فهي كرامة كالشيخ عبد القادر، فقد قال سلطان العلماء وشيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام ما وصلت إلينا كرامات أحد بطريق التواتر مثل ما وصلت إلينا كرامات سلطان الأولياء الشيخ عبد القادر رضي الله عنه فالشيخ عبد القادر كان حاضر الحس متمسكًا بقوانين الشريعة ويدعو إليها وينفر عن مخالفتها ويشغل الناس فيها مع تمسكه بالعبادة والمجاهدة ومزج ذلك بمخالطة الشاغل عنها غالبًا كالأزواج والأولاد ومن كان هذا سبيله كان أكمل من غيره ولأنها صفة صاحب الشريعة ﷺ ومن هنا قال الشيخ: قدمي هذه على رقبة كل ولي لله، قال لأنه لا يعرف في عصره من كان يساويه في الجمع بين هذه الكمالات والغرض العظيم شأنه وهو بلا شك يستحق النظيم والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. وقال بعضهم القدم هنا مجازي لا حقيقي لأنه المناسب للأدب والممكن عموم وقوعه ويقال عن الطريقة قدم. يقال فلان على قدم حميد أي طريقة حميدة أو عبادة عظيمة أو أدب جميل أو نحو ذلك، والمعنى به أن طريقته وقربه وفتحه أعلى طريقة وقرب وفتح في حالة انتهائه وأما القدم الحقيقي فالله أعلم إنه غير مراد الشيخ لعدم مناسبته من وجوه منها ما سلف من رعاية الأدب الذي يبنى عليه الطريق كما أشار الجنيد وغيره رضي

الله عنهم. ومنها أن المناسب لمقام هذا العارف الولي العظيم الشأن أخذ كلامه على أفصح وأقعد ما يمكن صرفه إليه وأولى ما يكون ذلك ما ابتدىء بتقريره. وأما ما قيل من قول بعضهم قادمي ونحو ذلك فالله أعلم به هذا ما ظهر والله أعلم بالخفيات رضي الله عنه وأرضاه.

وقال الشيخ مطر: كنت يومًا عند شيخنا أبي الوفا بزاويته بقلمينيا فقال: يا مطر أغلق الباب فإذا شاب عجمي يطلب الدخول علي فأمنعه فقمت فإذا الشيخ عبد القادر وهو يومئذٍ شاب يطلب الدخول عليه فاستأذن الشيخ فلم يأذن له في الدخول ورأيته يمشي في الزاوية كالمنزعج ثم أذن له فلما رآه مشى إليه خطوات واعتنقا طويلًا وقال له: يا عبد القادر وعزة من له العزة ما منعتك من الدخول أول مرة جحدًا لحقك بل خشية منك لكن لما علمت إنك تأخذ مني وتعطيني أمنت إليك رضي الله عنهم ورضي عنا بهم. وقال الشيخ عبد الرحمٰن الطفسونجي كان الشيخ عبد القادر يأتي وهو شاب إلى زيارة شيخنا تاج العارفين أبي الوفا فحين يراه ينهض ويقول: لمن حضره قوموا لولي الله وربما مشى إليه في وقت خطوات يتلقاه وربما قال في وقت من لم يقم فليقم لوليّ الله فلما تكرر ذلك منه قال بعض أصحابه في ذلك فقال لهذا الشاب: وقت إذا جاء افتقر إليه الخاص والعام وكأني أراه قائلًا ببغداد على رؤوس الإشهاد وهو محق قدمي هذه على رقبة كل ولي لله فيوضع له رقاب الأولياء في عصره إذ هو قطبهم فمن أدرك منكم ذلك الوقت فيلزم خدمته، وقال الشيخ مسلمة بن نعمة السروجي رضي الله عنه في جواب من سأله يومًا عن القطب من هو فقال هو الآن بمكة مختف لا يعرفه إلا الصالحون وسيظهر هنا وأشار إلى جهة العراق فتى أعجمي شريف يسمى عبد القادر له مظهر عظيم بالكرامات الخارقات هو قطب وقته وغوث زمانه وسيقول على رؤوس الإشهاد وهو محق قدمي هذه على رقبة كل ولي لله وليندرجن أولياء عصره تحت قدمه ذلك الذي ينفع الله به وبكراماته من صدق بها من سائر الناس رضي الله عنهما.

وقال الشيخ علي بن الهيتي: كان شيخنا أبو الوفا يتكلم على الناس فوق الكرسي فدخل الشيخ عبد القادر المجلس فقطع كلامه وأمر بإخراجه فأخرج وتكلم ثم دخل الشيخ عبد القادر ثالثة فنزل الشيخ أبو الوفا واعتنقه وقبل بين عينيه وقال: قوموا لولي الله تعالى يا أهل بغداد، ما أمرت بإخراجه إهانة له بل لتعرفوه فوعزة المعبود على رأسه صناجق قد جاوزت داراتها المشرق والمغرب. ثم قال له: يا عبد القادر الوقت الآن لنا وسيصير لك يا عبد القادر وهبوك العراق وكل ديك يصيح ويسكت إلا

ديكك فإنه يصيح إلى يوم القيامة وأعطاه سجادته وقميصه ومسبحته وقصعته وعكازه فقيل له: خذ عليه بالعهد، فقال على جبينه داع المخرمي فلما انقضى المجلس ونزل الشيخ تاج العارفين أبو الوفا من الكرسي وجلس على آخر مرقاة وأمسك بيد الشيخ عبد القادر وقال له في غلبات الناس يا عبد القادر لك وقت فإذا جاء أذكر هذه الشيبة وقبض على كريمته رضي الله عنهما. قال عمر البزار فكانت مسبحة الشيخ أبي الوفا التي أعطاها لسيدنا الشيخ عبد القادر إذا وضعها سيدنا الشيخ عبد القادر على الأرض تدور وحدها حبة حبة فلما مات أخذها بعده الشيخ علي بن الهيتي وكانت القصعة التي أعطاها له لا يمسها أحد إلا وأرجفت يده إلى كتفيه، وقال الشيخ الصالح أبو محمد يوسف العاقولي قصدت زيارة الشيخ عدي بن مسافر فقال من أين فقلت من بغداد من أصحاب الشيخ عبد القادر فقال: بخ بخ ذلك قطب الأرض الذي وضعت ثلاثمائة ولي لله وسبعمائة غيبي ما بين جالس في الأرض ومار في الهواء أعناقهم له في وقت واحد حين قال: قدمي هذه على رقبة كل ولي لله، فعظم ذلك عندي ثم بعد مدة زرت الشيخ أحمد الرفاعي فذكرت له ما سمعت من الشيخ عدي في ذلك فقال صدق الشيخ عدي رضي الله عنهم. وقال الشيخ ماجد الكردي لما قال الشيخ عبد القادر هذه الكلمة: لم يبق لله ولي في الأرض في ذلك الوقت إلا حنى عنقه تواضعًا له واعترافًا بمكانته ولم يبق ناد من أندية صالحي الجن في ذلك الوقت إلا وفيه ذكر ذلك وقصدته وفود صالحي الجن من جميع الآفاق مسلمين عليه وتائبين على يديه وازدحموا في بابه ووافقه الشيخ مطر على ذلك، وقال الشيخ عبد الله ابن سيدنا الشيخ محيي الدين عبد القادر رضي الله عنه، وسألته هل حضرت المجلس الذي قال فيه والدك: قدمي هذه على رقبة كل ولي لله، قال: نعم، وكان في ذلك المجلس زهاء عن خمسين شيخًا من الأعيان قال فلما دخل الشيخ عبد الله إلى داره ولم يبق سوى الشيخ مكارم والشيخ محمد الخاص والشيخ أحمد العريني فجلسنا نتكلم فقال الشيخ مكارم أشهدني الله في ذلك اليوم أنه لم يبق أحد ممن عقد له لواء الولاية في أقطار الأرض أدناها وأقصاها إلا شاهد علم القطبية محمولًا بين يديه وتاج الغوثية على رأسه ورأى عليه خلعة التصريف التام في الوجود وأهله ولاية وعزلا معلمة بطراز الشريعة والحقيقة وسمعته يقول: قدمي هذه على رقبة كل ولي لله، ووضع رأسه وذلل قلبه له في وقت واحد حتى الإبدال العشرة خواص المملكة سلاطين الوقت فقلت له: من هم، فقال: بقا بن بطو وأبو سعيد القيلوي وعلي بن الهيتي وعدي بن مسافر وموسى الزولي وأحمد بن الرفاعي وعبد الرحمٰن الطفسونجي

وأبو محمد بن عبد البصري وحياة بن قيس الحراني وأبو مدين المغربي فقال له الشيخ محمد الخاص والشيخ أحمد العريني صدقت ووافقه على ذلك أخواي الشيخ عبد الله الجبار وعبد الله الجبار وعبد العزيز رضي الله عنهم. وقال الشيخ القدوة أبو سعيد القيلوي لما قال الشيخ عبد القادر رضي الله عنه: قدمي هذه على رقبة كل ولي لله، تجلى الحق عزَّ وجلَّ على قلبه وجاءته خلعة من رسول الله ﷺ على يد طائفة من الملائكة المقربين ألبسها بمحضر من جميع الأولياء من تقدم منهم ومن تأخر الأحياء بأجسادهم والأموات بأرواحهم وكانت الملائكة ورجال الغيب حافين بمجلسه واقفين في الجو صفوفًا حتى أسند الأفق بهم ولم يبق ولي في الأرض إلا حتى عنقه رضي الله عنه.

وقال الشيخ خليفة الأكبر: رأيت رسول الله ﷺ في المنام فقلت: يا رسول الله قد قال الشيخ عبد القادر: قدمي هذه على رقبة كل ولي لله، فقال: «صدق الشيخ عبد القادر فكيف لا وهو القطب وأنا أرعاه». وجاء رجل إلى الشيخ القدوة حياة بن قيس الحراني رضي الله عنه في يوم الجمعة ثالث رمضان سنة تسع وتسعين وخمسمائة بجامع حران وسأله أن يأخذ عليه العهد فقال له: أنت عليك رسم غيري، فقال: نعم قد سميت الشيخ عبد القادر رضي الله عنه ولكن لم آخذ له خرقة ولا من أحد. فقال الشيخ حياة قد عشنا زمنًا مديدًا في ظل حياة الشيخ عبد القادر رضي الله عنه وشربنا كؤوسًا هنيئة من مناهل عرفانه ولقد كان النفس الصادق يصدر عنه فيستطير شعاع نوره في الآفاق استطارة النار فتقتبس منه أسرار أصحاب الأحوال على قدر مراتبهم ولما أتاه الأمر يقول: قدمي هذه على رقبة كل ولي زاد الله تعالى جميع الأولياء نورًا في قلوبهم وبركة في علومهم وعلوًا في أحوالهم ببركة وضعهم رؤوسهم وقد مضى إلى الله تعالى في حلية السابقين من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين رضي الله عنهم أجمعين.

وقال الشيخ لولو الأرمني المخاطب على الأنفاس أنه لما رأى الشيخ أبو الخير عطاء المصري اجتهادي ذكر في نفسه إلى من ينتسب من المشايخ، فقلت له: يا عطاء شيخي الشيخ عبد القادر الذي قال قدمي هذه على رقبة كل ولي لله، ووضع له ثلاثمائة وثلاثة عشر وليًا لله رؤوسهم في جميع آفاق الأرض منهم في ذلك الوقت بالحرمين الشريفين سبعة عشر رجلًا وبالعراق ستون رجلًا وبالعجم أربعون وبالشام ثلاثون وبمصر عشرون وبالمغرب سبعة وعشرون وبالحبشة أحد عشر وبسد يأجوج ومأجوج سبعة وبوادي سرنديب سبعة وبجبل قاف سبعة وأربعون وبجزائر البحر

الميحط أربعة وعشرون وأخبر غير واحد أنه لم يقل هذه الكلمة إلا بأمر منهم الشيخ عدي بن مسافر وأبو سعيد القيلوي وعلي بن الهيتي وأحمد بن الرفاعي وأبو القاسم البصري وحياة الحراني وإنه أذن له في عزل من أنكرها عليه من الأولياء، وقال: رأيت الأولياء في المشرق والمغرب واضعين رؤوسهم تواضعًا إلا رجلًا بأرض العجم فإنه لم يفعل فتوارى عنه حاله وممن حنى عنقه إذ ذاك من الشيوخ بقا بن بطو وأبو سعيد القيلوي وعلي بن الهيتي وأحمد بن الرفاعي فإنه مد عنقه وقال: على رقبتي، فسئل عن ذلك فقال قد قال الشيخ عبد القادر: الآن ببغداد قدمي هذه على رقبة كل ولي لله وعبد الرحمٰن الطفسونجي وأبو النجيب السهروردي فإنه طأطأ رأسه حتى كادت تبلغ الأرض وقال على رأسي وموسى الزولي وحياة الحراني وأبو محمد بن عبد وأبو عمر وعثمان بن مرزوق وأبو الكرم وماجد الكردي وسويد النجاري ورسلان الدمشقي فإنه حنى عنقه بدمشق وأخبر أصحابه بذلك ثم قال لله در من شرب من بحار القدس وجلس على بساط المعرفة وشاهد سر تعظيم الربوبية وإجلال الوحدانية فتلاشى وصفه في شهود الكبرياء وفنى وجوده عند معاينة الهيبة فنشر عليه رداء الإنس وسما في مراقي العناية حتى بلغ مقام القرار وهب على رقعة نسمات روح الأزلية فنطق بالحكم من معادن الأنوار وامتزج بسويداء سره مكنون الأسرار فهو في الحضور ما صحا وفي الصحو ما انمحى واقف بالحياء منبسط بالأدب متكلم بالتواضع مدلل بالافتقار متقرب بالتحضيض مخاطب بالإكرام فعليه من ربه أفضل تحية وسلام فقيل له هل في الوجود أحد هذا وصفه، قال: نعم، والشيخ عبد القادر سيدهم رضي الله عنه وأبو مدين المغربي فإنه حنى عنقه بالمغرب، وقال: نعم وأنا منهم، اللهم إني أشهدك وأشهد ملائكتك إنني سمعت وأطعت وعبد الرحيم المغربي وأبو عمر وعثمان بن مروزة البطائحي ومكارم وخليفة وعدي بن مسافر وقد رئي وقت مقالته جماعة يطيرون في الآفاق إليه لحضور ذلك بأمر الخضر عليه السلام وخوطب بعد ذلك من الأولياء بعد التهنئة يا ملك الزمان ويا إمام المكان يا قائمًا بأمر الرحمٰن ويا وارث كتاب الله ونائب رسول الله ﷺ ويا من السماء والأرض مائدته يا من أهل وقته كلهم عائلته يا من ينزل القطر بدعوته ويدر الضرع ببركته ولا يحضرون عنده إلا منكسة رؤوسهم وتقف الغيبية بين يديه أربعين صفًا كل صف سبعون رجلًا وكتب في كفه أنه أخذ من الله موثقًا أن لا يمكر به وكانت الملائكة تمشي حواليه وعمره عشر سنين وتبشره بالولاية انتهى، وزادت الدجلة في بعض السنوات حتى أشرفت على بغداد وأيقنوا بالغرق فأتى الناس إلى الشيخ عبد القادر رضي الله عنه مستغيثين لاجئين به فأخذ

عكازه وأتى الشط وركزه عند حد الماء فقال: إلى هنا، فنقص الماء من وقته رضي الله عنه وقال عبد الله ذيال كنت قائمًا بمدرسة الشيخ محيي الدين عبد القادر رضي الله عنه في سنة ستين وخمسمائة فخرج من داره وبيده عكاز فخطر لي أن لو أراني في هذه العكازة كرامة قال فنظر إلي متبسمًا وركزها في الأرض فإذا هي نور يتلألأ متصاعدًا نوره إلى نحو السماء وأشرق به الجو وبقيت كذلك ساعة زمانية ثم أخذها فعادت كما كانت فقال لي: يا ذيال أنت أردت هذا رضي الله عنه، وقال الشيخ أبو التقي محمد بن الأزهر الصريفيني مكثت سنة أسأل الله تعالى أن يريني أحد رجال الغيب فرأيت ليلة في المنام إنني أزور قبر الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه وعنده رجل فوقع في نفسي أنه من رجال الغيب واستيقظت ثم رجوت أن أراه في اليقظة فأتيت قبر الإمام من وقتي فرأيت الرجل الذي رأيته في منامي بعينه فعجلت في الزيارة لأدركه فخرج قدامي فتبعته إلى، أتى إلى الدجلة فلم له طرفاها حتى صارت قدر خطوة فخطاها وعبر إلى الجانب الآخر، قال فأقسمت عليه أن يقف ويكلمني فوقف فقلت له: ما مذهبك، قال: حنيفًا مسلمًا وما أنا من المشركين فوقع عندي أنه حنفي المذهب وانصرفت فقلت في نفسي اذهب فأزور الشيخ عبد القادر رضي الله عنه واذكر له جميع ما رأيت فأتيت مدرسته وقمت على بابه فناداني من داخل الدار ولم يفتح الباب يا محمد ما في الأرض من المشرق والمغرب في هذا الوقت ولي لله تعالى حنفي المذهب سواه رضي الله عنه وصعد مرة الكرسي ولم يتكلم ولم يقرأ القارىء فأخذ الناس وجد عظيم وتداخلهم أمر جليل فخطر في بال بعض الحاضرين ما هذا فقال الشيخ: جاء مريد لي من بيت المقدس إلى هنا في خطوة وتاب على يدي والحاضرون اليوم في ضيافته فخطر بباله من يكون هذا حاله مم يتوب فأجاب الشيخ في الحال من الخطو في الهواء فلا يرجع إليه ويحتاج إلى أن أعلمه الطريق إلى المحبة. وكان رضي الله عنه يمشي في الهواء على رؤوس الإشهاد في مجلسه ويقول: ما تطلع الشمس حتى تسلم علي وكذا السنة والشهر والأيام ويخبروني بما يجري فيها وتعرض علي الأشقياء والسعداء وعيني في اللوح المحفوظ وأنا غائص في بحار علمه ومشاهدته أنا حجة عليكم ونائب رسول الله ووارثه في الأرض وكان يقول: كل ولي على قدم نبي، وأنا على قدم جدي ﷺ وما رفع قدمًا إلا وضعت قدمي في موضعه إلا أن يكون قدمًا من أقدام النبوة رضي الله عنه، وقال رضي الله عنه: أنا شيخ الملائكة والإنس والجن، وقال مرة على الكرسي إذا سألتم الله تعالى فاسألوه بي ويا أهل الأرض شرقًا وغربًا تعالوا تعلموا مني يا أهل العراق الأحوال عندي كثياب معلقة

في بيت أيها شئت لبست فعليكم بالسلام أو لآتينكم بجنود لا قبل لكم بها يا غلام سافر ألف عام لتسمع مني كلمة يا غلام الولايات هٰهنا درجات هٰهنا في مجلسي تفرق الخلع وما من نبي خلقه الله تعالى ولا ولي إلا وقد حضر مجلسي هذا الأحياء بأبدانهم والأموات بأرواحهم يا غلام سل عني منكرًا ونكيرًا حين مجيئهما إلى قبرك يخبراك عني، وقال خادمه أبو الرضا: تكلم سيدي الشيخ عبد القادر رضي الله عنه يومًا في الروح ثم سكت ثم جلس ثم قام وهو يقول:

روحي ألفت بحكم في القدم ... من قبل وجودها وهي في العدم
هل يجمل بي من بعد عرفانكم ... أن أنقل عن طرق هواكم قدمي

وقال أبو الرضا المذكور كان الشيخ يومًا يتكلم في الإيثار على المنبر ثم شخص وسكت ثم قال: لا أتكلم إلا بمائة دينار فحملت إليه وبقي الناس متعجبين فقال يا أبا الرضا قلت: لبيك، فقال: امض إلى المقبرة الشونيزية تجد هناك شيخًا يلعب بالعود أعطه هذا الذهب وأتني به فذهبت فوجدت شيخًا قائمًا يلعب بالعود فسلمت عليه ودفعت إليه الذهب فصرخ ووقع مغشيًا عليه فلما أفاق، قلت: يا هذا الشيخ عبد القادر يدعوك فمضى معي فلما أتيت به إلى الميعاد وقال: أرفعه إلى المنبر فصعد والعود على كتفه فقال له: يا هذا قص عليه قصتك فقال: يا سدي كنت في حال الصبا أغنى طيبًا وكان لي قبول فلما كبر السن مني ما بقي أحد ينظر إلي فخرجت من بغداد وقلت: لا غنيت إلا للموتى فبينما أنا أطوف عليهم فجلست عند قبر فإذا به قد أنشق وأخرج الرجل إلى رأسه وقال: كم تغني للموتى يا هذا، قم وغن للحي القيوم مرة واحدة وقد أعطاك ما سألته فأغمي علي ثم قمت وأنا أقول:

يا ربّ ما لي عدة يوم اللقا ... إلا رجا قلبي ونطق لساني
قد أمّك الراجون يبغون المنى ... واخيبتا إن عدت بالحرماني
إن كان لا يرجوك إلا محسن ... فبمن يلوذ ويستجير الجاني
شيبي شنيع يوم عرضي واللقا ... فعساك تنقذني من النيراني

فبينما أنا قائم وخادمك أتاني بهذه المائة دينار وأنا تائب إلى الله تعالى ثم كسر العود وتاب، فقال الشيخ: يا فقراء إذا كان هذا صدق في اللهو أعطاه ما أراد فكيف الحال بمن يصدق في فقره وطريقه وجميع أحواله. ثم قال عليكم بالصدق والصفاء ولولاهما لم يتقرب بشر إلى الله تعالى ألم تسمعوا إلى قول الحق تعالى وإذا قلتم فاعدلوا أي فاصدقوا ولما طلب الشيخ الذهب حمل إليه أربعون رجلًا كل منهم مائة

دينار فلم يأخذ إلا من رجل واحد فلما تاب المغنى أعطوه بقية القوم ما كانوا حملوه للشيخ ومات بسبب ذلك اليوم خمسة أنفار رضي الله عنه. وقال الكيماني والبزاز وأبو الحسن علي المعروف بالسقا زار شيخنا محيي الدين عبد القادر رضي الله عنه مقبرة الشونيزي يوم الأربعاء السابع والعشرين من ذي الحجة سنة تسع وعشرين وخمسمائة ومعه جمع كثير من الفقهاء والقراء فوقف عند قبر الشيخ حماد الدباس رضي الله عنه زمانًا طويلًا حتى اشتد الحر والناس واقفون خلفه ثم انصرف والسرور بين في وجهه فسئل عن سبب ذلك وطول قيامه، فقال: كنت قد خرجت من بغداد في يوم الجمعة منتصف شهر شعبان سنة تسعة وتسعين وأربعمائة مع جماعة من أصحاب الشيخ حماد رضي الله عنه لنصلي الجمعة في جامع الرصافة والشيخ معنا فلما كنا عند قنطرة اليهود دفعني فرماني في الماء وكان في شدة البرد في كوانين، فقلت: بسم الله نويت غسل الجمعة وكان على جبة صوف وفي كمي أخرى فرفعت يدي لئلا تبتل وتركوني وانصرفوا فخرجت من الماء وعصرت الجبة وتبعتهم وقد تأذيت بالبرد أذى كثيرًا فطمع في أصحابه فنهرهم وقال: إنما أوذيه لامتحنه فأراده جبلًا لا يتحرك وإني رأيته اليوم في قبره وعليه حلة من نور مرصعة بالجوهر وعلى رأسه تاج من ياقوت وفي يديه أساورة من ذهب وفي رجليه نعلان من ذهب ويده اليمنى لا تطيعه، فقلت: ما هذا، يعني اليد، فقال: هذه اليد الذي رميتك بها فهل أنت غافر إلى ذلك، قلت: نعم، قال: فاسأل الله تعالى أن يردها علي فوقفت أسأل الله تعالى في ذلك وقام خمسة آلاف ولي من أولياء الله تعالى في قبورهم يسألون الله تعالى أن يقبل مسألتي فيه ويشفعوا عندي في تمام المسألة لما زلت أسأل الله تعالى في مقامي حتى رد الله تعالى يده عليه وصافحني بها وقد تم سروره وسروري به فلما اشتهر هذا القول ببغداد اجتمع المشايخ والصوفية من أهل بغداد من أصحاب الشيخ حماد ليطالبوا الشيخ عبد القادر رضي الله عنه بحقيقة ما قال وتبعهم خلق كثير من الفقراء وأتوا إلى المدرسة فلم يتكلم أحد إجلالًا له فبدأهم الشيخ بمرادهم وقال لهم: اختاروا رجلين من المشايخ يتبين لكم ما ذكرته على لسانهما إن شاء الله تعالى. فأجمعوا على الشيخ يوسف الهمداني وكان يومئذٍ ورد إلى بغداد وعلى الشيخ عبد الرحمٰن الكردي وكان مقيمًا ببغداد رضي الله عنهما، وكانا من أهل الكشف الحاذق والأحوال الفاخرة، وقالوا له: أمهلناك في ذلك على لسانهما جمعة، فقال رضي الله عنه: بل لا تقوموا من مقامكم هذا حتى يتحقق لكم الأمر إن شاء الله تعالى. ثم أطرق إلى الأرض وأطوقوا فصاح الفقراء

من خارج المدرسة وإذا الشيخ يوسف قد جاء حافيًا يجد في عدوه حتى دخل المدرسة وقال: أشهدني الله تعالى الساعة أن الشيخ حمادًا رضي الله عنه قال: أسرع إلى مدرسة الشيخ عبد القادر وقل للمشايخ الذين فيها صدق الشيخ أبو محمد عبد القادر فيما أخبر عني فلم يتم كلامه حتى جاء الشيخ أبو محمد عبد الرحمٰن الكردي وقال: مثل قول الشيخ فقاموا كلهم يستغفرون في حق الشيخ عبد القادر رضي الله عنه وعنهم ورضي عنا بهم. وقال الشيخ عبد الوهاب والشيخ عبد الرزاق بكر الشيخ بقا بن بطو يوم الجمعة خامس رجب إلى مدرسة والدنا وقال لنا: رأيت الليلة نورًا عظيمًا وإذا هو صادر عن الشيخ عبد القادر ولم يبق ملك نزل الليلة إلى الأرض إلا أتاه وصافحه واسمه عندهم الشاهد والمشهود قالا: فأتيناه وقلنا له: أصليت الليلة صلاة الرغائب فأنشد:

إذا نظرت عيني وجوه حبائبي فتلك صلاتي في ليالي الرغائب
وجوه إذا ما أسفرت عن جمالها أضاءت لها الأكوان من كل جانب
حرمت الرضا إن لم أكن باذلًا دمي أزاحم شجعان الوغى بالمناكب
أشقّ صفوف العارفين بعزمة تعلى ومجدي فوق تلك المراتب
ومَن لم يوفَ الحب ما يستحقه فذاك الذي لم يأت قطّ بواجب

وقيل له رضي الله عنه صف لنا شيئًا مما وجدته من أحوال البداية والنهاية من هذا الأمر لنقتدي به قال فأنشد:

أنا راغب فيمن تقرب وصفه ومناسب لفتى يلاطف لطفه
ومفاوض العشاق في أسرارهم من كل معنى لم يسعني كشفه
قد كان يسكرني مزاج شرابه واليوم يصحيني لديه صرفه
وأغيب عن رشدي بأول نظرة واليوم أستجليه ثم أزفه

فقيل له إنا نصوم مثل ما تصوم ونصلي مثل ما تصلي ونجتهد مثل ما تجتهد وما نرى من أحوالك شيئًا فقال: زاحمتونا في الأعمال وتزاحمونا في المواهب والله ما أكلت حتى قيل بحقي عليك كل ولا شربت حتى قيل بحقي عليك أشرب وما فعلت شيئًا حتى أمرت بفعله. وقال رضي الله عنه: كنت في زمن مجاهدتي إذ أخذتني سنة من النوم أسمع قائلًا يقول لي: يا عبد القادر ما خلقتك للنوم قد أحييناك ولم تك شيئًا فلا تغفل عنا وأنت شيء. وقال الشيخ أبو النجا البغدادي المعروف بالخطاب خادم سيدنا الشيخ محيي الدين عبد القادر رضي الله عنه: اجتمع

على سيدي الشيخ عبد القادر في وقت مائتان وخمسون دينارًا دينًا لأرباب أصناف فجاء شخص لا أعرفه فدخل عليه بلا إذن وجلس عنده طويلًا وأخرج له ذهبًا، وقال: هذا وفاء الدين وانصرف وأمرني الشيخ رضي الله عنه أن أوصل إلى كل ذي حق حقه فقلت: يا سيدي من الرجل فقال صيرفي القدر، قال قلت: وما صيرفي القدر، قال: ملك يرسله الله تعالى إلى من عليه دين من الأولياء فيوفيه عنه رضي الله عنه.

وقال خادمه أبو الرضا طرقت ليلة عليه باب الخلوة فلم يكلمني ففتحت ودخلت فلم أجده وإذا به قد نزل إلى من سقف الخلوة وهو يقول:

طافت بكعبة حسنكم أشواقي فسجدت شكرًا للجلال الباقي
ورميت في قلبي جمار هواكم بيد المنى وبقيت في إحراق
سكران عشق لا أزال مولهًا يا ليت شعري ما سقاني الساقي

وقال الشيخ عدي بن أبي البركات: قال أبي: قال عمي القدوة الشيخ عدي بن مسافر رضي الله عنه: أمطرت السماء مرة والشيخ محيي الدين عبد القادر رضي الله عنه يتكلم فتفرق بعض أهل المجلس، قال: فرفع رأسه نحو السماء وقال: أنا أجمع عليك وأنت تفرق علي كذا، قال فسكت المطر عن المجلس وبقي على حاله يقع خارج المدرسة ولا يقطر على المجلس قطرة واحدة رضي الله عنه ومن إنشاده رضي الله عنه قوله:

ما في الصبابة منهل مستعذب إلا ولي فيه الألذ الأطيب
أو في الوصال مكانة مخصوصة إلا ومنزلتي أعز وأقرب
وهبت لي الأيام رونق صفوها فحلت مناهلها وطاب المشرب
وغدوت مخطوبًا لكل كريمة لا يهتدي فيها اللبيب فيخطب
أنا من رجال لا يخاف جليسهم ريب الزمان ولا يرى ما يرهب
قوم لهم في كل مجد رتبة علوية وبكل جيش موكب
أنا بلبل الأفراح أملأ دوحها طربًا وفي العلياء باز أشهب
أضحت جيوش الحب تحت مشيئتي طوعًا ومهما رمته لا يعزب
أصبحت لا أملًا ولا أمنية أرجو ولا موعودة أترقب
ما زلت أرتع في ميادين الرضا حتى وهبت مكانة لا توهب

أضحى الزمان كحلة مرقومة ... تزهو ونحن لها الطراز المذهب
أفلت شموس الأولين وشمسنا ... أبدًا على فلك العلا لا تغرب

وقال رضي الله عنه كل الطيور تقول: ولا تفعل والبازي يفعل ولا يقول ولأجل هذا صار كف اعلوك سدته فأنشد أبو المظفر منصور بن المبارك جرادة هذه الأبيات:

بك الشهور تهني والمواقيت ... يا من بألفاظه تغلو اليواقيت
الباز أنت فإن تفخر فلا عجب ... وسائر الناس في عيني فواخيت
أشم من قدميك الصدق مجتهدًا ... لأنه قدم من نعلها صيت

وقال عبد الله الجبائي: كان الشيخ رضي الله عنه يومًا يتكلم في الخلاص من العجب فالتفت إلي وقال: إذا رأيت الأشياء من الله وأنه وفقك لعمل الخير وأخرجت نفسك من البين سلمت من العجب. وقال شيخ الصوفية الشيخ شهاب الدين عمر السهروردي اشتغلت بعلم الكلام وأنا شاب وحفظت فيه كتبًا وصرت فيه فقيهًا وكان عمي يزجرل عنه فلا أزدجر فأتى يومًا وأنا معه إلى زيارة الشيخ عبد القادر رضي الله عنه فقال لي: يا عمر قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗ﴾ [المجادلة: الآية ١٢]، وها نحن داخلون على رجل يخبر قلبه عن الله تعالى فانظر كيف تكون بين يديه لتنظر بركات رؤيته. قال فلما جلسنا قال له عمي: يا سيدي هذا ابن أخي مشتغل بعلم الكلام وقد نهيته ولم ينته فقال لي: يا عمر أي كتاب حفظته فيه، فقلت: الكتاب الفلاني والكتاب الفلاني، قال فمر بيده المباركة على صدري فوالله ما نزعها وأنا أحفظ من الكتب لفظة واحدة وأنساني الله مسائلها وأقر الله في صدري العلم اللدني في الوقت العاجل. وقمت من بين يديه وأنا أنطق بالحكمة وقال لي: يا عمر أنت آخر المشهورين في العراق، قال فكان الشيخ عبد القادر رضي الله عنه سلطان أهل الطريق المتصرف في الوجود على التحقيق رضي الله عنه.

وقال أبو الفرج بن الحمامي: كنت كثيرًا ما أسمع عن الشيخ عبد القادر أشياء أستبعد وقوعها وأنكرها وأدفعها وكنت بحسب ذلك أتشوق إلى لقائه وأتفق أني مضيت إلى باب الأزج لحاجة كانت لي هناك فلما عدت مررت بمدرسته والمؤذن يقيم الصلاة فتنبهت بالإقامة على ما كان في نفسي وقلت: أصلي العصر وأسلم على الشيخ وذهب عني أنني على غير وضوء فصلى بنا العصر فلما فرغ من الصلاة

والدعاء أقبل علي وقال: أي بني لو قدمتني بالقصد على حاجتك لقضيت لك ولكن الغفلة شاملة لك بحيث قد صليت على غير وضوء وقد سهوت عن ذلك قال فتداخلني من العجب بحاله ما أدهشني وأذهل عقلي من كونه علم من حالي ما خفي عني وخبرني به ومن حينئذٍ لازمت صحبته وتعلقت بمحبته وخدمته وتعرفت بذلك شمول بركته.

وقال الجبائي: كنت أسمع كتاب حلية الأولياء على ابن ناصر فرق قلبي وقلت في نفسي أشتهي أن أنقطع عن الخلق في زاوية وأشتغل بالعبادة ومضيت وصليت خلف الشيخ عبد القادر فلما صلى جلست بين يديه فنظر إلي وقال: إذا أردت الانقطاع فلا تنقطع حتى تتفقه وتجالس الشيوخ وتتأدب بهم فحينئذٍ يصلح لك الانقطاع وإلا فتمضي وتنقطع قبل أن تنفقه وأنت فريخ ما ريشت فإن أشكل عليك شيء من أمر دينك تخرج من زاويتك وتسأل الناس عن أمر دينك ما أحسن صاحب الزاوية أن يكون كالشمعة يستضاء بنورها.

وقال الشيخ أبو العباس الخضر الحسين الموصلي: كنا ليلة في مدرسة شيخنا الشيخ محيي الدين عبد القادر رضي الله عنه ببغداد فجاءه الإمام المستنجد بالله أبو المظفر يوسف ابن الإمام المقتفي لأمر الله أبو عبدالله محمد العباسي فسلم عليه واستوصاه ووضع بين يديه مالًا في عشرة أكياس يحملها عشرة من الخدم. فقال الشيخ رضي الله عنه: لا حاجة لي فيها فأبى إلا أن يقبلها وألح عليه المسألة، قال فأخذ الشيخ رضي الله عنه كيسًا في يمينه وآخر في شماله وهما خير له الأكياس وأحسنها وعصرهما بيده فسالا دمًا، وقال له الشيخ يا أبا المظفر ما تستحي من الله تعالى إن تأخذ دم الناس وتقابلني به، قال فغشي عليه فقال الشيخ رضي الله عنه وحق الله لولا حرمة اتصاله برسول الله ﷺ لتركت الدم يجري إلى بيته، وقال الشيخ القدوة أبو الحسن علي القرشي رضي الله عنه شهدت مجلس سيدنا الشيخ محيي الدين عبد القادر رضي الله عنه مرة في سنة تسع وخمسين وخمسمائة فأتاه جمع من الرافضة بقفتين مخيطتين مختومتين، وقالوا له: قل لنا ما في هاتين القفتين، قال: فنزل من الكرسي ووضع يده على أحدهما، وقال: في هذه صبي مقعد وأمر ولده عبد الرزاق بفتحها فإذا فيها كما قال فمسكه بيده وقال له: قم بإذن الله، قال فقام يعدو قال: ووضع يده على الأخرى وفي هذه صبي لا عاهة فيه وأمر بفتحها أيضًا ولده فإذا فيها ولد صغير فقام يمشي قال فأمسك الشيخ رضي الله عنه بناصيته وقال له: اقعد فأقعد بأمر الله تعالى قال: فتابوا عن الرفض على يده ومات في المجلس ثلاثة نفر. قال

ولقد حضرت عنده يومًا فاستقضاني حاجة فأسرعت في قضائها فقال لي: تمن علي ما تريد، قلت: أريد كذا وكذا وذكرت له أمرًا من أمور الباطن، فقال لي: خذه إليك فوجدته في ساعتي رضي الله عنه، وقال الصالح أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد القرشي البغدادي ركاب دار الشيخ محيي الدين عبد القادر رضي الله عنه ركب الشيخ عبد القادر رضي الله عنه يومًا وأتى إلى جامع المنصوري ثم رجع إلى مدرسته وكشف الطرحة عن وجهه وألقى بيده من على جبينه عقربًا فسعت على الأرض وقال لها: موتي بإذن الله تعالى، فماتت مكانها ثم قال: يا أحمد إن هذه ضربتني من الجامع إلى هنا ستين مرة. قال وشكوت إليه الفاقة والعيال في غلاء نزل ببغداد فأخرج إلي ويبة من بر وقال لي: ضع هذه في كوارة وسد رأسها وافتح في جنبها فتحًا واخرجوا منه وأطحنوا ولا تعيروه، قال: فأكلنا منه خمس سنين ثم فتحتها زوجتي فوجدته على حاله أول مرة وقعد لي سبعة أيام فقلت ذلك للشيخ فقال: لو تركته على حاله لأكلتم منه حتى تموتوا رضي الله عنه.

وقال عمر بن حسين بن خليل الطيب حضرت مجلس سيدنا الشيخ عبد القادر وكنت قاعدًا محاذيًا وجهه فرأيت شيئًا على هيئة القنديل البلور نزل من السماء إلى أن قارب فم الشيخ ثم عاد وصعد سريعًا هكذا ثلاث مرات فما تمالكت أن قلت لأقول للناس من فرط تعجبي فبادرني وقال: أقعد فإن المجالس بالأمانات فلم أتكلم به إلا بعد موته. وقال يحيىٰ بن جناح الأديب قلت في نفسي أريد أن أحصي كم يقص الشيخ شعرًا من الثوب في مجلس وعظه فحضرت المجلس ومعي خيط فكلما شعرا عقدت عقدة تحت ثيابي من الخيط وأنا في آخر الناس وإذا به يقول: أنا أحل وأنت تعقد.

وقال الشيخ أبو الحسن المعروف بابن السطنطة البغدادي كنت أشتغل بالعلم على سيدنا الشيخ عبد القادر رضي الله عنه وكنت أسهر أكثر الليل أترقب حاجة له فخرج من داره ليلة من صفر سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة فناولته إبريقًا فلم يأخذه وقصد باب المدرسة فانفتح له الباب فخرج وخرجت خلفه وأنا أقول في نفسي إنه لا يشعر بي وانغلق باب المدرسة ومشى إلى قرب من باب بغداد فانفتح له الباب وخرج وخرجت خلفه وعاد الباب مغلقًا ومشى غير بعيد فإذا نحن في بلد لا أعرفه فدخل مكانًا شبيهًا بالرباط وإذا فيه ستة نفر فبادروا بالسلام عليه، قال فالتجأت إلى سارية هناك وسمعت في جانب ذلك المكان أنينًا فلم نلبث إلا يسيرًا حتى سكت الأنين ودخل رجل وقصد إلى تلك الجهة التي فيها الأنين ثم خرج يحمل شخصًا على عاتقه

ودخل رجل مكشوف الرأس طويل شعر الشارب وجلس بين يدي الشيخ فأخذ الشيخ على الشهادتين وقص شعر شاربه ورأسه وألبسه طاقية وسماه محمدًا وقال لأولئك النفر: قد أمرت أن يكون هذا بدلًا عن الميت، فقالوا: سمعًا وطاعة ثم خرج وتركهم وخرجت خلفه ماشيًا فمشينا غير بعيد وإذا نحن عند باب بغداد فانفتح الباب كأول مرة ثم أتى المدرسة فانفتح بابها ودخل داره فلما كان من الغد جلست بين يدي الشيخ لأقرأ فأقسمت عليه أن يبين لي ما رأيت فقال: أما البلد فنهاوند من أقطا البلاد، وأما الستة الذين رأيت فهم الأبدال النجباء وصاحب الأنين هو سابعهم كان مريضًا فلما حضرت وفاته جئت لأحضره، وأما الرجل الذي أخذت عليه الشهادتين فهو من أهل القسطنطينية نصرانيًا أمرت أن يكون بدلًا عن الميت فأتى به وأسلم على يدي وهو الآن منهم، وأما الرجل الذي دخل وخرج يحمل شخصًا على عاتقه فأبو العباس الخضر ذهب به ليتولى أمره، قال وأخذ على الشيخ رضي الله عنه أن لا أتحدث بذلك لأحد حال حياته، وقال احذر من إفشاء السر في حياتي رضي الله عنه. وقال أبو سعيد عبد الله بن أحمد بن علي البغدادي الأزجي صعدت ابنة لي اسمها فاطمة إلى سطح دار في سنة سبع وثلاثين وخمسمائة فاختطفت وكانت بكرًا وسنها ستة عشر سنة فأتيت الشيخ محيي الدين عبد القادر وذكرت له ذلك فقال: اذهب الليلة إلى خراب الكرخ فأجلس عند التل الخامس وخط عليك دائرة في الأرض وقل وأنت تخطها بسم الله الرحمٰن الرحيم على نية عبد القادر فإذا كانت فحمة الليل مرت بك طوائف الجن على صور شتى فلا يزعجك شيء منهم فإذا كان وقت السحر مر بك ملكهم في جحفل منهم فليسألك عن حاجتك فقل له بعثني عبد القادر إليك واذكر له شأن ابنتك. قال فذهبت وفعلت كما أمرني فمر بي منهم صور مزعجة المنظر ولا يقدر أحد منهم يدنو مني ولا من الدائرة وما زالوا يعبرون زمرًا زمرًا إلى أن جاء ملكهم راكبًا على فرس وبين يديه أمم منهم فجاء ووقف بإزاء الدائرة وقال: يا إنسي ما حاجتك، فقلت له: بعثني إليك الشيخ عبد القادر فلما سمع بذكر الشيخ رضي الله عنه نزل عن الفرس وقبل الأرض وجلس خارج الدائرة وجلس من معه وقال ما شأنك فذكرت له قصتي. فقال لمن معه من فعل هذا فلم يعلموا من فعله فأتى مارد وهي معه فقيل له: هذا من مردة الصين، فقال: ما حملك أن تخطف من تحت ركاب القطب، فقال: إنها وقعت في نفسي وأحببتها فأمر الملك بضرب عنقه في الحال وأعطاني ابنتي فقلت له: ما رأيت منك كالليلة في امتثالك أمر الشيخ عبد القادر رضي الله

عنه فقال: نعم إنه ينظر من داره إلى المردة منا وهم بأقصى الأرض فيفرون من هيبته إلى مساكنهم وإن الله تعالى إذا أقام قطبًا مكنه من الجن والإنس رضي الله عنه وجاء رجل إلى سيدنا الشيخ عبد القادر رضي الله عنه، وقال له: أنا رجل من أصبهان ولي زوجة تصرع كثيرًا وقد أعياني أمرها وأعيى المعزمين. فقال له الشيخ رضي الله عنه: هذا مارد من مردة وادي سرنديب اسمه خانس فإذا صرعت زوجتك فقل في أذنها يا خانس يقول لك الشيخ عبد القادر المقيم ببغداد لا تعد وإن عدت بعدها هلكت فذهب الرجل وغاب عشر سنين ثم جاء فسئل فقال: فعلت ما قال الشيخ رضي الله عنه فلم يعد الصرع إلى الآن. وقال رؤساء صناعة التعزيم إن بغداد مكثت في حياة الشيخ عبد القادر أربعين سنة لا يصرع فيها أحد فلما مات الشيخ وقع الصرع ببغداد رضي الله عنه، وقال الشيخ عبد الله محمد بن أبي الغنائم الحسيني دخل الشيخ أبو الحسن علي بن الهيتي يومًا إلى دار سيدي الشيخ عبد القادر رضي الله عنهما وأنا معه فوجدنا في الدهليز شابًا ملقى على قفاه فقال للشيخ علي بن الهيتي رضي الله عنه: يا سيدي اشفع لي عند الشيخ عبد القادر رضي الله عنه، قال فلما دخلنا على الشيخ رضي الله عنه قال: قد وهبته لك، فخرج إليه الشيخ علي وأنا معه وعرفه ذلك فقام وخرج من الكوة وطار في الهواء وأنا أنظر إليه ثم دخلنا إلى عند الشيخ رضي الله عنه فقلنا له: ما هذا؟ فقال: إنه عبر مارًا في الهواء وقال في نفسه ما في بغداد رجل مثلي فسلبته حاله ولولا الشيخ علي ما رددته عليه رضي الله عنهم. قال: واجتمع يومًا في شهر الله المحرم سنة تسع وخمسين وخمسمائة في رباط الشيخ من الرواق بالحلبة من الزوار له نحو من ثلاثمائة رجل فخرج رضي الله عنه من داخل الدار عجلًا وصاح بالناس أسرعوا إلي أسرعوا إلي فأسرعوا إليه حتى لم يبق في الرواق أحد فسقط السقف وسلم الناس فقال: إني كنت في الدار فقيل لي: إنه سيقع السقف الآن فأشفقت عليكم رضي الله عنه.

قال عبد الله الجباني: سمعت عبد العزيز سمعت عبد العزيز بن تميم الشيباني يقول سمعت عبد الغني بن عبد الواحد يقول سمعت أبي محمد الخشاب النحوي يقول: كنت وأنا شاب أقرأ النحو أسمع الناس يصفون الشيخ عبد القادر ويذكرون حسن كلامه في مجالس وعظه فكنت أريد أن أسمعه ولا يتسع وقتي لذلك فاتفق أن يومًا حضرت مجلسه مع الناس قال فالتفت إلى الجهة التي كنت فيها وقال: يا هذا أصحبنا نصيرك سيبويه قال فوالله لقد لازمته فانتفعت به نفعًا كثيرًا وتأصل عندي من قواعد النحو وأحكامه وغيره من العلوم العقلية والنقلية ما لا كنت أعرفه ولا سمعته

من غيره وحصل لي منه في أقل من سنة أكثر مما مضى من عمري جميعه ونسيت جميع ما كنت حصلته من غيره رضي الله عنه.

وقال: حدَّثني أبو الحسن علي بن ملاعب للقواس وكان صدوقًا قال حضرت مع جماعة كثيرة نزور الشيخ عبد القادر وكانوا قد قصدوه في مهم يسألونه الدعاء وتبعهم خلق كثير من العوام وفيهم صبي أمرد أعرفه سيىء الطريقة لا يزال جنبًا ولا يتطهر من بول ولا غيره واتفق أن لقينا الشيخ عبد القادر وذكر له الجماعة ما أرادوه وسألوه الدعاء لهم ثم تقدمنا إليه وقبلنا يديه وانهرع الجماعة إلى تقبيل يده بأجمعهم فلما وصل ذلك الصبي الأمر إليه وأراد أخذ يده ليقبلها جعلها الشيخ في كمه ونظر إلى الصبي نظرة فخر الصبي مغمى عليه ثم أفاق وقد نبتت لحيته في تلك الساعة فقال إلى الشيخ وتاب من وقته فصافحه الشيخ ولم يزل الشيخ على ذلك إلى أن دخل داره وخرجنا رضي الله عنه وقال أبو الخير كروم ابن الشيخ القدوة مطر البازراني لما حضرت أبي الوفاة قلت له: أوصني بمن أقتدي بعدك، فقال الشيخ عبد القادر فظننت أنه غلبه مرضه فتركته ساعة ثم قلت له: أوصني بمن أقتدي بعدك، فقال الشيخ عبد القادر فتركته ساعة ثم أعدت عليه القول فقال: ليكون زمان فيه الشيخ عبد القادر لا يقتدي إلا به فلما مات أتيت بغداد وحضرت مجلس الشيخ عبد القادر وفيه بقا بن بطو والشيخ أبو سعيد القيلوي والشيخ علي بن الهيتي وغيرهم من أعيان المشايخ فسمعته يقول: لست كوعظكم وإنما أنا بأمر الله إنما كلامي على رجال في الهواء وجعل يرفع رأسه إلى الهواء فرفعت رأسي إلى الفضاء فإذا بإدائه صفوف رجال من نور على خيل من نور قد حالوا بين نظري وبين السماء من كثرتهم وهم مُطرقون ومنهم مَن يبكي ومنهم مَن يرعد ومنهم مَن في ثيابه نار فأُغشي علي ثم قمت أعدو وأشقّ الناس حتى طلعت إليه فوق الكرسي فأمسك بإذني وقال: يا كروم أما اكتفيت بأول مرة من وصية أبيك فأطرقت من هيبته رضي الله عنه.

وقال مفرج بن نبهان بن بركات الشيباني: لما اشتهر أمر سيدنا الشيخ عبد القادر رضي الله عنه اجتمع مائة فقيه من أعيان فقهاء بغداد وأذكيائهم على أن يسأل كل واحد منهم مسألة واحدة في فن من العلوم غير مسألة صاحبه ليقطعوه بها وأتوا مجلس وعظه وكنت يومئذٍ فيه فلما استقر بهم الجلوس أطرق الشيخ فظهرت من صدره بارقة من نور لا يراها إلا من شاء الله تعالى ومرت على صدور المائة ولا تمر على أحد منهم إلا ويبهت ويضطرب ثم صاحوا صيحة واحدة ومزقوا ثيابهم وكشفوا

رؤوسهم وصعدوا إليه فوق الكرسي ووضعوا رؤوسهم على رجليه وضج أهل المجلس ضجة واحدة ظننت أن بغداد رجت لها فجعل الشيخ يضم إلى صدره واحدًا منهم بعد واحد حتى أتى إلى آخرهم ثم قال لأحدهم أما أنت فمسألتك كذا وجوابها كذا حتى ذكر لكل واحد منهم مسألته وجوابها فلما انقضى المجلس أتيتهم وقلت لهم: ما شأنكم، قالوا: إنا لما جلسنا فقدنا جميع ما نعرفه من العلم حتى كأنه لم يمر بنا قط فلما ضمنا إلى صدره رجع إلى كل منا ما نزع من العلم ولقد ذكر لنا مسائلنا التي بيتناها له وذكر عنها أجوبة لا نعرفها رضي الله عنه.

وقال أبو الحجر حامد الحراني الخطيب: دخلت على الشيخ عبد القادر رحمة الله عليه بمدرسته ببغداد وجلست عنده على سجادة لي فنظر إلي وقال: يا حامد لتجلسن على بساط الملوك فلما رجعت إلى حران جبرني السلطان نور الدين الشهيد على ملازمته وقرّبني وأجلسني على بساطه وولّاني الأوقاف فكنت أتذكر كلام الشيخ رضي الله عنه. وقال الشيخ زين الدين أبو الحسن علي بن أبي طاهر بن إبراهيم بن نجا بن غنائم الأنصاري الدمشقي نزيل مصر الفقيه الحنبلي الواعظ: حججت مرة وأتيت بغداد أنا ورفيق لي وما كنا دخلناها قبل ولا نعرف فيها أحدًا ولم يكن معنا الأمدية فبعناها بطسوج واشترينا به أرزًا وأكلناه فلم يطب لنا ولم نشبع وأتينا مجلس الشيخ عبد القادر رضي الله عنه فلما دخلنا قطع كلامه وقال: مساكين الغرباء جاؤوا من الحجاز ولم يكن معهم إلا مدية باعوها بطسوج واشتروا به أرزًا وأكلوا فلم يطب لهم ولم يشبعوا فعجبنا منه عجبًا شديدًا فلما انقضى كلامه أمر بمدّ السماط، فقلت لرفيقي سرًا: ما تشتهي؟ فقال: كشكًا بدراج، فقلت في نفسي: وأنا أشتهي شهدًا، فقال الشيخ للخادم على الفور: أحضر لنا كشكًا بدراج وشهدًا فأحضرهما، فقال: ضعهما بين يدي ذياك الرجلين. وأشار إلينا فوضع الكشك قدامي والشهد قدام رفيقي، فقال الشيخ: أقلب تصب فلم أتمالك أن صرخت وقمت أتخطى رقاب الناس إليه، فقال: أهلًا بواعظ الديار المصرية، قال: فقلت له: يا سيدي فكيف وأنا لا أحسن الفاتحة؟ فقال لي: بهذا أُمرت أن أقول لك هذا القول، قال: فاشتغلت عليه بالعلم ففتح الله عزّ وجلّ عليّ في سنة بما لم يفتح على غيري في عشرين سنة وتكلمت ببغداد ثم استأذنت منه السفر إلى مصر فقال لي: إنك تصل إلى دمشق تجد بها الغز متأهبين للدخول إلى مصر ليملكوها فقل لهم: إنكم لم تنالوا ما تريدون من مصر في هذه المرة ألا ترجعون وتعودون إليها مرة أخرى فتملكونها، قال: فلما قدمت دمشق وجدت الأمر كما قال لي رضي الله عنه. وقلت لهم ما قال لي فلم

يقبلوا مني ودخلت مصر فوجدت الخليفة بها متأهبًا للقائهم فقلت له: لا بأس عليك إنهم سينقلبون خائبين وترجعون ظاهرين فلما وصل الغز إلى مصر كسروا واتخذني الخليفة جليسًا وأطلعني على أسراره ثم جاء الغز في الثانية وملكوا مصر وأكرموني إكرامًا عظيمًا بالكلام الذي قلته لهم بدمشق وحصل لي من الدولتين مائة ألف وخمسون ألف دينار بكلمة واحدة من الشيخ محيي الدين عبد القادر رضي الله عنه ورضي عنا به. ويقال إن هذا الشيخ زين الدين قدم إلى مصر قديمًا وإنه ما كان يحفظ غير كتاب واحد في التفسير وحصل له بالقبول التام من الخاص والعام وكان أحد العلماء المحدثين وعقد بها مجلسًا وانتفع الناس به وتوفي بها في شهر رمضان سنة تسع وتسعين وخمسمائة وكان مولده بدمشق سنة ثمان وخمسمائة.

وقال أحمد بن صالح الجيلي: كنت مع سيدنا الشيخ عبد القادر بالمدرسة النظامية واجتمع إليها الفقراء والفقهاء فتكلم عليهم في القضاء والقدر فبينا هو يتكلم إذ سقطت حية عظيمة في حجره من السقف ففر منها كل من كان قاعدًا عنده ولم يبق إلا هو فدخلت الحية تحت ثيابه ومرت على جسده وخرجت من طوقه والتفت على عنقه ومع ذلك ما قطع كلامه ولا غير جلسته ثم نزلت إلى الأرض وقامت على ذنبها بين يديه فصوتت ثم كلمها بكلام ما فهمناه ثم ذهبت فجاء ناس إليه وسألوه عما قالت له، وقال لها فقال قالت لي: لقد اختبرت كثيرًا من الأولياء فلم أر مثل شأنك فقلت لها: إنك سقطت علي وأنا أتكلم في القضاء والقدر وهل أنت إلا دويبة يحركك ويسكنك القضاء والقدر فأردت أن لا يناقض فعلي قولي رضي الله عنه.

وقال سيدي عبد الرزاق ابن سيدنا الشيخ عبد القادر رضي الله عنه: سمعت والدي يقول: كنت ليلة في جامع المنصوري أصلي فسمعت حسّ مشي شيء على البواري فجاءت صلة عظيمة ففتحت فاها موضع سجودي فلما أردت السجود دفعتها بيدي وسجدت فلما جلست للتشهد مشت على فخذي وطلعت على عنقي والتفت عليه فلما سلّمت لم أرها فلما كان الغد دخلت خربة بظاهر الجامع فرأيت شخصًا عيناه مشقوقتان طولًا فعلمت أنه جني فقال لي: أنا الصلة التي رأيتها البارحة ولقد اختبرت كثيرًا من الأولياء بما اختبرتك به فلم يثبت أحد منهم لي كثباتك وكان منهم مَن اضطرب ظاهرًا وباطنًا ومنهم مَن اضطرب باطنه وثبت ظاهره ورأيتك لم تضطرب ظاهرًا ولا باطنًا وسألني أن يتوب على يدي فتوّبته. وقال الخضر الحسيني الموصلي: خدمت الشيخ عبد القادر رضي الله عنه ثلاث عشر سنة وشهدت له الخارقات منها أنه

كان إذا أعيا الأطباء مريضًا أتي به إليه فيدعو له ويمر يده عليه فيقوم من بين يديه وقد شفي ولا يزال يسري عنه حتى يصح في أسرع وقت رضي الله عنه.

قال: وأتى مرة بمستسقي من أقارب الإمام المستنجد وقد علا بطنه فأمر يده عليه فقام ضامر البطن كأن لم يكن به شيء. قال وأتاه أبو المعالي أحمد البغدادي الحنبلي وقال له: إن ابني محمدًا من خمسة عشر شهر لا تفارقه الحمى فقال رضي الله عنه: اذهب وقل في أذنه يا أم ملدم يقول لك عبد القادر ارتحلي عن ولدي إلى الحلة. ثم سألناه عن ولده قال: ذهبت عنه لما قلت ما أمرني الشيخ فلم تعد إلى ولدي وسألناه بعد سنين فقال ما رجعت إلى بغداد أبدًا وجاء الخبر أن أهل الحلة يحمون كثيرًا. قال ومرض الشيخ أبو الحسن علي الأرجى فعاده فرأى في بيته راعبيًا وقمريًا فقال: يا سيدي هذا الراعبي ما يبيض منذ ستة أشهر، وهذا القمري ما يصيح منذ ستة أشهر. قال فوقف الشيخ رضي الله عنه على الراعبي وقال له: متع مالكك ووقف على القمري وقال له: سبح خالقك، قال: فصاح القمري من وقته حتى كان أهل بغداد يجتمعون إليه ويسمعون كلامه وباض الراعبي وفرخ إلى أن مات ببركة الشيخ عبد القادر رضي الله عنه. قال: وقال في سنة ستين وخمسمائة: يا خضر اذهب إلى الموصل ففي ظهرك ذرية يظهرون أولها ولد ذكر اسمه محمد يعلمه القرآن رجل بغدادي أعمى اسمه علي في سبعة أشهر يستكمل حفظه وهو ابن سبع سنين وتعيش أنت أربعًا وتسعين سنة وشهرًا وسبعة أيام وتموت بأربل صحيح السمع والبصر والقوة. قال ولده أبو عبد الله محمد سكن والدي الموصل وولدت بها مستهل صفر الخير سنة إحدى وستين وأحضر لي والدي رجلًا أعمى يلقني القرآن حفظًا جيدًا فسأله والدي عن اسمه وبلده فقال: اسمي علي وبلدي بغداد، قال ذكر كلام الشيخ رضي الله عنه ومات والدي بار بل في تاسع صفر سنة خمس وعشرين وستمائة وقد استكمل أربعًا وتسعين سنة وشهرًا وسبعة أيام وحفظ الله عليه حواسه إلى حين مات رضي الله عنهم أجمعين.

وقال عمر بن مسعود البزاز: ما رأت عيناي أفقه في علوم الحقائق من سيدي الشيخ عبد القادر قيل له إن بعض مريديه يقول إنه يرى الله عزَّ وجلَّ بعين رأسه فاستدعاه وسأله عن ذلك فقال: نعم، فانتهره ونهاه عن هذا القول وأخذ عليه أن لا يعود فقيل له: أمحق هذا أم مبطل، قال: هو محق ملبس عليه وذلك أنه شهد ببصيرته وبصيرته يتصل شعاعها بنور شهوده فظن أن بصره رأى ما شهدته بصيرته وإنما رأى بصره بصيرته فحسب وهو لا يدري قال الله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا

بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ [الرحمٰن: الآيتان ١٩، ٢٠] وإن الله عزَّ وجلَّ يبعث بمشيئته على أيدي ألطافه أنوار جلاله وجماله إلى قلوب عباده فتأخذ منها ما تأخذ الصور من الصور ولا صور ومن وراء ذلك رداء كبريائه الذي لا سبيل إلى انخراقه وكان جمع من المشايخ والعلماء حاضرين فاطر بهم سماع هذا الكلام ودهشوا في حسن إفصاحه عن حال الرجل رضي الله عنه. وقال الشيخ المعمر جرادة لقد كنت يومًا في دار سيدنا الشيخ عبد القادر رضي الله عنه وهو جالس ينسخ فسقط عليه تراب من السقف فنفضه ثلاث مرات فسقط عليه وهو ينفضه ثم رفع رأسه في الرابعة إلى السقف فرأى فأرة تبعثر فقال: طار رأسك فسقطت جثتها ناحية ورأسها ناحية فترك النسخ وبكى فقلت: يا سيدي ما يبكيك، قال: أخشى أن يتأذى قلبي من رجل مسلم فيصيبه ما أصاب هذه الفأرة.

وقال الشيخ عمر بن مسعود البزار: كان سيدي الشيخ عبد القادر رضي الله عنه يومًا يتوضأ في المدرسة فبال عليه عصفور فرفع رأسه وهو طائر فسقط ميتًا فلما أتم وضوءه غسل موضع البول من الثوب وخلعه وأعطانيه وأمرني أن أبيعه وأتصدق بثمنه وقال هذا بهذا.

وقال أبو الفضل أحمد بن القاسم بن عبدان القرشي البغدادي البزار: كان الشيخ محيي الدين عبد القادر رضي الله عنه يلبس الرفيع من القماش ولقد أتاني يومًا خادمه بذهب وقال أريد خرقة ذراعها بدينار لا يزيد حبة ولا ينقص حبة قال: فأعطيته وقلت لمن هي فقال: لسيدي الشيخ عبد القادر رضي الله عنه، قال فقلت في نفسي ما ترك الشيخ للخليفة لباسًا قال فلم يتم كلامي في خاطري حتى وجدت في رجلي مسمارًا وشاهدت من ألمه الموت واجتمع الناس عليّ لتنزعه فلم يستطيعوا قال فقلت: احملوني إلى الشيخ عبد القادر قال فلما طرحوني عنده بين يديه قال رضي الله عنه: يا أبا الفضل ولم تتعرض بباطنك وعزة المعبود ما لبثت حتى قيل لي بحقي عليك ألبس قميصًا ذراعه بدينار يا أبا الفضل هذا كفن الموت وكفن الموت يجمل هذا بعد ألف موتة ثم مريده المباركة على رجلي فذهب المسمار والألم لوقته ووالله لا أدري من أين جاء ولا أين ذهب ولا رأيته إلا في رجلي فقمت أعدو فقال الشيخ رضي الله عنه لمن حضر اعتراضه علينا شكل له في صورة مسمار رضي الله عنه.

وقال ابن الخضر الحسيني أجنب خادم شيخنا الشيخ محيي الدين عبد القادر رضي الله عنه سبعين مرة ليلة يرى في كل مرة إنه يواقع امرأة غير التي قبلها منهن من

يعرفها ومنهن من لا يعرفها ولما أصبح أتى إلى الشيخ يشكو إليه حاله. فقال له الشيخ رضي الله عنه قبل أن يذكرله شيئًا لا تكره جنابتك البارحة فإني نظرت اسمك في اللوح المحفوظ فوجدت فيه أنك تزني سبعين مرة بفلانة وفلانة سمّى مَن يعرفها ومَن لا يعرفها فسألت الله تعالى فيك حتى حول ذلك عنك من اليقظة إلى المنام رضي الله عنه.

وقال الشيخ علي الخباز رضي الله عنه: سمعت الشيخ أبا القاسم عمر يقول سمعت سيدي الشيخ عبد القادر رضي الله عنه يقول: من استغاث بي في كربة كشفت عنه ومن نادى باسمي في شدة فرجت عنه ومن توسل إلى الله بي في حاجة قضيت حاجته ومن صلى ركعتين يقرأ في لك ركعة بعد الفاتحة سورة الإخلاص إحدى عشرة مرة ويصلي على رسول الله ﷺ بعد السلام من التشهد إحدى عشرة مرة يسلم علي ويذكرني باسمي ويذكر حاجته فإنها تقضى إن شاء الله تعالى وفي رواية ويخطو إلى جهة الشرق نحو قبري أحد عشر خطوة أو قال سبع خطوات ويذكرني ويذكر حاجته فإنها تقضى وفي رواية وينشد من كلامه:

أيدركني ضيم وأنت ذخيرتي   وأظلم في الدنيا وأنت نصيري
وعار على الحمى وهو منجدي   إذا ضل في البيدا عقال بعيري

وقد جرب ذلك مرارًا فصح رضي الله عنه، وقال الجبائي كان شيخنا محيي الدين عبد القادر رضي الله عنه إذا جاء أحد بذهب يقول: ضعه تحت السجادة ولا يلمسه بيده فإذا جاء الخادم يقول: اذهب به وأعطه الخباز والبقال وإذا جاءه خلعة من الخليفة يقول: عطوها لأبي الفتح الطحان وكان يأخذ منه الدقيق بالقرض لأجل خبز الفقراء والأضياف ولم يعد عنه أنه لبس خلعة النظر من الخلع التي كانت تأتيه من الخلفاء في رأس كل شهر بل يأمر بها للطحان المذكور رضي الله عنه.

وقال الخضر الحسيني: كنت مع سيدي الشيخ عبد القادر رضي الله عنه في الجامع يوم الجمعة فأتاه تاجر وقال له: إن معي مالًا أريد أن أعطيه للفقراء والمساكين من غير الزكاة وما وجدت له مستحقًا فمرني من أعطيه أو قال أعطيه لمن تريد، فقال له الشيخ رضي الله عنه أعطه لمن يستحقه ولمن لا يستحق رضي الله عنه، قال ورأى فقيرًا مكسور القلب فقال له: ما شأنك قال: مررت اليوم بالشط وسألت ملاحًا يحملني إلى الجانب الآخر فأبى وانكسر قلبي لفقري قال فلم يتم الفقير كلامه حتى دخل رجل معه صرة فيها ثلاثون دينار إنذارًا للشيخ رضي الله عنه، فقال الشيخ لذلك

الفقير خذ هذه الصرة واذهب بها إلى الملاح وأعطه إياها وقل له لا ترد فقيرًا بعدها أبدًا وخلع الشيخ رضي الله عنه قميصه وأعطاه للفقير فاشترى منه بعشرين دينارًا رضي الله عنه. وكان الشيخ عمر البزار إذا ذكر الشيخ عبد القادر رضي الله عنه ينشد هذين البيتين:

الحمد لله إني في جوار فتى حامي الحقيقة نفاع وضرار
لا يرفع الطرف إلا عند مكرمة من الحياء ولا يغضي إلا على عار

وقال أبو اليسر عبد الرحيم: كان عبد الصمد بن همام من العدول ذوي اليسر والثروة وكان شديد الانحراف على سيدنا الشيخ محيي الدين رحمه الله تعالى والإنكار لما يحكي عنه من الكرامات مع الانقطاع عنه بالكلية ثم لازمه ملازمة شديدة فعجب الناس من ذلك فسألته بعد وفاة الشيخ عن سبب ذلك فقال: كنت لقلة سعادتي أولًا على ما تعلم مني فاتفق أنني اجتزت يومًا بمدرسة الشيخ والصلاة قد أقيمت فقلت في نفسي أصلي بسرعة وأزيل ما بي وكنت حاقنًا حاقبًا فدخلت ووجدت إلى جانب المنبر الذي يجلس عليه الشيخ خلوًا فصليت فيه وأنا لا أشعر أنه يوم الناس الجمعة وتكاثر الناس لحضور المجلس تكاثرًا منعني من التصرف في نفسي والخروج مما كان بي وتزايد ما بي من الاحتياج إلى الخلاء وصعد الشيخ إلى المنبر وقد كدت أتلف فتضاعف ما بي في بغض الشيخ ذلك الوقت وتحيرت في أمري وكدت أحدث في ثيابي ثم قلت: افتضح بين الناس ويشم مني رائحة خبيثة فعاينت الموت في دفع ذلك فبينا أنا مفكر في أمر أفعله إذ نزل الشيخ من المنبر درجات وأسبل كمه على رأسي فرأيت نفسي في روضة خضراء بفلاة من الأرض وماء جار فأزلت ما بي وتوضأت للصلاة وصليت ركعتين ثم رفع الشيخ كمه عن رأسي فإذا أنا تحت المنبر على حالي وقد زال ما بي جميعه فكثر تعجبي من ذلك جدًّا ووجدت أطرافي رطبة من أثر الوضوء فتحيرت في أمري وذهل عقلي فلما انفض المجلس قمت ففقدت منديلي ومفتاح صندوقي وطلبت ذلك في موضعي الذي كنت فيه قاعدًا وفيما يليه فلم أجده فمضيت إلى منزلي وأحضرت صانعًا فتح الصندوق وعمل مفاتيح وكنت ذلك الوقت على عزم السفر إلى عراق العجم لمهم عراني فتوجهت غداة اليوم الذي فيه المجلس فلما سرت عن بغداد ثلاثة أيام جزت بمكان أفيح وفيه روضة خضراء وماء جار فقال لي بعض الرفقة: ألا ننزل هٰهنا نصلي ونأكل شيئًا، فإننا لا نجد أمامنا ماء فنزلت فتخيلته المكان الذي أريته آنفًا لا

أشك فيه فتوضأت للصلاة وقصدت مكان أصلي فيه فإذا منديلي بعينه وفيه مفاتيحي التي فقدت يوم المجلس هناك فكدت أخرج من عقلي فقضيت سفري وعدت وأهم الأمور عندي ملازمته وهذا ما لا أذكره مخافة أن يشك السامع في حديثي، فقلت له: حدث بما رأيت منه فمثلك لا يتطرق إليه التهم فيما يحكي، فقال: ليس لي حاجة فقد كان يحكي عنه من لا أشك في صدقه وعدالته ما يشبه هذا فلا أصدقه فقلت أراد الله بك خيرًا فقال: الحمد لله إذ لم أمت على ما كنت عليه من قبل.

قال الشيخ محمد بن قائد الأواني رضي الله عنه: جاءت امرأة إلى الشيخ عبد القادر رضي الله عنه بولدها وقالت: إني رأيت قلب ولدي هذا شديد التعلق بك وقد خرجت عن حقي فيه لله تعالى ثم لك فقبله الشيخ رضي الله عنه وأمره بالمجاهدة وسلوك طريق السلف، قال: فدخلت عليه أمه يومًا فوجدته نحيلًا مصفرًا من أثر الجوع والسهر ورأته يأكل من قرص شعير قال ودخلت على الشيخ فرأت بين يديه إناء فيه عظام دجاجة قد أكلها فقالت له: يا شيخ أنت تأكل الدجاج وولدي يأكل خبز الشعير، قال فوضع الشيخ يده على تلك العظام وقال لها: قومي بإذن الله تعالى الذي يحيي العظام وهي رميم فقامت الدجاجة سوية وصاحت لا إله إلا الله محمد رسول الله الشيخ عبد القادر ولي الله، فقال لها الشيخ إذا صار ولدك هكذا فليأكل مهما شاء رضي الله عنه ورضي عنا به. أقول وقد انعقد الإجماع من جماهير الأشياخ من الفقهاء والفقراء وتضمنت الكتب المدونة أن أصحاب التصريف التام من السادة القادة الأولياء في حياتهم وفي قبورهم بعد وفاتهم كتصرف الأحياء إلى يوم القيامة بتخصيص من الله تعالى لهم وهم سيدنا ومولانا وقدوتنا إلى الله تعالى الإمام المكمل الشيخ عبد القادر الجيلي والشيخ الكبير الدرياق المجرب معروف بن محفوظ بن فيروز بن المرزبان الكرخي والشيخ الواصل الراحلة عقيل المنبجي والشيخ الكامل حياة بن قيس الحراني رضي الله عنهم وأن السادة البررة أربعة أيضًا الذين يبرئون الأكمه والأبرص ويحيون الموتى بإذن الله تعالى وهم القطب الغوث والشيخ محيي الدين عبد القادر الجيلاني المشار إليه والشيخ الكبير سيدي أحمد الرفاعي والشيخ السالك الناسك علي بن الهيتي والشيخ القدوة الصالح بقا بن بطو رضي الله عنهم. وإن سادات السلوك والتواني أربعة وهم الشيخ الكامل الموصلي مسلمة بن نعمة السروجي والشيخ العارف المربي حماد بن مسلم الدباس والشيخ الحجة ملحق الأصاغر بالأكابر تاج العارفين أبو الوفا محمد كاكيس والشيخ

العابد الزاهد المجاهد عدي بن مسافر نفع الله بهم وببركاتهم في الدنيا والآخرة وسيأتي ذكر المشايخ المشار إليهم في هذا المختصر في محله كما تقدم الوعد به إن شاء الله تعالى.

وقال الشيخ علي الخباز: سمعت شيخنا الشيخ أبا حفص الكيماني رضي الله عنه يقول: كنت في خلوتي ليلة فانشق على الحائط ودخل علي شخص كريه المنظر قال فقلت له: من أنت فقال: أنا إبليس وقد جئت لأنصحك قال فقلت: وما نصحك فقال: اعلمك جلسة المراقبة وجلس القرفصاء ورأسه منكس إلى الأرض، قال فلما أصبحت أتيت سيدي الشيخ محيي الدين عبد القادر رضي الله عنه لأذكر له ذلك قال: فلما صافحته أمسك بيدي قبل أن أذكر له شيئًا وقال لي: يا عمر صدقك وهو كذوب لا تقبل منه بعدها أبدًا. قال الشيخ أبو الحسن علي المذكور فكانت هذه جلسة الشيخ نحو أربعين سنة رضي الله عنه.

وقال الشيخ بديع الدين خلف بن عياش الشارعي الشافعي: بعثني الشيخ شافعي زمانه أبو عمر وعثمان السعدي إلى بغداد لأحصل له مسند الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه فلما قدمت بغداد وجدت الناس ملهجين بذكر الشيخ محيي الدين عبد القادر رضي الله عنه فقلت في نفسي إن كان هذا الرجل كما يقال عنه فهو يكاشفني بما أصوره في نفسي ثم رتبت صورة لا توافق العادة وقلت في نفسي أريد إذا دخلت علي وسلمت عليه لا يرد علي ويعرض عني بوجهه ويقول لخادمه: ائتني بقطعة من تمر على قدر قرعة هذا الرجل وبقل بدانقين لا يزيد حبة ولا ينقص فإذا أتاه بذلك ألبسني الطاقية قبل أن أسأله ويرد علي السلام قال: وقمت على الفور وأتيت مدرسته فوافيته جالسًا في المحراب فنظر إلي نظرة فهمت منها أنه علم جميع ما في نفسي، قال فسلمت عليه فلم يرد علي السلام وحوّل وجهه عني وقال لخادمه: ائتني بقطعة من تمر على قدر قرعة هذا الرجل وبقل بدانقين لا يزيد عنهما حبة ولا ينقص عنهما حبة، قال: فوالله لقد أتى بالإضمار التي أضمرتها وما أخل منها بشيء قال فلما جاء خادمه أخذ الطاقية وهي طاقيتي وجعل فيها قطعة من تمر فكانت كأنها لها قالب وقدم إلى البقل ثم ألبسني الطاقية ورد علي السلام ثم يا خلف أنت أردت هذا كله قال فأقمت عنده وتحملت عنه العلم وسمعت عليه الحديث والشيخ بديع الدين هذا كان من أهل العلم ومن العلماء الصلحاء المحدثين سكن بمصر وهو الذي لبس أهلها الخرقة القادرية رضي الله عنهما.

وقال الحافظ أبو العباس أحمد بن أحمد البندنيجي: حضرت أنا والشيخ جمال الدين بن الجوزي رحمه الله تعالى مجلس سيدنا الشيخ عبد القادر رحمة الله عليه فقرأ القارىء آية فذكر الشيخ في تفسيرها وجهًا فقلت للشيخ جمال الدين: أتعلم هذا الوجه؟ قال: نعم، ثم ذكر وجهًا آخر، فقلت له: أتعلم هذا الوجه؟ قال: نعم، فذكر الشيخ فيها أحد عشر وجهًا وأنا أقول له أتعلم هذا الوجه وهو يقول: نعم، ثم الشيخ ذكر فيها آخر فقلت له: أتعلم هذا؟ قال: لا حتى ذكر فيها كمال الأربعين وجهًا يعزو كل وجه إلى قائله والشيخ جمال الدين يقول: لا أعرف هذا الوجه واشتد عجبه من سعة علم سيدنا الشيخ رضي الله عنه ثم قال: نترك القال ونرجع إلى الحال لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله فاضطرب الناس اضطرابًا شديدًا وخرق الشيخ جمال الدين بن الجوزي ثيابه. وقال محمد بن الحسيني الموصلي: سمعت أبي يقول كان سيدنا الشيخ عبد القادر يتكلم في ثلاثة عشر علمًا وكان يذكر في مدرسته درسًا من المذهب ودرسًا من الخلاف وكان يقرأ عليه طرفي النهار التفسير وعلوم الحديث والمذهب والخلاف والأصول والنحو وكان يقرىء القرآن العزيز بالقراءات بعد الظهر. وقال عمر البزار: كانت الفتاوى تأتي سيدي الشيخ عبد القادر من بلاد العراق وغيره وما رأيناه يبيت عنده فتوى ليطالع عليها أو يفكر فيها بل يكتب عليها عقب قراءتها وكان يفتي على مذهب الإمامين الشافعي وأحمد بن حنبل رضي الله عنهما وتعرض فتواه على علماء العراق فكان يعجبهم من سرعة جوابه فيها وكان مَن اشتغل عليه في فن من فنون الشريعة افتقر إليه وساد على أقرانه رضي الله عنه. وقال الشيخ عبد الرزاق: جاءت فتوى من بلاد العجم إلى بغداد بعد أن عرضت على علماء العراقين فلم يتضح لأحد منهم فيها جواب شافي. وصورتها ما تقول السادة العلماء في رجل حلف بالطلاق الثلاث لا بد له أن يعبد الله عزَّ وجلَّ عبادة ينفرد بها دون جميع الناس في وقت تلبسه بها فما يفعل من العبادات اكتونا مأجورين أثابكم الله الجنة فأتي بها إلى والدي فكتب على الفور يأتي مكة ويخلى له المطاف ويطوف أسبوعًا وتنحل يمينه فما بات المستفتي ببغداد تلك الليلة وتوجه إلى مكة شرفها الله تعالى ورضي عنه.

وقال محمد بن أبي العباس الخضر الحسيني الموصلي: سمعت أبي يقول رأيت في النوم ببغداد بمدرسة سيدنا الشيخ عبد القادر رضي الله عنه في سنة إحدى وخمسين وخمسمائة مكانًا عظيم السعة وفيه مشايخ البر والبحر وسيدنا الشيخ عبد القادر في صدرهم ومن المشايخ من على رأسه عمامة فحسب ومنهم من فوق عمامته طرحة ومن فوق عمامته طرحتان وفوق عمامة سيدنا الشيخ محيي الدين

عبد القادر ثلاث طرحات فبقيت في النوم مفكرًا في تلك الطرحات الثلاث ما هن واستيقظت وإذا به قائم على رأسي فقال: طرحة تشريف علم الشريعة وطرحة تشريف علم الحقيقة وطرحة الشرف رضي الله عنه.

وقال الشيخ أبو البركات صخر بن صخر بن مسافر رضي الله عنه: أخذ له العهد على كل ولي في زمانه أن لا يتصرف بحاله في ظاهر أو باطن إلا بإذنه وهو من له الكلام في حضرة القدس المطهرة بإذن الله تعالى وهو ممن أعطى التصريف في الأكوان بعد موته كما كان قبل موته رضي الله عنه ورضي عنا به.

وقال الشيخ علي بن الهيتي: زرت مع سيدي الشيخ عبد القادر والشيخ بقا بن بطو قبر الإمام أحمد بن حنبل رحمة الله عليه فشهدته خرج من قبره وضم الشيخ عبد القادر إلى صدره وألبسه خلعة وقال: يا شيخ عبد القادر قد افتقر إليك في علم الشريعة وعلم الحقيقة وعلم الحال رضي الله عنهم. وقال رضي الله عنه: زرت مع الشيخ عبد القادر رضي الله عنه قبر معروف الكرخي رضي الله عنه فقال: السلام عليك يا شيخ معروف عبرناك بدرجتين فقال له: من القبر وعليك السلام يا سيد أهل زمانه رضي الله عنهم أجمعين.

وقال أبو نظر بن عمر البغدادي المثنى المعروف بالصحراوي: سمعت أبي يقول استدعيت الجان مرة بالعزائم وأبطأت إجابتهم أكثر من عادتي ثم أتوني وقالوا: لا تعد تستدعينا إذا كان الشيخ عبد القادر يتكلم على الناس فقلت: ولم، قالوا: إنا نحضره وقلت: وأنتم أيضًا، قالوا: إن ازدحامنا بمجلسه أشد من ازدحام الإنس وإن طوائف منا كثيرة أسلمت وتابت على يديه رضي الله عنه، وقال المشايخ أبو الفرج الدويرة وعبد الكريم الأثري ويحيئ الصرصري وعلي بن محمد الشهرباني رحمة الله عليهم كنا عند الشيخ علي بن إدريس اليعقوبي بها سنة عشرة وستمائة فجاء الشيخ عمر المريدي المعروف بتريدة فقال له الشيخ علي بن إدريس: أقصص عليهم رؤياك، فقال: رأيت في النوم أن القيامة قد قامت والأنبياء وأممهم قادمين الموقف ويتبع بعض الأنبياء الرجلان والرجل الواحد ثم أقبل رسول الله ﷺ وتقدمه أمته كالسيل وكالليل وفيهم المشايخ ومع كل شيخ أصحابه يتفاوتون عددًا ونورًا وبهجة وأقبل رجل في عدد المشايخ معه خلق كثير يفضلون غيرهم فسألت عنه فقيل هذا الشيخ عبد القادر وأصحابه فتقدمت إليه وقلت له: يا سيدي ما رأيت في المشايخ أبهى منك ولا في أتباعهم أحسن من أتباعك فأنشد:

إذا كان مناسيد في عشيرة علاها وإن ضاق الخناق حماها

وما اختيرت إلا وأصبح شيخها ولا افتخرت إلا وكان فتاها
وما ضربت بالأبرقين خيامنا فأصبح مأوى الطارقين سواها

قال: فاستيقظت وأنا أحفظهن، وكان الشيخ محمد الخياط الواعظ حاضرًا فقال له الشيخ علي بن إدريس يا محمد أنشدنا شيئًا في هذا المعنى على لسان الشيخ عبد القادر فقال:

هنيئًا لصحبي أنني قائد الركب أسير بهم قصدًا إلى منزل رحب
وأكنفهم والكل في شغل أمره وأنزلهم في حضرة القدس من ربي
ولي معهد كل اللطائف دونه ولي منهل عذب المشارب والشرب
وأهل الصفا يسعون خلفي وكلهم لهم همة أمضى من الصارم العضب

فقال له الشيخ علي بن إدريس: أحسنت ولقد صدقت وقال الحافظ بن النجار قال الشيخ أبو الفتوح أحمد سألت جدي الوزير أبا المظفر يحيىٰ بن هبيرة أن يأذن لي في المضي إلى مجلس الشيخ عبد القادر فأذن لي وأعطاني مبلغًا من الذهب وأمرني أن أدفعه إليه وأبلغه السلام، قال: فحضرت مجلسه فلما انقضى المجلس ونزل عن المنبر سلمت عليه وتحرجت أن أدفع الذهب إليه في ذلك الجمع وقلت في نفسي إذا دخل الشيخ الزاوية دخلت عليه وسلمت الذهب إليه فبادرني مسابقًا لفكرتي وقال: هات ما معك ولا عليك من الناس وسلم على الوزير عني قال: فانصرفت مدهوشًا وفي رواية أنه قال له: أمسك ما معك من الذهب ولا عليك من الناس ولا حاجة بك إلى قصد الزيارة وسلم على جدك الوزير وقل له لا حاجة لعبد القادر فيما أرسلت وهو في غنية عنه فاردده إلى مستحقيه، قال: فانصرفت مدهوشًا رضي الله عنه.

وقال الشيخ نجم الدين أبو العباس أحمد بن أبي الحسن البطائحي رحمة الله عليه: سمعت أخي الشيخ إبراهيم الأعزب يقول الشيخ محيي الدين عبد القادر رضي الله عنه سيدنا وشيخ المحققين وإمام الصديقين وحجة العارفين وقدوة السالكين إلى رب العالمين رضي الله عنهم أجمعين ورضي الله عنا بهم آمين.

وقال أبو البركات السهروردي سمعت الشيخ عبد القادر الجيلي ينشد على كرسي وعظه بباب الأزج رضي الله عنه هذا البيت:

أليس من الخسران أن لياليا تمر بلا نفع فتحسب من عمري

وقال ابن الخضر كان سيدنا الشيخ محيي الدين عبد القادر رضي الله عنه قد غاب عن أصحابه في بعض رياضاته فلما خرج أتوه وسألوه عن حاله مع الله تعالى فأنشد يقول هذه الأبيات:

ومذ عنك غبنا ذلك العام أننا ... وردنا على بحر وساحله مغنى
وشمس على المغنى مطالع نورها ... مغاربها فينا ومطلعها منا
ومسّت يدانا جواهرًا منه ركبت ... لطائفها حتى صفت فتجوهرنا
وما البحر والمغنى وما الشمس قل لنا ... وما جوهر البحر الذي عنه عبرنا
فقل بلسان الغيب لا بإشارة ... أقام به أو غاب عنا أم أدلجنا
فلما أقمنا مال ربع قلوبنا ... جديدًا على مر الزمان وقد شبنا
وإن نحن أدلجنا فما لركابنا ... يضيق بنا وسعًا وعنه فما ضقنا
تركنا البحار الزاخرات وراءنا ... فمن أين يدري الناس أين توجهنا
ولم حديث جل كنه صفاته ... عن الوصف ما فهمنا بذلك ولا بحنا
شهدنا جمالًا ما تجلى لغيرنا ... تلاحظه أرواحنا عنه ما حدنا

وقال أيضًا رضي الله عنه ورضي عنا به في المعنى:

أصبحت ألطف من مر النسيم سري ... على الرياض وكاد الوهم يؤلمني
من كل معنى لطيف اجتلى قدحًا ... وكل ناطقة في الكون تطربني
ولي نديم كما يأتي وذاك أنا ... إن شئت أخبره إن شاء يخبرني
وإن عزمت على سر فيفهمه ... عني وإن هو شاه ما شاء يفهمني
ولو شربت البحار السبع ما رويت ... بها عظامي بلا رؤياه تقنعني

وقال أيضًا رضي الله عنه في المعنى:

يا دار أسماء بانت عنك أسماء ... وأصبحت بعد ذاك الإنس قفراء
بانت فلا البان مهزوز شمائله ... كلا ولا الروضة الغراء غناء

وقال الحافظ ابن النجار في تاريخه كتب إلى عبد الله الجبائي ونقلت من خطه، قال كان شيخنا الشيخ عبد القادر يقول الدنيا أشغال والآخرة أهوال والعبد فيما بين الأشغال والأهوال حتى يستقر قراره إما إلى الجنة وإما إلى النار، قال: وقال في بعض مجالسه أول ما يطلع في قلب المؤمن نجم الحكمة ثم قمر العلم ثم شمس المعرفة

قيصير بنجم الحكمة ينظر إلى الدنيا وبضوء قمر العلم ينظر إلى الأخرى وبضوء شمس المعرفة ينظر إلى المولى. قال ومن كلامه رضي الله عنه الأولياء عرائس الله تعالى لا يطلع عليهم إلا ذو محرم رضي الله عنه.

وذكر العلامة الإمام شهاب الدين أحمد بن العماد الأقفهسي الشافعي في كتابه نظم الدرر في هجرة خير البشر في فضل إسلام الجن عند سماعهم القرآن منه ﷺ أن الشيخ عبد القادر الجيلاني أدرك منهم واحدًا فردانيًا يعني من الجن الذين أسلموا بسماعهم منه ﷺ. وسئل رضي الله عنه عن الدعاء فقال: الدعاء على ثلاث درجات تعريض وتصريح وإشارة فالتصريح ما يلفظ به والتعريض دعاء في دعاء مضمر وقول في قول مستور وإشارة في أفعال مخفية فمن التعريض قول النبي ﷺ لا تكلنا إلى تدبير أنفسنا طرفة عين ومن الإشارة قول إبراهيم عليه السلام: رب أرني كيف تحيي الموتى مشيرًا إلى الرؤية والتصريح قول موسى عليه السلام: رب أرني أنظر إليك، وقال الشيخ عبد الرزاق رضي الله عنه كان من أدعية والدي في مجلس وعظه اللهم إنا نعوذ بوصلك من صدك وبقربك من طردك وبقبولك من ردك واجعلنا من أهل طاعتك وودك وأهلنا لشكرك وحمدك يا أرحم الراحمين. ومن أدعيته رضي الله عنه: اللهم إنا نسألك إيمانًا يصلح للعرض عليك وإيقانًا نقف به في القيامة بين يديك وعصمة تنقذنا بها من ورطات الذنوب ورحمة تطهرنا بها من دنس العيوب وعلمًا نفقه به أوامرك ونواهيك وفهمًا نعلم به كيف نناجيك واجعلنا في الدنيا والآخرة من أهل ولايتك واملأ قلوبنا بنور معرفتك وأكحل عيون عقولنا بأثمد هدايتك وأحرس أقدام أفكارنا من مزالق مواطىء الشبهات وامنع طيور نفوسنا من الوقوع في شباك موبقات الشهوات وأعنا في إقامة الصلوات على ترك الشهوات وامح سطور سيئاتنا من جرائد أعمالنا بأيدي الحسنات كن لنا حيث ينقطع الرجاء منا إذا أعرض أهل الجود بوجوههم عنا حين تحصل في ظلم اللحود رهاين أفعالنا إلى يوم الشهود وأجر عبدك الضعيف على ما ألف واعصمه من الزلل ووفقه والحاضرين لصالح القول والعمل وأجر على لسانه ما ينتفع به السامع وتذرف له المدامع ويلين القلب الخاشع واغفر له وللحاضرين ولجميع المسلمين وكان رضي الله عنه إذا ختم مجلسه يقول: جعلنا الله وإياكم ممن تنبه لخدمته وتنزه عن الدنيا وتذكر يوم حشره واقتفى آثار الصالحين إنه ولي ذلك والقادر عليه يا رب العالمين شعر:

ومن يترك الآثار قد ضل سعيه ... وهل يترك الآثار من كان مسلما

ذكر أزواجه رضي الله عنه

قال شيخ الصوفية الشيخ شهاب الدين عمر السهروردي في كتاب عوارف المعارف في الباب الحادي والعشرين: سمعنا أن الشيخ عبد القادر قال له بعض الصالحين: لم تزوجت قال: ما تزوجت حتى قال لي رسول الله ﷺ تزوج وقال نقل عنه أنه قال: كنت أريد الزوجة مدة من الزمان ولا أتجرأ على التزوج خوفًا من تكدير الوقت فلما صبرت إلى أن بلغ الكتاب أجله ساق الله إلى أربع زوجات ما منهن إلا من تنفق على إرادة ورغبة. وقال ابن النجار في تاريخه سمعت عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر الجيلي يقول: ولد لوالدي تسع وأربعون ولدًا سبعة وعشرون ذكرًا والباقي إناثًا وقال الجبائي، قال سيدنا الشيخ عبد القادر رضي الله عنه: كان إذا ولد لي ولد أخذته على يدي وأقول هذا ميت فأخرجه من قلبي فإذا مات لم يؤثر عندي موته شيئًا لأني قد أخرجته من قلبي أول ما ولد قال: فكان يموت من أولاده الذكور والإناث ليلة مجلسه فلا ينقطع المجلس ويصعد على الكرسي ويعظ الناس والغاسل يغسل الميت فإذا فرغوا من غسله جاؤوا به إلى المجلس فينزل الشيخ ويصلي عليه رضي الله عنه وعنا به.

ذكر ما حضرني من أولاده رضي الله عنه وعنهم

فمن أعيانهم الشيخ عبد الوهاب تفقه على والده وسمع منه ومن أبي غالب بن البناء وغيرهما ورحل إلى بلاد العجم في طلب العلم ودرس بمدرسة والده في حياته نيابة عنه في مستهل سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة وقد نيف على العشرين سنة من عمره وبعد والده وعظ وأفتى وتخرج به جماعة منهم الشريف الحسيني البغدادي وأحمد بن عبد الواسع بن أميركاه وغيرهما ولم يكن في أولاد أبيه أميز منه. كان فقيهًا فاضلًا حسن الكلام في مسائل الخلاف له لسان فصيح في الوعظ وإيراد مليح مع عذوبة الألفاظ وحدة خاطر وكان ظريفًا لطيفًا مليح المنادرة ذا مزاح ودعابة وكياسة وكانت له مروءة وسخاوة وجعله الإمام الناصر لدين الله على المظالم فكان يوصل إليه حوائج الناس قال الذهبي: وحدث ووعظ وأفتى وناظر وروسل من الديوان العزيز وكان أديبًا ظريفًا ماجنًا خفيفًا على القلوب روى عنه الدبيثي وابن خليل وجماعة وقال ابن رجب في طبقاته، ذكر الفارسي أنه سمع من ابن الحسين وابن الرعوابي وأبي غالب ابن البناء وغيرهم وكان فقيهًا مجردًا زاهدًا واعظًا وله قبول حسن وتولى المظالم

للناصر سنة ثلاث وثمانين وكان كيِّسًا ظريفًا من ظرفاء أهل بغداد متماجنًا ولم يكن في أولاد أبيه أفقه منه انتهى كلامه.

وقال غيره وكان قلمه شديدًا في الفتوى وأجاز لمحمد بن يعقوب بن أبي الدنيا، ولد في شهر شعبان سنة اثنين وعشرين وخمسمائة ببغداد وتوفي بها ليلة الخامس والعشرين من شوّال سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة ودفن بمقبرة الحلبة رحمة الله عليه، والشيخ عيسى تفقه وسمع منه ومن أبي الحسن بن ضرما وغيرهما ودرس وحدث ووعظ وأفتى وصنف مصنفات منها كتاب جواهر الأسرار ولطائف الأنوار في علم الصوفية وقدم مصر وحدث بها ووعظ وتخرج به من أهلها غير واحد منهم أبو تراب ربيعة بن الحسن الحضرمي الصنعاني ومسافر بن يعمر المصري وحامد بن أحمد الأرتاجي ومحمد بن محمد الفقيه المحدث وعبد الخالق بن صالح القرشي الأموي المصري وغيرهم وقال ابن النجار في تاريخه خرج من بغداد بعد وفاة والده ودخل الشام وسمع بدمشق من علي بن مهدي بن المفرج الهلالي في سنة اثنين وستين وخمسمائة وحدث عن والده ثم إنه دخل مصر وأقام بها إلى حين وفاته وكان يعظ على المنابر وله قبول من الناس حيث وحدث هناك عن والده. روى عنه أحمد بن ميسرة بن أحمد الحلال الحنبلي انتهى كلام ابن النجار.

وقال المنذري قدم مصر وحدث ووعظ بها وتوفي بها وقال ابن النجار قرأت على بلاطة قبر عيسى ابن الشيخ عبد القادر الجيلي بقرافة مصر توفي في الثاني عشر من رمضان سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة ومن شعره رحمة الله عليه قوله:

تحمل سلامي نحو أرض أحبتي ... وقل لهم إن الغريب مشوق
فإن سألوكم كيف حالي بعدهم ... فقولوا بنيران الفراق حريق
فليس له إلف يسير بقربهم ... وليس له نحو الرجوع طريق
غريب يقاسي الهم في كل بلدة ... ومن لغريب في البلاد صديق

وله رحمة الله عليه

وإني أصوم الدهر إن لم أراكم ... ويوم أراكم لا يحل صيامي
إلا أن قلبي قد تذمم في الهوى ... إليكم فجد لي منعمًا بذمامي

والشيخ أبو بكر عبد العزيز تفقه على والده وسمع منه ومن ابن منصور عبد الرحمٰن بن محمد القزاز وغيرهما حدث ووعظ ودرس تخرج به غير واحد وكان

بهيًا متواضعًا رحل إلى الجبال واستوطنها في حدود سنة ثمانين وخمسمائة بعد أن غزا عسقلان وزار القدس الشريف وذريته بالجبال إلى يومنا هذا. ولد لثلاث بقين من شوّال سنة اثنين وثلاثين وخمسمائة وتوفي بالجبال يوم الأربعاء ثامن عشر من ربيع الأول سنة اثنين وستمائة رحمة الله عليه، والشيخ عبد الجبار تفقه على والده وسمع منه ومن أبي منصور والقزاز وغيرهما وكان ذا كتابة حسنة سالك سبيل التصوف مصاحبًا لأرباب القلوب وسمع منه عبد الرزاق الآتي ذكره شيئًا يسيرًا وكان متصوفًا مخالطًا للفقراء وأرباب القلوب وكان يكتب خطًا عجيبًا مات قبل الرزاق بنحو ثمان وعشرين سنة وهو شاب في تاسع عشر ذي الحجة سنة خمس وسبعين وخمسمائة ودفن برباط والده بالحلبة من بغداد رحمة الله عليه، والشيخ القدوة الحافظ عبد الرزاق تفقّه على والده وسمع منه ومن أبي الحسن بن ضرما وغيرهما وحدّث وأملى وخرّج ودرّس وأفتى وناظر وتخرّج به غير واحد منهم إسحٰق بن أحمد بن غانم العلثي وعلي بن علي خطيب زوبا وغيرهم.

قال الحافظ بن النجار في تاريخه: أسمعه والده في صباه وسمع من أبي الحسن محمد بن الصائغ والقاضي أبي الفضل محمد الأموري وأبي القسم سعيد بن البناء وأبي الفضل محمد بن ناصر الحافظ وأبي بكر محمد بن الزاغوني وأبي المظفر محمد الهاشمي وأبي المعافى أحمد بن علي بن السمين وأبي الفتح محمد بن البطر إلى أن قال وطلب بنفسه وقرأ الكثير على أصحاب أبي الخطاب بن البطر وأبي عبد الله بن طلحة ومن دونهم حتى سمع من مشايخنا ومن أمثالهم وكتب بخطه كثيرًا لنفسه وللناس وكان خطه رديئًا قرأت عليه كثيرًا وكان حافظًا متقنًا ثقة صدوقًا حسن المعرفة بالحديث فقيهًا على مذهب الإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبل ورعًا متدينًا كثير العبادة منقطعًا في منزله عن الناس لا يخرج إلا في الجمعات محبًا للرواية مكرمًا لطلاب العلم سخيًا بالفائدة مروءة مع قلة ذات يسره وأخلاق حسنة وتواضع وكيس وكان جشب العيش صابرًا على فقره عزيز النفس عفيفًا على منهاج السلف انتهى كلامه ملخصًا.

وقال الحافظ الذهبي في تاريخ الإسلام أبو بكر عبد الرزاق الجيلي ثم البغدادي الحنبلي المحدث الحافظ الثقة الزاهد: سمع الكثير بإفادة أبيه ثم بنفسه وعُنِي بالطلب والأجزاء والسماعات إلى أن قال ويقال له الحلبي نسبة إلى الحلبة محلة بشرقي بغداد انتهى كلامه ملخصًا.

وقال مؤلف الروض: قال أبو شامة في تاريخه كان زاهدًا عابدًا ثقة مقتنعًا باليسير. قلت روى عنه الدنيثي وابن النجار والضياء والنجيب عبد اللطيف والتقى البلداني وطائفة وأجاز للشيخ شمس الدين عبد الرحمٰن والكمال عبد الرحيم وأحمد بن شيبان وخديجة بنت الشهاب بن راجح وإسماعيل العسقلاني والفخر على المقادسة انتهى. وقال الحافظ بن رجب الحنبلي في طبقاته: وكانت له معرفة بالمذهب ولكن معرفته غطّت على معرفته بالفقه. قال ابن نقطة: كان حافظًا ثقة مأمونًا وأثنى عليه الدنيثي وغيره انتهى. وحدّث عنه أنه مكث ثلاثين سنة لا يرفع رأسه إلى السماء حياء من الله عزَّ وجلَّ. ولد عشية الاثنين الثامن عشر من ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وخمسمائة وتوفي ببغداد ليلة السبت سادس شوّال سنة ثلاث وستمائة ودفن بباب حرب من بغداد. وقال ابن النجار ونودي بالصلاة عليه من الغد في محال بغداد فاجتمع له خلق كثير وأخرجت جنازته إلى المصلى بظاهر البلد فصلى عليه هناك وحمل على رؤوس الرجال إلى جامع الرصافة فصلى عليه به ثم عليه بباب تربة الخلفاء ثم على شاطىء الدجلة عند الخضريين ثم عبر به إلى جانب الغربي فصلى عليه بباب الحريم ثم أدخل الخربية فصلى عليه بها ثم حمل إلى مقبرة أحمد فصلى عليه هناك ودفن وكان يومًا مشهودًا انتهى كلامه رحمة الله عليهما، والشيخ إبراهيم تفقه على والده وسمع منه ومن سعيد بن البناء وغيرهما ورحل إلى واسط وتوفي بها سنة اثنين وتسعين وخمسمائة رحمة الله عليه، والشيخ محمد تفقه على والده وسمع منه ومن البناء وأبى الوقت وغيرهم وحدث وتوفي ببغداد في خامس وعشرين القعدة سنة ستمائة ودفن من يومه بمقبرة الحلبة رحمة الله عليه، والشيخ عبد الله سمع من أبيه ومن ابن البناء، مولده سنة ثمان وخمسمائة وتوفي إلى رحمة الله تعالى ببغداد في سابع وقيل ثامن عشر صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة وقيل سبع وثمانين وهو أسن أخوته على ما نقل، والشيخ يحيىٰ تفقه على والده وسمع منه ومن محمد بن عبد الباقي وغيرهما وحدث وانتفع الناس به وقدم مصر وهو أصغر أولاد سيدنا الشيخ رضي الله عنه سنًا ولد سنة خمسين وخمسمائة قبل موت والده بنحو إحدى عشرة سنة ورزق بمصر ولدًا سماه عبد القادر وجاء به إلى بغداد وهو كبير وتوفي ببغداد في شعبان سنة ستمائة ونودي بالصلاة عليه فحضره خلق كثير وصلى عليه بمدرسة والده ودفن عند أخيه الشيخ عبد الوهاب برباط والده بالحلبة وكانت أمه حبشية.

قال الشيخ عبد الوهاب: مرض والدي مرضًا أشرف فيه على الموت فقعدنا حوله نبكي وكان مغشيًا عليه فأفاق وقال: لا تبكوا علي فإني لا أموت إن يحيىٰ في

ظهري ولا بد أن يخرج إلى الدنيا فلم نعلم ما قاله وظنناه في غلبة المرض ثم إنه عوفي واجتمع بجارية حبشية وجاءت بولد وسماه يحيى وكان آخر أولاده. ثم إن الشيخ مات بعد مدة طويلة رضي الله عنهم أجمعين، والشيخ موسى تفقه على والده وسمع منه ومن ابن البناء وغيرهما وحدث بدمشق واستوطنها وعمر بها وانتفع به الناس ودخل مصر ثم عاد إلى دمشق، ولد في ختام ربيع الأول سنة تسع وثلاثين وخمسمائة وتوفي بمحلة العقيبة بدمشق في أوائل جمادى الآخرة سنة ثمان عشر وستمائة ودفن بسفح قاسيون وهو آخر من مات من أولاد الشيخ رضي الله عنهم.

قال الشيخ عمر بن الحاجب في معجمه: كان حنبلي المذهب شيخًا مسندًا من بيت حديث وزهد وورع وممن يشار إلى بيته ورد شيخنا هذا إلى دمشق واستوطنها وتوفي بها وكان شيخًا ظريفًا مطبوع الحركات رق حاله واستولى عليه المرض في آخر عمره إلى أن توفي وصلى عليه بالمدرسة المجاهدية ودفن بجبل قاسيون رحمة الله عليه.

ذكر مَن حضرني من أولادهم رضي الله عنهم

منهم الشيخ سليمان بن عبد الوهاب ابن الشيخ عبد القادر الجيلي الأصل الحسيني البغدادي المولد سمع من غير واحد وهو من أولاد الشيوخ والرواة ولم يعلم أنه حدث شيئًا، مولده في سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة وتوفي يوم الأربعاء تاسع جمادى الآخرة سنة إحدى عشرة وستمائة قبل أخيه عبد السلام الآتي ذكره بنحو عشرين يومًا ودفن بمقبرة الحلبة عند أبيه رحمهما الله وإيانا. ولده داود تفقه وسمع من جده عبد الوهاب وحدث قال الحافظ محمد بن رافع في تاريخه داود بن سليمان بن عبد الوهاب ابن الشيخ عبد القادر بن أبي صالح القرشي الهاشمي سمع من جده عبد الوهاب وحدث سمع منه الحافظ الدمياطي ببغداد وتوفي عشية يوم السبت الثامن عشر من ربيع الأول سنة ثمان وأربعين وستمائة ببغداد: ودفن يوم الأحد بمقبرة الحلبة عند أبيه وجده وذكر لي أنه قدم دمياط. قال الشريف عز الدين وهو من بيت الصلاح والزهد والحديث أقول وفي معرة النعمان تابع حماه جماعة من ذريته يعرفون بالداودية مقيمون بها إلى يومنا هذا نفع الله بهم ولقد اجتمعت بشخص منهم يدعى بالشيخ عبد الكريم وسألته عن نسبه فذكر لي أنه من ذرية الشيخ عبد الوهاب وإن أباه عبد الوهاب بن صدقة بن أحمد بن حسن بن داود بن أحمد بن منصور بن سليمان بن داود بن سيف الدين سليمان بن عبد الوهاب ابن الشيخ عبد القادر الجيلي

الحسيني نفع الله به وإن له ابن عم يدعى صدقة بن شحاتة بن صدقة بن أحمد بن حسن بن داود بن أحمد بن سليمان بن داود بن شرف الدين سليمان بن عبد الوهاب ابن الشيخ عبد القادر الجيلي الحسيني نفع الله به.

والشيخ عبد السلام بن عبد الوهاب تفقه على والده وجده سيدنا الشيخ عبد القادر ودرس وأفتى وتولى عدة ولايات وكان حنبلي المذهب حج مرة متوليًا كسوة البيت الشريف ورسوم أهل الحرمين الشريفين. مولده في ليلة ثامن ذي الحجة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة وتوفي ببغداد في ثالث رجب سنة إحدى عشرة وستمائة وسارت سيرته في آخر عمره ودفن بمقبرة الحلبة من يومه، والشيخ محمد ابن الشيخ عبد العزيز ابن الشيخ عبد القادر الجيلي سمع من غير واحد وكانت الجبال داره وتربته. وأخته الشيخة زهرة سمعت وحدثت توفيت ببغداد ولم أقف لهما على مولد ولا وفاة رحمهما الله تعالى ونفعنا بهما آمين. والشيخ القدوة نصر بن عبد الرزاق ابن سيدنا الشيخ عبد القادر الجيلي الأصل البغدادي المولد أبو صالح تفقه على والده وغيره وسمع من والده وعمه عبد الوهاب ومن أبي هاشم الروشاني وغيرهم ودرس وحدث وأملى وأعطى وأفتى وناظر وتولى قضاء القضاة بمدينة السلام وكان على مذهب الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه وهو أول من دعى بقاضي القضاة من أصحابه رضي الله عنهما وكانت توليته للقضاء في يوم الأربعاء ثامن القعدة سنة اثنين وعشرين وستمائة من الإمام الظاهر بأمر الله وخلع عليه السوار وقرىء عهده في جوامع مدينة السلام الثلاثة فسار السيرة الحميدة الحسنة وسلك الطريق المستقيمة وكان يملي الحديث في مجلسه ويكتب الناس عنه وإذا خرج يوم الجمعة إلى الجامع يخرج ماشيًا وكانت الشهود تكتب في مجلس حكمه من ذواته بإذنه ولم تغيره الولاية عن أخلاقه وتواضعه وسيرته التي عرفت منه قبل الولاية واستمر قاضيًا مدة حياة الظاهر فلما أفضت الخلافة إلى ولده الإمام المستنصر بالله أقره أربعة أشهر وأيامًا ثم عزله في الثالث والعشرين من ذي القعدة سنة ثلاث وعشرين وستمائة وكان والده أسمعه الكثير في صباه وكان ثقة نبيلًا متحريًا محققًا لما يرويه ذا معرفة بالحديث وله اليد الطولى في المذهب مليح الكلام في مسائل الخلاف حلو العبارة حسن الإيراد متواضعًا لطيف الطبع ظريف المعاشرة مزاحًا كيسًا مقدامًا رجلًا من الرجال لا يهاب أمرًا. قال رحمة الله عليه كنت في دار الوزير العمثي أكتب خطي على الإجازات الناصرية فبينا أنا في الدار وهناك محمد بن منحب الرزاز المحدث وابن زهير العدل وابن المروزي بسبب شيخ الشيوخ إذ دخل رجل عليه ثياب حسنة وله هيئة فلما سلم

وثب الجماعة وخدموه فوافقتهم وظننت أنه من بعض الفقهاء فسألت عنه فقالوا: ابن كرم اليهودي عامل دار الضرب وكانت له منزلة وحرمة وكان قد مضى وقعد في صفة مقابلنا فقلت له: قم إلى هنا، فجاء ووقف بين يدي فقلت له: ويلك حين دخلت توهمت أنك فقيه من فقهاء الإسلام فقمت لك إكرامًا لذلك ولست ويلك عندي بهذه الصفة ثم كررت ذلك عليه مرارًا وهو قائم يقول الله يحفظك الله يبقيك ثم قلت له: اخسأ هناك بعيدًا عنا فذهب وقال: كان لي رسم في رجب من الصدقة الناصرية آخذه من البدرية فاتفق في بعض السنين في يوم الأربعاء وكنت قد مضيت إلى زيارة قبر الإمام أحمد فلما عدت من الزيارة وجدت الناس أخذوا رسومهم وانفصلوا وقيل لي إن رسمك عند ابن توما النصراني قد رفع إليه فامض إليه وخذ منه فقلت والله لا أمضي إليه ولا أطلب رزقي من كافر وعدت إلى بيتي متكلًا على الله سبحانه وأنشدت لنفسي هذه الأبيات:

نفسي ما عن ديننا من بدل فدع الدنيا وخلي جدل

ما يساوي أننا نمضي إلى مشرك إذ ذاك عين الزلل

إن يكن دينًا علينا فلنا خالق يقضيه هذا أملي

قال ولم يزل ذلك الرسم عند النصراني لا أتعرض لطلبه ولا ينفذه إلى أن قتل لعنه الله في جمادى الأولى من السنة الأخرى وأخذ الذهب من داره فنفذ إلى انتهى كلامه.

وقال الحافظ بن رجب في طبقاته الفقيه المناظر المحدث الزاهد الواعظ قاضي القضاة شيخ الوقت عماد الدين: قرأ القرآن في صباه وسمع الحديث من والده وعمه عبد الوهاب وذكر جماعة ثم قال وأجاز له أبو العلاء الهمداني وأبو موسى المديني وغيرهم إلى أن قال: وكان ذا لسن وفصاحة وجودة عبارة وأفتى وتولى مدرسة جده إلى أن قال وتوفي الخليفة الناصر وولي ابنه الظاهر وكان من خيار الخلفاء وأحسنهم سيرة وأظهرهم ديانة وصلاحًا وعدلًا أزال المكوس ورد المظالم واجتهد في تنفيذ الأحكام الشرعية على وجهها حتى قال ابن الأثير لو قيل ما ولي بعد عمر بن العزيز مثله لكان القائل صادقًا وكان يختار لكل ولاية أصلح من يجد لها فقلد أبا صالح هذا القضاء بجميع مملكته ويقال إنه لم يقبل إلا بشرط أن يورث ذوي الأرحام فقال له الخليفة: أعط كل ذي حق حقه واتق الله ولا تتق أحدًا سواه، وأمره أن يوصل إلى كل من ثبت له حق بطريق شرعي حقه من غير أن يراجعه وأرسل إليه بعشرة آلاف

دينار يوفي بها ديون من في سجنه من المدينين للذين لا يجدون وفاء ثم رد إليه النظر في جميع الوقوف العامة ووقوف المدارس الشافعية والحنفية وجامع اسلطان وابن المطلب فكان يولي ويعزل في جميع المدارس حتى النظامية ولما توفي الظاهر أقره ابنه المستنصر مدة مديدة واستدعاه عند المبايعة ليثبت له وكالة وكلها الشخص فلم يحكم فيها حتى قال له وليتني ما ولاني والدك فصرح بالتولية وكان في أيام ولايته يؤذن ببابه في مجلس الحكم ويصلي بالجماعة ويخرج إلى الجامع راجلًا ويلبس القطن وكان متحريًا في القضاء قوي النفس في الحق وسار سيرة السلف ولما عزله المستنصر أنشد:

حمدت الله عزَّ وجلَّ لما قضى لي بالخلاص من القضاء
وللمستنصر المنصور أشكر وأدعو فوق معتاد الدعاء

ولا أعلم أن أحدًا من أصحابنا دعي بقاضي القضاة قبله ولا استقل بولاية قضاء القضاة في مصر غيره وأقام بعد عزله بمدرستهم ويفتي يدرس ويحضر المجالس الكبار والمحافل ثم فوض إليه المستنصر رباطًا بناه بدير الروم وجعله شيخًا به وكان يعظمه ويبجله ويبعث إليه أموالًا جزيلة ليفرقها في وجهها وقد صنف في الفقه كتابًا سماه إرشاد المبتدئين تفقه عليه جماعة وانتفعوا به وفيه يقول الصرصري في قصيدته اللامية التي مدح فيها الإمام أحمد وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين:

وفي عصر ناقد كان في الفقه قدوة أبو صالح نصر لكل مؤمل

انتهى كلام العلامة الحافظ القدوة ابن رجب ملخصًا رحمة الله عليه. ولد ليلة السبت رابع عشر شهر ربيع الآخر سنة أربع وستين وخمسمائة وتوفي ببغداد سحرًا ليلة الأحد سادس عشر شوّال سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ودفن بباب حرب بدكة الإمام أحمد ومن إنشاده لنفسه رضي الله عنه:

أنا في القبر مفرد ورهين غارم مفلس على ديون
قد أنخت الركاب عند كريم عتق مثلي على الكريم يهون

وأمه أم الكرم تاج النساء بنت فضائل التركيني سمعت وحدثت وكان لها حظ وافر من الخير والصلاح توفيت ببغداد ودفنت بباب حرب رحمة الله عليهما، والشيخ عبد الرحيم بن عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر الجيلي سمع من شهدة بنت الأبري وخديجة بنت أحمد النهرواني وغيرهما. ولد يوم الأربعاء رابع عشر

القعدة سنة ستين وخمسمائة وتوفي يوم الخميس سابع شهر ربيع الأول سنة ست وستمائة ببغداد ودفن من يومه بباب حرب رضي الله عنه. والشيخ إسماعيل بن عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر الجيلي سمع من غير واحد وتفقه وحدث توفي ببغداد ودفن بمقبرة الإمام أحمد رحمة الله عليهما ولم أقف على تاريخ مولده ولا وفاته، والشيخ أبو المحاسن فضل الله بن عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر الجيلي تفقه على والده وغيره وسمع منه ومن عمه الشيخ عبد الوهاب وأبي الفتح وغيرهم توفي شهيدًا بأيدي التتر ببغداد في صفر سنة ست وخمسين وستمائة، وأختاه الشيخة سعادة بنت عبد الرزاق سمعت من عبد الحق وغيره توفيت ببغداد وصلى عليها أبو صالح، والشيخة عائشة بنت عبد الرزاق سمعت من عبد الحق وغيره وحدثت وكانت خيرة زاهدة عابدة صالحة توفيت ببغداد ودفنت من الغد بباب حرب رحمة الله عليهما.

ذكر أولاد أبي صالح نصر بن عبد الرزاق

منهم الشيخ أبو موسى يحيىٰ. قال الحافظ شرف الدين أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدمياطي في معجمه يحيىٰ بن نصر بن عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر الجيلي البغدادي المولد والدار الحنبلي الفقيه الواعظ، وقال القطب اليونانى الشيخ يحيىٰ بن نصر بن عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر الجيلي تفقه على والده وغيره وسمع من والده وحدث ووعظ وله كلام حسن على لسان أهل الحقائق وشعره رقيق فأنشد لنفسه:

يسقي ويشرب لا تلهيه سكرته عن النديم ولا يلهو عن الكاس
أطاعه سكره حتى تحكم في حال الصحاة وذا من أعجب الناس

ثم تلطف فيها بالعبارة:

ويشرب ثم يسقيها الندامى ولا يلهيه كأس عن نديم
له مع سكره تأييد صاح ونشوة شارب وندى كريم

ولم تذكر له وفاة، وأمه الإله زينب بنت أبي صالح نصر بن أبي بكر عبد الرزاق ابن الشيخ أبي محمد عبد القادر بن أبي صالح الجيلي سمعت علي زيد بن يحيىٰ بن هبة الله أجازت لشيخ القراء بحرم الخليل برهان الدين إبراهيم بن عمر الجعبري نقله مؤلف الروض الزاهر ولم يذكر لها وفاة ولا مولدًا رحمة الله عليهما، والشيخ أبو نصر

محمد بن نصر عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر الجيلي الأصل البغدادي المولد تفقه على والده وغيره وسمع منه ومن غيره وكان يشبه جد أبيه الشيخ عبد القادر رضي الله عنه.

قال الحافظ زين الدين أبو الفرج عبد الرحمٰن بن أحمد بن رجب في طبقاته: سمع من والده ومن الحسن بن علي بن المرتضى العلوي وأبي إسحٰق يوسف بن محمد بن الفضل الأرموي وعبد العظيم الأصفهاني وابن المشتري وغيرهم وطلب وتفقه وكان عالمًا وواعظًا زاهدًا يدرس بمدرسة جده ويلازم الاشتغال بالعلم إلى أن توفي ولما تولى أبوه قضاء القضاة ولاه القضاء والحكم بدار الخلافة فجلس في مجلس الحكم واحدًا ثم عزل نفسه ونهض إلى مدرستهم بباب الأزج ولم يعد إلى ذلك تنزهًا عن القضاء وتورعًا وحدث وسمع منه الحافظ الدمياطي وذكره في معجمه وذكر ابن الدواليبي أنه سمع عليه توفي في ليلة الاثنين ثاني عشر شوّال سنة ست وخمسين وستمائة ببغداد ودفن إلى جانب جده الشيخ عبد القادر بمدرسته وكانت وفاته بعد انقضاء الواقعة رحمة الله عليه. أعقب الشيخ أبو نصر محمد هذا ثلاثة أولادهم الشيخ عبد القادر والشيخ عبد الله والشيخ أحمد فالشيخ ظهير الدين أبو السعود أحمد الجيلي الأصل البغدادي المولد كان فصيحًا صبيحًا يعظ بمدرسة جده ويخطب بها أيام الجمع.

قال الحافظ تقي الدين أبو المعالي محمد بن رافع السلامي في تاريخه أحمد بن محمد بن نصر عبد الرزاق الجيلي المحتد البغدادي الجد والوالد والمولد أبو السعود بن أبي نصر بن أبي صالح المنعوت بالظهير. وقال الشريف عز الدين الحسيني في غير وفياته سمع المقرىء وكان إمامًا فاضلًا واعظًا انتهى كلامه فقد في يوم الثلاث سابع وعشرين من شهر ربيع الآخر سنة إحدى وثمانين وستمائة. وقال الشريف عز الدين الحسيني إنه ظهر مقتولًا في بئر رحمة الله عليه. ولد أخيه الشيخ وعبد السلام بن عبد القادر بن محمد بن نصر بن عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر الجيلي البغدادي الحنبلي سمع من عمه عبد الله قال البرزلي كان رجلًا مباركًا حسن الهيئة كثير المكارم من بيت المشيخة والجلالة له همة ومخالطة للأمراء وتردداد إلى الديار المصرية وكان له مرتبات وافرة وإطلاقات من الأبواب السلطانية توفي صبيحة الاثنين سابع وعشرين جمادى الأولى سنة ثلاثين وسبعمائة بسفح قاسيون وصلى عليه في ظهر الاثنين بالجامع المظفري ودفن بتربة الشيخ إبراهيم الأرموي بقسيون رحمة الله عليه انتهى كلامه ملخصًا رحمة الله عليه ولم أقف لوالده ولا لعمه الشيخ عبد الله على تاريخ

مولد ولا وفاة تغمدهم الله برحمته. وخلف الشيخ ظهير الدين أبو السعود أحمد الشيخ سيف الدين يحيىٰ.

قال مؤلف الروض الزاهر: قال الإمام العلامة الحجة أبو الصدق تقي الدين ابن قاضي شهيد رحمه الله تعالى في تاريخه الإعلام بتاريخ الإسلام يحيىٰ سيف الدين أبو زكريا بن أحمد بن محمد بن نصر بن عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر الجيلي ابن الشيخ صالح العابد: كان صالحًا عابدًا وجيهًا استوطن حماه وكانت وفاته بها سنة أربع وثلاثين وسبعمائة رحمه الله تعالى، ومن نظم جده:

بدا فحسبنا الليل أطلع فجره ... وما ذاك إلا نوره حين أسفرا
وأدخلنا من ذلك الحسن هيبة ... وغيبنا عنا فلم ندري ما جرى

وقال الحافظ محمد الشهير بابن ناصر الدين الدمشقي حدث عن أبيه أبي السعود أحمد رحمة الله عليهما انتهى. ولده الشيخ شمس الدين محمد بن يحيىٰ بن أحمد قال الحافظ بن ناصر الدين الدمشقي أبو عبد الله محمد بن يحيىٰ بن أحمد بن محمد بن نصر بن عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر الجيلي كان شيخًا عالمًا سمع من جماعة ببيت المقدس رُوِيَ عن أبي زكريا يحيىٰ انتهى كلامه ملخصًا رحمة الله عليه.

أولاد الشيخ شمس الدين محمد

هذا الشيخ عبد القادر قال العلامة أبو الصداق ابن قاضي شهبة رحمة الله عليه في تاريخه الذي ذيل به على سنة أربعين وسبعمائة الأصل محيي الدين أبو محمد عبد القادر بن محمد بن يحيىٰ بن أحمد بن محمد بن نصر بن عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر الجيلي الحموي توجه للحج في هذه السنة يعني سنة سبع وثمانين وسبعمائة وتوفي بها عن نيف وعشرين سنة من عمره في السنة المذكورة، وقال الإمام المؤرخ تقي الدين أحمد علي بن المقريزي في كتابه درر العقود توفي بعد عوده من الحجاز عن نيف وعشرين سنة من عمره في سنة سبع وثمانين وسبعمائة وكان من أهل الدين والعبادة متقللًا من الدنيا متخليًا من طلبها على أجمل طريق رحمة الله عليه. والشيخ علاء الدين علي بن محمد قال الإمام العالم العلامة شيخ الإسلام أبو الصدق ابن قاضي شهبة في ذيله الشيخ علاء الدين علي بن شمس الدين محمد بن يحيىٰ بن أحمد بن محمد بن نصر بن عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر الجيلي توفي يوم الثلاثاء رابع وعشرين جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة بالقاهرة.

ذكر أولاده

منهم الشيخ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن علاء الدين علي بن محمد بن يحيىٰ بن أحمد بن محمد بن نصر بن عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر الجيلي الحموي توفي بحماه ودفن بتربة المخلصة ظاهر حماه من جهة الشرق رحمة الله عليه، وأخوه الشيخ بدر الدين حسن بن علي بن محمد بن يحيىٰ بن أحمد بن محمد بن نصر بن عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر الجيلي الحموي توفي بحماه ودفن بتربة جد أبيه الشيخ سيد الدين يحيىٰ ظاهر باب الناعورة تجاه الزاوية القادرية رحمة الله عليه وأخوه الشيخ بدر الدين حسين بن علي بن محمد بن يحيىٰ بن أحمد بن محمد بن نصر بن عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر الجيلي الحموي توفي بحماه ودفن بالتربة المذكورة عند أخيه وجده الشيخ يحيىٰ السابق ذكره رحمة الله عليهم.

ذكر ذريتهم كثر الله منهم

فمن ذرية الشيخ شمس الدين محمد ابن الشيخ علاء الدين على المتقدم ذكره والشيخ الصالح الزاهد العابد محيي الدين عند القادر بن شمس الدين محمد بن علاء الدين علي بن محمد بن يحيىٰ بن أحمد بن نصر بن عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر الجيلي الحموي المولد والدار والوفاة كان من أهل الخير والدين والصلاح توفي بحماه ودفن بها رحمة الله عليه. والشيخ الأصيل شمس الدين محمد بن عبد القادر بن محمد بن نصر بن عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر الجيلي الحموي المولد والوالد والجد والدار والوفاة كان عابدًا صالحًا متخليًا عن الدنيا والناس لا يخالط أحدًا ولقد اجتمعت به مرارًا بحماه توفي بها بعد وفاة الشيخ قاسم الآتي ذكره، ودفن عند جده بتربة المخلصية رحمة الله عليه. أمه السيدة الشريفة سيدة الملوك بنت الشيخ حسين بن علاء الدين علي على أخت سيدنا الشيخ يحيىٰ الآتي ذكره رحمة الله عليهما.

والشيخ الصالح الأصيل محيي الدين عبد القادر بن محمد بن علي بن محمد بن يحيىٰ بن أحمد بن محمد بن نصر بن عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر الجيلي الحسني الحموي المولد والدار والوفاة كان صالحًا مهيبًا قدرًا وحسن الخلق والخلق كريم النفس جميل الهيئة مع كيس وتواضع وبشر وحلم وحسن ملتقى لطيف الطبع ظريف المحاضرة مزاحًا لا يزال متبسمًا معظمًا عند الخاص والعام له حومة وافرة وكلمة نافذة وهيبة عند الحكام وغيرهم قدم حلب واستوطنها وتأهل بشقيقتي ورزق

منها الأولاد ثم عاد إلى حماه وهي صحبته وولداه منها الآتي ذكرهما إن شاء الله تعالى وكان له بحماه وحلب ودمشق مرتبات ورزق وظائف دينية وأنظار وهو الآن بيد ولديه أبقاهما الله تعالى. توفي رحمة الله عليه بحماه في شهر ربيع الأول سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة ودفن بتربتهم ظاهر باب الناعورة وقد جاوز الستين سنة تغمده الله برحمته. وأخوه لأبيه الشيخ الصالح المبارك الورع الزاهد يحيىٰ ابن الشيخ محمد بن عبد القادر الجيلي الحموي الأصل والمولد والدار والوفاة انتقل إلى الله تعالى قبل وفاة الشيخ محيي الدين المتقدم ذكره.

ذكر أولاد الشيخ محيي الدين

منهم الشيخ درويش محمد بن محيي الدين عبد القادر بن محمد بن عبد القادر بن محمد بن علي بن محمد بن يحيىٰ بن أحمد بن محمد بن نصر بن عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر الجيلي الحسني الحموي المولد والأصل والدار والوفاة كان نسابًا ظريفًا عفيفًا نشأ في عبادة الله تعالى على أجمل طريق من أهل الدين والخير ولد بحماه وتوفي بها قبل وفاة أبيه بسنة ودفن بتربة جد أبيه لأمه الكاتب تجاه الزاوية القادرية تغمده الله برحمته. والشيخ الأصيل شرف الدين عبد الله بن محيي الدين عبد القادر بن محمد بن عبد القادر علي بن يحيىٰ بن محمد بن أحمد بن محمد بن نصر بن عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر الجيلي الحسني الحموي الأصل والدار الحلبي المولد شاب حسن الهيئة كريم النفس متواضع بشوش حسن الملتقى ذو مروءة وشهامة ظريف مطبوع لا يمسك على شيء من الدنيا ولا يرد من يقصده خائبًا قرأ القرآن العظيم وشيئًا من النحو والفقه وسافر إلى مصر ودمشق وحلب ثم عاد إلى حماه. ولد بحلب في سنة اثنين وعشرين وتسعمائة حفظه الله تعالى وأحياه الحياة الطيبة بمحمد وآله. وشقيقه الشيخ الأصيل عفيف الدين حسين بن محيي الدين عبد القادر بن محمد بن علي بن محمد بن يحيىٰ بن أحمد بن محمد بن نصر بن عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر الجيلي الحسني الحموي الأصل والدار الحلبي المولد الشاب الزاهد الورع العابد شافعي المذهب قرأ القرآن العظيم والفقه وسمع مني الحديث بقراءتي على العلامة مولانا الشيخ شهاب الدين أحمد البارزي الجهني الشافعي الحموي بمنزل شقيقه الشيخ شرف الدين عبد الله السابق ذكره ظاهر حماه بمحلة الحاضر في السنة التي جمعت فيها هذا التأليف وهي سنة خمسين وتسعمائة وله محبون وأتباع وحفدة ومريدون وله كلمة نافذة وحرمة وافرة عند الحكام والرعية كيس

حسن الشكل والعيش في الملبس والمأكل كريم النفس ذو هبة ووقار لطيف الطبع رضي الأخلاق ذكي فصيح صبيح مع حسن سمت وتواضع وبشر وطيب ملتقى وحلم وسكينة مقصود بالزيارة لصلاحه ولبيته الطاهر وله حال حسنة في السماع بسكون وخشوع وهو أحد السادة المشايخ القادرية بحماه الآن سافر إلى مصر ودمشق وطرابلس وحلب وغيرها وحصل له القبول التام من الخاص والعام ولما قدم دمشق كنت بها فتلقته الفقراء والمشايخ والقضاة والأكابر والأعيان وحصل له الإكرام والقبول وتردد إليه الأعيان واجتمع بنائب السلطنة بها هو أمير الأمراء عيسى باشا بن إبراهيم باشا فأحسن ملتقاه وأكرمه إكرامًا زائدًا وكنت حاضرًا المجلس فكان من جملة قوله له ولأخيه الشيخ عبد الله كثر الله منكم وكذلك قاضيها ولبس الناس منه الخرقة القادرية وكان في كل يوم جمعة بعد الصلاة يقيم حلقة الذكر بالجامع الأموي بشرقي المقصورة ويحضره خلق كثير من العلماء والمشايخ والمفتين وأوقع الله محبته في القلوب ببركة سلفه الطاهر وكان قدومه يوم الخميس سادس وعشرين شعبان سنة ثمان وأربعين وتسعمائة وصحبته شقيقه الوفي عبد الله المتقدم ذكره واستمرا مقيمين بها إلى أن سافرا منها يوم الأحد خامس شوّال من السنة المذكورة وخرج لوداعهما العلماء والقضاة والفقراء والمشايخ إلى القابوني الفوقاني وكان يومًا مشهودًا. مولده أحياه الله الحياة الطيبة بحلب في رجب سنة ست وعشرين وتسعمائة أبقاه الله تعالى ونفع به، ومن ذرية الشيخ حسن ولده الشيخ الصالح الزاهد العابد شمس الدين محمد بن حسن بن علي بن محمد بن يحيىٰ بن أحمد بن محمد بن نصر بن عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر الجيلي الحسني الحموي المولد والوالد والجد كان شيخًا صالحًا عابدًا زاهدًا توفي بحماه ودفن بتربتهم عند أبيه وأجداده ظاهر باب الناعورة رحمة الله عليه، وأخوه الشيخ الصالح الأصيل أحمد بن الحسن بن علي بن محمد بن يحيىٰ بن أحمد بن محمد بن نصر بن عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر الجيلي الحسني الحموي المولد والدار والوفاة كان شيخًا صالحًا دينًا خيرًا من بيت خير وصلاح وتوفي بحماه ودفن بتربة آبائه وأجداده ظاهر باب الناعورة رحمة الله عليهم.

ذكر أولادهما

منهم الشيخ الأصيل عبد الرزاق بن شمس الدين محمد بن حسن بن علي بن محمد بن يحيىٰ بن أحمد بن محمد بن نصر بن عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر

الجيلي الحسني الحموي المولد والدار والوفاة كان شيخ السادة القادرية وشيخ الشيوخ بحماه وبسائر البلاد الشامية وكان صالحًا وله كلمة نافذة عند الحكام والخاص والعام حسن الخلق والخلق ذاهبية ووقار وسكينة وعلم وعفة وكرم لا يضبط على شيء لو جاءه ألف دينار لم يتركها تبيت عنده ولا يرد سائلًا ولو بأحد ثوبيه وكان له حفدة وجماعة ومريدون وكان يتفقد أصحابه ويسأل عنهم وكان كثير الأسفار إلى حلب ودمشق وطرابلس وكانت ولاة الأمور والحكام بالبلاد تهابه وتعظمه وتطيع أمره وكان إذا أُهدي إليه هدية فرقها على من حضر ويكافىء عليها مهديها وكان له سماط لا ينقطع ولا يخلو يومًا من ضيف إلا نادرًا وكان مقصودًا بالزيارات من جميع البلاد وللناس فيه حسن اعتقاده لصلاحه وصلاح بيته الطاهر وكان ظريفًا لطيفًا مما جنا كيسًا متواضعًا ولبس منه الخرقة الشريفة القادرية ومن جملة من لبسها منه سيدي والدي قاضي القضاة نظام الدين يحيىٰ أبو المكارم التادفي الحنبلي قاضي حلب وابن قاضيها وأخو قاضيها وابن بنت قاضيها وشقيقاه عماي قاضي القضاة كمال الدين محمد التادفي الشافعي بحلب والعلامة البرهاني أبو إسحٰق إبراهيم التادفي الحنفي متعني الله بحياتهم وكذا جدي لأبي قاضي القضاة جمال الدين يوسف التادفي الحنبلي رحمة الله عليه، توفي الشيخ عبد الرزاق بحماه في سادس صفر الخير إحدى وتسعمائة ودفن بقبر جده الشيخ حسن ولم يعقب رحمة الله عليه. والشيخ الصالح الزاهد الأصيل عبد الباسط بن أحمد بن حسن بن علي بن محمد بن يحيىٰ بن أحمد بن محمد بن نصر بن عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر الجيلي الحسني الحموي المولد والدار والوفاة كان شيخ السادة القادرية بحماه توجه إلى القاهرة وأقام بها مدة ثم عاد إلى حماه واستمر بها إلى أن توفي بعد ابن عمه الشيخ عبد الرزاق بنحو سنتين ودفن بتربتهم ظاهر باب الناعورة ولم يعقب سوى بنتين ماتتا بعد وفاته وكان حسن الخلق ظريفًا وله خط حسن تغمده الله برحمته. وأخوه الشيخ الصالح أبو النجا بن أحمد بن حسن بن علي بن محمد بن يحيىٰ بن أحمد بن محمد بن نصر بن عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر الجيلي الحموي الحسني توفي بحماه غريقًا بنهر العاصي في سنة عشر وتسعمائة قبل وفاة الشيخ قاسم الآتي ذكره رحمة الله عليهما.

ومن ذرية الشيخ حسن بن علاء الدين

ولده الشيخ الصالح الورع الزاهد الأصيل محيي الدين يحيىٰ بن حسين بن علي بن محمد بن يحيىٰ بن أحمد بن محمد بن نصر بن عبد الرزاق ابن الشيخ

عبد القادر الجيلي الحموي المولد والدار والوفاة كان عين السادة المشايخ القادرية بحماة وببلاد الشام معظمًا عند الخاص والعام ذا ثروة مع تواضع وكيس محبًا لأهل العلم كريم الشمائل حسن الخلق والخلق وتوفي بحماه ودفن بتربتهم ظاهر باب الناعورة وقد جاوز الثمانين سنة تغمده الله برحمته والشيخ الصالح الورع الزاهد شرف الدين قاسم بن يحيىٰ بن حسين بن علي بن محمد بن يحيىٰ بن أحمد بن محمد بن نصر بن عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر الجيلي الحموي المولد والدار والوفاة كان عين السادة المشايخ القادرية بحماه ببلاد الشام معظمًا عند الخاص والعام ذا ثروة مع تواضع وكيس محبًا لأهل العلم كريم الشمائل حسن الخلق والخلق وتوفي بحماه ودفن بتربتهم ظاهر باب الناعورة وقد جاوز الثمانين سنة تغمده الله برحمته.

والشيخ الصالح الورع الزاهد شرف الدين قاسم بن يحيىٰ بن حسن بن علي بن محمد بن يحيىٰ بن أحمد بن محمد بن تصر بن عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر الجيلي الحموي الأصل والمولد والدار والوفاة شيخ السادة القادرية وأعيانهم في وقته انتهت إليه تربية المريدين الخلق والخلق كثير الصدقة والإحسان سرًا وعلانية من غير إعلان لا يفتر عن تلاوة القرآن ذو هيبة ووقار وكلمة مسموعة عند الخاص والعام وولاة الأمور والحكام ولقد اجتمعت به في سنة عشرة وتسعمائة لما وردت صحبة سيدي والدي إلى حماه وأنزلنا بخلوته التي في الزاوية مدة وتكلف علينا كلفة زائدة وأكرمنا غاية الإكرام وحصل لنا ببركته كل خير توفي رحمة الله عليه ليلة الاثنين سادس ربيع الآخر سنة ستة عشر وتسعمائة وقد جاوز الخمسين سنة ودفن بتربتهم.

ذكر أولاده وأولاد أولاده

هم الشيخ الصالح الورع الخير الثقة شمس الدين محمد بن قاسم بن يحيىٰ بن حسين بن علي بن محمد بن يحيىٰ بن أحمد بن محمد بن نصر ابن الشيخ عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر الجيلي الحموي الأصل والمولد والدار الحسنى الشافعي شيخنا وابن شيخنا وقدوتنا إلى الله تعالى الخاشع الناسك شيخ السادة القادرية بحماه وغيرها حسن الهيئة والأخلاق مع ظرف وتواضع وسكينة سخي النفس كثير الإحسان من غير تظاهر ولا تفاخر منقطع عن الناس ذو ثروة ومروءة ما قصده أحد ورده خائبًا ولا زاره أحد إلا وأطعمه مهما تيسر يقضي حوائجه بنفسه كما كانت تفعله السلف من الأئمة المهديين يقبل الهدية ويكافىء عليها مهديها ويتفقد أصحابه بما تصل قدرته إليه من

نقد وغيره. مولده على ما أخبر به مد الله في حياته سنة خمس وثمانين وثمانمائة أحيا، الله الحياة الطيبة وهو أكبر أخوته سنًا كثر الله منهم.

أولاده كثّر الله منهم

هم الشيخ الصالح عبد الله حسن الخلق والخلق كريم متواضع ذو مروءة وشهامة ونفس ذكية بشوش الوجه دين خير ولد بحماه في سنة ست وعشرين وتسعمائة وهو أكبر أخوته الموجودين سنًا. أمه المرحومة السيدة الأصيلة بنت الشيخ محيي الدين عبد القادر المتقدم ذكره وهو شريف من الطرفين حفظه الله تعالى وشقيقه الشيخ تاج العارفين الشاب الصالح أنشأهم الله نشوًا صالحًا وحرسهم من حزب الشيطان بحرمة جدهم سيد ولد عدنان والشيخ الصالح الرئيس شهاب الدين أحمد بن قاسم بن يحيىٰ بن حسين بن علي بن محمد بن يحيىٰ بن أحمد بن محمد بن نصر بن عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر الجيلي الحسني الحموي الأصل والمولد والدار والوفاة كان كريم النفس جميل الهيئة لطيف الطبع ظريف المفاخرة مزاحًا معظمًا عند الخاص والعام كثير المروءة مقدامًا رجلًا من الرجال لا يهاب أمر إذا سن وله وجهة وحرمة عند الحكام كان شيخ السادة القادرية ولقد اجتمعت به بحماه وحلب مرارًا. ولما قدم حلب بسبب تفتيش الأوقاف أنزلناه بدارنا على عادته السابقة ووقفنا في خدمته وخدمة من معه من أهل بلده وتعاطى سيدي الوالد والعم مصالحه ومصالح من معه إلى أن عاد إلى وطنه معظمًا مبجلًا واجتمعت به أيضًا بالقاهرة لما قدمها متوجهًا للحجاز الشريف وصحبته شقيقاه الشيخ عبد القادر والشيخ أبو الوفا محمد الآتي ذكرهما إن شاء الله تعالى وحصل له الرعاية الوافرة والإكرام الزائد من قبل من ا، الأمر والنهي والكلمة النافذة بها إلى أن توجه إلى الحجاز الشريف صحبة الركب المصري وعاد سالمًا إلى حماه. مولده نهار الخميس سادس عشر رمضان سنة ست وثمانين وثمانمائة توفي بحماه في شهر رجب سنة ستة وثلاثين وتسعمائة ودفن بالجنينة تجاه تربتهم رحمة الله عليه.

والشيخ عبد القادر بن قاسم بن يحيىٰ بن حسين بن علي بن محمد بن يحيىٰ بن أحمد بن محمد بن نصر بن عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر الجيلي الحسني الحموي المولد والدار لطيف الطبع ظريف المحاضرة كثير المروءة سخي النفس مطبوع محب لأهل العلم ملازم للعبادة سريع الدمعة. مولده ليلة الخميس رابع شهر المحرم الحرام سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة أبقاه الله تعالى ولده الشاب الصالح الشيخ

شمس الدين محمد الحموي الأصل والمولد قرأ القرآن العظيم وكتبا من فقه الشافعية وعلم القرآن وسمع مني الحديث بقراءتي على الشيخ شهاب الدين أحمد البارزي الجهني الحموي الشافعي. مولده بحماه في شهر الله المحرم الحرام سنة أربع وثلاثين وتسعمائة أنشأه الله تعالى نشوًا صالحًا بمحمد وآله. والشيخ الصالح الأصيل بركات بن قاسم بن يحيىٰ بن حسين بن علي بن محمد بن يحيىٰ بن أحمد بن محمد بن نصر بن عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر الجيلي الحموي الحسني المولد والدار لطيف ظريف متواضع ورع عليه سمة الصلاح لا يخالط أحدًا ملازمًا للعبادة كثير التوعك دين خير عليه الهيبة والوقار. سألت عن مولده من أخيه الشيخ عبد القادر فذكر أنه لا يعلم له تاريخًا إلا أنه أصغر منه بنحو خمس سنوات أبقاهما الله تعالى. أمه السيدة سادة بنت المرحوم الشيخ عبد الباسط المتقدم ذكره.

والشيخ الصالح الورع محمد أبو الوفا بن قاسم بن يحيىٰ بن حسين بن علي بن محمد بن يحيىٰ بن أحمد بن محمد بن نصر بن عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر الجيلي الحسني الحموي الأصل والمولد والدار العامل العالم الزاهد المسلك المحدث القدوة شيخ السادة القادرية وصدرهم كيس فطن متواضع ظريف قرأ القرآن والفقه والحديث وسافر إلى مصر والشام والحجاز وحلب وأخذ عن المشايخ وله مريدون وحفدة وله هيبة وحرمة معظم عند الخاص والعام رجل من الرجال لا يهاب أمرًا من الأمور وهو أصغر أولاد أبيه سنًا وأكبرهم قدرًا ورفعة أبقاه الله تعالى ونفع به وبعلومه. وهؤلاء السادة المذكورون من أولاد الشيخ علاء الدين السابق ذكره قاطنون بحماه إلى يومنا هذا كثر الله منهم ولقد وقفت على إجازات كثيرة بخطوطهم فوجدتهم يسقطون اسم جد جدهم الشيخ أبي نصر محمد بن نصر بن عبد الرزاق وما علمت السبب الموجب لذلك مع أن السادة الثقات من المؤرخين لم يخل أحد منهم باسم محمد حتى أن بعضهم ذكر أنه يشبه جد أبيه سيدنا الشيخ عبد القادر رضي الله عنهما كما سبق والذي ظهر لي أنهم لم يقفوا على ذلك والله أعلم بحقيقة الحال.

ذكر أولاد الشيخ محمد بن عبد العزيز الجيلي الجبالي تغمدهم الله برحمته

منهم الشيخ الصالح شرشيق بن محمد بن عبد العزيز ابن الشيخ عبد القادر الجيلي الحسني الجبالي مولدًا. قال الحافظ أبو عبد الله محمد الذهبي: مات الشيخ

شرشيق سنة اثنين وخمسين وستمائة شابًا عن أربع وعشرين سنة انتهى كلامه رحمة الله عليهما. والشيخ الصالح الزاهد شمس الدين محمد الأكحل بن شرشيق ابن الشيخ محمد بن عبد العزيز ابن الشيخ عبد القادر الجيلي الحسني الجبالي المولد والدار والوفاة. قال الحافظ الذهبي في الذيل الذي على تاريخه بعد السبعمائة الشيخ الإمام الزاهد الكبير بقية المشايخ شمس الدين أبو الكرم محمد ابن الشيخ شرشيق بن عبد العزيز ابن شيخ الإسلام محيي الدين عبد القادر أبي صالح الجيلي ثم السنجاري الجبالي الحنبلي ولد في رمضان سنة إحدى وخمسين وستمائة بقرية الجبال وبها قبور آبائه سمع من الفخر النجار وأحمد بن محمد النصيبي وبمكة من عبد الرحيم بن الزجاج وبالمدينة من العفيف مزوع وحدث ببغداد وبدمشق وحج غير مرة سمع منه بنوه الحسام عبد العزيز والبدر حسن والعز حسين والطهر وشمس الدين بن سعد وآخرون وكان ذا زهد وصلاح وأتباع وصدارة كبيرة في تلك البلاد ووجاهة وكان مقصودًا بالزيارة لفضله ولبيته ولهم فعل وافر وفيه تواضع وخير عمر دهرًا وتوفي في أول الحجة سنة تسع وثلاثين وسبعمائة ودفن عند آبائه انتهى كلامه ملخصًا.

وقال الشيخ الإمام المؤرخ شمس الدين محمد بن إبراهيم الجزري في تاريخه وفي يوم السبت الثامن من شهر رمضان سنة اثنين وعشرين وسبعمائة ورد إلى دمشق الشيخ الصالح شمس الدين محمد بن حسام الدين شرشيق ابن الشيخ السيد الصالح محمد ابن الشيخ أبي بكر عبد العزيز ابن الشيخ الإمام القدوة أبي محمد عبد القادر بن أبي صالح الجيلي ونزل بالزاوية السلارية قاصد الحج. مولده ليلة الجمعة نصف رمضان سنة إحدى وخمسين وستمائة بالجبال بلد من أعمال سنجار. وذكر أن قبر والده هناك وجده وجد والده وإنه حج مرة أخرى في سنة أربع وثمانين وستمائة. وذكر أن والده شرشيق ما سمي بهذا الاسم إلا برؤيا وأن في القرية المذكورة شيخنا متقدمًا مدفونًا بها اسمه هكذا. وذكر أنه أدرك من حالة والده أربعة أشهر وهو مشهور بتلك الديار وله سماط ممدود ولأولاده وأصحاب البلاد والرعايا يعظمونهم ويكرمونهم ويقصدون زيارتهم وتلبس الناس الخرقة منهم فلما قدم أكرم بحلب ودمشق وغيرهما من البلاد وتلقاه الفقراء والمشايخ وحضر عنده أعيان الناس واجتمع بنائب السلطنة ولبس خلق كثير منه الخرقة القادرية وحضر جامع دمشق يوم تكملة قراءة البخاري الذي يقرأه ابن البرزالي على الحجاز وسمع منه الناس انتهى كلامه ملخصًا.

وقال الحافظ تقي الدين أبو المعالي محمد بن رافع السلامي في تاريخه سمع من الفخر علي بن أحمد النجار وبحلب من أحمد بن محمد بن عبد القادر النصيبي

الشمائل الترمذية وحدث هو والشيخ تقي الدين أحمد بن تيمية والشيخ علم الدين القاسم بن البرزالي بالأحاديث التي أخرجها الحافظ الضياء محمد بن عبد الواحد بسماعهم من الفقر وذلك بدمشق المحروسة، وحدث ببغداد سمع منه ابن الرقوقي وابن السيرجي، قال: كان حسن الخلق والخلق فاضلًا زاهدًا عابدًا من أهل السنة له وقع في القلوب وحلالة وفيه إيثار وله وجاهة وللناس فيه اعتقاد زائد انتهى كلامه.

وقال الحافظ الإمام العلامة شيخ الإسلام شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني في تاريخه الدر وكان أبو الكرم حفظ القرآن وتفقه وسمع بدمشق من الفخر علي بن النجار وغيره وحدث بدمشق وبغداد والجبال وكان مشهورًا بالصلاح والعبادة والسماح ولم يمس بكفه ذهبًا ولا فضة في طول عمره مع الجود المفرط والحشمة والإحسان للناس والتودد وكان هو وأهل بيته معروفين بمناصحة الإسلام والمسلمين نقلت ذلك من الروض الزاهر والله أعلم.

ولده البدر حسن بن محمد بن شرشيق بن محمد بن عبد العزيز ابن الشيخ عبد القادر الجيلي الجبالي

قال الحافظ محمد بن رافع في معجمه الحسن بن محمد بن شرشيق بن محمد بن أبي بكر عبد العزيز ابن الشيخ أبي محمد عبد القادر بن أبي صالح عبد الله بن جنكا دوست القرشي الهاشمي سمع من والده ودخل بغداد وقدم علينا دمشق قاصدًا الحج في سنة إحدى وأربعين وسبعمائة ونزل بزاوية السلارية بظاهر البلد وحج فلما رجع نزل بالمكان المذكور فاجتمعت به وكان مهيبًا وقورًا حسن الخلق والخلق كريم النفس جميل الهيئة أجاز لي ما يرويه من الحديث انتهى.

وقال الإمام الحجة ابن حجر في كتاب أبناء الغمر بأبناء العمر كانت له حرمة ووجاهة بتلك البلاد مات في سنة خمس وسبعين وسبعمائة عن سن عالية رحمة الله عليه، والشيخ الصالح علاء الدين علي بن شمس الدين محمد بن محيي الدين عبد القادر بن نور الدين علي بن شمس الدين محمد الأكحل بن حسام الدين شرشيق بن شمس الدين محمد ابن الشيخ أبي بكر عبد العزيز ابن شيخ الإسلام محيي الدين عبد القادر الجيلي الحسني الجبالي الذي استوطن مصر هو وأولاده الآتي ذكرهم بعد دخول الملك الأشرف برسباي القاهرة وعوده من آمد قال صاحب الروض الزاهر شيخنا الشيخ علاء الدين: كان حسن الخلق والخلق ذا هيبة ووقار قل أن يوعده أحد وعدًا ويسأله أحد حاجة فيخطىء فيأتي ويعتذر إليه إلا ويقول له: مسامحة سامحه الله

وإيانا آمين. وكان عين القادرية في زمانه بالديار المصرية وقد حج مرتين مولده على ما أخبرتني أمه الست الشريفة فاطمة بنت الشيخ حيدر في سنة أربع وثمانين أو خمس وثمانين وسبعمائة والله سبحانه أعلم كانت وفاته شهيدًا بالطاعون في نهار الخيس والشمس في قائم الظهيرة يوم عاشر صفر الخير سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة وصلى عليه بباب القرافة من القاهرة ودفن بالتربة المعروفة بسيدي عدي بن مسافر ودفن له في هذا المكان المذكور جملة من أولاده ودفن فيه أيضًا ابن عمه الشيخ شمس الدين محمد بن نور الدين علي بن عز الدين حسين بن شمس الدين محمد الأكحل بن شرشيق وولديه الشيخ شرف الدين موسى والشيخ بدر الدين. وكانت وفاة الشيخ محمد في رابع صفر سنة أربعين وثمانمائة ووفاة ولديه في التي تليها شهيدين بالطاعون مات الشيخ شرف الدين عن ذكرين وبدر الدين عن بنت وكان قد بقي لشيخنا الشيخ علاء الدين المذكور في عقب الطاعون الذي كان في سنة إحدى وأربعين ولد فأخذه وسافر به إلى الحجاز فطعن في الطريق قبل وصوله إلى الطور ومات قبل دخوله إليها ودفن في جامعها وهو يزار وينذر له وكان عمره إذ ذاك دون العشرين سنة وولد لشيخنا علاء الدين بعد ذلك أولاد وتوفي منهم. ومات رحمه الله تعالى عن ذكرين وبنتين توفي الواحد بعد وفاة والده والباقون موجودون وأخوه الشيخ عبد القادر لأبويه توفي بالطاعون في سنة إحدى وأربعين بدمشق ودفن بمقبرة الصوفية ولم يعقب وكان دخوله أيضًا البلاد الشامية بعد عود الأشرف برسباي من آمد في تاسع عشر المحرم افتتاح سنة ست وثلاثين وثمانمائة وهو أصغر من أخيه بسنتين على ما أخبرت به والدتهما الست الشريفة فاطمة انتهى كلام مؤلف الروض الزاهر ملخصًا. وبالجبال إلى يومنا هذا من ذرية الشيخ عبد العزيز السابق ذكره جماعة من أعيانهم.

الشيخ حسام الدين كريم النفس حسن الأخلاق له ولأقاربه حرمة وافرة في تلك البلاد وله سماط وثروة ووجاهة وبلاد ومغلات ومرتبات وشوكة وحفدة وحكام البلاد يعظمونهم ويكرمونهم وكذا الرعايا وتلبس الناس الخرقة القادرية منهم أبقاهم الله تعالى ونفعنا ببركاتهم وبركات أسلافهم الطاهرة في الدنيا والآخرة وببلاد حلب بقرية ياعو من عمل عزاز إلى يومنا هذا جماعة مستكثرة من ذرية سيدنا الشيخ عبد القادر يقال لهم أولاد الشيخ ياعو لهم زاوية وسماط وحرمة عند الناس وعندهم كرم أخلاق معظمون عند الخاص والعام يدعون أنهم من ذرية الشيخ عيسى ابن سيدنا الشيخ عبد القادر رضي الله عنهم أجمعين. والشيخ عبد العزيز كان حسن الخلق كريم النفس حسن الملتقى بشوشًا لا يمسك على شيء من الدنيا مزاحًا رجلًا من الرجال توفي

بقرية ياعو ودفن بها عند آبائه وأجداده، وأخوه الشيخ أحمد دين خير متواضع لطيف كريم النفس حسن الخلق والملتقى مقيم بالقرية المذكورة إلى يومنا هذا، والشيخ عثمان ابن الشيخ عبد العزيز المذكور كان حسن الخلق متواضعًا متخليًا عن الناس وكان مقيمًا بالقرية المذكورة مع عمه أحمد توفي إلى رحمة الله تعالى، والشيخ موسى كان جميل المنظر حسن الخلق ظريفًا وجيهًا معظمًا عند الناس توفي إلى رحمة الله تعالى قبل وفاة الشيخ عبد العزيز، وولده الشيخ عبد الرزاق كان ظريفًا جميلًا متواضعًا ذا هيبة ووقار توفي أيضًا قبل أبيه ودفن بالقرية المذكورة عند أبيه وأجداده رحمة الله عليهم، والشيخ زين الدين عمر كان من أهل الفضل وله حظ حسن وحرمة وافرة وكلمة نافذة عند الحكام وتولى التوقيع بحلب ودمشق عند نواب السلطنة بهما توفي بدمشق ودفن بها وله أولاد بدمشق إلى يومنا هذا وبالقاهرة منهم شخصان أخوان أحدهما يقال له السيد عبد القادر، والثاني السيد أحمد تولى عبد القادر نقابة الإشراف بها والنظر على أوقافهم وهو الآن بها إلى يومنا هذا.

وبالقاهرة إلى يومنا هذا من ذرية سيدنا الشيخ عبد القادر الجيلي رضي الله عنه جماعة مستكثرة بالزاوية التي بالقرافة المعروفة قديمًا بسيدي عدي بن مسافر والآن بها ولا أعلم هل هم من ذرية الشيخ عيسى ابن الشيخ عبد القادر المتوفَّى بالقاهرة كما ذكره الحافظ محب الدين بن النجار في تاريخه أو من ذرية الشيخ علاء الدين علي الذي هو من ذرية عبد العزيز الجبالي واستوطن مصر بعد دخول الأشرف إليها لما عاد من آمد في سنة ست وثلاثين وثمانمائة وهو وأولاده ومات بها كما شرحناه آنفًا رحمة الله عليه ولهم بها جهات ومرتبات ورزق وهم يقصدون بالزيارة نفع الله بهم.

وببغداد جماعة بمقام سيدنا الشيخ عبد القادر يدعون أنهم من ذريته رضي الله عنه لهم جاه وحرمة عند الخاص والعام ولهم رزق ومرتبات برسم الفقراء والمترددين على الزاوية. ولما ملك بغداد شاه إسماعيل سلطان العجم خرب الزاوية وشتت شملهم وتفرقوا في البلاد وحضر منهم إلى حلب جماعة أنزلناهم بمنزلنا. من أعيانهم الشيخ الأجل علاء الدين علي وأولاده وأخواه محيي الدين وزين العابدين وابن أخيهم الشيخ يوسف واستمروا مدة وتوجهوا إلى القاهرة فأنعم السلطان الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغوري تغمده الله برحمته وأسكنه جنته علي الشيخ علاء الدين بنظر الزاوية اليبرقية بظاهر حلب وبأنظار غيرها توفي بحلب بعد عوده من القاهرة هو وأولاده ولم يبق منهم أحد وأما ابن أخيه الشيخ يوسف فإنه استمر بالقاهرة هو وعمه

الشيخ زين العارفين وأنعم أيضًا على الشيخ يوسف بالنظر على زاوية نائب جده التي بالقرب من مصر القديمة على شاطىء النيل واستمر بها إلى أن ملك البلاد السعيد الشهيد السلطان سليم خان بن عثمان سلطان العرب والعجم والروم تغمده الله برحمته وثبت قواعد ملك ولده السلطان سليمان خان وخلد دولته بمحمد وآله في أوائل سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة فخرج منها عائد إلى حلب لأمور يطول شرحها ثم عاد إلى دمشق وبها مات رحمه الله تعالى وعمه زين العابدين مات بمصر قبل موت يوسف هذا ولم يبق منهم ببلاد الشام ومصر أحد ولما ملك مولانا السلطان سليمان خلد الله ملكه وثبت قواعد دولته الشريفة بمحمد وآله بغداد أمر بعمارة الزاوية زاوية الشيخ عبد القادر رضي الله عنه فعمرت وعاد إليها إخوة الشيخ علاء الدين المتقدم ذكره وأقاربه على ما قيل وهم بها إلى يومنا هذا كما كانوا عليه في الزمن القديم من المرتبات والأوقاف وزيادة وهم معظمون مبجلون عند الخاص والعام ولقد اجتمعت بشخص منهم بمدينة القسطنطينية في سنة ست وأربعين وتسعمائة يسمى الشيخ زين الدين حسن الشكل ذو هيبة ووقار وسكينة وذكر لي أنه من أولاد عم الشيخ علاء الدين السابق ذكره، وأنه ورد بسبب أوقاف الزاوية ببغداد وحصل له الخير الزائد وقضيت جميع أشغاله كما في خاطره وزيادة كل ذلك ببركة جده سيدنا الشيخ عبد القادر رضي الله عنه. وقيل إن المشايخ المذكورين الذين هم ببغداد لم يكونوا من أولاد الذكور وإنما هم من أولاد الشيخ الطفسونجي من بنت سيدنا الشيخ عبد القادر التي زوجها لابن الشيخ عبد الرزاق الطفسونجي بعد وفاة أبيه رضي الله عنهم والله أعلم بحقيقة ذلك.

قال العلامة ابن ناصر الدين الدمشقي المحدث ومما ينسب إلى الشيخ عبد القادر تاج الدين أبو الفتح نصر الله بن عمر بن محمد بن أحمد بن نصر بن عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر قال بعض من أخذنا عنه من الحفاظ زعم هذا الرجل أنه من أولاد سيدي عبد القادر ثم اجتمعت بجماعة من أهل العراق وغيره وأخبروني أنه يعرف بابن السمين وأنه من مريدي أولاد الشيخ من أولاده انتهى كلامه ملخصًا رحمة الله عليه.

هذا ما حضرني من أولاده وأولاد أولاده وذريته رضي الله عنهم وهم معظمون مبجلون عند الخاص والعام بسائر البلاد ما قصدهم أحد بسوء إلا ولقيه في نفسه وذريته في أسرع وقت وأقربه ولقد شاهدت ذلك في زماننا هذا فإنه كان بحماه نائب يقال له نصوح قصد المرحوم الشيخ أحمد ابن الشيخ قاسم السابق ذكره بسوء وحصل

له منه الأذى الزائد فما كان إلا قليل حتى بدد الله شمله وقطع ذريته ولم يبق منهم أحد فهل ترى لهم من باقية وكيف لا يكون ذلك وجده القائل:

ونحن لمن قد ساءنا سم قاتل فمن لم يصدق فليجرب أو يعتدي

وحكي بعضهم أن ابن يونس وزير الناصر لدين الله كان قصد أولاد سيدنا الشيخ عبد القادر ببغداد وبدد شملهم وفعل في حقهم كل قبيح ونفاهم إلى واسط فبدد الله شمله ومزقه كل ممزق ومات أقبح موته ببركة سلفهم الطاهر.

قال الشيخ أبو البقاء العكبري ومررت يومًا بمجلس سيدنا الشيخ محيي الدين عبد القادر رضي الله عنه وما كنت اجتمعت به ولا سمعت كلامه فقلت في نفسي أحضر هذا المجلس وأسمع كلام هذا العجمي ودخلت المدرسة فوافيته يتكلم فقطع الكلام وقال: يا أعمى العين والقلب ما تصنع بكلام هذا العجمي فلم أتمالك أن صعدت إليه إلى فوق الكرسي وكشفت رأسي وسألته أن يلبسني الخرقة ففعل وقال لي: يا عبد الله لولا أن الله تعالى أطلعني على عاقبة أمرك لهلكت بالذنوب أدخل في حسبنا قد صرت منا رضي الله عنه ورضي عنا به.

وقال الشيخ أبو عبد القزويني والشيخ أحمد نجو لما اشتهر أمر سيدنا الشيخ محيي الدين عبد القادر رضي الله عنه بالبلاد قصد زيارته ثلاثة رجال من مشايخ جيلان فلما دخلوا بغداد أتوا مدرسته واستأذنوا عليه فوجدوه جالسًا وبيده كتاب ووجدوا بريقه متوجهًا إلى غير جهة القبلة والخادم واقف بين يديه فنظر بعضهم إلى بعض كالمنكرين عليه بسبب الإبريق وتفريط الخادم فيه فوضع الكتاب من يده ونظر إليهم وإلى الخادم نظرة فوقع الخادم ميتًا ونظر إلى الإبريق فدار جهة القبلة وحده رضي الله عنه، وسئل رضي الله عنه عن سبب تسميته بمحيي الدين فقال: رجعت من بعض سياحتي مرة في يوم جمعة سنة إحدى عشرة وخمسمائة إلى بغداد حافيًا فمررت بشخص مريض متغير اللون نحيف البدن، فقال لي: السلام عليك يا عبد القادر فرددت عليه السلام، فقال لي: أُدْنُ مني فدنوت منه، فقال لي: أجلسني فأجلسته، فنما جسده وحسن حاله وصفا لونه فخفت منه فقال: أتعرفني، فقلت: اللهم لا فقال: أنا الدين وكنت قدمت ودثرت فأحياني الله تعالى بك بعد موتي فتركته وانصرفت إلى الجامع فلقيني رجل ووضع نعله لي وقال: يا سيدي محيي الدين فلما قصدت الصلاة هرع الناس إلي يقبلون يدي ويقول: يا محيي الدين وما كنت قد دعيت به قبل رضي الله عنه. وقال رضي الله عنه رأيت في المنام كأني في

حجر عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وأنا أرضع ثديها الأيمن ثم أخرجت ثديها الأيسر فرضعته فدخل رسول الله ﷺ فقال: «يا عائشة هذا ولدنا حقًا». وقال الشيخ أبو محمد الجوني دخلت على سيدي الشيخ عبد القادر يومًا وأنا على فاقة وعائلتي لهم أيام لم يأكلوا شيئًا فسلمت عليه فرد علي السلام، وقال لي: يا جوني الجوع خزانة من خزائن الحق لا يعطيها إلا لمن أحب وإذا بقي العبد ثلاثة أيام لم يأكل شيئًا، قال الله تعالى: يا عبدي صبرت احتسابًا لوجهي وعزتي وجلالي لألقمنك لقمة بلقمة وشربة بشربة، قال: فهممت أنا أصرخ فأشار إلي أن أسكت، ثم قال: إذا ابتلى الحق العبد ببلاء فكتمه كان له أجران فإن تكلم به كان له أجر واحد. ثم قال: أُدْنُ مني فدنوت منه فناولني شيئًا من الدنيا سرًا فهممت أن أتكلم، فقال: يا جوني الكتمان أولى بالفقر وأحسن. وقال الشريف البغدادي كان في جوار الشيخ عبد القادر رجل يقال له عبد الله بن نقطة يلعب بالنرد فلعب فغلبوه وأخذوا جميع موجوده وداره فقال: العبوا على قطع يدي فغلبوه فقالوا: مد يدك، فلما رأى السكين أبى فقالوا له: قل غلبت، فأبى فقالوا: مد يدك فصعد الشيخ عبد القادر إلى سماء الدار وقال يا عبد الله خذ هذه السجادة والعب عليهم ولا تقل قطبت يعني غلبت ثم رجع إلى الفقراء وهو يبكي فقالوا له في ذلك فقال: سوف ترون، قال فأخذ عبد الله السجادة ولعب فاسترد جميع ما أخذ منه والدار وجاء إلى الشيخ عبد القادر وتاب على يده وأنفق الجميع وكان دخله في كل يوم مائتا دينار فأنفق الجميع وكان ينفض السفرة ويقول: على كعبك يا فأرة وهو الذي قال فيه الشيخ عبد القادر بن نقطة جاء بعد الكل فلحق بهم وحط رحاله بين رحالهم وهو من الخواص رضي الله عنه وهذا ابن نقطة هو الذي سبق ذكره.

وقال أبو الرضا خادم سيدنا الشيخ عبد القادر رضي الله عنه: عمل سيدي الشيخ عبد القادر رضي الله عنه ثلاث خلوات وفي الخلوة الثالثة خرج مسألته ما الذي رأى في خلوته فالتفت إليّ مغضبًا وأنشد:

تجلى لي المحبوب من غيهب الحجب ... فشاهدت أشياء تجل عن الخطب
وأشرقت الأكوان من نور وجهه ... فخفت لأن أقضي لهيبته بحبي
فناديته سرًا لتعظيم شأنه ... ولم أطلب الرؤيا له خيفة العتب
سوى أنني ناديته جد بزورة ... لتحيي بها ميت الصبابة واللب
تعطف علي من أنت أقصى مراده ... فمعناك في عيني وذكراك في قلبي

قال فأغمي عليَّ ثم قمت فضمني إليه وقال: لو أذن لي لحدثت بالعجائب ولكن خرس اللسان عن العبارة والقلب عن الإشارة، وقال الشيخ أبو عمر وعثمان رأيت في المنام أن نهر عيسى صار دمًا وقيحًا وسمكه حيات وحشرات وهو ينمو وأنا هارب منه خوفًا أن ينالني منه شيء حتى أتيت إلى منزلي فناولني رجل من داخل المنزل مروحة وقال لي: تمسك بها شديدًا، فقلت: إنها لا تحملني، فقال: إيمانك يحملك أمسك بطرفها فمسكت فإذا أنا عنده فوق سريره في منزلي فسكن روعي فقلت له: بالذي من علي بك من أنت، فقال: أنا نبيك محمد ﷺ فارتعدت من هيبته فقلت: يا حبيبي يا رسول الله ﷺ ادع الله تعالى لي أن أموت على الكتاب والسنة فقال ﷺ: «نعم وشيخك الشيخ عبد القادر رضي الله عنه» قلت: يا رسول الله ادع الله تعالى لي أن أموت على كتابه وسنتك، قال: «نعم وشيخك الشيخ عبد القادر رضي الله عنه»، قلت: يا رسول الله ادع الله تعالى لي أن أموت على كتابه وسنتك، قال: «نعم وشيخك الشيخ عبد القادر» ثم استيقظت من منامي وقصصت الرؤيا على أبي ومضينا لزيارة الشيخ عبد القادر رضي الله عنه وكان ذلك اليوم يتكلم بالرباط فوافيناه يتكلم ولم نقدر على الجلوس بالقرب منه لكثرة الناس فجلسنا في آخرهم فقطع كلامه واستدعانا فحملنا على أعناق الرجال حتى أتى بنا إلى الكرسي فطلع أبي وأنا خلفه فقال لأبي: يا أبله ما تأتينا إلا بدليل، وألبسه قميصه وألبسني الطاقية التي كانت على رأسه وجلسنا مع الناس فإذا القميص مقلوب فهم أبي أن يصلحه فقيل له: اصبر حتى ينفض الناس. فلما نزل الشيخ أراد أبي أن يصلحه فإذا هو مصلوح غير مقلوب فغشي عليه واضطرب الناس لذلك، فقال الشيخ ائتوني به فدخلنا عليه فإذا هو في قبة الأولياء وهي قبة الرباط وسميت بذلك لكثرة ورود الأولياء ورجال الغيب إليه فيها فقال لأبي: من يكون دليله رسول الله ﷺ وشيخه الشيخ عبد القادر كيف لا تكون له كرامة وهذه كرامة لك. ثم استدعى بدواة وقرطاس وكتب لنا أنه ألبسنا خرقته رضي الله عنه. وقال أبو بكر القيمي في كتابه حدثني أبو بكر العمري الدقاق، قال: كنت في أول أمري جمالًا بطريق مكة فاتفق أنه حج معي رجل جيلاني فلما أحس بالموت قال لي: يا جمال خذ هذه الخرقة فيها عشرة دنانير وهذا الكساء وسلمها إلى الشيخ عبد القادر الجيلي وقل له: يترحم علي، ومات فلما وصلت بغداد طمعت على ذلك لكونه لم يطلع على ما بيني وبين الجيلاني سوى الله تعالى فبينما أنا في بعض الأيام أمشي وإذا الشيخ عبد القادر مقبل علي فبادرت إلى السلام عليه وصافحته فقبض على يدي قبضًا شديدًا، وقال: أي مسكين لأجل عشرة دنانير خنت الله وأمانة ذلك

العجمي وقاطعتني فوقعت مغشيًا علي ومضى الشيخ فلما أفقت مضيت إلى بيتي وأخذت الذهب والكساء وذهبت إليه رضي الله عنه.

وقال الحافظ أبو زرعة طاهر بن محمد بن طاهر المقدسي الداري حضرت مجلس الشيخ محيي الدين عبد القادر رضي الله عنه وسمعته يقول: أنا كلامي على رجال يحضرون مجلسي من وراء جبل قاف أقدامهم في الهواء وقلوبهم في حضرة القدس تكاد قلانسهم وطواقيهم تحرق من شدة شوقهم إلى ربهم عزَّ وجلَّ، قال وكان ولده الشيخ عبد الرزاق حاضر المجلس تحت رجل أبيه فرفع رأسه نحو السماء وشخص ساعة فاحترقت طاقيته وزيقه فنزل الشيخ رضي الله عنه وطفاها وقال: وأنت يا عبد الرزاق منهم، قال فسألت عبد الرزاق رضي الله عنه عما أغشاه فقال: لما نظرت إلى الهواء رأيت رجالًا واقفين مطرقين منصتين لكلامه وقد ملؤوا الأفق وفي لباسهم وثيابهم النار ومنهم مَن يصيح ويعدو في الهواء ومنهم من يسقط إلى الأرض في مجلسه الشيخ ومنهم من يرعد في مكانه رضي الله عنهم.

وقال الشيخ عبد الله الأصفهاني الجبلي وسمي بالجبلي لطول إقامته بجبل لبنان كنت بجبل لبنان في ليلة مقمرة فرأيت أهل الجبل يجتمع بعضهم إلى بعض ويطيرون في الهواء إلى جهة العراق جماعة بعد جماعة فقلت لصاحب لي منهم: إلى أين تذهبون، قال: أمرنا الخضر عليه السلام أن نتوجه إلى بغداد ونحضر بين يدي القطب فقلت له: من هو القطب، فقال الشيخ عبد القادر رضي الله عنه: فاستأذنته في المسير معه فقال: نعم، فسرنا في الهواء يسيرًا فإذا نحن ببغداد وهم بين يديه صفوفًا وأكابرهم يقولون: يا سيدنا وهو يأمرهم ويبادرون لامتثال أمره ثم أمرهم بالانصراف فرجعوا من بين يديه القهقرى حتى استقلوا في الهواء سائرين وأنا معهم في صحبة صاحبي فلما رجعنا إلى الجبل قلت له: ما رأيت أدبكم بين يديه في هذه الليلة وإسراعكم لامتثال أمره فقال: يا أخي كيف لا وهو الذي قال قدمي هذه على رقبة كل ولي لله. وقد أمرنا بطاعته واحترامه رضي الله عنه.

وقال سيدنا الشيخ عبد الوهاب والشيخ عبد الرحمٰن رضي الله عنهما كان والدنا رضي الله عنه مما يقول في مجالس وعظه الحمد لله رب العالمين. ثم يسكت ثم يقول: الحمد لله رب العالمين. ثم يسكت ثم يقول: الحمد لله رب العالمين. ثم يسكت ثم يقول عدد خلقه وزنة عرشه ورضا نفسه ومداد كلماته ومنتهى علمه وجميع ما شاء وخلق وذرأ وبرأ عالم الغيب والشهادة الرحمٰن الرحيم الملك القدوس العزيز

الحكيم وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير ولا ند له ولا شريك له ولا وزير ولا عون ولا ظهير الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد. ليس بجسم فيسمن ولا جوهر فيحسن ولا عرض فيكون منتقصًا هنالك ولا وزير له ولا مشارك جل أن يشبه بما صنعه أو يضاف لما اخترعه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير وأشهد أن محمدًا ﷺ عبده ورسوله وحبيبه وخليله وصفيه ونجيه وخيرته منخلقه وأرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

اللهم وارضَ عن الرفيع العماد الطويل النجاد المؤيد بالتحقيق المكنّى بعتيق الخليفة الشفيق المستخرج من أطهر أصل عريق الذي اسمه باسمه مقرون وجسمه مع جسمه مدفون الإمام أبي بكر الصديق، وعن القصير الأمل الكثير العمل الذي لا خامره وجل ولا عارضه زلل ولا داخله ملل المؤيد بالصواب الملهم فصل الخطاب حنيفي المحراب الذي وافق حكمه نص الكتاب الإمام أبي حفص عمر بن الخطاب، وعن مجهز جيش العشرة وعاشر العشرة من شيد الإيمان ورتل القرآن وشتت الفرسان وضعضع الطغيان مزين المحراب بإمامته والقرآن بتلاوته أفضل الشهداء وأكرم السعداء المستحيي منه ملائكة الرحمٰن ذي النورين أبو عمرو عثمان بن عفان، وعن البطل البهلول وزوج البتول وابن عم الرسول وسيف الله المسلول قالع الباب وهازم الأحزاب إمام الدين وعالمه وقاضي الشرع وحاكمه والمتصدق في الصلاة بخاتمه مفدي رسول الله بنفسه ومظهر العجائب الإمام أبي الحسنين علي بن أبي طالب، وعن السبطين الشهيدين الحسن والحسين، وعن العمين الشريفين الحمزة والعباس، وعن الأنصار والمهاجرين وعن التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين يا رب العالمين اللهم أصلح الإمام والأمة والراعي والرعية وألف بين قلوبهم في الخيرات وادفع شر بعضهم عن بعض اللهم وأنت العالم بسرائرنا فأصلحها وأنت العالم بذنوبنا فاغفرها وأنت العالم بعيوبنا فاسترها وأنت العالم بحوائجنا فاقضها لا ترانا حيث نهيتنا ولا تفقدنا من حيث أمرتنا وأعزنا بالطاعة ولا تذلنا بمعصية واشغلنا بك عمن سواك واقطع عنا كل قاطع يقطعنا عنك وألهمنا ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ثم يشير بأصبعه تلقاء وجهه ويقول: لا إلـه إلا الله ما شاء الله كان وما لـم يشأ لم يكن ما شاء الله لا قوة إلا بالله العلي العظيم اللهم لا تحينا في غفلة ولا تأخذنا على غرة ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرًا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا

طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين وكان رضي الله عنه إذا قام من مجلسه ناقض إيمان أو ناقض توبة يقول رضي الله عنه: يا هذا ناديناك وما أجبت وكم أردعناك وما ارتدعت وكم استعجلناك وما عجلت وكم وبخناك وما خجلت وكم كاشفناك وأنت تعلم أنا نراك وكم أمهلناك أيامًا وشهورًا وكم بشرناك أعوامًا ودهورًا وأنت لا تزداد إلا نفورًا ولا ترينا إلا فجورًا يا هذا إن نقضت العهد والوعود وعدت بعد أن عاهدتنا أن لا تعودها ونحن قد أنذرناك لكي تقوم وما يدريك إن صفحنا عنك لا يدوم فكيف بك إن رددناك أو طردناك وما أردناك ولا عذرناك وما أعدناك أو محونا ربوعك ولم نقبل رجوعك ألم تعلم أنك جئتنا خاشعًا ووقفت بأبوابنا خاضعًا ثم انحرفت عنا راجعًا عجبًا عجبًا لمن يدعي حبنا كيف لا يسمح بكله ويا عجبًا لمن يجد قربنا أو ذاق شربة من شراب أنسنا كيف ينفرد عن حزبنا يا هذا لو كنت صادقًا لكنت موافقًا لو كنت آلفًا لم تكن مخالفًا لو كنت من أحبابنا لم تبرح عن صبابنا وتلذذت بعذابنا يا هذا ليتك لم تخلق وإذا خلقت علمت لماذا خلقت يا نائمًا انتبه وافتح عيونك وانظر أمامك فقد أتتك جنود العذاب واستحققتها لولا لطف الكريم الوهاب يا زائل يا راحل يا منتقل تزود وهيىء سفرتك سافر ألف عام لتسمع مني كلمة واحدة يا أخي بالله عليك لا تغتر بطول الحياة وكثرة المال والجاه فإن بين تقلب الليل والنهار أمورًا عجيبة وحادثات غريبة كم سمت الدنيا مثلك مما كان قبلك فخذ حذرك فها هي قد جردت سيفها لقتلك فإنها غدارة مكارة وإذا أمكنتها الفرصة شنت عليك الغارة كم غرت مثلك بخلب برقها اللامع وأوسعت له المطامع فأصبح لأمرها طائع وليمينها سامع ولمرادها وهواها متابع ثم سقته على غرة منه كأسًا من سمها الناقع فما أحس إلا والديار منه بلاقع وبكى الدم فضلًا عن المدامع حيث صار رهين عمله بقعر قبره إلى يوم بعث الأموات من المضاجع رضي الله عنه ورضي عنا به.

وقال رضي الله عنه في العمل الصالح

من عامل مولاه بالصدق والنصاح والتقوى استوحش مما سواه في المساء والصباح يا قوم لا تدعوا ما ليس لكم ووحدوا ولا تشركوا واحذروا السهام من القدر أن تصيبكم قتلًا لا خدشًا ومن كان لله تلفه كان على الله تعالى خلفه واعلموا رحمكم الله تعالى إنكم لم توافقوا مجاري إلا قضية إلا قصمتكم وإنه لا يصطفي القلب حتى تصطفي النفس وتصير مثل كلب أهل الكهف رابضة على الباب وتنادي: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ

ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ [الفجر: الآيتان ٢٧، ٢٨] حينئذٍ يدخل القلب الحضرة ويصير كعبة لنظرات الرب سبحانه وتعالى ويكشف له عن جلال الملك وتخرج ألقابه وتسلم إليه وراثته ويسمع النداء من الرفيع الأعلى يا عبدي وكل عبدي أنت لي وأنا لك فإذا طالت صحبته صار بطانة للملك وخليفته على رعيته وأمينه على أسراره وأرسله إلى البحر ليستنقذ الغرقى وإلى البر ليهدي الضال فإن مر على ميت أحياه أو على عاصٍ ذكره أو بعيد قرّبه أو على شقيّ أسعده الوليّ غلام البدل، والبدل غلام النبي، والنبي غلام الرسول صلّى الله عليهم أجمعين. مثال الأولياء مثل مسامر الملك لا يزال في صحبته والليل سرير ملكهم والنهار بقربهم يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك.

وقال رضي الله عنه في الفناء

أفن عن الخلق بحكم الله تعالى وعن هواك بأمر الله تعالى وعن إرادتك بفعل الله تعالى فحينئذٍ تصلح أن تكون وعاء لعلم الله تعالى فعلامة فنائك عن خلق الله تعالى انقطاعك عنهم واليأس بما في أيديهم وعلامة فناءك عنك وعن هواك ترك التعلق بالتسبب في طلب النفع ودفع الضر فلا تتحرك فيك بك ولا تعتمد عليك لك ولا تذب عنك ولا تنتفس لنفسك بل تكل ذلك كله إلى من تولاه أو لا فيتولاه آخر أو علامة فنائك عن إرادتك أن لا تريد مع إرادة الله تعالى سواه بل يجري فعله فيك وأنت ساكن الجوارح مطمئن الجنان منشرح الصدر عامر الباطن غني عن الأشياء تقلبك يد القدرة ويدعوك لسان الأزل ويعلمك ربّ الملك ويكسوك من نوره حللًا وينوء لك منازل من سلف من أولى العلم الأول فتكون أبدًا منكسرًا لا تثبت فيك إرادة غير إرادة الله تعالى فحينئذٍ يضاف إليك التكوين وخرق العادات فيرى ذلك منك في ظاهر الحكم وهو فعل الله حقًّا في العلم وهذه نشأة أخرى فإذا وجدت فيك إرادة كبرت لوجودك فيها إلى أن يبلغ أجله فيحصل اللقاء فالفناء هو حد ومرد وهو أن يبقى الله تعالى وحده كما كان قبل أن يخلق الخلق وهذه حالة الفناء فإذا مت عن الخلق قيل لك رحمك الله تعالى وإذا مت عن الإرادة قيل لك رحمك الله تعالى وأحياك فحينئذٍ تحيي حياة لا موت بعدها وتغني غناء لا فقر بعده وتعطي عطاء لا منع بعده وتعلم علمًا لا جهل بعده وتأمن أمنًا لا خوف بعده وتسعد فلا تشقى وتعز فلا تذل وتقرب فلا تبعد وتعظم فلا تحقر وتطهر فلا تدنس.

وقال رضي الله عنه في الصدق: يا غلام عليك بالصدق والصفاء فلولاهما لم يتقرب بشر إلى الله تعالى يا غلام لو ضرب حجر قلبك بعصا موسى الإخلاص لتفجرت منه ينابيع الحكم وبجناح الإخلاص يطير العارف من ظلمة قفص الكون إلى فسحة نور القدس وينزل بعد الطيران في ظل روض مقعد صدق يا غلام ما أشرق نور اليقين في قلب عبد إلا ظهر على أسارير وجهه ضياء نور الأولياء رضي الله عنهم ونادت الملائكة باسمه في الملكوت الأعلى وجاء يوم القيامة في جملة الصادقين يا غلام الأعراض عن شهوات النفوس تجريد بل توحيد هو صفي بوارق شوق عشقه لخواطر العارفين حتى لا تتلذذ بوصول غيره هو هيم قلوب الداهلين حتى وقعت في أودية حبه يا غلام الطريق إلى الله تعالى لا يسافر فيها إلا بزاد الصدق والحضور معه لا يحصل بغير تخريب القوالب والأقطار في الآخرة على شراب النظر لا يوصل إليه إلا بعد الصيام عن الدنيا وما فيها ما نظرة منه إليك غالية بترك الوجود وما لحظة منه لك كثيرة بالخروج عن الأكوان يا غلام إذا صفت النفس من الأكدار البشرية امتثلت الأوامر وإذا تراءى نظر عقل العارف سطعت على سره أنوار بارئه، يا غلام الأولياء هم الخواص لحضرة السلطان والعارفون ندماء مجلس الملك ودون حلاوة شهد الأولياء تستحق مرارة صبر البدلاء يا غلام عيون عقول الفحول لم تنظر إلى الدنيا ولم يخدعهم مخالب برقها اللامع بل فهموا قول المحبوب عنها وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور يا غلام من تكرر اللذات يدخل الشيطان إلى القلوب ومن منافذ الشهوات يعبر إلى الصدور ويخدع العبد بطلب الدنيا فطوبي لمن تنبه من رقدة غفلة عقله وصفا مورد حاله بطلب قرب مولاه وتأدب بالخروج إلى أسرع الحاسبين وشمر للسباق إلى الآخرة وحاسب نفسه عما لا بد له من الخروج منه فإن الدنيا ميدان الممر والساعة أدهى وأمر وأنشد رضي الله عنه قائلاً:

ولما صدقنا شيلت الحجب بيننا ولولا كلام الصدق ما شيلت الحجب

وقال رضي الله عنه في التنزيه: ربنا الله تعالى القريب في علوه المتعالي في دنوّه بارىء الخلق بقدرته ومقدّر الأمور بحكمته والمحيط بكل شيء علمه تمت كلمته وعمّت رحمته لا له إلا هو كذب العادلون به ومَن ادّعى له ندًا أو اعتقد له شبيهًا أو سميًا سبحان الله عزَّ وجلَّ سبحان الله عدد خلقه ورضاء نفسه وزِنة عرشه ومِداد كلماته ومنتهى علمه وجميع ما شاء وخلق وذرأ وبرأ ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحشر: الآية ٢٢]، ﴿ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الجمعة: الآية ١] واحد أحد فرد صمد ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص:

الآيتان ٣، ٤]، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: الآية ١١] لا شبيه له ولا نظير ولا عون له ولا ظهير ولا شريك له ولا وزير ولا ند له ولا مشير. ليس بجسم فيمس ولا جوهر فيحس ولا عرض فينتقي ولا ذي تركيب فيتبعض ولا ذي آلة فيمثل ولا ذي تأليف فيكيف ولا ذي ماهية مخيلة فيحدد ولا ذي طبيعة من الطبائع ولا طالع من الطوالع ولا ظلمة تظهر ولا نور يزهو حاضر الأشياء علمًا من غير ممازجة شاهد لها اطلاعًا من غير مماسة قاهر حاكم فرد معبودي لا يموت أزلي لايفوت حاكم عادل قادر راحم غافر ساتر خالق قاطر أبدى الملكوت سرمدي الجبروت قيوم لا ينام عزيز لا يضام منيع لا يرام له الأسماء الحسنى والصفات العليا والمثل الأعلى والجد إلا بقي لا تصوره الأوهام ولا تقدره الإفهام ولا يدرك بالقياس ولا يمثل بالناس ولا تكيفه العقول ولا تحده الأذهان جل أن يشبه بما صنعه أو يضاف إلى ما اخترعه محصي الأنفاس قائم على كل نفس بما كسبت لقد أحصاهم وعدهم عدًا وكلهم آتيه يوم القيامة فردًا يطعم ولا يطعم يرزق ولا يرزق يجير ولا يجار عليه خلق ما ابتدع لا لاجتلاب نفع ولا لدفع ضر ولا لداع دعاه ولا لفكر حدث بل بإرادة مجردة عن تعبيرات الحدثان كما قال تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [البروج: الآيتان ١٥، ١٦] وهو المنفرد بالقدرة على اختراع الأعيان وكشف الضرر وإزالة البلوى وتقليب الأعيان وتغيير الأحوال كل يوم هو في شأن يسوق ما قدر إلى ما وقت لا معين له في تدبير مملكته حي بحياة غير مكتسبة ولا مسبوقة عالم بغيب غير محدث ولا محجوب ولا متناه قادر بقدرة غير محصورة مدبر بإرادة غير بادية ولا متناقصة حفيظ لا ينسى قيوم لا يسهو رقيب لا يغفل حليم لا يعجل سالب لا يمهل يقبض ويبسط يرضى ويغضب يغفر ويرحم أوجد وأعدم فاستحق أن يقال له: قادر أزاح علل مخلوقاته وأبداها كاملة الوصف فاستحق أن يقال له: رب أجري أفعال عباده على مقتضى مراده منهم فاستحق أن يقال له عالم على الحقيقة لا يشابهه أحد ولا يمثل ولا يكيف ولا يشابه ذاته ولا صفاته ذات ولا صفات فوجب أن يقال له ليس كمثله شيء وهو السميع البصير كل قائم فقيامه بديمومية أزله كل حي فحياته مستفادة بأمره إن ضرب الفعل لعزّته مثلًا أو جال الفهم في جلاله جدلًا وقف الفهم في عظمته مللًا ودهش الفكر كللًا ولاح التعظيم جللًا ولم يجد للتنزه بدلًا ولا عن التوحيد حولًا جاءت جيوش التقديس قبلًا تسلك سبل التقرير ذللًا حجب الألباب برداء كبريائه عن معرفة كنه ذاته وحبس الأبصار بنور بقائه عن إدراك حقيقة أحديته فانتهضت غايات علوم الحقائق تقفو خبرًا

وشخصت نهايات معارف الممالك تلمح أثرًا تألق لها بارق من الأزل مبرقع بنقاب الكمال عن نقائص التشبيه فلم يستطع مجاوزة سناه ومحقت مداركها وانفصالات قواها في اتصال أوصاف القدم بنعوت الأبد اتصال لم يزل غير مسبوق باتصال ولا صائر إلى انفصال وبدت من جناب القدس الأشرف هيبته تميت العلل وانفراد يمنع التعدد ووجود يحيل الحد وجلال ينفي الكيف وكمال يسقط المثل ووصف يوجب الوحدة وقدرة يبسط الملك ومجد يستنفد المحامد وعلم يحيط بما في السموٰات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى وما في قعر البحار ومنبت كل شعرة وشجرة ومسقط كل ورقة وعدد الحصى والرمال ومثاقيل الجبال ومكاييل البحار وأعمال العباد وآثارهم وأنفاسهم وهو بابن من خلقه لا يخلو مكان من علمه فرجعت ليس لها علم سوى التصديق بأحديته والإقرار أنه الأول لقدم أزليته والآخر لبقاء أبديته ولا كيف ولا مثل يدخلان في صمديته تعرف إلى خلقه بصفاته ليوحدوه وليثبتوا وجوده لا ليشبهوه والأيمان يثبتها بعلم اليقين تصديقًا والاطلاع على علم تحقيقها لا مجال للعقل في إدراكه وكل ما حكاه الوهم أو جلاه الفهم أو يخيله العقل أو يصوره الذهن فعظمة الله تعالى وجلاله وكبرياؤه بخلاف ذلك هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم.

وقال رضي الله عنه في خلق الآدمي

ما أعجب خلقة هذا البشري وما أعذب حكمة الصانع فيها تبارك وتعالى ملك بعقله لولا اتباع هواه لطيف المعنى لولا كثافة طبعه كنز استودع غرائب أسرار الغيب وجوامع أصناف العيب وعاء مليء نورًا وظلمة إهاب ستر عروس الروح فيه بأستار الصور عن عيون الأغيار عجيبة جلّا جمالها القدر على عباده الملائكة في حلل، ولقد كرمنا بني آدم في مجلس وفضلناهم العقل فيه إشارة إلى كونه من عالم الغيب والشهادة حملت أصداف الهياكل درر الأرواح في أبحر الوجود على سفن العلم ليكمل به ضياء نور اليقين فسارت بريح الروح إلى خزائن المجاهدة ووقف سلطان العقل فيه بإزاء سلطان الهوى وتقابلا وتقاتلا في فضاء صدره وكانت النفس من أخص جنود سلطان الهوى والروح من أشرف جنود سلطان العقل فأذن مؤذن الحكم بينهم يا خيل الله اركبي ويا كتائب الحق ابرزي ويا جنود الهوى تقدمي فكل يريد نصرة حزبه وكل يحاول قهر خصمه فقال: التوفيق لهما بلسان سابق الغيب من نصرته كانت الغلبة معقودة براياته ومن أعنته كان السعيد في الدنيا والآخرة ومن كنت معه لم أفارقه حتى أوصله إلى مقعد صدق التوفيق هو حسن نظر الحق سبحانه وتعالى لوليه بعين رعايته

يا غلام اتبع العقل وقد وقف بك على محجة طريق السعادة الكبرى وفارق نفسك وهواك وقد رأيت العجب الروح سماوية غيبته والنفس ترابية أرضية طار طائر اللطيف من وكر الكثيف بجناح العناية إلى شجرة العلا وأوكر في غصن القرب وغرد بتلحين لسان الشوق وناغى نديم الآنس والتقط جواهر الحقائق من بين أكتاف المعارف وبقي الكثيف محصورًا في قفص ظلمة وجوده إذا فنيت القوالب بقيت أسرار القلوب إن نظر إلى قلبك نظرة إقامة مقام عرشه وأودعه حقائق العلوم وجعله خزانة أسرار المعرفة فحينئذٍ ترى بعقلك جمال الأزل وتعرض عن كل شيء متصف بصفات الحدث وتقابل بصيرة سرك أشخاص عوالم الملكوت في مرآة القرب وتجلى على عين سريرتك عرائس الفتح في مجلس الكشف عن حقائق الآيات فإذا آثار متلوحات الأكوان ممحوة من لوح همتك يا هذا العقول المنشورة سرج الفحول في ظلمة الأفكار الصافية أدلة أرباب المعارف والعناية السابقة تكشف عن وجود خود اليقين نقاب شكك إذا تزاحمت الظنون والإرادة اللاحقة تقطع أفكار الباطل بيد الحق إذا تقاصرت الأدلة.

وقال رضي الله عنه في الاسم الأعظم

اسم الله الأعظم هو الله وإنما يستجاب لك إذا قلت الله وليس في قلبك غيره بسم الله من المعارف بمنزلة كن من الله تعالى هذه كلمة تزيل الهم هذه كلمة تكشف الغم هذه كلمة تبطل السم هذه كلمة نورها يعم. الله يغلب كل غالب الله مظهر العجائب الله سلطانه رفيع جنابه منيع الله مطلع على العباد الله رقيب على القلب والفؤاد الله قاهر الجبابرة الله قاصم الأكاسرة الله عالم السر والعلانية الله لا يخفى عليه خافية من كان لله كان في حفظ الله تعالى من أحب الله تعالى لا يرى غير الله تعالى من سلك طريق الله وصل إلى الله تعالى ومن وصل إلى الله تعالى عاش في كنف الله تعالى من اشتاق إلى الله تعالى أنس بالله تعالى من ترك الأغيار صفا وقته مع الله تعالى أقرع باب الله تعالى ألجأ إلى الله تعالى توكل على الله تعالى يا معرضًا أرجع إلى الله تعالى هذا سماع اسمي في دار الفناء فكيف في دار البقاء، هذا في دار المحنة فكيف في دار النعمة، هذا اسمي وأنت على الباب فكيف إذا كشف الحجاب، هذا وقد ناديت فكيف إذا تجليت القوم في المشاهدة وأبحر الوصل عليهم واردة المحب كالطير لا ينام في الأشجار يناغي حبيبه في الأسحار تهب رائحة القرب على قلوبهم فيشتاقون إلى ربهم اذكروني بالتسليم والتفويض أذكركم بأصلح الاختيار بيانه قوله تعالى: ﴿وَمَن

يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: الآية ٣] اذكروني بالشوق والمحبة أذكركم بالوصل والقربة، اذكروني بالحمد والثناء أذكركم بالمنن والجزاء، اذكروني بالتوبة أذكركم بغفران الحوبة، اذكروني بالدعاء أذكركم بالعطاء، اذكروني بالسؤال أذكركم بالنوال، اذكروني بلا غفلة أذكركم بلا مهلة، اذكروني بالندم أذكركم بالكرم، اذكروني بالمعذرة أذكركم بالمغفرة، اذكروني بالإرادة أذكركم بالإفادة، اذكروني بالتنصل أذكركم بالتفضل، اذكروني بالإخلاص أذكركم بالخلاص، اذكروني بالقلوب أذكركم بكشف الكروب، اذكروني باللسان أذكركم بالأمان، اذكروني بالافتقار أذكركم بالاقتدار، اذكروني بالاعتذار والاستغفار أذكركم بالرحمة والاغتفار، اذكروني بالإيمان أذكركم بالجنان، اذكروني بالإسلام أذكركم بالإكرام. اذكروني بالقلب أذكركم برفع الحجب، اذكروني ذكرًا فانيًا أذكركم ذكرًا باقيًا، اذكروني بالابتهال أذكركم بالاتصال اذكروني بالتذلل أذكركم بعفو الزلل، اذكروني بالعفاف أذكركم بمحو الاقتراف، اذكروني بصفاء السر أذكركم بخلاص البر، اذكروني بالصدق أذكركم بالرزق، اذكروني بالصفو أذكركم بالعفو، اذكروني بالتعظيم أذكركم بالتكريم، اذكروني بالتكثير أذكركم بالنجاة والتوقير، اذكروني بترك الجفا أذكركم بحفظ الوفا، اذكروني بترك الخطأ أذكركم بأنواع العطا، اذكروني بالحمد في الخدمة أذكركم بإتمام النعمة، اذكروني من حيث أنتم أذكركم من حيث أنا. قال الله تعالى ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون.

وقال رضي الله عنه في الفقه

تفقه ثم اعتزل من عبد الله بغير علم كان ما يفسده أكثر مما يصلحه خذ معك مصباح شرع ربك من عمل بما يعلم أورثه الله علم ما لم يعلم اقطع الأسباب عنك فارق الأخوان والأنام أعطها ظهر قلبك بزهد مكلف أريك جلدك وحسن أدبك كن مقاطعًا لمن سواه منفصلًا عن الأغيار والأسباب خائفًا على انطفاء مصباحك أخلص لربك أربعين صباحًا تتفجر ينابيع الحكم من قلبك على لسانك بينما هو كذلك إذ رأى نار الحق سبحانه وتعالى كما رأى موسى عليه السلام يرى نارًا من شجر قلبه يقول لنفسه وهواه وشيطانه وطبعه وأسبابه ووجوده ﴿ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ [طه: الآية ١٠] نودي القلب من السر أنا ربك فاعبدني لا تذل لغيري لا تتعلق بغيري اعرفني واجهل غيري اتصل بي وانقطع عن غيري اطلبني واعرض عن غيري أقبل إلى علمي إلى قربي إلى ملكي إلى سلطاني حتى إذا تم اللقاء جرى ما جرى فأوحى

إلى عبده زالت الحجب زالت الكدورة سكنت النفس جادت الألطاف جاء الخطاب اذهب إلى فرعون يا قلب ارجع إلى النفس والهوى والشيطان وطرقهم إليّ اهدهم إليّ قل لهم: اتبعوني أهدكم سبيل الرشاد اتصل ثم انقطع ثم اتصل ثم انقطع ثم اتصل.

وقال رضي الله عنه في الورع

الورع إشارة إلى التوقف في كل شيء وترك الإقدام عليه إلا بإذن من الشرع فإن وجد للشرع فيه فعلًا ولتناوله فيه مساغًا وإلا تركه الورع على ثلاث درجات ورع العوام وهو ورع عن الحرام والشبهة وورع الخواص وهو ورع عن كل ما للنفس والهوى فيه شهوة وورع خواص الخواص وهو ورع عن كل ما لهم فيه إرادة والورع ورعان ظاهر وهو أن لا يتحرك إلا بالله تعالى وباطن وهو أنه لا يدخل على قلبك سوى الله تعالى ومن لم ينظر في دقائق الورع لم يحصل له نفائس العطاء والورع في المنطق أشد والزهد في الرياسة أصعب والزهد أول الورع كما أن القناعة طريق الرضا. ومن قواعد الورع في الطعام واللباس فطعام المتقي ما ليس للخلق ولا للشرع عليه تبعة ولا لأحد عليه مطالبة وطعام الولي ما ليس فيه إرادة بل فضل من الله تعالى فمن لم يتحقق له الوصف الأول لم يصل إلى ما بعد على الترتيب والحلال المطلق هو الذي لا يعصي الله به ولا ينسى الله تعالى فيه.

والناس في اللباس على ثلاثة أضرب فلباس الأنبياء عليهم السلام وهو الحلال المتقدم ذكره سواء كان كتانًا أو قطنًا أو صوفًا أو غير ذلك ولباس الأولياء رضي الله عنهم ما وقع به الأمر وهو أدنى ما تستر به العورة وتدعو إليه الضرورة وليتحقق بذلك زوال أهويتهم ولباس البدلاء رضي الله عنهم ما جاد به القدر مع حفظ الحدود إما بقيراطه أو حلة بمائة دينار فلا إرادة تسمو إلى الأعلى ولا هو يكسره الأدنى بل ما تفضل به المولى، ولا يتم الورع إلا أن يرى عشرة خصال فريضة على نفسه أولها حفظ اللسان عن الغيبة لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحُجرات: الآية ١٢]، والثاني الاجتناب عن السخرية لقوله تعالى: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ [الحُجرات: الآية ١١]، والرابع غض البصر عن المحارم لقوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ [النور: الآية ٣٠]، والخامس صدق اللسان لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟﴾ [الأنعام: الآية ١٥٢] أي فاصدقوا، والسادس أن يعرف منة الله تعالى عليه كيلا يعجب بنفسه لقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ

﴿لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحُجرَات: الآية ١٧]، والسابع أن ينفق ماله في الحق ولا ينفقه في الباطل لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ﴾ [الفرقان: الآية ٦٧] أي لم ينفقوا في المعصية ولم يمنعوا من الطاعة، والثامن أن يطلب لنفسه العلو والكبر لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القَصَص: الآية ٨٣]، والتاسع المحافظة على الصلوات الخمس في مواقيتها لقوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٣٨]، والعاشر الاستقامة على السنة والجماعة لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعَام: الآية ١٥٣] انتهى.

قال الشيخ أبو العباس الخضر الحسيني الموصلي شهدت يومًا المستنجد بالله أبا المظفر يوسف ابن أمير المؤمنين المقتفى لأمر الله أبي عبد الله محمد العباسي عند الشيخ عبد القادر رضي الله عنه، فقال للشيخ: أريد شيئًا من الكرامات، قال: وما تريد، قال: تفاحًا من الغيب ولم يكن زمن التفاح فمد الشيخ رضي الله عنه يده إلى الهواء فإذا فيها تفاحتان فأعطاه واحدة وكسر الشيخ الذي بيده فإذا هي بيضاء يفوح منها المسك وكسر المستنجد بالله تعالى التي بيده فإذا فيها دودة فقال المستنجد: ما لهذه والتي بيدك كما ترى أو قال كما أرى فقال له: يا أبا المظفر هذه لمستها يد الظلم فدودت كما ترى وهذه لمستها يد الولاية فطابت رضي الله عنه وعنا به، وقال الشيخ أبو السعود الحريمي جاء أبو المظفر الحسن بن نعيم التاجر إلى الشيخ حماد الدباس رضي الله عنه في سنة إحدى وعشرين وخمسمائة وقال له: يا سيدي قد جهزت لي قافلة إلى الشام فيها سلعة بسبعمائة دينار فقال له: إن سافرت في هذه السنة قتلت. وأخذ مالك قال فخرج من عنده مغمومًا فوجد الشيخ عبد القادر رضي الله عنه وهو شاب يومئذٍ فقال له ما قاله الشيخ حماد فقال له الشيخ عبد القادر: إن سافرت تذهب سالمًا وترجع سالمًا غانمًا والضمان علي في ذلك قال فسافر إلى الشام وباع بضاعته بألف دينار ودخل إلى سقاية في حلب لقضاء حاجته ووضع الألف دينار على رف في السقاية ونسيها وخرج إلى منزله وألقى عليه النعاس فنام فرأى في منامه كأنه في قافلة وقد خرج عليها العرب وانتهبوها وقتلوا من فيها وأنه ضرب بحربة فقتل فاستيقظ فزعًا فوجد الدم أثره على عنقه وأحسن بألم الضربة وذكر ماله فقام مسرعًا إلى السقاية فوجده في مكانه فأخذه وسافر راجعًا إلى بغداد فلما دخلها قال في نفسه إن بدأت بالشيخ حماد فهو الأسن وإن بدأت بالشيخ عبد القادر فهو الذي صح كلامه فلقي الشيخ حمادًا في سوق السلطان فقال له: يا أبا المظفر ابدأ بالشيخ عبد القادر

فإنه رجل محبوب وقد سأل الله فيك سبع عشرة مرة حتى جعل الله تعالى ما قدره عليك من القتل يقظة في المنام وما قدره من ذهاب مالك وفقرك منه نسيانًا في منامك قال فجاء الشيخ عبد القادر فقال له: ابتداء، قال لك الشيخ حماد إنني سألت الله تعالى فيك سبع عشرة مرة وعزة الله تعالى لقد سألت الله فيك سبع عشرة مرة وسبع عشرة مرة وسبع عشرة مرة إلى تمام سبعين مرة حتى جعل ما قدره عليك من القتل يقظة في المنام وما قدره من ذهاب مالك نسيانًا رضي الله عنهما.

وقال الشيخ عبد اللطيف: سمعت أبي يقول سمعت الشيخ عزاز بن مستودع البطائحي رضي الله عنه يقول: قد دخل بغداد شاب عجمي شريف اسمه عبد القادر سيبرز في هيبة المقامات ويظهر في جلالة الكرامات ويسطو وبعزه في الحال ويعلو في درجة المحبة ويسلم إليه الكون وجميع من فيه من فاضل ومفضول مدة حياته وله قدم راسخ في التمكين تقدم بها في القدم ويد بيضاء في الحقائق امتاز بها في الأزل ولسان بين يدي الله تعالى عزَّ وجلَّ في حضرة القدس وإنه من أرباب المراتب التي فاتت كثيرًا من الأولياء وحكي عن جماعة من أصحاب الشيخ أحمد الرفاعي رضي الله عنهم أنهم قالوا: ذكر الشيخ عبد القادر رضي الله عنه عند شيخنا الشيخ منصور البطائحي فقال: سيأتي زمان يفتقر إليه فيه وتعلو منزلته بين العارفين ويموت وهو أحب أهل الأرض إلى الله تعالى ورسوله في ذلك الزمان فمن أدركه منكم فليعرف حرمته ويعظم أمره، وقال الشيخ محمد بن الخضر سمعت أبي يقول كنت يومًا جالسًا بين يدي سيدنا الشيخ محيي الدين عبد القادر رضي الله عنه فخطر في نفسي زيارة الشيخ أحمد الرفاعي فقال لي: يا خضر ها ترى الشيخ أحمد فنظرت فإذا إلى جانبه شيخ مهيب فقمت إليه وسلمت عليه فقال لي: يا خضر من يرى الشيخ عبد القادر سيد أولياء الله تعالى يتمنى رؤية مثلي وهل أنا إلا من رعيته ثم غاب فبعد وفاة الشيخ رحمة الله عليه انحدرت إلى أم عبيدة لأزوره فلما قدمت عليه إذا هو الشيخ الذي رأيته إلى جانب الشيخ عبد القادر رضي الله عنه في بغداد فقال لي: يا خضر ألم تكفك الأولى رضي الله عنه.

وقال الشيخ عبد الله البطائحي: انحدرت إلى أم عبيدة في حياة سيدي الشيخ محيي الدين عبد القادر وأقمت برواق الشيخ أحمد رضي الله عنه أيامًا فقال لي الشيخ أحمد يومًا: اذكر لي شيئًا من مناقب الشيخ عبد القادر وصفاته فذكرت منها شيئًا فجاء رجل في أثناء حديثي وقال لي: مه لا تذكر عندنا مناقب غير هذا وأشار إلى الشيخ أحمد رضي الله عنه فنظر إليه الشيخ أحمد مغضبًا فوقع الرجل ميتًا ثم

قال: ومن يبلغ مبلغ الشيخ عبد القادر ذاك رجل بحر الشريعة عن يمينه وبحر الحقيقة عن يساره من أيهما شاء اغترف الشيخ عبد القادر لا ثاني له في وقتنا هذا، قال: وسمعته يوصي أولاد أخته وهم الشيخ إبراهيم الأعزب وإخوته أبو الفرح عبد الرحمٰن ونجم الدين أحمد أولاد الشيخ علي الرفاعي وأكابر أصحابه وقد جاء رجل يودعه مسافرًا إلى بغداد وقال: إذا دخلتم بغداد فلا تقدموا على زيارة الشيخ عبد القادر شيئًا إن كان حيًا ولا على قبره إن كان ميتًا فقد أخذله العهد أيما رجل من أصحاب الأحوال دخل بغداد ولم يزده سلب حاله ولو قبيل الموت والشيخ عبد القادر حسرة على من لم يره نفع الله بهما ورضي عنا بهما. ونقل جامع كتاب روض الأبرار ومحاسن الأخيار إن الناقل لهذه الحكاية الشيخ عبد الله اليونيني والله أعلم بالصواب.

وقال ابن الخضر: كنت إذا دخلت على سيدنا الشيخ عبد القادر رضي الله عنه في وسط الشتاء وقوة البرد أجد عليه قميصًا واحدًا وعلى رأسه طاقية والعرق يخرج من جسده وعنده من يروح عليه بمروحة كما يكون في شدة الحر، وقال الشيخ الفاضل أبو طاهر محمد بن الحسن الأنصاري الخطيب سمعت الشيخ أبا عبد الله محمد القرشي رضي الله عنه يقول سمعت الشيخ أبا الربيع سليماني المالقي يقول سيد أهل زمانه الشيخ عبد القادر رضي الله عنه لمقام الغنا حد ومرد قال الشيخ: وفي هذه علم عظيم جمع فيها جلائل المعاني رضي الله عنه. قال أبو طاهر فقلت للشيخ القرشي رضي الله عنه الشيخ عبد القادر سيد أهل زمانه فقال نعم أما الأولياء رضي الله عنهم فهو أعلاهم وأكملهم وأما العلماء رضي الله عنه فهو أورعهم وأزهدهم وأما العارفون فهو أعلمهم وأتمهم وأما المشايخ فهو أمكنهم وأقواهم رضي الله عنهم أجمعين ورضي عنا بهم.

وسئل الشيخ أبو محمد القاسم بن عبد البصري رضي الله عنه عن الخضر عليه السلام فقال اجتمعت به وقلت له: اطرقني بأعجوبة مرت لك مع الأولياء فقال: اجتزت يومًا بساحل البحر المحيط حيث لا يرى أحد فرأيت رجلًا نائمًا ملتفًا بعباءة فوقع لي أنه ولي فركضته برجلي فرفع رأسه وقال: ما تريد، فقلت: قم للخدمة، فقال: اذهب واشتغل بنفسك يا خضر من أنا، قال: فرفعت همتي إلى الله وقلت: يا رب أنا نقيب الأولياء فنوديت أنت نقيب من يحبنا وهذا ممن نحبه فسألته الدعاء فقال: وفر الله نصيبك منه، قال الخضر ثم سرت فإذا بامرأة على كثيب قريب من السماء نائمة ملتفة بعباءة فأردت أن أركضها برجلي، وقلت: هذه امرأة ذلك فنوديت

تأدب مع من نحبه ثم انتبهت وقت العصر وقالت: الحمد لله الذي آنسني به وأوحشني من خلقه والتفتت إلي قالت: مرحبًا لو كنت تأدبت معي من غير نهي، كان أحسن ووقفت فدعت لي مثل زوجها، قال الشيخ أبو محمد فقلت للخضر: فهل لهؤلاء الأحباب رجل فرد يرجعون في كل وقت إلى أمره قال: نعم، قلت: ومن هو في وقتنا هذا، قال الشيخ عبد القادر هو فرد الأحباب وقطب الأولياء وصاحب السر رضي الله عنه وعنهم أجمعين.

وقال الشيخ أبو الحسن الجوسقي رضي الله عنه: صُمَّت أُذُناي وعميت عيناي إن كنت رأيت مثل سيدي الشيخ عبد القادر رضي الله عنه وقال الشيخ خليفة النهري ملكي تلميذ الشيخ أبي سعيد القيلوي رضي الله عنهما جزت مرة ببلاد السواد فرأيت شخصًا جالسًا في الهواء فسلمت عليه وقلت له: بم جلست في الهواء، فقال: يا خليفة خالفت الهوى وركبت التقوى فأسكنت في الهواء ثم قال: أتيت إلى زيارة الشيخ عبد القادر برباطه فرأيته جالسًا في قبة الأولياء وذلك الرجل الذي رأيته في الهواء جالس بين يديه متواضعًا فكلمه الرجل وسأله عن أحكام في الحقائق والمعارف ما فهمت منه شيئًا ثم قام الشيخ وخلوت بالرجل فقلت له: أراك هنا، فقال: هل لله ولي مصطفى أو حبيب مقرب إلا وله إلى هنا تردد واستمرار، فقلت له: ما فهمت من كلامك شيئًا، فقال لكل مقام أحكام ولكل حكم معان ولكل معنى عبارة يعبر بها عنه ولا يفهم العبارة إلا من فهم معناها ولا يدرك المعنى إلا من تحقق الحكمة ولا يتحقق الحكمة إلا من وصل إلى المقام المشار إليه فقلت: ما رأيت كتواضعك اليوم بين يدي الشيخ عبد القادر رضي الله عنه فقال: كيف لا أتواضع لمن ولاني وصرفني فقلت له: ما ولاك وفيم صرفك فقال: ولاني التقدمية على مائة غيبي ساكنين في الهواء الذين لا يراهم إلا من يشاء الله تعالى ويأذن له ثم تلا وما تتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين بين ذلك وصرفني في أحوالهم قبضًا وبسطًا رضي الله عنه.

وقال الشيخ خليفة المذكور رضي الله عنه: قد قلد الأمر إلى الشيخ عبد القادر رضي الله عنه في الأولياء وأسرارهم وما نظر إلى جهة من جهات الأرض إلا خاف سكان ذلك القطر إلى أقصر الأرض شرقًا كان أو مغربًا من هيبته ومن هيبة نظرته ويرجون الزيادة في أحوالهم من بركة نظره ويخافون سلب أحوالهم من سطوة هيبته رضي الله عنه وعنهم أجمعين.

وقال الشيخ بقا بن بطو النهر ملكي رضي الله عنه جاء الشيخ عبد الله ومعه شاب ودخل على الشيخ عبد القادر رضي الله عنه، وقال له: يا سيدي ادع له فإنه ولدي ولم يكن ولده بل كان على سريرة غير صالحة فغضب الشيخ رضي الله عنه وقال: بلغ من أمركم معي إلى هذا الحد وقام ودخل داره فوقع الحريق في أرجاء بغداد من وقته وكلما طفيء مكان اشتعلت النار في مكان آخر ورأيت البلاء نازلًا على بغداد كقطع الغمام بسبب غضب الشيخ رضي الله عنه فأسرعت في الدخول فوجدته على حاله فجلست وقلت: يا سيدي ارحم الخلق فقد هلك الناس فسكن غضبه فرأيت البلاء قد انكشفت فانطفأ الحريق كله في الحال رضي الله عنه. وقال الشيخ عمر البزار توجهت مع سيدي الشيخ محيي الدين عبد القادر رضي الله عنه إلى الجامع يوم الجمعة فلم يسلم عليه أحد فقلت في نفسي نحن في كل جمعة لا نصل إلى الجامع إلا بمشقة من ازدحام الناس على الشيخ فلم يتم كلامي في خاطري حتى أهرع الناس إلى السلام عليه فنظر إلي متبسمًا فقلت في نفسي: ذلك الحال خير من هذا الحال فالتفت إلي مسابقًا لخاطري وقال: يا عمر أنت طلبت هذا أما علمت أن قلوب الناس بيدي إن شئت صرفتها عني وإن شئت جذبتها إلي رضي الله عنه. وقال الشريف أبو الفتح الهاشمي المقري استدعاني الشيخ محيي الدين عبد القادر رضي الله عنه للقراءة فلما قرأت بكى وقال: والله لأطلبنك من الله تعالى فقام رجل من الأولياء رضي الله عنهم، وقال له: يا سيدي رأيت في النوم رب العزة سبحانه وتعالى وقد فتحت أبواب الجنة وقد نصب لك كرسي وقيل لك تكلم فقلت: إذا حضر الشريف المقري فقيل قد حضر فقلت: الآن أتكلم رضي الله عنه. وقال الشيخ العارف أبو القاسم محمد بن أحمد بن الجهني كنت جالسًا تحت كرسي الشيخ محيي الدين عبد القادر رضي الله عنه وكان النقباء يجلسون في مراقي الكرسي على كل مرقاة اثنان وكان لا يجلس على الأول إلا صاحب حال وكان يجلس تحت كرسيه رجال كأنهم الأسد هيبة ولقد استغرق مرة على الكرسي حتى انحلت طية من عمامته وهو لا يدري فألقى الحاضرون عمائمهم وطواقيهم فلما فرغ من كلامه أصلح عمامته وقال: يا أبا القاسم رد على الناس عمائمهم وطواقيهم ففعلت وتخلف معي عصابة لا أدري لمن هي ولا بقي لأحد في المجلس شيء فقال لي: الشيخ أعطني إياها فأعطيته فوضعها على كتفه الأيمن ثم نظرت فلم أرها فبهت فلما نزل على الكرسي توكأ على كتفي وقال: يا أبا القاسم لما وضع أهل المجلس عمائمهم وضعت أخت لنا بأصبهان عصابتها فلما رددت على الناس وجعلتها على كتفي مدت يدها من أصبهان وأخذتها رضي الله عنه وعنها.

وقال الشيخ الإمام العالم عبد الجبار ابن سيدنا الشيخ محيي الدين عبد القادر رضي الله عنهما: كانت أمي إذا دخلت مكانًا مظلمًا أضاءت عليها شمعة تستضيء بها فدخل والدي عليها مرة فرأى الشمعة فحين وقع نظره عليها خمدت فقال لها: هذا النور شيطان كان يخدمك والآن صرفته عنك وقد أبدلته لك نورًا رحمانيًّا وكذلك أصنع بكل من انتمى إلي أو كان لي به عناية فكانت إذا دخلت بعد ذلك مكانًا رأت فيه نورًا مثل نور القمر يجلي المكان رضي الله عنه، وقال عبد الله الجبائي لقيت بهمدان رجلًا من أهل دمشق اسمه طريف قال: لقيت بشرًا المفرضي في طريق نيسابور ومعه أربعة عشر حملًا سكرًا فقال: نزلنا في برية فقراء مخوفة لا يقف الأخ لأخيه فيها من الخوف فلما حملت الجمال من أول الليل فقدت أربعة جمال محملة فطلبتها فلم أجدها فانقطعت عن القافلة فتعصب لي الجمال ووقف معي فلما انشق الفجر ذكرت الشيخ عبد القادر رضي الله عنه وكان قال لي: إن وقعت في شدة فنادني فإنها تكشف عنك فقلت: يا شيخ عبد القادر جمالي مرت ونظرت إلى مطلع الفجر ضوء الفجر فرأيت رجلًا على رابية وعليه ثياب بيض وهو يشير إلي بكمه فلما صعدت التل فلم أجد أحدًا ثم رأيت الأربعة جمال بأحمالها تحت التل باركة فأخذتها ولحقنا القافلة.

وقال أبو الغنائم الحسيني رحمة الله تعالى: كنت فوق سطح مدرسة شيخنا الشيخ محيي الدين عبد القادر بين المغرب والعشاء والوقت صائف ملقى على ظهري وسيدي الشيخ رضي الله عنه قدامي مستقبل القبلة على السطح فرأيت في الجو رجلًا مارًا في الهواء مرور السهم على رأسه عمامة لطيفة لها عذبة بين كتفيه وعليه ثوب أبيض وفي وسطه فوطة فلما قارب رأس الشيخ رضي الله عنهما نزل كالعقاب على الصيد حتى جلس بين يديه وسلم عليه ثم ذهب في الهواء حتى غاب عن بصري فقمت وقبلت يدي الشيخ وسألته عنه فقال هو من رجال الغيب السيارة عليهم سلام الله تعالى ورحمته وبركاته وأزكى تحياته.

وقال الشيخان أبو عمر وعثمان الصرفيني وأبو محمد عبد الحق الحريمي: كنا بين يدي الشيخ عبد القادر رضي الله عنه بمدرسته يوم الأحد ثالث صفر سنة خمس وخمسين وخمسمائة فقام وتوضأ للصلاة على قبقاب وصلى ركعتين فلما سلم صرخ صرخة عظيمة وأخذ فردة قبقاب ورمى بها في الهواء فغابت عن أبصارنا ثم صرخ صرخة أخرى ورمى بالفردة الثانية فغابت أيضًا عن أبصارنا ثم جلس ولم يجسر أحد منا على سؤاله فلما كان بعد ثلاثة أيام مع عشرين يومًا قدمت قافلة من بلاد العجم

وقالوا: معنا للشيخ نذر فاستأذناه فأذن لهم وقال: خذوه منهم فأعطونا ثيابًا من حرير أو خزّ وذهبًا وقبقاب الشيخ الذي رمى به فقلنا لهم: من أين لكم هذا القبقاب؟ قالوا: بينما نحن سائرون يوم الأحد ثالث صفر خرج علينا عرب لهم مقدمان فنهبوا أموالنا وقتلوا منا جماعة ونزلوا واديًا يقتسمون أموالنا فقلنا: لو جعلنا للشيخ عبد القادر رضي الله عنه في هذا الوقت شيئًا من أموالنا إن سلمنا فما استتم كلامنا وذكرناه وجعلنا له شيئًا حتى سمعنا صرختين عظيمتين ملأتا الوادي ورأيناهم مذعورين فظننا أن قد جاءهم أحد يأخذهم فجاء إلينا بعضهم وقالوا لنا: تعالوا خذوا أموالكم وانظروا ما ذهلنا فأتوا بنا إلى مقدميهم فوجدناهما ميتين وعند كل واحد منهما فردة من القبقاب مبتلة بماء فردوا علينا أموالنا وقالوا لنا: إن لهذا الأمر نبأ عظيمًا الشيخ رضي الله عنه.

وقال الشيخ القدوة ومحمد بن قائد الأواني: مررت بمجلس عبد القادر رضي الله عنه حدأة طائرة في يوم شديد الريح فصاحت فشوشت على الحاضرين فقال الشيخ رضي الله عنه: يا ريح خذي رأس هذه الحدأة فوقعت لوقتها ميتة رأسها في ناحية وهي في ناحية فنزل الشيخ رضي الله عنه من الكرسي وأخذ رأسها بيده ومر بيده الأخرى عليها وقال: بسم الله الرحمٰن الرحيم فحييت وطارت بإذن الله تعالى والناس ينظرون ذلك رضي الله عنه.

وقال سيدنا وشيخنا وقدوتنا إلى الله تعالى الشيخ محيي الدين عبد القادر رضي الله عنه: أول ما حججت من بغداد وأنا شاب على قدم التجريد وحدي فلما كنت عند المنارة المعروفة بأم القرون لقيت الشيخ عدي بن مسافر رضي الله عنه وحده وهو شاب فقال لي: إلى أين، فقلت: إلى مكة المشرفة، فقال: هل لك في الصحبة، فقلت له: إني على قدم التجريد، قال وأنا على قدم التجريد فسرنا جميعًا فلما كنا ببعض الطريق إذا نحن بجارية حبشية نحيفة البدن مبرقعة فوقفت بين يدي وحدقت النظر في وجهي وقالت: من أين أنت يا فتى، قلت: من بغداد من العجم، قالت: أتعبتني اليوم، فقلت: ولم قالت إني كنت الساعة في الحبشة فشهدت الله تعالى على قلبك ومنحك من فضله بما لم يمنح بمثله غيرك فيما أعلم فأحببت أن أعرفك ثم قالت: أنا اليوم أصحبكما وأفطر الليلة معكما قلنا حبًا وكرامة فجعلت تمشي في جانب الوادي ونحن نمشي في الجانب الآخر فلما كان وقت المغرب وحل الأكل وإذا نحن بطبق نازل من الجو فلما استقر بين أيدينا وجدنا فيه ستة أرغفة وخلًا وبقلًا فقالت: الحمد لله الذي أكرمني وأكرم ضيفي أنه لذلك أهل في كل ليلة ينزل علي

رغيفان والليلة ستة إكرامًا لأضيافي فأكلنا كل واحد رغيفين ثم نزل علينا بعد ذلك أباريق من ماء فشربنا منها ماء لا يشبه ماء الأرض له لذة وحلاوة ثم ذهبت عنا في ليلتها قال: وأتينا مكة المشرفة فلما كنا في الطواف من الله تعالى على الشيخ عدي بمنازلة من أنواره فغشي عليه حتى يقول القائل إنه مات وإذا بتلك الجارية واقفة على رأسه تقلبه وتقول له: يحييك الذي أماتك سبحان الذي لا تقوم الحادثات لتجلّي نور جلاله إلا بتثبيته ولا تستقر الكائنات لظهور صفاته إلا بتأييده بل اختطفت سبحات قدسه أبصار العقول وأخذت بهجات بهائه ألباب الفحول ثم إن الله تعالى وله الحمد من علي بمنازلة من أنواره في الطواف وسمعت أيضًا خاطبًا من باطني وقال لي: فيما قال لي في آخر ما قال: يا عبد القادر اترك التجريد الظاهر والزم التفريد من التوحيد وتجريد التفريد فسنريك من آياتنا عجبًا فلا تشبه مرادنا بمرادك تثبت قدمك بين يدينا ولا ترى فيّ للوجود تصريفًا لسوانا يدُم لك شهودنا واجلس لنفع الناس فإن خاصّة من عبادنا سنوصلهم على يدك إلى قربنا، فقالت لي الجارية: يا فتى ما أدري ما شأنك اليوم إنه ضربت علينا خيمة من نور وأحاطت بك الملائكة عليهم السلام إلى عنان السماء وشخصت الأبصار إليك من الأولياء في مقاماتهم وامتدت إليّ مثل ما أعطيت الآمال. ثم ذهبت وغابت فلم أرها بعد ذلك رضي الله عنهم أجمعين.

قال الشيخ أبو محمد صالح بن ويرزجان الزكالي قال لي سيدي الشيخ أبو مدين رضي الله عنه: سافر إلى بغداد وأن الشيخ عبد القادر يعلمك الفقر، قال: فسافرت إلى بغداد فلما رأيته رأيت رجلًا ما رأيت أكثر هيبة منه فأجلسني في خلوة بابه عشرين يومًا ثم دخل علي فقال: يا صالح انظر إلى هنا وأشار إلى جهة القبلة وقال: ما ترى؟ قلت: الكعبة، قال: انظر إلى هنا. وأشار إلى جهة المغرب فنظرت فقال: ما ترى؟ فقلت: شيخي أبا مدين. ثم قال: أين تريد إلى الكعبة أو إلى المغرب؟ فقلت: بل إلى شيخي أبي مدين، قال: في خطوة أو كما جئت؟ قلت: بل كما جئت، قال: هو أتم. ثم قال لي: يا صالح إذا أردت الفقر فإنك لن تناله حتى ترقى في سلّمه، وسلّمه التوحيد وملاك التوحيد محو كل متلوح من المحدثات بعين السرقات يا سيدي أريد أن تمدّني منك بهذا الوصف فنظر إليّ نظرة فتفرقت عن قلبي جواذب الإدارة كما يتفرق ظلام الليل لهجوم النهار وأنا أنفق من تلك النظرة رضي الله عنه.

وقال الشيخ عمر البزار: كنت مرة جالسًا بين يدي الشيخ رضي الله عنه في خلوته فقال لي: يا بني احفظ ظهري أن يقع عليه قط، قال: فقلت في نفسي: من

أين يأتي القط إلى هنا ولا كوة في السقف فلم أتم كلامي حتى سقط على ظهري قط فضرب بيده في صدري فأشرق في قلبي نور بقدر نور الشمس ووجدت الحق في وقتي وأنا إلى الآن في زيادة من ذلك النور.

وسئل الشيخ عبد القادر رضي الله عنه عن صفات الموارد الإلٰهية والطوارق الشيطانية فقال الوارد الإلٰهي: لا يأتي إلا باستدعاء ولا يذهب بسبب ولا يأتي على نمط واحد ولا في وقت مخصوص والطارق الشيطاني بخلاف ذلك غالبًا، وسئل عن المحبة فقال: هي تشويش في القلوب يقع من المحبوب فتصير الدنيا عليه كحلقة خاتم أو مجمع ما تم والحب سكر لا صحو معه وخلوص إلى المحبوب بكل وجه سرًا وعلانية بإيثار اختيار وباردة خلقه لا باردة كلفة والحب العمى عن غير المحبوب غيرة عليه والعمى عن المحبوب هيبة له فهو عمى كله والمحبون سكارى لا يصحون إلا بمشاهدة محبوبهم مرضى لا يشفون إلا بملاحظة مطلوبهم حيارى لا يأنسون بغير مولاه ولا يلهجون إلا بذكره ولا يجيبون غير داعية وفي هذا يقول مجنون ليلى:

لقد لامني في حب ليلى أقاربي أخي وابن عمي وابن خالي وخاليا

وبقية الأبيات مشهورة لا حاجة لإثباتها ثم أنشد رضي الله عنه في هذا المعنى هذه الأبيات:

ولما وردنا ماء مدين نستقي
على ظمأ منا إلى منهل النجوى
نزلنا على حي كرام بيوتهم
مقدسة لا هند فيها ولا علوى
ولاحت لنا نار على البعد أضرمت
وجدنا عليها من نحب ومن نهوى
سقانا فحيانا فأحيى نفوسنا
وأسكرنا من خمر إجلاله عفوا
مدامًا عليها العهد أن لا يسقها
سوى مخلص في الحب خال من الدعوى
مزجنا بها التقوى لتقوى قلوبنا
فيا من رأى خمرًا يمازجها التقوى

فهمنا فهمنا في مدامة وجدنا
وسرنا نجر الذيل من سكرنا زهوا
شربنا فبحنا فاستبيحت دماؤنا
أيقتل بواح بسر الذي يهوى
وما السر في الأحرار إلا وديعة
ولكن إذا رق المدام فمن يقرى

وسئل رضي الله عنه عن التوحيد فقال: إشارات سر الضمائر وخفاء سر السرائر عند ورود الحضرة ومجاوزة القلب منتهى الأفكار وارتفاعه على أعلى درجات الوصال وتخلله أستار التعظيم وتخطيه إلى التقرب بأقدام التجريد وترقبه إلى التداني يسعى التفريد مع تلاشي الكونين وتعطل الملكين وخلع النعلين واقتباس النورين وفناء العالمين تحت لمعان أنوار بروق الكشف من غير عزيمة متقدمة.

وسئل رضي الله عنه عن التجريد فقال: هو تجريد السر عن التدبر بثبات الكون عن طلب المحبوب وتعريه في التنزل بلباس الطمأنينة على مفارقة المحدود والرجوع من الخلق إلى الحق منيبًا.

وسئل رضي الله عنه عن المعرفة فقال هي الأطلاع على معاني خفايا مكامن المكنونات وشواهد الحق في جميع المشيئات بتلميع كل شيء منها على معاني وحدانيته واستدراك علم الحقيقة في فناء كل فإن عند إشارة الباقي إليه بتلويح هيبة الربوبية وتأثير أثر البقاء فيما أشار إليه الباقي بتلميع جلال الإلٰهية مع النظر بعين القلب.

وسئل رضي الله عنه عن الهمة فقال: أن يتعرى بنفسه عن حب الدنيا وبروحه عن التعلق بالعقبى وبقلبه عن إرادة مع إرادة المولى ويتجرد بسره عن الإشارة إلى الكون ولو بلمحة أو طرفة.

وسئل رضي الله عنه عن الحقيقة فقال هي التي لا ينافيها مضادها ولا يقوم لها منافيها بل تفنى عن إرشارتها أضدادها ويبطل عند مجاراتها منافيها.

وسئل رضي الله عنه عن أعلى درجات الذكر فقال: هو ما تأثر في الفؤاد عن إشارة الحق عزَّ وجلَّ وقت الاختيار إليه ببقاء العناية السابقة فهذا ذكر دائم دائب واصب لا يقدح فيه نسيان ولا يكدره غفلة وكان السكون والنفس والخطرة مع هذا

الوصف ذاكرًا وهو الذكر الكثير الذي أشار إليه الحق سبحانه وتعالى في تنزيله وأحسن الذكر ما هيجته الأخطار الواردة من الملك الجبار في محال الأسرار.

وسئل رضي الله عنه عن الشوق فقال: أحسن الأشواق ما كان عن مشاهدة وهو لا يفتر عن اللقاء ولا يسكن عن الرواية ولا يذهب عن الدنو ولا يزال عن الإنس بل كلما ازداد لقاء ازداد شوقًا ولا يصح الشوق حتى يتجرد عن علله وهي موافقة روح أو متابعة همة أو حفظ نفس فيكون شوقًا مجردًا عن الأسباب فلا يدري السبب الذي أوجب له ذلك لأنه دائمًا يشاهده ويتشوق إلى المشاهدة مع المشاهدة.

وسئل رضي الله عنه عن التوكل فقال: هو اشتغال السر بالله تعالى عن غيره فينسى ما يتوكل عليه لأجله ويستغني به عما سواه فيرتفع عن حشمة الفنا في التوكل والتوكل استشراف السر بملاحظة عين المعرفة إلى خفي غيب المقدورات واعتقاد حقيقة اليقين بمعاني مذاهب المعرفة لأنها مختومة لا يقدح فيها تناقض اليقين.

وسئل أيضًا رضي الله عنه عن التوكل فقال: التوكل حقيقة كحقيقة الإخلاص وحقيقة الإخلاص ارتفاع الهمة عن طلب الأعواض على الأعمال فذلك التوكل هو الخروج عن الحول والقوة مع السكون إلى رب الأرباب سبحانه وتعالى ثم قال رضي الله عنه: يا غلام كم يقال لك ولا تسمع وكم تسمع ولا تفهم وكم تفهم ولا تعمل وكم تعمل ولا تخلص ولا تغيب في إخلاصك ووجودك.

وسئل رضي الله عنه عن الإنابة فقال: الإنابة طلب مجاورة المقامات والحذر من الوقوف على الدرجات ثم الترقي في أعلى المكنونات والاعتماد بالهمم إلى صدور مجالس الحضرة ثم الرجوع على الكل إلى الحق سبحانه وتعالى بعد حضور الحضرة ومشاهدة هذه المحاضرة والإنابة والرجوع منه إليه حذرًا ومن غيره إليه رغبًا ومن كل تعلق إليه رهبًا.

وسئل رضي الله عنه عن التوبة فقال: التوبة نظر الحق تعالى إلى عنايته السابقة القديمة لعبده وإشارته بتلك العناية إلى قلب عنده وتجريده إياه بالشفقة مجتذبًا إليه وقابضًا فإذا كان ذلك كذلك انجذب القلب إليه عن همة فاسدة وتابعه الروح ووافقه القلب والعقل وصحت التوبة وصار الأمر كله لله تعالى.

وسئل رضي الله عنه عن الدنيا فقال: أخرجها من قلبك إلى يدك فإنها لا تغرك.

وسئل رضي الله عنه عن البكاء فقال: ابك له وابك منه وابك عليه.

وسئل رضي الله عنه عن التصوف فقال: الصوفي من جعل ضالة مراده مراد الحق منه ورفض الدنيا فخدمته ووافقته أقسامه وحصل له في الدنيا قبل الآخرة مرامه فعليه من ربه سلامه.

وسئل رضي الله عنه عن الفرق بين التعزز والتكبر فقال: التعزز ما كان لله وفي الله ويفيد ذل النفس وارتفاع الهمة إلى الله تعالى والتكبر ما كان للنفس وفي الهوى ويفيد هيجان الطبع وقهره الإرادة عن الله عزّ وجلّ والكبر الطبيعي أسهل من الكبر المكتسب.

وسئل رضي الله عنه عن الشكر فقال: حقيقة الشكر الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع ومشاهدة المنة وحفظ الحرمة على وجه معرفة العجز عن الشكر وينقسم أقسامًا شكر باللسان وهو الاعتراف بالنعمة وبنعمة الاستكانة وشكر بالأركان وهو الاتصاف بالخدمة والوقار وشكر بالقلب وهو الاعتكاف على بساط الشهود بإدامة حفظ الحرمة ثم الترقي بعد حضور هذه المشاهدة إلى الغيبة في رؤية المنعم عن رؤية النعمة والشاكر الذي يشكر على الموجود والشكور الذي يشكر على المفقود والحامد الذي يشهد المنع عطاء والضر نفعًا ثم يستوي عنده الوصفان والحمد الذي يستنفد المحامد شهود الكمال بوصف الجمال ونعت الجلال بعين المعرفة على بساط القرب.

وسئل رضي الله عنه عن الصبر فقال: الصبر هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب وتلقي أقضيته بالرحب والسعة على أحكام الكتاب والسنة وينقسم أقسامًا صبر لله تعالى وهو الثبات على أداء أمره وانتهاء نهيه وصبر مع الله تعالى وهو السكون تحت جريان قضائه وفعله فيك وإظهار الغنى من حلول الفقر من غير تعبيس وصبر على الله تعالى وهو الركون إلى وعده ووعيده في كل شيء والمسير من الدنيا إلى الآخرة سهل على المؤمن وهجران الخلق في حب الحق شديد والمسير من النفس إلى الله تعالى أشد والصبر مع الله أشد والفقير الصابر أفضل من الغني الشاكر والفقير الشاكر أفضل منهما والفقير الصابر الشاكر أفضل منهم وما خطب البلاء إلا من عرف ثوابه.

وسئل رضي الله عنه عن حسن الخلق فقال: هو أن لا يؤثر فيك جفاء الخلق بعد مطالعتك للحق واستصغار نفسك وما منها معرفة بعيوبها واستعظام الخلق وما منهم نظرًا إلى ما أودعوا من الإيمان والحكم وهو أفضل مناقب العبد وفيه تظهر جواهر الرجال.

وسئل رضي الله عنه عن الأخذ والرد فقال الأخذ مع وجود الهوى من غير الأمر عناد وشقاق والأخذ مع عدم الهوى وفاق واتفاق وتركه رياء ونفاق.

وسئل رضي الله عنه عن الصدق فقال: الصدق في الأقوال والصدق في الأعمال إقامتها على رؤية الحق سبحانه وتعالى والصدق في الأحوال مضيها بإقامة الخواطر للحق فلا يكون مكدرها مطالعة رقيب ولا منازعة بقية.

وسئل رضي الله عنه عن الفناء فقال: هو أن يطلع الحق سر وليه بأدنى تجل فيتلاشى الكون ويفنى الولي تحت تلك الإشارة وفناؤه في ذلك بقاؤه لكنه يبقى تحت إشارة الباقي فإن كانت إشارة الحق تغنيه فإن تجليته تبقيه فكان يفنيه ثم يبقيه به.

وسئل رضي الله عنه عن البقاء فقال: لا يكون إلا مع اللقاء الذي ليس معه فناء ولا يكون معه انقطاع وهذا لا يكون إلا كلمح البصر أو هو أقرب وعلامة أهل البقاء أن لا يصحبهم في وصفهم به شيء فانٍ لأنهما ضدان.

وسئل رضي الله عنه عن الوفاء فقال: هو الرعاية لحقوق الله تعالى في الحرمان والمحافظة على حدود الله تعالى قولًا وفعلًا والمسارعة إلى مرضاته بالكلية سرًا وجهرًا.

وسئل رضي الله عنه عن الرضا فقال: هو ارتفاع التودد والاكتفاء بما سبق في علم الله تعالى في أزله والرضا بما سبق في القدر.

وسئل رضي الله عنه عن الإرادة فقال هو تكرار الفكر في الفؤاد.

وسئل رضي الله عنه عن العناية فقال: أزلية وهي من صفات الله تعالى لم يظهرها لأحد ولا يوصل إليها بوسيلة ولا يقدح فيها بسبب ولا يفسدها علة ولا يكدرها شيء وهي سر الله تعالى مع الله لا يطلع عليه أحد ولا يجد الكون إليه سبيلًا والعناية سابقة غير مؤقتة أهل الله تعالى لها من شاء من خلقه وجعل التأهل والعناية على المعرفة ثم جعل الاختيار على رؤية التأهيل والمعرفة على رؤية العناية ووضع ذكر الاختيار إلى الخلق ثم جعل العطاء على رؤية الاختيار ثم جعل التوفيق على رؤية العطاء ثم جعل القبول على رؤية التوفيق ثم جعل الثواب على رؤية القبول وعلامة على من له عناية الأسر ثم الحبس ثم التقييد ثم يسلبه عن الخلق.

وسئل رضي الله عنه عن الوجود فقال: هو أن تشغل الروح بحلاوة الذكر والنفس بلذة التطريب ويبقى السر فارغًا للحبيب خاليًا من الرقيب للحق مع الحق

والوجود وشراب يسقيه المولى لوليه على منبر كرامته فإذا شرب طاش فإذا طاش طار قلبه بأجنحة الإنس في رياض القدس فيقع في بحر الهيبة فيصرع فلذلك يغشى على الواجد.

وسئل رضي الله عنه عن الخوف فقال: الخوف على أنواع والخوف للمذنبين والرهبة للعابدين ثم الخشية للعالمين والوجل للمحبين والهيبة للعارفين فخوف المذنبين من العقوبات وخوف العابدين من ثواب العبادات وخوف العالمين من الشرك الخفي في الطاعات وخوف المحبين فوات اللقاء وخوف العارفين الهيبة والتعظيم وهو أشد الخوف لأنه لا يزول أبدًا وسائر هذه الأنواع تسكن إذا قوبلت بالرحمة واللطف.

وسئل رضي الله عنه عن الرجاء فقال: الرجاء في حق الأولياء أن يكون حُسْن الظن بالله تعالى لا لرجاء الطمع في رحمة الله، ولا ينبغي للولي أن يكون بلا رجاء، والرجاء أن يكون حُسْن ظنه بالله تعالى لا لطمع في نفع ولا لدفع سوء لأن أهل الولاية قد علموا أنه فرغ لهم عن جميع ما يحتاجون إليه فاستغنوا بعلمهم من حُسْن الفناء فحُسْن الظن إذن فضل من الرجاء ولا يكون رجاء بلا خوف لأن مَن رجا أن يصل إلى شيء خاف أن يفوته، وحُسْن الظن بالله تعالى معرفته بجميل صفاته ثم أمل به من حيث هو لا من حيث العبد علمًا منه بأن من صفاته محسن كريم رحيم لطيف رؤوف، وحُسْن الظن بالله تعالى تعليق الهِمَم على ما سبق من نظر العناية ونظر القلب إلى الربّ بلا تطميع للقلب ولا تمنيته الأرواح وطمع العامة نهايات أكثر أسبابه صدق عليه اسم الرجاء ومتى انخرمت عليه أكثر أسبابه فاسم الطمع أولى به من اسم الرجاء والرجاء بلا خوف أمن والخوف بلا رجاء قنوط قال النبي ﷺ: «لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا».

وسئل رضي الله عنه عن الحياء فقال: هو أن يستحيي العبد أن يقول: الله ما لم يقم بحقه وأن يتوجه إلى الله بالمحارم وأن يتمنى على الله ما لا يستحقه عليه وأن يترك المعاصي حياء لا خوفًا وأن يقضي الطاعات وأن يرى الحق مطلعًا عليه فيستحيي منه وقد يتولد الحياء من ارتفاع الحُجُب بين القلب وبين الهيبة.

وسئل رضي الله عنه عن المشاهدة فقال: هي العماء عن الكونين بعين الفؤاد ومطالعة الحق بعين المعرفة واطّلاع القلوب بصفاء اليقين إلى ما أخبر به من الغيوب.

وسئل رضي الله عنه عن معنى القرب فقال: هو طيّ المسافات بلطف المداناة.

وسئل رضي الله عنه عن الشُكْر فقال: هو غليان القلوب عن ذكر الحبيب والخوف اضطراب القلوب مما علمت سطوة المحبوب واليقين تحقيق الأسباب والأسرار بأحكام المغيبات والاتصال بالمحبوب والانقطاع عما سواه وإصلاح الاستئناس والوحشة والغيبة في الذكر وأن ترى نفسك في حال الذكر غائبًا عن غيره وترك الحرمة المشاهدة والتواجد في حال اللقاء والمشاهدة تعجز عن الفهم والغيبوبة مع المحبة لا تتصور وإذا قويت الإرادة واتصل بها الذكر واشتد المرام فولدت منها المحبة وإذا احتوى المراد على القلب صار كله ملكه فإذا ملكه سقطت الإرادة منه غليره وكان سقوط ملك المملوك منه حقيقة وهذه الحالة خالصة ومتى ذكرته فأنت محبّ ومتى سمعت ذكره لك فأنت محبوب والخلق حجابك من نفسك ونفسك حجابك عن ربك والفقر موت والناس يطلبون أن يعيشوا فيه والقال تقتدي به العوام والحال تقتدي به الخواص وإذا باسطك انبسط وتنقلب رخصتك عزيمة وعزيمتك دلالة والرخصة لناقص الإيمان والعزيمة لكامل الإيمان والملك للفانين.

وسئل رضي الله عنه عن معنى اسم الفقير فقال ف ق ي ر ثم أنشد:

فـاه الـفـقـيـر فـنـاؤه فـي ذاتـه ... وفـراغـه مـن نـعـتـه وصـفـاتـه
والـقـاف قـوة قـلـبـه بـحـبـيـبـه ... وقـيـامـه لله فـي مـرضـاتـه
والـيـاء يـرجـو ربـه ويـخـافـه ... ويـقـوم بـالـتـقـوى بـحـق تـقـاتـه
والـراء رقـة قـلـبـه وصـفـاؤه ... ورجـوعـه لله عـن شـهـواتـه

ثم قال رضي الله عنه ينبغي للفقير أن يكون جوّال الفكر جوهري الذّكر جميل المنازعة قريب المراجعة لا يطلب من الحق إلا الحق ولا الصدق أوسع الناس صدرًا وأذل الناس نفسًا ضحكه تبسمًا واستفهامه تعلمًا مذكرًا للغافل معلمًا للجاهل لا يؤذي من يؤذيه ولا يخوض فيما لا يعنيه كثير العطاء قليل الأذى ورعًا عن المحرمات متوقفًا عن الشبهات غوثًا للغريب أبًا لليتيم بِشْره في وجهه حزنه في قلبه مشغولًا بفكره مسرورًا بفقره لا يكشف سرًا ولا يهتك سترًا لطيف الحركة نامي البركة حلو المشاهدة سخيًا بالفائدة طيب المذاق حسن الأخلاق لين الجانب جوهرًا سيالًا ذائبًا طويل الصمت جميل النعت حليمًا إذا جهل عليه صبورًا على من أساء إليه ولا يكن عنده جمود ولا لنار الحق خمود لا بنموم ولا حسود ولا عجول ولا حقود يبجل الكبير ويرحم الصغير أمينًا على الأمانة بعيدًا عن الخيانة ألفه التقي خلقه الحياء كثير الحذر مداوم السهر قليل التدلّل كثير التحمّل قليلًا بنفسه كثيرًا بإخوانه حركاته أدب وكلامه

عجب لا يشمت بمصيبة ولا يذكر أحدًا بغيبة وقورًا صبورًا رضِيًا شكورًا قليل الكلام كثير الصلاة والصيام صدوق اللسان ثابت الجنان يحتفل بالضيفان ويطعم ما كان لمن كان وتأمن بوائقه الجيران لا سَبابًا ولا مغتابًا ولا عَيابًا ولا ذمَامًا ولا عجولًا ولا غفولًا ولا حسودًا ولا حقودًا ولا كنودًا له لسان مخزون وقلب محزون وقول موزون وفكر يجول فيما كان وما يكون. وقال محمد بن الخضر الحسيني سمعت أبي يقول: كان سيدنا الشيخ عبد القادر يتكلم في مجلسه بأنواع العلوم لا يبيت ما يقول وكان إذا صعد الكرسي لا يبصق أحد ولا يمتخط ولا يتنحنح ولا يتكلم ولا يقدم هيبة له إلى وسط المجلس يقول مضى القال وعطفنا بالحال فتضطرب الناس اضطرابًا شديدًا ويتداخله الحال والوجد. وكان يعد من كراماته أن أقصى من في مجلسه يسمع صوته كما يسمعه أدناهم على كثرتهم. وكان يتكلم على خواطر أهل المجلس ويواجههم بالكشف وكان إذا قام فوق الكرسي يقوم الناس لجلالته وإذا قال اسكتوا سكتوا حتى لم يسمع منهم سوى أنفاسهم هيبة له وكان الناس يضعون أيديهم في مجلسه فتقع على رجال بينهم يدركونهم باللمس ولا يرونهم ويسمعون وقت كلامه في فضاء حسًا وصياحًا وربما سمعوا وجبة ساقط من الجو إلى الأرض في المجلس وذلك رجال الغيب وغيرهم.

وقال الشيخ أبو سعيد القيلوي، وقيل أبو سعد رحمه الله تعالى: رأيت رسول الله ﷺ وغيره من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين في مجلس الشيخ عبد القادر غير مرة وأن السيد ليشرف عبده وأن أرواح الأنبياء عليهم السلام لتجول في السمٰوات والأرض جولان الرياح في الأفق ورأيت الملائكة عليهم السلام يحضرون طوائف بعد طوائف ورأيت رجال الغيب يتسابقون إلى مجلسه ورأيت أبا العباس الخضر عليه السلام يكثر من حضوره فسألته فقال: من أراد الفلاح فعليه بملازمة هذا المجلس انتهى.

وقصد سلطان العجم مرة بغداد بجيش عرمرم وعجز الخليفة عنه فجاء إلى الشيخ عبد القادر يستغيث به فقال الشيخ للشيخ علي بن الهيتي مر على هؤلاء أن يرحلوا عن بغداد قال: سمعًا وطاعة، فقال لخادمه: اذهب إلى جيش العجم وائته إلى آخره تجد مئزرًا مرفوعًا على عصا كالخيمة وتحته ثلاثة رجال وقل لهم يقول لكم علي بن الهيتي ارحلوا عن بغداد فإذا قالوا لك: إنا ما أتيناها إلا بأمر فقل لهم: وأنا أيضًا ما جئتكم إلا بأمر فانصرف الخادم حتى أتاهم وأخبرهم وأخبروه فمد أحدهم يده

إلى تلك العصا فألقاها وطوى المئزر وانصرفوا نحو العجم فإذا الجيش قد ألقى الخيم ورجع من حيث جاء رضي الله عنهما.

وقال الشيخ محمد بن الهروي: حضرت يومًا مجلس سيدنا الشيخ عبد القادر رحمة الله عليه فتكلم حتى استغرق في كلامه، وقال: لو أراد الله تعالى أن يبعث طيرًا أخضر يسمع كلامي لفعل فلم يتمّ كلامه حتى جاء طير أخضر حسن الصورة ودخل في كمّه وما خرج. وقال الجبائي رحمه الله تعالى: قال الشيخ عبد القادر رضي الله عنه: قدم بغداد رجل يقال له الشيخ يوسف الهمداني وكان يقال له القطب ونزل في رباط فلما سمعت به مشيت إلى ذلك الرباط فلم أره فقيل لي هو في السرداب، قال: فنزلت إليه فلما رآني قام إليّ وأخذ بيدي وأجلسني إلى جانبه ففرسني وذكر لي جميع أحوالي وحلّ لي جميع ما كان مُشكِلًا عليّ، ثم قال: يا عبد القادر تكلم على الناس، قال: فقلت له: يا سيدي أنا رجل عجمي وإيش أتكلم على فصحاء بغداد؟ فقال لي: أنت حفظت القرآن العظيم والفقه وأصول الفقه مع الخلاف والنحو واللغة وتفسير القرآن العظيم ألا يصلح لك أن تتكلم على الناس اصعد الكرسي وتكلم فإني أرى فيك عُرقًا وسيعود نخلة رضي الله عنهما ورضي عنّا بهما.

وقال الشيخ أبو مدين بن شعيب المغربي رضي الله عنه: لقيت الخضر عليه السلام فسألته عن مشايخ المشرق والمغرب الآن وسألته عن الشيخ عبد القادر الجيلي رضي الله عنه فقال: هو إمام الصديقين وحجة العارفين وهو روح في المعرفة وشأنه القربة بين الأولياء كلها رضي الله عنهم.

وقال الشيخ محمد بن الهروي: تكلم الشيخ يومًا في مجلسه فتداخل بعض الناس فترة فقال: لو أراد الله سبحانه أن يرسل طيورًا خضرًا تسمع كلامي لفعل فلم يتم كلامه حتى امتلأ المجلس طيور أخضرًا يَرَها من حضر. قال: وتكلم على الناس يومًا في قدرة الله تعالى وغمر الناس من كلامه هيبة وخشوع فمر بالمجلس طائر عجيب الخلقة فاشتغل بعض الناس بالنظر إليه عن سماع كلام الشيخ فقال: وعزّة المعبود لو شئت أن أقول لهذا الطائر مت قطعًا قطعًا لمات قطعًا قطعًا فما تم كلامه حتى وقع الطير إلى أرض المجلس قطعًا.

وقال الشيخ بقا بن بطو النهرمكي رحمة الله عليه: حضرت مجلس سيدنا الشيخ عبد القادر رضي الله عنه مرة فبينا هو يتكلم على المرقاة الأولى من الكرسي إذ قطع

كلامه وسها ساعة ونزل إلى الأرض ثم صعد الكرسي وجلس على المرقاة الثانية فأشهدت المرقاة الأولى قد اتسعت حتى صارت مد البصر وفرشت من السندس الأخضر وجلس عليها رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعليّ رضوان الله عليهم أجمعين وتجلّى الحق سبحانه على قلب الشيخ عبد القادر فمال حتى كاد أن يسقط فأمسكه رسول الله ﷺ لئلا يقع ثم تصاغر حتى صار كالعصفور ثم نما حتى صار على صورة هائلة ثم توارى عني فسئل الشيخ بقا عن رؤيته رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم فقال: «أرواحهم تشكلت وأن الله تعالى أيدهم بقوة ينظرون بها فيراهم من قوّاه الله تعالى لرؤيتهم في صورة الأجساد وصفات الأعيان» بدليل حديث المعراج. وسئل عن تصاغر الشيخ عبد القادر رضي الله عنه ونموه فقال: كان التجلي الأول بصفة لا يثبت لبدوها بشر إلا بتأييد نبوي فلذلك كاد الشيخ يسقط لو تداركه رسول الله ﷺ وكان التجلي الثاني بصفة الجلال من حيث موصوفه فلذلك تصاغر وكان التجلي الثالث بصفة الجمال حيث شاهده فلذلك انتعش ونما وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وقال الشيخ العارف مسعود الحارثي رضي الله عنه: حضرت الشيخ جاكير والشيخ علي بن إدريس رضي الله عنهما وهما يجتمعان فافتتحا ذكر المشايخ رضي الله عنهم وما سلف لهم من صحبتهم فقال الشيخ جاكير رضي الله عنه لم يظهر في الوجود من المشايخ رضي الله عنهم بعد سيدي تاج العارفين أبي الوفاء رضي الله عنه أتم حالًا ولا أنفذ تصريفًا ولا أقوى تمكينًا ولا أتم وصفًا ولا أعلى مقامًا من سيدي الشيخ عبد القادر رضي الله عنه ومنه انتقلت القطبية إلى سيدي علي بن الهيتي رضي الله عنه ثم قال: سيدي الشيخ عبد القادر من تمكنه في أحوال القطبية في مقاماتها واستغراقه في مدارجها واستيلائه على جميع أطرافها وجمعه بين أسبابها نال ما لم ينله غيره من المشايخ فيما نعلم، قال فلما انفردنا بالشيخ علي بن إدريس سألناه عن قول الشيخ جاكير رضي الله عنه فقال: أخبر عما شاهد ونطق عما علم مما علمه الله تعالى وهو العدل المبرور في كل أقواله وأفعاله رضي الله عنه وقال الشيخان أبو عمر وعثمان الصيريفيني وعبد الحق الحريمي كان شيخنا محيي الدين عبد القادر رضي الله عنه يبكي ويقول: يا رب كيف أهدي لك الروح وقد صح بالبرهان أن الكل لك ربما كان ينشد هذا البيت رضي الله عنه:

وما ينفع الإعراب إن لم يكن تقي وما ضر ذا تقوي لسان معجم

ونقل عنه رضي الله عنه أنه كان يومًا يتكلم ففتر الناس وأنشد:

لا تسقني وحدي فما عودتني إني أشح بها على الجلاس
أنت الكريم وهل يليق تكرمًا أن يعبر الندماء دون الكاس

فاضطرب الناس ومات في المجلس واحد واثنان رضي الله عنه وقال أبو عمرو عثمان بن عاشور السنجاري سمعت الشيخ سويد السنجاري رضي الله عنه غير مرة يقول الشيخ عبد القادر رضي الله عنه سيدنا وشيخنا وإمامنا وقدوتنا إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ وهو المقدم على جميع أهل عصره في علم الحال وفعل القال ومقامات الثبوت بين يدي الله عزَّ وجلَّ رضي الله عنه. وقال الشيخ أبو محمد عبد الله بن أحمد بن إسماعيل ابن الشيخ القدوة سويد السنجاري رضي الله عنه سمعت أبي يقول كان والدي رحمه الله تعالى كثيرًا يلهج بذكر الشيخ محيي الدين عبد القادر رضي الله عنه، وربما كان يذكره في غالب مجالسه حتى كان يشوق الناس إلى رؤيته وإنه قال: مرة الشيخ عبد القادر رضي الله عنه من صدور حضرة القدس رضي الله عنهم أجمعين، وقال أبو الفتح الهروي خدمت سيدي الشيخ عبد القادر رضي الله عنه أربعين سنة فكان في مدتها يصلي الصبح بوضوء العشاء وكان إذا أحدث جدد في وقته وضوءه وصلى ركعتين وكان يصلي العشاء ويدخل خلوته ولا يدخلها أحد معه ولا يخرج منها إلا عند طلوع الفجر ولقد أتاه الخليفة مرار بالليل بقصد الاجتماع به فلا يقدر على ذلك إلى الفجر وقيل بين يديه يومًا ما أحسن المولهين فقال رضي الله عنه: عقلاء الله تعالى أحسن لأن الموله سلب عقله بنظرة أو بخطوة والعاقل تهب عليه نسمات الله تعالى فلا تحرك من شعر لحيته طاقة يحمل بها على محامل النبوة وقال الشيخ أبو سليمان داود المنبجي كنت يومًا عند الشيخ عقيل فقيل له: قد اشتهر ببغداد امرؤ شاب أعجمي شريف اسمه عبد القادر فقال الشيخ عقيل: وإن أمره في السماء أشهر منه في الأرض ذلك الفتى الرفيع المدعو في الملكوت بالباز الأشهب وسينفرد في وقته وسيرد إليه الأمر ويصدر عنه والشيخ عقيل رضي الله عنه أول من لقب شيخنا وسيدنا الشيخ محيي الدين عبد القادر رضي الله عنه بالباز الأشهب فيما ذكر رضي الله عنهما.

قال أبو المظفر شمس الدين يوسف بن قزعلي بن عبد الله التركي العوفي البغدادي الحنفي سبط ابن الجوزي تغمدهما الله برحمته قال خاصبك كان الشيخ عبد القادر يجلس يوم الأحد فبت ليلة الأحد مهتمًا بحضور مجلسه فاتفق أني احتلمت

وكانت ليلة باردة فقلت: ما أفوت مجلسه وإذا انقضى اغتسلت فجئت إلى المدرسة والشيخ على المنبر فساعة وقعت عينه علي قال: يا دبير تحضر مجلسنا وأنت جنب وتحتج بالبرد رضي الله عنه.

وقال الشيخ شمس الدين السابق ذكره: حكى لي رجل صالح من أهل الجرمية يقال له مظفر قال: كنت ليلة الأحد أنام في مدرسة الشيخ عبد القادر لأجل المجلس فمضيت ليلة وصعدت على سطوح المدرسة وكان الحر شديدًا فاشتهيت الرطب فقلت: يا إلـهي ولو أنها خمس رطبات وكان للشيخ باب صغير في السطوح ففتح الباب وخرج الشيخ وبيده خمس رطبات فصاح يا مظفر وما يعرفني قبلها خذ ما طلبت قال أبو المظفر شمس الدين الناقل ومن هذا شيء كثير يعني من جنس هاتين الحكايتين رضي الله عنه.

وقال الشيخ عمر الصنهاجي: جاء بعض أصحابنا إلى الشيخ أبي نصير يستأذنه في المسير إلى بغداد فقال له: إذا أتيت بغداد فلا يفوتك فيها رؤية رجل بها شريف عجمي اسمه عبد القادر فإذا رأيته فسلم عليه عني واسأله الدعاء وقل: لا تنس أبا نصير من قلبك فإنه والله لم يخلق في العجم بأسره مثله وأنك لن ترى في العراق مثله وإن المشرق ليفضل على المغرب به وإن علمه ونسبه قد ميزاه على الأولياء تمييزًا واضحًا كثيرًا، وقال الشيخ شاور السبتي المحلي صنع الخليفة ببغداد وليمة ودعا إليها جميع مشايخ العراق وعلمائها فحضروا كلهم إلا سيدنا الشيخ محيي الدين عبد القادر والشيخ عدي بن مسافر والشيخ أحمد الرفاعي رضي الله عنهم فلما انصرفوا قال الوزير للخليفة: إن الشيخ عبد القادر والشيخ عديا والشيخ أحمد لم يحضروا فقال: فكان لم يحضر واحد ثم أمر حاجبه أن يأتي الشيخ عبد القادر يدعوه وأن ينطلق إلى جبل الهكارو إلى أم عبيدة ليحضر الشيخ عديا والشيخ أحمد، قال الشيخ شاور فقال لي الشيخ عبد القادر قبل أن يقوم الحاجب من مجلس الخليفة وقبل أن تسطر البطاقتان يا شاورًا اذهب إلى المسجد بظاهر باب الحلبة تجد فيه الشيخ عدي بن مسافر ومعه اثنان فادعهم لي ثم امض إلى مقبرة الشونيزي تجد فيها الشيخ أحمد الرفاعي ومعه اثنان فادعهم لي قال: فذهبت إلى المسجد فوجدت الشيخ عديا ومعه اثنان فقلت له: يا سيدي أجب الشيخ عبد القادر فقال: سمعًا وطاعة وقاموا فذهبت معهم فقال لي الشيخ عدي: يا شاور ألا تذهب إلى الشيخ أحمد كما أمرك الشيخ قلت: بلى، فأتيت مقبرة الشونيزي فوجدت الشيخ أحمد ومعه اثنان فقلت: يا سيدي أجب الشيخ عبد القادر فقال: سمعًا وطاعة وقاموا فتوافى الشيخان في باب رباط سيدنا الشيخ

عبد القادر وقت المغرب فقام إليهم وتلقاهم فما لبثوا غير يسير فجاء الحاجب إلى الشيخ فوافقهما عنده فأسرع إلى الخليفة وأخبره بذلك فكتب إليهم بخطه يسألهم الحضور وبعث إليهم ولده والحاجب فأجابوه وأمرني سيدي الشيخ بالمسير معه فلما كنت بالشط إذا بالشيخ علي بن الهيتي فتلقاه المشايخ وسار معهم فأتى بنا إلى دار حسنة وإذا الخليفة فيها قائم مشدود الوسط ومعه خادمان له وليس في الدار سواهم فتلقاهم الخليفة وقال لهم: يا سادات إن الملوك إذا دخلوا على رعاياهم بسطوا لهم الحرير ليطؤوا بأقدامهم ووضع لهم ذيله وسألهم أن يشموا عليه ففعلوا وانتهى بنا إلى سماط مهيأ فجلسوا وأكلوا وأكلنا معهم ثم خرجوا وأتوا إلى زيارة قبر الإمام أحمد بن حنبل رحمة الله عليه وكانت ليلة شديدة الظلمة فعل الشيخ عبد القادر كلما مر بحجر أو خشبة أو جدار أو قبر أشار بيده إليه فيضيء كضوء القمر ويمشون في نوره إلى أن ينتهي ضوؤه فيشير الشيخ إلى آخر فيضيء فما زالوا كذلك يمشون في النور وليس فيهم من يتقدم على الشيخ عبد القادر إلى قبر الإمام أحمد رضي الله عنه فدخل المشايخ الأربعة يزورون ووقفنا على باب المزار حتى خرجوا فلما أرادوا أن يتفرقوا. قال الشيخ عدي للشيخ عبد القادر: أوصني قال: أوصيك بالكتاب والسنة.

وقال الشيخ عمر البزاز: اشتقت إلى رؤية الشيخ عدي بن مسافر واستأذنت الشيخ عبد القادر في زيارته فأذن لي فسافرت حتى أتيت جبل الهكار فوجدت الشيخ عديا قائمًا على باب زاويته بلانش فقال لي: أهلًا يا عمر تركت البحر وجئت إلى الساقية يا عمر الشيخ عبد القادر مالك أزمة الأولياء كلهم وقائد ركائب المحبين بأسرهم في هذا الوقت رضي الله عنهم. وقال الشيخ العارف القدوة والشيخ علي بن وهب الشيباني الربيعي الموسوي السنجاري الشيخ عبد القادر أحد أعيان الدنيا الشيخ عبد القادر أحد أفراد الأولياء الشيخ عبد القادر من تحف الوجود الشيخ عبد القادر من هدايا الله تعالى إلى الكون طوبى لمن جالسه طوبى لمن بات في خاطره الشيخ عبد القادر رضي الله عنه.

وقال الشيخ يحيى التكريتي: لما قدم الشيخ موسى بن هامان الزولي وقيل ابن ماهين بغداد حاجًا كنت أنا ووالدي معه فلما اجتمع بالشيخ عبد القادر رضي الله عنه رأينا احترام الشيخ موسى له وأدبه معه ما لم نره فعله مع غيره فلما خلونا به قال له والدي: ما رأيتك احترمت أحدًا مثل ما احترمت الشيخ عبد القادر. فقال الشيخ عبد القادر: خير الناس في زماننا هذا وسلطان الأولياء وسيد العارفين في وقتنا وكيف لا أتأدب مع من يتأدب معه ملائكة السماء رضي الله عنهما.

وقال شيخ الشيوخ أبو الحسن عبد اللطيف ابن شيخ الشيوخ أبي البركات إسماعيل بن أحمد النيسابوري: سمعت بدمشق سنة ست وتسعين وخمسمائة الشيخ أرسلان رضي الله عنه يقول وقد ذكر الشيخ عبد القادر رضي الله عنه من صدور الحضرة وأفراد الوجود قد أنطق بالحكمة وسلمت إليه أحكام التصريف في كل قريب وبعيد من أهل زمانه في الأخذ والعطاء والقبول والرد هو نائب رسول الله ﷺ رضي الله عنه.

وقال شيخ الصوفية الشيخ شهاب الدين عمر السهروردي: دخلت مع عمي الشيخ أبي النجيب عبد القاهر السهروردي في سنة ست وخمسمائة على الشيخ عبد القادر فتأدب عمي معه أدبًا عظيمًا وجلس بين يديه أذنًا بلا لسان فلما رجعنا إلى النظامية قلت له في ذلك فقال: كيف لا أتأدب معه وهو له الوجود التام وقد صرفت في وجود الملك وبوهي به في وجود الملكوت وانفرد في عالم الكون في هذا الوقت وكيف لا أتأدب مع من صرفه مالكي في قلبي وحالي وفي قلوب الأولياء وأحوالهم إن شاء أمسكها وإن شاء أرسلها رضي الله تعالى عنهم.

وقال الشيخ أبو محمد وقيل الشيخ محمد الشنبكي(١) رضي الله عنه كان شيخنا الشيخ أبو بكر بن هوارا يذكر الشيخ عبد القادر ويقول الذي سوف يظهر بالعراق في وسط القرن الخامس وينص على فضله وما كان علمي يجاوز سمعي ثم كوشفت بمقامات الأولياء فإذا هو في صدورهم وكوشفت بمقامات المقربين فإذا هو من أعلاهم وكوشفت بأطوار المكاشفين فإذا هو من أجلهم وسيظهره الله مظهرًا لا يظهر فيه إلا الصديقون والمؤيدون العلماء بالله تعالى وهو ممن يقتدي بأفعاله وأقواله وسوف يرفع الله ببركته خلقًا من عباده إلى الدرجات العلى وهو ممن يباهي الله به الأمم يوم القيامة رضي الله عنه ورضي عنا به ونفعنا ببركاته في الدنيا والآخرة.

ذكر مناقب السادات المشايخ الذين أثنوا عليه الموعود بذكرهم رضي الله عنهم

فمنهم سيدنا القطب الفرد الجامع الشيخ أبو بكر بن هوارا(٢) بضم الهاء والراء

---

(١) انظر: شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٢/ ١٨٠)، وبهجة الأسرار (ص ٢٥٦) بتحقيقنا.

(٢) قال عنه الشطنوفي: هو من عظماء مشايخ العراق، وأجلاء العارفين وصدور المقربين، صاحب الكرامات الظاهرة، والمقامات الفاخرة، والسرائر الزاهرة، والبصائر الباهرة. . . انظر: بهجة الأسرار (ص ٢٥٠) بتحقيقنا.

بين الألفين البطائحي رضي الله عنه كان عظيم القدر كبير الشأن وإليه ينتمي أعيان مشايخ العراق وهو أول من أسس المشبخة بالعراق بعد انقراض مشايخ الرسالة وهو القائل من زار قبري أربعين أربعاء أُوتي في آخرها براءة من النار وقال: أخذت من ربي عزَّ وجلَّ عهدًا أن النار لا تحرق جسدًا دخل حرمي هذا، ويقال: إنه ما دخل حرمه يعني تربته سمك ولا لحم إلا ولم ينضج بالنار لا طبخًا ولا شيًّا وتخرج بصحبته غير واحد من الأكابر مثل الشيخ محمد الشنبكي وغيره وانتمى إليه أكثر أعيان مشايخ العراق وقال بإرادته جم غفير من ذوي الأحوال الفاخرة وتلمذ له خلق لا يحصون من أرباب المقامات الرفيعة وانعقد عليه الإجماع من المشايخ والعلماء بالتبجيل والتعظيم والرجوع إلى قوله والمصير إلى حكمه وقصد بالزيارات مع النذورات من كل قطر وروى بالأمالي من كل جهة وأهرع إليه أهل السلوك من كل فج عميق وكان جميل الصفات شريف الأخلاق كامل الأدب كثير التواضع شديد الافتقار لأحكام الشرع مكرمًا لأهل السنة والدين وله كلام عال في علوم المعارف. منه الحكمة تنطق في قلوب العارفين بلسان التصديق وفي قلوب الزاهدين بلسان التفصيل. وفي قلوب العباد بلسان التوفيق وفي قلوب المريدين بلسان الذكر وفي قلوب المحبين بلسان الشوق والصحبة مع الله تعالى بحسن الأدب ودوام الهيبة ولزوم الطاعة والصحبة مع رسول الله ﷺ باتباع سنته ومعانقة العلم والصحبة مع الأهل بحسن الخلق والصحبة مع الإخوان بدوام البشر ما لم يكن إثمًا والصحبة مع الجهال بدوام الدعاء لهم والرحمة لهم والجمع بالحق تفرقة من غيره والتفرقة عن غيره جمع به ومن توصل بالوداد فقد صفا بين العباد وإذا كان الحق واحد يجب أن يكون طالبه واحدًا في الذات والمشتاق من شأنه إيثار محبوبه وإن أفنته مشاهدته فتبدو له المعاني التي تعزب عن غيره فيشير إليهم الأزل بلسان الوداد إلي فيتنعمون بذلك ثم يقع الحجاب فيعود ذلك الفرح بكاء والخوف يوصلك إلى الله تعالى والعجب يقطعك عنه واحتقارك الناس مرض لا عظيم لا يداوي.

وكان رضي الله عنه في أول حاله يقطع الطريق بالبطائح ومعه رفقاء وهو مقدمهم فسمع ليلة امرأة تقول لزوجها أنزل هٰهنا لئلا يأخذنا ابن هوارا وأصحابه فاتعظ وبكى وقال الناس يخافونني وأنا لا أخاف الله تعالى وتاب في وقته وتاب معه أصحابه وانقطع مكانه متوجهًا إلى الله تعالى على قدم الصدق والإخلاص في إرادته ولم يكن يومئذٍ بالعراق شيخ مشهور فرأى في منامه رسول الله ﷺ وأبا بكر الصديق رضوان الله عليه فقال: يا رسول الله ألبسني خرقة، فقال: «يا ابن هوارا أنا نبيك وهذا

شيخك». وأشار إلى الصديق رضي الله عنه ثم قال: ألبس سميك ابن هوارا، فألبسه الصديق رضي الله عنه ثوبًا وطاقية ومر بيده على رأسه ومسح على ناصيته وقال: بارك الله فيك. وقال له رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر تحيي سنن أهل الطريق من أمتي بالعراق بعد موتها ويقوم منا أرباب الحقائق من أحباب الله بعد درسها وفيك تكون المشيخة بالعراق إلى يوم القيامة»، وقد هبت نسمات الله تعالى بظهورك ثم استيقظ فوجد الثوب والطاقية عليه وكان نودي في العراق أن ابن هوارا وصل إلى الله تعالى عزَّ وجلَّ. قال الشيخ أبو محمد الشنبكي المتقدم ذكره رضي الله عنه كنت أتيته وهو في البطيحة وحده والأسد محدقة به يتمرغ بعضها على قدميه. وقال الشيخ عزاز بن مستودع البطائحي الشيخ أبو بكر بن هوارا أول المشايخ بالعراق بعد مضي السلف وكانت الأنوار تخترق البطائح من كثرة ما يطرقها رجال الغيب وكان مجاب الدعوة ظاهر التصريف. وقال الشيخ أحمد بن أبي الحسن علي الرافعي: أتت امرأة إلى الشيخ أبي بكر بن هوارا وقالت له: إن ابني غرق في الشط وليس لي سواه وأنا أقسم بالله عزَّ وجلَّ إن الله قدرك على رده علي فإن لم تفعل شكوتك إلى الله وإلى رسوله أقول: يا رب أتيته ملهوفة وكان قادرًا على رد لهفي فلم يفعل فأطرق ثم قال: أريني أين غرق ابنك فأتت به إلى الشط فإذا ابنها قد طفى على وجه الماء ميتًا فسبح الشيخ في الماء حتى وصل إليه وحمله على عاتقه وأخرجه وأعطاه إلى أمه وقال خذيه فقد وجدته حيًا فانصرفت وهو يمشي معها ويده في يدها كأن لم يكن به شيء قط وزلزلت واسط مرة فنزلت إلى البهموت بعد أن اخترق الأرضين السبع وقال له: اسكن يا عبد الله فقال: أمرت أن أطيعك وحدك فسكن.

وقال الشيخ ابن محمد الشنبكي: كنت آتي الشيخ رضي الله عنه وهو في البطيحة جالس في الماء بين الشجر وحده والأسد محدقة به فكان إذا خرج من الماء يتمرغ بعضها على قدميه ورأيت يومًا بين يديه أسدًا عظيمًا يعفر خده في التراب على هيئة المخاطب له والشيخ كأنه يرد عليه جوابًا ثم انصرف الأسد فقلت له: بالذي أنعم عليك ما قال لك الأسد وما قلت له فقال: يا شنبكي، قال لي ثلاثة أيام لم أذق فيها طعامًا وقد أضرني الجوع فاستغثت الله تعالى في السحر فقيل لي: رزقك بقرة في قرية الهمامية تفترسها على سوء ينالك وإني أخاف من ذلك السوء فقلت: جراحة تصيبك في جنبك الأيمن تتألم منها أسبوعًا ثم يزول المهاواتي رأيت اللوح المحفوظ أن البقرة من رزقه وإذا افترسها يخرج إليه من الهمامية أحد عشر رجلًا فيقاتلونه فيخرج منهم ثلاث نفر يموت أحدهم قبل الآخر بساعة ويموت ثالثهما بعد ثانيهما بسبع ساعات

ويصيب الأسد جراحة في جنبه الأيمن من أحدهم ويبرأ بعد أسبوع، قال الشنبكي: رحمة الله عليه فأسرعت إلى الهمامية فإذا الأسد سبقني إليها وكان ما ذكره الشيخ ثم أتيته بعد أسبوع فرأيت الأسد بعينه بين يديه وقد برئت جراحته رضي الله عنهما ونقل عنه رضي الله عنه أنه توضأ في بئر معطلة بالبطائح فكثر ماؤها وعذب وهو من الهواريين طائفة من الأكراد سكن البطائح وبها توفي ودفن بأرض الملحاء وناحت عليه الجن رضي الله عنه. ومنهم الشيخ محمد وقيل أبو محمد طلحة الشنبكي رحمة الله عليه فإنه كان جليل القدر عظيم الشأن انتهت إليه الرياسة في هذا الشأن في وقته عرف الأمر بتوبته في تربية السالكين الصادقين بالعراق وكشف مشكلاتهم وتخرج بصحبته وغير واحد من العلماء مثل الشيخ أبي الوفا والشيخ منصور والشيخ عزاز وغيرهم وقال: بإرادته أمم من ذوي الأحوال وتلمذ له خلق كثير وقام بعد شيخه أبي بكر بن هوارا رضي الله عنه وكان لطيف الصفات وافر العقل مخفوض الجناح شديد الحياء دائبًا في اتباع الشرع وآداب السنة وكان يقطع الطريق فأخذ هو ورفقته قافلة بالليل بقرب قرية الشيخ ابن هوارا واقتسموا الأموال فلما جاؤوا زاوية الشيخ وقت السحر قال الشنبكي لرفاقه: اذهبوا لشأنكم فقد أخذ الشيخ بمجامع قلبي فقالوا: رفقته ونحن معك وألقوا ما معهم وأما الشيخ أبو بكر بن هوارا فإنه قال لأصحابه: قوموا بنا نلاقي المقبولين وخرج فلما رأوه قالوا: يا سيدنا نحن الحرام في بطوننا والدماء على سيوفنا فقال: ذروها فقد قبلكم الله تعالى بما فيكم فتابوا على يده وأقام الشيخ محمد عنده يتولى مصالحه ثلاثة أيام ثم قال له في اليوم الرابع قد صرت شيخًا مكللًا وقال لأصحابه قد وصل محمد إلى الله تعالى في ثلاثة أيام فقال: تركت الدنيا في اليوم الأول وهربت إلى الآخرة في اليوم الثاني وطلبت الله تعالى في اليوم الثالث طلبًا مجردًا عما سواه فوجدته واشتهر أمره في الآفاق وظهرت أمارات قربه من الله تعالى وتتابعت كراماته فكان يبرىء الله تعالى بدعوته الأكمه والأبرص والمجنون ويبارك له في اليسير.

وكان رضي الله عنه يومًا جالسًا في البطيحة فاجتاز به أكثر من مائة طير فنزلت حوله واختلف أصواتها فقال: يا رب قد شوش على هؤلاء الطيور ونظر نحو السماء فماتوا عن آخرهم فقال: يا رب أنت أعلم ما أردت موتهم فقاموا كلهم وطاروا. ومر رضي الله عنه بجماعة يتعاطون الخمر وعندهم آلات الطرب فقال: اللهم طيب عيشهم في الآخرة فصار الخمر ماء صافيًا وألقى الله عليهم الخشية فتصارخوا ومزقوا ثيابهم وكسروا تلك الآلات وتابوا على يده رضي الله عنه، وجاءه رجل فقال له إذا حضرت

الملك فاسأله عني فأطرق ساعة ثم قال: قد سألته، وقال لي: نعم العبد إنه أواب وسترى في منامك الليلة رسول الله ﷺ ويخبرك بذلك فأخبر الرجل بأنه رأى الرسول عليه الصلاة والسلام تلك الليلة وقال له صديق الشيخ محمد فيما قد قيل له: نعم العبد إنه أواب مات بالحدادية قريبًا من البطائح مساء رحمه الله ورضي عنه. ومنهم السيد الجليل سيدنا الشيخ تاج العارفين أبو الوفاء محمد بن محمد بن محمد بن زيد الحلواني الشهير بكاكيس[١] رضي الله عنه كان سيد مشايخ العراق وعينهم في وقته وله الكرامات الخارقة وانتهت إليه رياسة هذا الشأن في زمانه وتخرج به جماعة من صدور مشايخ العراق مثل الشيخ علي بن الهيتي والشيخ بقا بن بطو والشيخ عبد الرحمٰن الطفسونجي والشيخ مطر والشيخ ماجد الكري والشيخ أحمد البقلي وغيرهم وله رضي الله عنه كلام شريف على لسان أهل الحقائق وكان له أربعون خادمًا من أصحاب الأحوال وكان المشايخ بالعراق رضي الله عنهم يذكرون أن تحت علمه من مريديه سبعة عشر سلطانًا ولما أخذ عليه شيخه الشيخ محمد الشنبكي العهد قال قد وقع اليوم في شبكتي طائر لم يقع مثله في شبكة شيخ. وكان في أول أمره يقطع الطريق وسبب توبته أنه جاء إلى ضيعة فأخذ مواشيها وكانت مجاورة للشيخ الشنبكي فجاء أهل الضيعة إليه وقالوا: يا سيدنا قد أخذ مواشينا وما نحن نلحقه فقال لخادمه: انهض إليه وقل له الشيخ أبو محمد الشنبكي يدعوك تتوب إلى الله تعالى وترد مواشي هؤلاء فلما جاءه الخادم فنظر إليه فأغمي عليه ثم أفاق فوجد رأسه على ركبة الشيخ تاج العارفين فقال له: إيش، قال لك الشيخ فقال له: سيدي يقول لك تتوب وترد الماشية على أهلها قال: نعم، أتوب ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: وحياتك أتوب ثم مزق أثوابه ورد الماشية على أهلها وقال للخادم: امض وقل للشيخ نعم يجيء فعاد الخادم وأخبر الشيخ بذلك فقال: من حضر يا سيدي ما يجيء فقال الشيخ: بل يجيء أبو الوفاء ما يكذب فإذا به قد جاء فقام الشيخ وعانقه وأخذ عليه العهد وألبسه ثوبه وأجلسه إلى جانبه فلما كان وقت الظهر أذن المؤذن فقال له الشيخ أبو الوفا: اصبر بعد ما أذن ديك العرش فقال له الشيخ: يا ولدي وأنت تسمع ديك العرش فقال: يا سيدي أنا لي ثلاثون سنة أسمع ديك العرض فقال له: يا أبا الوفا يبسط الله تعالى لك بساط العلم

---

(١) هو من أعيان شيوخ العراق في وقته، وأجلاء العارفين في عصره، صاحب الكرامات الخارقة، والأحوال الجلية، والأنفاس الصادقة، له القدم الراسخ من القرب والتمكين، واليد البيضاء في الحكم والتواضع. والباع الطويل في التصريف النافذ انتهت إليه رئاسة هذا الشأن في زمانه. . . وانظر: بهجة الأسرار ومعدن الأنوار (ص ٢٧٠) بتحقيقنا.

وتتكلم على الناس فقام الشيخ أبو الوفا ودخل بغداد ونادى له المنادي من السماء قوموا إليه فأقبلت عليه الخلق إقبالاً عظيمًا وكان مشايخ البطائح يقولون: عجبنا لمن يذكر أبا الوفا ولم يمر يده على وجهه ويسمي الله تعالى ويصلي على النبي ﷺ كيف لا يسقط وجهه من هيبته.

ورُوِيَ عن الشيخ عزاز أنه رأى النبي ﷺ في المنام فقال: يا رسول الله ما تقول في أبي الوفاء، قال: «بسم الله الرحمن الرحيم ما أقول فيمن أباهي به الأمم يوم القيامة». ونقل إنه رضي الله عنه نرجسي الأصيل قبيلة من الأكراد. قال سيدنا الشيخ محيي الدين عبد القادر رضي الله عنه: ليس على باب الحق رجل كردي مثل الشيخ أبي الوفاء وهو القائل أمسيت عجميًا وأصبحت عربيًا رضي الله عنهما. وقال قاضي القضاة مجير الدين العليمي المقدسي الحنبلي في تاريخ المعتبر في أبناء من عبر: السيد تاج العارفين أبو الوفاء محمد بن محمد بن محمد بن زيد بن حسن بن المرتضى الأكبر عرض ابن زيد بن زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه الشريف الحسيني الفوساني السيد الجليل قطب زمانه وعلامة أوانه. مولده على الصحيح في ثاني عشر رجب سنة سبع عشرة وأربعمائة. واختلف الترجيح في مذهبه فقيل حنبلي وقيل شافعي. وتوفي في العشرين من شهر ربيع الأول سنة إحدى وخمسمائة بقلمينيا بلدة إلى جانب بغداد رضي الله عنه انتهى كلامه.

فعلى هذا القول فهو شريف من نسل علي بن أبي طالب ومن سلالة الطاهرين الأطايب رضي الله عنهم أجمعين. ومنهم سيدنا الشيخ حماد بن مسلم بن داود الدباس[1] رضي الله عنه كان أحد العلماء الراسخين في علوم الحقائق وانتهت إليه تربية المريدين ببغداد وانعقد عليه الإجماع في الكشف عن مخفيات الموارد وانتمى إليه معظم مشايخ بغداد وصوفيتهم في وقته وكان له كلام عال في طريق القوم وهو أحد من أخذ عنه سيدنا الشيخ عبد القادر رحمة الله عليه وصحبه وأثنى عليه وروى كراماته. وكان الشيخ أبو الوفاء إذا قدم بغداد ينزل عنده ويعظم شأنه وكان المشايخ ببغداد يعظمون أمره ويتأدبون في حضرته وينصتون لسماع كلامه ورأى مرة أميرًا سكران فأنكر عليه فسطا عليه الأمير فقال الشيخ: يا فرس الله خذيه فعدت به فرسه

---

(١) انظر: شذرات الذهب (٢/١٧٩، ١٨٠) وبهجة الأسرار ومعدن الأنوار للشطنوفي (ص ٢٧٣) بتحقيقنا، طبع دار الكتب العلمية ـ بيروت.

كالبرق الخاطف فلم يوجد، فقال الشيخ وعزة الله ذهبت به إلى وراء جبل قاف ومنه يبعث.

وحكى إنه توجه إلى زيارة الشيخ معروف الكرخي رضي الله عنه فسمع صوت جارية تغني في دار فرجع إلى بيته وجمع أهله وقال لهم: بأي ذنب أصبنا فقالوا: أمس اشترينا إناء وفيه صورة فقال من هنا أتى علي وقام إلى الصورة فمحاها. وقال أقرب الطرق إلى الله تعالى حبه وما يصفي حبه حتى يبقى المحب روحًا بلا نفس وما دام النفس فيه فلا بد أن يحب في الله تعالى وعند فقد النفس تجيء محبة الله الصادقة.

وقال الشيخ أبو النجيب السهروردي: كان بعض مماليك الخليفة المسترشد يتردد إلى زيارة الشيخ فقال له: إني أرى لك في السابقة نصيبًا من القرب من الله تعالى فلم يفعل وكان بمنزلة عند الخليفة فأعاد عليه القول فامتنع فقال له: إن الله تعالى قد حكمني فيك لأجذبك إليه وإني أمرت البرص أن يغشاك فما أتم الشيخ كلامه حتى غمر البرص جميع جسده وبهت الحاضرون فقام المملوك ودخل على الخليفة فأحضر الأطباء فأجمعوا أن لا دواء له فأشار عليه وجوه دولته بإخراجه من القصر فأخرج وأتى إلى الشيخ وقبل رجليه وشكا إليه سوء حاله والتزم موافقته فيما يأمره فقام الشيخ وألبسه قميصه فصار جسده كالفضة وذهب البرص فخطر له أن يرجع إلى الخليفة من الغد فضرب الشيخ بأصبعه في جبهته وخط خطًا فإذا هو برص وقال: هذا يمنعك من الدخول إليه. ولزم خدمة الشيخ إلى أن مات. وقال الشيخ أبو النجيب المذكور الشيخ حماد الدباس من أجمل من لقيت من مشايخ بغداد وهو أول شيخ فتح الله تعالى علي ببركته دباسته لا يدخلها زنبور ولا ذبابة. وقال الشيخ شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قز علي البغدادي العوني سبط الحافظ بن الجوزي ولو لم يكن لحماد من الفضائل التي اتصف بها في زهادته وطريقه ومكاشفته إلا أن الشيخ عبد القادر أحد تلامذته رضي الله عنهما لكفي. أصل الشيخ حماد رضي الله عنه من رحبة الشام وسكن بغداد بالمظفرية إلى أن مات بها في سنة خمس وعشرين وخمسمائة ودفن بمقبرة الشونيزى وقيل بدمشق بمقبرة باب الموصلي والصحيح الأول رضي الله عنه ورضي عنا به. ومنهم الشيخ عزاز بن مستودع البطائحي[1] رضي الله

(١) هو أحد من أظهره الله تعالى إلى الوجود، وصرفه في الكون، ومكنه من أحوال النهاية، وملكه أسرار الولاية... وانظر: بهجة الأسرار ومعدن الأنوار (ص ٢٦١) بتحقيقنا.

عنه كان من أعيان مشايخ العراق وأجلهم انتهت إليه رياسة هذا الأمر في تربية المريدين بالبطائح واجتمع إليه جماعة من الصلحاء ذوي المراتب وأخذوا عنه علم الطريقة وانتفعوا به وتخرج بصحبته غير واحد وقال بإرادته جم غفير من أصحاب الأحوال وتلمذ له خلق كثير ممن له قدم راسخ في هذا الشأن وأجمع العلماء والمشايخ على تعظيمه وتبجيله وقصد بالزيارات وكان جميل الأوصاف متبعًا لأحكام الشرع والسنة معرضًا لأحكام الله لكثرة المجاهدة والمراقبة والمعانقة لطريق السلف في السر والجهر وله كلام عال على لسان أهل المعارف. منه الأرواح لطفت بالأشواق فتعلقت عند لدغات الحقيقة بأذيال المشاهدة فلم تر غير الحق معبودًا وأيقنت أن الحادث لا يدرك القديم بصفات معلولة. فصفات الحق واصلة إليه وقلوب العاشقين طائرة إلى الحق بأجنحة المعرفة سائرة بموالاة المحبة مجذوبة بأنوار قدسه إلى أنوار أنسه والقلب السليم من أشار من تحته إلى الوفا ومن فوقه إلى الصفا ومن يمينه إلى العطا ومن شماله إلى المنى ومن أمامه إلى اللقا ومن خلفه إلى البقا وكانت الجن تكلمه والأسد تأنس به. قال الشيخ عبد اللطيف كان الشيخ عزاز يمشي بين النخل فاشتهى الرطب فتدلت له عراجين النخل فأكل منها ثم عادت إلى حالها. وقال خادمه الشيخ الجليل أبو المعمر إسماعيل الواسطي سمعت شيخنا الشيخ عزازًا رضي الله عنه يقول: ورد علي في حال بدايتي حال استغرقت فيه أربعين يومًا لا آكل ولا أشرب ولا أميز بين الأمرين ثم رجعت إلى حسي وذهلت عن نفسي سبعة عشر يومًا أخرى ثم عدت إلى حكم العادة فتاقت نفسي إلى خبز من بر ساخن وسمكة مشوية وماء عذب في إناء جديد أحمر وكنت على الشط فرأيت في وسط اللجة آشباحًا سودًا فلما قربن متى فإذا ثلاث سمكات على ظهر إحداهن رغيفان وعلى ظهر الأخرء إناء فيه سمكة مشوية وعلى ظهر الأخرى إناء جديد أحمر فيه ماء والأمواج تضربهن يمينًا وشمالاً حتى انتهين إليّ فألقت كل منهن ما على ظهرها بين يدي كأنه إنسان يضع بين يدي إنسان ما يريد ثم رجعن من حيث جئن فتناولت الرغيفين فإذا هما من خبز البر وهبولهما يتصاعد فأكلت منهما ومن السمكة المشوية وشربت من الإناء الجديد ماء لم أذق في الدنيا أحلى منه وامتلأت من الطعام والشراب ولم ينقص منه عشرة وتركت الباقي وانصرفت. ونقل عنه رضي الله عنه أنه مر بأسد قد افترس شابًا وقد كسر ساقه فصاح عليه فولى منهزمًا فتناول الشيخ من الأرض حصاة قدر الفولة وحذفه بها فخر ميتًا ثم جاء إلى الشاب ووضع ما انكسر من ساقه إلى موضعه وأمر يده عليه فإذا هو سوى فقام

يعدو إلى أهله وكان رضي الله عنه كثيرًا ما ينشد هذه الأبيات:

عودوني الوصال والوصل عذب ورموني بالصد والصد صعب
زعموا حين عاتبوا أن جرمي فرط حبي لهم وما ذاك ذنب
لا وحق الخضوع عند التلاقي ما جزا من يحب ألا يحب

توفي رحمة الله عليه قبل وفاة الشيخ منصور البطائحي الآتي ذكره ولم أقف له على تاريخ مولد ولا وفاة رضي الله عنه وعزاز بالعين المهملة والزاي المكررة مع تشديد الأولى منهما قبل الألف. ومنهم الشيخ الكبير منصور البطائحي[1] رضي الله عنه كان من أجلاء المشايخ بالبطائح وأعيانهم وكان جميلًا بهيًا كامل الأدب معانقًا طريق السلف والاسترسال مع أحكام الله عزَّ وجلَّ في الشدة والرخاء لمن يكب به جواد طريقه وكان مجاب الدعوة صاحب حال وكانت أمه تدخل وهي حاملة به على شيخه الشيخ أبي محمد بن الشنبكي وكان بينه وبينها نسب فينهض لها قائمًا وتكرر منه ذلك وسئل عنه فقال: إنما أقوم للجنين الذي في بطنها إجلالًا له فإنه أحد المقربين إلى الله تعالى أصحاب المقامات وله شأن عظيم تخرج رضي الله عنه بالشيخ الشنبكي، وسئل عن المحبة فقال: إن المحب سكران في خماره جيران في شربه لا يخرج من سكرة إلا إلى حيرة ولا من حيرة إلا إلى سكرة ثم أنشد يقول:

الحب سكر خماره التلف يحسن فيه الذبول والدنف
والحب كالموت يفي كل ذي شغف ومن تطعمه أودي به التلف
في الحب مات الألى أصفوا محبتهم لو لم يحبوا لما ماتوا وما تلفوا

ثم قام إلى شجرة هناك خضرة نضرة فتنفس عندها فيبست وتناثرت أوراقها وأنشد رحمة الله عليه يقول:

إن البلاد وما فيها من الشجر لو بالهوى عطلت لم ترو بالمطر
لو ذاقت الأرض حب الله لاشتعلت أشجارها بالهوى فيها عن الثمر
وعاد أغصانها جردًا بلا ورق من حر نار الهوى يرمين بالشرر
ليس الحديد ولا صم الجبال إذا أقوى على الحب والبلوى من البشر

---

(١) هذا الشيخ من أكابر مشايخ العراق، وأجلاء العارفين ونبلاء المحققين، ورؤساء المقربين. . . انظر: بهجة الأسرار ومعدن الأنوار (ص ٢٦٥) بتحقيقنا ـ ط العلمية ـ بيروت.

سكن رضي الله عنه نهر دقلاء من أرض البطائح واستوطنها إلى أن مات بها وقبره ظاهر يزار وأوصى لابن أخته الشيخ أحمد الرفاعي الآتي ذكره فقالت له زوجته: أوص لولدك فقال: لابن أختي أحمد، فلما تكرر منها القول قال: لابن أخته وابنه ائتياني بنجيل فأتاه ابنه بنجيل كثير ولم يأته ابن أخته بشيء فقال لابن أخته: يا أحمد لم لم تأت بشيء فقال: إني وجدته كله يسبح فلم أستطع أن أقطع منه شيئًا. فقال الشيخ لزوجته سألت غير مرة أن يكون ابني فقيل لي: بل ابن أختك أحمد رضي الله عنهما. ومنهم السيد الكبير محيي الدين سيد العارفين أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن يحيى بن حازم الرفاعي المغربي الأصل البطائحي[١] المولد والدار رضي الله عنه كان رضي الله عنه عظيم القدر كبير الشأن ومحله أعظم وحاله أشهر من أن ينبه عليه وهو أحد الأربعة الذين يبرئون الأكمه والأبرص ويحيون الموتى بإذن الله سبحانه وتعالى وأحد من اشتهر في الدنيا وتلمذ له من الخلق عالم لا يحصون كثرة في كل بلد وقطر ولم يكن في مدن المسلمين مكان يخلو من زاوية أو موضع برسمهم وكان رضي الله عنه كثير المجاهدة وهو ممن قهر أحواله وملك أسراره وانتهت إليه الرياسة في علوم الطريق وشرح أحوال القوم وكشف مشكلات منازلاتهم وله كلام شريف على الشأن بين أهل الحقيقة مشهور لا يحتاج إلى ذكره وكان رضي الله عنه متواضعًا سليم الصدر مجردًا من الدنيا وما ادخر شيئًا قط. وسئل مرة عن قوله الوحدة خير من جليس السوء فقال وفي زماننا هذا خير من الجليس الصالح إلا أن يكون من أصحاب النظرة فالنظرة إليه شفاء ولا سبيل إلى النجاة إلا بالتوحيد وقال في الانقطاع إلى الله تعالى والفرار عما سواه وترك من دونه رضي الله عنه:

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خراب
إذا صحّ منك الودّ فالكل هين ... وكل الذي فوق التراب تراب

قال الشيخ شمس الدين أبو المظفر يوسف سبط ابن الجوزي في تاريخه حكى لي بعض شيوخنا قال: حضرت عند الشيخ أحمد بن الرفاعي ليلة نصف شعبان وعنده

---

(١) هو القطب الغوث الكبير سيدي أحمد الرفاعي. . . وانظر: بهجة الأسرار (ص ٤٣٩)، ونور بهجة الصدق في ذكر سلاسة الغوث الرفاعي (ص ٣٣٦، ٤٣٦)، جامع الكرامات للكوهن (ص ٧٧، ٧٨).

نحو من مائة ألف إنسان فقلت له: هذا جمع عظيم فقال: حشرت محشر هامان إن خطر ببالي أني مقدم هذا الجمع. وقال الشيخ الجليل أبو الفرج عبد الرحمٰن بن علي الرفاعي ابن أخته رضي الله عنه كنت يومًا جالسًا بحيث أرى الشيخ وأسمع كلامه وكان جالسًا وحده فنزل عليه رجل من الهواء وجلس بين يديه فقال له الشيخ: مرحبًا بوفد المشرق فقال له: إن لي عشرين يومًا ما أكلت ولا شربت وإني أريد أن تطعمني شهوتي فقال له: وما شهوتك، قال فنظر إلى الجواد وإذا خمس وزات طائرات فقال: أريد إحدى هؤلاء مشوية ورغيفين من بروكوزًا من ماء بارد فقال له الشيخ: لك ذلك ثم نظر إلى تلك الوزات وقال عجل بشهوة الرجل قال فما تم كلامه حتى نزلت إحداهن بين يديه مشوية ثم مد الشيخ يده إلى حجرين كانا إلى جانبه فوضعهما بين يديه فإذا هما رغيفان ساخنان من أحسن الخبز منظرًا ثم مد يده إلى الهواء وإذا بيده كوز أحمر فيه ماء قال فأكل وشرب ثم ذهب في الهواء من حيث أتى فقام الشيخ رضي الله عنه وأخذ تلك العظام ووضعها في يده اليسرى وأمر بيده اليمنى عليها وقال: أيتها العظام المتفرقة والأوصال المتقطعة اذهبي وطيري بأمر الله تعالى ببسم الله الرحمٰن الرحيم، قال فذهبت وزة سوية كما كانت وطارت في الجو حتى غابت عن نظري رضي الله عنه.

وقال الشيخ جلال الدين عبد الرحمٰن السيوطي في كتابه التنوير في إمكان رؤية النبي ﷺ لما وقف سيدي أحمد الرفاعي تجاه الحجرة الشريفة قال:

في حالة البعد روحي كنت أرسلها تقبل الأرض عني وهي نائبتي
وهذه نوبة الأشباح قد حضرت فامدد يمينك كي تحظى بها شفتي

فخرجت إليه اليد الشريفة وقال بعض أصحابه إنه رآه في المنام في مقعد صدق مرارًا ولم يخبره وكان للشيخ امرأة بذية اللسان تسفّه عليه وتؤذيه فدخل عليه الذي رآه في مقعد صدق يومًا فوجد بيد امرأته محراك التنور وهي تضربه على أكتافه فاسودّ ثوبه وهو ساكت فانزعج الرجل وخرج من عنده فاجتمع بأصحاب الشيخ وقال: يا قوم يجري على الشيخ من هذه المرأة هذا وأنتم سكوت! فقال بعضهم: مهرها خمسمائة دينار وهو فقير فمضى الرجل وجمع الخمسمائة دينار وجاء بها إلى الشيخ في صينية فوضعها بين يديه فقال له: ما هذا؟ فقال: مهر هذه الشقيّة التي فعلت بك كذا وكذا، فتبسم وقال: لولا صبري على ضربها ولسانها ما رأيتني في مقعد صدق رضي الله عنه.

قال الشيخ شمس الدين سبط ابن الجوزي في تاريخه هو أحمد بن علي بن أحمد أبو العباس بن الرفاعي شيخ البطائحيين كان يسكن أم عبيدة وكان له كرامات ومقامات أصحابه يركبون السباع ويلعبون بالحيات ويتسلق أحدهم في أطول النخل ثم يلقي نفسه إلى الأرض ولا يتألم ويجتمع عنده في كل سنة في الموسم خلق عظيم. وقال قاضي القضاة مجير الدين عبد الرحمٰن العمري العليمي الحنبلي المقدسي في تاريخه المعتبر في أبناء من عبر أبو العباس أحمد بن أبي الحسن علي بن أبي العباس أحمد المعروف بابن الرفاعي كان شافعي المذهب وأصله من الغرب وسكن بالبطائح بقرية يقال لها أم عبيدة وله شعر منه:

إذا جنّ ليلي هام قلبي لذكركم أنوح كما ناح الحمام المطوق

إلى آخره وهو مشهور وتوفي يوم الخميس ثاني عشر جمادى الأولى سنة ثمانين وخمسمائة بأم عبيدة وهو في عرض التسعين والرفاعي بكسر الراء نسبة إلى رجل بالمغرب له رفاعة وأم عبيدة والبطائح قرى مشهورة بين واسط والبصرة ولها شهرة بالعراق.

وقال العلامة شمس الدين بن ناصر الدين الدمشقي سيدي الشيخ الكبير محيي الدين سلطان العارفين أبو العباس أحمد بن الرفاعي لم يبلغنا أنه أعقب كما جزم به غير واحد من الأئمة المرضية ولم أعلم نسبًا صحيحًا إلى علي بن أبي طالب ولا إلى أحد من ذريته الأطايب وإنما الذي وصل إلينا وساقه الحفاظ وصح لدينا أنه أبو العباس أحمد ابن الشيخ أبي الحسن علي بن أحمد بن يحيىٰ بن حازم بن علي بن رفاعة المغربي الأصل العراقي البطائحي الرفاعي نسبة إلى جده الأعلى رفاعة قدم والده أبو الحسن رحمة الله عليه من بلاد المغرب فسكن البطائح من العراق في قرية يقال لها أم عبيدة ثم تزوج بأخت الشيخ منصور الزاهد فعلقت منه بالشيخ أحمد ومات أبوه وأمه حامل به فولدته في المحرم سنة خمسمائة فكفله خاله وأخذ عنه وعن أبي الحسن علي القاري الزاهد وغيرهما وصار قدرة العارفين وأحد الأولياء المشهورين توفي بعد وفاة الشيخ عبد القادر بنحو سبع عشرة سنة في يوم الخميس من جمادى الأولى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة بالبطائح انتهى كلامه ملخصًا رحمة الله عليه.

وقال جدي لأبي قاضي القضاة جمال الدين أبو المحاسن يوسف التادفي الربيعي الأنصاري الحنبلي تغمده الله برحمته في مؤلف له ومن خطه نقلت: هو أحمد بن

علي بن أحمد بن يحيىٰ بن حازم بن علي بن ثابت بن علي بن الحسين الأصغر بن المهدي بن محمد بن القاسم بن موسى بن عبد الرحيم بن صالح بن يحيىٰ بن محمد بن إبراهيم بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب. ومنهم الشيخ عدي بن مسافر[1] بن إسماعيل بن موسى بن مروان بن الحسن بن مروان الأموي الشامي الأصل والمولد الهكاري المسكن رضي الله عنه كان من أجل مشايخ بلاد المشرق وأكبرهم قدرًا وأعلاهم مرتبة وهو أحد أركان هذه الطريقة وأعلام العلماء بها رضي الله عنه وقد نال المجاهدة في حال البداية طورًا صعب المرتقي عزيز المنال تعذر على كثير من المشايخ سلوكة وكان سيدنا الشيخ عبد القادر يعظمه ويثني عليه كثيرًا وشهد له بالسلطنة على الأولياء وقال: لو كانت النبوة تنال بالمجاهدة لنالها الشيخ عدي بن مسافر وأقام أول أمره في المغارات والجبال والصحارى مجردًا سائحًا يأخذ نفسه بأنواع المجاهدات مدة مديدة وكانت الحيات والهوام والسباع تألفه وهو أحد من تصدر لتربية المريدين والعارفين ببلاد المشرق وتلمذ له كثير من الأولياء رضي الله عنهم وتخرج بصحبته غير واحد من ذوي الأحوال وانتمى إليه عالم عظيم وهو الذي غسل سيدنا الشيخ تاج العارفين رضي الله عنه لما مات وقصد الزيارات من كل قطر وكان له كلام نفيس على لسان أهل الحقائق. منه الشيخ من جمعك في حضوره وحفظك في مغيبه وهذبك بأخلاقه وأدبك بأطراقه وأنار باطنك بإشراقه والمريد من أنار نوره مع الفقراء بالأنس والانبساط ومع الصوفية بالأدب والانحطاط وحسن الخلق والتواضع في كل شيء ومع العلماء رضي الله عنهم بحسن الاستماع ومع أهل المعرفة بالسكون ومع أهل المقامات بالتوحيد ومنه يا هذا البدلاء ما صاروا بدلاء بالأكل والشرب والنوم والطعن والضرب وإنما بلغوا ذلك بالمجاهدات والرياضات لأن من يموت لا يعيش ومن كان لله تلفه كان على الله تعالى خلفه ومن تقرب لله تعالى بتلاف نفسه أخلف الله عليه نفسه.

سنرمي النفوس على هولها ... فإما عليها وإما لها
فإن سلمت ستنال المنى ... وإن تلفت فبآجالها

---

(١) هو سيد الطائفة، وشيخ الإسلام، أحد من خرق له العوائد وقلب له الأعيان، وأظهر على يديه العجائب، وذلل له الوجود. . . وانظر: شذرات الذهب (٢/١٧٩)، وسير أعلام النبلاء (٢٠/ ٣٤٣، ٣٤٤)، وبهجة الأسرار (ص ٢٨٤) بتحقيقنا.

يا هذا إن قتلت فأنت من جندنا وإن تلفت كنت في تلك الحالة عندنا إن عشت فعيش السعداء وإن مت فموت الشهداء وقال رضي الله عنه قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العنكبوت: الآية ٦٩] ثم أنشد:

تريدين إدراك المعالي رخيصة   فكم دون أكل الشهد من أبر النحل

ونقل أن أبا إسرائيل يعقوب بن عبد المقتدر السائح قام ثلاث سنين مجردًا في الجبال إلى أن تربى له جلد ثان فجاء ذئب فلحسه حتى تركه كالجمارة فتداخله العجب فنظر الذئب شزرًا وبال عليه فقال في نفسه: لو قيض الله لي وليًا فإذا الشيخ عدي إلى جانبه ولم يسلم عليه فوجد في نفسه فقال له: إنا لا نلقي بالسلام والترحاب من تبول عليه الذئاب ثم ذكر له جميع ما وقع له فتمنى الانقطاع فضرب برجله صخرة فتفجرت من ماء النيل وضرب أخرى فنبت فيها شجرة رمان وقال لها: أنا عدي انبتي بإذن الله تعالى يومًا حلوًا ويومًا حامضًا وقال: يا أبا إسرائيل أقم هنا كل من هذه الشجرة واشرب من العين وإذا أردتني فاذكرني آتيك ثم تركه وانصرف فأقام على ذلك مدة سنين. وقال الشيخ عمر القيصي خدمت الشيخ عديًا رضي الله عنه سبع سنين وشهدت له خارقات فقال لي يومًا: اذهب إلى الجزيرة السادسة في البحر المحيط تجد بها مسجدًا فأدخله ترى فيه شيخًا فقل له يقول لك: احذر الاعتراض ولا تختر لنفسك أمرًا فيه إرادة ودفعني بين كتفي فرأيت المكان والشيخ وأخبرته فبكى ودعا له وقال لي: إن أحد السبعة الخواص الآن في النزع وقد طمحت إرادتي أن أكون مكانه ثم دفعني فوجدت نفسي في الزاوية. وقال الشيخ رجاء البارستقي رحمة الله عليه خرج الشيخ عدي رضي الله عنه يومًا من زاويته ومشى نحو مزرعة فالتفت إلي وقال: يا رجاء ما تسمع صاحب ذلك القبر يستغيث بي وأشار بيده المباركة إلى قبر فنظرت وإذا بدخان ساطع قد خرج من القبر ثم مشى حتى وقف على القبر وما زال يسأل الله تعالى فيه حتى رأيت الدخان قد انقطع ثم التفت إلي وقال: يا رجاء قد غفر لهذا وارتفع العذاب عنه ثم إن الشيخ دنا من القبر ونادى بالكردي يا حسين خوشا خوشا يعني أنت طيب قال: نعم طيب وارتفع العذاب عني سمعت ذلك منه ثم رجعنا إلى الزاوية. وقال أبو إسرائيل السابق ذكره استأذنت الشيخ مرة في السفر إلى عبادان وودعته فقال: يا أبا إسرائيل إذا رأيت في طريقك أسدًا تخافه فقل له يقول لك عدي بن مسافر: اذهب عني فإنه يذهب وإذا رأيت هول البحر وأمواجه فقل أيتها الأمواج يقول لك عدي: اسكني فإنها تسكن فكنت إذا لاقيت شيئًا من الوحوش

والأسود أقول لهم ما قال الشيخ فيذهبون وركبت في بحر البصرة مرة فاشتد بنا الريح وعلت الأمواج وأشرفنا على الهلاك فقلت ما قاله الشيخ فسكن الريح وصار الماء صافيًا. وقال الشيخ عمر كنا عند الشيخ عدي رضي الله عنه يومًا وقد صلى صلاة العصر فإشار إلى الحادي فأنشد شيئًا وكان جماعة من الفقراء حاضرين فجعل الشيخ عدي يقوم ويقعد ولم يزل في الطيبة حتى صار وقت المغرب فقام رجل وأذن فانزعج الشيخ ودق على صدره وقال للرجل: إيش قصدت بأذانك كنا على العرش حطيتنا على الفرش. وقال أيضًا كنت عند الشيخ عدي بن مسافر رضي الله عنه يومًا فجاء جماعة من الأكراد والبوزية زائرين وكان فيهم رجل يدعى الخطيب حسين فقال له الشيخ: يا حسين قم أنت والجماعة حتى نقلب أحجارًا ونعمل حائطًا للبستان فنهض الشيخ ونهض معه الجماعة وصعد الشيخ إلى سطح الجبل وجعل يقطع أحجارًا ويدحرجها وهم ينقلونها إلى مكان العمل فأصاب حجرًا رجلًا فاختلط لحمه بعظمه وألصق بالأرض فمات من ساعته فنادى الخطيب حسين: يا شيخ مر فلان إلى رحمة الله تعالى فانحدر الشيخ من سطح الجبل وأتى الرجل المصاب ورفع يده إلى السماء ودعا له فقام الرجل بإذن الله تعالى حيًا كأنه لم يصبه شيء. ورُوِيَ أنه حضر عنده يومًا الأمير إبراهيم المهراني صاحب قلعة الجراحية ومعه جماعة من الفقراء الصوفية وكان الأمير يحب الشيخ حبًا شديدًا ويحب الفقراء لكن ما كان عنده في مقام الشيخ عدي وكان الصوفية حضروا عند الأمير إبراهيم فذكر لهم مناقب الشيخ عدي فقالوا: لا بد من حضورنا عنده ونسأله مسائل نمتحنه بها فلما جلسوا عند الشيخ وسلموا عليه فتكلم أحدهم مع الشيخ فسكت فاعتقد المتكل أن سكوت الشيخ عجز فعلم الشيخ نيته والتفت إلى الجماعة وقد انزعج وقال: إن الله تعالى قد جعل عبادًا لو قال أحدهم لهذين الجبلين التقيا فنظر الصوفية إلى الجبلين قد التقيا وصار جبلًا واحدًا فعندما شاهدوا ذلك وقعوا على أقدامه وهو مستغرق إلى انجلاء الحال عنه وأشار بيده إلى الجبلين فعادا إلى حالهما وطاب على الصوفية وتابوا على يديه وصاروا من تلامذته ثم ودعوا وانصرفوا.

وقال الشيخ عمر: كنت عند الشيخ يومًا فجرى حديث الصلحاء وما يكون من أحوالهم فقال الشيخ عدي هنا رجل يبرىء الأكمه والأبرص والمجذوم لكنه لا يدعي النبوة فاستعظمت ذلك في نفسي وودعت الشيخ ثم بعد أيام قصدت زيارته وعندي مما سمعته منه أثر فلما وصلت وسلمت عليه قال لي: يا عمر هل لك أن تصحبني في سفري على شرط أن لا تتكلم، فقلت: سمعًا وطاعة وخرج من موضعه وتبعته

إلى أن وصلنا إلى برية عظيمة فمسني الجوع فانقطعت عن الشيخ فالتفت إلي وقال لي: يا عمر قصرت عن المشي فقلت له: يا سيدي قد وقعت من الجوع فجعل الشيخ يلتقط من خرنوب الأرض الذي يبسته أم غيلان ويضعه في فمي فآكله فأجده رطبًا فلما اكتفيت وقويت نفسي سار الشيخ فحدثتني نفسي بسبب الخرنوب فأخذت واحدة منه ووضعتها في فمي فمرمرت فمي فرميتها فالتفت إليّ الشيخ وقال: يا دبير فقلت: نعم دبير، ثم سرنا غير كثير فأشرفنا على قرية وبقربها عين ماء وعندها شجرة وتحتها شاب أعمى أبرص زمن فلما رأيته ذكرت قول الشيخ وقلت في نفسي: إن كان لدعواه صحة فهو يبرىء هذا فالتفت إلي وقال: يا عمر أي شيء خطر ببالك فقلت: بحرمة موضع الله تعالى من قلبك وبحرمة عقيل المنبجي والشيخ مسلمة إلا ما سألت الله تعالى أن يبرىء هذا الشاب فقال يا عمر لا تهتك سترنا فأقسمت عليه فنزل إلى العين وتوضأ وخرج واستقبل القبلة وصلى ركعتين وقال له: إذا رأيتني سجدت ودعوت أمن علي فلما دعا أمنت على دعائه ثم قام ومر يده المباركة على الشاب وقال له: قم بإذن الله تعالى فقام يعدو كأن لم يكن به شيء وقال لأهل القرية اجتاز بي رجلان فأمر أحدهما يده علي فبرئت فانهال أهل القرية إلينا فلما رآهم الشيخ أجلسني بين يديه وغطاني بكمه فلم يرونا فلما رجعوا قام الشيخ وسار راجعًا وتبعته قليلًا وإذا نحن بالزاوية رضي الله عنه وروى عنه رضي الله عنه أنه كان على باب زاويته التي بجامع بارستق وكان حاضرًا خلق كثير فأشار إلى الحادي فأنشد وقام الفقراء في السماع وشملتهم الطيبة فقام الشيخ ودخل الزاوية وشد وسطه وأخذ عكازه وخرج من الجامع وتبعه الناس فلم يزل سائرًا إلى أن وصل مقبرة تعرف بروق بني فضل وهي قرية صغيرة بالقرب من بارستق فوقف على قبر هناك واستقبل الصلاة وكشف رأسه وجعل يدعو فكشف الناس رؤوسهم وأمنوا على دعائه ثم غطى رأسه وتوجه راجعًا إلى بارستق والناس معه ودخل الجامع وجلس في زاويته فسألوه عن سبب خروجه فقال لمن كنت في السماع جاء رجل كنت أعرفه قد مات من قرية بني فضل ودخل الجامع وهو بالوزرة والقرف يعني الدرع فقلت في نفسي: هذا فلان الميت يبصره الفقراء ويبطلون السماع فلما رأيتكم ما تغيرتم تحققت أنكم ما رأيتموه فوقف بين يدي وقال لي: يا شيخ قد دفنوا البارحة عندنا رجلًا كرديًا يسمى داود ومن حين دفن ما نحن طيبين ولا لنا قرار من العذاب الذي نزل عليه فأما أن ترسم أن يحولوه عنا وإما أن تسأل الله تعالى أن يرفع العذاب عنه فما وسعني إلا أن قمت ومشيت إلى المقبرة وسألت الله تعالى فيه وأرجو أن الله قد قبل شفاعتي.

وقال الشيخ إسماعيل التونسي رحمة الله عليه: خرجت أنا وجماعة من التونسية إلى زيارة الشيخ عدي رضي الله عنه فلما وصلنا سلمنا عليه وجلسنا نتحاور في كرامات الأولياء ودرجاتهم فقال الشيخ: كل شيخ لا يعلم مريده كم ينقلب في الليل قلبة ما هو شيخ ولو أنه في مشرق الأرض أو مغربها فقلت في نفسي: هذا أمر صعب أنا أجامع زوجتي والشيخ ينظر إلي فلما رجعت إلى بيتي هجرت زوجتي شهرًا كاملًا فعلم الشيخ عدي بما أنا عليه فوصى جماعة من الفقراء المجاورة أنكم إذا توجهتم إلى منازلكم يتوجه أحدكم إلى التونسية ويقول لإسماعيل: يجيء إلى عندي فلما أدوا رسالة الشيخ قمت من وقتي وقصدته فلما وصلت وسلمت عليه زجرني وانتهرني وقال: يا إسماعيل أيما أحب الشيخ يبصر مريده على حلال أو على حرام لا تعد إلى مثلها فقابلت أمره بالسمع والطاعة وانصرفت راجعًا وقال الشيخ عمر القبيصي رحمة الله تعالى كنت يومًا جالسًا عند الشيخ عدي رضي الله عنه وعنده من فلاحي البلدة جماعة فقال أحدهم لصاحبه: يا فلان إذا نزل عليك منكر ونكير عليهما السلام ما تقول لهما قال أقول لهما: إني عند الشيخ عدي فطاب الشيخ وقال: صدق فلان.

وقال الشيخ محمد بن رشا رحمه الله تعالى كنت عند الشيخ وتوجهت صحبته لما توجه لإحضار زوجة ابن أخيه أبي البركات من زوق البورية فمررنا بأرض كثيرة الشوك فقلت في نفسي: الناس منهم ركبان ومنهم رجالة في أرجلهم نعال تمنع الشوك والشيخ عدي يمشي حافيًا وعظم ذلك علي بحيث إني بكيت من أجله فكشف الله لي عن بصيرتي فرأيت الشيخ على عجلة من نور مرتفعًا عن الأرض قدر سبعة أذرع رضي الله عنه ورضي عنا به. وقال الشيخ عمر القبيصي أيضًا حضرت عنده رضي الله عنه والشيخ علي المتوكل والشيخ محمد بن رشا فجلس الشيخ محمد عن يمينه مكان الشيخ علي المتوكل فشق ذلك على الشيخ علي وجلسوا ساعة ولم يتكلم أحد معهم معلم الشيخ بذلك فقال الشيخ علي للشيخ عدي: يا سيدي أتأذن لي أن أسأل أخي الشيخ محمد مسألة فأذن له فقال: يا شيخ محمد البارحة كنت في الدركات قال: نعم، فقال له: كم كان عدة الرجال الحاضرين بها ومن أي القبائل قال: المستعربون سبعة عشر ألف رجل ومن الأكراد خمسة وعشرون ألف رجل ومن التركمان سبعة رجال ومن الهندوان ثلاثة رجال ومن النورية وهم من الهنود ثلاثة رجال فقال له الشيخ علي: صدقت ففرح الشيخ عدي بذلك وكان إذا خلا مع خواص أصحابه يبسط معهم فقال رضي الله عنه للشيخ علي: كم تصبر على الطعام والشراب فقال: سنة آكل ولا أشرب وسنة أشرب ولا آكل وسنة لا آكل ولا أشرب فقال له الشيخ: ما أنت

الأقوى ثم قال للشيخ محمد وأنت فقال: يا سيدي أنا أقل من أخي الشيخ علي تسعة أشهر آكل ولا أشرب وتسعة أشهر أشرب ولا آكل وتسعة أشهر لا آكل ولا أشرب قال: ثم التفت إلي وقال: يا عمر وأنت فقلت يا سيدي ستة أشهر آكل ولا أشرب وستة أشهر أشرب ولا آكل وستة أشهر لا آكل ولا أشرب فقال الشيخ عدي رضي الله عنه: الحمد لله الذي جعل في أصحابي مثلكم فقام الشيخ محمد رشا وكان يدل على الشيخ في الكلام وكشف رأسه وقال له سيدي: سألتك بحرمة موضع الله من قلبك وبحرمة الشيخ عقيل والشيخ مسلمة إلا ما أخبرتنا كيف حالك مع الله تعالى، فقال له الشيخ: اقعد يا كردي ما أنت إلا فضولي ثم قال أنا أقول لكم لكن أقسمت عليكم أن لا تخبروا أحدًا بذلك إلا بعد موتي ثم حلفنا على ذلك وقال: يا ابن رشا هذا رجل يغذيه الله تعالى ويطعمه الحق ويسقيه الحق ويربيه الحق ويدلله كما تدلل الوالدة ولدها إذا لم يكن لها غيره وأنشد:

شربنا على زهر الربيع المههمف　　وجاد لنا الساقي بغير تكلف
فلما شربناها ودبّ دبيبها　　إلى موضع الأسرار قلت لها قفي
مخافة أن يبدو على شعاعها　　وتظهر جلاسي على سري الخفي

وقال الشيخ عمر أيضًا: وصف الشيخ عدي لي يومًا ديك العرش الذي يؤذن في أوقات الصلاة تحت العرش فقتل: يا سيدي أسمعني صوته فلما كان وقت صلاة الظهر قال لي: أدن مني وضع أذنك عند أذني قال: ففعلت فسمعت صياح الديك فغشي علي زمانًا ثم أفقت على إنشاده:

إذا ما أردت جوار الصمد　　وملكًا يدوم وعز الأبد
فلا تفطرن على شبهة　　ولا ترقد الليل مع من رقد

قال الشيخ تقي الدين محمد الواعظ البناني عفا الله عنه: إن سبب مولده كان والده مسافر بن إسماعيل قد دخل الغابة ومكث بها أربعين سنة ثم إنه رأى في المنام قائلًا يقول يا مسافر اخرج وجامع زوجتك يأتيك ولي لله تعالى يكون ذكره في المشرق والمغرب فخرج وأتى زوجته فقالت: لا أفعل حتى تصعد هذه المنارة وتنادي: يا أهل هذا البلد أنا مسافر وقدمت وقد أمرت أن أعلو فرسي فمن علا فرسه أتاه ولي قال: فولد لأجله ثلاثمائة وثلاثة عشر وليًا فلما حملت به أمه مر الشيخ مسلمة والشيخ عقيل على والدته وهي تستقي فقال الشيخ مسلمة للشيخ عقيل: أتنظر الذي أنظر قال: وما هو قال: نور ساطع صاعد من جوف هذه المرأة إلى السماء فقال

عقيل: هذا ولدنا عدي فقال تعالى حتى نسلم عليه فجاؤوا إليه وقالوا له: السلام عليك يا عدي السلام عليك يا ولي الله، ثم ساحوا سبع سنين وجاؤوا فرأوه يلعب مع الصبيان بالكرة وهو يتكنّى ويقول: أنا عدي بن مسافر فطلبوه وسلموا عليه مرة فرد عليهم ثلاث مرات فقالوا: ولم ترد علينا ثلاثًا قال: لأنكم سلمتم علي وأنا في بطن أمي مرتين ولولا حيائي من عيسى ابن مريم عليه السلام لرددت عليكم من بطن أمي مرتين فلما بلغ مبالغ الرجال رأى في ليلة قائلًا يقول له: يا عدي قم إلى الألش فهو مقامك ويحيي الله على يديك قلوبًا ميتة. قال وقال أبو البركات دخل يومًا على عمي الشيخ عدي ثلاثون فقيرًا فقال عشرة منهم: يا سيدي تكلم لنا في شيء من الحقيقة فتكلم لهم فذابوا وبقي موضعهم حومة ماء وتقدم العشرة الثانية فقالوا له: تكلّم لنا في شيء من حقيقة المحبة فتكلم فماتوا ثم تقدم الآخرون وقالوا: يا سيدنا تكلم لنا في شيء من حقيقة الفقر فتكلم لهم فنزعوا ما كان عليهم من الثياب وخرجوا عرايا إلى البرية، ودخل عليه ذات يوم جماعة فقالوا له: نريد منك أن ترينا شيئًا من كرامات القوم فقال: يا إخوتي نحن فقراء فقالوا: لا بد من ذلك فقال لهم: إن لله رجالًا يقولون لهذه الأشجار اسجدي لله تعالى فسجدت تلك الأشجار جميعها وهي إلى الآن لا تنبت شجرة إلا وهي منحنية إلى الزاوية رضي الله عنه انتهى كلامه ملخصًا.

وقال عماد الدين بن كثير في تاريخه الشيخ عدي بن مسافر بن إسماعيل بن موسى بن مروان بن الحسن بن مروان الهكاري شيخ الطائفة العدوية أصله من البقاع غربي دمشق من قرية يقال لها بيت فار ثم رحل إلى بغداد فاجتمع فيها بالشيخ عبد القادر والشيخ حماد الدباس والشيخ عقيل المنبجي وأبي الوفاء الحلواني وأبي النجيب السهروردي وغيرهم ثم انفرد بجبل هكار وبنى له هناك زاوية واعتقد فيه أهل تلك النواحي اعتقادًا بليغًا حتى إن منهم من يغلو فيه غلوًا منكرًا.

وقال الحافظ الذهبي في تاريخه وذكره الحافظ عبد القادر فسماه عديًا الشامي وقال: ساح سنين كثيرة وصحب المشايخ وجاهد أنواعًا من المجاهدات ثم إنه سكن بعض جبال الموصل في موضع ليس له أنيس ثم أنس الله تلك المواضع به وعمرها ببركاته حتى صار لا يخاف أحد بها بعد قطع السبل وارتدع جماعة من مفسدي الأكراد ببركاته وعمره الله تعالى حتى انتفع به خلق كثير وانتشر ذكره وكان على الخير ناصحًا متشرعًا شديدًا في الله تعالى لا تأخذه في الله لومة لائم عاش قريبًا من ثمانين سنة ما بلغنا أنه باع شيئًا قط وتلبس بشيء من أمر الدنيا كانت له غليلة

يزرعها بالقدوم في الجبل ويحصدها ويتقوت منها وكان يزرع القطن ويكتسي منه ولا يأكل من مال أحد شيئًا ولا يدخل منزل أحد وكان يواصل الأيام الكثيرة حتى أن بعض الناس كان يعتقد أنه لا يأكل شيئًا قط فلما بلغه ذلك أخذ شيئًا وأكله بحضرة الناس. انتهى.

وقال ابن خلكان في تاريخه الشيخ عدي بن مسافر الصالح الهكاري: مسكنا العابد الزاهد المشهور سار ذكره في البلاد وتبعه خلق كثير وجاوز حسن اعتقادهم فيه الحد وجعلوه ذخيرتهم في الآخرة ومال إليه أهل تلك النواحي كلها ميلًا لم يسمع بمثله وكان مولده في قرية يقال لها بيت فار من أعمال بعلبك والبيت الذي ولد فيه يزار إلى الآن وتوفي سنة سبع وقيل خمس وخمسين وخمسمائة وقبره عندهم من المزارات المعدودة انتهى كلامه.

وقال قاضي القضاة مجير الدين عبد الرحمن العمري المقدسي العليمي الحنبلي في تاريخه المعتبر في أنباء من عبر الشيخ عدي بن مسافر بن إسماعيل بن سى بن مروان الأموي بن الحسن بن مروان بن إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن عثمان بن عفان بن ربيعة بن عبد شمس بن زهرة بن عبد مناف رضي الله عنه وعنهم أجمعين: الهكاري مسكنا العبد الصالح المشهور الذي تنسب إليه الطائفة العدوية سار ذكره في الآفاق وتبعه خلق كثير[١]. ولد بقرية يقال لها بيت فار من أعمال بعلبك والبيت الذي ولد فيه يزار إلى الآن وتوفي سنة سبع وقيل خمس وخمسين وخمسمائة في بلدة الهكارية ودفن بزاويته وعاش تسعين سنة انتهى رضي الله عنه ورضي عنا به. ومنهم الشيخ القدوة علي بن الهيتي[٢] بكسر الهاء وسكون الياء المثناة من تحت وكسر التاء المثناة من فوق رضي الله عنه كان من أجل مشايخ العراق ذي الكرامات قطب الوقت وهو أحد الأربعة الذين يبرئون الأكمه والأبرص ويحيون الموتى بإذن الله سبحانه وتعالى وقال رجل به صمم بحرمتهم عاف سمعي فزال صممه وكانت عند الشيخ علي الخرقتان اللتان ألبسهما الصديق أبو بكر رضي الله عنه لأبي بكر بن هوارا في النوم واستيقظ

---

(١) انظر: مقدمة كتاب الشيخ عدي بن مسافر «اعتقاد أهل السنة والجماعة» بتحقيقنا ـ ط دار الكتب العلمية ـ بيروت.

(٢) هو أحد المشايخ الكبار، أصحاب الكرامات والأسرار، ممن خصهم بالأنوار. . . وانظر: بهجة الأسرار ومعدن الأنوار للشطنوفي (ص ٣٢) بتحقيقنا ـ طبع العلمية ـ بيروت.

فوجدهما عليه وهما ثوب وطاقية وأخذهما منه الشيخ الشنبكي وأخذهما منه أبو الوفاء وأخذهما منه الشيخ علي المذكور وأخذهما منه الشيخ علي بن إدريس ثم فقدتا من عنده. والشيخ رضي الله عنه هو الذي أتاه الخطاب يا ملكي تصرف في ملكي واشتهر عنه أنه مكث ثمانين سنة ليس له خلوة ولا معزل بل كان ينام بين الفقراء رضي الله عنهم وهو أحد من أظهره الله تعالى إلى الخلق وأوقع له عندهم القبول العظيم ووقر صدورهم من هيبته وقلوبهم من محبته وأنطقه الله تعالى بالمغيبات وخرق له العادات وأقامه حجة وقدوة وكان سيدنا الشيخ عبد القادر رضي الله عنه يثني كثيرًا عليه ويحبه ويحترمه ويرفع من شأنه وقال كل من دخل بغداد من الأولياء من عالم الغيب والشهادة فهو في ضيافتنا ونحن في ضيافة الشيخ علي بن الهيتي وقال الشيخ علي الخباز ما علمنا أن أحدًا من المشايخ الذين عاصروا الشيخ محيي الدين عبد القادر رضي الله عنه كان أكثر ترددًا وخدمة من الشيخ علي بن الهيتي لسيدنا الشيخ عبد القادر رضي الله عنهما.

وكان الشيخ علي رضي الله عنه إذا أراد زيارة الشيخ عبد القادر رضي الله عنه هو وأصحابه اغتسلوا في الدجلة ثم يقول لهم نقوا قلوبكم واحفظوا خواطركم فإنا نريد أن ندخل على السلطان فإذا وصل المدرسة تخفى ووقف على الباب فيناديه الشيخ: إليّ يا أخي فيدخل فيجلسه إلى جانبه وهو يرعد فيقول له: تخاف وأنت شحنة العراق فيقول له: يا سيدي أنت السلطان آمني خوفك فإذا أمنت خوفك أمنت فيقول له: لا خوف عليك انتهت إليه رياسة هذا الشأن في تربية المريدين الصادقين وكشف مشكلات أحوالهم وتخرج بصحبته غير واحد من الأكابر مثل أبي محمد علي بن إدريس اليعقوبي وغيره وتلمذ له جماعة كثيرة من ذوي الأحوال وانتمى إليه أمة من الخلق وأجمع العلماء والمشايخ على تبجيله واحترامه وكان شيخه تاج العارفين رضي الله عنه يثني عليه كثيرًا ويقدمه على غيره وينسبه على فضله وكان له كلام نفيس على لسان أهل الحقائق رضي الله عنه. منه الشريعة ما ورد به التكليف والحقيقة ما حصل به التعريف فالشريعة مؤيدة بالحقيقة والحقيقة مؤيدة بالشريعة والشريعة وجود الأفعال لله تعالى والحقيقة شهود الأحوال بالله تعالى ومن شعره:

إن رحت أطلبه لا ينقضي سفري	أو جئت أحضره غيبت في الحضر
فلا أراه ولا ينفك عن نظري	وفي ضميري ولا ألقاه في عمري
فليتني غبت عن جسمي برؤيته	وعن فؤادي وعن سمعي وعن بصري

وذكر أن شخصًا جاء إلى الشيخ علي وساره وبين يديه صاحب الديوان فقام الشيخ علي وشد وسطه فقال له صاحب الديوان: ما هذا يا سيدي فقال له الخليفة: إذا أتاك أمره ما تصنع فقال له: يا سيدي مثل ما صنعت أصنع ولا أزال في الخدمة أفعل ما أمرت به فقال له الشيخ رضي الله عنه: وها أنا أتاني أمر سيدي الشيخ عبد القادر مع الخضر عليه السلام يطلب مني ثورين لحمامه وهو خليفة الأولياء والمشايخ في هذا الوقت وسلطان الوجود في هذا العصر. وزار الشيخ علي رضي الله عنه مرة سيدنا الشيخ عبد القادر رضي الله عنه فوجده نائمًا فلم يوقظه وقال ثلاث مرات والله أشهد عند الله إن ما في الحواريين مثله فلما استيقظ الشيخ قال: أنا محمدي والحواريون عيسويون. وقال الشيخ علي رضي الله عنه لو دبت نملة دهماء في ليلة ظلماء على صخرة سوداء من جبل قاف ولم يعلمني بها ربي بلا واسطة ويطلعني عليها عيابًا لانفطرت مرارتي. وقال الشيخان أبو محمد الحسن الحوراني وأبو حفص عمر بن مزاحم الدنيسوي ركب الشيخ علي رضي الله عنه مرة وأتى إلي يلتقي من أعمال نهر الملك ونزل على بعض أهلها فاحتفل به الرجل فقال له الشيخ: اذبح هذه الدجاجة وهذه يشير إلى دجاجة بين يديه ففعل فخرج من بطنها مائة ذهب فبهت الرجل وكانت لأخته عنبرية من ذهب فانصرمت من حيث لم تشعر والتقطها الدجاج وظن أهلها أنه حدث عليها أمر وهموا بقتلها تلك الليلة فقال الشيخ: إن الله قد أطلعني على إبراء أختك وعلى ما في نفوسكم وعلى ما في بطون هذه الدجاجة وإني قد استأذنت ربي تبارك وتعالى في أن أكشف لكم عن هذه القضية وأنقذكم من الهلكة فأذن لي رضي الله عنه. وحضر رضي الله عنه سماعًا بقرية رزيران فلما أخذ المشايخ بحظهم من السماع أنكر عليهم من كان حاضرًا من الفقهاء والقراء ببواطنهم فقام الشيخ وطاف عليهم فكان كلما قابل رجلًا ونظر إليه فقد جميع ما في صدره من القرآن والعلم حتى أتى على آخرهم ومكثوا كذلك شهرًا ثم أتوا كلهم إليه وقبلوا رجليه واستغفروا فأمر بمد السماط فأكلوا وأكل معهم وألقم كل واحد منهم لقمة فوجد كل منهم ما فقده وسار رضي الله عنه في قرى نهر الملك فوجد أهل قريتين قد أشهروا سيوفهم وتوجهوا للقتال بسبب قتيل مطروح بينهم قد اتهم الفريقان بقتله فجاء الشيخ رضي الله عنه حتى وقف على المقتول وأخذ بناصيته وقال: من قتلك يا عبد الله فاستوى جالسًا وقال: قتلني فلان بن فلان ثم عاد كما كان ميتًا.

وقال الشيخ أبو الحسن الجوسقي رحمة الله عليه رأيت الشيخ يومًا من حيث لم يشعر بي في ظني وكان جالسًا تحت نخلة في قراح فرأيت النخلة قد امتلأت عراجين

ثمر وتدلت حتى دنت منه فجعل يتناول من الثمر ويأكل وما في العراق ثمر على نخل ثم انصرفت فجئت على أثره إلى مكانه فوجدت ثمرة فأكلتها يشبه طعمها المسك.

وقال الشيخ أبو محمد مسعود الحارثي رحمة الله عليه: كان شيخنا الشيخ علي بن الهيتي رضي الله عنه عند امرأة تخدمه اسمها ريحانة وتلقب بست البهاء رضي الله عنهما فمرضت مرضها الذي ماتت فيه فقالت للشيخ: يا سيدي أشتهي رطبًا ولم يكن بقرية رزيران إذ ذاك رطب وكان بقرية قطفنا رطب عند شخص صالح يدعى عبد السلام فحول الشيخ وجهه إلى جهة قطفنا وقال يا عبد السلام أحمل إلى ريحانة رطبًا من رطبك فأسمع الله صوته لعبد السلام فأخذ من الرطب وسافر إلى عند الشيخ وقدم الرطب بين يديها فأكلت فقال لها عبد السلام: يا سيدتي بين يديك ما هو أطيب منه فقالت: يا عبد السلام أكون خادمة للشيخ علي بن الهيتي ويفوتني شيء من الدنيا والآخرة اذهب فلتتنصرن ثم ماتت إلى رحمة الله تعالى ثم ذهب عبد السلام إلى بغداد فرأى في طريقه نسوة من النصارى فهوى واحدة منهن وسألها أن يتزوج بها فأبت إلا أن يتنصر ففعل وأقام عندها ببلدها وولدت له أولادًا ومرض مرضًا شديدًا فقيل للشيخ علي عن ذلك فقال: يا رب إني غضبت لغضب ريحانة وقد رضيت أسألك أن تأتيني به فإني لا أحب أن يحشر مع النصارى لعنهم الله تعالى. وقال للشيخ عمر البزاز: اذهب إلى قرية كذا وادخل على عبد السلام وصب عليه جرة من ماء وأتني به فذهب فوجده في شدة المرض فصب عليه الماء فقام وأسلم وأسلمت زوجته وأولاده وجميع من في دارهم وشفي من المرض وأتوا كلهم إلى عند الشيخ ورجع على عبد السلام جميع ما كان من الخيرات ببركته رضي الله عنه.

سكن رضي الله عنه بقرية رزيران من عمل نهر الملك إلى أن مات بها في سنة أربع وستين وخمسمائة وقد غلب سنه على مائة وعشرين سنة ودفن بها وقبره ظاهر يزار، وكان بهيًا سنيًا ظريفًا جميلًا يلبس لباس أهل السواد وقد حوى مكارم الأخلاق ومحاسن الصفات وجلائل المناقب، وكان من أكرم أهل زمانه وأوفرهم عقلًا وأكثرهم إيثارًا، ومآثره مشهورة وكان أصحابه على سلوك هذا القدم واقتفاء هذا المنهاج رضي الله عنهم. ومنهم الشيخ أبو يعز المغربي[١] رضي الله عنه كان من أعيان المشايخ

(١) هو من صدور الأولياء، صاحب الكرامات الخارقة، والمقامات السنية، والأوصاف العلية، والأحوال الجلية، أحد أوتاد المغرب، وعظماء الزهاد المحققين بها. . . وانظر: بهجة الأسرار ومعدن الأنوار للشطنوفي (ص ٢٨١) بتحقيقنا.

بالمغرب وصدور الأولياء له الكرامات الخارقة والتصريف الظاهر والمقامات السنية والأوصاف العلية والأحوال الجلية وهو أحد أوتاد المغرب وأجلاء العارفين وعظماء الزهاد والمحققين بها وأحد أركان هذه الطريقة له القدم الراسخ في هذا الشأن مقصود بالزيارات من بلاد المشرق والمغرب وكان دائم المراقبة شديد المناقشة لنفسه قويًا على المجاهدة وتخرج بصحبته غير واحد من أكابر مشايخها وقال بإرادته خلق لا يحصون وكان أهل المغرب يستسقون به فيسقون ويرجعون إليه في المعضلات فتنكشف عنهم وكان له كلام عال في المعارف. منه الأحوال مالكة لأهل البدايات فهي تصرفهم ومملوكة لأهل النهايات فهم يصرفونها وكل حقيقة تمحو أثر العبد ورسومه فليست بحقيقة ومنه من طلب الحق من جهة الفضل وصل إليه ومن لم يكن لأحد لم يكن بأحد وأنفع الكلام ما كان إشارة عن مشاهدة أقام رضي الله عنه في بدايته في البر خمس عشرة سنة لا يأكل إلا حب الخبازي وكانت الأسد تأوي إليه والطير تعكف عليه وكانت الأسد إذا ضريت وافترست القفول وقطعت السبل جاء فأمسك بأذنها تنقاد له ذليلة ويقول لها: يا كلاب الله ارتحلي من هنا ولا تعودي فتذهب ولا ترى بعد ذلك في ذلك المكان. وقال الشيخ محمد الإفريقي جاء المتحطبون يشكون إليه كثرة الأسد في غابة يحتطبون فقال لخادمه: اذهب إلى طرف الغابة وناد بأعلى صوتك معاشر الأسد يأمركم الشيخ أبو يعز أن ترحلوا من هذه الغابة فذهب وفعل ذلك فكانت الأسد ترى خارجة تحمل أشبالها حتى لم يبق فيها شيء ولم ير فيها بعد ذلك أسد.

وقال الشيخ أبو مدين رضي الله عنه جئت في وقت قحط كان بالمغرب إلى الشيخ أبي يعز وهو جالس بالصحراء وحوله وحوش كثيرة أسد وغيرها مختلطون لا يؤذي بعضها بعضًا وعلى رأسه طيور كثيرة فتقدم إليه بعض الوحوش وصوت له كأنه شاكي إليه فقال لها: رزقك كذا في مكان كذا فيذهب من بين يديه حتى أتى عليه آخرهم فقال لي: الوحوش والطيور اجتمعت إلي فشكوا شدة الجوع والقحط وقالت: إنها لا تؤثر أن تسكن أرضًا غير بلاد المغرب محبة في جواري وأن الله أطلعني على أرزاقها في أوقاتها في مواطنها. وجاء رجل من بعض أصحاب الشيخ أبي مدين إلى شيخه الشيخ أبي يعز المذكور في وقت مجدب وقال: إن لي أرضًا أقتات أنا وعيالي منها وقد أجدبت فقام الشيخ معه وأتى إلى أرضه ومشى فيها فأمطرت أرضه خاصة حتى رويت ولم يعدها المطر ولم تزرع أرض بالمغرب سواها. سكن رضي الله عنه باعيت قصبة من أعمال فاس واستوطنها إلى أن مات بها وعلت سنه وقبره بها ظاهر

يزار وأهل المغرب يلقبونه بدد يعني الأب الكبير لقبوه بذلك لكبر شأنه عندهم رضي الله عنه. ومنهم الشيخ القدوة الشيخ أبو نعمة مسلمة بن نعمة السروجي شيخ المشايخ وسيد الأولياء ورئيس الأصفياء وزعيم الأتقياء له القدم الراسخة والهمم الشامخة صاحب الكرامات الظاهرة والأحوال الباهرة والأفعال الخارقة والأنفاس الصادقة وهو أحد من أظهره الله تعالى إلى الوجود وصرفه في الكون وأوقع له القبول والهيبة التامة في صدور الخلق وكان من أهل العلم والنسك والكرم والسخاء والاحتفال بالضيفان وإكرام الغرباء والحنو على الفقراء واللطف بالضعفاء والرحمة للمساكين وإليه انتهت رياسة هذا الشأن في وقته علمًا وعملًا وحالًا ومقامًا وتخرج به جماعة من صدور المشايخ مثل الشيخ عقيل المنبجي الآتي ذكره وغيره من الأعيان وقال بإرادته جم غفير من أصحاب الأحوال وتلمذ له خلق كثير ممن له قدم راسخ في هذا الشأن وأجمع العلماء والمشايخ على تعظيمه وتبجيله وقصد بالزيارات، ورُوِيَ عنه أنه قال: حضنت أربعين بيضة مذرة ما ظهر فيها مذرة إلا الشيخ عقيل المنبجي هذا والشيخ عقيل رضي الله عنه له أربعون مريدًا منهم الشيخ عدي بن مسافر والشيخ موسى الزولي والشيخ رسلان الدمشقي والشيخ شبيب الشطي الفراني رضي الله عنهم، وقال مؤلف كتاب الأرواح روينا عن الشيخ مسلمة السروجي أنه في أيام حياته قصد الكفرة الفرنج أو الأرمن مدينة سروج وقتلوا وأسروا ثم قصدوا زاويته فوصلهم الخبر فقالوا: يا سيدي جاءنا العدو فقال: اصبروا ثم كرروا القول إلى أن قالوا: بيننا وبينهم قدر رشفة حجر فخرج وأشار بيده الكريمة برجوعهم فرجعت بهم الخيل قهرًا لا يستطيعون ردها بوجه فقلت: منهم خلقًا عظيمًا وكذلك من الخيل وتكسرت العدد ووصلوا سور البلد في سوء حال فنزلوا وفعلوا ما يليق من الأدب مستقبلين بوجوههم نحو الزاوية وأرسلوا إليه يعتذرون ويسألون العفو فقال لرسولهم: قل لهم جوابكم عما فعلتم برسله إليكم بكرة إن شاء الله تعالى فلم يعلموا ما هو فصبحهم بكرة جيش المسلمين ففعل بهم ما يستحقونه واستأصل شأفتهم ودمرهم تدميرًا انتهى.

ونقل أيضًا أن العدو المخذول أسر مرة ولده نعمة فأقام عندهم مدة فلما كان ليلة العيد بكت أمه فسألها فقالت: كيف حالي وابني في الأسر فقال: وما تريدين، فقالت: صدقة الشيخ فقال: نحضره بكرة إن شاء الله تعالى. ثم قال بكرة اذهبوا إلى تل حرمل واحضروه، فذهبوا فوجدوه والأسد عنده فسألوه فقال: جاء هذا الأسد فاحتملني على ظهره من بيت الذي أسرني إلى هنا فلما رآهم الأسد رجع إلى حيث جاء مسترسلًا وقيل إن تل حرمل قرية شرقي قرية الشيخ مسلمة بينهما مسيرة ساعة.

ونقل أيضًا أن شخصًا من الزامة حج فلما كان ليلة عيد الأضحى قالت أمه: قد خبزنا أقراصًا وكعكًا وفي قلبي من فلان فقال لها الشيخ مسلمة: هاتي نصيبه وأنا أخبؤه له فجاءت به فخبأه الشيخ في مئزر فلما جاء الحج أحضر المئزر والشخص فسألته أمه فقال: هو ورفاقه ليلة العيد وجدنا هذا المئزر وفيه أقراص وكعك كأنه قد رفع من التنور رضي عنه. توفي رحمة الله عليه في رجب سنة ست وستين وأربعمائة بقريته على قريب من ساعة ونصف من مدينة سروج قبليها بشرق ودفن بها وقبره بها ظاهر يزار رضي الله عنه ونفعنا به. والسروجي بفتح السين المهملة نسبة إلى مدينة سروج المذكورة ليست هي نسبة إلى عمل السروج فإن الذي يعمل سروج الدواب يقال له سروجي بضم السين المهملة والله أعلم. ومنهم الشيخ القدوة عقيل المنبجي[1] رضي الله عنه كان شيخ مشايخ الشام في وقته وتخرج بصحبته غير واحد من أكابرهم رضي الله عنهم عدتهم أربعون رجلًا من أصحاب الأحوال منهم الشيخ عدي بن مسافر والشيخ موسى الزولي رضي الله عنهما وهو أول من دخل بالخرقة العمرية الشريفة إلى الشام وعنه أخذت وسمي بالطيار لما أن طار من منارة القرية التي كان بها ببلاد المشرق ثم أخذ أهله خبره أنه بمنبج فأتوا إليه فوجدوه بها وسمي أيضًا بالغواص وسماه بها شيخه الشيخ مسلمة رضي الله عنه لأنه خرج مع جماعة من أصحاب الشيخ مسلمة إلى زيارة بيت المقدس فلما بلغوا الفرات وضع كل منهم سجادته على الماء وجلس عليها وعدي إلى الناحية الأخرى ووضع الشيخ عقيل سجادته على الماء وجلس عليها وغاص في الماء وعدي ولم يبتل منه شيء فلما رجعوا إلى عند الشيخ مسلمة أخبروه بذلك فقال عقيل من الغواصين وهو أحد الأربعة المشايخ الذين يتصرفون في قبورهم كتصرف الأحياء الشيخ عبد القادر الجيلاني والشيخ معروف الكرخي والشيخ عقيل المنبجي والشيخ حياة بن قيس الحراني رضي الله عنهم. وكان للشيخ عقيل المذكور كلام عال في المعارف منه طريقنا الجد والكد ولزوم الحد حتى تنقد فأما أن يبلغ الفتى مناه أو يموت بداه ومنه من طلب لنفسه حالًا أو مقامًا فهو بعيد من طرقات المعارف والفتوة رؤية محاسن العبيد والعمية عن مساويهم والمدعي من أشار إلى نفسه حالًا بغير حال كذاب.

---

(١) هو من أكابر مشايخ الشام في وقته، وعظماء العارفين في عصر، أحد أركان هذه الطريقة علمًا وحالاً، وزهدًا، وهو أول من دخل بالخرقة العمرية شرفها الله تعالى إلى الشام وعنه أُخذ، وهو المسمى بالطيار. . . والغواص. . . وله عجائب، انظر: بهجة الأسرار ومعدن الأنوار (ص ٢٧٩)، بتحقيقنا طبع العلمية ـ بيروت.

قال الشيخ عثمان بن مرزوق: جلس الشيخ عقيل المنبجي في أول أمره هو وسبعة عشر رجلًا من أصحاب الأحوال من مريدي الشيخ مسلمة رضي الله عنه في غار ووضع كل منهم عكازه في مكان من الغار فجاء رجال من الهواء وجعلوا يرفعون تلك العكاكيز حتى جاؤوا إلى عكاز الشيخ عقيل فلم يستطيعوا رفعه بأيديهم فرادى ومجتمعين فلما رجعوا إلى الشيخ مسلمة أخبروه بذلك فقال: أولئك أولياء الله في هذا الزمان فكل عكاز رفعوه فصاحبه في مقام رافعه أو دونه فلذلك لم يطيقوا رفع عكاز عقيل فإنه ليس فيهم مَن مقامه يعلو على مقامه. وقال الشيخ أبو المجد المنبجي: أخبرني أبي عن جدي أنه قال: حضرت الشيخ عقيلًا بظاهر منبج تحت الجبل وعنده جمع من الصلحاء فقال له أحدهم: ما علامة الصادق؟ قال: لو قال لهذا الجبل تحرك لتحرك فتحرك الجبل، ثم قال: ما علامة المتصرف؟ قال: لو أمر وحوش البر والبحر أن تأتيه لفعلت فما تم كلامه حتى نزل علينا من الجبل وحوش سدت الفضاء وأخبر الصيادون أن شط الفرات امتلأ في ذلك الوقت أسماكًا ثم قال: يا سيدي وما علامة المبارك على أهل زمانه؟ قال: لو وكز برجله هذه الصخرة لتفجرت عيونًا ثم عادت فتفجرت صخرة كانت بين يديه عيونًا ثم عادت صخرة صماء. قال: وخرج من زاويته يومًا في سفر له من منبج فرأى جماعة من أصحابه وتلامذته قيامًا ينتظرونه فحدثته نفسه أن هؤلاء قيام لأجلك فبكى ثم أنشد:

تعديت قدري بحبي لكم وأيقنت أني بكم أرحم
محب الكرام وإن لم يكن كريمًا ولكن بحب لهم يكرم

سكن رضي الله عنه منبج واستوطنها تسعًا وأربعين سنة ومات بها وقد علت سنه وقبره بها ظاهر يزار إلى الآن وقد زرته وأنا شاب وحصل لي ببركته كل خير رضي الله عنه ورضي عنا به. ومنهم الشيخ القدوة العارف بالله الشيخ علي بن وهب الربيعي[١] رضي الله عنه كان من أجلاء المشايخ بالعراق كبير القدر صاحب كرامات خارقة ومقامات جليلة ومكانات رفيعة له الطود الأعلى من المعارف والمحل الأرفع من الحقائق وهو أحد من أبرزه الله إلى الخلق وأوقع هيبته في القلوب وأنطقه

---

(١) هو من عظماء العارفين، وأئمة الصادقين، وأعيان الزمان، صاحب الفتح السني، والكشف الجلي، والقدر العلي. . . والباع الطويل في الحقائق، والقدم الراسخ في العلوم، والمكان المكين في التمكين. . . وانظر: بهجة الأسرار (ص ٤٢٨) بتحقيقنا ـ ط دار الكتب العلمية ـ بيروت.

بالمغيبات وخرق له العادات وانعقد عليه إجماع المشايخ وغيرهم وانتهت إليه تربية المريدين بسنجار وما يليها وتلمذ له جماعة من الصلحاء والأكابر مثل الشيخ سويد السنجاري والشيخ أبي بكر الخباز والشيخ سعد الصنائحي وغيرهم وانتمى إليه من أهل المشرق خلق لا يحصون ونقل أنه مات عن أحد وسبعين رجلًا من مريديه كلهم أصحاب أحوال وأنهم اجتمعوا في روضة تجاه زاويته يوم موته فجعل كل منهم يأخذ من تلك الروضة قبضة من نباتها ويتنفس عليها فتزهر من الأزهار مختلفة ألوانها وهو القائل إن الله تعالى أعطاني كنزًا مختومًا بحوله وقوته وهو المسمى براد الغائب لأنه من فقد حاله جاء إليه ورده عليه بزيارة وهو أحد الرجلين اللذين لبسا الخرقة من الصديق رضي الله عنه في النوم بأمر واستيقظ وهي على رأسه، والثاني سيدنا الشيخ أبو بكر بن هوارا واجتمع هو والشيخ عدي بن مسافر والشيخ موسى الزولي عند صخرة عظيمة بجبل الشكرية ببلاد المشرق فقالا له: ما التوحيد، فقال هذا وأشار بيده إلى تلك الصخرة وقال الله: فانفلقت نصفين وهي معروفة والناس يصلون بين نصفيها رضي الله عنهم.

وقال عمر بن عبد الحميد أخبرني أبي عن جدي أنه قال صليت بسيدي الشيخ علي بن وهب أربعين سنة وسألته عن بداية أمره فقال حفظت القرآن العظيم وأنا ابن سبع سنين ودخلت بغداد وعمري ثلاث عشر سنة وقرأت فيها على العلماء رضي الله عنهم ومكثت أشتغل بالعلم وأتعبد في مسجدي بظاهر البلد فبينما أنا ليلة نائم إذا رأيت الصديق رضي الله عنه فقال لي: يا علي قد أمرت أن ألبسك هذه الطاقية وأخرجها من كمه ووضعها على رأسي ثم جاءني الخضر عليه السلام بعد أيام وقال لي: يا علي اخرج إلى الناس ينتفعون بك فتثبت ثم عدت فرأيت الصديق في النوم وقال لي كما قال الخضر. فتثبت في أمري ثم رأيت النبي ﷺ في ثاني ليلة فقال كما قال الصديق رضي الله عنه فاستيقظت وعزمت على الخروج ونمت آخر ليلتي فرأيت الحق سبحانه وتعالى فقال لي: يا عبدي قد جعلتك من صفوتي في أرضي وأيدتك في جميع أحوالك بروح مني وأقمتك رحمة لخلقي فاخرج إليهم واحكم فيهم بما علمتك من حكم وأظهر لهم بما أيدتك من آياتي قال: فاستيقظت وخرجت إلى الناس فأهرعوا إلي وأجمع العلماء والمشايخ رضي الله عنهم على تبجيله واحترامه وقصد بالزيارات والنذور من الأقطار واشتهر ذكره في الآفاق وكان له كلام على لسان أهل الحقائق رضي الله عنهم منه من أحب الحق وأراده أسكن قلبه الإرادة فالمريد محب طالب والمراد محبوب مطلوب مأخوذ مسلوب إلى

الجناب مجذوب قد ظهر عليه الشوق وغلب إذ قد وجد ما طلب قد قطع الطريق وطواها وأزال نفسه ونحاها ومحا الأكوان من نظره فما يراها. ومنه الزهد فريضة وفضيلة وقربة فالفريضة في الحرام والفضيلة في المتشابهة والقربة في الحلال والزهد أعم من الورع لأن الورع اتقاء الكل والزهد قطع الكل وعلامة الإخلاص أن يغيب عنك الخلق في مشاهدة الحق وبقاء الأبد في فنائك عنك ومن سكن بسره لغير الله تعالى نزع الرحمة من قلوبهم عليه وألبسه لباس الطمع فيهم، وكان كثيرًا ما يتمثل بهذه الأبيات:

مَن أظهروه على سرّ وباح به ... لم يطلعوه على الأسرار ما عاشا
وأبعدوه فلم ينعم بقربهم ... وأبدلوه مكان الإنس إيحاشا
لا يصطفون مُذيعًا بعض سرّهم ... حاشا جلالهم من ذلكم حاشا

قال الشيخ محمد ابن سيدنا الشيخ علي بن وهب المشار إليه فيه رضي الله عنهما كان في زمن والدي رجل من أهل همدان يسمى الشيخ محمد بن أحمد الهمداني فقد حاله وتوارث عنه أحواله وصفاته وكان من بعض أحواله أن بصيرته ترى من الملكوت إلى العرش فطاف البلاد فلم يرد عليه أحد حاله فجاء إلى الشيخ فتلقاه وأكرمه وقال له: يا شيخ محمد أنا أرد عليك حالك بزيادة ثم أمره أن يغمض عينيه فأغمضها فرأى من الملكوت الأعلى إلى العرش ثم قال له: هذا حالك وسأزيد اثنين ثم أمره أن يغمض عينيه فأغمضهما فرأى من الملكوت الأسفل إلى البهموت فقال له: هذه واحدة وأما الأخرى فقد أعطيتك قدمًا تمر بها إلى جميع الآفاق فرفع إحدى رجليه وهو عند الشيخ ووضع الأخرى بهمدان من بركته رضي الله عنه. قال وورد عليه جماعة من الفقراء واشتهوا عليه حلوًا فدخل إلى داره وأخذ قشر رمان ووضعه بين أيديهم بعد أن أوقد عليه النار وصبه في إناء وأخرجه إليهم فأكلوا حلوًا من أحسن حلوى الدنيا وأطيبها وألذها. وأتى رجل مغربي اسمه عبد الرحمٰن إلى الشيخ رضي الله عنه ووضع بين يديه سبيكة من فضة وقال: يا سيدي هذه من صنعتي للفقراء، فقال الشيخ لمن حضر عنده من الفقراء: مَن عنده آنية من نحاس فليأتني بها فأتوه بأوانٍ كثيرة وجعلت في وسط الزاوية فقام الشيخ ومشى عليها فصار بعضها ذهبًا وبعضها فضة إلا طاستين ثم قال الشيخ لأصحاب الأواني: مَن له آنية فليأخذها فأخذوها ذهبًا وفضة ثم قال لعبد الرحمٰن يا بني إن الله تعالى قد أعطاني هذا كله وتركناه ولا حاجة لنا فيه خذ سبيكتك ثم سئل عن سبب اختلاف الآنية فقال: من أتى بآنيته ولم يكن في نفسه حرج صارت آنيته ذهبًا ومن وجد في نفسه بعض حرج

صارت آنيته فضة ومن كانت نيته سيئة الظن بي لم تتغير آنيته عن حالها. ونقل عنه أنه كان رضي الله عنه يحرث على فدان ببقرتين فكان لا يمسهما بيده وإذا قال لهما قِفا وقفا أو امشيا مشيا وربما بذر الحنطة وغيرها فتطلع في الحال خلفه، وماتت له بقرة فجاء وأخذ بقرنها وقال: اللَّهمَّ احيها لي فقامت تنفض أذنيها رضي الله عنه، وبالجملة مناقبه كثيرة مشهورة. سكن رضي الله عنه البدرية قرية من عمل سنجار وبها مات وقد نيف على ثمانين سنة وقبرة بها ظاهر يزار، وكان عالمًا فاضلًا فصيحًا متواضعًا لا يحلف بالله تعالى ولا يرفع رأسه إلى السماء حياء من الله تعالى وهو بدوي من بني ربيعة شيباني رضي الله عنه أقول وهذا القطب الكامل والعالم العامل ذو المناقب الرفيعة أحد رجال قبيلتنا بني ربيعة لم يذكره ولد عمي العلامة المحقق الرضوي رضي الدين محمد الحنيفي عامله الله بلطفه الخفي في تأليفه المرسوم بالآثار الرفيعة في مآثر بني ربيعة.

ومنهم الشيخ القدوة موسى بن ماهان الزولي وقيل ابن ماهين رضي الله عنه(١)

كان من أجل المشايخ وأعظمهم حالًا وهو أحد من أبرزه الله تعالى إلى العباد وأوقع له الهيبة في القلوب وأنطقه الله تعالى بالمغيبات وخرق له العادات وانعقد عليه إجماع المشايخ وغيرهم وتخرج بصحبته كثير من مشايخ المشرق وتلمذ له جماعة من ذوي الأحوال وانتمى إليه خلق كثير وجمٌّ غفير وكان شيخنا وسيدنا الشيخ عبد القادر رضي الله عنه يعظمه ويثني عليه كثيرًا وقال مرة: يا أهل بغداد ستطلع عليكم شمس ما طلعت عليكم بعد فقيل: ومن هو، قال الشيخ موسى الزولي رضي الله عنه ثم أمر الناس بتلقيه من مسيرة يومين فلما قدم أكرمه الشيخ عبد القادر رضي الله عنه إكرامًا كثيرًا وكان قد قدم حاجًا رضي الله عنه وكان له كلام عال على لسان أهل المعارف وكان رضي الله عنه مجاب الدعوة فما دعا لأعمى إلا أبصر ولا على بصير بالعمى إلا عمي ولا لفقير إلا استغنى ولا على غني بالفقر إلا افتقر ولا لذي عاهة أو مريض إلا بريء وعوفي ولا في شيء بالبركة إلا بورك فيه ولا في أحد بأمر إلا ظهر عليه في الحال رضي الله عنه. قال أحمد الماريدني سمعت أبي يحدث عن أبيه أن الشيخ

(١) هو صاحب الكرامات المأثورة، والمناقب المشهورة، وهو أحد من أبرزه الله تعالى إلى العباد، وأنطقه بالمغيبات، وخرق له العادات، وأوقع له الهيبة في القلوب، والقبول العظيم. . . وانظر: بهجة الأسرار ومعدن الأنوار (ص ٤٣٣) بتحقيقنا، طبع دار الكتب العلمية ـ بيروت.

موسى الزولي كان كثير المشاهدة لرسول الله ﷺ وكانت أحواله بتوقيف منه ﷺ وأنه كان رضي الله عنه إذا مس الحديد بيده لان حتى يكون كالماء وأتته امرأة ومعها صبي صغير عمره أربعة أشهر فدعاه الشيخ إليه فقام يعدو فأخذه إليه وقال له: اقرأ قل هو الله أحد، فأقرأه سورة الإخلاص إلى آخرها فقرأها الصبي بلسان فصيح وما زال يمشي بعد ذلك ويتكلم ثم رئي بعد وفاة الشيخ وهو ابن ثلاثين سنة وهو على تلك الفصاحة من حين تكلم بين يدي الشيخ وهو صغير يكتي أبا مسرور. استوطن رضي الله عنه ماردين وبهامات وقبره ظاهر يزار ولما وضع في القبر نهض قائمًا يصلي واتسع اللحد عليه وأغمي على مَن كان نزل قبره ليلحده وكان بهيًا جميلًا مهابًا فاضلًا رضي الله عنه ورضي عنّا به.

ومنهم الشيخ الجليل القدوة رسلان الدمشقي رضي الله عنه(١)

كان من أكابر مشايخ الشام وأعيان العارفين وصدور البارعين صاحب الإشارات العالية والهمم السامية والأنفاس الصادقة والكرامات الخارقة والمقامات الجليلة والمكانات الرفيعة له الطور الأعلى من المعارف والمحل الأرفع في الحقائق والمنصب المصدر في القرب والكشف الواضح والفتح اللامع مع تمكين مسكين وتصريف نافذ وهو أحد أئمة هذا الشان وأركانه علمًا وعملًا وتحقيقًا ومعرفة وزهدًا وهو أحد من أظهره الله تعالى للخلق وأوقع له القبول عندهم والهيبة الوافرة ومكنه من الأحوال والولاية وأطلعه على أسرار الكون وصرفه في الجود وأظهر على يديه العجائب وخرق له العادات ونصبه إمامًا للسالكين وانتهت إليه تربية المريدين بالشام وانتمى إليه جماعة من مشايخها وانتفع بصحبته غير واحد من أهلها وأشار إليه العلماء والمشايخ رضي الله عنهم بالاحترام والتبجيل ونزلت بفنائه الركائب من كل جهة وطريق وسارت بآثاره الركبان من كل فج عميق وكان رضي الله عنه ظريفًا جميلًا متأدبًا خاشعًا مشتملًا على أشرف الأخلاق وأكمل الآداب وأسنى الصفات وكان له كلام جليل في منهاج الحقائق. منه مشاهدة العارف تقيده في الجميع وبروز المعرفة في الاطّلاع لأن العارف واصل إلا أنه ترد عليه أسرار الله تعالى جملة كلية بأنوار تطلعه على شواهد الغيب

---

(١) هو أحد أئمة هذا الشأن، وأركانه علمًا، وعملاً، وتحقيقًا، ومعرفة، وزهدًا، وأحد من أظهره الله تعالى للخلق، وأوقع له القبول التام، والهيبة الوافرة، ومكنه من أحوال الولاية، وأطلعه على أسرار الكون، وصرفه في الوجود، وأظهر على يديه العجائب... انظر: بهجة الأسرار ومعدن الأنوار (ص ٣٤٤) بتحقيقنا.

وتطلعه على سر التحكيم فهو مأخوذ عن نفسه مردود على نفسه متمكن في قلبه فأخذه عن نفسه تقريب ورده على نفسه تهذيب وتمكنه من نفسه تخصيص فالتقريب يشهده والتهذيب يوحده والتخصيص يفرده فتفريده وجوده ووجوده شهوده وشهوده شهوده قال الله تعالى لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار فإدراكه الأبصار شهدته البصائر.

قال الشيخ العارف أبو محمد إبراهيم بن محمود اليعلي كان الشيخ رسلان رضي الله عنه يومًا في بستان من بساتين دمشق في زمن الصيف ومعه جماعة من أصحابه فقال له أحدهم: يا سيدي ما الولي المشتمل على أحكام التمكين قال: يا بني هو الذي ملكه الله تعالى أزمة التصريف قال: وما علامة ذلك يا سيدي قال: فأخذ الشيخ بيده أربعة قضبان وأفرد منها واحدًا وقال: هذا للصيف وأفرد آخر وقال: هذا للخريف وأفرد آخر وقال: هذا للشتاء وأفرد آخر وقال: هذا للربيع ثم أخذ الذي سماه للصيف وهزه بيده فاشتد الحر ثم طرحه وأخذ الذي سماه للخريف وهزه فجاءت أوصاف الخريف وفصله ثم طرحه وأخذ الذي سماه للشتاء وهزه فهبت رياح الشتاء واشتد البرد ثم يبست أوراق الشجر من البستان وغيره ثم طرحه وأخذ الذي سماه للربيع وهزه فاخضرت الأشجار بالأوراق وأينعت الأغصان وهبت رياح الربيع ثم نظر إلى أطيار على أشجار البستان فقام إلى شجرة منهن وهزها وأشار إلى الطائر الذي عليها إن سبح خالقك فغرد بأحسن صوت أطرب السامعين ثم أتى إلى شجرة أخرى وفعل ذلك حتى أتى على جميع الأشجار والأطيار إلا طائرًا منها فإنه لم ينطق فقال له الشيخ رضي الله عنه: لا عشت فوقع إلى الأرض ميتًا وورد عليه خمسة عشر رجلًا ولم يكن عنده سوى خمسة أرغفة فوضعها لهم بعد أن هشمها مع دقة وقال: بسم الله الرحمٰن الرحيم، اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وأنت خير الرازقين فأكلوا حتى شبعوا وبقي منهم بقية ففرقها عليهم كسرة كسرة وسافروا إلى بغداد وكانوا يأكلون منها طول الطريق وقال أبو أحمد بن محمد الكردي: رأيت الشيخ رضي الله عنه مرة سائرًا في الهواء تارة يمشي وتارة يسير مربعًا وتارة يمر كالسهم وتارة مارًا على الماء قال: ورأيته في عرفات وفي جميع المشاعر ثم فقدته فلما جئت إلى دمشق سألت عنه أهل دمشق فقالوا لي: والله ما غاب عنا يومًا كافلًا إلا يوم عرفة وبعض يوم النحر وأيام التشريق قال: ورأيته يومًا جالسًا والأسد تتمرغ على قدميه وهو مستغرق لا يلوي عليها ورأيته يومًا بظاهر دمشق يرمي بالحصا فسألته عن ذلك فقال هذه سهام على الإفرنج وكان الإفرنج في ذلك الوقت خرجوا إلى الساحل وتبعهم جيش المسلمين وقالوا بعد ذلك: كنا نرى الحصا تنزل من السماء في الهواء على رؤوس الإفرنج وهلك منهم خلق كثير

من الحجارة التي كان يرميها الشيخ حتى أن الحصاة الواحدة كانت تنزل على الفارس فيهلك هو وفرسه ببركة الشيخ رضي الله عنه. سكن رضي الله عنه بدمشق واستوطنها ومات بها ودفن بظاهرها وقبره ظاهر يزار إلى يومنا هذا ولما حمل نعشه على الأعناق جاءت طيور خضر وعكفت على نعشه ورأى الناس فرسانًا على خيول شهب قد أحدقوا بالجنازة ولم يروهم من قبل ولا من بعد رضي الله عنه.

ومنهم الشيخ القدوة ضياء الدين أبو النجيب عبد القاهر البكري الشهير بالسهروردي رضي الله عنه[١]

كان من أكابر مشايخ العراق وصدور العارفين وأعيان المحققين وأعلام العلماء صاحب الكرامات الخارقة والأحوال النفيسة والأنفاس الصادقة والمعارف السنية. وهو أحد من درس بالنظامية ببغداد وتصدّر للفتوى بها ووضع الكتب المفيدة في علمي الشريعة والحقيقة وقصده طلبة العلم ببغداد وكان يلقب مفتي العراقين وقدوة الفريقين بهي الصمت ظاهر الوضاءة فيما يشرحه من أحوال القوم وكان يلبس ويتطيلس مثل العلماء ويركب البغلة وترفع الغاشية بين يديه. وهو أحد أركان هذا الشأن وأئمة ساداته وإجلاء القادة إليه ورؤساء الدعاة إليه له القدم الراسخ في التمكين والباع الطويل في إشراف الأخلاق وانعقد عليه إجماع المشايخ والعلماء رضي الله عنهم بالتعظيم والتبجيل والاحترام وأوقع الله تعالى محبته في القلوب وتخرج بصحبته غير واحد من أعيان المشايخ مثل ابن أخيه الشيخ شهاب الدين عمر السهروردي والشيخ عبد الله بن مسعود بن مطر وغيرهما رضي الله عنهم وانتمى إليه من مشايخ الصوفية جم غفير واشتهر ذكره في الآفاق وقصد بالزيارات. وله كلام في الحقائق وتسليك المريدين وآداب الصادقين كثير مشهور رضي الله عنه. منه الأحوال معاملات القلوب وهي ما يحلو بها من صفات الإذكار فمن ذلك المراقبة ثم القرب بين يدي الله تعالى ثم المحبة وهي موافقة المحبوب في محبوبه ثم الخوف ثم الحياء ثم الإنس ثم اليقين ثم المشاهدة فمنهم من ينظر في حال قربه عظمة الله تعالى فيغلب عليه المحلبة والرجاء ومنه أول التصوف علم وأوسطه عمل

---

(١) انظر: طبقات الشافعية (٢/ ١١)، وشذرات الذهب (٢/ ٢٠٩) والشيخ من أحد أركان هذا الشأن وأئمة ساداته، وأجلاء القادة، ورؤساء الدعاة إليه، له المنهاج الأعلى في الحقائق، والمعراج الأرفع في المعالي، والمقر السامي في القرب، والقدم الراسخ في التمكين. . . وانظر: بهجة الأسرار (ص ٤٣٥) بتحقيقنا ـ طبع العلمية ـ بيروت.

وآخره موهبة فالعلم يكشف عن المراد والعمل يعين على الطلب والموهبة تبلغ غاية الأمل وأهله على ثلاث طبقات مريد طالب ومتوسط سائر ومنته وأصل فالمريد صاحب وقت والمتوسط صاحب حال والمنتهي صاحب يقين وأفضل الأشياء عندهم عد الأنفاس ومقام المريد المجاهدات والمكابدات وتجرع المرارات ومجانبة الحظوظ وما للنفس منفعة ومقام المتوسط ركوب الأهوال في طلب المراد ومراعاة الصدق في الأحوال واستعمال الأدب في المقامات وهو مطالب بآداب المنازل وهو صاحب تلوين فإنه مرتق من حال إلى حال وهو في الزيادة ومقام المنتهي الصحو ثم الثبات وإجابة الحق من حيث دعاه قد جاوز المقامات وهو في محل التمكين لا تغيره الأحوال ولا تؤثره الأهوال وقد استوى في حالة الشدة والرخاء والمنبع والعطاء والجفاء والوفاء وأكله كجوعه ونوعه كسهره ظاهره مع الخلق وباطنه مع الحق. وكل ذلك منقول من أحوال النبي ﷺ ومن شعره:

يا سادة عمروا بقلبي منزلًا ... يتعوضون به عن الجدران

فتحملوا ما دمتم سكانه ... فعمارة الأوطان بالسكان

وتعجبوا من شجو قلبي المبتلي ... سبحان من عافاكم وبلاني

قال الشيخ الإمام شهاب الدين عمر السهروردي رضي الله عنه: ما لاحظ شيخنا عمي ضياء الدين أبو النجيب عبد القاهر رضي الله عنه مريدًا بعين العناية إلا نتج وبرع وكان إذا أجلس رجلًا في الخلوة يدخل عليه في كل يوم ويتفقد أحواله ويقول له يرد عليك الليلة كذا وكذا وتنال حالة كذا وكذا ومقامًا كذا وكذا وسيأتيك شيطان في صورة كذا وكذا في وقت كذا وكذا فاحذره فإنه شيطان فيجد ذلك الرجل جميع ما أخبره به الشيخ. قال وكنت يومًا عنده فأتاه سوادي أي فلاح بعجل وقال له: يا سيدي هذا أنذرته لك ثم توجه فقال الشيخ إن العجل يقول لي: إني لست العجل الذي نذر لك وإنما نذرت للشيخ علي بن الهيتي وإنما العجل الذي نذر لك أخي قال: فلم نلبث إلا قليلًا إلا أن جاء السوادي ومعه عجل وقال: يا سيدي اشتبه على العجل الأول وهذا العجل نذرك والأول للشيخ علي بن الهيتي ثم أخذه وانصرف.

وقال الشيخ محمد عبد الله بن مسعود الرومي: مررت مرة مع شيخنا الشيخ عبد القاهر السهروردي رضي الله عنه بسوق الشياطين ببغداد فنظر إلى شاة معلقة مسلوخة عند جزار فقال له: هذه الشاة تقول لي: إنها ميتة فغشي على الرجل وتاب على يده وأقر بصحة ذلك. وقال مررت معه مرة أخرى على الجسر فرأى رجلًا

يحمل فاكهة فقال له يعني هذه فقال ولم قال لأنها تقول لي: أنقذني من هذا الرجل فإنه قد اشتراني ليشرب على الخمر فأغمي على الرجل وسقط على وجهه وأتى إلى الشيخ وتاب على يديه وقال: والله ما علم بحالتي التي أخبر بها الشيخ سوى الله تعالى وقال: اجتزت معه يومًا بالكرخ فسمعنا أصوات سكارى في دار فدخل الشيخ وصلى ركعتين في دهليزها فخرج كل من كان فيها من الصالحين فدخلنا الدار فإذا الخمر قد صار ماء فتابوا جميعهم على يد الشيخ رضي الله عنه. سكن رضي الله عنه ببغداد وتوفي بها ليلة السبت ثامن عشر جمادى الأولى سنة ثلاث وستين وخمسمائة ومولده بسهرورد وقيل بشهر زور سنة تسعين وأربعمائة. قال الشيخ نور الدين علي الشافعي اللخمي مؤلف بهجة الأسرار هو الشيخ ضياء الدين ويلقب بنجيب الدين أبو النجيب عبد القاهر بن محمد بن عبد الله المعروف بعموية بن سعيد بن الحسين بن القاسم بن النصر بن القاسم بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمٰن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه السهروردي بضم السين والراء. وقال ابن النجار في آخر ترجمة ابن أخيه الشيخ شهاب الدين عمر الآتي ذكره وسهرورد بضم السين المهملة وسكون الهاء وفتح الراء والواو وسكون الراء الثانية في آخرها دال مهملة وهي بلدة عند زنجان من عراق العجم انتهى كلامه والله أعلم.

وقال السمعاني هو عبد القاهر بن عبد الله بن محمد عموية وهو عبد الله بن سعد بن الحسن بن القاسم بن علقمة بن النصر بن عبد الرحمٰن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقال محمد القابسي كان من ولد الأمير حشوية الكردي ولم يكن بكريًا والله أعلم.

ومنهم الشيخ أبو محمد القاسم بن عبد البصري رضي الله عنه(١)

كان من أعيان العراق والعلماء العارفين والأجلاء المقربين صاحب الكرامات الظاهرة والأحوال الباهرة والأفعال الخارقة والأنفاس الصادقة له المراتب العلية من منازل القرب والمعراج الرفيع إلى مجالس القدس والقدم الراسخ في التمكين وهو أحد من أظهره الله تعالى إلى الوجود وصرفه في الكون وقلب له الأعيان وخرق العادات

(١) هو أحد من تذكر عنه القطبية، وأحد العلماء المبرزين في علم الشريعة، والفضلاء المفتين على مذهب إمام دار الهجرة مالك بن أنس رضي الله عنه. . . وأحد أوتاد هذا الطريف، وصدور أركانها. . . وانظر: بهجة الأسرار (ص ٣٢٠) بتحقيقنا.

وأوقع له القبول العظيم والهيبة التامة في صدور الخلق وهو أحد العلماء العاملين جمع بين علمي الشريعة والحقيقة، وكان على مذهب أمام دار الهجرة مالك بن أنس رضي الله عنه وإليه سلم قلم الفتوى ببلده وما يليه وإليه انتهت رياسة هذا الشأن في وقته علمًا وعملًا حالًا ومقالًا وبه غدق الأمر في تربية المريدين بالبصرة وما يليها، وتخرج بصحبته جماعة من أهل الأحوال وقالوا بإرادته وكان العلماء والمشايخ رضي الله عنهم يعظمونه ويبجلونه ويحترمونه ويرجعون إلى قوله وكان يتكلم في البصرة في علمي الشريعة والحقيقة على كرسي عال ويحضر مجلسه المشايخ والعلماء رضي الله عنهم، وكان له كلام نفيس في منهاج الحقائق. منه جحود ما لم يكن عن شاهد مشهود وشاهد الحق يفني شهود الوجود وينفي عين الوسن سكره يزيد على سكر الشراب وأرواح الواجدين عطرة لطيفة وكلامهم يحيي أموات القلوب ويزيد في العقول والوجد يسقط التمييز ويجعل الأماكن مكانًا واحدًا والأعيان عينًا واحدًا وأوله رفع الحجاب ومشاهدة الرقيب وحضور الفهم وملاحظة الغيب ومحادثة السر وإياس المفقود وشرط صحة الوجد انقطاع أوصاف البشرية عن التعلق يفني الوجد ومن لا فقد له لا وجد له وهو مقامان ناظر ومنظور إليه فالناظر مخاطب يشاهده الذي وجده المنظور إليه مغيب وقد اختطفه الحق بأول كدٍّ إليه الوجود يوجب استهلاك العبد وترغيب هذا الأمر ثم ورود ثم شهود ثم وجود فمقدار الوجود ويحصل الخمود وصاحب الوجود محو وصحو فحال صحوه بقاؤه وحال محوه فناؤه بالحق إلى الحق وهاتان الحالتان متعاقبتان أبدًا والوجود اسم لثلاثة معانٍ الأول وجود علم الذي يقطع علم الشواهد في صحبته مكاشفة الحق، والثاني وجود الحق وجودًا غير، والثالث وجود رسم الوجود فإذا كوشف العبد بوصف الجمال سكر القلب فطرب الروح وهام السر وقد قيل في المعنى:

فصحوك من لفظي هو الأصل كله ... وشكرك من لحظي يبيح لك الشربا

فما كَلَّ ساقيها وما مَلَّ شارب ... لحاظ جمال كاسه يسكر اللبا

فكل ما كان في غير الحق لم يخل من حيرة لا حيرة شبهة بل حيرة مشاهدة نور العزة وكلما كان الحق لم يغير عليه غلبة ثم الصحو من الجمع ومنازل الحياة والحياة اسم لثلاث معان. الأول حياة العلم ولها ثلاثة أنفاس: نفس الخوف ونفس الرجاء أو نفس المحبة. والثاني حياة الجمع من موت الفرقة ولها ثلاثة أنفاس نفس الاضطرار ونفس الافتقار ونفس الافتخار. والثالث حياة الوجود من موت الغفلة وهي

حياة الحق ولها ثلاثة أنفاس نفس الهيبة ونفس الوجود ونفس الانفراد وليس وراء ذلك النظارة ولا طاقة الإشارة والمواجد ثمرات الأوراد وترك الأحوال قبل استحضار الله تعالى أي قبل أن يستحضر العبد الله تعالى موجودًا معه في كل معنى سبحانه وتعالى ومن تهاون بسر الله تعالى أنطق الله تعالى لسانه بعيوب نفسه. وكان رضي الله عنه يتمثل بهذه الأبيات كثيرًا:

كادت سرائر سرّي أن تسرّ بما ... أوليتني من جميل لا أسمّيه
فصاح بالسر سرًا منك يرقبه ... كيف السرور بسرٍّ دون مُبديه
فظل يلحظني سرّي لألحظه ... والحق يلحظني لم لا أُراعيه
وأقبل الوجد ينفي الكل من صفتي ... وأقبل الحق يخفيني وأُبديه

قال الشيخ القدوة شيخ الصوفية شهاب الدين عمر السهروردي رضي الله عنه انحدرت إلى البصرة لأزور الشيخ رضي الله عنه فمررت في طريق إليه بمواش وزرع ونخيل كثيرة مضافة إليه فخطر في نفسي أن هذا حال الملوك ودخلت البصرة وأنا أتلو سورة الأنعام فقلت في نفسي: أي آية انتهيت بها إلى داره فهو فألي معه فوضعت رجلي على عتبة بابه وأنا أتلو أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده فتلقاني خادمه وأمرني بالدخول بأمر من الشيخ له قبل أن استأذنه فدخلت إليه فقال لي: ابتدأ يا عمر جميع ما على الأرض فهو على الأرض وليس في قلبي منه شيء فاشتد تعجبي من علمه بحال لم يعلمه مني سوى الله تعالى. وقال الشيخ علي الخباز كنت عند بعض أصحابي ببستان له بالبصرة فدخل علينا فقير أشعث أغبر فقال لصاحب البستان: أشبعني تينًا فقدم له وزنة من التين فأكلها وقال: زدني فقدم له أخرى فأكلها وقال: زدني فما زال يقدم إليه وزنة بعد وزنة حتى أكل ألف رطل ثم أتى إلى نهر هناك وجعل يغترف منه ويشرب حتى شرب منه ماء كثيرًا وانصرف ثم بعد مدة قال لي صاحب البستان: إن غلته تضاعفت أمثالًا عن مقدارها في كل سنة قال: ثم حججت في ذلك العام فبينما أنا أمشي يومًا وحدي أمام الركب فخطر ببالي شأن ذلك الرجل وتمنيت رؤيته فإذا به عن يميني فدهشت منه وسلمت عليه وسرت معه فكان يمشي هو وأنا وإذا جلس نزل الركب جميعه وإذا مشى سار الركب كله فجاء يومًا إلى بركة كبيرة قد رسب ماؤها فجعل يقطع من طينها ويأكل ثم أطعمني من تلك الطين فإذا هو من حشو الخشكلانج وله رائحة كالمسك الأذفر وشرب من الماء شيئًا كثيرًا ثم قال لي: يا علي هذه الأكلة من بعد تلك الأكلة التي رأيت وليس بينهما طعام ولا شراب

فقلت: يا سيدي من أين لك هذا، فقال نظر إلى الشيخ أبو محمد بن عبد نظرة فملأ قلبي بحبي ووصل سري بربي سبحانه وتعالى وانطوت لي الأكوان وقلبت لي الأعيان وقرب مني البعيد ونلت المراد بنظره وكساني معنى استغنيت به عن الطعام والشراب إلا في وقت أحكام البشرية ثم غاب عني فما رأيته بعد رضي الله عنهم أجمعين.

وقال الشيخ أبو عبد الله البلخي كنت مجاورًا بمكة شرفها الله تعالى إذ دخل الشيخ محمد بن عبد البصري المقام ومعه أربعة أنفار فصلى بهم ركعات ثم طافوا أسبوعًا ثم خرجوا من باب بني شيبة فتبعتهم فردني أحدهم فقال الشيخ دعه ثم وقف أمام الجماعة ومنعهم ثم أمر أن يضع كل واحد قدمه في الذي يرفع منه الذي أمامه ثم سرنا فإذا طيبة فزرنا وصلينا بها ثم خرجنا فصلينا العصر ببيت المقدس ثم المغرب بسد يأجوج ومأجوج ثم العشاء بجبل قاف وجلس الشيخ علي ذروة الجبل ونحن حويه فأتاه رجل من أقطار الجبل كالأسد فنار لهم أنوار أضوأ من الشمس والقمر فسلموا عليه وجلسوا ثم نزل عليه رجال من الجو كالبرق اللامع وأحدقوا به وسألوه الكلام فتكلم فمنهم من يصعق ومنهم من يرعد ومنهم من يعدو في الهواء إلى أن طلع الفجر فصلى بهم ثم نزلنا بأرض كثيرة الأنوار رائحتها كالمسك وبها طوائف كصور الآدميين يذكرون الله تعالى بأصوات حسنة فكان الشيخ يسبح في أرجائها فتارة يميل به الوجد يمينًا وشمالًا وتارة يمر في فضائها كالسهم وتارة يقول ارحم من أزمة أموره في يديك ثم رجع إلى الموضع الذي جئنا منه فانتهينا إلى مدينة مبنية بالذهب والفضة فيها أنهار وثمار فأكلنا وشربنا ثم أخذ كل تفاحة فقال الشيخ: هذه مدينة الأولياء لا يدخلها إلا ولي ثم عدنا إلى مكة فصلينا الظهر واستكتمني ذلك في حياته رضي الله تعالى عنه. سكن رضي الله عنه البصرة وبها مات سنة ثمانين وخمسمائة وقد علت سنه ودفن بها وقبره هناك ظاهر يزار وسمع لما صلى عليه الطيور تضرب في الجو وأسلم ذلك اليوم طائفة من اليهود والنصارى رضي الله عنه ورضي عنا به.

ومنهم الشيخ أبو الحسن الجوسقي(١)

كان من أجلاء مشايخ العراق وعظماء العارفين ذوي الكرامات الظاهرة والأسرار الباهرة والأحوال الخارقة والمقامات السنية والمكانات العليلة له الباع

(١) هو صاحب الفتح الموثق، والكشف المشرق، والحقائق الظاهرة، والمعارف الباهرة، والباع الطويل في التصرف النافذ. . . والنظر الخارق في عوالم الغيب. . . وانظر: بهجة الأسرار (ص ٣٨١) بتحقيقنا.

الطويل في التصريف النافذ مع اليد المبسوطة في علوم المشاهدات والقدم الراسخ في التمكين والطور الأرفع في معالم القدس وهو أحد من أظهره الله تعالى إلى الخلق وصرفه في الوجود ومكنه من أحوال النهاية في قائدة أسرار الولاية وخرق له العادات وأظهر على يديه الخارقات وأنطقه بالمغيبات وأجرى على لسانه الحكمة وملأ القلوب من محبته والصدور من هيبته وهو أحد أركان هذا الشأن وأعيان ساداته علمًا وعملًا وزهدًا وتحقيقًا ورياسة صحب الشيخ علي بن الهيتي رضي الله عنه وخدمه بالحال وإليه كان ينتمي وكان يتردد إلى سيدنا الشيخ محيي الدين عبد القادر رضي الله عنه وخدمه مدة ولقي ابن بطو والطفسونجي وأبا سعيد القيلوي وغيرهم وإليه انتهت رياسة هذا الشأن وتخرج بصحبته جماعة من الأكابر وإليه كان ينتمي الشيخ أبو محمد عبد الرحمٰن البغدادي بن حبيش وبصحبته انتفع وتلمذ له جماعة من الصلحاء. وله كلام عال في المعارف منه فساد العلماء في شيئين لا يعملون بما يعلمون ويعملون بما لا يعلمون ولا ينتهون عما ينهون والكلام في غير نفع والإنس بكل أحد من علامات الأدبار وعلامة الشقاء ثلاثة أشياء أن يرزق العلم ويحرم من العمل وأن يرزق العمل ويحرم من الإخلاص وأن يرزق صحبة العارفين ولا يحترمهم والعلم حرز والجهل غرور والصدق أمانة والصلة بقاء والقطيعة مصيبة والصبر شجاعة والكذب عجز والصدق قوة ولا تصحب إلا من يسقط بيتك وبينه التحفظ وينبهك على آداب الشرع وحفظ الحال عند غفلتك. وكان رضي الله عنه يدعو بهذا الدعاء: اللهم يا من ليس في السمٰوات من قطرات ولا في الأرض من حبات ولا في هبوب الريح من ولجات ولا في قلوب الخلق من خطرات ولا في أعضائهم من حركات ولا في أعينهم من لحظات إلا وهي لك شاهدات وعليك دالات وبربوبيتك معترفات وفي قدرتك متحيرات فأسألك يا الله بالقدرة التي تحير بها من في السمٰوات والأرض أن تصلي على محمد وعلى آله وصحبه وذريته. فمن كان له حاجة فليقرأ هذا الدعاء ثم يدعو بما أحب فإنه من الأدعية المستجابة رضي الله عنه وكان رضي الله عنه يتمثل بهذه الأبيات:

أشار قلبي إليك كيما ... يرى الذي لا تراه عيني
وأنت تلقي على ضميري ... حلاوة السؤال والتمني
تريد مني اختبار شيء ... وقد علمت المراد مني
وليس لي في سواك حظ ... فكيفما شئت فاختبرني

قال الشيخ عمر البزاز: مرض الشيخ علي بن الهيتي رضي الله عنه بزريران فعاده الشيخ عبد القادر رضي الله عنه واجتمع هناك المشايخ الشيخ بقا بن بطو والشيخ أبو سعيد القيلوي والشيخ أحمد الجوسقي الصرصري فأمر ابن الهيتي خادمه الشيخ أبا الحسن الجوسقي المذكور رضي الله عنه بمد السفرة فبسطها ووقف متفكرًا فيمن يبدأ بوضع الخبز بين يديه ثم أخذ خبزًا كثيرًا وأفلته فدار على جوانب السفرة دفعة واحدة من غير أن يتقدم بعض الحاضرين في ذلك على بعض فقال الشيخ عبد القادر لابن الهيتي: ما أحسن خادمك هذا قد مد السفرة بالحال فقال الشيخ علي: أنا وهو غلمانك يا سيدي. ثم أمر الشيخ علي لأبي الحسن أن يلازم خدمة الشيخ عبد القادر فبكى أبو الحسن فقال الشيخ عبد القادر أبو الحسن ما يحب إلا الثدي الذي رضع منه وأمره أن يلازم خدمة شيخه رضي الله عنهم. وقال الشيخ مسعود الحارثي قصدت أنا والشيخ عبد الرحمٰن بن أبي الحسن والعمران البريدي والداراني في زيارة الشيخ الجوسقي فلما مررنا بالدجلة المقابلة للجوسق رأينا فيها شخصًا كريه المنظر شديد النتن مكبلًا بالقيود والأغلال فنادانا فعرجنا إليه فقال لنا: إذا دخلتم على الشيخ أبي الحسن فاسألوه في إطلاقي فإنه حبسني هنا وقيدني فلما دخلنا عليه هممنا أن نسأله فيه فقال لنا: هذا شيطان لا تسألوني فيه فإنه يأتي إلى الفقراء المنقطعين عندنا يشوش عليهم وإنه كلما أراد أن يفسد عليهم شيئًا من أحوالهم أنهاه وأتوعده فيحلف أن لا يعود فلما تكرر ذلك منه حبسناه وفعلت به ما ترون قال يحيىٰ بن محفوظ الدبيقي: مررت في بعض السنين بالجوسق في وقت الظهيرة فرأيت الشيخ في بطحاء مقفرة ليس بها غيره وهو يتواجد يمينًا وشمالًا وينشد:

قد بان بيني ببين ... فنبت عن بين بيني
وتهت في كل قفر ... وجدًا بقرة عيني

قال ثم بكى طويلًا وأنشد:

روحي إليك بكلها قد أجمعت ... لو إن فيك هلاكها ما أقلعت
تبكي إليك بكلها في كلها ... حتى يقال من البكاء تقطعت

قال ثم صاح صيحة عظيمة وخرّ مغشيًا عليه فلما أفاق أنشد:

أجلك أن أشكو الهوى منك إنني ... أجلك أن تومي إليك الأصابع
وأصرف طرفي نحو غيرك عامدًا ... على أنني بالرغم نحوك راجع

ثم تهلل وجهه فرحًا وسرورًا وأنشد:

تبادرت لي حتى إذا ما تبادرت معانيك في معناي أدهشني عني
وعرفتني إياك حتى كأنني أرى كلما ألقاه من دهشتي مني
فوا أسفًا إن فاتني منك نظرة ووا أسفًا إن حلت عن موضع الظن

قال: وكان هناك نخلتان أحدهما تثمر والأخرى يابسة فنادته المثمرة بالله كل مني فمد يده وأكل منها ونادته اليابسة بالله إلا ما توضأت عندي ثم انفجر من تحتها عين ماء فتوضأ وشرب منها فاخضرت النخلة وأثمرت لوقتها ثم غارت تلك العين ثم انصرف وهو يقول: يا مولاي من خاطبته خاطبه كل شيء قال: فكنت أمر بعد ذلك على ذلك المكان وأبكي وآكل من ثمر تلك النخلة تبركًا بالشيخ وكان ثمرها من أطيب ثمرات العراق ببركته رضي الله عنه. سكن رضي الله عنه بالجوسق بلدة على نهر وجبل بالعراق واستوطنها إلى أن مات بها قديمًا مسنًا ودفن بها وقبره ظاهر بها يزار ووفاته فيما نقل قبل وفاة الشيخ مكارم النهر خالص وكان يكنى بأبي عراجًا لعرج كان به رضي الله عنه ورضي عنا به بمنه وكرمه.

ومنهم الشيخ القدوة الشيخ عبد الرحمٰن الطفسونجي الأسدي[١] المتقدم ذكره

كان من أعيان المشايخ كثير الإخبار بالمغيبات وكان لا يخبر بشيء إلا وقع كما أخبر على ما وصف ولو بعد أربعين سنة وكان نافذ التصريف أتاه رجل فقال له: يا سيدي إن لي نخلًا لا تثمر منذ إحدى عشرة سنة وبقرات لا تنتج منذ ثلاث سنين فدعا له فأثمرت النخلات من عامها ونتجت البقرات في شهرها حتى كان من أكثر الناس ماشية ودرًا وقال له شخص إن مريدك الفلاني يقول: إنه أعطى مثل ما أعطيت فقال: الذي أعطاني أعطاه لكن لم يعطه مثل ما أعطاني ثم قال: سأرميه بسهم وأطرق ثم قال: قد رميته فتلقاه وسأرميه بآخر وأطرق ثم قال: رميته فتلقاه وسأرميه بثالث فإن تلقاه فقد أعطى مثل ما أعطيت وأطرق ساعة ثم قال قد مات فأسرعوا إليه فوجدوه ميتًا في داره. وكان لا يزال يرقي المريد درجة بعد درجة إلى أن يقول له غدًا تنال مرادك فإذا انتهى إلى مقام الوصول قال له: ها أنت وربك وقال مرة: سبحان من

(١) هو أحد أوتاد هذه الطريقة، وأعلام العلماء بها، وأئمة ساداتها المحققين، ورؤسائها المفتين. . . وانظر: بهجة الأسرار ومعدن الأنوار (ص ٢٩٦) بتحقيقنا ـ طبع دار الكتب العلمية ـ بيروت.

سبحت له الوحوش في القفار وإذا بين يديه وحوش عظيمة قد ملأت البطحاء وهي ترنم بلغاتها وامتزجت الأسد بالأرانب والظباء وجا بعضها يتمرغ على قدميه ثم قال سبحان من سبحت له الطيور في أوكارها فإذا على رأسه في الهواء طيور كثيرة من كل جنس قد سدت الفضاء وهي تلحن بأنغامها فدنت منه حتى عكفت على رأسه ثم قال: سبحان من سبحته الرياح العواصف فهبت الرياح مختلفة ما رئي ألطف منها ثم قال سبحان من سبحته الجبال الشوامخ فاضطرب الجبل الذي تحته وسقط منه صخرات وأراد يومًا صلاة الجمعة فوضع رجله في الركاب ليركب بغلته ثم نزعها ووقف على الأرض ساعة ثم ركب فقيل له في ذلك فقال كان سيدي الشيخ عبد القادر يريد أن يركب بغلته في ذلك الوقت ببغداد فأردت أن لا أتقدم عليه. وقال الشيخ الأصيل أبو حفص عمر ابن الشيخ عبد الرحمٰن الطفسونجي: خرج والدي يومًا يريد السفر فوضع رجله في الركاب ثم نزعها ودخل داره فسألته عن ذلك فقال: يا بني لم أجد في الأرض موضعًا يسع قدمي ثم لم يخرج من طفسونج حتى مات رضي الله عنه. وكان أحد الأوتاد وهو الذي قال أنا بين الأولياء كالكركي بين الطيور أطولها عنقًا وأيما مريد لي كانت على عنقه كارة فليضعها عليّ، ولما قال ذلك قال له الشيخ أبو الحسن علي الحيني وكان ذا حال فاخر بعد أن نزع دلقًا كان عليه دعني أصارعك فسكت الشيخ عبد الرحمٰن وقال لأصحابه ما رأيت فيه شعرة خالية من عناية الله تعالى وأمره أن يلبس دلقه فقال: ما أعود فيما خرجت عنه ثم التفت إلى الجنة ونادى باسم زوجته يا فاطمة ائتيني بما ألبسه فسمعته وهي في القرية في ناحية الجنة وتلقته في الطريق بما يلبس فقال له الشيخ عبد الرحمٰن من شيخك فقال: شيخي الشيخ عبد القادر رضي الله عنه فقال له: إني لم أسمع بذكره إلا في الأرض وإن لي أربعين سنة في دركات باب الحق سبحانه وتعالى فما رأيته قط لا داخلًا ولا خارجًا ثم قال لجماعة من أصحابه اذهبوا إلى بغداد وأتوا الشيخ عبد القادر وقولوا له عبد الرحمٰن يسلم عليك ويقول لك إن له أربعين سنة في دركات باب الحق سبحانه وتعالى ما رآك ثم لا داخلًا ولا خارجًا فقال الشيخ عبد القادر في ذلك الوقت لعباد البواب ومظفر الجمال وعبد الحق الحريمي وعثمان الصريفيني قوموا اذهبوا إلى طفسونج وستجدون في طريقكم جماعة من أصحاب الشيخ عبد الرحمٰن بعثهم إلي بكذا وكذا فإذا لقيتموهم فردوهم معكم فإذا أتيتم الشيخ عبد الرحمٰن فقولوا له: عبد القادر يسلم عليك ويقول: أنت في الدركات ومن هو في الدركات لا يرى من هو في الحضرة ومن هو في الحضرة لا يرى من هو في المخدع وأنا أدخل وأخرج من باب السر من حيث لا

تراني بأمارة ما أخرجت لك الخلعة الفلانية في الوقت الفلاني على يدي خرجت لك هي خلعة الرضا وبإمارة خروج التشريف الفلاني في الليلة الفلانية لك خرج على يدي هو تشريف الفتح وبإمارة ما خلع عليك في الدركات بمحضر من اثني عشر ألف ولي لله تعالى وهي خلعة الولاية وهي فرجية خضراء طرازها سورة الإخلاص وهي على يدي خرجت لك فلما انتهوا إلى نصف الطريق لقوا أصحاب الشيخ عبد الرحمٰن فردوهم وأتوا إليه وبلغوه رسالة الشيخ عبد القادر رضي الله عنه فقال: صدق الشيخ عبد القادر هو سلطان الوقت وصاحب التصريف فيه رضي الله عنهم وكان اسمه رضي الله عنه حبيبًا لكن لما قيل له في سره مرحبًا بعبد الرحمٰن تسمى به. وطفسونج بلدة في أرض العراق وبها مات مسنًا وقبره بها ظاهر يزار رضي الله عنه ورضي عنا به، ولما حضرته الوفاة قال له ولده: أوصني فقال: أوصيك بحفظ حرمة الشيخ عبد القادر والوقوف عند أمره ولزوم خدمته فلما توفي جاء ابنه إلى عند الشيخ عبد القادر فأكرمه وألبسه خرقة وزوجه ابنته وكان يلبس ثياب العلماء فجلس يومًا في مدرسة الشيخ عبد القادر فجاء فقير موله وقعد إلى جانبه وجعل يقلب أكمامه ويقول ما هذه أكمام ابن الشيخ عبد الرحمٰن هذه أكمام ابن هبيرة يعني الوزير فقام ودخل إلى داره وخلع ثيابه ولبس مسحًا وخرج على وجهه فقال الشيخ عبد القادر بعد مدة لرجلين من أصحابه اذهبا إلى عبادان تجدانه فيها فأحضراه إلي فتوجها وأحضراه فألبسه ثوبه وأدخله على زوجته رضي الله عنها.

ومنهم الشيخ القدوة الشيخ بقا بن بطو السالف ذكره رضي الله عنه(١)

كان من أعيان المشايخ بالعراق صاحب أحوال وكرامات وهو أحد الأربعة الذين يبرئون الأكمه والأبرص ويحيون الموتى بإذن الله سبحانه وتعالى على ما سلف وكان سيدنا الشيخ عبد القادر يعظمه ويثني عليه ويقول كل المشايخ أعطوا بالكيل إلا هو فبالجزاف وكان يومًا يتكلم في الكرامات وعنده رجل من ذوي الأحوال والكشف فقال ذلك الرجل في زماننا من إذا استسقى ماء من البئر طلع له في الدلو ذهب وإذا توجه إلى جهة رآها ذهبًا وإذا وقف يصلي رأى الكعبة أمامه وكان هذا حال ذلك الرجل

---

(١) هو أحد أركان هذه الطريق، وأوتاد هذا الشأن، وصدور ساداته، ورؤساء أئمته، وأعلام العلماء به، وهو أحد الأربعة المسمين بالبرءة... وانظر: بهجة الأسرار ومعدن الأنوار (ص ٣٠٠) بتحقيقنا.

فنظر إليه الشيخ بقا ثم أطرق ففقد الرجل جميع أحواله فجاء إلى الشيخ مستغفرًا فقال له: ما مضى ما يعاد وزاره ثلاثة من الفقهاء وصلوا خلفه العشاء فلم يقوم القراء كما يريد الفقهاء فساء ظنهم به وباتوا في زاويته وأجنب الثلاثة فنزلوا في نهر على باب الزاوية يغتسلون فجاء أسد عظيم الخلقة وربض على ثيابهم وكانت ليلة شديدة البرد فأيقنوا بالهلاك فخرج الشيخ من زاويته فجاء الأسد وتمرغ على رجليه فجعل يضربه بكميه ويقول لم تعارض ضيوفنا وإن أساؤوا الظن بنا فولى الأسد وطلعوا مستغفرين فقال لهم الشيخ: أنتم أصلحتم ألسنتكم ونحن أصلحنا قلوبنا. ووقع حريق في قريته وفشا واستطار في أرجائها فقام الشيخ بين النار وبين ما لم تصل إليه وقال إلى هنا يا مباركة فخمدت في الحال. سكن رضي الله عنه بانبوس قرية من قرى نهر الملك وبها توفي وقد نيف على الثمانين وقبره بها ظاهر يزار رحمة الله عليه ورضي عنه.

ومنهم الشيخ القدوة العارف
الشيخ الشريف أبو سعيد علي القيلوي

بفتح القاف وسكون الياء وفتح اللام وقيل أبو سعد رضي الله عنه صاحب الكرامات والأحوال وهو أحد الأربعة البررة المتقدم ذكرهم فما دعا إلا أجيب ولا عاد مريضًا إلا عوفي إن كان له أجل ولا نظر بعين الرضا إلى قلب خراب إلا عمر ولا عكسه إلا خرب وكان أحد الفقهاء المعتبرين المفتين وأحد أوتاد هذا الشأن تخرج بصحبته غير واحد من الأكابر مثل الشيخ أبي الحسن علي القرشي وأبي عبد الله محمد بن أحمد المديني وخليفة بن موسى ومبارك بن علي الجيلي ومحمد بن علي القيدي ودعى مرة إلى طعام كثير فيه ألوان فنهى من كان معه عن أكله وأكله كله فلما خرج قال إنه حرام ثم تنفس وخرج من فيه دخان عظيم كالعمود ثم عمود نار مثله وقال هذا هو الطعام الذي أكلته، وأذن مرة على صخرة خارج قيلوية فلما قال الله أكبر انفلقت خمس قطع واهتزت الأرض من هيبة تكبيره وتبعه مرة بعض أصحابه بإبريق لقضاء حاجته فوقع فتكسر فلما جاء الشيخ أخذه بيده فإذا هو صحيح مملوء ماء كحاله قبل وروى شيوخ العراق عمر البزازي وأبو السعود المدلل والناصري قائد الأواني أنه اجتمع الشيخ عبد القادر بن بطو والقيلوي وابن الهيتي بدار باب الأزج فقال الشيخ عبد القادر لابن الهيتي: تكلم قال: كيف أتكلم في حضرتك فقال للشيخ بقا: تكلم فقال: وكيف أتكلم في حضرتك فقال للشيخ القيلوي: تكلم فتكلم يسيرًا ثم سكت وقال: تكلمت امتثالًا لأمرك وسكت إجلالًا لك ثم تكلم في علوم الحقائق بكلام

أكبره الحاضرون ثم استأذنه في قول فأذن له فأنشد:

وبدا له من بعد ما اندمل الهوى　　برق تألق موهن لمعانه
يبدو كحاشية الرداء ودونه　　صعب الذرى متمنع أركانه
فبدا لينظر كيف لاح فلم يطق　　نظرًا إليه ورده أشجانه
فالنار ما اشتملت عليه ضلوعه　　والماء ما سمحت به أجفانه

فعلا الشيخ عبد القادر على الأرض في الهواء وجعل يدور ويعلو في الهواء حتى طلع من سماء الدار فذهبوا إلى مدرسته فوجدوه فيها رضي الله عنهم. وكان الشيخ علي القيلوي يومًا يتكلم على الناس فأتى بسلتين مختومتين يحملهما جماعة فقطع كلامه وقال للذي أتى بهما إنكم رافضة جئتم لتمتحنوني بما فيهما ثم نزل وفتح إحداهما فإذا بصبي مكسح فقال له: قم فقام يعدو ثم فتح الأخرى فإذا بصبي معافى فقال له: اقعد فتكسح فتابوا على يديه وأقسموا بالله أنه لم يعلم بحالهم أحد سوى الله تعالى.

مات رضي الله عنه بقريته قيلوية من قرى نهر الملك قريبًا من سنة سبع وخمسين وخمسمائة تقديرًا ودفن بها وقد علت سنه وقبره بها ظاهر يزار. وهو شريف من ولد الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، وكان رضي الله عنه يلبس لباس العلماء ويتطيلس ويركب البغلة وكان ظريف الشمائل بهي المحاسن شريف الأخلاق رضي الله عنه. وقيلوية بضم اللام وكسر الواو على وزن حمدوية. وقال العلامة اليافعي في كتابه الموسوم بخلاصة المفاخر في مناقب الشيخ عبد القادر أبي سعيد القيلوي بفتح القاف وسكون الياء المثناة من تحت وفتح اللام انتهى. ولما حضرته الوفاة قال له ولده أبو الخير سعيد: أوصني قال: أوصيك بحفظ حرمة الشيخ عبد القادر فقال له الشيخ محمد المديني: يا سيدي أخبرني عن حال الشيخ عبد القادر فقال: هو ريحانة أسرار الأولياء في هذا الزمان وأقرب أهل الأرض إلى الله وأحبهم إليه في هذا العصر رضي الله عنهم.

ومنهم الشيخ القدوة الشيخ مطر البازراني رضي الله عنه

كان جليل القدر شيخ العراق صاحب الكرامات والأحوال. قال الشيخ أحمد الهروي ما وقع نظر الشيخ مطر على عاص إلا أطاع ولا على ناس إلا استيقظ ولا حضره يهودي ولا نصراني إلا أسلم ولا مر بأرض مجدبة إلا أنبتت ولا دعا في شيء

بالبركة أو بغيرها إلا ظهرت شواهد الإجابة وقدمت عليه مرة ومعي خمسة نفر فرحب بنا وأخرج لنا لبنًا مقدار ثلاثة أرطال فشربنا حتى روينا ثم حضر سبعة فرووا ثم حضر عشرة فرووا ووالله أن اللبن لأكثر مما كان أولًا. ورأى في منامه رضي الله عنه على عهد شيخه تاج العارفين شجرة عظيمة لها أغصان كثيرة مما يلي بإدراي فلما أصبح وأتى إلى خدمة الشيخ تاج العارفين قال له يا شيخ مطر أنا تلك الشجرة التي رأيت البارحة في منامك اذهب إلى بإدراي واستوطنها. وبإدراي قرية من أعمال البحر بأرض العراق سكنها الشيخ مطر وفيها كانت وفاته قبل وفاة الشيخ بقا بن بطو وكان شيخه تاج العارفين يثني عليه ويقول فيه الشيخ مطر وارث حالي ومالي ولقبه بالجبل الراسخ قال ولده أبو الخير كروم لما حضرت والدي الوفاة قلت له: أوصني من اقتدى بعدك قال: بالشيخ عبد القادر ثم أعدت عليه القول فقال: يا ولدي زمان يكون فيه الشيخ عبد القادر لا يقتدي إلا به وأثنى عليه كثيرًا رضي الله عنهم.

ومنهم الشيخ القدوة الشيخ ماجد الكردي رضي الله عنه(١)

من أهل قوسان قصبة من أعمال العراق صاحب كرامات وأحوال خارقة. وله كلام رائق منه الصمت عبادة من غير عناء وجاء إليه رجل وقال له: قد عزمت على الحج على قدم التجريد فأعطاه ركوته وقال له: هذه ماء إن أردت الوضوء ولبن إن عطشت وسويق إن جعت فشكر وكان كذلك ذهابًا وإيابًا إلى منزله ببلده وكان من أخصاء الشيخ تاج العارفين رضي الله عنه. قال ولده سليمان كنت عند والدي في خلوته ولم يكن فيها ما يؤكل وقدم عليه عشرون نفرًا فقال لي: ادخل الخلوة فأتنا بطعام فلم أستطع مخالفته وإذا فيها أنواع منه فقدمتها ولم يبق فيها شيء فجاء خمسة عشر رجلًا ثم ثلاثون نفرًا فقال كذلك فوجدنا ذلك ثم نظر إلى الخادمين فوقعا مغشيًا عليهما ورفعا إلى منزليهما كالخشبتين واستمر ستة أشهر ثم دخلا عليه فاستغفرا وقالا: خطر لنا أن هذا سحر حتى توقعنا بذلك وقال قال لي والدي يومًا سليمان اذهب إلى هذا الجبل تجد ثلاثة نفر من رجال الغيب السيارة فقل لهم والدي يسلم عليكم ويقول لكم ما تشتهون فأتيتهم وبلغتهم ما قال والدي فقال لي: أحدهم رمانة والآخر تفاحة والآخر عنبًا فرجعت إليه وأخبرته بذلك فقال: اذهب إلى الشجرة الفلانية وأجن منها

---

(١) هو أحد أركان هذه الطرق، وأوتاد الطائفة في وقته، علمًا وعملاً، وحالاً وقالاً، وتحقيقًا ورفعة، ورئاسة. . . وانظر: بهجة الأسرار ومعدن الأنوار للشيخ الشطنوفي (ص ٣١٣) بتحقيقنا ـ طبع العلمية ـ بيروت.

ما طلبوا فذهبت فوجدته كذلك وكنت أعرفها يابسة بالقرب منا فأتيت به والدي فقال: اذهب به إليهم فذهبت فأكلوا إلا صاحب التفاحة قد آثرتك بها وطاروا فأراد أن يطير كطيرانهم فلم يستطع ثم استغفر له والدي وأكل منها وأطعمه وضرب بيده بين كتفيه فسار معهم وكان سيدنا الشيخ عبد القادر يثني عليه رضي الله عنهما. توفي في جمادى الأولى سنة أربع وستين وخمسمائة ولم أقف له على مولد رضي الله عنه.

ومنهم القدوة الشيخ أبو مدين شعيب المغربي(١)

السابق ذكره رضي الله عنه كان من أعيان مشايخ المغرب وصدور المقربين وعظماء العارفين وأئمة المحققين صاحب الكرامات الخارقة والأفعال الظاهرة والمقامات العلية والهمم السامية صاحب الفتح السني والكشف الجلي له التصدير في مراتب القرب والتقديم في منازل القدس وله القدم الراسخ في التمكين والباع الطويل في التصريف واليد البيضاء في أحكام الولاية والقوة الشديدة في أحوال النهاية وهو أحد أوتاد المغرب وأحد أركان هذا الشأن وأجلاء الأئمة البارعين وساداته المحققين وهو أحد من أظهره الله تعالى إلى الوجود وصرفه في العالم ومكنه من الأحوال وملكه من الأسرار وأظهر على يديه العجائب وأنطقه بفنون الحكم وأوقع له القبول التام مع الهيبة في قلوب الخلق وقصد بالزيارة واشتهر ذكره شرقًا وغربًا وهو أحد من جمع الله له بين علمي الشريعة والحقيقة وأفتى ببلاد الغرب على مذهب الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه وقصده طلبة العلم وأخذوا عنه وانتفعوا بكلامه وتخرج بصحبته غير واحد من مشايخ الغرب مثل الشيخ عبد الرحمٰن بن حجون المغربي والشيخ محمد بن أحمد القرشي والشيخ عبد الله القشتاني الفاسي والشيخ القدوة صالح الزكالي وغيرهم. وتلمذ له جماعة من أهل الطريق وقال بإرادته جم غفير من أصحاب الأحوال وانتمى إليه عالم عظيم من الصلحاء وأجمع العلماء والمشايخ رضي الله عنهم على تعظيمه واحترامه واعترفوا بفضيلته ورجعوا إلى قوله وكان جميلًا ظريفًا متواضعًا زاهدًا ورعًا محققًا مشتملًا على أكرم الشيم وأشرف الأخلاق وأحسن الصفات والقيام بوظائف

---

(١) هو الغوث الإمام إمام أئمة المحققين، صاحب الكرامات الخارقة، والأفعال الظاهرة، والأحوال العزيزة، والمقامات العلية، والهمم السامية، صاحب الفتح السني، والكشف الجلي، والحقائق النفيسة، والمعارف الجليلة. . . أحد أوتاد المغرب، وأحد أركان هذا الشأن، وأجلاء أئمته البارعين، وساداته المحققين، وأعلام العلماء بأحكامها. . . وأولي الأيدي والأبصار بمناهجها. . . وانظر: بهجة الأسرار ومعدن الأنوار (ص ٣٤٨).

الشرع وكان له كلام نفيس على لسان الحقائق وله أدعية مباركة مشهورة. فمن أدعيته رضي الله عنه: اللهم إن العلم عندك وهو محجوب عني ولا أعلم أمرًا فأختاره لنفسي فقد فوضت إليك أمري ورجوتك لفاقتي وفقري فأرشدني اللهم إلى أحب الأمور إليك وأرضاها عندك وأحمدها عاقبة عندك فإنك تفعل ما تشاء بقدرتك إنك على كل شيء قدير. وله رضي الله عنه ورضي عنا به:

يا من علا فرأى ما في الغيوب وما ... تحت الثرى وظلام الليل منسدل
أنت الغياث لمن ضاقت مذاهبه ... أنت الدليل لمن حارت به الحيل
إنا قصدناك والأمال واثقة ... والكل يدعوك ملهوف ومبتهل
فإن عفوت فذو فضل وذو كرم ... وإن سطوت فأنت الحاكم العدل

قال الشيخ عبد الرحيم القناوي رضي الله عنه[1]: سمعت شيخنا أبا مدين رضي الله عنه يقول: أوقفني ربي عزَّ وجلَّ بين يديه وقال لي: يا شعيب ماذا عن يمينك قلت: يا رب عطاؤك قال: وماذا عن شمالك قلت: يا رب قضاؤك قال قال: يا شعيب قد ضاعفت لك هذا وغفرت لك هذا طوبى لمن رآك أو رأى من رآك. قال وسمعته مرة يقول وعدني ربي سبحانه وتعالى في كل أصحابي ومن أحبني خيرًا كثيرًا. قال وقرأ مرة في الصلاة ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾﴾ [الإنسان: الآية ١٧]. قال: فامتص شفتيه فلما قضى صلاته قال: لما تلوت الآيات سقيت من الكأس. قال: وقرأ مرة ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: الآيتان ١٣، ١٤]، فقال: أشهدت مقامهما. وقال الشيخ صالح الزكالي: قامت الحرب بين المسلمين والفرنج فخرج الشيخ بأصحابه إلى الصحراء ومعه سيفه وأنا معه فجلس على كثيب رمل وإذا بين يديه خنازير قد ملؤوا البرية وكان الفرنج قد ظهروا على المسلمين فاستل الشيخ سيفه ووثب إلى أن صار بينهم وصرخ وعلا رؤوس الخنازير وقتل منهم شيئًا كثيرًا فولوا هاربين فسألناه عن ذلك فقال: هؤلاء الفرنج وقد خذلهم الله تعالى قال: فأرخنا ذلك الوقت ثم جاء الخبر بكسر الفرنج في الوقت الذي أرخناه فلما جاء المجاهدون أكبوا على أقدام الشيخ يقبلونها وأقسموا بالله إنه كان معهم بين الصفين ولولاه لهلكوا وإنه رضي الله عنه كان يعلو بسيفه رأس الفارس من الفرنج فيصرعه وفرسه وأنه قتل منهم مقتلة عظيمة وولى الفرنج مدبرين وأنهم لم يروه بعد انقضاء

---

(١) هو سيدي القطب الكبير، الإمام صاحب الكرامات والنفائس المحققات بأسرار التجليات. انظر: بهجة الأسرار (ص ٣٩).

الحرب قال وكان بين الشيخ وبين موضع القتل مسيرة تزيد على شهر رضي الله عنه وأسرته للفرنج مرة رضي الله عنه وحملوه إلى سفينتهم وكانت سفينة عظيمة وإذا فيها جماعة من المسلمين أسارى فلما استقر الشيخ فيها مدوا قلوعها وعولوا على المسير في ريح طيب فلم تذهب بهم يمينًا ولا شمالًا فعرفوا شأنهم وقالوا له: اذهب فقال لهم: ومن معي من المسلمين فأطلقوهم فسار بهم المركب وتوضأ يومًا على ساحل البحر فسقط خاتمه فقال: يا رب أريد خاتمي فطلعت سمكة وفي فمها الخاتم فأخذه. وسقط منه مزوده بسويقة فتكسر قطعًا وتبدد السويق على الأرض فوقف وقال: يا رب أريد مزودي بسويقة فعاد المزود كما كان وفيه السويق. سكن رضي الله عنه بلاد المغرب وكان أمير المؤمنين طلبه ليتبرك به فلما وصل إلى تلمسان قال ما لنا والسلطان الليلة نزور الإخوان ثم نزل عن دابته واستقبل القبلة وتشهد ثم قال: ها جئت وعجلت إليك ربّ لترضى، ومات رحمه الله تعالى ودفن بمقابر العباد وبها قبره ظاهر يزار رضي الله عنه ورضي عنا به.

ومنهم الشيخ القدوة الشيخ
أبو البركات صخر بن صخر بن مسافر الأموي رضي الله عنه(١)

كان من أجلّ مشايخ العراق ببلاد المشرق ونبلاء العارفين صاحب الكرامات الظاهرة والأحوال الفاخرة والمقامات الجلية والأنفاس الروحانية صاحب الفتح السني والكشف الجلي والقدر العلي له المقام الأعلى في مجالس القرب وله الباع الطويل في أحوال النهاية والدرع الدريع في أعلام الولاية. وهو أحد من أظهره الله تعالى إلى الوجود وملكه الأسرار ومكنه في الأحوال وأجرى على لسانه الحكم ونصبه الله تعالى قدوة للسالكين وحجة على الصادقين رضي الله عنه. صحب الشيخ القدوة شرف الدين عدي بن مسافر رضي الله عنه وهاجر إليه من البقاع العزيز من قريته بيت فار إلى جبل الهكار وخلفه بعد وفاته بلالش. وكان يثني عليه ويقدمه وقال فيه أبو البركات حقيقًا. ولقي غير واحد من مشايخ المشرق رضي الله عنهم وانتهت إليه الرياسة في وقته في تربية المريدين بجبل الهكار وما يليه. وتخرج بصحبته غير واحد من الصلحاء وكذا

(١) هو أحد من أظهره الله تعالى إلى الوجود، وصرّفه في الكون، وملّكه الأسرار، ومكنه من الأحوال، وأظهر على يديه الخارقات، وأنطقه بالمغيبات، وأجرى على لسانه الحكم، وملأ صدور الخلق من هيبته، وعمر قلوبهم بمحبته، ونصبه قدوة للسالكين، وحجة للسالكين. . . وانظر: بهجة الأسرار (ص ٣٩٩) بتحقيقنا ـ طبع دار الكتب العلمية ـ بيروت.

ولده الشيخ الجليل الأصيل عدي الآتي ذكره رضي الله عنه. وكان كريم الشمائل ظريف المعاني ذا سمت وحياء محبًا لأهل الدين مكرمًا لأهل العلم وافر العقل شديد التواضع. وله كلام نفيس على لسان أهل الحقائق. منه من سكر بكأس المحبة لا يصحو إلا بمشاهدة محبوبه فإن السكر ليلة صباحه المشاهدة كما أن الصدق شجرة ثمرتها المجاهدة. ومنه أصول المحبة في ثلاثة أشياء الوفاء والأدب والمروءة فالوفاء انفراد القلب بفردانيته والثبات على مشاهدته والمؤانسة بنور أزليته. وأما الأدب فمراعاة الخطرات وحفظ الأوقات والانقطاع عن المقاطعات. وأما المروءة فالقيام على الذكر بالصفاء قولًا وفعلًا والسر عن الأغيار ظاهرًا وباطنًا وحفظ الأوقات لرعاية ما هو آت واستدراك الأوقات فإذا وجدت هذه الخصال في العبد وجد لذة الوصال وخاف حرقة البين وهاج في سره نار الاشتياق: قال الشيخ أبو الفتح نصر بن رضوان بن مروان الداراني خرجت في بعض الأيام في فصل الخريف مع الشيخ من الزاوية إلى الجبل ومعه جمع من الفقراء فقال أحدهم: اشتهينا اليوم رمانًا حلوًا وحامضًا فلم يتم كلامه حتى امتلأت جميع أصناف أشجار الوادي رمانًا فقال لنا الشيخ رضي الله عنه: دونكم وما تريدون الرمان فقطعنا منه شيئًا كثيرًا وكنا نقطف للرمان من شجر التفاح والإجاص والمشمش وكنا نأخذ من الشجرة الواحدة الحلو والحامض فأكلنا منه حتى شبعنا وعدنا ثم خرجنا بعد ساعة ولم يكن الشيخ معنا فلم نر على تلك الأشجار رمانة واحدة. وقال كان الشيخ نصر الله بن علي الحميدي الشيباني الهكار ماشيًا على حافة الجبل في يوم ريح عاصف فاضطرب الجبل وغلب عليه الريح فسقط من أعلى الجبل وكان الشيخ رضي الله عنه تجاه الجبل جالسًا فأشار بيده إلى الجبل فثبت مكانه وبقي الشيخ نصر الله في الهواء بين أعلى الجبل والأرض لم يتحرك لا يمينًا ولا شمالًا كأن أحدًا مسكه ومنعه من الحركة ومكث ساعة فقال الشيخ للريح: يا ريح اصعدي به إلى سطح الجبل فصعدت به الريح رفقًا رفقًا كأن أحدًا يحمله حتى انتهت به إلى سطح الجبل ببركته رضي الله عنه. وقال أبو الفضل معالي بن بنهال التميمي الموصلي رحمة الله عليه صحبت سيدي الشيخ أبا البركات سبع سنين وكنت يومًا أصب الماء على يديه بعد الطعام فقال لي: ما تريد؟ فقلت له: ادع لي بتيسير حفظ القرآن العظيم فقال: يسره الله عليك وأعانك على تلاوته وقرب لك كل بعيد فيسر الله تعالى على حفظ القرآن حتى كملت حفظه في ثمانية أشهر بعد أن كنت أردد الآية في حفظها ثلاثة أيام ويعسر على حفظها وها أنا أتلوه آناء الليل وأطراف النهار وقرب الله تعالى لي كل بعيد وما عسر عليّ بعد ذلك أمر إلا وهان ولا هالني شيء إلا يسره الله تعالى

عليّ تيسيرًا عظيمًا ببركة دعوته. وقال ولده الشيخ أبو المفاخر عدي رضي الله عنهما رأى والدي رجلًا يصلي وهو يعبث بيديه عبثًا كثيرًا تبطل الصلاة بمثله فنهاه فلم ينته وأكثر من العبث كالمعاند فقال له الشيخ: لتكفن عن العبث أو ليكفن الله تعالى يديك فبطلت يداه في وقته ثم جاء إلى الشيخ بعد أيام باكيًا متضرعًا فقال له الشيخ: ما ينفعك هذا إن هي إلا غضبة الله تعالى فيك نفذ سهمها ومات على تلك الحالة من دعوته رضي الله عنه. سكن لالش من جبل الهكار فاستمر بها ساكنًا إلى أن مات بها مسنًا ودفن عند عمه الشيخ عدي بن مسافر وقبره بها ظاهر يزار رضي الله عنهما.

ومنهم الشيخ الأصيل الشيخ أبو المفاخر عدي بن أبي البركات صخر بن صخر بن مسافر الأموي الشامي الأصل الهكاري المولد والدار رضي الله عنه

كان من أعيان مشايخ العراق المعتبرين صاحب كرامات وأحوال وله المقامات الجلية والأنفاس الروحانية صاحب الكشف الجلي والفتح السني له القدم الراسخ في التمكين والباع الطويل في التصريف واليد البيضاء في أحكام الولاية والقوة التامة في أحوال النهاية وهو أحد من أظهره الله تعالى إلى الوجود ومكنه من الأحوال وأجرى على لسانه الحكم صحب والده وأخذ عنه ولقي غير واحد من مشايخ المشرق رضي الله عنهم. وانتهت إليه الرياسة في وقته في تربية المريدين بجبل الهكار وما يليه وتخرج بصحبته غير واحد وكان كريمًا ظريفًا ذا سمت وحياء محبًا لأهل الدين مكرمًا لأهل العلم وافر العقل شديد التواضع وأجمع العلماء والمشايخ رضي الله عنهم على تبجيله واحترامه وقصد بالزيارات واشتهر ذكره في الآفاق رضي الله عنه ولم أقف له على تاريخ مولد ولا وفاة رضي الله عنه ورضي عنا به.

ومنهم الشيخ القدوة الشيخ أبو يعقوب بن يوسف بن أيوب ابن يوسف بن الحسين بن وهرة الهمداني رضي الله عنه(١)

كان أحد أركان الإسلام وإليه انتهت تربية المريدين بخراسان واجتمع عنده بخانقاه من العلماء والفقهاء والصلحاء رضي الله عنهم جماعة كثيرة وانتفعوا به

(١) هو من أكابر مشايخ خراسان، وصدور أعيانها، ورؤساء علمائهم. وهو أحد أركان الإسلام، وإليه انتهت تربية المريدين بخراسان. واجتمع عنده من العلماء والفقهاء والصلحاء جماعة كثيرة، وانتفعوا بكلامه. . . وانظر: بهجة الأسرار (ص ٢٧٧) بتحقيقنا ـ طبع العلمية ـ بيروت.

وبكلامه وتخرجوا بصحبته وكان من صغره إلى حال وفاته على الطريق المستقيمة من العبادة والخلوة والرياضة في النفس صحب جماعة من الزهاد وتلمذ في الفقه إلى جماعة من علماء الزمان وتلذ له جماعة من صدور خراسان وكان المشايخ بها رضي الله عنهم يعظمون أمره وكان له كلام على لسان أهل الحقائق. قال الشيخ علي الجوني: سمعت وحضرت الشيخ يوسف الهمداني يومًا في مجلس وعظه وهو يتكلم على الناس وكان فقيهان حاضرين فقال: اسكت فإنما أنت مبتدع فقال لهما رضي الله عنه: اسكتا أنتما لا عشتما قال فماتا جميعًا مكانهما وقال ابن خلكان في تاريخه إنه جلس يومًا للوعظ واجتمع إليه العالم فقام من بينهم فقيه يعرف بابن السقاء وآذاه وسأله عن مسألة فقال له الإمام يوسف اجلس فإني أجد من كلامك رائحة الكفر ولعلك أن تموت على غير دين الإسلام فقدم رسول ملك الروم إلى الخليفة فخرج ابن السقا مع الرسول إلى القسطنطينية فتنصر ومات نصرانيًا وكان ابن السقا قارئًا للقرآن محمودًا في تلاوته. وحكي من رآه بالقسطنطينية قال رأيته مريضًا ملقى على دكة وبيده مروحة يدفع بها الذباب عن وجهه فقلت له: هل القرآن باق على حفظك قال ما أذكر منه إلا آية واحدة وهي ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين والباقي أنسيته انتهى كلامه نسأل الله العافية والسلام من ذلك وحسن الخاتمة. فعليك يا أخي بالاعتقاد وترك الانتقاد على أولياء الله العارفين والعلماء العاملين الصالحين المؤمنين فإن سهامهم مسمومة فقل من تعرض لهم وسلم فسلم تسلم ولا تنتقد تندم فانظر كيف هلك هذا الرجل المتقدم ذكره بالانتقاد وترك الاعتقاد ونسأل الله تعالى العفو والعافية وحسن الخاتمة بمحمد وآله. وجاءت إليه امرأة باكية وقالت له: الإفرنج أسروا ولدي وسألت منه ولدها فصبرها فلم تجد صبرًا فقال الشيخ رضي الله عنه: اللهم فك أسر ولدها وعجل فرجه ثم قال لها: اذهبي إلى دارك تجديه إن شاء الله تعالى بها فذهبت المرأة إلى الدار فوجدته في الدار فعجبت وسألته عن حاله فقال كنت الآن بالقسطنطينية مقيدًا والحرس علي فأتاني شخص لا أعرفه فاحتملني وأتا بي إلى ههنا كلمح البصر فجاءت أمه إلى الشيخ وأخبرته بذلك فقال لها: أتعجبين من أمر الله إن لله عبادًا أخلصوا في العمل صرفهم فيما أرادوا رضي الله عنهم. ولد رضي الله عنه في آخر سنة أربعين وأربعمائة ببوز تجرد قرية من قرى همدان وتوفي بنامين قرية من قرى همدان منصرفًا من هوازن إلى مرو يوم الاثنين ثاني عشر شهر ربيع الأول سنة خمس وثلاثين وخمسمائة ودفن بها مدة ثم حملت جثته كهيئتها إلى مرو ودفن بها بأقصى سنجار

في الحضرة المنسوبة إليه وقبره هناك ظاهر يزار رحمة الله عليه ورضي عنه ورضي عنا به.

ومنهم الشيخ القدوة شيخ الشيوخ الشيخ شهاب الدين عمر ابن محمد بن عبد الله بن محمد بن عموية السهروردي المتقدم ذكره رضي الله عنه

كان أحد رجال العراق ممن انتهت إليه رياسة هذا الشأن وكان عالمًا فاضلًا لبيبًا أديبًا ذا فصاحة ومعرفة أعطى طرفًا من العلم الشريف اللدني وكان يتكلم على المغيبات ذا كرامات خارقات متمسكًا بالكتاب والسنة مجتهدًا في أحكام الشريعة ومقامات الحقيقة. وهو ممن شهد له سيدنا وشيخنا الشيخ عبد القادر رضي الله عنه وقال له يا عمر أنت آخر الرجال المشهورين. وكان له كلام عال مما فتح الله عليه من اللوامع الغيبية رضي الله عنه. قال نجم الدين النقليسي صاحب الشيخ رضي الله عنه دخلت الخلوة ببغداد عند الشيخ رضي الله عنه فأشهدت في الواقعة في اليوم الأربعين الشيخ شهاب الدين عمر علي جبل عال وعنده جواهر كثيرة والشيخ بيده صاع وهو يملأ من تلك الجواهر ويبثها على الناس وهم يبتدرون إليها وكلما قلت الجواهر نمت كأنها تنبع من عين قال فخرجت من الخلوة في آخر يومي ذلك وأتيته لأخبره بما شاهدت فقال لي قبل أن تكلم بالذي رأيته يا ولدي الذي رأيته حق وأمثاله معه هو من بركة الشيخ عبد القادر رضي الله عنه مما عوضني به من علم الكلام فإنه كانت له اليد المبسوطة من الله تعالى في التصريف النافذ والفعل الخارق الدائم رضي الله عنه. ومن شعره:

وقائلة لي نمت ليلة وصلنا   فقلت لها لا علم لي برضاك
ولو كنت أعلم أنها ليلة الرضا   سهرت الليالي كلها للقاك
عسى ليلة أخرى تمر بحبنا   ويهجع قلبي من أليم جفاك

ومن دعائه رضي الله عنه: اللهم بصرنا بعيوب أنفسنا لننظر عيوبنا ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين وانصرنا على أعدائنا ولا تفضحنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد قال ابن النجار كان شيخ وقته في علم الحقيقة وطرائق التصوف وانتهت إليه الرياسة في تربية المريدين ودعاء الخلق إلى الله تعالى وسلك طريق العبادة والزهد في الدنيا صحب عمه وغيره من المشايخ وسلك طريق الرياضات والمجاهدات وقرأ الفقه

والخلاف والعربية وسمع الحديث. ثم انقطع ولازم الخلوة وداوم على الصوم والذكر والعبادة إلى أن خطر له عند سنه أن يظهر الناس ويتكلم عليهم فعقد مجلس الوعظ بمدرسة عمه وحضر عنده خلق كثير وظهر له قبول عظيم من الخاص والعام واشتهر اسمه وقصد من الأقطار وظهرت بركاته على خلق من العصاة فتابوا ووصل به خلق إلى الله تعالى وصار له أصحاب كالنجوم ونفذ رسولًا إلى الشام مرات وإلى السلطان خوارزم شاه ورأى من الجاه والحرمة عند الملوك ما لم يره غيره ثم رتب شيخًا بالرباط الناصري وبرباط البسطامي ورباط المأمونية ثم إنه أضر في آخر عمره وأقعد ومع هذا فما أخل بالأوراد ودوام الذكر وحضور الجمع في محفة والمضي إلى الحج إلى أن دخل في عشر المائة وضعف فانقطع في منزله. توفي رضي الله عنه ليلة الأربعاء مستهل المحرم سنة اثنين وثلاثين وستمائة وحمل إلى الوردية ودفن في تربة له بمسجده بعد أن صلى عليه بجامع الغصن. وسهرورد بضم السين المهملة وهي بلدة عند زنجان من عراق العجم انتهى كلامه.

وقال قاضي القضاة مجير الدين عبد الرحمٰن العمري العليمي المقدسي الحنبلي في تاريخه المعتبر في أنباء من عبر. أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله البكري عبد البكري الملقب شهاب الدين السهروردي ونسبه متصل بأبي بكر الصديق كان فقيهًا شافعي المذهب شيخًا صالحًا ولم يكن في آخر عمره عصرة مثله وكان شيخ الشيوخ ببغداد وله نفس مبارك وتآليف حسنة منها عوارف المعارف. ومولده بسهرورد وتوفي في أوائل شعبان سنة اثنين وثلاثين وستمائة ببغداد ودفن من الغد بالوردية انتهى كلامه ملخصًا رضي الله عنه ورضي عنا به.

ومنهم الشيخ القدوة جاكير الكردي السالف ذكره رضي الله عنه(١)

كان من أعيان المشايخ وأكابر العارفين المقربين وأئمة المحققين البارعين صاحب الفتح الطالع والكشف اللامع والبصيرة الخارقة والسريرة المشرقة والكرامات الباهرة والأحوال الفاخرة والمقامات الجليلة والحقائق النفيسة والمعارف السنية والمنازل الرفيعة من مراتب القرب والتصدر المتعالي في مجالس القدس. وهو أحد

(١) كان له كلام عالٍ على لسان أهل الحقائق. . . وانظر: بهجة الأسرار ومعدن الأنوار للشطنوفي (ص ٣١٧) بتحقيقنا ـ طبع دار الكتب العلمية ـ بيروت.

من أظهره الله تعالى إلى الوجود وصرفه في أحكام الأحوال وقلب له الأعيان وخرق له العادات وأظهر على يديه العجائب وأنطقه بالمغيبات وأجرى على لسانه الحكم وكان الشيخ تاج العارفين رضي الله عنه يثني عليه كثيرًا وينوه بذكره وبعث إليه طاقيته مع الشيخ علي بن الهيتي رضي الله عنه وأمره أن يضعها على رأسه نيابة عنه ولم يكلفه الحضور إليه وقال سألت الله تعالى أن يكون جاكير من مريدي فوهبه لي وكانت المشايخ بالعراق رضي الله عنهم يقولون: انسلخ الشيخ جاكير من نفسه كما تنسلخ الحية من جلدها، وهو الذي يقول ما أخذت العهد على أحد حتى رأيت اسمه مرقومًا في اللوح المحفوظ أنه من جملة مريدي. وقال رضي الله عنه أوتيت سيفًا ماضي الحد أحد طرفيه بالمشرق والآخر بالمغرب لو أشير به إلى الجبال الشوامخ لهوت انتهت إليه رياسة هذا الشأن في بلده وما يليه وانتفع به جماعة وانتمى إليه خلق كثير من الصلحاء ويجله المشايخ رضي الله عنهم واعترفوا بفضله. وكان رضي الله عنه ظريف الشمائل كامل الأدب شريف الصفات لطيف المعاني مع ما آيده الله تعالى من لزوم آداب الشريعة وحفظ قانون العبودية. وله كلام عال على لسان المحققين رضي الله عنهم.

قال الشيخ الصالح أبو محمد الحسن الحميدي السائري: كانت نفقة شيخنا الشيخ جاكير من الغيب. وقال: كنت عنده يومًا فمرت به بقرات مع راعيها فأشار إلى إحداهن وقال: هذه حامل بعجل أحمر غرق يولد في يوم كذا في شهر كذا وهو نذر لي ويذبحه الفقراء يوم كذا ويأكله فلان وفلان ثم أشار إلى الأخرى وقال هذه حامل بأنثى ومن صفتها كذا وكذا تولد في وقت كذا وكذا وهي نذر لي يذبحها فلان رجل من الفقراء ثم يأكل منها فلان وفلان ولكلب أحمر فيها نصيب، وقال الراوي: والله لقد وجدت الحال على وصف الشيخ رضي الله عنه لم يختل منها بشيء ودخل كلب أحمر إلى الزاوية واختطف قطعة لحم من البقر وذهب بها، قال: وأتاه يومًا وارد وقال له: يا شيخ جاكير أريد اليوم منك تطعمني لحم ظبي، قال: وإذا الظبي قد جاء حتى وقف بين يدي الشيخ رضي الله عنه فأمر بذبحه فذُبح لذلك الوارد فأكل منه ولقد خدمت الشيخ سبع سنين فما رأيت بالقرب من الزاوية ظبيًا غير هذا رضي الله عنه.

سكن رضي الله عنه صحراء من صحارى العراق بالقرب من قنطرة الرصاص على يوم من سامرة واستوطنها إلى أن مات بها مسنًا وبها دفن وقبره يزار وعمر الناس عنده قرية يطلبون بركته رضي الله عنه ورضي عنا به.

ومنهم الشيخ القدوة الشيخ عثمان بن مرزوق القرشي المتقدم ذكره رضي الله عنه

كان من أعيان المشايخ بمصر وصدور المقربين وأكابر المحققين صاحب الكرامات والأحوال والمقامات والأفعال والإشارات العلية والهمم المرضية وهو أحد من أبرزه الله إلى الوجود وصرفه فيه وقلده التصرف في الأحوال وجمع له بين علمي الشريعة والحقيقة وكان رضي الله عنه حنبلي المذهب لطيفًا عفيفًا. وله كلام لطيف على لسان أهل المعرفة ومنه الطريق إلى معرفة الله وقدرته وصفاته الفكر والاعتبار بحكمة آياته ولا سبيل للألباب إلى معرفة كنه ذاته ولو تناهت الحكم الإلـٰهية في أحد العقول وانحصرت القدرة الربانية في درك العلوم لكان ذلك تقصيرًا ونقصًا في القدرة لكن احتجبت أسرار الأزل عن العيون كما احتجبت أسرار الجلال عن الأبصار فقد رجع معنى الوصف في الوصف وعمي الفهم عن الإدراك ودار الملك في الملك ورجع المخلوق إلى مثله واشتد الطلب على شكله وخشعت الأصوات للرحمـٰن فلا تسمع إلا همسًا فجميع المخلوقات من الذرة إلى العرش سبل موصلة إلى معرفة الله وحجج بالغة على أزليته والكون كله ألسن ناطقة بوحدانيته والعالم كله كتاب يقرأ حروف أشخاصه المتبصرون على قد بصائرهم يا هذا من لم يجد في قلبه زاجر فهو خراب ومن لم تمطر أراضي فهمه من غيث المعرفة فهو سحاب ومن لم يصبر على صحبة مولاه ابتلاه بصحبة العبد ودليل وحشتك من الخلق أنسك بمولاك وكان رضي الله عنه يتمثل بهذه الأبيات:

يا غارس الحب بين القلب والكبد ... ومَن يحلّ محل الروح في الجسد
يا مَن يقوم مقام الموت فرقته ... هتكت بالصدّ ستر الصبر والجلد
قد جاوز الحب في أعلا مراتبه ... فلو طلبت مزيدًا منه لم أجد
إذا دعا الناس قلبي عنك مال به ... حُسْن الرجاء فلم يصدر ولم يرد
إن ترضني لم أدر ما دمت لي بدلًا ... وإن تغيرت لم أسكن إلى أحد

قال مؤلّف روضة الأبرار ومحاسن الأخيار أنه توفي ودفن عند قبر الشافعي رضي الله عنه بمصر رضي الله عنه وقال مؤلف بهجة الأسرار أبو عمر وعثمان بن مرزوق بن حميد بن سلامة القرشي الحنبلي سكن مصر واستوطنها وبها مات سنة أربع وستين وخمسمائة وقد جاوز السبعين ودفن بقرافتها شرقي قبر الشافعي رضي الله عنه مما يلي سارية قبره وقبر ظاهر يزار رضي الله عنه.

ومنهم الشيخ القدوة الشيخ سويد السنجاري السالف ذكره رضي الله عنه[(١)]

كان من أعيان مشايخ المشرق وصدور العارفين وأكابر المحققين بديار بكير صاحب الكرامات الظاهرة والأحوال الفاخرة والمقامات السنية والأفعال الخارقة والإشارات العالية والهمم المرضية له المكانة الرفيعة من مراتب القرب والطور السامي من منازل الوصل والمعراج العلي في مدارج المعارف والسمو الأرفع إلى مراقي الحقائق وهو أحد من أظهره الله تعالى إلى الوجود وصرفه في العالم ومكنه من الأحوال وقلده أحكام التصريف وملكه أزمة أهل النهايات وأطلعه عل عجائب الغيوب وأنطقه بفنون الحكم وأوقع له القبول التام في الصدور والهيبة الوافرة في القلوب وأقامه الله تعالى إمامًا وحجة للسالكين وجمع له بين علمي الشريعة والحقيقة وانتهت إليه رياسة هذا الشأن علمًا وعملًا وتحقيقًا وزهدًا وجلالة وبه صدر الأمر في تربية المريدين الصادقين في وقته بسنجار وما يليها وتخرج بصحبته غير واحد من أكابر المشايخ مثل الشيخ حسن التلعفري والشيخ عثمان بن عاشور السنجاري وغيرهما. وقال بإرادته جمع من الصلحاء رضي الله عنهم. وانتمى إليه خلق كثير من العلماء وأجمع العلماء والمشايخ على تبجيله واحترامه وكان شيخنا وسيدنا الشيخ محيي الدين عبد القادر رضي الله عنه يثني عليه كثيرًا ويذكر فضيلته وكان مقصودًا بالزيارات من كل قطر مشهور الذكر في كل أفق ظريفًا جميلًا كاملًا متأدبًا خاشعًا مشتملًا على أشرف الأخلاق أو أكرم الشيم وأسنى الصفات وكان له كلام شريف في علوم المعارف. منه العلوم ثلاثة: علم من الله تعالى وعلم مع الله تعالى وعلم بالله تعالى وعلم الظاهر وعلم الباطن وعلم الحكم وأصل العقل الصمت وإذا غلب الهوى توارى العقل.

قال الشيخ الصالح أبو عبد الله محمد بن الحسن المخزومي رحمه الله تعالى: قال الشيخ الأصيل أبو المجد سالم بن أحمد اليعقوبي رحمه الله تعالى: كان رجل

---

(١) هو من أعيان مشايخ المشرق، وصدور العارفين، وأكابر المحققين، وهو أحد من أظهره الله تعالى إلى الوجود وصرفه في العالم، ومكنه من الأحوال، وقلده أحكام التصريف، وملكه أزمة التمكين، وصدَّره في مجالس القدس، وقدّمه في صدور الغيوب، وأنطقه بفنون الحكم، وقلب له الأعيان، وخرق له العادات، وأظهر على يديه العجائب الخارقات، وأوقع له القبول في صدور الرجال. . . وانظر: بهجة الأسرار ومعدن الأنوار (ص ٣٣٣) بتحقيقنا ـ طبع العلمية ـ بيروت.

من أهل سنجار من وجوهها كثير الوقوع في السلف بغير سبب فمرض فلما احتضر جعل يتكلم بكل شيء إلا الشهادتين إذا قيل له: قل لا إلٰه إلا الله، يقول: لم يُؤذَن لي في ذلك فضجّ الناس بالشيخ سويد رضي الله عنه. قال: فأتاه وجلس عنده وأطرق طويلًا ثم قال: قل: لا إلٰه إلا الله فقالها وكررها عليه مرارًا وهو يقولها، فقال الشيخ رضي الله عنه: إنه قد عوقب بذلك لوقوعه في السلف رضي الله عنهم وإني قد شفعت فيه إلى ربي سبحانه وتعالى فقيل لي: قد شفعناك فيه إن رضي عنه أولياؤنا السالفون. قال: فدخلت الحضرة الشريفة واستوهبت ذنبه من معروف الكرخي وسريّ السقطي والجنيدي والشبلي وأبي يزيد وغيرهم رضي الله عنهم وأطلق لسانه بالشهادتين. قال: فقال لي الرجل: إني كنت كلما أردت أن أتشهد وثب إليّ شيء أسود وشد العقد على لساني فيمنعني النطق ويقول لي: أنا وقيعتك في أولياء الله تعالى، ثم جاء بعده نور يتلألأ وطرد ذلك السواد عني وقال لي: أنا رضا أولياء الله عنك رضي الله عنهم. ثم قال الرجل: وها أنا أنظر إلى خيل من نور بين السماء والأرض قد ملأت الجو عليها ركاب من نور مطرقة رؤوسهم هيبة يقولون: سبّوح قدّوس ربّ الملائكة والروح وما زال الرجل يلهج بالشهادتين حتى مات رحمه الله.

وقال الشيخ العارف عثمان بن عاشور السنجاري: كان الشيخ يومًا في المسجد فدخل عليه رجل أعمى ليصلي فتوجه إلى غير القبلة، فقال الشيخ رضي الله عنه: اللهم نوّر عليه بصره فخرج من المسجد بصيرًا وعاش بعد ذلك عشرين سنةً ومات رحمه الله تعالى.

وقال الشيخ العارف المجاب الدعوة أبو منعة بن سلامة المغروقي المعروف بالرويحح رحمه الله تعالى: جدع أنف رجل من غير قصاص فلما علم الشيخ بحاله أخذ ما انفصل من أنف الرجل ووضعه مكانه وقال: بسم الله الرحمٰن الرحيم فعاد أنف الرجل صحيحًا كحاله أولًا رضي الله عنه. قال: ومر يومًا بمجذوم يتناثر الدود من جسده ومنه يسيل الدم والقيح قد أعيا الأطباء ومرت عليه السنون وهو كذلك فقال الشيخ رضي الله عنه: يا مولاي إنك غني عن عذابه فعافِه مما هو فيه فعوفي في ذلك الوقت وبرىء بإذن الله تعالى. سكن رضي الله عنه سنجار واستوطنها إلى أن مات بها قديمًا مُسِنًّا، وقبره بها ظاهر يُزار. وقيل إن اسمه نصر الله وإنما لقب بسويد فغلب عليه وكان أبيض اللون أحمر رضي الله عنه.

ومنهم الشيخ القدوة الشيخ حياة بن قيس الحراني رضي الله عنه(١)

كان من أجلّاء المشايخ وعظماء العارفين وأعيان المحققين صاحب الكرامات الخارقة والأحوال الفاخرة والمقامات الرفيعة والجلالات الجسيمة والهمم الفخيمة والبدايات العظيمة صاحب الفتح السني والكشف الجلي والقدر العلي له المقر السامي من القرب والطور العلي في الحقائق والمعراج الرفيع في المعارج والترقي في درجات التمكين والسبق إلى منازل التقديم وهو أحد من أظهره الله تعالى إلى الخلق وصرفه في الوجود وقلب له الأعيان وخرق له العوائد وأظهر على يديه العجائب وأنطقه بالمغيبات ومكنه من الأحوال ونصبه الله تعالى حجة وقدوة لأهل الطريق مع قدم راسخ في الاجتهاد الواصب وباع رحيب في التصريف النافذ ويد بيضاء في الحكم والتواضع والكرم وهو أحد أركان هذا الشأن وصدور أئمته وأعلام العلماء بأحكامه ورؤسائه وهو أحد الأربعة المتصرفين في قبورهم تصرف الأحياء رضي الله عنه. انتهت إليه رياسة هذا الأمر علمًا وحالًا وزهدًا وجلالة وبه غدق الأمر في تربية المريدين المحققين وتخرج بصحبته غير واحد من أصحاب المقامات وتلمذ له جماعة كثيرة من أصحاب الأحوال، وقال بإرادته جم غفير من الأكابر وانتمى إليه عالم عظيم لا يحصون كثرة من الأحوال وأشار إليه العلماء والمشايخ وغيرهم بالتبجيل وجلس بين يديه غير واحد من المشايخ ورجع إلى قوله أكثر أهل زمانه وأقر الخاص والعام بفضيلته والاعتراف بمكانته وحفظ حرمته وكل أهل حران وما يليها كانوا يستسقون به فيسقون ويلتجئون إليه في المعضلات فتنكشف عنهم وأحواله في ذلك أشهر من أن تذكر. وكان له كلام نفيس على لسان أهل الحقائق منه المحبة تعلق القلب بين الهيبة والإنس وهي سمة الطائفة وعنوان الطريقة تعلق إلى المحبوب وإلى اللقاء المطلوب يغالب العقل الجلي ويلذذ الموت فلا يزاحم أبدًا ولا يقبل أمدًا فهناك برز الحق بصولة الحال وصولة الوجد وصولة الكشف وصولة الجمع وصولة العطية شوق العيان ومن قوله رضي الله عنه: قيمة القشور بلبابها وقيمة الرجال بألبابها وقيمة القصور بأربابها وفخر الأحبة بأحبابها، وقال رضي الله

---

(١) هو الشيخ الكبير الولي الشهير بحياة بن قيس الحراني له من ما لا يحصى من المريدين، وكراماته وأحواله ذهلت منها العقول، وانظر: شذرات الذهب (٢/ ٢٦٩)، وسير أعلام النبلاء (١٥٧/٢١)، وبهجة الأسرار (ص ٣٣٩) بتحقيقنا.

عنه: إن نار المحبة إذا بدت أماتت قوامًا وأحيت أعوامًا وأبقيت أسرارًا وأفنت أشرارًا وتؤثر آثارًا ثم أنشد:

وإذا الرياح مع العشاء تناوخت   منهن حاسدة وهجن غيورا
وأمن ذا بوجود وجد دائم   وأقمن ذا وكشفن عنه ستورا

يقال العشى والعشاء، وقوله: تناوخت، أي تقالت والله أعلم. قال الشيخ الأصيل أبو حفص عمر ابن الشيخ القدوة حياة بن قيس الحراني رضي الله عنه جاء الشيخ زغيب الرحبي رضي الله عنه إلى زيارة والدي بحران فوافاه بعد صلاة الصبح جالسًا على باب داره بين يديه معزة له فسلم عليه وجلس على دكة بإزائه من الجانب الآخر بينهما أكثر من عشرة أذرع فلم يكلمه والدي فقال الشيخ زغيب في نفسه جئت من الرحبة إلى هنا اشتغل عني بمعزة ينظر في أمرها قال فنظر إليه والدي رضي الله عنه وقال له: يا زغيب قد أمرت أن أعطب فيك شيئًا بسبب اعتراضك فاختر إما من ظاهرك وإما من باطنك فقال له: يا سيدي بل من ظاهري قال فمد والدي يده يسيرًا وأشار بإحدى أصابعه فسألت إحدى عيني الشيخ زغيب على خده فقام وقبل الأرض وعاد إلى الرحبة ثم لقيته بعد سنين صحيح العينين فسألته عن ذلك فقال: كنت في سماع ببلدنا وفيه رجل من مريدي والدك رحمه الله تعالى فوضع يده على عيني فعادت صحيحة كما ترى بإذن الله تعالى ولما أشار والدك رضي الله عنه بأصبعه إلى عيني وسألت على خدي انفتحت في قلبي عين شاهدت بها أسرارًا وقدرًا ذات عجائب من آيات الله تعالى ببركة الشيخ رضي الله عنه.

وقال الشيخ عبد اللطيف بن أبي الفرخ الحراني المعروف بابن القبيطي: بُني مسجد بحران فلما أرادوا نصب محرابه حضر الشيخ حياة فقال للشيخ المهندس: القبلة كذا، فقال الشيخ: لا بل القبلة كذا، فقال له الشيخ: انظر بالقلب منك ترى القبلة، قال: فنظر المهندس فإذا الكعبة زادها الله شرفًا بإزائه ليس بينه وبينها حجاب فخر إلى الأرض مغشيًا عليه.

وقال الشيخ نجيب الدين عبد المنعم الحراني الصقيلي رضي الله عنه: في بعض السنين نزلوا منزلًا واستظل الشيخ ومن معه بشجرة من شجر أم غيلان فقال له خادمه: يا سيدي إني أشتهي رطبًا، فقال له الشيخ رضي الله عنه: هزّ الشجرة، فقال له خادمه: يا سيدي هذه أم غيلان، فقال له الشيخ: هزّها ففعل، قال فتساقطت عليه رطبًا جنيًا قال: فأكلوا حتى شبعوا وانصرفوا رضي الله عنهم. سكن رضي الله عنه

حران واستوطنها وبها مات ليلة الأربعاء ختام جمادى الآخرة سنة إحدى وثمانين وخمسمائة ودفن بظاهر حران وقبره ظاهر يزار رضي الله عنه.

ومنهم الشيخ القدوة أبو عمر وعثمان بن مروزة البطائحي رضي الله عنه(١)

صاحب الكرامات الظاهرة والأحوال الفاخرة والمقامات العلية والفتح الموفق والكشف المشرق له البدايات التي عز مثلها والنهايات التي علا محلها والباع الرحيب في أسرار المشاهدات والقدم الراسخ في مقامات الوصول وهو أحد من أظهره الله تعالى للوجود وأظهر على يديه العجائب وملأ القلوب من محبته وسارت الركبان بمناقبه وكان المشايخ يعظمونه ويبجلونه وكان متأدبًا متواضعًا متجنبًا على الناس وله بعض كلام في المعارف منه قلوب الأولياء أوعية المعرفة وقلوب العارفين أوعية المحبة وقلوب المحبين أوعية المشاهدة وقلوب المشاهدين أوعية الفوائد ولكل حال من هذه الحالات آداب فمن لم يستعملها في أوقاتها هلك ومنه الغافلون يعيشون في حكم الله تعالى والذاكرون يعيشون في روح الله تعالى والعارفون يعيشون في لطف الله تعالى والصادقون يعيشون في قرب الله تعالى والمحبون يعيشون على بساط الله تعالى فيطعمهم ويسقيهم قال الشيخ أبو حفص عمر بن مصدق الربيعي الواسطي مكث للشيخ عثمان بن مروزة البطائحي رضي الله عنه في بداية أمره سائحًا في البطائح إحدى عشرة سنة لا يرى فيها أحدًا ولا يأوي إلى سكن ويأكل من المباحات وكان رجل يأتيه في أول كل سنة بجبة صوف يلبسها فبينما هو ليلة إذ بدت له أنوار وتجلى كمال الجلال فوقف مكانه شاخصًا إلى السماء سبع سنين لا يجلس ولا يأكل ولا يشرب ثم رجع إلى أحكام البشرية فقيل له في سره اذهب إلى قريتك وطأ زوجتك فإن في ظهرك ولدًا وقد حان وقت خروجه فأتى إلى قريته وطرق داره فكلمته زوجته فأتى إلى عندها وأخبرها بالقضية التي جاء بسببها فقالت له زوجته: لئن فعلت وعدت إلى مكانك ولم يعلم بك أحد. يتحدث الناس في قال فصعد الشيخ إلى سطح داره ونادى بأعلى صوته: يا أهل هذه القرية أنا عثمان بن مروزة اركبوا فإني سأركب قال فبلغ الله صوته إلى أهل القرية كلهم وأفهمهم مراده فمن وطىء زوجته ووافق تلك

---

(١) هو من أكابر المشايخ بالبطائح، وأعيان العارفين، له اليد البيضاء في علوم الأحوال، والباع الرحيب في أسرار المشاهدات، والقدم الراسخ في مقامات الوصول... وانظر: بهجة الأسرار (ص ٣٦٣).

الليلة من أهل القرية رزقه الله تعالى ولدًا صالحًا ثم اغتسل الشيخ ورجع إلى مكانه بالبطيحة ووقف شاخصًا إلى السماء سبع سنين أخر وطال شعره حتى ستر عورته ونبت الشعب حوله وألفته السباع والوحوش والطيور ثم رد إلى حكم بشريته فقضى فرائض أربع عشرة سنة وكانت الكلاب عنده تلعب مع الأسد ولا تؤذيها. وقال الشيخ أبو الفتح بن أبي الغنائم الواسطي جاء رجل إلى الشيخ أحمد بن الرفاعي بثور أعجف يقوده وقال له يا سيدي ليس لي ولعيالي شيء ولا عيش إلا من عمل هذا الثور وإنه قد ضعف عن العمل فادع الله تعالى له بالقوة والبركة. فقال الشيخ أحمد رضي الله عنه: اذهب به إلى الشيخ عثمان بن مروزة وسلم عليه مني واسأله الدعاء لي وله ولك في أمرك قال فذهب الرجل يقود الثور إلى الشيخ عثمان رضي الله عنه فوجده جالسًا في البطيحة والأسد حوله محدقة به فقال له: تقدم فتقدم إليه فقال له: ابتدأ، وعلى الولي الشيخ أحمد السلام ختم الله تعالى لي وله ولكل المسلمين بالخير ثم أشار إلى أسد فقام فافترس الثور وأكل منه فقال له الشيخ: قم فقام عنه ثم قال لأسد آخر: قم فكل منه قال فقام وأكل منه ثم قال: قم فقام عنه وما زال يأمر أسدًا بعد أسد بالأكل حتى لم يبق من لحم ذلك الثور شيء فإذا ثور سمين قد أقبل ووقف بين يدي الشيخ فقال للرجل صاحب الثور: خذ هذا بدلًا عن ثورك فقام إليه وأخذه وقال في نفسه: أهلك ثوري وأخشى أن يعرف هذا معي فأوذي بسببه وإذا رجل قد أقبل يعدو حتى وقف على الشيخ وقبل يده وقال له: يا سيدي كنت نذرت لك ثورًا وأتيت به إلى البطيحة فانساب مني ولا أدري أين ذهب فقال له: يا والدي ها هو قد وصل تراه فلما رآه الرجل أكب على أقدام الشيخ يقبلها وقال له: يا سيدي قد عرفك الله بكل شيء وعرف بك كل شيء حتى البهائم فقال: يا هذا الحبيب لا يخفى عن حبيبه شيئًا ومن عرف الله تعالى عرفه بكل شي ثم قال للرجل صاحب الثور تخاصمني بقلبك وتقول أهلك ثوري وأخشى أن يعرف هذا معي وأودي بسببه فجعل الرجل يبكي فقال له الشيخ: ألم تعلم أنني أعلم ما في قلبك اذهب بارك الله تعالى لك فيها وفي ثورك فأخذه وانصرف فخطر في نفسه أخشى على نفسي وعلى الثور من أسد فقال له الشيخ رضي الله عنه: تخشى أن يعترضك أو لثورك أسد فقال: يا سيدي هو ذاك قال فأشار الشيخ رضي الله عنه إلى أسد بين يديه أن قم معه إلى أن ينجو بنفسه وبما معه قال فلقد كان ذلك الأسد يذود معه أي عنه يمينًا وشمالًا ويطرد الأسد وغيرها عنه كما يذوف عن أشباله ويمشي تارة عن يمينه وتارة عن شماله وتارة أمامه وتارة من خلفه حتى وصل إلى مأمنه وأتى الشيخ أحمد بن الرفاعي وأخبره بقصته فبكى الشيخ أحمد

وقال: عجزت النساء أن يلدن بعد ابن مروزة مثله وبارك الله تعالى للرجل في ثوره وأنتج حتى صار منه مال كثير ببركة دعوة الشيخ رضي الله عنه. وقال الشيخ عبد اللطيف بن أحمد القرشي رحمة الله عليه اجتمع سبع نفر من رماة البندق في البطيحة التي فيها الشيخ عثمان فصرعوا طيورًا كثيرة وصار على الأرض منها شيء كثير وكان الطائر لا يصل إلى الأرض إلا ميتًا فقال لهم الشيخ: لا يحل لكم أن تأكلوا هذه الطيور أو تطعموا منها أحدًا لأنها ميتة فقالوا له: كالمستهزئين به فأحيها أنت فقال: بسم الله الرحمٰن الرحيم، اللهم احيها يا محيي الموتى ويا محيي العظام وهي رميم فقامت تلك الطيور كلها وطارت بأمر الله تعالى حتى غابت عن الأبصار وهم ينظرون إليها فتابوا عند ذلك عن رمي البندق ومثله وأقبلوا إلى خدمة الشيخ رضي الله عنه قال وقصده رجلان من البطائح أحدهما أعمى والآخر مجذوم ليدعو لهما بالعافية فلقيا رجلًا معافى في الطريق فسألهما عن خبرهما فأخبراه فقال لهما: إن هذا الرجل ما هو عيسى ابن مريم ووالله لو شاهدته وقد أبرأ أكمه لما صدقته ثم أتى معهما إلى عند الشيخ فقال الشيخ: يا عمي يا جذام انتقلا عنهما إلى هذا قال: فأبصر الأعمى وبرىء المجذوم وعمي المعافى وتجذم بأمر الله تعالى. فقال له الشيخ رضي الله عنه: إن شئت أن تصدق وإن شئت أن تكذب، ثم انصرفوا من بين يديه على هذه الحالة ومات كل منهم على الحال الذي فارق الشيخ عليه. سكن رضي الله عنه البطائح ومات بها مسنًا ودفن بها وقبره ظاهر يزار وكان يقول في حال حياته روحي تدعى فتجيب فلما حضرته الوفاة سمع وهو يقول: لبيك اللهم لبيك رضي الله عنه.

ومنهم الشيخ القدوة أبو الثناء محمود بن عثمان بن مكارم النعال البغدادي الأزجي الفقيه الواعظ الزاهد صاحب الكرامات والرياضات والمجاهدات رضي الله عنه

كان صالحًا خيّرًا موصوفًا بالزهد والصلاح والطرافة وكان يؤثر أصحابه وانتفع به خلق كثير وكان مهيبًا لطيفًا كيسًا متبسمًا يصوم الدهر ويختم القرآن كل يوم وليلة ولا يأكل إلا من غزل عمته. قال الحافظ ابن رجب في طبقاته أبو الثناء ويقال أبو الشكر ويلقب ناصر الدين. ولد سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة ببغداد وقرأ القرآن وسمع الحديث من أبي الفتح بن البطي وحدث وحفظ مختصر الخرقي وقرأ على أبي الفتح بن المنى وصحب الشيخ عبد القادر مدة وتأدب به وكان يطالع الفقه

والتفسير ويجلس في رباطه للوعظ وكان رباطه مجمعًا لأهل الدين والفقراء والفقهاء الغرباء قال أبو الفرج بن الحنبلي ولما قدمت بغداد سنة اثنين وسبعين نزلت الرباط ولم يكن فيه بيت خال فغمرت به بيتًا وسكنته وكان الشيخ محمود وأصحابه ينكرون المنكر ويريقون الخمر ويرتكبون الأهوال في ذلك حتى إنه أنكر على جماعة من الأمراء وبدد خمرهم وجرت بينه وبينهم فتنة وضرب مرات وهو شديد في دين الله له أقدام وجهاد وكان كثير الذكر وكان يسمى شحنة الحنابلة انتهى كلامه ملخصًا. توفي ليلة الأربعاء عاشر صفر سنة تسع وستمائة ودفن تلك الليلة برباطه رضي الله عنه وعنا به.

ومنهم الشيخ القدوة الشيخ قضيب البان الموصلي رضي الله عنه(١)

كان أحد الأولياء الأمجاد المشهورين والنبلاء المذكورين صاحب الكرامات الظاهرة والأحوال الفاخرة وهو أحد من أظهره الله تعالى إلى الوجود وأوقع له القبول التام في القلوب وصرفه في العالم وخرق له العوائد وكان المشايخ والأولياء رضي الله عنهم يذكرونه كثيرًا وينبهون على فضله وكان يتردد في الرسائل من الشيخ عبد القادر إلى الشيخ عدي بن مسافر رضي الله عنهم وكان الغالب عليه في حاله الاستغراق والوله وكراماته واختراقه جوانب الأرض بالخطوة ووقائعه مع المشايخ والأولياء رضي الله عنهم كثيرة، وله كلام في علوم الحقائق منه تصحيح البدايات هو انتفاء الرخصة لمواظبة النفس وتحكيم السنة بامتثال الأمر وامتثال أحكام المشايخ بعدم الاعتراض واستحقار العمل استشعار الأجل والتمسك بعروة الإخلاص للنجاة والخلاص. واعلم أن التطلع لعالم النهايات لا يصلح إلا بتحقيق البدايات وكان يتمثل بهذه الأبيات:

يا ناهري لما وقفت ببابه ... والرفق بالشاكي هو الأولى به
أكذا جرى رسم الذين تقدموا ... يشكو المحب الجور من أحبابه
قال اشتكاني بعد ما قربته ... وجعلت لمح الطرف بعض ثوابه

(١) هو أحد أعيان الأولياء المشهورين، والنبلاء المذكورين، صاحب الكرامات الظاهرة، والأحوال الفاخرة، والإشارات النورانية، والأنفاس الروحانية، والهمم العالية. . . وانظر: بهجة الأسرار (ص ٣٦٧) بتحقيقنا، وطبقات الشافعية الكبرى (٩/ ١١٦)، ووفيات الأعيان (٤/ ٣٤٨).

فوحق حاجته إلي وفقره لأواصلن نعيمه بعذابه
ولأمزجن حياته بمماته حتى يقصر وصفه عما به
لا يتعب المحبوب قتل محبه فلديه ما يغنيه عن أتعابه
وحياته لو سل سيف لحاظه بلغ المنى ويداه تحت ثيابه

قال الشيخ أبو الحسن علي القرشي رحمه الله تعالى دخلت على الشيخ قضيب البان ببيته بالموصل فرأيته قد ملأه ونما جسده نماء خارقًا للعادة فخرجت وقد هالني منظره ثم عدت إليه فرأيته في زاوية البيت وقد تصاغر حتى صار قدر العصفور فخرجت ثم عدت إليه فرأيته كحالته المعتادة فقلت: يا سيدي أخبرني عن الحالة الأولى والثانية، فقال: يا علي أو رأيتهما، قلت: نعم، قال: لا بد أن تعمى أما الحالة الأولى فكان عندي بالجمال وأما الثانية فكنت عنده بالجلال وكف الشيخ علي القرشي قبل موته بيسير رضي الله عنهما. وذكر أن جماعة ذكروا الشيخ عند الإمام العلامة ابن يونس الموصلي شارح التنبيه بمدرسته بالموصل ووقعوا فيه ووافقهم الشيخ ابن يونس فبينما هم في مجلسهم يخوضون في ذلك إذ دخل الشيخ قضيب البان رضي الله عنه فبهتوا فقال الشيخ لهم: ابتدأ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ثم قال: يا ابن يونس أنت تعلم كل ما يعلمه الله تعالى قال: لا فقال الشيخ له إن كنت أنا من العلم الذي لا تعلمه أنت فسكت ابن يونس ولم يجب بجواب قال الشيخ عبد الله الماريني كنت منهم أي من الجماعة المذكورين فقلت في نفسي: لا بد أن ألازم الشيخ اليوم والليلة حتى أنظر ماذا يصنع فلزمته بقية يومي فلما كان العشاء اخترق الأزقة وأخذه منها سبع كسرات وأتى إلى باب وطرقه فخرجت إليه عجوز وقالت له: يا قضيب البان أبطأت علينا فناولها تلك الكسر وانصرف حتى أتى إلى باب الموصل وهو مغلق فانفتح له فخرج وأنا خلفه فمشى يسيرًا وإذا نهر يجري وعنده شجرة فخلع ثيابه واغتسل وعمد إلى ثياب معلقة على الشجرة فلبسها وانتصب يصلي إلى أن طلع الفجر وغلب علي النوم فما استيقظت إلا لحر الشمس وإذا أنا بصحراء مقفرة ليس بها أحد إذ مر بي ركب فسألتهم وقلت لهم: أنا من الموصل فأنكروا أمري وقال لي شخص منهم بعد أن سألني عن حالي وأخبرته بقصتي فقال لي: بينك وبين الموصل مسيرة ستة أشهر فامكث هنا لعله يأتيك ثم تركوني وساروا عني فلما كان الليل وإذا الشيخ قدامي وفعل ما فعله أولًا ثم سار وتبعته حتى جئنا الموصل فوافينا الناس يصلون الصبح فالتفت إلي وعرك أذني وقال لا تعد إلى مثلها وإياك وإفشاء السر رضي الله عنه.

وقال الشيخ الأصيل أبو البركات صخر بن صخر بن مسافر رضي الله عنه: مكث الشيخ قضيب البان عندنا بالزاوية شهرًا كاملًا مستغرقًا لا يأكل ولا يشرب ولا يضع جنبيه على الأرض وكان عمي الشيخ عدي بن مسافر رضي الله عنه يأتي إليه وينقدف على رأسه ويقول له: هنيئًا لك يا قضيب البان قد اختطفك الشهود الإلـٰهي واستغرقك الوجود الرباني وكان يقول لمن ورد عليه السلام على ولي الله حقًا ثم يشير إليه رضي الله عنهما قال: وصلى يومًا صلاة الصبح خلف الإمام فأتم منها ركعة وقطع الثانية فقلت له: لم لا تتم صلاتك معنا، فقال: يا أبا البركات تعبت من عدوي خلف إمامكم فإنه أحرم هنا. ثم سافر إلى الشام ثم إلى بغداد ثم إلى مكة فلما جئنا إلى العقبة العظمى فتعبت فتركته قال فأتيت الإمام وسألته عن ذلك فقال صدق والله لقد كان ذلك وسواسي في صلاتي بهذا كله. وقال الشريف محمد بن الخضر الحسيني الموصلي رحمه الله تعالى سمعت والدي يقول سمعت قاضي الموصل رحمة الله عليه يقول: كنت سيىء الظن بقضيب البان على كثرة ما يبلغني من كراماته ومكاشفاته وكنت عزمت أن أقول للسلطان عن إخراجه من الموصل ولم يطلع على ضميري إلاالله تعالى فبينما أنا في بعض أزقة الموصل إذ رأيت قضيب البان مقبلًا من صدر الزقاق على هيئته المعروفة ولم يكن في الزقاق أحند غيري وغيره فقلت في نفسي: لو كان معي أحد أمرته بإمساكه فمشى خطوة فإذا هو على هيئة كردي بصورة غير صورته الأولى ثم مشى خطوة وإذا هو على هيئة بدوي ثم مشى خطوة وإذا هو على صورة فقيه وقال لي: يا قاضي هذه أربع صور رأيتهن فمن هو قضيب البان منهن حتى تقول للسلطان عليه أخرجه من الموصل قال القاضي: فلم أتمالك حتى انكببت على يديه فقبلتهما واستغفرت الله له.

وقال الشيخ عبد الله يونس البيطار الدينسري: كنت في بدايتي في البيطار بدينسر فنعلت بغلًا فضربني في رأسي بحافره فغشي علي وتكلم الناس بموتي واتصل الخبر بأمي وهي بالموصل فراحت إلى الشيخ وقالت: قد جاءني الخبر بموت ابني فقال لها: لم يمت بل ضربه بغل بحافره في رأسه وغشي عليه فكان كما قال رضي الله عنه، وذكر مرة عند سيدنا وشيخنا الشيخ عبد القادر رضي الله عنهما فقال: هو ولي مقرب ذو حال مع الله تعالى وقدم صدق عنده وإخلاص يقين لله تعالى فقيل له: ما نراه يصلي فقال: إنه يصلي من حيث ما ترونه ولا يخرج عنه يوم وليلة وعليه منها فرض أبدًا وإني لأراه إذا صلى بالموصل وغيرها من آفاق الأرض فلا يسجد سجدة إلا عند باب الكعبة وسكن رضي الله عنه الموصل واستوطنها إلى أن مات بها قريبًا

من سنة سبعين وخمسمائة وبها دفن وقبره ظاهر يزار. وكان ببلاد المغرب رجل آخر يسمى قضيب البان بعد هذا رضي الله عنهما.

ومنهم الشيخ القدوة
أبو القاسم عمر بن مسعود بن أبي العز البزاز

كان من أعيان أصحاب الشيخ عبد القادر الجيلي رضي الله عنه ببغداد صاحب كرامات ظاهرة وأحوال فاخرة مقصود بالزيارة وانتفع بصحبته جماعة وخرجوا إلى مقامات الزهاد والعباد، وكان كثير العبادة والمجاهدة سليم الباطن والظاهر، وله كلام حسن على طريقة القوم وعلى وجهه أنوار الطاعة وكان نظيفًا طيب الريح إذا تكلم في المحبة خرج النور من بين ثناياه واشتدت حمرة وجنتيه وإذا تكلم في الخوف طار لبه وتغير لونه وخنقته العبرة. سمع الحديث من أبي القاسم سعيد بن البنا وأبي الفضل محمد بن نصار الدين الحافظ وعبد الأول الشجري وغيرهما، وكان حسن السمت مليح الخلق والخلق. قال المحب بن النجار في تاريخه عمر بن مسعود بن أبي العز الفراش أبو القاسم البزاز كان من أعيان أصحاب الشيخ عبد القادر الجيلي صحبه مدة طويلة وتفقه عليه وسمع معه الحديث من جماعة وتخلق بأخلاقه وتأدب بآدابه وسلك طريقته وكان له دكان بخان الصفة في سوق الثلاثاء يبيع فيه البز ويطلب الكسب الحلال ثم إنه ترك ذلك وانقطع إلى زاوية إلى جانب مسجده بالجانب الغربي قريبًا من جامع العقبة وانضاف إليه جماعة من الأصحاب والأتباع فاشتهر اسمه وشاع ذكره وصار الناس يقصدونه بالنذور والهبات والفتوحات وينفق ذلك على كل من عنده من الفقراء وتاب على يده خلق كثير من مماليك الخليفة الخواص ولبسوا منه الخرقة وصلحت طرائقهم وخرج منهم جماعة إلى مقام الزهاد والعباد كتبت عنده وحضرت عنده غير مرة وسمعت كلامه أنشدنا من لفظه وحفظه في مسجده بالجانب الغربي وهو قوله:

إلٰهي لك الحمد الذي أنت أهله على نِعَم ما كنت قطّ لها أهلا
إذا زدت تقصيرًا تزدني تفضّلًا كأن بالتقصير أستوجب الفضلا

توفي شيخنا عمر البزاز في يوم السبت الرابع عشر من شهر رمضان سنة ثمان وستمائة، وكان مولده سنة اثنين أو ثلاثة وثلاثين وخمسمائة ودفن بزاويته بالجانب الغربي انتهى كلامه ملخصًا. وقال الحافظ الذهبي روى عنه.

ومنهم الشيخ القدوة مكارم بن إدريس النهر خالصي رضي الله عنه(١)

كان من أعيان مشايخ العراق المشهورين وأجلاء العارفين المذكورين صاحب الكرامات الظاهرة والأحوال الفاخرة والأفعال الخارقة والإشارات العلية والأنفاس الملكوتية والفتح السني والكشف الجلي واليد البيضاء في المنازلات والباع الرحيب في معاني المشاهدات والقدم الراسخ في كشف المشكلات، وهو أحد من أظهره الله تعالى إلى الوجود وصرفه في العالم ومكنه من الأحوال واشتهر عنه أنه لقي جماعة من المشايخ من لم يلقه غيره من أهل عصره، وكان شيخه الشيخ علي بن الهيتي يثني عليه ويكرمه ويقدمه على غيره وينبه على فضيلته وكان يقول أخي الشيخ مكارم بن إدريس رجل مكمل لكن ما يظهر إلا بعد موتي ويقال إنه صار كما ذكر. انتهت إليه تربية المريدين بالعراق ببلاد نهر خالص وما يليها وبصحبته تخرج ابنا أخيه عبد المولى وعبد الخالق وانتمى إليه غير واحد وتلمذ له جماعة من الصلحاء والمشايخ، وله كلام نفيس في الحقيقة. منه المريد الصادق من وجد في قلبه حلاوة العدم ونفى عن نفسه الألم وسكن إلى ما جرى به القلم. والفقير من صبر وقل طمعه وتأدب فحسن خلقه وراقب ربه فكتم سره وخاف ربه سبحانه وتعالى وستر حاله ووثق بمولاه ولم يشك ضره ولجأ إلى الله تعالى وتضرع إليه بأحواله. والزاهد من خلع الراحة وترك الرياسة وأمسك النفس عن الشهوات وزجر النفس عن الهوى وفر بسره إلى المولى والمجاهد في الله عزَّ وجلَّ من تجنب الفترة وعانق الفكرة ولازم الخشوع والاستقامة والحسرة واستعمل الحقيقة وأحيا الصفا وسكت عن مجاري القضاء وجانب الأذى واستحياء من الملك الأعلى وقصر الراحة في الجد ولا ينفع اللهم ذا الجد منك الجد. والمراقب من طال حزنه وأدام إحسانه وكظم غيظه وهاب ربه سبحانه. والمخلص من نجا برحمته من المخلوقات وتخلى بسره عن الكائنات وامتثل أمر سيد البريات. والشاكر من صبر عن الحاجة مع الملك العلام ولم يرجع إلى أحد من الخاص والعام وخلا قلبه من التدبير والاهتمام وكان

(١) هو من أكابر مشايخ العراق الأجلاء المشهورين، ونبلاء الأولياء المقربين، صاحب النظر الخارق في علم الغيب، والأنفاس الصادقة في حقائق الآيات، وله اليد البيضاء في علوم المنازلات، والباع الرحيب في معاني المشاهدات، والقدم الراسخة في كشف مشكلات الأحوال. . . وانظر: بهجة الأسرار (ص ٣٧١) بتحقيقنا ـ طبع دار الكتب العلمية ـ بيروت.

يتمثل بهذه الأبيات:

أحبك أصنافًا من الحب لم أجد لها مثلًا في سائر الناس يعرف
فمنهن حب للمحب ورحمة لمعرفتي منه الذي يتكلف
ومنهن أن لا يخطر الشوق ذكركم على القلب إلا كادت النفس تتلف
وحب بدا بالجسم والشوق ظاهر وحب كذا نفسي من الروح ألطف
وحب هو الداء العضال بعينه له قدم يعلو علي فاذنف
فلا أنا منه مستريح فميت ولا أنا منه ما حييت مخفف

قال الشيخ أبو الحسن الجوسقي حضرته وهو يتكلم في الشوق والمحبة فقال أسرار المحبين إذا طاشت عند سلطان ظهور الهيبة والجلال أخمد أنوارها كل نور قابلته أنفاسها ثم تنفس فانطفت مصابيح المسجد الذي كان يتكلم فيه وكان فيه نيف وثلاثون قنديلًا ثم سكت ثم قال: وإذا عاشت أسرارهم يتجلى أنوار الإنس والجلال أضاءت لأنوارها كل ظلمة قابلته أنفاسها ثم تنفس فأشعلت القناديل كحالها أولًا. وكان يتكلم يومًا على أصحابه في جهنم وما أعد الله تعالى لأهلها من العذاب فوجلت القلوب ودمعت العيون فقال معطل في نفسه إن هذا تخويف ولا نار يعذب بها أحد فتلا الشيخ ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن يا ويلنا إنا كنا ظالمين وسكت وسكت الحاضرون فصاح الرجل الغوث الغوث واضطرب اضطرابًا شديدًا ورئي دخان يخرج من أنفه يكاد يصرع من يشمه من نتنه فتلا الشيخ ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون فسكن روع الرجل وقام وقبل قدميه وجدد إسلامه وصحح معتقده وقال وجدت في قلبي وهجًا ونفحًا من نار كاد يأتي على نفسي وثار في باطني دخان ونتن كادت نفسي تزهق وسمعت قائلًا يقول: هذه النار التي كنتم بها تكذبون أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ولولا بركة الشيخ رضي الله عنه لهلكت. وقال أبو المجد المبارك بن أحمد كنت عند الشيخ فخطر في نفسي لو رأيت شيئًا من كراماته فالتفت إلي مبتسمًا وقال: سيدخل علينا خمس نفر ووصفهم بصفاتهم وبما يأتي عليهم وببقاء أعمارهم وشهواتهم فكان كما قال. سكن رضي الله عنه بلدة على النهر الخالصي مشهورة به من أراضي العراق وبها مات مسنًا وقبره بها ظاهر يزار وله بقطره الشهرة الكافية رضي الله عنه ورضي عنا به.

ومنهم الشيخ الصالح القدوة
الخليفة بن موسى النهري ملكي رضي الله عنه[١]

كان من أعيان مشايخ العراق ونبلاء العارفين صاحب المقامات الفاخرة والكرامات الظاهرة والمعارف الزاهرة والحقائق الباهرة وله السبق في القدم في مدارج الفتح الإلهي والجمع بين أطراف الكشف الرباني. وهو أحد أركان هذه الطريقة وأئمة ساداتها علمًا وعملًا وحالًا. انتهت إليه تربية المريدين في وقته ببلده وما يليه، وتخرج بصحبته غير واحد من ذوي الأحوال وانتمى إليه جماعة من الصلحاء وانتفعوا بكلامه وقصد بالزيارات والنذور، وكان جميل الصفات كريم الأخلاق وافر العقل دائبًا في اتباع السنة معظمًا لأرباب العلم، وكان له كلام على لسان أهل المعارف، منه آخر أقدام الزاهدين أول أقدام المتوكلين ولكل شيء علم وعلم الخذلان عدم البكاء من قلب حزين ومن توسل إلى الله بتلاف نفسه حفظ الله عليه نفسه وأفضل الأعمال مخالفة النفس والرضا بمجاري القدر وإذا سكن الخوف وأدى القلب أحرق الشهوات ولكل شيء ضد وضد نور القلب الشبع ومن أظهر الانقطاع إلى الله تعالى وصل ونال ما طلب ومن كان الصدق وسيلته كان الله تعالى عنه راضيًا واليقين هو الخوف وأقوى سبب بين العبد وبين الله محاسبة بورع ومراقبة بعلم وأدب واتباع بلا هوى وكل ما شغلك عن الله تعالى من مال وأهل وولد فهو عليك شؤم وكل عمل يعمله العبد وليس له ثواب في الدنيا ليس له جزاء في الآخر وإذا جاع العبد أو عطش صفا وإذا شبع وروى عمي والقناعة بالرضا منزلة الورع ومن لبس عباءة بثلاثة دراهم وفي قلبه أغلى منها فقد خالف باطنه ظاهره وإذا لم يبق في القلب شهوة له يجوز أن يتضرع بزي الزهاد وإذا أحسست بالوسواس فسله أن يزيله عنك فإن بعض الوسواس للشيطان سرور وكان يتمثل بهذه الأبيات:

قلوبنا لشراب الحبّ أقداح ... ومجلس الأنس فيه الروح والراح
وخلوة الوصْل قد طاب السماع بها ... حقًا وقد رقت للوجْد أرواح
ونحن في خلوة سكرى ينادمنا ... أهل الحقيقة كم صاحوا وكم باحوا

---

(١) هو أحد أركان هذه الطريق، وأئمة ساداتها، وأعلام العلماء بأحكامها علمًا وعملاً، وحالاً ومهابة، ورئاسة، انتهت إليه تربية المريدين الصادقين في وقته، ببلده وما يليها، وتخرج بصحبته غير واحدٍ من ذوي الأحوال، وانتمى إليه جماعة من الصلحاء. . . وانظر: بهجة الأسرار (ص ٣٧٦) بتحقيقنا ـ طبع دار الكتب العلمية ـ بيروت.

ومن إنشاده أيضًا عفي عنه

أُسامي بنفسي ذلة واستكانة إلى الحالة العلياء من جانب الكبر
إذا ما أتاني الكبر من جانب الغنى سَمَوْتُ إلى العلياء من جانب الفقر

قال الشيخ أبو الحسن علي القرشي سمعت شيخنا أبا سعيد القيلوي يقول: حللت مقامًا من مقامات التوحيد فلم يقرّ بي القرار فيه حتى نازلتني فيه منازلة من منازلات أحكامه فلم أقدر على قطعها ولم أدر ما هنالك فاستغثت بنفس الشيخ خليفة ثم اتخذت همتي وهمته وامتزجت نفسي ونفسه حتى قطعت تلك المنازلات وقطعت تلك المقامات وانكشفت لي جميع أحكامه فالشيخ خليفة أعلى أصحابي همة وأخوفهم نفسًا وأحدهم نظرًا رضي الله عنه. قال فسألت الشيخ خليفة عن ذلك فقال: يا أخي لما أسند همتي إلى همته وجذب سري سره انخرق لي في أحوالي باب لا أملك سعته وكلما أشكل على أمر من عالم الغيب أو توقف على سر في درجات العلا لجأت إلى ذلك الأستاذ ورجعت إلى تلك الجذبة فيتسع لي كل ضيق وينفتح لي كل باب رضي الله عنه. وقال ابن قوتا حكي لي بعض أصحابنا الصلحاء رضي الله عنه من أهل بغداد قال: أتبهت ليلة في السحر وبايعت الله تعالى أن أجلس في جامع الرضافة متوكلًا من حيث لم يشعر بي أحد من الخلق قال: فأتيت في وقتي ذلك الجامع وجلست فيه ثلاثة أيام فما رأيت فيها أحدًا ولا أكلت فيها طعامًا. واشتد بي الجوع وخفت من السقوط وكرهت الخروج من تلقاء نفسي واشتهيت شويًا سخنًا وخبزًا برًا وتمرًا برنيًا فبينما أنا في ذلك وإذا حائط المحراب قد انشق وخرج منه رجل هيئته كهيئة أهل السواد وبيده مئزر فوضعه بين يدي وقال لي يقول لك الشيخ خليفة كل شهوتك وأخرج من هنا فما أنت من أرباب مقامات التوكل ثم غاب عني ففتحت المئزر فوجدت فيه ما اشتهيت فأكلت وخرجت وأتيت الشيخ خليفة بنهر الملك فلما رآني قال لي: ابتدأ يا هذا لا ينبغي للرجل أن يجلس متوكلًا حتى يحكم أساسه في قطع الخلائق باطنًا وظاهرًا وأن لا يكون عاصيًا في ترك الأسباب رضي الله عنه.

أصله رضي الله عنه من قرية يقال لها قرية الأعراب من قرى نهر الملك. واستوطن رضي الله عنه نهر الملك إلى أن مات به قديمًا وقد علت سنه وقبره ظاهر يزار. ولما حضرته الوفاة تشهد وتهلل وجهه بالسرور والبشر وقال: هذا محمد رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم يبشروني برضوان من الله تعالى وصلاته ثم

قال: هذه الملائكة عليهم السلام يستعجلوني بالقدوم على رب كريم ثم ضحك وقال إذا تجلى الحق سبحانه وتعالى على العبد المؤمن عند قبض روحه استبشر ثم تلا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ [الفجر: الآيتان ٢٧، ٢٨] فلم يتم كلامه حتى مات رضي الله عنه. وقال: إنه كان بيعقوبا شيخ آخر اسمه الشيخ خليفة من أصحاب الشيخ علي بن إدريس رضي الله عنه ومات قبل شيخه ودفن بيعقوبا وكان إذا ورد على الشيخ علي بن إدريس حال يقول: يا رب والخليفة مثله وهو بعد هذا الشيخ خليفة الذي ذكرناه هٰهنا رضي الله عنه ورضي عنا بهم.

ومنهم الشيخ الصالح القدوة الشيخ أبو عبد الله بن محمد بن أحمد ابن إبراهيم القرشي الهاشمي رضي الله عنه[(١)]

كان من أجلاء مشايخ مصر المشهورين وعظماء العارفين ونبلاء المحققين صاحب الكرامات الظاهرة والأحوال الفاخرة والأفعال الخارقة والأنفاس الصادقة والإشارات الروحانية والمحاضرات القدسية والهمم السماوية والمقامات السنية والمكانات العلية والمعارف الجلية والحقائق الربانية والعلوم اللدنية له الطور الأرفع من مراتب القرب والمنهاج الأعلى في أرائك القدس والقدم الراسخ في التصريف والقوة في التمكين وهو أحد من أظهره الله تعالى إلى الوجود وصرفه في العالم وخرق له العوائد وأظهر على يديه العجائب وأنطقه بالحكم وأجرى على لسانه الفوائد وملأ القلوب من محبته والصدور من هيبته وكان شريفًا هاشميًا قرشيًا وكانت الولاية شاهدة عليه سمتًا ومهابة وسكينة ما رآه أحد فصرف بصره عنه وإذا عبر السوق خمدت الأصوات وهدأت الحركات لاشتغالهم بالنظر إليه صحب خلقًا من المغرب ومصر وشهد كثيرًا من كراماتهم وانتهت إليه رياسة هذا الشأن في وقته بمصر وتربية المريدين بها وتخرج بصحبته غير واحد من أكابر العلماء بها مثل قاضي القضاة عماد الدين بن السكري والشيخ العلامة شهاب الدين بن أبي الحسن علي الشهير بابن الحمير والشيخ أبي طاهر محمد الأنصاري الخطيب والشيخ أبي العباس أحمد بن علي الأنصاري

---

(١) هو من أجلاء مشايخ مصر المشهورين، وعظماء العارفين المذكورين، ونبلاء المحققين البارعين، وأحد أركان هذا الشأن وأئمة ساداته، وأعيان رؤسائه وصدور الدعاة إليه، وأعلام العلماء بأحكامه علمًا وعملاً وزهدًا وورعًا، وتوكلاً وتحقيقًا وتمكينًا ومهابة وجلاء... وانظر: بهجة الأسرار (ص ٣٨٦).

القسطلاني وغيرهم وتلمذ له غير واحد من ذوي الأحوال وانتمى إليه جماعة من العلماء والفقراء وانتفعوا بكلامه وصحبته وقصد بالزيارات وكان ظريفًا جميلًا كريمًا سخيًا متأدبًا متواضعًا لأهل العلم وابتلى بالجذام وأضر قبل موته بمدة. وكان له كلام رائق على لسان أهل الحقائق. منه ألزم الأدب في العبودية ولا تتعرض لشيء فإن أرادك أوصلك إليه ومنه من لم يكن له مقام في التوكل كان ناقصًا ومنه عليكم بهذه القبلة فما فتح على أحد بشيء إلا منها ومنه لا ينبغي للشيخ أن يأمر المريد بالخروج من أسبابه إلا أن يكون قادرًا على حكمه متحكمًا في حفظه، وكان من دعائه: اللهم أمنن علينا بصفاء المعرفة وهب لنا صحيح المعاملة فيما بيننا وبينك وارزقنا صدق التوكل عليك وحسن الظن بك وامنن علينا بكل ما يقر بنا إليك مقرونًا بالعوافي في الدارين يا أرحم الراحمين، وقال رضي الله عنه: دخلت على الشيخ أبي عبد الله المغاوري في بعض الأيام فقال لي: يا شريف ألا أعلمك شيئًا تستعين به إذا احتجت إلى شيء، فقلت: بلى فقال: قل يا واحد يا أحد يا واجد يا جوادًا نفحنا منك بنفحة خير إنك على كل شيء قدير، قال: فأنا أنفق منها منذ سمعتها وقال العلامة الكمال الدميري تغمده الله برحمته في كتابه حياة الحيوان في باب حرف الشين المعجمة وحدثني شيخنا الإمام العارف أبو عبد الله بن أسعد اليافعي رحمه الله قال بلغني عن سيدنا الإمام العارف أبي عبد الله محمد القرشي عن شيخه أبي الربيع المالقي إنه قال: ألا أعلمك كنزًا تنفق عليه ولا ينفد قلت: بلى، قال: قل: يا الله يا واحد يا موجود يا جواد يا باسط يا كريم يا وهاب يا ذا الطول يا غني يا مغني يا فتاح يا رزاق يا عليم يا حي يا قيوم يا رحمٰن يا رحيم يا بديع السمٰوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام يا حنان يا منان انفحني منك بنفحة خير تغنيني بها عمن سواك إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا نصر من الله وفتح قريب اللهم يا غني يا حميد يا مبدىء يا معيد يا ودود يا ذا العرش المجيد يا فعالًا لما يريد اكفني بحلالك عن حرامك واغنني بفضلك عمن سواك واحفظني بما حفظت به الذكر وانصرني بما نصرت به الرسل إنك على كل شيء قدير. قال: فمن داوم على قراءته بعد كل صلاة خصوصًا صلاة الجمعة حفظه الله من كل مخوف ونصره على أعدائه وأغناه ورزقه من حيث لا يحتسب ويسر الله عليه معيشته وقضى عنه دينه ولو كان عليه مثل الجبال دين أداه الله عنه بمنه وكرمه انتهى كلامه وكان ينشد هذه الأبيات رضي الله عنه:

أحرى الملابس أن تلقي الحبيب به ... يوم الزيارة في الثوب الذي خلعا

فقر وصبرهما ثوبان تحتهما قلب يرى ألفه الأعياد والجمعا
الدهر لي مأتم إن غبت يا أملي والعيد ما كنت لي مرأى ومستمعا

قال الشيخ أبو العباس أحمد القسطلاني: سمعت الشيخ محمد القرشي يقول: كنت عند الشيخ إبراهيم بن ظريف فسئل هل يجوز للإنسان أن يعقد على نفسه عقدًا لا يحل إلا بنيل مطلوبه؟ فقال: نعم واستدل بحديث أبي لبابة الأنصاري في قصة بني النضير وقوله عليه الصلاة والسلام: «أما إنه لو أتاني لاستغفرت له ولكن إذا فعل ذلك بنفسه فدعوه حتى يحكم الله فيه». قال: فلما سمعتها عقدت على نفسي أنني لا أتناول شيئًا إلا بإظهار قدرة فمكثت ثلاثة أيام وكنت إذ ذاك أعمل صناعتي في الحانوت فبينما أنا جالس على الكرسي إذ لاح لي شخص بيده إناء فيه شيء فقال لي: اصبر إلى العشاء تأكل من هذا ثم غاب عني فبينما أنا في وِرْدي بين العشاءين إذا انشق الجدار فظهرت لي حوراء بيدها ذلك الإناء فيه شيء يشبه العسل فتقدمت إليّ وألعقتني منه ثلاثًا فصعقت وغشي عليّ، ثم أفقت فلم يطب لي بعد ذلك طعام ولا استحسنت بعدها شخصًا ولا كنت أتمكن من سماع الخلق وأقمت على ذلك مدة.

وقال أيضًا سمعت الشيخ أبا عبد الله القرشي يقول: عطشت مرة بمنى فجئت إلى بئر وطلبت ممن عليه ماء في ركوة فضربني وأخذ الركوة ورماها وإذا هي في بركة ماء حلو فشربت وأعلمت بها أصحابي فجاؤوها فلم يجدوها.

وقال أيضًا: سمعته يقول: كنت في بحر جدة ومعي صاحب فعطش فسألت من يسقينا بشملة كانت عليّ لم يكن عليّ سواها فلم يفعل أحد فقلت له: خذ هذه الشملة وامض إلى ريس المركب فمضى إليه ومعه ركوة فلما وصل إليه انتهره وأخذ الركوة من يده وحذفها فأخذها وعاد إليّ فرأيت ذلّة وانكسارًا فأخذت الركوة منه وملأتها من البحر فشرب حتى روى وأخذتها منه وشربت حتى رويت وشرب من كان إلى جانبي ممن ليس معه ماء وملأتها ثانيًا وعجنا بها الدقيق فلما حصلت كفايتنا ملأتها فوجدتها ملحًا فعلمت أن الحاجة إذا تحققت قلبت الأعيان رضي الله عنه.

وقال أيضًا سمعته يقول: مررت يومًا على عرصة العنب فاتصل بي أنين من بعض الأحمال فرجعت إلى أن وقفت على الحمل فنودي عليه فدفع فيه إنسان كان يعصر الخمر أكثر من قيمته فاشتريته مما دفع فيه ولم يكن معي شيء فخلعت ثوبي ودفعته في قيمته وخلصته من يد عاصر الخمر فسكن أنينه لما اشتريته انتهى.

وقال الشيخ رضي الله عنه: كنت في ابتداء أمري أشتري الدقيق وأدفعه لمن يسألني طول الطريق إلى أن أصل إلى البيت فأزنه فأجده كما أخذته واشترى رضي الله عنه مرة دقيقًا بدرهم فاستقبله سائل فأعطاه إياه ثم مشى فوجد يده مطبوقة ففتحها فوجد فيها درهمًا فاشترى به دقيقًا ثم عاد إلى بيته رضي الله عنه. وكان لبعضهم ولد لا ينام أحد من شدة بكائه مدة أربع سنين فأتى به إليه فقال: يا يوسف لا تبك الليلة فما بكي بعد ذلك. ولما تزوج رضي الله عنه سمع شخصًا يقول لشخص: هذا فلان قد تزوج ولا بد أن يتغير حاله وسوف ترى فلم يشتر تلك السنة قوتًا ولا ادخر مؤونة ووجد في تلك السنة البركة والفوائد، وقال رضي الله عنه: كتب أواصل ثلاثًا واصبر إلى الأربعين ولم يتفق لي زيادة على ذلك اختيارًا وكنت مرادًا بالتقليل لم يكن يصفو لي شبع ولا ري ولا كسوة ولقد أقمت مقدار سنة وعلى خلق جبة من صوف كنت أضمنها علي لئلا تنكشف عورتي وكانت علي بمكة محشوة من تبن فقطعت بطانتها وصار القمل ينتثر منها وقاسيت منها شدة عظيمة. وقال القسطلاني رضي الله عنه لا تثبت يده على شيء إذا قبضه وكانت عيناه قد ذهبتا فكنت أضع الموسى له في يده وأمكنها بين أصابعه فأجد الشعر مطروحًا والموسى مطروحًا فكنت أراها من كرامته رضي الله عنه، وقال أيضًا أخبرني الشيخ أبو العباس أحمد الثوري إنه كان موضع قدم الشيخ من الأرض أحدهما ذهب والآخر فضة، وقال أيضًا سمعته يقول: بينا أنا سائر على بعض السواحل إذ خاطبتني حشيشة وقالت لي: أنا الشفاء لمرضك فلم أتناولها ولم أستعملها قال فقلت له: يا سيدي فهل هي بديار مصر فقال: ما رأيتها ولو رأيتها لعرفتها. ودخل عليه بعض أصحابه يومًا فوجده بصيرًا وجسده أبيض كالفضة فقال: إن الله تعالى قد ألبسني ثوبي العافية والبلاء وصرفني فيهما ثم لبس ثوبًا معلقًا فعاد إلى حاله وكانت زوجته إذا دنا منها تراه بصيرًا وجسده أبيض كالفضة، ورأى رضي الله عنه أن القيامة قد قامت وعقد لأهل البلاء لواء وقائدهم أيوب عليه السلام وعلى رأسه لواء مكتوب فيه أيوب، ونقل عنه أنه أكل مع الملك الكامل ونائب السلطنة مرة من إناء فيه لبن فامتنع النائب من الاسترسال في الأكل من أجل بلائه فقال له الشيخ رضي الله عنه: إن امتنعت أن تأكل معي بسبب هذه اليد المبتلاة فكل معي بهذه اليد وأخرج يده بيضاء مثل الفضة لا ألم فيها.

سكن رضي الله عنه مصر وأقام بها وأيضًا بالقاهرة مدة ثم رحل إلى بيت المقدس ومات به في سادس ذي الحجة سنة تسع وتسعين وخمسمائة ودفن بمأملا ظاهر بيت المقدس وقبره ظاهر يزار رضي الله عنه. قال مجير الدين العليمي الحنبلي

المقدسي في تاريخه المعتبر في أنباء من غير أنه دفن بظاهر القدس الشريف من جهة الغرب بالتربة التي تسمى مأملا إلى جانب الشيخ شهاب الدين أحمد بن أرسلان ودفن حوله جماعة من أعيان بيت المقدس وعلمائها وصلحائها وإن أصله رضي الله عنه من الجزيرة الخضراء في بر الأندلس وهي مدينة في قبالة سبتة من بر العدوة وإنه مات عن خمس وخمسين سنة، وإنه نقل عنه أن الإنسان إذا خاف التخمة من كثرة الأكل وقال عقيب: رفع المائدة وفراغه من الأكل، قال أبو عبد الله القرشي: اليوم يوم عيد لم يضره ذلك وإن الدعاء عند قبره مستجاب وقد جرب ذلك وأن التربة التي تسمى مأملا أصل تسميتها الملة. وقيل مأمن الله تعالى وقيل باب الله انتهى كلامه ملخصًا رحمة الله تعالى عليه.

وقال الكمال الدميري في كتاب حياة الحيوان فائدة: ذكر بعض العلماء العارفين أن من أكل كثيرًا وخاف على نفسه من التخمة فليمسح على بطنه وليقل الليلة ليلة عيد ورضي الله عن سيدي أبي عبد الله القرشي ويفعل ذلك ثلاثًا فإنه لا يضره الأكل وهو عجيب مجرب انتهى كلامه رحمة الله عليه ورضي عنه.

ومنهم الشيخ القدوة أبو إسحٰق بن علي الملقّب بالأعزب[1]

كان من أعيان مشايخ البطائح وأعلام العارفين وصدور المحققين صاحب الكرامات الظاهرة والأحوال الفاخرة والحقائق الباهرة والعلوم اللدنية والمعاني النورية والفتح الموثق والكشف المشرق والباع الطويل والإيضاح عن حقائق الآيات والنظر الخارق لعرائس المغيبات والمجلس العالي في حضرة القدس والمقر السامي في أرائك الأنس والمنهاج الموطوء على متن الملكوت إلى ملك الجبروت المعراج إلى حضرة الشهود وله اليد البيضاء في معاني المشاهدات وعلوم المنازلات وهو أحد من أظهره الله تعالى إلى الوجود وصرفه في الكون وخرق له العادات وأجرى على لسانه الحكم ومكنه من الأحوال في النهاية وملكة أسرار الولاية ونصبه حجة وقدوة، وهو أحد أركان هذا الشأن علمًا وعملًا وزهدًا وتحقيقًا ورياسة وجلالة. صحب خاله السيد الكبير الشيخ أحمد بن أبي الحسن الرفاعي رضي الله عنه وأخذ عنه علم الطريق

---

(١) هو من أعلام العارفين، صاحب المقامات الجلية، والمراتب العلية، والفتح الموثق في معادن الأسرار والكشف المشرق في مطالع الأنوار، والنظر الجالي لعرائس المغيبات، له المجلس العالي في حضائر القدس، والمشرب الحالي من مناهل الوصل. . . وانظر: بهجة الأسرار (ص ٤٠٦) بتحقيقنا ـ طبع دار الكتب العلمية ـ بيروت.

وتخرج به ولقي جماعة من مشايخ العراق وانتهت إليه رياسة هذا الشأن بالبطائح في وقته، وتخرج بصحبته غير واحد من أهل البطائح وغيرهم وانتمى إليه جماعة من الأكابر، وتلمذ له خلق كثير من العلماء واجتمع عنده أمة من المريدين وانتفعوا بكلامه وصحبته، وكان جميلًا كريمًا ظريفًا خاشعًا ذا حياء وافر وعقل مع أدب وكان محبًا لأهل العلم مكرمًا لأهل الدين شافعي المذهب ويلبس لباس العلماء ويتكلم على أصحابه، وله كلام نفيس على لسان أهل المعارف. منه رؤية الأصول باستعمال الفروع ولا سبيل إلى مشاهدة الأصول إلا بتعظيم ما عظم الله تعالى من الوسائط والفروع وذكرك متوسط بك إلى أن يتصل ذكرك بذكره فما قارن حدث القدم إلا ترشى الحدث وبقي الأصل والتبرع إلى استدراك علم الانقطاع وسيلة واللياذ بالهرب من علم والذنوب وصلة الانبساط في محل الإنس عزة ومن تحلى بشهادة الباطل قصيم ومن تحلى بشهادة الحق عصم وكان رضي الله عنه يتمثل بهذه الأبيات:

تكشف غيم الهجر عن قمر الحب ... وأسفر نور الحب عن ظلمة الغيب
وجاء نسيم الاتصال محققًا ... فصادفه حسن القبول من القلب
ودبّت مياه الوصل في روضة الرضا ... فصار الهوى يهتز كالغصن الرطب
ولم يدرِ من طيب الوصال وحُسْنه ... أفي روضة كنا هنالك أم حرب
فيا من سبى عقلي هواه تركتني ... أفكر ما بين التعجب والعجب

وكان رضي الله عنه دائم المراقبة كثير الخشوع ملازم الإطراق ولا يرفع رأسه لأحد إلا في ضرورة، ومكث أربعين سنة لا يرفع رأسه إلى حياء من الله تعالى وكانت الأسد تمرغ وجهها على قدميه. قال الشيخ الأصيل العارف أحمد بن أبي الحسن البطائحي رأيت أخي الشيخ إبراهيم يومًا نائمًا في الرواق في يوم صائف شديد الحر وعند رأسه حية عظيمة في فمها باقة نرجس تروح بها عليه. وقال شهدته مرة وقد أتاه رجل ومعه شاب وقال له: هذا ابني زاد في عقوقي فرفع رضي الله عنه رأسه ونظر إلى ذلك الشاب فمزق أثوابه وأخذ في نفسه وحواسه وغدا إلى البطيحة وبقي شاخصًا إلى السماء يأوي إلى السباع لا يأكل ولا يشرب أربعين يومًا ثم جاءه الرجل وشكا سوء حال ولده فأعطاه خرقة وقال له: امسح بها وجه ابنك فذهب وفعل فأفاق الولد وجاء إلى عند الشيخ ولازم خدمته وكان عنده من خواص أصحابه. وكان رضي الله عنه إذا قال لأشد الناس خوفًا من النار اذهب إلى النار لا يشعر بنفسه إلا فيها ويمكث

ما شاء الله ويخرج منها وما احترقت ثيابه ولا ضرت منه شيئًا وكذا في الأسد ما يشعر بنفسه إلا وهو راكبه أو قائده من غير أن يروعه. وقال رضي الله عنه مرة أعطاني ربي التصريف في كل من حضرني فقال شخص حاضر في المجلس: ها أنا أقوم إذا شئت وأقعد إذا شئت فقال له الشيخ رضي الله عنه: إن قدرت على القيام فقم فلم يستطع وقعد شهرًا ملقى لا يستطيع الحركة ثم حمل وأتى الشيخ ثانيًا مستغفرًا فقام وبرىء. وقال مرة لا يزورنا إلا من أردناه فقال شخص في نفسه: أنا أزوره إن أراد أو لم يرد فلما أتى باب الرواق رأى أسدًا عظيمًا هاله منظره فزأر عليه فولى مدبرًا وكان معتادًا بصيد الأسد وقتلها فلما أبعد وقف ونظر الناس يدخلون ويخرجون ولا يعترضهم شيء واستمر على ذلك شهرًا لا يستطيع الدخول ففكر في نفسه فعرف السبب وتاب ثم أتى الزاوية فقام الأسد ودخل قدامه ومازح الشيخ وغاب فلما دخل قبل يد الشيخ قال له: مرحبًا بالتائب، وقال غانم بن مسعود العراقي التاجر عزمت على السفر إلى بلاد العجم في تجارة فأتيت الشيخ إبراهيم الأعزب مودعًا فقال لي: إذا وقعت في شدة نادني باسمي فلما وصلنا صحراء خراسان خرج علينا خيل وأخذوا أموالنا فخطر اسمه في قلبي وإذا به على جمل وبيده عصا وهو يرمي بها نحو الخيل فردهم وجاء فجمع أموالنا فأخذناها. وقال مقدام بن صالح البطائحي زرت مع الشيخ إبراهيم الأعزب قبر الشيخ أبي محمد الشنبكي بالحدارية فقال الشيخ: سلام عليكم دار قوم مؤمنين فسمعت الشيخ أبا محمد من قبره يقول: وأنت فعليك السلام يا شيخ إبراهيم هبني مقدامًا يقيم عندي فإني أحب تلاوته فقال له: يا سيدي أنا ومقدام بين يديك فقال له: لا بد من إذنك في ذلك فقال: يا مقدام قد سمعت ما قال الشيخ فقلت: سمعًا وطاعة وودعت الشيخ وجلست عند قبره أتلو القرآن العظيم قال أبو محمد الدمياطي قالت مشايخ البطائح: إن الشيخ مقدامًا تلا عند قبر الشيخ أبي محمد الشنبكي ثلاثين ألف ختمة رضي الله عنهم. وعاد الشيخ رجلًا به جرب فشكا حاله للشيخ فأمر خادمه أن يحمل الجرب عنه فحمله وبقي جسم الرجل كالفضة البيضاء وخرج الشيخ والخادم يتألم من الجرب فلما كان في بعض الطريق رأى خنزيرًا فقال: حملت عنك الجرب وحملته لهذا الخنزير فانتقل الجرب لوقته إلى الخنزير وعوفي الخادم ببركة الشيخ رضي الله عنه. وحضر رضي الله عنه سماعًا فأنشد القوال:

رماني بالصدود كما تراني وألبسني الغرام فقد يراني
ووقتي كله حلو لذيذ إذا ما كان مولائي يراني

فتواجه الشيخ رضي الله عنه ووثب في الهواء ثم أنشد:

إن كنت قد أضمرت غدرًا أو هممت به ... يومًا فلا بلغت روحي أمانيها
أو كانت العين مذ فارقتكم نظرت ... شيئًا سواكم فخانتها أمافيها
أو كانت النفس تدعوني إلى سكن ... سواك فاحتكمت فيها أعاديها
وما تنفست إلا كنت في نفسي ... تجري بك الروح مني في مجاريها
كم دمعة فيك لي ما كنت أجريها ... وليلة كنت أفني فيك أفنيها
حاشا فأنت محل النور في بصري ... تجري بك النفس مني في مجاريها
ما في جوانح صدر بعد جانحة ... إلا وجدتك فيها قبل ما فيها

ثم أنشد القول:

مجال قلوب العارفين بروضة ... إلٰهية من دونها حجب الرب
مفكر ما فيها ويجني ثمارها ... يبسم روح الوصل لله في القرب
حباها فأدناها فحارت مدى الهوى ... فلولا مدى الآمال ماتت من الحب

فصاح الشيخ رضي الله عنه ونادى يا للرجال فنزلت عليه رجال الغيب من الهواء مثنى وثلاث ورباع يقولون لبيك لبيك ورُوِيَ أن بعض المشايخ البطائح رأوه بعد موته فقال له ما فعل الله بك فأنشد:

لاحظته فرآني في ملاحظتي ... فغبت في رؤيتي عني بمعناه
وشاهدت همتي حقًا ملاحظتي ... لما تحققت معنى كون رؤياه
فلا إلى فرقة وصلًا ولا سكنًا ... حاشا مفارقتي إياه حاشاه

سكن رضي الله عنه قرية بأرض البطائح وبها مات في سنة تسع وستمائة وقبره بها ظاهر يزار ونقل أن الشمس كسفت يوم موته. فقال الشيخ علي القرشي وكان إذ ذاك بدمشق كسفت اليوم شمس السماء وغابت شمس الأرض فقيل له وما شمس الأرض. فقال الشيخ إبراهيم الأعزب قد مات اليوم رضي الله عنهم.

ومنهم الشيخ القدوة أبو الحسن علي بن إدريس اليعقوبي رضي الله عنه

كان من أعيان مشايخ العراق وأعيان العارفين صاحب الكرامات الظاهرة والأحوال الفاخرة والفتح المونق والكشف المشرق انتهت إليه تربية المريدين وتخرج

بصحبته غير واحد وانتمى إليه جماعة كثيرة وتلمذ له خلق كثير وهم من أصحاب سيدنا الشيخ محيي الدين عبد القادر رضي الله عنه والشيخ علي بن الهيتي. وله كلام رائق على لسان أهل الحقائق وكان إذا جاءه الشيخ عمر بن البزاز يقوم له ويمشي خطوات من بعد ويكرمه ويقنعه وينشد هذا البيت:

أشم منك نسيمًا لست أنكره   كأن المياه جرت فيك أذيالا

قال رضي الله عنه كشف لي عن الكائنات من البداية إلى النهاية وحلت إلى التراجم وكل من لم تحل له فليس بشيخ. وقال أطلعني ربي على أهل الجنة والنار والبرزخ والسماء والأرض ويقال إنه رضي الله عنه كان يعرف ملائكة كل سماء ومقامهم وتسبيحهم ولغاتهم وما يوحدون به الله تعالى وكان يتمثل بهذه الأبيات.

غرست الحب غرسًا في فؤادي   فلا أسلو إلى يوم التنادي
جرحت القلب مني باتصال   فشوقي زائد والحب بادي
سقاني شربة أحيا فؤادي   بكاس الحب من بحر الوداد
ولولا الله يحفظ عارفيه   لهام العارفون بكل وادي

وكان رضي الله عنه أيضًا يتمثل بهذه الأبيات:

القلب محترق والدمع مستبق   والكرب مجتمع والصبر مفترق
كيف القرار على من لا قرار له   مما جناه الهوى والشوق والقلق
يا رب إن كان شيء لي به رمق   فامنن علي به ما دام لي رمق

وقال رضي الله عنه: حفظت نفسي من الهوى عشر سنين ثم حفظت قلبي من نفسي عشرًا ثم حفظت سري في قلبي عشرًا ثم وردت علينا منازلة فحفظتنا كلنا والله خير الحافظين. وشكا له بعض الناس عاملًا جار عليه فضرب في شجرة وقال قتلناه فمات لساعته. وقال أوقفني مالكي بين يديه بقدرته وألبسني من كرمه رداء اصطفاه الله بقدرته في الأزل لا يلبسه إلا من اصطفاه الله لكرامته. مات رضي الله عنه سنة تسع عشرة وستمائة رضي الله عنه ورضي عنا به.

ومنهم الشيخ أبو محمد عبد الله الجبائي السابق ذكره

كان من أكابر المشايخ وأعيان المحققين صاحب الكرامات والأحوال النفيسة. قال الحافظ ابن النجار في تاريخه: عبد الله بن أبي الحسن بن أبي الفرج الجبائي

الشامي من طرابلس، كان أبوه نصرانيًا فأسلم وهو صغير وحسن إسلامه وحفظ القرآن وقدم بغداد طالبًا للعلم في سنة أربعين وخمسمائة وصحب الشيخ عبد القادر الجيلي، وتفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، وسمع الحديث من القاضي أبي الفضل محمد بن عمر الأرموي وأبي العباس أحمد بن أبي غالب بن الطلاية وأبي بكر محمد بن الزاغوني وابن البناء وأبي الفضل محمد بن ناصر الحافظ وغيرهم. وكتب بخطه وحصل ثم إنه سافر إلى أصبهان وسمع بها من أبي الخير محمد بن الباغبان وأبي عبد الله الحسن الرسيمي وأبي الفرج مسعود الثقفي وغيرهم. وحصل النسخ والأصول وعاد إلى بغداد ثانيًا وحدث بها ثم عاد إلى أصبهان واستوطنها إلى حين وفاته وحدث بها بالكسر وكان له قبول حسن ومنزلة عند الأكابر. وكان شيخًا صالحًا متدينًا صدوقًا كثير الخير دائم العبادة كتب إليّ بالإجازة بجميع مروياته.

أخبرني أبو الحسن بن القطيعي قال: سألت عبد الله الجباني عن نسبته فقال: نحن من قرية يقال لها الجبة من نشرى من أعمال طرابلس في جبل لبنان وكنا قومًا نصارى فتوفي أبي ونحن صغار، وكان أبي من علماء النصرانية فقدّر الله تعالى أن وقعت حروب فخرجنا من قريتنا وكان في قريتنا جماعة من المسلمين يقرؤون القرآن وإذا سمعتهم أبكي فلما دخلت أرض الإسلام أسلمت وعمري إحدى عشرة سنة، ثم دخلت بغداد سنة أربعين وخمسمائة. وسألته عن مولده فقال: في سنة إحدى وعشرين تقريبًا. مات بأصبهان يوم السبت لثلاث خلون من جمادي الآخرة سنة خمس وستمائة ودفن بخانقاه بهاء الدين الحسن بن أبي الهيجاء انتهى.

وقال ابن الدينثي في تاريخه: صحب الشيء عبد القادر وسافر عن بغداد بعد موت الشيخ عبد القادر الجيلي ونزل أصبهان انتهى.

وقال الذهبي في تاريخ الإسلام روى عنه الموفق والضياء وابن خليل وأبو الحسن القطيعي وآخرون وأجاز الشيخ شمس الدين والفخر علي ولجماعة انتهى.

وقال ابن رجب في طبقاته وروى عنه ابن الجوزي عدة مقامات في كتبه وقال كان من الصالحين انتهى رضي الله عنهم أجمعين.

ومنهم القدوة الجليل الشيخ أبو الحسن علي بن حميد المعروف بالصباغ رضي الله عنه(١)

كان من أكابر مشايخ مصر المشهورين وأعيان العارفين ونبلاء المحققين صاحب الكرامات الظاهرة والأحوال الفاخرة والأفعال الخارقة والأنفاس الصادقة والهمم السمية والإشارات العلية والمعاني المضية والعلوم اللدنية صاحب الفتح الموفق والكشف المشرق والمعارف الزاهرة والحقائق الباهرة له الطور الأرفع من معالم القدس والمحل الأعلى في مشاهدة القرب والسمو على مراقي التخصيص وله الباع الطويل في علوم المنازلات والنظر الخارق في عوالم المغيبات والخبر الصادق عن حقائق الآيات والقدس الراسخ والتمكين والبسطة المالكة لأزمة التصريف وهو القائل ليس لأحد علي في هذا الطريق منه إلا الله تعالى ولرسوله ﷺ وهو أحد من أظهره تعالى إلى الخلق وصرفه في الوجود وخرق له العادات وأظهر على يديه الخارقات وملكه أسرار الولاية وحكمه في أحوال النهايات وأنطقه بعجائب الحكم ونصبه قدوة للسالكين وأقامه حجة للعارفين وهو أحد أركان هذا الشأن علمًا وزهدًا وتحقيقًا وورعًا وتمكينًا ومهابة.

صحب الشيخ عبد الرحمٰن بن حجون المغربي رضي الله عنه وإليه كان ينتمي والشيخ أبا محمد عبد الرزاق بن محمود المغربي ولقي جماعة من المشايخ بمصر وكان شيخه الشيخ عبد الرحيم يثني عليه كثيرًا حتى قال فيه دخل أبو الحسن من باب ما دخلناه قال الشيخ أبو محمد الجزولي أودع أبو الحسن الصباغ سرًا ما أودعناه. وقال الشيخ أحمد المعروف بالرأس الشيخ أبو الحسن شيخ مكمل عند الله تعالى: انتهت إليه رياسة هذا الشأن في وقته في الديار المصرية وتخرج به غير واحد من أهلها مثل الشيخ أبي بكر بن شافع القوصي والشيخ علم الدين المنفلوطي والشيخ الإمام مجد الدين علي بن وهب بن مطيع القشيري المعروف بابن دقيق وغيرهم وانتمى إليه خلق كثير من أصحاب الأحوال وتلمذ له خلق كثير من الصلحاء واجتمع عنده خلق من العلماء والفقهاء والقراء والفقراء رضي الله عنهم وانتفعوا بكلامه وصحبته، وكان مقصودًا بالزيارات وكان فقيهًا فاضلًا متأدبًا كريمًا خاشعًا متواضعًا مشتملًا على كرم الأدب وأشرف الصفات وأحسن الأخلاق محبًا لأهل العلم والدين قيمًا بتهذيب

---

(١) هو من أكابر مشايخ مصر المشهورين هو الذي قال: ليس لأحد علي في هذا الطريق منه إلا لله ولرسوله... وانظر: بهجة الأسرار (ص ٤١٤).

المريدين، وله كلام عال على لسان أهل الحقائق منه: المريد هو الرامي بأول قصده إلى الله تعالى ولا يعرج على غيره والحق هو المقصود بالإشارات ولا يشهد بغيره ولا يدرك سواء حجبهم بالأسماء فعاشوا ولو أبرز لهم علوم القدر لطاشوا ولو كشف لهم عن الحقيقة لماتوا وكان ينشد:

تسرمد وقتي فيك فهو مسرمد   وأفنيتني عني فعدت مجردا
وكلي بكل الكل وصل محقق   حقائق قرب في دوام تخلدا
تفرد أمري فانفردت بغربتي   فصرت غريبًا في البرية أوحدا

وكان يتمثل أيضًا بهذه الأبيات:

بقائي فنائي في بقائي مع الهوى   فيا ويح قلب في فناه بقاؤه
وجودي فنائي في فنائي فإنني   مع الإنس يأتيني هنيئًا بلاؤه
فيا من دعا المحبوب سرًا لسره   أتاك المنى يومًا أتاك فناؤه

قال الشيخ الصالح أبو القاسم نصر الله الأسناني: أجلس الشيخ رضي الله عنه رجلًا في خلوة وكان يتقصد أصحاب الخلوات من أصحابه كل يوم وليلة فدخل عليه في ليلة من ليالي العشر الأخير من رمضان فوجده يبكي فسأله عن حاله فقال له: يا سيدي ها أنا أشهد ليلة القدر وأشهد كل شيء على وجه الأرض ساجدًا وكلما هممت بالسجود أجد في باطني شيئًا على هيئة العمود الحديد يمنعني من السجود فقال له الشيخ: يا بني لا تجزع العمود الذي تجده هو السر مني المودع فيك لا يمكنك إلا من فعل فيه قربة وجميع ما تشهده الآن من سجود الأشياء هو وارد الشيطان يريد أن تسجد لما خيل لك فيجد بذلك عليك سبيل الهدى فوقع في نفس الرجل وخطر له من أين لي صحة ذلك فلم يتم ذلك حتى قال له الشيخ: أنت تطلب على ذلك دليلًا ثم مد يده اليمنى فرآها انتهت إلى أقصى المشرق ثم مد يده اليسرى فرآها انتهت إلى أقصى المغرب ثم قبضهما إليه قبضًا يسيرًا فقال الرجل: كنت أرى ذلك النور والأشياء الساجدة التي شاهدتها ينضم بعضها إلى بعض حتى لم يبق بين راحتيه إلا مقدار ذراع وتكون ذلك النور حتى صار على هيئة الإنسان وهو يصيح ويقول: يا سيدي الغوث الغوث لا أرجع أعود فلما قارب الشيخ رأيت بارقة من نور خرجت من فم الشيخ أضاء لها كل شيء وانقلبت تلك الصورة سوداء شديد النتن وصاحت صيحة عظيمة ثم صارت دخانًا وتصاعدت إلى الجو هباء منثورًا، فقال الشيخ يا بني هذا التخايل قد صار كما ترى، وقال الفاضل أبو عبد الله محمد بن سنان القرشي كنت أخدم الشيخ

بقنا وأغيب عن أهلي تسعة أشهر فاشتقت إلى أهلي فبينما أنا في خطرة الشوق نزل الشيخ من داره وقال لي: يا محمد اشتقت إلى أهلك فقلت: نعم، فأخذ بيدي وأدخلني بيتًا وقال لي: زيق ففعلت، ثم قال لي: ارفع رأسك فرفعت رأسي وإذا أنا على باب بيتي بمصر فدخلت وتلقاني أهلي وسلموا علي فكتمتهم أمري وبقيت عندهم مقامة يومي وأكلت عندهم مرتين وأعطيت لأبي عشرين درهمًا كانت معي فلما أذن المغرب خرجت من باب الدار فإذا أنا على باب الرباط بقنا والشيخ قائم فقال لي: يا محمد قد أبللت شوقك من أهلك فقلت: نعم، ثم أقمت عنده شهرًا واستأذنته في السفر إلى مصر فأذن لي فوصلت في خمسة وعشرين يومًا فلما رآني أهلي فرحوا بي وقالوا: كنا أيسنا منك فقلت لهم: ولم ذلك، فقالت لي أمي قصتي من أولها إلى آخرها فلم أظهرها على أمري ولم أتكلم بشيء من ذلك حتى مات رضي الله عنه وكان رضي الله عنه يومًا على ساحل البحر ومعه إبريق يتوضأ منه فسمع صياحًا بقربه فترك الوضوء وأسرع إلى المكان الذي سمع منه الصياح وسأل عن ذلك فقيل له قد أخذ التمساح فرآه وقد قبض على الرجل وتوسط به لجة البحر فصاح به فوقف مكانه لا يتحرك ثم عبر على متن الماء وهو يقول: بسم الله الرحمٰن الرحيم فكان يمشي على وجه الماء حتى انتهى إلى التمساح وقال له: ويلك ألق الرجل فألقاه من فمه فوضع الشيخ يده على التمساح وقال له: مت بإذن الله تعالى فمات وقال للرجل: قم إلى البر فقال لا أستطيع من فخذي ولا أحسن العوم فقال: اذهب هذه سبيل النجاة. وأشار إلى طريق البر فإذا البحر من الموضع الذي فيه الشيخ والرجل صلب كالحجارة إلى البر فمشى الشيخ والرجل إلى البر والناس ينظرون إليهما ثم إن البحر عاد إلى حاله وجروا التمساح ميتًا، وقال الشيخ مجد الدين القشيري بقوص كانت الأسد والحيات تأوي إليه رضي الله عنه وقال: رأيته غير مرة يغسل قدميه من لعاب الأسد إذا وضعت رؤوسها على قدميه وقال: رأيته مرة جالسًا وحده فينزل عليه رجال من الهواء مثنى وثلاث ورباع حتى يكون عنده منهم خلق كثير وكانت الأولياء والغيبيون والمشايخ رضي الله عنهم والجن يمتثلون أوامره حتى لو قال للأسد لا تبرح من هذا فلا يبرح من مكانه من غير أن يؤذي أحد حتى يقول له الشيخ: اذهب قال وكانت القطبية تذكر عنه وصحبته مدة وخدمته في السر والجهر وما رأيته ترك أدبًا ولا تكلم بما ينافي الشريعة ولا بما ينكر عليه. وقال الشيخ أبو الحجاج الأقصري رضي الله عنه كان الشيخ جالسًا فقال له بعض مريديه: ما علامة المشاهدة لأنوار جلال الله تعالى كيف يكون نظره في الوجود قال ينظر السر القائم في الوجود الذي به استقام وجود

كل شيء فإن نظر إلى عاص أحياه أو إلى ناس ذكره أو إلى ناقص كمله فقال أحدهم: يا سيدي فما علامة من هو موصوف بهذا الوصف قال هو لو نظر إلى هذا الحجر لذاب من هيبته ثم نظر إلى حجر عظيم ثم كان بالقرب منه فذاب وصار ماء وغار في الأرض وقال فقد رجل من أهل مصر حاله فأتاه وتضرع إليه وأقسم الرجل إنك قادر على رده فقال له: اصبر حتى أستأذن في رده فأقام عنده ثلاثة أيام وفي اليوم الرابع أكل معه الشيخ عسلًا ولبنًا فوجد ماله له ضعفين فقال له الشيخ: إني استأذنت في رد حالك ففي أكلك معي اللبن رد حالك عليك وفي أكلك معي العسل ضوعف لك حالك ولا تقدر على التصريح به حتى تخرج من بلدي فكان يجد حاله ومثله معه ولا يستطيع التصريف فيه حتى خرج من فناء بلدة الشيخ رضي الله عنه. قال ودعا مرة في طعام يأكله سبعة نفر فأكل منه نحو مائة رجل وفضل منه بقية وقال الشيخ أبو الحجاج الأقصري: كان الشيخ أبو الحسن الصباغ مارًا في بعض السنين وقت الضحى بين البساتين بقوص فرأى حمامة على شجرة تغرد بصوت شجي فوقف يسمعها ثم تواجد واستغرق في وجده ثم أنشد:

حمام الأراك ألا فأخبرينا ... بمن تهتفين ومن تندبينا
فقد شقق نوحك ويحك القلوب ... فأجريت ويحك ماء معينا
تعالى نقم مأتمًا للفراق ... وتندب أحبابنا الظاعنينا
وأسعدك بالنوح كي تسعدي ... كذاك الحزين يواسي الحزينا

ثم بكى وأنشد:

أيبكي حمام الأيك من فقد إلفه ... وأصبر عنه كيف ذاك يكون
ولم لا أبكي وأندب ماضيًا ... وداء الهوى بين الضلوع كمين
وقد كان قلبي قبل حبك قاسيًا ... فإن دامت البلوى به سيلين
وعذبهم هم بهيج حزنه ... فللسهم والأحزان فيه فنون

ثم خر مغشيًا عليه فلما أفاق أنشد:

غنني في الفراق صوتًا حزينًا ... إن بين الضلوع داء دفينا
كل أمر الدنيا حقير يسير ... غير أن يفقد القرين قرينا
ثم جد لي بدمع عينيك بالله ... وكن لي على البكاء معينا
فسأبكي الدماء فضلًا عن الدمع ... ومثل الفراق يبكي العيونا

قال فجرى الدمع من مقلتيه وسقطت تلك الحمامة على الأرض وجعلت تصفق بجناحيها بين يديه إلى أن ماتت فأنشد يقول:

وردنا على الهوى منهل عذب وحط به للسفر أشواقه الركب
فلما وردنا ماءه ألهب الظمأ إلا من رأى ظمآن ألهبه الشرب
أكب الهوى يذكي على زناده أيا قادحًا أمسك فقد علق الحب
ولو أنني أخليت قلبي لغيركم من الناس محبوبًا لما وسع القلب
أعاتبكم لا عن ملال ولا قلى ولكن إذا صح الهوى حسن العتب

قال: ثم مشى مستغرقًا في حاله فأذن الظهر وهو بقنا وعنده الشيخ عبد الرحيم بن حجون والشيخ يوسف القلونسي وكانا مجتمعين بقنا فلما رآهما أنشد يقول هذه الأبيات:

خليلي من طول الملام دعاني لقد جل ما بي في الهوى وكفاني
دعا الحب قلبي فاستجابت جوارحي ونمت دموعي بالذي ترياني
فيا من بحبيبه لبست تذللًا فصرت وما إن في الورى لي ثاني
كان رقيبًا منك يرعى خواطري وآخر يرعى ناظري ولساني
أسرّ وأُخفي ما بقلبي من الهوى على كل حال في يديك عناني
وأنت على الحالات لا شك ناظر على القرب والبعد البعيد تراني

قال: فكان الشيخ ينشد والشيخان يبكيان فلما فرغ أنشد الشيخ عبد الرحيم:

ما إن ذكرتك إلا الهمّ يقلقني سري وذكري وفكري عند ذكراكا
حتى كأن رقيبًا منك يهتف بي إياك ويحك والتذكار إياكا
اجعل شهودك في لقياك تذكرة فالحق إذكاره إياك لقياكا
أما ترى الحق قد لاحت شواهده وواصل الكل من معناك معناكا

قال: فلما فرغ الشيخ عبد الرحيم أنشد الشيخ أبو الحجاج يوسف القلونسي يقول:

البين فيه لمن ذاق الهوى أجل به النفوس عن الأجساد يرتحل
والبين كون لروح المستهام إذا ما قيل قد بان من تهواه واحتملوا

والبين يسكن في أعضائه زمنًا ونار لوعته تذكو وتشتعل
يا سائلًا كيف مات العاشقون فما ماتوا ولكن بأسياف الهوى قتلوا

سكن رضي الله عنه قنا قرية بصعيد مصر الأعلى وبها مات في النصف من شعبان من سنة اثنتي عشرة وستمائة ودفن عند شيخه الشيخ عبد الرحيم بمقبرة قنا وقبره هناك ظاهر يزار رضي الله عنه. قال الشيخ علي الصباغ المذكور رضي الله عنه للشيخ عبد القادر رضي الله عنه خصوص من الله تعالى لم يدركه كثير من الصديقين وكان ينشد إذا ذكر الشيخ عبد القادر رضي الله عنه:

حسنك لا تنقضي عجائب كالبحر حدث عنه ولا حرج

وكان الشيخ الرديني رضي الله عنه ينتمي إلى شيخنا وسيدنا الشيخ عبد القادر رضي الله عنه ويعظمه إذا ذكرت مناقبه وينشد البيت المذكور.

ذكر مولده ووفاته رضي الله عنه

قال القطب اليونيني رحمة الله عليه: ولد رضي الله عنه سنة سبعين وأربعمائة وأن ولده عبد الرزاق قال سألت والدي عن مولده فقال: لا أعلم له حقيقة لكني قدمت بغداد في السنة التي مات فيها التميمي وعمري إذ ذاك ثمان عشرة سنة. والتميمي مات سنة ثمان وثمانين وأربعمائة. وقال العلامة الشيخ شمس الدين بن ناصر الدين الدمشقي رحمة الله عليه: ولد ببلدة الجيل سنة سبعين وأربعمائة قال والجيل موضعان أحدهما اسم لصقع واسع مجاور لبلاد الديلم مشتمل على بلاد كثيرة ليس منها مدينة كبيرة والآخر بلدة الشيخ عبد القادر وهي الجيل وتسمى الكيل بكاف مشوبة بالجيم وبكاف خالصة وسماها الحافظ أبو عبد الله محمد بن سعد الدينثي الكال وكأنه أخذه من ابن الحجاج الشاعر فإنه سماها في بعض شعره بالكال وهي قرية تحت مدائن كسرى. توفي رضي الله عنه بعد أن انقضى عمره النفيس ببغداد ليلة السبت ثامن شهر ربيع الآخر سنة إحدى وستين وخمسمائة ودفن في الليل بمدرسته بباب الأزج ببغداد رضي الله عنه، وقال العلامة شمس الدين أبو المظفر يوسف سبط ابن الجوزي رحمة الله عليه في تاريخه المرسوم بمرآة الزمان في ذكر من توفي في سنة إحدى وستين وخمسمائة ودفن ليلًا لكثرة الزحام فإنه لم يبق ببغداد أحد إلا جاء وامتلأت الحلبة والشوارع والأسواق والدور فلم يتمكن من دفنه في النهار، وكذا قال ابن الأثير وابن كثير في تاريخها وقال الحافظ محب الدين محمد بن النجار في تاريخه

ذكر أبو الفضل أحمد بن صالح بن شافع الحنبلي أن مولد الشيخ عبد القادر الجيلي في سنة إحدى وسبعين وأربعمائة وكذا قال أبو عبد الله محمد الذهبي وقال ابن النجار إنه توفي ليلة صبيحتها السبت عاشر ربيع الآخر سنة إحدى وستين وخمسمائة وأنه فرغ من تجهيزه ليلًا وصلى عليه ولده عبد الوهاب في جماعة ممن حضر من أولاده وأصحابه وتلامذته ثم دفن في رواق مدرسته ولم يفتح باب المدرسة حتى علا النهار وأهرع الناس إلى الصلاة على قبره وزيارته وكان يومًا مشهودًا رضي الله عنه انتهى كلامه. وكان الخليفة ببغداد إذ ذاك المستنجد بالله أبو المظفر يوسف بن المقتفي لأمر الله محمد بن المستظهر بالله أحمد بن المقتدي بأمر الله عبد الله بن محمد الذخيرة بن القائم بأمر الله عبد الله العباسي رحمهم الله تعالى. وقال مؤلف الروض الزاهر في ترجمته رضي الله عنه هو رضي الله عنه منسوب إلى جيل بكسر الجيم وسكون الياء وبعدها لام وهي بلاد متفرقة وراء طبرستان ويقال لها أيضًا جيلان ويقال فيها كيل وكيلان انتهى. وقال الحافظ زين الدين بن رجب في طبقاته ورثاء نصر النميري غداة دفنه بقصيدة أولها:

مشكل الأمر ذا الصباح الجديد ما له ذلك ألسنا المعهود

قال وله فيه مرثية أخرى انتهى كلامه. وقال مؤلف بهجة الأسرار قال الشيخ أبو الفضل أحمد بن شافع الجيلي السابق ذكره الحنبلي أن مولد الشيخ عبد القادر في سنة إحدى وسبعين وأربعمائة وأنه ولد بنيق قصبة من بلاد جيلان وهي بلاد متفرقة وراء طبرستان انتهى كلامه ملخصًا:

ولنختم هذا المختصر بذكر شيء من مناقبه وما قيل فيه كما مر الوعد به في أوله

قال رضي الله عنه لما كنت صغيرًا في المكتب كان يأتيني في كل يوم ملك لا أعرف أنه ملك على صورة بني آدم يوصلني من دارنا إلى المكتب وكان يأمر الصبيان أن يوسعوا إلي في المجلس ويجالسني حتى أنصرف إلى دارنا فسألته يومًا من تكون فقال: أنا ملك من الملائكة عليهم السلام أرسلني الله تعالى إليك أكون معك ما دمت في المكتب وكنت أتعلم في كل يوم ما لا يتعلمه غيري في أسبوع رضي الله عنه.

وحكي أن بعض محبيه حلف بالطلاق الثلاث إنه أفضل من أبي يزيد البسطامي رضي الله عنه ثم استفتى علماء العراق فلم يجبه أحد فتحير في أمره فقيل له عليك

بالشيخ عبد القادر فهو أخبر بذلك فجاء إليه وقص عليه قصته فقال له: وما حملك على ذلك فقال: قد وقع ذلك مني فمرني ما أفعل أفارق زوجتي أو أستمر معها فقال له: ضاجع زوجتك فكل ما وصل إليه أبو يزيد البسطامي وصلت إليه وسبقته بفضيلة علم الفتيا وهو لم يفت وتزوجت ولم يتزوج ورزقت الأولاد ولم يرزق رضي الله عنهما. قال سلطان العلماء الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي الشافعي نزيل القاهرة رحمة الله عليه: كرامات الشيخ عبد القادر ثبتت بالتواتر، وقال: لم يثبت بالتواتر كرامات أحد من الأولياء كثبوت كرامات الشيخ عبد القادر رضي الله عنه وهو من العلم والعمل والتحري فيما يقوله معروف مشهور فلا حاجة إلى شرح الحال في ذلك والله أعلم. نقل القاضي مجير الدين العليمي في تاريخه إن سيدنا الشيخ عز الدين بلغ رتبة الاجتهاد مع الزهد حتى ظهر حاله في المكاشفات وأنه لقب بسلطان العلماء وكان حسن المحاضرة بالنوادر والإشعار يحضر السماع ويرقص وإنه توفي في جمادى سنة ست وستين وستمائة انتهى كلامه ملخصًا رحمة الله عليهما، ونقل سيدي العم العلامة المحقق القدوة رضي الدين محمد ابن مولانا العلامة البرهاني بن إسحٰق إبراهيم التادفي نفعني الله بحياتهما إن من كرامات الشيخ عز الدين رضي الله عنه أن حمامة سقطت عليه في مجلسه من جارح أراد أن يختطفها فأنشد بعض من كان حاضرًا بديهًا بحضرته رضي الله عنه:

جاءت سليمان الزمان حمامة ... والموت يهتف من جناحي خاطف

من أنبأ الورقاء أن محلكم ... حرم وأنك ملجأ للخائف

وسئل شيخ الإسلام الشيخ شهاب الدين أحمد بن حجر الشافعي العسقلاني سقى الله ثراه بوابل الرحمة والرضوان، هل ورد عن الشيخ عبد القادر إنه حضر السماع الذي اتخذه الفقراء بالدفوف والمواصيل وغير ذلك من الآلات أو أمر بحضوره أو قال فيه شيئًا بإباحة أو تحريم؟

فأجاب رحمة الله عليه: أما الشيخ عبد القادر فالذي وصل إلينا من أخباره الصحيحة أنه كان فقيهًا زاهدًا عابدًا يتكلم على الناس ويرغبهم في الزهد والتوبة ويحذرهم من العقوبة على المعصية فكان يتوب على يده من الخلق ما لا يحصى كثرة وله كرامات مستفيضة لم ينقل لنا عن أحد من أهل عصره ولا من بعده أكثر ما نقل عنه ولا أعرف عنه في مسألة السماع بهذه الآلات شيئًا. وقال الإمام العالم الفاضل النبيل أبو العباس أحمد الشهير بابن فضل الله في كتاب مسالك الإبصار الشيخ

عبد القادر بن أبي صالح عبد الله بن جنكي دوست الحنبلي علم الأولياء محيي الدين أبو محمد سيد طائفة كانوا بالنهار لا يفترون وبالأسحار هم يستغفرون طلع من هاشم بن عبد مناف في الدوائب وكرع منه في غدير لم يرتع بالسوائب وكان من الشرف في تشامخ قلاله وراسخ النسب العلوي في كرم خلاله وكان له مجلس يوالي فيه الانتحاب ويحرك فيه الأصحاب وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب فما برح اجتهاده محدودًا وجهاده يقول: عسى أن يبعثك ربك مقامًا محمودًا وكان مخلصًا دون أشكاله ومخلصًا توكل على الله حق اتكاله على أنه من بقية قوم يرجعون كانوا قليلًا من الليل ما يهجعون وصلوا الليالي بالأسحار وركبوا هيج الفيافي وقفار البحار فحمدوا ما كانوا يعملون وعلى ربهم يتوكلون. وقال الإمام العلامة القدوة الزاهد الورع العارف بالله تعالى الشيخ عفيف الدين أبو محمد عبد الله بن سعد بن علي بن سليمان بن فلاح اليافعي اليمني ثم المكي الشافعي في تاريخه قطب الأولياء الكرام شيخ المسلمين والإسلام ركن الشريعة وعلم الطريقة وموضح أسرار الحقيقة حامل راية علماء المعارف والمفاخر شيخ الشيوخ وقدوة الأولياء العارفين الأكابر أستاذ الوجود أبو محمد محيي الدين عبد القادر بن أبي صالح الجيلي قدس الله سره ونور ضريحه فحلًا رضي الله عنه بحلى العلوم الشريعة ونال لطائفها وتجمل بتيجان الفنون الدينية وحاز شرائفها وهجر في مهاجرته إلى الحق كل الخلائق وتزود في سفره إلى ربه أحسن الآداب وأشرف الخلائق وعقد له ألوية الولاية فوق العلا ذوائبها ورفع له منازل جلاله في سماء القرب كواكبها ونظر قلبه إلى رقوم الفتح في ذيول الكشف عن الأسرار وشخص سره إلى شموس من مطالع الأنوار وأشهدت بصيرته عرائس الحقائق في مقاصير الغيوب وأسكنت سريرته حضرة القدس في خلوة وصل المحب بالمحبوب ورفعت أسراره إلى مشاهد المجد والكمال ودام إحضاره في معالم العز والجلال هنالك انكشف له عن علم السر المصون واتضح له حقيقة حق اليقين واطلع على معاني خفايا مكامن المكنونات وشاهد مجاري القدر في تصاريف المشيئات واخترع الحكم من معادنها وأظهر التحف من مكامنها فأتاه الأمر النقي من تدنيس التلبيس بالجلوس للوعظ بالحلبة النورانية في شوّال سنة إحدى وعشرين وخمسمائة فجلس مجلسًا لله دره من مجلس تجلله الهيبة والبهاء وتحف به الملائكة والأولياء فقام بنص الكتاب والسنة خطيبًا على الأشهاد ودعا الخلق إلى الله سبحانه وتعالى فأسرعوا إلى الانقياد يا له من داع أجابته أرواح المشتاقين ومن مناد لبته قلوب العارفين ومن حاد

هيم ركائب النفوس في فلوات الشوق إلى رؤية الجمال ومن هاد ساق نجائب القلوب إلى حمى الوصال ومن ساق روى عطاش العقول من شراب القدس وشوقها إلى منادمة الحبيب على بساط الأنس وكشف براقع اللبس عن وجوه المعارف ورفع أغطية الغين عن عين شرائب الطائف وهز أعطاف القلوب بوصف جمال القدم وأرقص أشباح الأرواح بسماع نعت كمال الكرم وناغى أطيار الأسرار في جوامع قدسها بألحان لذيذ أنسها فطارت من أركان أطوارها في حبها إلى أوكارها وجلا عرائس المواعظ فدهشت ببهجة حصنها العشاق وزف مخدرات المواهب فصبا لمعنى جمالها كل مشتاق بنفائس الحكم من رياض أنس أينعت مروجها وأبرز جواهر التوحيد من بحار علوم تلاطمت أمواجها يرى معانيها من معانيها دررًا وياقوتًا ويأخذ من درها درًا ومن ياقوتها قوتًا ودبج روض الحقائق بحدائق ذات بهجة فيا لها للسالكين إلى الله سبحانه وتعالى مجة وحجة وبث لآلىء الفتح على بساط الإلهام فسابق لالتقاطها أولو الألباب والأقلام فتنضد منها فوائد هدى في أعناق ذوي الهمم العلية يصل المتحلي بها بإذن الله تعالى إلى المقامات السنية فجال في النفوس مجال الأنفاس في الصدور وعبق بالقلوب عبق الروض الممطور وأبرأ النفوس من أسقامها وشفي الخواطر من أوهامها فأسمعه إلا من أوضح التوبة رجونه أو من انتحل بالبكاء جفونه وكم رد إلى الله عاصيًا وكم ثبت به واهيًا وكم أضحى من خمر الهوى سكارى وكم فك من قيد النفوس أسارى وكم اصطفى الله به أوتادًا وأبدالًا وكم وهب الله به مقامًا رجالًا وما زالت نجائب المواهب ترحل إليه رحمة الله تبارك وتعالى عليه:

عبدك فوق المعالي رتبة	وله المحاسن والفخار الأفخر
وله الحقائق والطرائق في الهدى	وله المعارف كالكواكب تزهر
وله في الفضائل والمكارم والندا	وله المناقب في المحافل تنشر
وله التقدم والمعالي في العلا	وله المراتب في النهاية تكثر
غوث الورى غيث الندى نور الهدى	بدر الدجى شمس الضحى بل أنور
قطع العلوم مع العقول فأصبحت	أطوارها من دونه تتحير
ما في علاه مقالة لمخالف	فمسائل الإجماع فيه تسطر

وقال أضحى الزمان مشرقة به مناكبه والدين شرفت به مناصبه والعلم عالية به مراتبه والشرع منصورة به كتائبه فانتمى إليه جمع كثير من العلماء وتلمذ له خلق كثير

من الفقهاء ولبس عنه الخرقة خلق لا يحصون من الفقراء والمشايخ الكبراء والعلماء الخبراء وأن جمهور شيوخ اليمن يرجعون في لبس الخرقة إليه. بعضهم لبسها من يده لما قدمت أعلام فضائله عليهم والأكثرون من رسول أرسله إليهم: وفيه وفي انتساب معظم شيوخ اليمن المتنسبين في لبس الخرقة إليه قال:

وفي منهج الأشياخ إلباس خرقة ... ومنشور فضل يرجع الفرع للأصل
ولبس اليمانيين يرجع غالبًا ... إلى سيد سامي فخار على الكل
أمام الورى قطب الملأ قائلًا على ... رقاب جميع الأولياء قدمي أعلى
فطأطأ له كل بشرق ومغرب ... رقابًا سوى فرد فعوقب بالعزل
مليك له التصريف في الكون نافذ ... بشرق وغرب الأرض والوعر والسهل
سراج الهدى شمس على فلك العلا ... بجيلان مبداها علاها بلا أفل
طراز جمال مذهب فوق حلة ... غدا الكون فيها الدهر يختان ذا رفل
يتيمة درزان عقد ولائه ... يهيج على جيد الوجود به مجلي
لحد ذاك يا بحر الندا عبد قادر ... أنا يافعي ذو افتقار وذو محل
قفا هٰهنا في رأس نهر عيونهم ... ملاها ومن بحر النبوة مستملي
وسبحانك اللهم ربًا مقدسًا ... وواسع فضل للورى فضله مولي

ثم قال: وأما كراماته فخارجة عن الحصر وقد أخبرني من أدركت من أعلام الأئمة الأكابر أن كراماته تواترت أو قربت من المتواتر ومعلوم بالاتفاق أنه لم يظهر ظهور كراماته لغيره من شيوخ الآفاق وقد أشرت في هذه الأبيات المختصرة إلى محاسن كلامه المشتهرة المنسوجة في الأسلوب الغريب الذي لم ينسج غيره على منواله العجيب انتهى كلامه ملخصًا رحمة الله عليه. أقول قوله رحمة الله عليه الحلبة النورانية هي الحلبة البرانية التي ذكرها الحافظ محب الدين بن النجار في تاريخه بعد ترجمة الشيخ رضي الله عنه فقال وعقد مجلس الوعظ بالحلبة البرانية في شوّال سنة إحدى وعشرين وخمسمائة انتهى كلام ابن النجار. فكان اليافعي رحمة الله تعالى عليه عدل بها إلى النورانية لتنورها بجلوس الشيخ ووعظه فيها أو هو تغيير من بعض الكتبة والله أعلم. وقال شيخ الإسلام الشيخ محيي الدين النووي رحمة الله تعالى عليه في كتابه بستان العارفين ما علمنا فيما بلغنا من الثقات الناقلين كرامات الأولياء أكثر مما وصل إلينا من كرامات القطب شيخ بغداد محيي الدين عبد القادر الجيلي رضي الله عنه كان شيخ السادة الشافعية والسادة الحنابلة ببغداد وانتهت إليه رياسة

العلم في وقته وتخرج بصحبته غير واحد من الأكابر وانتمى إليه أكثر أعيان مشايخ العراق وقال بإرادته جم غفير من ذوي الأحوال الفاخرة وتلمذ له خلق لا يحصون عددًا وكثرة من أرباب المقامات الرفيعة وانعقد عليه إجماع المشايخ والعلماء رضي الله عنهم بالتبجيل والإعظام والأحكام والرجوع إلى قوله والمصير إلى حكمه وقصد بالزيارات مع النذورات من كل قطر ورمى بالآمال من كل جهة وأهرع إليه أهل السلوك من كل فج عميق وكان جميل الصفات شريف الأخلاق كامل الأدب والمروءة كثير التواضع دائم البشر وافر العلم والعقل شديد الاقتفاء لكلام الشرع وأحكامه معظمًا لأهل العلم مكرمًا لأرباب الدين والسنة مبغضًا لأهل البدعة والأهواء محبًا لمريدي الحق مع دوام المجاهدة ولزوم المراقبة إلى الموت وكان له كلام عال في علوم المعارف شديد الغضب إذا انتهكت محارم الله سبحانه وتعالى سخي الكف كريم النفس على أجمل طريقة وبالجملة فلم يكن في زمنه مثله رضي الله عنه انتهى كلامه ملخصًا. وقال القاضي الأجل أبو بكر ابن القاضي موفق الدين إسحٰق بن إبراهيم المعروف بابن عبد الفتاح المصري يمدحه رضي الله عنه وأرضاه ونفعنا به بقوله:

ذِكر الإلٰه حياة قلب الذاكر ... فأمت به كيد الغرور الغادر

واذكره واشكره على إلهامه ... ذكرًا تعنت بالذكور الشاكر

وأعد حديثك عن ليال قد مضت ... بالإبرقين وبالعذيب وحاجر

سقيا لأيام العقيق وأهله ... ولكل من ورد الحمى من زائر

أخلى من الأمن استبان لخائف ... والوصل بعد تقاطع وتهاجر

أيام لا أقمارها محجوبة ... عنا ولا غزلانها بنوافر

وتعود أعيادي بعود رضاكم ... عني وتملأ بالسرور سرائري

ولقد وقفت على الطلول مسائلاً ... عن أهل ذاك الحي وقفة حائر

فأجابني رسم الديار وقد جرت ... فيه دموي كالسحاب الماطر

ذهبوا جميعًا فاحتسبهم واصطبر ... فعساك أن تحظى بأجر الصابر

وتزوّد التقوى فأنت مسافر ... وبغير زاد كيف حال مسافر

فالوقت أقصر مدة من أن تني ... فيه فسارع بالجميل وبادر

واجعل مديحك إن أردت تقربًا ... من ذي الجلال بباطن وبظاهر

للمصطفى ولآله وصحابه ... والشيخ محيي الدين عبد القادر

بحر العلوم الحبر والقطب الذي ورث الولاية كابرًا عن كابر
شيخ الشيوخ وصدرهم وإمامهم لب بلا قشر كثير مآثر
غوث الأنام وغيثهم ومجيرهم بدعائه من كل خطب جائر
تاج الحقيقة فخرها نجم الهدا ية فجرها نور الظلام العاكر
روح الولاية أنسها بدر الهدا ية شمسها لب اللباب الفاجر
صدر الشريعة قلبها فرد الطريـ ـقة قطبها نجل النبي الطاهر
ودليله الوقت المخاطب قلبه بسرائر وبواطن وظواهر
وهو المقرب والمكاشف جهرة بغيوب أسرار وسر ضمائر
وهو الممنطق والمؤيد قوله وله فتوح الغيب آية قادر
وله التحبب والتودد والرضا من ربه بمعارف كجواهر
سلك الطريق فأشرقت من نوره وعلومه كضياء بدر زاهر
وعلاه أعلى في المعالي رتبة وفخاره ما مثله لمفاخر
خلع الإله عليه ثوب ولاية وأمده من جنده بعساكر
فله الفخار على الفخار بفضله الـ ـوافي وبالنسب الشريف الباهر
وله المناقب جمعت وتفرقت في كل ناد ذا ثراء عامر
فابن الرفاعي وابن عبد بعده وأبو الوفا وعدي بن مسافر
وكذا ابن قيس مع علي مع بقا معهم ضياء الدين عبد القاهر
شهدوا بأجمعهم مشاهد مجده ما بين بادي فضلهم والحاضر
وأقر كل الأولياء بأنه فرد شريف ذو مقام ظاهر
وبأنهم لم يدركوا من قربه مع سبقهم علمًا غبار الغابر
كلا ولا شربوا إذن من بحره مع ريهم إلا كنغبة طائر
أصحابه نعم الصحاب وفضلهم بادي لكل مناضل ومناظر
وهم رؤوس الأولياء ومنهم إلا قطاب بين ميامن ومياسر
يا من تخصص بالكرامات التي صحت بإجماع ونص تواتر
وتناقل الركبان من أخبارها سيرًا حلت لمسامر ومسافر
لما خطوت وقلت ذا قدمي على كل الرقاب بجد عزم باتر
مدت لهيبتك الرقاب وأذعنت من كل قطب غائب أو حاضر

ونشطت حين بسطت فانقبضت كذا الأقطار بين معاضد ومناظر
وعنت لك الأملاك من كل الورى ما بين مأمور لهم أو آمر
وظهرت فضلًا واحتجبت جلالة وعلوت مجدًا فوق كل معاصر
وعظمت قدرًا فارتقيت مكانه حتى دنوت من الكريم الغافر
ورقيت غايات الولا مستبشرًا من ربك الأعلى بخير بشائر
وبقيت لما أن فنيت مجردًا وحضرت لما غبت حضرة ناظر
فشهدت حقًّا إذ دهشت مهابة وكذا شهود الحق كشفت بصائر
مدحي الطويل مقصر بمديده عن وصف بحرك العطاء الوافر
أعدت حبك بعد حب المصطفى والآل والأصحاب خير ذخائري
وجعلت فيك المدح خير وسيلة لله لا لإجازة كالشاعر
ورجوت من نفحات تربك نفحة يحيا بها في العمر ميت خاطري
ثم الصلاة على النبي المصطفى خير الورى من أول أو آخر
فلك الرسالة شمسها روح النبـ ـوة قدسها للحق أشرف ناصر
في حبه قل ما تشاء فقدره فوق النظام وفوق نثر الناثر
والعجز عن إدراكه إدراكه وكذا الهدى فيه فنون الحائر
الله أنزل مدحه في ذكره يتلى فماذا قول شعر الشاعر
ما في الوجود مقرب إلا به من مرسل أو من ولي شاكر
كل الخلائق والملائك دونه ما فوقه غير المليك القادر
صلّى عليه الله ما ابتسم الدجى عن جوهر الصبح المنير السافر

وهذا آخر ما تيسّر لي جمعه مما وقفت عليه من مناقبه ومناقب ذريته ومناقب السادة المشايخ الذين أثنوا عليه رضي الله عنه وعنهم بما يعرف الناظر في هذا الكتاب به محلهم مختصرًا إذ لا يحتمل أكثر من هذا، وليعلم أن الفضل بيد الله يؤتيه مَن يشاء والله ذو الفضل العظيم مع أنه لم يجتمع لأحد من المشايخ وأرباب الأحوال بعد الصحابة رضي الله عنهم من المناقب وأسباب المحامد ما اجتمع لسيّدنا وشيخنا الشيخ محيي الدين عبد القادر رضي الله عنه من العلم والعمل والحسب والنسب والمواهب والنِّعَم. اللّهمّ ببرقته عندك وبحرمته لديك ارزقنا صدق اليقين ولا تجعلنا ممن يأكل الدنيا بالدين واجعلنا ممن يؤمن بكرامات الأولياء والصالحين: والمرجو ممن طالعه

إسبال ذيل الكرم على ما فيه من الخلل وأن يصلح ما فيه من الزّلل فإني جمعته معترفًا بالعجز والتقصير مع التحيّر في تيه الدهشة والغرق في بحار الوحشة والابتلاء بالكربة في دار الغربة وقلة البضاعة في الصناعة سائلًا من الله تعالى أن يبصّرني بعيوب نفسي وأن يجعل يومي خيرًا من أمسي وأن يختم لي بخير وقت خروج نفسي وأن يثبّتني للجواب في رمسي وأن يجعلني من أصحاب اليمين ويحشرني تحت لواء سيّد المرسلين وأن يغفر لي ولوالديّ ولمشايخي ولأصحاب الحقوق عليّ ولإخواني ولجميع المسلمين ولمَن نظر فيه ودعا لي ولهم بالمغفرة والحمد لله ربّ العالمين، ولجامعه أحسن الله إليه.

وإن تجد عيبًا فأصلحه ولا ... تُبديه يأكل المنى بين الملا
جمعت ما فيه من مناقب ... والهمّ قد أثقل المناكب
أرجو من الله كشف ضرّي ... بجاه مَن خصّ بالمواهب
الشافعي المصطفى المفدّى ... وصحبه العشر والأقارب

قال جامعه أحسن الله إليه وأفاض في الدارين نِعَمه عليه ثم وكمل، والحمد لله وحده، وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا كثيرًا دائمًا إلى يوم الدين، ورضي الله تعالى عن كل الصحابة أجمعين.

تمّ بحمد الله

السّيف الرّبّاني

في عنق المعترض على الغوث الجيلاني

للإمام المحدّث محمّد بن مصطفى بن عزوز المكي الإدريسي

المتوفى سنة ١٣٣٤هـ

تحقيقه وتعليقه

أحمد فريد المزيدي

ترجمة مختصرة
للمصنّف

هو الشيخ الإمام المسند المُحَدِّث، المُقرىء، المُؤرِّخ، المجود، الفلكي، الفقيه الأُصولي، الأديب، المحقّق الصّوفي، الناظم: محمد المكي بن مصطفى بن محمد بن عزوز البرجي، النفطي، الحسني، الإدريسي.

وُلِد سنة ١٢٧٠ هـ بنفطة من أرض الجريد من أعمال تونس في ١٥ رمضان، وتعلّم بتونس، ووُلّي الإفتاء بنفطة، ثم قضاءها، وعاد إلى تونس، ثم رحل إلى القسطنطينية، فتولى تدريس الحديث في دار الفنون ومدرسة الواعظين، وتوفي بها في ٢ صفر سنة ١٣٣٤ هـ.

من آثـاره:

١ ـ رفع النزاع في بيان معنى التقليد والاتباع.

٢ ـ السيف الرباني في عنق المعترض على الغوث الجيلاني.

٣ ـ الهلال في بيان حركة الإقبال في الميقات.

٤ ـ المسألة المهمة في سبب اختلاف الأئمة.

٥ ـ المفاخرة بين الصيف والشتاء.

وانظر: الأعلام للزركلي (٧/ ٣٣٠، ٣٣١)، ومعجم المؤلفين لكحالة (٣/ ٧٣٣).

هذه رسالة موسومة بالسيف الرباني في عنق المعترض
على الغوث الجيلاني تأليف العالم الفاضل
سلالة الأفاضل البارع الغطريف حائز
قصب السبق في التآليف الزكي
الشيخ السيد محمد المكي ابن
الأستاذ سيدي مصطفى
ابن عزوز نفعنا
الله ببركاته
آمين

صورة غلاف المخطوط

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم

حمدًا لمَن أنار بصائر العارفين، وجعلهم على أقدام الأنبياء والمرسلين ومن ذلك جعل لكل وليّ عدوًا كما جعل لكل نبي عدوًا من المجرمين، اصطفاهم، فأحبّ مَن أحبّهم وعادى مَن عاداهم، قال غيرة عليهم وهم أهل العناية والقرب: «مَن عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب»، والصلاة والسلام على المصطفى سيّد العالمين، وقائد الغرّ المحجلين، القائل: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»[(1)]، المورث السيادة لآله المتجلّين في القرآن بتاج الطّهر، المؤذن حديثه الشريف بأن الطعن في الأنساب كفر وعلى آله الأشراف، رغمًا لمن حاد عن الإنصاف، غرقًا في حمأة الضلال والاعتساف، صلاة وسلامًا يكونان لنا حصنًا من سوء العقيدة وحسد المعتدين، وعونًا على ما نقصده من إظهار الحق والذّبّ عن علياء الدين، أما بعد...

هذه رسالة موسوعة بالسيف الربّاني في عنق المعترض على الغوث الجيلاني، تأليف العالِم الفاضل سلالة الأفاضل، البارع العطريف، حائز ـ قصب السّبق في التأليف ـ الزكي الشيخ السيد محمد المكي ابن الأستاذ سيدي المصطفى بن عزوز نفعنا الله ببركاته آمين.

فيقول: الفقير إلى الله المستعين بالله محمد المكي بن مصطفى بن عزوز من الله عليه بالتوفيق، وجعله في الدارين من أسعد فريق جاء في يومٍ بعض الإخوان يتنفس الصعداء، بارك الله في عمره ونظمه في سلك السعداء، برسالة طاعته في نسب

---

(1) رواه مسلم (٤/ ١٧٨٢)، والحاكم (٢/ ٦٦٠)، وابن حبان (١٤/ ١٣٥)، والضياء في المختارة (١/ ١٢٢)، (٩/ ٤٥٥)، وأبو عوانة في المسند (١/ ١٥٢)، وأبو نعيم في المسند المستخرج (١/ ٢٦٩)، والترمذي (٥/ ٣٠٨)، وأبو داود (٤/ ٢١٨)، وابن ماجه (٢/ ١٤٤٠) وبنحوه.

الإمام، علم الأعلام، عمد العارفين، وناظورة الأصفياء من الأولياء والعلماء العاملين، غوث الدائرة، وسن كراماته باقية في سائر المعمور سائرة، صاحب المنهج السيني، الشيخ أبي محمد بيدي عبد القادر الجيلاني الحسني رضي الله عنه، ونفعنا ومحبينا بالمدد المفاض منه تنفي اتصاله بالأصل النبوي، والشرف المصطفوي، خلع صاحبها عذار الحياء، حيث أعماه الجهل أو الحسد أو الريا، بل زاد على نفي الشرف، فأتاه به في سباخ التلف، يحاول حط ما لذلك الإمام من المقامات السنية، جاحدًا رئاسته القطبانية، مكذبًا بنفوذ تصرفه الشهير، وما تواتر من خوارق كراماته على لسان كل جليل وحقير، ساحبًا ذيل ذمة على أعراض أولاده وأحفاده، وخواص أتباعه المبلغين جواهر إرشاده، مؤولًا إفاداته النفسية بما يجانس إفهامه الخسيسة، وأكبر ما أغاظه وشواه، قوله: «قدمي هذه على رقبة كل ولي لله»، زاعمًا برسالته الانتصار للشريعة المحمدية، وهو هادم لها بهضم رجالها ذوي المساعي الزكية، فانزعجت انزعاجًا بقدر ما لدي من الإيمان واليقين، وكيف لا ينزعج المؤمن وقد رأى هضمًا في جناب محيي الدين، وقمت قيام من يدافع لصًا هاجمًا بالظلم، وقلت شُلت يد لم تضرب عنق هذا الباغي بسيف العلم، فاستخرت الرحمٰن، واستشرت شيخنا فخر الزمان، الأستاذ العلامة. الناشر للدين المحمدي أعلامه، الولي الكامل الغطريف، سيدي محمد بن أبي القاسم الشريف ـ بارك الله في حياته ـ ونفعنا بأسراره وطيب نفحاته، بعدما حكيت له ذلك، ووصفت له ظلمات ورقاتها الحوالك، فقال قد اقشعر جلدي من هذا الكلام فدونك والذب عن ذلك الإمام، وأطلق لي الإذن في التأليف ودعا لي بالإعانة، وتحصيل السداد وصواب الإبانة، فيسر الله ما رمناه، ووافى طبق ما قصدناه، وإن لم أكن أهلًا لذلك، ولكن تأييد الله يسهل وعور المسالك، وقد كنت قبل ورودها شرعت في رسالة لطيفة [١/ق] في مناقب الإمام الجيلي يطلب من بعض الإخوان، عاملهم الله بالرضوان، فلما وردت هذه صرفت عن تلك عنان القلم وإن كان في سعي صالح، وقلت: من قواعد الدين درء المفاسد أولى من جلب المصالح.

واعلم بأن الغيث ليس بنافع ... ما لم يكن للناس في إبانه

وتركت تآليف أخرى كانت في يدي أعدها نافعة حاملة، وعند أوان الفرض لا يشتغل بالنافلة، أما اسم مؤلف الرسالة على ما في خطبتها فهو علي بن محمد القرماني الحنفي ولا حاجة لنا بتعرف ترجمته، وكنه حاله ورتبته، إذ الكلام مع الكلام، كما يقوله بعض مشايخنا الأعلام، وقد سمى رسالته «الحق الظاهر في شرح

حال الشيخ عبد القادر» والمناسب أن تسمى «الباطل الظاهر في إساءة الأدب مع الشيخ عبد القادر»، وعدد صفحاتها نحو الأربعين أو نيف، وقسمها إلى بابين الأول، في نسب الشيخ وعشيرته، والثاني: في حال طريقته. ومن خطبه تخليطه لكلام موضوع البابين فلم يقف عند حد التبويب لجهله بصناعة التأليف وقصوره عن حُسن الترتيب مع خيانات في النقول، يبدل ويغير ويحذف ما يكون حجة عليه من المنقول، يأول التأويل البعيد، وربما افترى على كتاب ما ليس فيه أو يزيد، ولعله ظن أن رسالته لا يطّلع عليها إلّا العامة أو من هم على شاكلته ممن التهمتهم تلك العقيدة الطامة.

يا أم غيلان نوم الليل معك حلا   في سير بادية لو فارق الخطر

وربما ضم قشورًا ينمقها وشقاشق يلفقها، وكيف يروج الزيف والبصراء هم نقاد البضاعة، ولن تزال طائفة الحق ظاهرين إلى قيام الساعة، ولقد أجاد مَن قال فأفاد:

إذا حمل الفصيحُ فلا تهبةُ   فتلك الاستعارة مستعارة
وصل بالدين والعرفان تلقى   فصاحته انتهت من غير غارة

ولو يفتح باب القدح في أئمة الدين والعلماء الهادين للزم فصم الشريعة عروة عروة، فإن لم تهتك صلحًا هتكت عنوة، كما قاله الأُستاذ سيدي إبراهيم الرياحي. هذا وأرجو الله أن لا أحيف، ولا أسود بالتحامل ولا بالمغالاة وجه هذا التصنيف، وأن يجعله بالقبول ملحوظًا، ومن همز ولمز الحسد محفوظًا، وسميته «السيف الرباني في عنق المعترض على الغوث الجيلاني» بادئًا كلام الرسالة بقَال المعترض، وفاتحًا تعقبي له بأقوال حاذفًا أكثر قشوره المكررة، وإطناباته الفارغة، ولم أهمل من اعتراضاته شيئًا أو كلمة، معترفًا بعجزي وقصوري بين أيدي العلماء. والله المستعان، به الاعتصام وعليه التكلان، ومنه أسأل العفو عما جنى به القلم أو اللسان.

[الباب الأول
في نسب الشيخ وعشيرته]

قال المعترض: بعد اسم الشيخ وهو بجيلان يعرف بسبط أبي عبد الله الصومعي وغاية ما قيل في أبي عبد الله هذا أنه من زهاد جيلان ومشايخها هذا ما ذكر في شأنه الشيخ علي الشطنوفي صاحب بهجة الأسرار، الكتاب الذي هو أول مصنف في شأن الشيخ عبد القادر وسيرته وصار أم الدواهي لما اشتمل عليه من النقول المكذوبة، والأخبار المخالفة للشريعة. أقول: لم يتحر في نقله عن صاحب البهجة؛ لأن صاحب البهجة قال: من جُلة مشايخ جيلان، ورؤساء زمانهم فاقتلع كلمتين من مضافيهما كما تقتلع الشجرة من تربتها أو الهامة من جنتها، وهاتان الكلمتان وهما جُلة ورؤساهما زبدة الترجمة، كما اختلس من البهجة بقية ترجمة الصومعي من كراماته ومكاشفاته ووقع المغيبات التي أخبر بها، وحضوره في البلاد القاصية عيانًا لمن استغاث به عند هجوم اللصوص، كما هي عادة من خرق الله لهم العوائد من أكابر الصالحين وعمد الأولياء، وقد ترجم أيضًا للصومعي جماعة من العلماء. وعدم تحري هذا المعترض في هذا النقل دليل على عدم أمانته، والعلم أمانة. فمن هنا وهي أول عبارة له لاح بارق العصب وسبب نقله كلام البهجة في الصومعي اختصار ترجمته؛ لأنه يستدل بعدم الإطناب في تراجم الفضلاء على نقصهم كما يفهم من قوله الماضي، وغاية ما قيل في أبي عبد الله وسيأتي له نحو ذلك، وقد جهل أو تجاهل أن من أسباب الاختصار الاعتماد على الشهرة، وأيضًا لا يبعد أنه يشير به إلى نفي شرف الصومعي لا سيما وموضوع الباب، نفي شرف سبطه الجيلي، فالصومعي شريف حسيني رغمًا على المعترض كما ذكره غير واحد من العدول والثقات، هذا لفظ الشيخ علي قاري، فالإمام [٢/ق] الجيلي حسني من جهة الأب حسيني من جهة الأم ونسبه الحسيني هو أن أُمَّهُ السيدة فاطمة أم الخير أمة الجبار بنت أبي عبد الله الصومعي بن أبي جمال الدين محمد بن محمود بن أبي العطاء عبد الله بن عيسى كمال الدين بن أبي علاء

الدين محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط رضي الله عنه وعنهم أجمعين. وأما ذمة كتاب البهجة فسيأتي الكلام فيه، وإنما حضرني بيتان هنا حيث وصفها ذمًّا بأم الدواهي وهما:

في بهجة قال غساو ... للذم أم الدواهي
أجل فذو السقم يشفى ... بها فأم الدواهي

وقوله: هو أول مصنف في شأن الشيخ خطي، فإن صاحب البهجة في المائة الثامنة، وقد صدرت قبل عصره تآليف في مناقب الجيلي منها أنوار الناظر للشيخ الإمام مفتي العراق أبي بكر عبد الله بن نصر بن حمزة البكري البغدادي، وهو من أصحاب الشيخ نفسه في المائة السادسة، وكذا مما سبق (البهجة نزهة الناظر) للشيخ الفقيه المحدث أبي محمد عبد اللطيف بن هبة الله الهاشمي البغدادي، وهو من أشياخ صاحب البهجة ولا يبعد وجود غيرهما ممن لم نعرفه. والله أعلم.

ثم قال المعترض ناقلًا قول ابن الأثير في تاريخه في حوادث سنة ٥٦١ وفيها في ربيع الآخر توفي الشيخ عبد القادر بن أبي صالح أبو محمد الجيلي المقيم ببغداد ومولده سنة ٤٧٠ وكان من الصلاح على حال وهو حنبلي المذهب ومدرسته ورباطه مشهوران ببغداد. أقول: ساق كلام ابن الأثير تنقيصًا لمقام الإمام الجيلي استدلالًا بقلة ترجمته وبالضرورة لا نقص في ذلك لإيجازه المبنى عليه تاريخه كما ترى فيه تراجم أكابر الأمة كالإمام مالك، والإمام أبي حنيفة، والإمام الشافعي، والإمام أحمد، والإمام البخاري والإمام مسلم صاحبي الصحيحين، وسيد الطائفة الجنيد والشبلي، وحجة الإسلام الغزالي، والإمام السهروردي، والقطب أحمد الرفاعي، فتراجم هؤلاء كلها ليس في أحدها ما يتجاوز سطرين بل أكثرها لم يتجاوز سطرًا واحدًا، وترجمة الإمام الجيلي على ما فيها من الإيجاز أبسط من جميعها على أن عبارة ابن الأثير في قوله: «كان من الصلاح حال» بعد مذاقها على هذا المعترض إن لم يكن متجاهلًا للتعظيم المستفاد من التنوين والاشتمال المفهوم من على الاستعلائية وغير ذلك.

إذا لم يكن للمرء عين صحيحة فلا غرو أن يرتاب والصبح مسفر، بل صرح ابن الأثير بوصف عظمة حاله رضي الله عنه في رواية أبي الغداء في تاريخه عنه في وفاة الجيلي قال: قال ابن الأثير استدلالًا بعدم ذكره شرف الجيلي: فبجوابه: أن

إيجاز ابن الأثير لا يذكر معه نسب كما في تراجم غير الجيلي من الأشراف والبكريين وغيرهم. وحيث كان الإمام الشافعي الذي هو واسطته ومُقلده في الدين لم يسعه إيجازه أن يذكر نسبه القرشي القريب الاتصال بسلسلة النبي ﷺ، فكيف ينظر فيه نسب غيره ودونك نص ابن الأثير في حوادث سنة ٢٠٤ قال: وفي هذه السنة مات الإمام محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه، وكان مولده سنة خمسين ومائة. اهـ.

على أن سكوت المؤرخين على نسب المترجم له لا يستدل به على نفي النسب عند العقلاء.

ثم نقل المعترض من تاريخه ابن النجار والسمعاني، والغرض الاستدلال بعدم ذكر الشرف. وما قلناه يكفي في رده ومراده أيضًا فله الترجمة على ما هو مبتلى به من تنقيص أعظم الأولياء وإن كان ما نقله مدحًا ولم يتفطن لعبارة ابن النجار في الجيلي وهو قوله: «أحد أئمة المسلمين العاملين بعلمهم»، ثم هذا الناقل لا يؤتمن فيما حذف وهو غير أمين، فلا يبعد أن المحذوف ثناء رفيع إذًا لو كان فيه غير رفيع الثناء لذكره كما يعرفه من تتبع نقولاته.

ثم قال المعترض: وقال ابن كثير في تاريخه المشهور عبد القادر بن أبي صالح أبو محمد الجيلي دخل بغداد فسمع الحديث واشتغل به حتى برع فيه، ثم قال: وكان يتكلم على الناس ويعظهم وله أحوال ومكاشفات، وقد صنف كتاب الغُنية، وفتوح الغيب وفيهما أشياء حسنة، ولكن ذكر فيهما أحاديث كثيرة موضوعة. ـ أقول: مراده التنبيه بأن في الغنية وفتوح [٣/ق] الغيب أحاديث كثيرة موضوعة عازيًا ذلك لتاريخ ابن كثير. وجوابه أن هذا التاريخ ليس جميع ما فيه مقبولًا، قال في «كشف الظنون في هذا التاريخ»، وهو ممن جمع بين الحوادث والوفيات، وأجود ما فيه السيرة النبوية، وقد أخل بذكر خلائق من العلماء. اهـ. ثم الحديث الموضوع يعرف بإقرار واضعه وبقرائن يدركها من له ملكة قوية في الحديث واطلاع تام هكذا صرحوا في دواوين المصطلح، وقد اعترف ابن كثير نفسه أن الجيلي اشتغل بالحديث حتى برع فيه مع شهادته له بالصلاح. وقد نقل المعترض سابقًا قولهم أحد أئمة المسلمين العاملين بعلمهم مسلمًا ذلك فكيف يلتبس الحديث الموضوع بغيره على مثل ذلك الإمام، أم كيف يتساهل في ذكره في تآليفه. سئل ابن حجر الهيتمي رضي الله عنه عن خطيب ينقل الأحاديث من غير أن يعزوها هل يجوز له ذلك؟ فأجاب بأن ما ذكره في

خطبته من الأحاديث من غير أن يبين رواتها أو من ذكرها جائز بشرط أن يكون من أهل المعرفة في الحديث أو ينقلها من كتاب مؤلفه كذلك، وأما الاعتماد في رواية الأحاديث على مجرد رويتها في كتاب ليس مؤلفه كذلك، فلا تجوز ومن فعله عزر. اهـ. ينقل شيخ المحققين محيي السنة والدين الشيخ عليّ العدوي رحمه الله في حاشيته على شرح ألفية المصطلح. قلت: والإمام الجيلي بإجماع من جهابذة الأمة إنه من أكبر العلماء الجامعين بين الشريعة والحقيقة على أن الحكم بأن هذا الحديث مثلًا موضوع أمر ظهر للحافظ القائل بوضعه وقد يصح من طريق آخر كما نبه عليه علماء الفن، وقد وقع الغلط في ذلك لابن الجوزي رحمه الله مع استهاره بين المحدثين، فإنه صنف كتاب الجامع نحو مجلدين في بيان الموضوعات وأودع فيه كثيرًا من الأحاديث الضعيفة التي لا دليل على وضعها بل ربما أودع فيها الحسن والصحيح. قاله ابن الصلاح. قال عمدة الأعلام شيخ الإسلام زكريا قدس سره ما نصه: والموقع له في ذلك استناده غالبًا لضعف راوي الحديث الذي رمى بالكذب مثلًا غافلًا عن مجيئه من وجه آخر. اهـ. والإمام السيوطي رحمه الله قال: وفي كتاب ولد الجوزي ما ليس من الموضوع حتى وهما:

من الصحيح والضعيف والحسن ضمنته كتابي القول الحسن
ومن غريب ما تراه فاعلم فيه حديث من صحيح مسلم

وقال سيدي عبد الوهاب الشعراني رضي الله عنه قول من قال لا ينزل الملك إلا على النبي، أما الولي فيلهم غلط، والحق أن الملك ينزل أيضًا على الولي لكن ينزل عليه بالاتباع لنبيه بإفهام ما جاء نبيه به مما لم يتحقق علمه، كحديث قال العلماء يضعفه مثلًا، فيخبره ملك الإلهام بأنه صحيح، وقد وقع ذلك للشيخ الأكبر الإمام الحاتمي صحح أحاديث بالباطن، وقد ضعفها علماء الظاهر وامتحن لأجل ذلك من علماء عصره. اهـ. باختصار، فبان بهذا أن مثل الإمام الجيلي إذا روى أحاديث في تآليفه لا نقدم على القول بأنها موضوعة، ومن الحكمة قول الراجز:

فحارب الأكفاء والأقرانا فالمرء لا يحارب السلطانا

ثم نقل المعترض تعريف ابن حماد الموصلي للشيخ سيدي عبد القادر في تاريخه، وهي ترجمة حسنة لولا ختامها بنفي نسبه الشريف ولأجل نفي النسب تجشمها هذا المعترض، ومن هنا أنساب كحاطب ليل في جلب ما يبطل نسب هذا

الإمام الحسني وأطال في تسويد الصحائف من ذلك وغيره بما نعوذ بالله من اعتقاده على وفق مراده.

والأحاديث الواردة في النَّهي عن الطعن في الأنساب كثيرة منها ما في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اثنتان في الناس هما بهم كفر الطعن في النسب والنياحة على الميت»[1]. وأخرج السيوطي في جامعه للطبراني في كبيره قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من الكفر بالله شق الجيب ـ أي عند المصيبة ـ والنياحة ـ أي على الميت ـ، والطعن في النسب». وقد عزا ابن حجر في الزواجر تخريج هذا الحديث لابن حبان والحاكم في صحيحه. قلت: ولا يخفى أن الكفر هنا مؤول بتغليظ التحريم وتشديد الوعيد أو هو على ظاهره لمن استحل ذلك كما في شروح الحديثين للنووي والأُبي والسنوسي وغيرهم، وقال: المناوي في شرح قوله: الطعن في النسب: أي الوقوع في أعراض الناس بنحو القدح في نسب ثبت في ظاهر الشرع، وأخرج السيوطي للبيهقي عن النبي [٤/ق] ﷺ إنه قال: «خمس هن من قواصم الظهر: أي مهلكات، عقوق الوالدين، والمرأة يتأمنها زوجها تخونه، والإمام يطيعه الناس ويعصي الله عزَّ وجلَّ، ورجل وعد عن نفسه خيرًا فأخلف، واعتراض المرء في أنساب الناس». اهـ.

وفي شروح المختصر الخليلي من قال لعربي يا فارس لزمه حد القذف لأنه قطع نسبًا. وفي الحديث الشريف أن القذف يحيط عمل مائة سنة، هذا كله وعيد الطعن في الأنساب مطلقًا فما بالك بأنساب الأشراف ثم فما بالك بأنساب أكابر الأولياء من الأشراف، والاعتراض عليهم والوقوع في أعراضهم بالدعاوي الواهية والأغراض النفسانية. روى البخاري في حديث عن النبي ﷺ أن الله تعالى قال: «من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب: أي أعلمته أني محارب له»[2]. وفي رواية له: «من أهان لي وليًا فقد بارزني بالمحاربة». قال ابن حجر الهيتمي في كتاب الكبائر: هذا الوعيد لا أشد منه إذ محاربة الله تعالى للعبد لم تذكر إلا في أكل الربا ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٧٩]، ومعاداة الأولياء ومن

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٨٢)، وأبو نعيم في المسند المستخرج (١/ ١٥٣)، وابن الجارود في المنتقى (١/ ١٣٦).

(٢) رواه البخاري (٥/ ٢٣٨٤)، والقضاعي في الشهاب (٢/ ٣٢٦، ٣٢٧)، والطبراني في الأوسط (١/ ١٩٢).

عاداه الله لا يفلح أبدًا، بل لا بد والعياذ بالله من أن يموت على الكفر عافانا الله من ذلك بمنّه وكرمه.

ثم نقل عن الحافظ ابن عساكر أنه قال: اعلم يا أخي وفقك الله وإيانا، وهداك سبيل الخير وهدانا، إن لحوم العلماء مسمومة، وعادة الله في هتك منتقصهم معلومة، ومن أطلق لسانه في العلماء بالثلب بلاه الله قبل موته بموت القلب، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم.اهـ. وقال شيخ مشايخنا على الأولياء في ماله أو بدنه أو ولده، بل يكون بقساوة قلبه وسوء خاتمته والعياذ بالله.اهـ. نسأل الله أن يحفظنا من مظلات الفتن ما ظهر منها وما بطن ثم ملخص ما سوّد به هذا المعترض صحائفه، وزعم أنها أدلة قاطعة في عدم اتصال نسب الشيخ بالبيت النبوي «نقولات» ملأ بها عدة صفحات، جعاجع مؤلفة، وأباطيل مزخرفة، عزاها لإناس نسابين، وآخرين مؤرخين، يبلغ عدد جميعهم نحو أحد عشر، وحاشا الفضلاء من جحود الواقع الذي تواتر واشتهر، زعم أنهم مصرحون بذلك، والله أعلم بما هنالك، والباطل لا يصير أمام الحق.

إذا جاء موسى وألقى العصا فقد بطل السحر والساحر

والعمل في هدم ما بناه على غير أساس، صحيح أننا نذكر أولًا كتب علماء النسب التي صرحت باتصال النسب الجيلي بالجناب الحسني، ثم نثني عنان القلم إلى إثباته فقهًا، ثم نرجع لتشبع الشبه الزائفة في كلامه جملة جملة، إلا ما كرره، فكما قيل: الضرب لواحدة ضرب لبقيتهن.

اعلم هدانا الله وإياك سواء الصراط، ووقانا وإياك بمنه مواقع الأغلاط، إن شرف الشيخ سيدي عبد القادر نفعنا الله به واتصال نسبه بسيدنا الحسن السبط رضي الله عنه صرح به النسّابون، والمحققون البارعون وكلهم يذكره بصيغة الجزم. ولنذكر من عرفناه منهم رحم الله جميعهم.

الأول: العلّامة التهامي العلمي الحسني في كتابه المسمى (شذر الذهب في خير نسب) فإنه قال في شرفاء بغداد: ثلاثة جموع وعد الجيلانيين أحد الثلاثة. قال: وجدهم سيدي عبد القادر الجيلاني لا يخفي نسبه رضي الله عنه حسني.اهـ. من شدة تحري هذا المؤلف أخرج قبائل من الشرف في المغرب كانوا ينتسبون إلى الشرف.

الثاني: الإمام أحمد بن محمد بن جزي الأندلسي الغرناطي الشهير في كتابه: (مختصر البيان في نسب آل عدنان)، صرح بأسماء النسب الجيلي إلى الحسن السبط.

الثالث: صاحب جوهرة العقول في ذكر آل الرسول، وهو العلامة النسابة الشيخ عبد الرحمٰن بن عبد القادر الفاسي، ولم يذكر فيها إلا الأشراف المجمع على شرفهم، كما نبه على ذلك وكان تأليفه لها بإذن والدة شيخ الجماعة.

الرابع: الحافظ ابن حجر العسقلاني في الغبطة.

الخامس: العلامة ابن عرضون بنقل علامة المغرب الشيخ سيدي محمد فنون.

السادس: مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي.

السابع: مرآة المحاسن للعلامة النسابة الشيخ محمد العربي الفاسي، قال: ما نصه وبفاس أيضًا الشرفاء القادريون من بني القطب سيدي عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه، ونسبتهم إليه ثابتة إلى أن قال وهو رضي الله عنه عبد القادر بن أبي صالح موسى، وذكر النسب المعروف.

الثامن: في أنساب القرطاس ذكر نسبه إلى الحسن السبط.

التاسع: الإمام النسابة ابن فرحون [٥/ق] في كتابه المسمى الاعتبار، وتواريخ الأخبار والتعريف بالنسبة إلى النبي المختار، وليس هو إبراهيم الفقيه المعروف بل اسم هذا علي وهو صاحب كتاب (ذم الخبائث).

العاشر: العلامة النسابة ابن الطيب في نظمه المسمى بالأشراف على نسبة الأقطاب الأربعة الأشراف، والأربعة هم المذكورون في قوله بعد استفتاح النظم:

هذا نظام لعمود نسب الأربع الأقطاب أهل الرتب
الشيخ عبد القادر الجيلاني وابن مشيش مفرد الإيمان
والشاذلي الكامل الوصول وابن سليمانهم الجزولي

الحادي عشر: الشيخ محمد بن عبد الرحمٰن الفلسي في المنح البادية ولا تخفى براعته في تحرير الأنساب، وقد عد في المنح علم الأنساب من علومه التي منحه الله بها وله فيها إجازات من أهل ذلك العلم.

الثاني عشر: مشجر الشيخ مراد البغدادي.

الثالث عشر: نتيجة التحقيق في بعض أهل النسب الوثيق للشيخ المسناوي، وهو من أهل التحرير والضبط في أنساب الأشراف، وصوب في بعض تآليفه غلطات في مرجع أنساب بعض الأشاهر.

الرابع عشر: الشيخ محمد بن قاسم القصار، قال المسناوي: وقفت عليه في غير ما تقييد بخطه وكان رحمه الله ممن يعتمد عليه، ويرجع في هذا الباب إليه لشدة بحثه عنه ومزيد اعتنائه به، ورسوخ علمه ومتانة دينه وأطال الثناء عليه، لا سيما في تحرير النسب الشريف إلى أن قال: قال شيخ الجماعة سيدي عبد القادر الناس في حق الشيخ القصارُ بعد الثناء عليه بالتحقيق في العلوم: أنه كان عارفًا بأنساب الأشراف محققًا في ذلك لا يقاومه أحد إذا تكلم فيها ولا يقاربه.اهـ. قال الحافظ التنسي في نظم الدر والعقيان عند الكلام على موسى الجون جد الإمام الجيلي، ثم إن الله تعالى جعل البركة في عقبه فملك منهم ثلاث طوائف: بنو الأخيضر ملوك اليمامة، والهواشم، وبنو أبي عزيز ملوك مكة، وفي بني ابن عزيز بقي ملك مكة إلى الآن.اهـ باختصار. فكتب الشيخ القصار على كلام التنسي المذكور عاطفًا على الملوك المشار إليهم ما نصه والبركة الكاملة والنعمة الشاملة سيدنا عبد القادر الجيلاني صاحب الملك الحقيقي والخلافة القطبانية وكم في ذرية سيدنا عبد القادر من الأخيار.اهـ. قلت: وأبو عزيز المذكور هو قتادة الذي أجاب الخليفة الناصر حين كتب له يعاتبه على عدم وفوده له إلى بغداد، فكان جوابه:

ولي كف ضرغام إذا ما بسطتها ... بها اشترى يوم الوغى وأبيع
معوده لثيم الملوك لظهرها ... وفي بطنها للمجدبين ربيع
أأتركها تحت الوهن وأبتغي ... بها بدلًا إني إذًا لوضيع
وما أنا إلا المسك في أرض غيركم ... أضوع وأما عندكم فأضيع

الخامس عشر: مشجر العالم الشيخ محمود بن عباد الأندلسي.

السادس عشر: مشجر العالم الشيخ علي بن عبد الوهاب الشامي.

السابع عشر: مشجر الشيخ عبد الواحد الدانشريسي.

الثامن عشر: مشجر العلامة إمام أهل الورع في زمانه الشيخ رضوان بن عبد الله.

التاسع عشر: العالم الشيخ عبد الواحد بن أحمد الحميدي.

العشرون: رقيم الشيخ علي الصقلي الحسني هاته الكتب الستة الأخيرة اطلع عليها المحقق المسناوي، ونقل منها ما يشفي الغليل، ولولا الإطالة لجلبناه مستوفي.

الحادي والعشرون: النسابة العارف الشيخ أبو التوفيق المليحي المصري في كتابه (سرور القلب).

الثامن والعشرون: كتاب الدور السني في بعض من بفاس من أهل النسب الحسني.

الثالث والعشرون: ابن الوردي في تاريخه.

الرابع والعشرون: الحافظ علي بن سلطان القاري المكي.

الخامس والعشرون: صاحب نور الأنصار في مناقب آل البيت النبي المختار ولا يخفى ما لهذا المؤلف من الاعتناء بأنساب آل البيت وتفريعهم واتصال سلاسلهم المباركة.

السادس والعشرون: الحافظ النسابة الشيخ عبد الله بن طاهر السجلماسي حيث سأله بعض معارفه الفاسيين قائلًا له: يا سيدي إني أحب الأشراف فعلى من تدلني منهم بفاس. فقال له: على الشرفاء القادريين، فإن بعض من له الصيت بها والشهرة في الشرف، وسمي بعض المشاهير بها ليس لهم من صحة النسب ما لهم. اهـ.

السابع والعشرون: شجرة الأنساب تلخيص العالم سيدي علي بن موسى الجزائري. [٦/ ق].

الثامن والعشرون: المشجر المحمدي وقد وقفت على النسخة الأصلية منه وعليها كتابات الموافقة والاعتراف بصحة ما فيها من نحو سبعة وأربعين من نقباء الأمصار ونسَّابي الأقطار منهم العلامة الولي الشهير سيدي أبو الغيث القشاش التونسي، والسيد أحمد المكي نقيب السادة الأشراف بيافا والسيد محمد علي نقيب القدس الشريف، وسيدي علي عزوز وغيرهم. وبعضهم بأختامهم مع خطوطهم هذا آخر ما اطلعت عليه من كتب النسَّابين، ثم أعضدها بأقوال من صرح أيضًا بشرف الإمام الجيلي من المؤرخين، وأصحاب الطبقات والمناقب من العلماء والعارفين فنقول:

التاسع والعشرون: جامع علمي الظاهر والباطن القطب الرباني سيدي عبد الوهاب الشعراني في طبقاته.

الثلاثون: العالم الكبير العارف الشهير سيدي أحمد زروق الفاسي.

الحادي والثلاثون: الشيخ الصفدي.

الثاني والثلاثون: العفيف المبارك صاحب الفتح الرباني.

الثالث والثلاثون: الأستاذ ابن بامخرمة.

الرابع والثلاثون: الشيخ مراد الشاذلي في الفتح الكامل.

الخامس والثلاثون: الشيخ علي بن يوسف المبي.

السادس والثلاثون: الشيخ نور الدين الجامي في نفحات الأنس.

السابع والثلاثون: أنس الجليس شارح بن باديس.

الثامن والثلاثون: الإمام عبد الله اليافعي اليمني.

التاسع والثلاثون: الحافظ الذهبي بنقل المسناوي عنه.

الأربعون: الأستاذ عبد الرزاق ابن الإمام الجيلي في فاتحة فتوح الغيب. قال: قال والدي أبو محمد محيي الدين عبد القادر بن فلان إلى الحسن السبط بل قال في محل آخر سألت والدي عن نسبه فأجابني بأنه ابن فلان بن فلان... الخ. قلت: نقلت هنا عن الشيخ عبد الرزاق إبطالًا لقول المعترض أن هذه النسبة لم ينه بها الشيخ ولا أبناؤه، وإنما هي من الأحفاد.

الحادي والأربعون: العلامة الجامع سيدي أحمد بن المبارك اللمطي صاحب الإبريز.

الثاني والأربعون: كتاب جامع الأصول الشهير.

الثالث والأربعون: الشيخ المحيي في خلاصة الأثر في ترجمة السيد نعمة الله من سلالة الجيلي.

الرابع والأربعون: الإمام العارف بالله ذو الصبابة في الحضرة النبوية سيدي عبد الرحيم البرعي، ذكر ذلك في قصيدة له ربانية متوسلًا فيها بالحضرة النبوية ورجال الخرقة الجلية مطلعها:

لكل خطب مهم حسبي الله ... أرجو به الأمن مما كنت أخشاه

إلى أن قال بعد ذكر أبي سعيد شيخ الإمام الجيلي:

ومنه في الشيخ عبد القادر ابتهجت ... طلائع الفضل نورًا في محياه

كالشمس تسفر من أقصى مطالعها حسنًا وكالبدر ملء العين مرآه
وكالغمام إذا استمطرته كرمًا وكالصبا خلقًا إن رق مهواه
من آل فاطمة الزهراء ذو شرف أتى به الدهر فردًا عن مثناه
على جلالته أنوار هيبته كالسيف إن راق حسنًا رق مرآة

الخامس والأربعون: الشيخ الجبرتي في تاريخه في ترجمة السيد عبد الخالق المصري حفيد الجيلي.

السادس والأربعون: سيدي محمد المنلا التونسي.

السابع والأربعون: القلائد للشيخ ابن يحيىٰ التادفي.

الثامن والأربعون: تفريج الخاطر للمقدس الأربلي.

التاسع والأربعون: الشيخ ذو الأنوار والكرامات الغزاز سيدي محمد بن إسماعيل الكيالي الحلبي في رسالته، وهو ممن حصل المشارب السفية من الطريق القادرية والشذلية والرفاعية والنقشبندية مقدم في جميعها بشهادة خمسة وسبعين من الأعلام.

الخمسون: الشيخ محمد عيسى القيرواني.

الحادي والخمسون: العالم ذو الأذواق الصوفية الشيخ محمد الأمين الكيلاني التونسي في المواهب الجلية.

الثاني والخمسون: القطب الكامل سيدي عبد الله باعلوي اليمني.

الثالث والخمسون: ابن فضل الله صاحب سالك الأمصار.

الرابع والخمسون: ابن شاكر في تكملته.

الخامس والخمسون: الشيخ ابن الزكي.

السادس والخمسون: سيدي مصطفى البكري.

السابع والخمسون: العلامة اليفرني.

الثامن والخمسون: الإمام ابن الأزرق.

التاسع والخمسون: سيدي عبد السلام الأسمر.

الستون: الإمام المنزلي.

الحادي والستون: نفحة الرحمٰن للعالم الرباني السيد أبي بكر شطا المكي.

الثاني والستون: الشيخ عيسى التجاني في شرح استغاثته صرّح بنسب الجيلي عند قوله في النظم:

مـولاي عـبـد الـقـادر الـجـيـلانـي عونًا على ذي خسة أطماني [٧/ق]

قلت: فهؤلاء اثنان وستون شيخًا من أفاضل الأمة وأعيانها، وفيهم الأولياء العظام والعلماء الفخام، من أكابر الأقطار، وعمد الأمصار، كلهم مطبقون على ثبوت نسب الجيلاني الشريف، ليس فيهم من أشار إلى خلاف فيه ولو لقول ضعيف، بعضهم تلقى ذلك من الدفاتر العتيقة في النسب، وبعضهم استفاد من التواتر الذي يستحيل معه الكذب، وبعضهم أخذه من كشفه الصحيح، زيادة على ما لأهل الظاهر من الإثبات الصريح، فهل يبقى بعد إجماعهم ما يخامر العقل من ارتياب. ومن أراد الاطلاع على كتبهم المشار إليها فالعرب بالباب. وأما حكم النازلة فقهًا، فإن النسب يثبت بشهادة السماع والاستفاضة على الألسنة الغير المحصورة، وهذا الحكم اتفقت عليه مذاهب الأئمة الأربعة، حتى محيط دائرة السنة المحمدية.

أما النص عليها في مذهبنا المالكي فهو معلوم في شروح المختصر الخليلي والتحفة وغيرها. وأما الأئمة الثلاثة على ذلك الحكم، فهو مسطور في دواوينها، ومن أراد تخفيف المطالعة فقد صرح به عالم المذاهب ومحققها مداركها سيدي عبد الوهاب الشعراني في الميزان الكبرى، فالإمام أبو حنيفة يعمل بالاستفاضة على الألسنة في خمسة أشياء منها النسب والإمام الشافعي في ثمانية منها: النسب. والإمام أحمد في تسعة منها النسب، والمذهب المالكي في تسعة عشر منها النسب فهو متفق عليه عند جميعهم.

قال المحقّق التسولي في شرحه على التحفة ما نصه: قيل لابن القاسم: أيشهد بأنك ابن القاسم من لا يعرف أباك، ولا إنك ابنه إلا بالسماع؟ فقال: نعم يقطع بهذه الشهادة، ويثبت بها النسب والإرث ابن رشد لا خلاف في هذا لأن الخبر إذا انتشر أفاد العلم... الخ انظره إن شئت، فقد أطال بما يؤيد ذلك.

وقال أيضًا في محل آخر يعمل بالسماع في النسب ولو في الشرف. اهـ.

والأنساب تحاز كما تحاز الأملاك كما قاله الإمام مالك بنقل الأجهوري في فتاويه والناس، فصدقون في أنسابهم كما قاله سيدي خليل في التوضيح وأيده الإمام ولي الدين بن خلدون في مقدمته في إثبات الشرف، وقد أفتى في مثل هذه النازلة شيخ أشياخنا عالم البسيطة سيدي إبراهيم الرياحي رئيس الشورى المالكية بالقطر

الإفريقي برسالة نقل فيها عن الأعلام أن الناس مصدقون في أنسابهم ولو في الشرف، وحكم بوجوب الحد على من نفى نسبًا ثابتًا ونقل في ذلك نصوصًا متينة عن المدونة وغيرها وختمها بقوله: «ولعله هذا القدر كاف لمن اكتحلت بصيرته بنور التوفيق». وإن كان نطاق الإحاطة بتفاصيل النازلة بضيق. اهـ.

ولنرجع لتتبّع كلام المعترض ـ وإن كان سقط كله بما مر لنا من إثبات النسب الشريف لأن التصريح بما حذفت إليه أنظار الإفهام، أنجح تأثيرًا في مسح غبار الأوهام.

قال المعترض: وذكر ابن حماد الموصلي عند ترجمة عبد الله بن محمد بن يحيىٰ الحسني الذي نسبوا إليه الشيخ عبد القادر أنه توفي بالمدينة ودفن بالبقيع ليلًا عام ٤٥٠، وقال: الشريف الأفطس توفي عام ٤٦٠ وعمره دون العشرين وكذلك قال ابن ميمون النسابة وغيره.

وذكروا أن القاضي أبا صالح نصر بن عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر نسب جده الشيخ عبد القادر لعبد الله بن محمد، فقال: هو عبد القادر بن جنكي دوست بن عبد الله، ثم قالوا: ولم يقم على هذه الدعوى بينة ولا ادعاها الشيخ عبد القادر، ولا أحـ من أولاده، وبرهنوا بالأدلة القاطعة أن النسل لعبد الله بن أحمد بن يحيىٰ لا لعبد الله بن محمد بن يحيىٰ، الذي انتسبوا إليه.

أقول: من خيالاته التي نصبها في إبطال هذا النسب الشريف أنه أدخل في سلسلة نسب الجيلي اسمًا، وقال هو عبد القادر بن أبي صالح موسى بن عبد الله بن محمد بن يحيىٰ لينقل من الكتب التي يسميها أن عبد الله بن محمد المذكور لم يعقب، والحال أن نسب الإمام الجيلي ليس فيه عبد الله بن محمد، وإنما والد الجيلي هو أبو صالح موسى بن عبد الله بن يحيىٰ. . . الخ.

وليس في كتب النسّابين التي عيّنت سلسلة نسب الجيلي ذكر عبد الله بن محمد، أما البعض من تلك الكتب التي كنا ذكرنا أسمائها. فقد صرحت باتصاله بالحسن السبط من غير تعيين سلسلته المباركة.

وأما ما ينيف على الثلاثين مؤلفًا منها، فهي التي عينت أسماء أجداده إلى الحسن، وكلهم قالوا: هو عبد القادر بن أبي صالح موسى جنكي دوست بن عبد الله بن يحيىٰ الزاهد بن محمد بن داود [٨/ق] أبي موسى بن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط، ولا يشكل

ما في البهجة موسى بن أبي عبد الله بن يحيىٰ؛ لأن كلمة أبي هنا من سبق قلم المؤلف أو الكاتب لأن الشيخ الشطنوفي لم يقل موسى بن عبد الله بن أبي عبد الله فيوافق ما افتراه هذا المعترض، وقد قال الشيخ القصار في بعض رسائله لابن عرضون بعد كلام وما زال الغلط يقع في الأنساب والتواريخ حتى يقبض الله تعالى من ينبه على ذلك. اهـ.

والاتفاق التام بين النسابين والمؤرخين أن موسى أبوه عبد الله بن يحيىٰ، كما اتفقوا كلهم وصاحب البهجة معهم إن بين الجيلي والسيدة فاطمة الزهراء أحد عشر أبًا، فهذا الأب الثاني عشر أدمجه هذا المعترض توصّلاً لمشتهاه - لأبلغه الله مُناه - فمن ذلك قول ناظم أنساب الأقطاب الأربعة المشار إليه سابقًا والنظم حارس نفسه بطبعه:

اعلم بأن الشيخ عبد القادر ... سلطان أقطاب الورى الأكابر

له تضمن عمود النسب ... أحد عشر والدًا إلى النبي

هو ابن موسى نجل عبد الله ... ولد يحيىٰ الزاهد الأواه

ابن محمد بن داود ابن ... المرتضى موسى الجون ذي الأنباه

وهو ابن عبد الله ذاك الأسنى ... الكامل ابن الحسن المثنى

ابن الإمام الحسن ابن فاطمة ... وابن علي ذي المعالي القائمة

ومن ذلك قول صاحب نتيجة التحقيق - في بعض أهل النسب الوثيق - بعد ذكره نسب الجيلي ما نصه فبينه وبين بضعة رسول الله ﷺ أحد عشر أبًا، اتفق الناقلون لعمود هذا النسب من المؤرخين وغيرهم على أنه كما ذكرناه وطبق ما سطرنا، كالحافظ الذهبي في تاريخه الجامع للأعيان، وسبط ابن الجوزي في مرآة الزمان والشطنوفي في بهجته، وابن حجر في غبطته وغيرهم من الأئمة الأعيان المرجوع إليهم في هذا الشأن. اهـ.

ومما يفيدنا في ضبط رجال النسب الكريم أنه كان في سنة ١٢٩٦ نظم النسب الذي في نتيجة التحقيق صاحبنا العالم البليغ البارع الشيخ محمد السنوسي التونسي في قصيدة نفيسة قرظ بها الكتاب المذكور مطلعها:

روض زها حُسْنًا بكل وريق ... وأسالَ في في الزهر عذب الريق

أمسى به البكري يسدي كل ما ... قد طاب منه بغاية التحقيق

ومحل الحاجة منها قوله:

مولاي محيي الدين عبد القادر ابـ ـن القوم موسى الأوحد المنطيق
ذا نجل عبد الله نجل الفذ يحيىٰ الزاهد بن محمد الصديق
هو نجل داود بن موسى نجل عبد الله معطي الخير كل فريق
ذا نجل موسى الجون نجل الكامل الـ ـمرتضى عبد الله غوث الضيق
نجل الرضا حسن المثنى نجل ذا ك السبط مرتضع أعز الفيق
أعني الخليفة سيدي الحسن الذي ضاهى بحسن الفضل خير شقيق

فإذا علمت تلبيس المعترض واختلاق الأساس الذي بنى عليه ما بنى ظهر لك سقوط ما بناه، وتلاشى ما ادعاه، وافتضح افتضاح التمام عند المقابلة، والفاعلة الحبلي عند امتحان القابلة، ومما بناه على كون عبد الله بن محمد أبًا لموسى والدجيلي، وكونه مات سنة ٢٤٥٠ وسنة ٤٦٠ في المدينة وعمره دون العشرين تضييقه لزمان إمكان التناسل؛ لأن ولادة الجيلي سنة ٤٧٠ وإبعاده عبد الله بن محمد عن جيلان، ومع هذا كله لا يخرج من حيز إمكانه عقلًا ولا عادة، فالعشرون سنة بل والخمس عشرة سنة يكون معها النسل، ولذلك قالوا في قول ابن خلدون: إن القرن الواحد يكون فيه ثلاثة آباء يعني في الغالب، فقد يكون أقل وقد يكون أكثر ذكر ذلك المؤرخ النسابة الشيخ أحمد بن عبد القادر الحسني في رسالة له، وقال: إن يزيد بن معاوية حج بالناس على رأس المائة الأولى وبينه وبين عبد مناف خمسة آباء وعبد الصمة بن علي بن عبد الله بن عباس حج بالناس على رأس المائة الثانية وبينه وبين عبد مناف خمسة آباء، ومثل ذلك واقع كثيرًا فتعين تأويل قاعدة ابن خلدون أي بالنظر إلى الغالب. وفي دواوين الفقه النسب يثبت استلحاقه بما لا يكذبه العقل ولا العادة على أننا لا حاجة لنا بهذا لعدم وجود عبد الله بن محمد في نسب الإمام الجيلي.

وقوله إن القاضي أبا صالح نصر بن عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر نسب جده لعبد الله بن محمد كذب هذا المعترض [٩/ق] نفسه في رسالته الواحدة، فقد قال بعد نحو ثلاث صفحات ما نصه: «إن النسبة التي ادعاها نصر بن عبد الرزاق كتب فيها أن أباه عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر بن أبي صالح جنكي دوست موسى بن عبد الله بن يحيىٰ بن محمد، والذي صح عند علماء هذا الشأن كافة إن عبد الله الذي نسبوا إليه جنكي دوست هو ابن محمد وعبد الله هذا ابن محمد هو المعروف بابن

الرومية لم يعقب، وإنما الذي عقب أخوه يحيىٰ بن محمد، فمن اختلاقه الأسماء والإلحاق بالعقيم أنكرت النسبة المذكورة. اهـ.

فانظر هذا التناقض الصراح في كلامه الدال على أنه لم تبق شبهة في افترائه، ثم انظر إلى الحمق العجيب حيث يقول لذي نسب يدلي بنسبه ينبغي لك أن تدّعي الانتساب لفلان الفلاني لنعترض عليك بأنه ما أعقب ولا دخل بادكم، قلت: ولولا إشفاقنا على بعض ضعفاء العقول أن يزاغ باتباعه ما كان ينبغي الاعتناء بمسوداته ولا اعتبارها مبحوثًا فيها لكن لا ينبغي السكوت لمن يستطيع الكلام لقوله ﷺ: «إذا ظهرت البدع ولعن آخر هذه الأمة أولها فمن كان عنده علم فلينشره، فإن كاتم العلم يومئذٍ ككاتم ما أنزل على محمد»[1]. رواه ابن عساكر قال شارح الحديث: أي فيلجم يوم القيامة بلجام من نار.

وفي حديث آخر: «إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حل بها البلاء إذا كان المغنم دولًا، والإمامة مغنمًا والزكاة مغرمًا، وأطاع الرجل زوجته وعق أمه، وبر صديقه، وجفا أباه، وارتفعت الأصوات في المساجد، وكان زعيم القوم أرذلهم وأكرم الرجل مخافة شره، وشربت الخمور، ولبس الحرير، واتخذت القينات والمعازف، ولعن آخر هذه الأمة أولها فليرتقبوا عند ذلك ريحًا حمراء أو خسفًا أو مسخًا»[2]. رواه الترمذي ـ قال شراح الحديث في قوله: «ولعن... الخ»: أي لعن أهل الزمن المتأخر السلف. اهـ[3]. ورحم الله الحكيم القائل:

ما لاق فيه عدم الفضول فلا يليق عنده مقولي
نعم إذا رأيت أعمى قد خطا في حرف بير صحت والصمت خطا

وقوله: «ولا ادّعاها الشيخ عبد القادر ولا أحد من أولاده».

أقول: الآن قال حقًا وإن لم يقصده، لأنهم ما ادعوا الانتساب إلى عبد الله بن محمد الذي جعله هدفًا لإفكه، بل انتسبوا إلى عبد الله بن يحيىٰ كما مر فقوله: ولا ادعاه... الخ كلمة حق أُريد بها باطل.

---

(١) رواه الربيع في مسنده (١/ ٣٦٥).

(٢) رواه الترمذي (٤/ ٤٩٤)، والطبراني في الكبير (١٨/ ٥١)، وفي الأوسط (١/ ١٥٠). قال أبو عيسى: حديث غريب! لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وفي الباب عن علي رضي الله عنه.
وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٦٥)، رواه في الكبير وفيه بقية بن الوليد، وهو ثقة لكنه مدلس، وبقية رجاله موثقون.

(٣) انظر: تحفة الأحوذي (٦/ ٣٧٧)، وفيض القدير للمناوي (١/ ٤٠٩).

ثم قال المعترض: إن الشيخ عبد القادر لم يدَّع هذا النسب ولا أحد من أولاده، وإنما ادعاه أولاد أولاده، ويكفيهم من بطلانهم أنهم ينسبون جنكي دوست إلى عبد الله بن محمد، وعبد الله رجل حجازي لم يسافر عن الحجاز أبدًا ولا ينبغي أن يسمي ولده بهذا الاسم لأنه عربي، وهذا الاسم عجمي.

أقول: بل ذكر الشيخ عبد الرزاق ابن الإمام الجيلي نسبه الشريف ـ كما مر ـ بل الشيخ والده نفسه كان يقول في أثناء كلامه رضي الله عنه: قال جدي رسول الله ﷺ: أو كان جدي ونحو ذلك على أن أحفاد الجيلي علماء راسخون وأتقياء ورعون، وأكابر بالله عارفون كيف يصدر منهم الانتساب إلى غير أصلهم، أم كيف يسكتون إذا تقول ذلك ذووا أرحامهم مع ما هم عليه من الكلمة النافذة والاحترام والمنعة، ولولا خوف الإطالة لجلبنا أسمائهم بالثناء الذي أثنى عليهم به العلماء المنصفون، ثم اعتمدنا في هذا المجال على ما حققه علماء النسب الذين ذكرناهم سابقًا.

وقوله: في عبد الله بن محمد لا ينبغي أن يسمى ولده باسم جنكي دوست أقول: عبد الله بن محمد لسنا ناسبين له والملقب باسم جنكي دوست موسى المولود في العجم وهو ولد عبد الله بن يحيىٰ، ونرى هذا المعترض كثيرًا ما يطن ذبابته بأن الشيخ عجمي استدلالًا لبطلان كونه قرشيًا كما صرح به في مواضع، ولم يعلم المسكين إن سكن بلدًا ينسب إليه قال شيخ الإسلام زكريا: ولا حد للإقامة المسوغة للنسبة بزمن وإن حده بعضهم بأربع سنين.

قال محشيه سيدي علي العدوي عن بعض حواشي النخبة أن مجرد الدخول ولو على سبيل التجارة أو الزيارة مسوغ لذلك. اهـ.

فالشيخ سيدي عبد القادر رضي الله عنه سبق له في سكنى جبلان جدان أو أكثر فكيف يستدل بنسبته أعجميًا على عدم شرفه إن هذا الجهل مبين أو خيانة في الدين.

وقوله: لم يسافر من الحجاز أبدًا تعبيره بابدأ هنا دل على قصوره وأنه ليس من العلماء المستحقين للاعتبار. وكذا قوله ـ فيما يأتي ـ لا نسبة له بأهل البيت النبوي أبدًا، لأن أبدًا طرف لما يستقبل من الزمان [١٠/ق] عكس قط، فيقال لا يسافر أبدًا: أي في المستقبل ولم يسافر قط: أي في الزمان الماضي.

ثم قال المعترض: وإن هذه الجرأة لقوية بلا مرية، فإن الأمر الذي لا خلاف فيه بين أهل التاريخ والنسب أن الشيخ من أكابر صوفية زمانه ومن أعيان زهاد عصره ولا نسبة له بأهل البيت النبوي أبدًا.

أقول: قوله وإن هذه الجراءة لفرية بلا مرية الآن أيضًا، قال: حقًا وأي جرأة مثل جرأة هذا المعترض في نفيه الشرف عن الشيخ سيدي عبد القادر. وقوله: فإن الأمر الذي لا خلاف فيه. . .الخ، هذا باطل فإنك سمعت إثباته من أهل التاريخ والنسب مفصلًا.

ثم قال المعترض وقال به: أي بشرف الجيلي جماعة من البلد والمغفلين المتمسكين بطرقة الشيخ عبد القادر.

أقول: بل قال به العلماء والأفاضل النبهاء من سائر الطرق الربانية والمذاهب السنية وقد سمعت أسماءهم، فإن كان أولئك الأعلام هم البلد المغفلين، فليس في الأمة من يعتمد عليه.

ثم قال المعترض: كتب القاضي أبو صالح نصر بن عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر إلى الشريف ابن ميمون النسابة يطلب منه إدخاله مشجره بين آل الحسن السبط رضي الله عنهم، فكتب لهم جوابًا بما نصه السلام عليكم ورحمة الله أما أنت فعرفناك قاضيًا، وأما أبوك عبد الرزاق فهو رجل فقيه صالح، وأما جدك الشيخ عبد القادر فهو شيخ صوفي تقي يتبرك به ويطلب صالح دعائه، وإنما نسبه فكما أنت أطلقت في بعض كتبك بشتيري ينتهي إلى بشتر «بطن من الهرامزة بفارس»، فاتق الله ودع الهاشمية لأهلها والسلام.اهـ.

بهذا قال الفيروزبادي فإنه قال في القاموس ما نصه: (البشتيري هو شيخ الإسلام عبد القادر بن أبي صالح الجيلي كذا نسبة حفيده القاضي أبو صالح الجيلي).

أقول: على فرض طلب حفيد الجيلي من ابن ميمون إدخاله في مشجر آل الحسن السبط، فقد طلب حقًا له ويبعد كل البعد أن يجحده فاضل، وينفي نسبه الشريف، والقاضي أبو صالح كان من أشاهر العلماء وقد زين الحافظ ابن حجر العسقلاني فهرسته بالرواية عنه، وافتخر في كتابه الغبطة بالقرب منه وقلة الوسائط بينهما، فقال عند ذكر أبي صالح من الثقات المسندين وقد وقعت لنا عنه الرواية بعلو: أي بثلاث وسائط، كما أن العلامة النقادة الولي سيدي أحمد مرزوق الشاذلي الطريقة سنده القادري عن الخضرمي عن يحيىٰ الجيلي عن والده أحمد عن والده عماد الدين أبي صالح نصر بن عبد الرزاق عن والده عبد الرزاق عن الجيلي، وأخذها جهابذة الأسانيد من هذا الطريق وافتخروا بها كما ذكره كتب الفن ومعلوم تشديد زرّوق على الصوفية، ودقة نقده لهم، وقد جعل القاضي أبا صالح وسيلة له فكيف

يقبل في مثل أبي صالح الذي هو أصل لمدد كثير من العلماء والأولياء أنه ينتسب لغير نسبه ويريق ماء محياه لابن ميمون في إدماج ذكر بيته في الأشراف صنع الأدعياء حاشاه من ذلك، ولكن إذا لم تستح فاصنع ما شئت.

وأما نقله عن القاموس بنصه فهو الداهية الدهياء والطامة العمياء، حيث افترى افتراء لا يخفى ونص القاموس البشتيري بالضم، وهو شيخ عبد القادر بن أبي صالح الجيلي، كذا نسبه حفيده القاضي أبو صالح الجيلي. اهـ.

فزاد هذا المفتري كلمة بين المضاف وهو شيخ والمضاف إليه وهو عبد القادر وجعله شيخ الإسلام عبد القادر ليعتقد السامع أن الإمام الجيلي بشتيري، والحال أن البشتيري شيخ للجيلي كما نسبه حفيد الإمام أبو صالح.

وما كان الظن أن يبلغ خيال الحسد بصاحبه إلى حد الانسلاخ عن الأمانة والحياء هكذا وبهذه الفضيحة تعرف أن لا أصل لطلب أبي صالح حفيد الجيلي من ابن ميمون أن يدخله في مشجر الأشراف، ولا وقع جحود من ابن ميمون بشرف الجيلي.

وادّعاء أنه بشتيري ولو قالها على الفرض من يوصف بالفضل، فهو في ميزان صاحب هذه الرسالة؛ لأن الجيلي ليس ببشتيري لكن هذا الناقل بتلك الدنية أحرى، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: الآية ١٦٤] وستأتي خياناته في كتب أخرى، «كعوارف السهروردي، والجواهر للشعراني، والفتوحات للحاتمي»، وحيث كشف الله حاله في الكتب التي بين أيدينا فقد ترجح أنه يغير النقول من الكتب التي لم تشتهر، ولعل أكثرها أسماء بلا أجسام (كالحارث بن همام)، ومن اطلعت له على سيئة فعنده لها أخوات، ولذلك حكم بعض الأئمة على من صدر منه التدليس في رواية الحديث [١١/ق] مرة واحدة إنه مدلس دائمًا في إبهاماته. قال الحافظ العراقي في باب التدليس من ألفيته «والشافعي أثبته بمرة»: ومن ثبت زوره في بعض شهاداته سقطت الشهادة كلها.

وفي رسالة البحث والتدقيق للشيخ يحيىٰ الشاوي عن عبد الرحمٰن بن مهدي قال: سألت شعبة وابن المبارك والثوري ومالك بن أنس عن الرجل يتهم بالكذب، فقالوا: انشره: أي أشهر كذبه فإنه دين. اهـ.

ونقل صاحب المعيار عن ابن خلدون أن القدح في النسب ممن لا يرجعه دينه ولا معرفة بالأنساب يعدّ من اللغو ولا يلتفت إليه. اهـ. نسأل الله السلامة التامة والعافية العامة.

ثم قال المعترض: وقال الحافظ الكبير مفتي الثقلين تقي الدين الواسطي في كتابه (ترياق المحبين في طبقات خرقة المشايخ العارفين) عند ذكر الشيخ عبد القادر أن الشطنوفي المصري نسبه في البهجة إلى الإمام الحسن السبط، قال: أي الواسطي: ولم يعترف بهذه النسبة أحد من علماء النسب وأطال بذلك رحمه الله.

أقول: من شأنه في جميع الرسالة تفخيم، وتجلية الجماعة الذين يعزو إليهم مشتهاه من الصدود عن جلالة سيدي عبد القادر، والإطناب بالدعاء لهم وانتقاص مقام الأعلام المعترفين بقدر الإمام وهذا كله شرار الحسد يتطاير من مناخر قلمه.

وقوله: لم يعترف بهذه النسبة أحد من علماء النسب بل مجمع على ثبوتها كما في (جوهرة العقول في ذكر آل الرسول) للعلامة الشيخ عبد الرحمٰن الفاسي وقد تقدم ذكره، وكذا نص على الإجماع في ثبوت هذا النسب الشيخ علي القاري. وفي سرية الجيش:

ولا اعتداد بحسود لاهٍ   يريد أن يطفىء نور الله

ثم قال المعترض: فلا طريق لإثبات هذا النسب إلا بالبينة العادلة وقد أعجزت القاضي أبا صالح واقترن بها عدم موافقة جده الشيخ عبد القادر وأولاده له.

أقول: لا أعدل من البينة التي ذكرناها، حكي أن امرأة شريفة فقيرة وقفت بباب بعض المسلمين تسأل ما تقتات به، وتقول إني شريفة، فقال لها صاحب المنزل: أين بينتك على الشرف، فرأى في منامه القيامة قامت وعطش، فأتى لحوض النبي ﷺ وطلب من النبي ﷺ أن يسقيه، وقال: إني مسلم، فقال ﷺ مجيبًا له: وأين بينتك على إسلامك، فقام من نومه مرعوبًا.

وقوله: اقترن بها عدم موافقة جده انظر لهذا التعبير الموهم أن الشيخ عبد القادر نفاها، والحال أنه يعني لم يذكرها الشيخ، وقد قدمنا أن الشيخ رضي الله عنه وأولاده نطقوا كلهم بنسبهم الشريف وعلى فرض أن الشيخ لم ينقل عنه فلا يدل على عدم نسبته الحسنية وغالب المتفاخرين بهما في هذه الدار ليعتمدوا عليها في اكتساب جاه أو مال، وأما من لا نظر له إلى ذلك، إما لاغتنائه أو لزهده، فالأقرب عدم تحدثه بها إلا إذا سئل عن نسبه، على أن الحكم الشرعي عدم انتفاء النسب عن النبيين إذا نفاه أبوهم تصريحًا؛ لأنه ليس حقًا له مختصًا به حتى يسقطه وهنا ناسب أن نذكر فتوى المعيار للمحقق الشهير أبي العباس أحمد الونشريسي وهو خزانة المذهب.

قال: سئل الفقه القاضي أبو علي الحسن بن عثمان الوانشريسي عن جماعة شهد لأبيهم بالشرف ومات أبوهم فبقوا بعده منتسبين بالشرف حائزين له نحو عشرين عامًا أو أكثر، ثم قام عليهم منازع برسم يقتضي أن أباهم المشهود له بالشرف كان يقول ما أنا شريف، ومن قال أنا شريف فأنا خصمه، غدا بين يدي الله فهل يبطل ذلك شرف النبيين أم لا؟

فأجاب: بأن شرف أبيهم ثابت وشرف نسله كذلك لا يقدح فيه ما أشهد به على أنه ليس شريفًا، إذ قد يقول ذلك لعذر له وليس هذا من الحقوق التي له إسقاطها لا في حق نفسه ولا في حق غيره، والأنساب تثبت بمجرد الدعوى والحيازة فكيف بالبينة العادلة. اهـ. ملخصًا من نحو أربع صفحات سؤالًا وجوابًا.

ثم قال المعترض: وعبد الله هذا ابن محمد لم يعقب وإنما الذي أعقب أخوه يحيىٰ بن محمد.

أقول: تقدم لنا أن عبد الله هذا ليس مذكورًا في أجداد الجيلي فما علينا منه أعقب أم لم يعقب فهو في غير بنائنا، وإنما جد الجيلي هو يحيىٰ بن محمد الذي اعترف هنا بأنه أعقب، وقد بينا سبب إدماج هذا المعترض عبد الله بن محمد في سلسلة الجيلي، وقد حصر النسابون كلهم أجداد الجيلي [١٢/ق] أحد عشر، وهذا ثاني عشر زاده هذا المتهور ليطفىء به ما أضرم حسده.

ثم قال المعترض: على أن الاختلاف بين المؤرخين واقع باسم والد الشيخ عبد القادر فما ظنك برجال نسبه؛ لأن المؤرخين منهم من قال: عبد القادر بن صالح، ومنهم من قال: ابن جنكي دوست موسى، ومنه من قال: عبد الله، ومنهم من قال: ابن يحيىٰ، ومنهم من قال: ابن أبي صالح.

أقول: هذا تلفيق لا يجدي فإن والد الشيخ اسمه موسى وكنيته أبو صالح ولقبه جنكي دوست، ومعناه العظيم القدر، وهذا ليس باختلاف وما زاده من الأسماء الله أعلم هل قالها بعض المغفلين من المؤرخين أم لا، ويبعد كل البعد وقوع الشك لعالم معتبر في اسم والد الجيلي، ويقرب أن هذيانه هذا يريد به التنقيص لمقام الإمام الجيلي.

أمُّ الحليس لعجوز شهربه ترضى من اللحم بعظم الرقبه

على أن الاختلاف في اسم والد الشيخ بخمسة أقوال ليس بنقص فيه ولا في والده، فقد اختلف في اسم أبي هريرة صاحب النبي ﷺ على نحو ثلاثين قولًا

وأشهرها بعد الله أو عبد الرحمٰن كما في العيني شارح البخاري وغيره وهو عريف أهل الصفة المكثر من رواية الحديث وشيخ كثير من الصحابة كابن عباس وجابر وغيرهما رضوان الله عليهم جميعهم.

ثم قال المعترض: ولو كان ذلك: أي ثبوت النسب لما سكت عن ذكره ابن الجوزي في تاريخه، وابن السمعاني وغيرهما من المشايخ المكرمين.

أقول: هذا ليس بحجة كما هو ظاهر بل ولو نفيا النسب المشار إليه فقد سمعت كلام الأعلام المثبتين له والمثبت مقدم على النافي كما هو مقرر في كتب الأصول.

ثم قال المعترض: ولا يمكن أن يكتمها علماء النسب الذين دونوا المبسوطات والمشجرات الكثيرة.

أقول: لم يكتموها كما نقلناه عنهم ثم تعبيره بلا يمكن تعبير عامي يعني به يبعد أن يقع، كذا والعلماء لا يرضون بتسويد وجوه تآليفهم بمداد الجهالة لا سيما المنتصبين للبحث والنضال الرادين بفهمهم كلام أكابر الرجال.

ثم قال المعترض: نعم أشار بعض المتأخرين وهم أقل من القليل اتباعًا للشطنوفي صاحب البهجة فذكروا ما يفيد أن الشيخ نسبًا لأهل البيت.

أقول: ظن بعقله الجامد أن القائمين بصحة شرف الشيخ لا يستدلون إلا بكتب المناقب وهو مخطىء في ظنه، فمؤلفات النسابين التي صرحت بشرف الشيخ لا اعتماد فيها على غير علماء النسب كما هو شأن تآليف الأنساب والمشجرات، وليس في سطر منها نقل عن الشيخ الشطنوفي بل بعضهم سابق في التاريخ وبعضهم معاصر له يبعد أن يتبعه كالأندلسيين وقوله وهم أقل من القليل ضروري البطلان بما مرّ.

ثم قال المعترض: وإمامًا تكلفه السيد سراج الدين الرفاعي المخزومي قدس سره في كتابه صحاح الأخبار من التأويلات بشأن نسب الشيخ قدس سره حتى آل تأويله إلى أن قال على لسان بني الشيخ:

إن فاتنا نسب النبي ولادة فلنا له نسب من الأرواح

فهذا لا يكون حجة لأخذ الحقوق التي شرعها الشارع الكريم عليه صلوات البر الرحيم وخصها بأهل بيته عليهم السلام.

أقول: والنسب الروحي ثابت أيضًا للإمام الجيلي باعتراف هذا المترامي وهما أعني النسبين الروحاني والجسماني جناحا ذلك الغوث الأعظم اللذان طار بهما مطارًا خير الأفكار.

وفي الزروقية ما نصه قاعدة إثبات الحكم بالذات ليس كإثباته بعوارض الصفات، فقوله عليه السلام سلمان منا أهل البيت لإنصافه بجوامع النسب الدينية حتى لو كان الإيمان بالثريا لأدركه، وقد قيل في قوله عليه السلام: «الأقربون أولى بالمعروف» إنه يعني إلى الله إذ لا يتوارث أهل ملتين فالمعتبر أهل النسب الديني وفرعه مجردًا ثم إن إنصاف إلى الطيني كان له مؤكدًا، فلا تلحق رتبة صاحبه بحال، وبذا أجيب عن قول سيدنا الشيخ عبد القادر ـ رحمه الله تعالى ـ قدمي هذه على رقبة كل ولي لله؛ لأنه جمع من علو النسب وشرف العبادة، والعلم ما لم يكن لغيره من أهل وقته. اهـ.

وقول المعترض: عليهم السلام عند ذكر آل البيت نزغه رافضية إذ لا يقال عليهم السلام لغير الأنبياء والملائكة استقلالًا كما هو محقق في كتب أهل السنة؛ ويشبه أن يكون المؤلف رافضيًا لأنهم هم القادحون في نسب هذا الإمام لقول الشيخ علي قاري في شرف الجيلي ما نصه متواتر صحيح ثابت ظاهر كظهور الشمس في [١٣/ق] رابعة النهار لا يقبل الحجة والنزاع والتأويل والدفاع كما عليه الإجماع رغمًا للمبتدعة الرافضة أهل الزيغ والنفاق والحسد والشقاق. حفظنا الله والمسلمين من كيد الحاسدين الضالين المضلين الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله وهو أرحم الراحمين، فلا حاجة لإقامة الدليل على هذا النسب الشريف الواضح البرهان الثابت البينان المشهور في كل مكان كما قال الشاعر:

وليس يصحّ في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

انتهى. ثم قال المعترض: وإن أنساب بني هاشم يقصر عنها طمع الطامع ورحم الله ابن المظفر فإنه قال بشأن هذا النسب المذكور:

إذا كان الأعاجم من قريش فما فرق العبيد عن الموالي

أقول: إنها لعجرفة تورده شر الموارد، وقد انشرح صدري لقصيدة من بحر هذا البيت، ورؤيه جوابًا له وإياه أعني إذ عزو البيت لمن ذكره وادعاه أنها في النسب المذكور مرتاب والناقل غير أمين والمرء مجزيٌ بعمله فقلت:

عجبت لذي احتجاج بالمحال يحاول خفض سادات الرجال

ومن خذلانه والغي يعمى يؤمل فصم نسبة خير آل
بتلفيق وبهتان وزور وما بعد العيان من احتمال
وعجرفة تناهى في مداها فآذى أهل حضرة ذي الجلال
وفي الإيذاء إيذان بحرب نعوذ بربنا من ذا الخبال
مركب جهله ومن اقتفاه ضلال في ضلال في ضلال
وقولك من أعاجم لست تدري وقول الحق يعلو كل عال
بأن الساكنين القطر حينًا له يخمسون قصد الاحتلال
وقد ملؤوا الصحائف فاستضاءت من الشرف المحصن بالكمال
بأن القادري الغوث فرع لسبط محمد أصل المعالي
بنظم أصوله في سلك عقد يقصر دونه عقد اللآلي
أمثلك يا قصير الباع يرجى لتحقيق المسائل بالنضال
منصات العلوم لها فحول عن القصرا بعيدات المثال
أتحسب أن غور العلم دان لم استغررت أن الجو خال
أمثلك يا ضعيف العقل أهل لفهم كلام أقطاب أعال
وتعترض الأكابر في علاهم بدعوى العلم في ذاك المجال
كنابح بدرتم في دجاه ووزغ نافخ قنن الجبال
وفرق بين تاج في الثريا وترب تحت أطباق النعال
أتطمع يا أعيرج أن تجاري كماة في مقدمة الرعال
أتدخل يا معنى في مضيق حسبت ظلامه مأوى الظلال
فكنت كباحث حتفًا بظلف يكل لدفعة كل احتيال
تبارز سيد الأبطال لكن مجانين الحماقة لا تبالي
أمعنى القطب تعرفه فتنفي نفوذ الحكم منه على الأعالي
أمعنى القرب تدركه مذاقًا فتبطل عنهم الفخر الدلالي
متى قرعت يداك بباب سر متى سهرت جفونك في الليالي
متى انكشفت لقلبك من زوايا علا الملكوت أقمار الحجال
متى أكرمت يومًا بالتجلي لدى الحضرات في أهل الوصال
متى اكتحلت عيون منك يقظى برؤية أحمد عين الجمال

متى فاضت عليك علوم غيب ... فتفهم ما سمعت من المقال
وحيث ظواهر التصنيف غابت ... عليك فأين باطنها الجلالي
تزاحم بالمناكب أهل علم ... وهل كالشمس مرمى الذبال
لئن لم يشفع الجيلي فضلًا ... لدى الرحمٰن فيك أخا الوبال
لتبصر من عقاب الله قسطًا ... تفوق به فريق الاعتزال
وذا إن لم تكن منهم وإلّا ... فابشر بالنكال على النكال

ثم قال المعترض: ما ملخصه من نحو أربع صفحات إن الذي ادعى الهاشمية من أحفاد الشيخ عبد القادر هو الركن عن السلام بن عبد الوهاب ابن الشيخ، ووصفه هذا المعترض بالزندقة والاتهام في دينه، ثم قال فكيف يؤتمن على دعوى النسب وقد أُخذت كتبه في حياته، فوجدوا فيها بخطه عزائم ومخاطبة النجوم بالإلٰهية وكفريات، وسبب إخراج كتبه محنة جرت عليه في أيام الوزير ابن يونس، وذلك أن ابن [١٤/ق] يونس كان جارًا لأولاد الشيخ عبد القادر حال فقره وكانوا يؤذونه، فلما ولي شتت شملهم وكبس دار السلام حقدًا وأخرج منها كتب الفلاسفة، وجمع العلماء والأعيان، وسأله ابن يونس عن ذلك الخط فقال: خطي ولا أدى من قائله ومن يعتقده فأمر بإحراق كتبه، وحكم القاضي بتفسيقه، وسجن واستغصب ماله ثم أُخذ خطه بالإقرار بكلمة الإسلام، وأطلق بشفاعة أبيه ثم لما قبض ابن يونس ردت إليه كتبه بعد إحراق بعضها واستعمل في بعض الوظائف. اهـ.

أقول: ذكر ابن شاكر طرفًا أقل من هذا في محنة ركن الدين عبد السلام المذكور وليس فيه أنه وجد بخطه وصف الكواكب بالألوهية، وذكر أنه درس بمدرسة جده الشيخ عبد القادر وبمدرسة الشاطية، وذكر الشيخ عليّ قاري أنه من المحدثين وقرن اسمه بالسيادة تعظيمًا له، وكذا الشيخ المسناوي وصفه بالفقيه الإمام، ثم الكلام مع هذا المعترض على تسليم وقوع النازلة، فنقول في حكايته نفسها كلمات ترد عليه ولم يلق لها بالًا لرمد بصيرته منها إن الحكم عليه بما ينافي الديانة وإحراق كتبه كان بحقد الوزير ابن يونس على أولاد الشيخ، وهذا من القهر التعصبي كما جرت عادة غالب الولاة بميلهم مع من هو أكبر منهم لا سيما الوزير، ويدل له قوله: «استغصب ماله» وقوله: «حقدًا»، كما يدل له ارتفاع المحنة عليه بتسلط المحنة على عدوه ابن يونس، وأيضًا حكم القاضي عليه بدون إقراره باعتقاد ما كتبه لا يبيح وصفه بالكفر والزندقة ولا الحكم بتفسيقه، إذ من الجائز كتبه ليرد

عليه أو غير ذلك كما قيل:

وليس اعتقاد المرء ما خط كفه كما أن حاكي الكفر ليس بكافر

خصوصًا والركن بعد اعترافه بأنه خطه قال لا أدري من قائله ومن يعتقده بل نفى اعتقاده صريحًا كما ذكره ابن شاكر في تاريخه بعدما كناه بأبي منصور وحلاه بالفقيه الحنبلي قال لما أوقفوه على ما وجدوه مكتوبًا بخطه. قال: كتبته متعجبًا منه لا معتقدًا له.

وقد قال جهابذة العلماء أن اللفظ ومثله الفعل إذا احتمل الكفر من وجوه شتى، واحتمل الإسلام من وجه واحد لا يحكم فيه إلا بالإسلام إفادة كثير من المحققين منهم عالم إفريقية حامل لواء المذهب الملكي الشيخ إسماعيل التميمي التونسي رحمه الله في كتابه الجليل المسمى «المنح الإلـٰهية في طمس الضلالة الوهابية»، ومنهم محيي السنة العلامة الشيخ عليش نعمه الله.

وقد قال ابن فورك رحمه الله الغلط في إدخال ألف كافر في الإسلام بشبهة أهون من الغلط في إخراج مؤمن واحد لشبهة ظهرت، ومثله في الشفاء للقاضي عياض. وقال الإمام القرافي في الفروق نقلًا عن الطرطوشي أن الأصولي يتعلم جميع أنواع الكفر ليحذر منه ولا يقدح في شهادته، ورد القرافي إطلاق بعض المالكية أن السحر كفر، وسلم ذلك الرد معقبه ابن الشاط.

ونقل شيخ أشياخنا عماد الدين سيدي إبراهيم الرياحي قدس الله سره في رسالة له عن القرافي أن العبرة في الردة بالمقاصد. اهـ.

ونقل العلّامة ابن عابدين رحمه الله مثل ذلك عن جامع الفصولين والبزازية وغيرهما، ثم قال زاد في البزازية إلّا إذا صرح بإرادة موجب الكفر. اهـ.

فيفهم منه عدم تكفيره إن لم يصرح فأحرى مسألة الركن عبد السلام حيث صرح بأنه لا يعتقد ذلك، ثم نقل ابن عابدين عن البحر ما نصه: والذي تحرر أنه لا يفتي بكفر مسلم أمكن حمل كلامه على محمل حسن أو كان في كفره اختلاف ولو رواية ضعيفة، وعلى هذا فأكثر ألفاظ التكفير المذكورة في تآليف المعتنين بجمعها لا يفتي بالتكفير فيها، ولقد ألزمت نفسي أن لا أفتي بشيء منها. اهـ. من البحر باختصار بواسطة عابدين.

وقال الشيخ تقي الدين بن النجار الحنبلي في شرح منتهى الإرادات ومهما أمكن حمل كلام العاقل على فائدة وتصحيحه عن الفساد وجب. اهـ.

ومثله قال الشيخ إبراهيم الكوراني الشافعي وكتب في تأييد هذا المعنى صفحات في رسالته المسلك الجلي. وقال ابن حجر في كتابه الأعلام بقواطع الإسلام، ومن قواعد الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه أن معنا أصلًا محققًا وهو الإيمان، فلا نرفضه إلا بيقين مثله مضاده. اهـ.

بل نصوا بالتعيين أن مجرد الخط لا يعتمد عليه في هذا الباب أعني باب الحدود، وكذا الطلاق والنكاح والعتاق ولو أقرأنه كتبه إلا إذا شهد على نفسه [١٥/ق]، أما مجرد اعترافه بأنه خطه مع ادعائه أنه غير عامل به فإنه يصدق كما في المدونة وغيرها. انظر المعيار للونشريسي فقد تبين بما قررناه. وعن أعلام من المذاهب الأربعة نقلناه، أن عبد السلام مظلوم، ومتهمة علوم، وماضغ عرضه على خده بأكف الزبانية ملطوم، والظاهر والله أعلم أن مراد هذا المعترض في هضمه لركن الدين نفى العدالة عنه، وقد زعم أن ركن الدين أول من ادعى الشرف من آل الجيلي فالمعترض يخشى أن يقال خبر الواحد إن كان عدلًا مفيد للعلم لا سيما على قول الإمام أحمد بن حنبل أنه يفيد العلم ولو لم تحفه.

والحال أن شرف هذا البيت الكريم مستندة التواتر لاستجماع شرائطه فيهي. قال القرافي في التنقيح في التواتر اصطلاحًا خبر أقوام عن أمر محسوس يستحيل تواطؤهم على الكذب عادة وأكثر العقلاء على أنه يفيد العلم في الماضيات والحاضرات إلى أن قال: والعلم الحاصل منه ضروري عند الجمهور. اهـ.

وقد اختلف قول هذا المعترض في رسالته الواحدة في مدعي الشرف من آل الجيلي، فهنا قال عبد السلام: وفيما مضى في القشور التي خذفناها قال: إنما ادعى هذا النسب القاضي أبو صالح نصر بن عبد الرزاق. اهـ.

فهذا دليل على أنه في القولين مختلق ولا يتروى فيما يختلق.

ثم قال المعترض: ورأيت في وريقات جمعها محمد بن شرقيق بن محمد بن عبد العزيز ابن الشيخ عبد القادر يقول: إن جدهم الشيخ عبد القادر أغلظ في مجلس وعظه على جد ابن الأعرج الأفكار على الشيخ (أي ولذلك نفوا شرفه) والقصة ذكرها العفيف في كتاب الفتح الرباني فتتبعت الكتاب فرأيت فيه ما نصه حضر نقيب النقباء، ولم يكن حضر قبل ذلك. فقال مشيرًا إليه: ليتك لم تخلق وإذ خلقت علمت لم خلقت له، يا نائمًا انتبه فإن السيل قد أحاط بك من أمامك يوم القيامة تدعي ما كتابك من معلمك، من داعيك من نبيك لا نسب لك صحيح، النسب عند الله وعند نبيه ﷺ أهل التقوى.

قيل: يا رسول الله من آلك؟ قال: وكل تقي آل محمد[١].

اسكت أنت لا عقل لك بيتك على الدجلة وتموت عطشان خطوتان وقد وصلت إلى الرحمٰن، النفس والخلق إن أردت الفلاح، فاصبر على مطارق كلامي إني إذا أخذني جنوني لا أراك، إذا ثار طبع سري طبع إخلاصي لا أرى وجهك وأريد الصلاح وإزالة الخبث عن قلبك واطفيء الحريق عن بيتك، وأصون حريمك، افتح عينيك وانظر ما أمامك إلى أن قال خذ شيئًا بلا شيء وغدًا ألف ألف شيء، أنا حامل أثقالك تخاف أن أكلفك حمل أثقالي إنما يكفينيها الله عزّ وجلّ.

سافر ألف عام لتسمع مني كلمة فكيف وبيني وبينك خطوات أنت كسلان أنت جويهل أليكع عندك أنك أعطيت شيئًا، كم سمّنت الدنيا مثلك وأكّلته، ولو رأينا فيها خيرًا ما سبقتنا إليها إلا إلى الله تصير الأمور، ما نحن فيه كله من الله، ولما نزل عن الكرسي قال له بعض تلامذته: لقد بالغت في العظة، فقال: إن عمل معه كلامي فسيعود. اهـ.

قلت: أي قال المعترض: لا يقضي العقل بصحة ما نقله العفيف على هذا المنوال ولا ينبغي للشيخ أن يحكم بنفي نسب نقيب النقباء بقوله: لا نسب لك، وإن يجرده من العقل بقوله: لا عقل لك وإن يعترف الشيخ بجنون نفسه، فيقول: إذا أخذني جنوني لا أراك وإن يدعي فعل الله، فيقول: اطفيء الحريق عن بيتك وأصون حريمك وإن يستخف بحسب رجل من آل النبي ﷺ، فيقول: أنت جويهل أليكع ويدعي حمل أثقاله والأثقال هي الكربات، وفارج الكرب إنما هو الله جلت قدرته، ولا يصح لمثل الشيخ أن يقول هذه الكلمات، إنما هي كلام المحجوبين وكلام العارفين عكسها ومع ذلك فإن أهل الشرف خاصة وأهل العلم بمنزلة الرسول عامة يعظمون نسب أهل بيته ويقولون ينفع في الآخرة وأدلتهم من الكتاب والسنة كثيرة طافحة.

أقول: من هنا عرفنا أن الرجل بمراحل عن مشارب القوم وحقائقهم، بل لم يطلع على منهج الواعظين ورقائقهم ومن حكم سيدنا علي كرم الله وجهه رحم الله امرىء عرف نفسه ولم يتعد طوره ولله در القائل:

عليك بطورك لا تعده ودع من سواك لا طواره

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٣/ ٣٣٨)، وفي الصغير (١/ ١٩٩)، والبزار في مسنده (٦/ ٥٠٦). وانظر الفتح للحافظ (١١/ ١٦١).

فمَن شذ عن طوره يفتضح وتبد حقائق أسراره
ويأته غير جهول به يبين له كنه مقداره [١٦/ق]

ولنرجع إلى استقراء خرافاته فقوله ولا ينبغي للشيخ أن يحكم بنفي نسب نقيب النقباء.

أقول: الشيخ رضي الله عنه لم يحكم بنفي النسب الذي فهمه هذا الجامد، وهو التفرع الجسماني من البيت النبوي، وإنما هو من باب قوله ﷺ: «ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»(١). رواه مسلم بهذا اللفظ في صحيحه، وأبو داود في سننه، قال التفتازاني في شرح هذا الحديث من الأربعين ما نصه، لأن الإسراع إلى السعادة إنما هو بالتقوى والعمل الصالح لا بالنسب، ويؤيده ما ورد في الحديث من قوله ﷺ: «يا صفية عمة رسول الله، يا فاطمة بنت محمد ائتوني يوم القيامة بأعمالكم لا بأنسابكم فإني لا أغني عنكم من الله شيئًا»(٢).

قلت: وهذا لا ينافي نفي النسب في الآخرة، كما يكتسبه الذوق السليم من التعبير بالإسراع في الحديث الأول، والمقصود عدم التفريط في العمل اتكالًا على النسب وعليه تحمل مواعظ السادات السالكين في سبيل هذا الحديث، إذ لا يخفى عليهم قوله ﷺ: «كل سبب ونسب منقطع إلّا سببي ونسبي»(٣) رواه الحاكم والبيهقي.

والسبب هنا الوصلة والمودة كما فسره الزرقاني عن الديلمي؛ فنقول: الإمام الجيلي لا نسب لك: أي موصل أباك إلى درجات السابقين من السلف أهل التقوى، وقد صدر نحو مقالة الجيلي كثيرًا من السلف منهم الإمام زين العابدين ابن سيدنا الحسين رضي الله عنهما حين وجده بعض محبيه متعلقًا بأستار الكعبة ليلًا وهو يناجي الله ويبكي حتى غشي عليه، فلما أفاق أخذ ذلك المحب يذكره فضل آل البيت تهوينًا عليه، فأجابه بقوله: أما سمعت قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ١٠١﴾ [المؤمنون: الآية ١٠١]، وكلامهم من هذا الوادي كثير.

---

(١) رواه مسلم (٤/ ٢٠٧٤)، وأبو داود (٣/ ٣١٧)، والترمذي (٥/ ١٩٥)، والدارمي (١/ ١١١)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٦٥)، وابن حبان (١/ ٢٨٤).
(٢) رواه مسلم (١/ ١١٠١)، وابن حبان (١٤/ ٤٨٥) بنحوه.
(٣) رواه الضياء في المقدسي في المختارة (١/ ١٩٧، ١٩٨، ٣٩٨)، والبيهقي في الكبرى (٧/ ٦٣)، والدارقطني في العلل (٢/ ١٨٩).

وقول المعترض: وإن يجرده من العقل بقوله: لا عقل لك بطلان اعتراضه ضروري فهو من باب (لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد) أي لا صلاة كاملة، فهنا لا عقل لك كامل أي كمالاً يوصل بجد صاحبه إلى مراتب المقربين. وقوله: وإن يعترف الشيخ بجنون نفسه، أقول: لا جنون إلا فهمه السقيم، وتهوره البارد الوخيم، أعمي هذا المعترض عن صبح المجاز الذي هو أبلغ من الحقيقة أم خفشت عيناه عن أبصار شموس القرائن المشرقة من مطالع الحقيقة، فالجنون يطلق على الوارع بالشيء وأفراغ الكلية في الاشتغال به ومن ذلك قولهم: «الجنون فنون»، واشتغال الشيخ رضي الله عنه هنا بالوعظ والتربية، لذلك قال: لا أراك: أي لا تكبر في عيني، والواعظ إذا كبر الموعوظ في عينه ضعف تأثير الوعظ فيه، ويصح أن يراد بالجنون هنا الغيبة المذكورة في دواوين القوم، قال السيد الشريف في التعريفات الغيبة غيبة القلب عن علم ما يجري من أحوال الخلق، بل من أحوال نفسه بما يرد عليه من الحق إذا عظم الوارد واستولى عليه سلطان الحقيقة، فهو حاضر بالحق غائب عن نفسه وعن الخلق، ومما يشهد لهذا قصة النسوة اللاتي قطعن أيديهن حين شاهدن يوسف، فإذا كانت مشاهدة جمال يوسف مثل هذا فكيف يكون غيبة مشاهدة أنوار ذي الجلال. اهـ.

ومما ينسب إلى القطب الشهير سيدي أحمد البدوي رضي الله عنه.

مجانين إلا أن سر جنونهم عزيز على أبوابه يسجد العقل

وفي الرسالة القشيرية أن الجنيد كان قاعدًا وعنده امرأته، فدخل عليه الشبلي فأرادت امرأته أن تستتر، فقال لها الجنيد: لا خبر للشبلي منك فاقعدي، فلم يزل يكلمه الجنيد بالعلم ويتحدث معه في حاله حتى بكى الشبلي، فقال الجنيد لامرأته: استتري فقد أفاق الشبلي من غيبته. اهـ.

ويصحّ أن يراد بالجنون هنا غير ذلك مما هو لائق بذلك المقام الشريف والله أعلم.

وقوله: وإن يدّعي فعل الله فيقول أطفىء الحريق عن بيتك وأصون حريمك الخ. أقول: لمثل ذلك فليتعجب المتعجبون يزعم الرجل أنه دارس تآليف الشعراني والحاتمي والسهروردي وأمثالهم، ويجهل الضرورات من اصطلاحات القوم ومقاصد تعبيراتهم وفنون كراماتهم فأقواله تناقضت منطوقًا ومفهومًا، وهذا المذهب الذي سلكه في هاته المسألة هو مذهب الوهابية من الخوارج حيث ضللوا السواد الأعظم من

المسلمين باستغاثتهم بالأولياء والأنبياء وتوسلهم إلى الله بهم وجعلوا المسلمين مشركين لذلك، ولو عرفنا تاريخ عصر صاحب هاته الرسالة لعرفنا المتابعة بينه وبين ابن عبد الوهاب رئيس تلك الطائفة الذي كان ابتداء ظهوره [١٧/ق] سنة ١١٤٣ أيهما المقتدى بصاحبه ومن ذا من أهل السنة يعتقد تأثير الولي في إغاثة لمن استغاث به وفي حراسته لمريده غيبًا، وهل فعل الولي لنحو ذلك إلا كفعل السيد لعبده والأب لولده والملك لرعيته بحسب اقتدارهم وغاية الفرق بينهما أن المذكورين لا يقع منهم ذلك إلا بحضورهم أو حضور المباشر بإذنهم، والولي يستوي حضوره وغيبته خرقًا للعادة، وهو معنى الكرامة التي استقر على إثباتها للأولياء رأي أهل السنة، فالفاعل على الحقيقة هو الله تعالى سواء كان الفعل ظاهريًا أو باطنيًا ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: الآية ١٧]، وإنما المزية معتبرة فيمن أجرى الله ذلك على يده كسبًا لا تأثيرًا، هذا مراد القائل بذلك من أهل السنة سواء قاله الولي على نفسه نصحًا وتحدثًا بنعمة الله أو قاله غير الولي واصفًا للولي بنحو ذلك، وهذا المعنى هو الممتزج بقلوب العامة وإن قصرت ألسنتهم عن التعبير بلفظ يؤديه، فكيف يقصر عن قصده العلماء مثل العفيف صاحب الفتح الرباني فضلًا على مثل الإمام الجيلي حتى نضطر إلى نفيه عنه رأسًا، فجحود المعترض لذلك وإنكاره إما تحاملًا لرقة دينه وإما قصورًا لضيق فطنه وكلاهما ليس بكمال حيث لم يترك الكلام.

فإن كنت لا تدري فتلك مصيبة وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم

وقد روى الإمام الشعراني في فضائل الشيخ سيدي عبد القادر أنه قال: احفظك وأنت غافل.

قلت: ليت شعري ما يقول المعترض في الأحاديث الكثيرة الواردة في نفع الأولياء العمومي كأحاديث الإبدال التي منها قوله ﷺ: «لا يزال أربعون رجلًا من أمتي على قلب إبراهيم يدفع الله بهم عن أهل الأرض»[١]. وفي رواية: «بهم تقوم الأرض وبهم يمطرون وبهم ينصرون»، روى ذلك الطبراني بإسناد صحيح وأبو نعيم وغيرهما، وقد ذكر جماعة من فحول العلماء نفع الولي لمن يستجيرنه وحضوره وتصرفه وجواز ندائه في الشدائد، فممن ذكره الحاتمي والثعالبي والشعراني والمناوي

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (١٠/ ١٨١)، وأولاه الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٦٣)، والعجلوني في كشف الخفاء (١/ ٢٥).

والشمس الرملي والشهاب الرملي والبرلسي في كتابه الآيات البينات في إثبات كرامات الأولياء في الحيات وبعد الممات والشيخ عبد الباقي المقدسي في السيوف الصقال في رقبة من ينكر كرامات الأولياء بعد الانتقال.

وشيخ الإسلام سيدي إسماعيل التميمي، والشيخ عمر المحجوب قاضي الحضرة التونسية، وشيخ الجماعة بفاس الشيخ الطيب بن كيران، وشيخنا المقدس سيدي أحمد دحلان شيخ الإسلام بمكة أدام الله شرفها، والشيخ حسن العدوي وغيرهم.. والمشاهدة أقوى دليل، وقال الشعراني: يستحب للولي أن يحمي نفسه وأصحابه بالحال والكرامة.

وقول المعترض: إنما هي كلام المحجوبين وكلام العارفين عكسها أي شيء يراه المحجوبون فيتكلموا به، وإنما كلام متعلقات الباطن وكشوفات الملكوت والتحدث بالنعم الخاصة لا يكون إلّا للعارفين ومن خرق الله لهم الحجب وصرفهم فيما شاء، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾ [الجُمُعَة: الآية ٤].

وقوله: وإن يستخف بحسب رجل من آل النبي ﷺ فيقول: أنت جويهل أليكع.

أقول: لم يستخف الجيلي بهذا الشريف بل هي تربية وتأديب وعظة وتهذيب، وكأن هذا المعترض لم يطرق سمعه ولا طالع في كتاب فضلًا على المشاهدة كيفية استطالة المشايخ المربين على محبوبيهم من المريدين وزجرهم الشديد، وربما شتموهم وطردوهم وهم أحب إليهم من أفلاذ أكبادهم والمريدون صاغرون وبإذلالهم متلذذون، بل يقع ذلك من أشياخ العلم للمتعلمين عند الصباح يحمد القوم السري، فلسان حال هذا المعترض ينادي بأنه لم يصحب الأساتذة ولا فطن بأمصار العلم ولا كحل عينيه بالنظر في كتب القوم، وما أخال ذلك كله جهلًا فالأقرب التحامل والحسد يجر إلى ذلك «قد يقدم العير من ذعر على الأسد»، و﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ﴾ [الأعراف: الآية ١٨٦]. وحيث كان النقيب الذي وعظه الجيلي منصفًا مستعدًا لما أُريد به لم يتحرج من شدة نصح الجيلي كما هو في آخر الكتاب الذي نقل منه المعترض، وقد أخفاه فض الله فاه وتمامه بعد قوله: إن عمل معه كلامي فسيعود، قال: فلم يزل بعد ذلك يحضر مجلسه ويأتيه في غير وقت المجلس، فيقعد بين يديه متواضعًا متصاغرًا رحمه الله تعالى. اهـ.

- وفي رواية لما قالوا للإمام الجيلي لقد بالغت في القول له، قال: إنما هو نور جلي ظلمته. اهـ. وكلٌّ ميسر لما خلق له.

ثم قال المعترض: إن هذا الكتاب أعني «الفتح [١٨/ق] الرباني» كتب فيه العفيف على لسان الشيخ عبد القادر بأساطير الأولين ولقالق المتخيلين ما لا يعد مثل قوله: يا غلام إذا مت تراني وتعرفني عن يمينك وشمالك أحمل وأدفع عنك وأسأل إلى متى أنت مشرك بالخلق متكل عليه، يجب أن تعلم أن أحدًا منهم لا ينفعك ولا يضرك فقيرهم وغنيهم عزيزهم وذليلهم، عليك بالله عزَّ وجلَّ لا تتكل على الخلق. أقول أي يقول المعترض: هل يمكن دخول حسن السبك في كلمات هذه العبارة وهل لمعانيها من ربط لفظي أو معنوي يقول به الوعاظ أو خدام الأولياء فضلًا عن مثل الشيخ عبد القادر على أنه رجل اشتهر علمه وكماله، وأهم من هذه الكلمات وأمثالها إلّا من تشدق الجاهلين وحاشا الشيخ وأمثاله من القول بمثل هذه الخرافات المكفرة التي كادت أن تلحق بسفسطة قدماء اليونان.

أقول: معنى ذلك كله ظاهر وهو في غاية الاستقامة مكسو بنور قائله، فقوله رضي الله عنه: إذا مت يصح فتح تائه على الخطاب مشيرًا إلى أن مقامه محجوب في الدنيا عن اللاهين الغائبين في نوم الغفلة والناس نيام، فإذا ماتوا انتهبوا ولا يلزم من رؤية ذات الولي في هذه الدار رؤية خصوصياته كما يذاق من قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٩٨]، ويصح ضم تائه مشيرًا إلى أنه رضي الله عنه ممن يكون حيًا في قبره نافعًا لعباد الله، ولا غرابة في ذلك من أكابر الأولياء كما ذكره جماعة محققون منهم القشيري وابن عربي والشعراني، وشيخ الإسلام أحمد الحموي في كتابه (نفحات القرب والاتصال بإثبات التصرف لأولياء الله ولكرامات بعد الانتقال)، والشيخ إسماعيل التميمي في المنح الإلـهية وغيرهم مما يطول بنا تعدادهم.

والدليل في المسألة واضح وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران: الآية ١٦٩] فهؤلاء أهل الجهاد الأصغر فكيف بأهل الجهاد الأكبر، وهو جهاد النفس وحديثه مشهور وهو قوله ﷺ: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»[1]. رواه البيهقي وفي

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٥١١، ٥١٢).

رواية: «رجعتم خطابًا لأصحابه» رضي الله عنهم مع قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحجر: الآية ٩٩] أي الموت فلا رجوع عن العبادة إلى غيرها ولا يقال إن حياة الشهداء حياة أرواحهم؛ لأن حياة الروح عامة، فتعين أن تكون حياة أجساد كهيئة الدنيا، وهو مذهب الكثير من السلف وجماعة من الخلف، وقد شفي الغليل في نصر هذا القول العلامة الحافظ الحكيم السني الشيخ محمد الشحمي التونسي في تأليفه رسالة الأصفياء في تحقيقه حياة الأنبياء رحمه الله، ووقائع خروج الأولياء عيانًا من أضرحتهم بعد انتقالهم، كثيرة الأباطيل بها ونقل الشعراني عن الخواص أن الصورة التي تخرج من قبور الأولياء، تارة تكون ملكًا يوكله الله بقبر الولي ويقضي حوائج الناس، وتارة يخرج الولي بنفسه من قبره ويقضي الحاجة، ولهم ثواب في قضاء حوائج المسلمين. اهـ.

ومما أفاده العلّامة الشيخ أحمد بن قاسم البوني التميمي في شرح الأربعين حديثًا له، وهو صاحب التصانيف العديدة المفيدة كنظمه للمختصر الخليلي، ونظمه لمقاصد السعد والآلاف من النظم فيما يتعلق بالحضرة النبوية من سيرة وشمائل وخصائص وغيرها، والياقوتتين الكبرى والصغرى في التوحيد وغير ذلك، ومن خطه نقلت ما نصه وقد وقع واقع لسيدي الواد رضي الله عنه يقظه لا نومًا بالمكان المعروف برأس الحمراء ببلدنا بونه مع القطب الرباني سيدي عبد القادر الكيلاني وذلك أنه أتاه يمشي على البحر هو وولي آخر اسمه سيدي بدر الدين الشابي، قال: فاضجعاني وشقا على قلبي وأخرجا منه علقة سوداء وغسلاه وبالغا في تطهيره وإنقائه من جميع الرذائل، وردا قلبه كما كان ومسحا على محله، فعاد لما كان عليه وقال له: إنا كسوناك حلة الولاية، فكان بعد ذلك آية للسائلين لا نعرض وصفًا من أوصاف رجال الرسالة: أي القشيرية أو غيرهم عليه إلا وكان فيه سواء بسواء أو أكثر ذلك الفضل من الله ولا غرابة في هذا في جنب كرامات الأولياء وغير المعتقد لا ينفع فيه قليل ولا كثير. اهـ.

وعصر الشيخ البوني المذكور في القرن الحادي عشر فبينه وبين الجيلي من الزمان نحو الخمسمائة عام.

وأما قول الشيخ رضي الله عنه إلى متى أنت مشرك بالخلق فهو من معنى قول النبي [١٩/ق] ﷺ: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر. قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله. قال: الرياء، يقول الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة إذا جازى العبيد

بأعمالهم اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء؟»[١]. رواه البيهقي في الشعب وأطال في تفسيره وبيانه حجة الإسلام في الأحياء وما بقي من كلام الجيلي بيان للمعنى المشار إليه.

وأما قوله رضي الله عنه أنت كدر بلا صفاء معناه بين ويدل له قوله في هذا الكتاب نفسه في المجلس الثاني عشر يا غلام لا بد من الحلاوة والمرارة والصلاح والفساد والكدر والصفاء، فإن أردت الصفاء الكلي ففارق بقلبك الخلق وواصله بالحق عزَّ وجلَّ. اهـ. فهو توبيخ لمن آثر الإقبال على الخلق دون الحق تبارك وتعالى.

وأما قوله رضي الله عنه خلق بلا خالق يشير إلى ذم عمل المرائين الذين يعملون لغير خالقهم غير ملتفتين إلى ما يقرب إليه عزَّ وجلَّ، يودل له قوله رضي الله عنه في المجلس الثاني هذا زمان الرياء والنفاق، وأخذ الأموال بغير حق، قد كثر من يصلي ويصوم ويحج ويزكي ويفعل أفعال الخير للخلق لا للخالق، فقد صار معظم هذا العالم خلقًا في خلقه بلا خالق. اهـ. أي سائرين سيرة كأنهم لا خالق لهم، وفي كلامه إعياء إلى قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: الآية ٢٣] وفي المعنى تمثل التفتازاني بقول القائل:

لك ألف معبود مطاع أمره دون الإله وتدّعي التوحيدا

وفي الحديث المشهور «تعس عبد الدينار وتعس عبد الدرهم»[٢] وبهذا ظهر معنى قوله رضي الله عنه بعد ذلك دنيا بلا آخرة، باطل بلا حقيقة وقد قال نفعنا الله به في المجلس العشرين يا دنيا بلا آخرة، يا خلق بلا خالق ما تخاف سوى الفقر ما ترجو سوى الغنى ويحك الرزق مقسوم لا يزيد ولا ينقص ولا يتقدم ولا يتأخر.

وأما ذمّ هذا المعترض لكتاب العفيف الذي جمعه من مواعظ الشيخ ونفثاته العزيزة فكما قال البوصيري: «قد تنكر العين ضوء الشمس»... الخ.

---

(١) رواه أحمد في المسند (٥/٤٢٨، ٤٢٩)، والطبراني في المعجم الكبير (٤/٢٥٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥/٣٣٣)، وأورده المنذري في الترغيب والترهيب (١/٣٤).

(٢) رواه البخاري (٣/١٠٥٧)، (٥/٢٣٦٤)، وابن ماجه (٢/١٣٨٥)، والبيهقي في الكبرى (٩/١٥٩)، (١٠/٢٤٥).

وفي الحكم الجلستانية، وعند هبوب الناشرات إلى الحمس تميل غصون ألبان لا الحجر الصلد وفيها ولله در منشئها.

لا ينطقون بحرف في المزاح سوى ما فيه نفع أخي عقل به اتضحا
ومن تلا ألف باب كلها حكم لجاهل قال هذا طالما مزحا

إذ ليس في الكتاب المشار إليه إلا ذكر مأمورات السنة ومنهياتها، تقبيح الذنوب والصد عن طرقاتها، وتعظيم الشعائر، وبيان الأداب التي هي نفس الذخائر، والأغلاظ على مريض القلب لينقلع ضره، ومن كلام الحكماء أنفع الدواء أمره، كقوله رضي الله عنه في المجلس الثالث يا غلام إن أردت أن لا يبقى بين يديك باب مغلق، فاتق الله فإنها مفتاح لكل باب. قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: الآيتان ٢، ٣] لا تعارض الحق عزَّ وجلَّ في نفسك ولا في أهلك ولا في مالك، ولا في أهل زمانك ما تستحي أن تأمره أن يغير ويبدل أنت أنكم منه إلى أن قل هو مدبرك ومدبرهم.

وقوله رضي الله عنه في المجلس الرابع عشر: يا منافق طهر الله عزَّ وجلَّ الأرض منك ما يكفيك نفاقك حتى تغتاب العلماء والأولياء والصالحين بأكل لحومهم أنت وأخواتك المنافقون مثلك عن قريب تأكل الديدان ألسنتكم ولحومكم وتقطعكم وتمزقكم، والأرض تضمكم فتسحقكم، لا فلاح لمن لا يحسن ظنه بالله عزَّ وجلَّ وبعباده الصالحين ويتواضع لهم، لم لا تتواضع لهم وهم الرؤساء والأمراء من أنت بالإضافة إليهم الحق عزَّ وجلَّ قد سلم الحل والربط إليهم، بهم تمطر السماء وتنبت الأرض كل الخلق رعيتهم كل واحد كالجبل لا تزعزعه، ولا تحركه رياح الآفات والمصائب لا يتزعزعون من أمكنة توحيدهم ورضاهم عن مولاهم عزَّ وجلَّ إلى أن قال: لا تستهينوا بكلمات الحكماء والعلماء، فإن كلامهم دواء وكلماتهم ثمرة وصي الله عزَّ وجلَّ.

قلت: وأظنه لا ذنب للعفيف مع هذا المعترض سوى أن العفيف من تلاميذ الجيلي ومن سلالته من جهة الأم وكتابه من إفادات جده رضي الله عنه، ولذلك أوغل هذا الخذول فيه ذمًّا. وقد أثنى الشيخ علي قارىء الكتاب المذكور بقوله: تلقى: أي العفيف عنه: أي عن جده الجيلي مجالسة المباركة التي سماها الفتح الرباني والفيض الرحماني وهو كتاب مبارك لطيف جمع فيه كل مزية حسنة. اهـ.

بالإنصاف هو كتاب نفيس تبصرة المريدين وتذكرة [٢٠/ق] للعارفين وتنبيه للغافلين ومقمعة لأولياء الشياطين، وإنما المحروم المتشبع بما ليس عنده المنقب على عيوب الناس لنسيانه عيوبه المؤولُ الكمال لحسده نقصًا يضل ويضل، ولو كان هذا المعترض متخليًا من تلك الأوصاف، لما غابت عليه المحامل الحسنة اللائقة بطريق الإنصاف، ومن الحكم قول من قال:

أخا العلم لا تعجل بعيب مصنف ولـم تـتـحـقـق زلـة مـنـه تـعـرف
فكم أفسد الراوي كلامًا بعقله وكم حرف المنقول قوم وصحفوا
وكم ناسخ أضحى لمعنى مغيرا وجاء بشيء لم يرده المصنف

ثم قال المعترض: ومنها ما نسبه: أي العفيف للشيخ أنه يقول في شأن آدم عليه السلام لما مال قلبه إلى حواء فرق بينه وبينها مسيرة ثلاثمائة سنة هو بسرنديب وهي بجدة.

أقول: أي يقول المعترض: وليس يخفى عليك قرب المسافة التي بين سرنديب الهند وجدة الحجاز، فالقائل ثلاثمائة سنة كيف يقتدي بعلمه ويعتمد على اتباعه في طريق السير إلى الله وعقبات السلوك، وهل هذه الأكاذيب إلّا من البهتان الصريح على الشيخ رحمه الله وتلك كادّعائهم انتسابه لأهل البيت لا غير.

أقول: المسافة بين سرنديب وجدة الحجاز لا يجهلها عامة النبهاء فضلًا على العلماء مثل العفيف حتى يكذب بها على أستاذه، وعلى فرض أن العفيف ليس من العلماء ففضله يأبى الكذب ومعنى كلام العفيف الذي نقله هنا عن الإمام الجيلي ظاهر لمن أسعده الله بالعلم ويحمل أقوال العلماء على ما يقتضيه مقامهم.

فالجواب: أن الجيلي ذكر ذلك في سياق الحض على إفراغ القلب من غير الله وتخصيصه بالتوجه إلى الله ومن الأساليب البلاغية التعبير بعدد كثير كناية عن الطول وتهويلًا للمشقة فيه بغير إرادة خصوص العدد، كقوله تعالى: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ﴾ [المعارج: الآية ٤] فالمراد لازمها من الشدائد لا حقيقتها، فهو من قبيل التمثيل كما ذكره أعلام المفسرين جمعًا بين الآيتين منهم الفخر الرازي في تفسيره الكبير والخطيب وأشار إليه تفسير الجلالين وصرح به حواشيه وقدمه القاضي البيضاوي، وهو الراجح عنده، كما بينه محشيه القنوي.

فقول الواعظين والأساتذة المرشدين كالإمام الجيلي وغيره من عدول حملة الأحاديث والآثار بين كذا وكذا مسيرة كذا وكذا مثلًا في مساق الترغيب والترهيب

والتذكير والتهذيب لا يحمل على سلوك المنهج البلاغي إذ مقامهم يقتضي القصد إلى أدق من ذلك وأعلى.

وبهذا الوجه الوجيه يرد على بعض أبناء هذا العصر الذين أفرطوا في الولوع بالتفنن الجديد فما خطأوا مسالكه التي ينبغي أن تسلك، فوقعوا في مهواة أدتهم إلى السخرية بالقرآن العظيم والشريعة التقية وآثار السلف الحاملين لعرش الإسلام، فيقولون أولئك قوم لا خبرة لهم بمسافات المعمور، وهو في المعنى تكذيب لعدول الأمة فيما يقولونه من ذلك إن لم نقل تزييف للأصل والعياذ بالله، وما ذاك إلا جهل من هؤلاء بالوجه المشار إليه وهو أسلوب عربي لا يكابر فيه مكابر، فإنه يوجد بالضرورة على الألسنة يقول القائل للآخر مثلًا لم لم يأتني، فيجيبه الآخر كيف آتيك وبيننا مسير شهر، فيقبل المعاتب جوابه غير مكذوب له؛ لأن المقام يؤذن إن ليس المراد إلّا الكناية عن البعد والتعب في الوصول.

قال الأستاذ سيدي إبراهيم الرياحي في أول تأليفه المسمى مبرد الصوارم والأسنة في الرد على من أخرج الشيخ التجاني عن دائرة الدين والسنة ما نصه مقدمة لا خلاف بين أهل النقل والعقل في صحبة مضمونها، وهي أن اللفظ الذي ورد استعماله في كلام أيًا كان لا يعلم المراد منه بدون الالتفات إلى الأمور العشرة التي يذكرونها في تعارض ما يخل بالفهم، وفي تعارض اثنين من هذه الخمسة أعني التخصيص والمجاز والإضمار والنقل والاشتراك، وحينئذٍ لا يحكم على أحد بأنه أراد من لفظه خصوص معنى من المعاني قطعًا إلا بإقراره بذلك أو يكون لفظه صريحًا لا مجال للتأويل فيه بوجه أو بالقرائن القاطعة بذلك.اهـ. محل الحاجة منه.

ثم قال: المعترض وإذا تدبرت ما نقل في هذا الباب من كلمات العلماء المؤرخين والنسابين أدركت أن غاية الأمر إنما الشيخ عبد القادر رجل صالح عارف صوفي، وله في الخرقة شهرة وحال، وإن أحفاده ادعوا النسبة لآل علي كرم الله وجهه وهو مبرأ من وزرها؛ لأنه لم يدعها هذا حد ما يقال [٢١/ق] فيه وفي نسبه وفي عشيرته وما زاد فمن انتحال المنتحلين.

أقول: تحليته للجيلي بذلك يريد بها والله أعلم، رد إجماع أعيان الأمة من أولياء وعلماء أنه قطب أعظم منحه الله خصوصيات يعجز العقل عن إدراكها، وهو منه جهل أو جحود للحق فقوله صوفي مثل الشيخ سيدي عبد القادر لا يوصف بكونه صوفيًا عند من حرر أقسام القوم، قال الإمام الحاتمي في الفتوحات ما مختصره أن

رجال الله ثلاثة لا رابع لهم، رجال غلب عليهم الزهد والتبتل والأفعال الظاهرة المحمودة كلها، وطهروا أيضًا بواطنهم من كل صفة مذمومة غير أنهم لا يرون شيئًا فوق ما هم عليه من هذه الأعمال ولا معرفة لهم بالأحوال ولا المقامات ولا العلوم الوهبية اللدنية ولا الأسرار ولا الكشوفات ولا شيئًا مما يجده غيرهم، فهؤلاء هم العباد وهؤلاء إذا جاءهم أحد يسألهم الدعاء ربما انتهره أحدهم، ويقول: أي شيء إذا حتى أدعو لك حذرًا أن يتطرق إليهم العجب وخوف الرياء.

والصنف الثاني فوق هؤلاء يرون الأفعال كلها لله فزال عنهم الرياء جملة واحدة، وهم مثل العباد في الجد والورع والزهد والتوكل وغير ذلك غير أنهم يرون أن ثم شيئًا فوق ما هم عليه من الأحوال والمقامات والعلوم والأسرار والكشوف والكرامات فتتعلق هممهم بنيلها فإذا نالوا شيئًا من ذلك ظهروا به في العامة لأنهم لا يرون غير الله وهم أهل خلق وفتوة وهذا الصنف يسمى الصوفية.

الصنف الثالث: رجال لا يزيدون على الصلوات الخمس إلا الرواتب يمشون في الأسواق قد انفردوا مع الله راسخين لا يتزلزلون عن عبوديتهم مع الله طرفة عين لا يعرفون للرئاسة طعمًا لاستيلاء الربوبية على قلوبهم وذلتهم تحتها قد أعلمهم الله بالمواطن وما تستحقه من الأعمال والأحوال، فهم يعاملون كل مواطن بما يستحقه قد احتجبوا عن الخلق واستتروا عنهم بستر العوائد، فإنهم عبيد مخلصون لسيدهم مشاهدون إياه على الدوام في أكلهم وشربهم ويقظتهم ونومهم إلى أن قال: فهؤلاء هم الملامتية وهم أرفع الرجال وهو مقام رسول الله ﷺ، وأبي بكر الصديق رضي الله عنه، وممن تحقق به من الشيوخ محمدون القصار وأبو سعيد الخراز وأبو يزيد البسطامي، وهو حالنا أي المؤلف ابن عربي نفسه، ثم قال: وكان في زماننا من سادات هذا المقام أبو السعود بن الشبل وعبد القادر الجيلي، ومحمد الأواني... الخ.

وقد جماعة منهم سيدي عبد العزيز المهدوي دفين مرسي تونسي رضي الله عن جميعهم فبهذا ظهر أن الإمام الجيلي من الطراز الأول، بل ذلك ضروري عند الناس كافة ولم يشذ عن ذلك إلا من لا عقل له وستأتي الإشارة إلى مقامات الجيلي وبعض ما آتاه الله في مواضعها إن شاء الله، وباقي كلام المعترض هنا في نفي الشرف قد فرغنا من رده والله الهادي إلى سواء السبيل.

ثم قال المعترض:

[الباب الثاني
في حاله وطريقته]

أجمع أهل الصدق من أصحاب الخرقة ورجال الطريقة على أن الشيخ عبد القادر رحمه الله من كمل صوفية عصره ومن أهل المجاهدات إلا أنه ابتلى بجماعة من أحفاده وأتباعه، فكدروا مشرب طريقته ودسوا عليه العظائم ونقلوا عنه ما لا ينقل من الكلمات المكفرة، وكل الظن إنه بريء الساحة منها لما شاع عنه من صلاح الحال وصحة المقال وأول من فتح هذا الباب في طريقته أحفاده، ومنهم عبد السلام الذي سبق ذكره فإنه انتحل عن لسان الشيخ كلمات سماها الغوثية والمعراجية نقل فيها أن الشيخ قال: قال لي الله تعالى: يا غوث الأعظم. قلت: لبيك يا رب الغوث. قال: كل طور بين الناسوت والملكوت فهو شريعة، وكل طور بين الملكوت والجبروت، فهو طريقة، وكل طور بين الجبروت واللاهوت فهو حقيقة. ثم قال لي: يا غوث الأعظم ما ظهرت في شيء كظهوري في الإنسان، ثم سألت يا رب هل لك مكان؟ قال لي: يا غوث الأعظم: أنا مكون المكان وليس لي مكان، ثم سألت يا رب هل لك أكل وشرب؟ قال لي: يا غوث الأعظم أكل الفقير وشربه أكلي وشربي، ثم سألت يا رب من أي شيء خلقت الملائكة. قال لي: يا غوث الأعظم خلقت الملائكة من نور الإنسان، وخلقت الإنسان من نوري، ثم قال لي: يا غوث الأعظم جعلت الإنسان [٢٢/ق] مطيتي وجعلت سائر الأكوان مطية له. ثم قال لي: يا غوث الأعظم نعم الطالب أنا ونعم المطلوب الإنسان، نعم الراكب الإنسان، ونعم المركوب له الأكوان، ثم قال لي: يا غوث الأعظم الإنسان سري وأنا سره لو عرف الإنسان منزلته عندي قال في كل نفس من الأنفاس لمن الملك اليوم، ثم قال لي: يا غوث الأعظم ما أكل الإنسان شيئًا وما شرب وما قام وما قعد وما نطق، وما صمت وما فعل فعلًا، وما توجه لشيء وما غاب عن شيء إلا وأنا فيه ساكنه ومتحركه، ثم قال

لي: يا غوث الأعظم من حرم عن سفري في الباطن ابتلى بسفر الظاهر، ولم يزدد مني إلا بعدًا في سفري الظاهر. ثم قال لي: يا غوث الأعظم الاتحاد حال لا يعبر بلسان المقال، فمن آمن به قبل وجود الحال فقد كفر، ومن أراد العبادة بعد الوصول فقد أشرك بالله العظيم، ثم قال لي: يا غوث الأعظم الفقير الذي له أمر في كل شيء. إذا قال للشيء كن فيكون، وفي هذه الغوثية من الكلمات الزائغة واللقلقة المكفرة ما يظهر للعيان أن الشيخ مبرأ منها؛ لأنه من علماء الأمة وأوليائها، وبمثل هذه الكلمات لا يقول سوى سفلة الجهلة من الضالين الذين لا يعرفون نظام الكلام ولا يتقيدون بالأحكام.

أقول: نذكر قبل الجولان في ذلك الميدان تمهيدًا جامعًا نافعًا من كلام الراسخين في العلم قال في اليواقيت كان شيخ الإسلام المخزومي يقول: لا يجوز لأحد من العلماء الإنكار على الصوفية إلا إذا عرف سبعين أمرًا منها: غرضه في معرفة معجزات الرسل على اختلاف طبقاتهم ويعتقد أن الأولياء يرثون الأنبياء في جميع معجزاتهم إلّا ما استثنى.

ومنها: الاطّلاع على مقامات السلف والخلف في معنى آيات الصفات وأخبارها ومن أخذ بالظاهر ومن أول ومن دليله أرجح.

ومنها: تبحّره في علم الأصوليين ومعرفة منازع أئمة الكلام. ومنها: وهو أهمها: معرفة اصطلاح القوم فيما عبروا عنه من التجلي الذاتي والصوري، وما هو الذات وذات الذات ومعرفة حضرات الأسماء والصفات، والفرق بين الحضرات إلى أن قال: فمن لم يعرف مرادهم كيف يحل كلامهم أو ينكر عليهم بما ليس من مرادهم. اهـ.

وسئل الإمام النبوي عن سيدي محيي الدين بن عربي، فقال: تلك أمة قد خلت ولكن الذي عندنا أنه يحرم على كل عاقل أن يسيء الظن بأحد من أولياء الله عزَّ وجلَّ ويجب عليه أن يؤول أقوالهم وأفعالهم ما دام لم يلحق بدرجتهم، ولا يعجز عن ذلك إلا قليل التوفيق.

وقال الحاتمي: ومن أعجب الأشياء في هذه الطريقة ولا يوجد إلا فيها: أي طريقة الصوفية إنه ما من طائفة تحمل علمًا من المنطقيين والنحاة وأهل الهندسة إلخ، إلا ولهم اصطلاح لا يعلمه الدخيل فيهم إلا بتوقيف من أهله لا بد من ذلك إلا

طريقة الصوفية خاصة إذا دخلها المريد الصادق، وما عنده خبر بما اصطلحوا عليه، فإذا قعد معهم وتكلموا باصطلاحهم فهم هذا المريد جميع ما يتكلمون به حتى كأنه الواضع لذلك الاصطلاح ويشاركهم في الكلام ولا يستغربه من نفسه، بل يجد عليه ضروريًا لا يقدر على دفعه، ولا يدري كيف حصل وبهذا يعرف صدقه عندهم، والدخيل من غير هذه الطائفة لا يجد ذلك إلا لموقف. اهـ. ومن كلام الأستاذ سيدي عبد الغني النابلسي قدس سره:

كلامنا نعرفه ... نحن ومن يعرفنا
وإنما يفهمه ... في الناس من يفهمنا
ولم يكن يجهله ... إلا الذي يجهلنا
من يرده فليكن ... ملازمًا مجلسنا
أو مجلسًا لكل من ... تلمذه الصدق لنا
وقاية معتقد ... ويحسن الظن بنا

وبالجملة فأحوال الأولياء وأقوالهم الأسلم فيها التسليم، كما قالوا علم الظاهر مبني على البحث والتدقيق، وعلم الباطن مبني على التسليم والتصديق لا سيما ممن علمنا عظم مكانته في العلم والسنة، ففي القواعد الزروقية من لم يستطع تأويل كلام ذي القدم في العلم، فليسلم له إن كملت مرتبته علمًا وديانة. قال شارحها: لأنه بكمال مرتبته علمًا يبعد خطاه وبكمال مرتبته ديانة يمتنع تعمده لمخالفة الحق، وفي المنهاج إذا ثبتت مكانة المرء، فليترك وعلمه. اهـ.

ونحن عاجزون عن فهم مقاصدهم فكيف نرد كلامًا لم نفهمه هذا لا يعقل.

ففي متن القواعد المذكورة ما نصه (قاعدة) الكلام في الشيء فرع تصور ماهيته وفائدته ومدته بشعور ذهني مكسب أو بديهي ليرجع إليه في أفراد ما وقع عليه ردًا وقبولًا وتأصيلًا وتفصيلًا. اهـ.

مع أنهم لم يدعوا الناس إلى التقيد به والاقتداء بهم فيما خالف ظاهره الشريعة، وحسبنا في هذا الباب قصة الخضر مع موسى عليه السلام المتلوة في القرآن.

ومن كلام أبي يزيد البسطامي: إذا رأيت من يؤمن بكلام أهل الطريقة فاسأله يدعو لك فهو مجاب الدعوة.

ولنرجع إلى الكلام مع هذا المتهور فنقول لما عرف إجماع الأمة على علو مقام الشيخ سيدي عبد القادر جعل أحفاده وخاصة أتباعه هدفًا لهذيانه واتخذ ذلك سلمًا إلى تضليل الطريقة الزاهرة صانها الله، وابتدأ بالقدح في الغوثية بعدما احتجب بدعوى أنها من منتحلات ركن الدين حفيد الجيلي، وقد أثبت صاحب كشف الظنون نسبتها للشيخ سيدي عبد القادر ذكر ذلك في موضعين في لفظ معراج، ولفظ رسالة الغوثية، وكذا أثبتها له كتاب جامع الأصول وكتاب الفيوضات للشيخ إسماعيل البغدادي وغيرهم كلهم يذكر ذلك بصيغة الجزم، وليس هناك حرف يومي إلى ما تمشدق به هذا المعترض، ثم الجمل المقولة هنا من الغوثية معناها ظاهر لمن له إلمام بعلم القوم؛ لأن الكلام محمول على عرف المخاطب بكسر الطاء كما في المحلي وغيره وفهمه بقدر مقام صاحبه وحالة المتكلم رابطة لمعنى كلامه كما بنوا عليه أحكامًا فقهية مبسوطة في محالها، فلزم الآن تفسيرها دفعاً للأوهام وإرواء للأوام وكشفًا لجهله وضيق فطنه عن التأويلات اللائقة بمقام الولاية الكبرى والله أعلم بحقائق أنفاس أوليائه.

ولنبدأ في المقصود متبرئًا من دعوى الأهلية لتلك المشارب العزيزة ومن دعوى القطع بفهمي القاصر ونطاق العبارة ربما يضيق عما يلهمه القلب من معاني تلك الجواهر، وبالله أستعين.

قوله: أعني المعترض نقل فيها أي الغوثية أن الشيخ قال: قال لي الله تعالى.

أقول: مسألة الإلهام للأولياء من أهم مسائل علم الباطن، ومن تأمل كلامهم يسلمها لهم حيث هم أنفسهم قائلون: لا ندعي فيها أمرًا تكليفيًا إذ لا شريعة بعد شريعة سيدنا محمد ﷺ وكلامهم في هذه المسألة منتشر في محال متفرقة من تآليفهم وملخصه أن وحي الأولياء تارة يكون بواسطة ملك الإلهام وتارة بلا واسطة، أما الذي بالواسطة فالفرق بينه وبين وحي الأنبياء أن ملك الإلهام لا ينزل على الأولياء إلا بالاتباع لنبي ذلك الولي، وبإفهام ما جاءت به شريعة نبيه مما لم يتحقق له علمه قبل ذلك، وما ينتجه ذلك التنزل من الأحوال والأعمال والمقامات، وكذا الفرق بينهما أن الأولياء يشاهدون التنزل على قلوبهم لكن لا يرون الملك النازل أو يرون الملك دون إلقاء منه عليهم حال رؤيته، فلا يجمع بين رؤية الملك والإلقاء منه عليه إلا الأنبياء.
قال الشعراني: وقد أغلق الله تعالى باب التنزل بالأحكام الشرعية، وما أغلق باب التنزل بالعلم بها على قلوب أوليائه وذلك ليكون الأولياء على بصيرة في دعائهم إلى

الله تعالى بها كما كان مورثهم ﷺ، ولذلك قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: الآية ١٠٨] فهو أخذ لا يتطرق إليه تهمة. اهـ.

وقال ابن عربي وتارة يتنزل الملك على الولي بالبشرى. قال تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟﴾ [فصلت: الآية ٣٠].

قال الشعراني: هذا وإن كان وقوعه عند الموت فقد يعجل الله تعالى به لمن يشاء من عباده. اهـ.

وأما أخذ الولي بلا واسطة فصورته أن الحق تعالى إذا أراد أن يوحي إلى ولي من أوليائه بأمر ما تجلى إلى قلب ذلك الولي، فيفهم الولي من ذلك التجلي بمجرد مشاهدته ما يريد الحق تعالى أن يعلم ذلك الولي به، فهناك يجد الولي في نفسه علم ما لم يكن يعلم، ثم إن من الأولياء من يشعر بذلك ومنهم من لا يشعر بل يقول وجدت كذا وكذا في خاطري ولا يعلم من أتاه به ولكن من عرفه فهو أتم لحفظه حينئذٍ من الشيطان. قال الحاتمي في أجوبته عن أسئلة الترمذي: أن رأس المحدثين عمر بن الخطاب رضي الله عنه والناس كلهم من الأمة ورثته في ذلك. اهـ.

والمحدثون بفتح الدال المهملة المشددة هم الملهمون من الله تعالى، والحديث الوارد في أن عمر من المحدثين مشهور، وقد ذكر الإمام ابن العربي الفقيه في عارضة الأحوذي في شرح الحديث المشار إليه بعد [٢٤/ق] أن قال يخلق الله في القلب الصافي أو بواسطة إلقاء الملك إليه الكلمة.

قال: وقد ينتهي الحال إلى أن يسمع الصوت، ثم قال: وقال بعضهم: ويرى الملك ولم أعرف ذلك الآن. اهـ.

قلت: تقدم أن الولي يراه في غير وقت التحديث كما قاله الإمام الشعراني والله أعلم. ومما قررناه في تحرير المسألة لم يبق توقف في قول الولي قيل لي كذا أو نفث في روعي كذا، ومن ذلك ما رواه الشطنوفي عن الجيلي: قال: يقال لي يا عبد القادر واصطفيتك لنفسي واسمع في زمن مجاهدتي قائلًا يقول: يا عبد القادر ما خلقتك للنوم قد أحببناك ولم تك شيئًا، فلا تتغفل عنا وأنت شيء، ونحو ذلك مما هو في هذا المنهج.

وقوله في الغوثية: كل طور بين الناسوت والملكوت فهو سريعة، وكل طور بين الملكوت والجبروت فهو طريقة، وكل طور بين الجبروت واللاهوت فهو

حقيقة الطور هو الحد بين الشيئين والقدر كما في القاموس والناسوت الجسم والملكوت عالم الغيب والجبروت البرزخ واللاهوت الروح ومن جملة الملكوت القلب، كما قاله حجة الإسلام في الأحياء والقلب هو المراد بالملكوت هنا: أي أموره المعنوية فهي التي من عالم الغيب لا جرمه الحسي فإنه من عالم الملك والشهادة.

ونسقه شرح هاته الجمل الثلاث أن المكلف مطلوب بالتقوى، وهي اجتناب المنهيات وامتثال المأمورات ظاهرًا وباطنًا.

فالأقسام أربعة فالاجتناب والامتثال الظاهريان اللذان محلهما الجسم من متعلقات الشريعة والباطنيان اللذان محلهما القلب من متعلقات الطريقة وبسلمهما يرتقى إلى الحقيقة، وهي الرتبة السنية، المخطوبة لكل ذي همة عليه، فالإنسان يتعلم أولًا مسائل العبادات ولوازمه من علم الحلال والحرام من وُعاة الشريعة، ويعمل بذلك أمرًا ونهيًا وهذا هو الطور الأول.

ثم يلتفت إلى تخلية قلبه من الرذائل، وتخليته بالفضائل وذلك هما الاجتناب والامتثال الباطنيان، وهي خدمة الطريقة التي بها يتهيأ القلب إلى هبوب النفحات وتلقي الواردات، ورفع الحجب والاطلاع على عجائب البرزخ وغير ذلك وهذا الطور الثاني.

ومنه ينفخ له الباب فتنطلق روحه سارحة في رياض البرزخ جانية من ثماره حيث اجتهد حين خدمة الطريق في تربيتها وإجادة تغذيتها؛ لأن الاعتناء الأكبر عند أهل هذا الشأن بغذاء الروح بالأذكار والدعوات والأوراد وأنواع القربات، وقد كمل هذا السالك بكمال روحه وأصبح محصلًا من عجائب المواهب ما يقصر عن وصفه اللسان وهذا هو الطور الثالث.

ومن أحرقت بدايته أشرقت نهايته، قال الشيخ مصطفى باش تارزي في كتاب الرحمانية: الشريعة إقامة البدن بوظائف العبودية، والطريقة: إقامة القلب بحقوق الألوهية، والحقيقة: مشاهدة الربوبية، فالشريعة والطريقة مجاهدة، والحقيقة مراقبة ومشاهدة، ولا تباين بينها إذ الطريق إلى الله تعالى لها ظاهر وباطن، فظاهرها الشريعة وباطنها الحقيقة فبطون الحقيقة في الشريعة كبطون الزبد في لبنه، والكنز في معدنه، فبدون خض اللبن أو حفر المعدن لا تظفر من اللبن بزبده، ولا من المعدن بكنزه. اهـ.

ومن كلام العارف أبي سليمان الداراني رضي الله عنه: القلب بمنزلة القبة المضروبة حولها أبواب مغلقة فأي باب فتح له فيه عمل فقد ظهر انفتاح باب من أبواب القلب إلى جهة الملكوت والملأ الأعلى، وينفتح ذلك الباب بالمجاهدة والورع.

قلت: فالعمل لا يتأتى إلا بالعلم وهي الشريعة والمجاهدة والورع في كلام الداراني هي الطريقة، والانفتاح هي الحقيقة وذكر حجة الإسلام حديثًا عن النبي ﷺ قال: «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء»، وهو إشارة منه ﷺ إلى أن احتجاب القلوب عن تنويرها واتصالها بالمراتب الملكوتية سببه اتباع الشيطان في صده بني آدم عن اتباع الشريعة.

حُكي أن الإمام أحمد بن حنبل قال يومًا لابن أبي الحواري تلميذ الداراني: حدّثنا بشيءٍ سمعته من أستاذك أبي سليمان؛ قال: سمعته يقول إذا عقدت النفوس على ترك الآثام جالت في الملكوت، وعادت إلى ذلك العبد بطرائف الحكمية من غير أن يؤدي إليها عالم علمًا، فقام الإمام أحمد وقعد ثلاثًا، وقال: ما سمعت حكاية أعجب إليّ من هذه، ثم ذكر الحديث: «من عمل بما يعلم ورثه الله علم ما لم يعلم». اهـ.

فترك الآثام هو الشريعة وعقد النفوس عليه هو الطريقة والجولان في الملكوت والعود [٢٥/ق] بطرائف الحكمة هو الحقيقة، وبعضهم يجعل الشريعة والطريقة قسمًا واحدًا، ويقول: هما مرتبتان شريعة وحقيقة كما عليه متن الرسالة القشيرية ولا وقفه في ذلك؛ لأنه لا خلاف لفظي فهو إجمال للتفصيل المتقدم وعليه قولهم الشريعة تبين الحقيقة تمكين والشريعة أن تعبده، والحقيقة أن تشهده، والشريعة بداية، والحقيقة نهاية ونحو ذلك. ومال المعنى في التقسيمين متحد.

كنت سألت أستاذنا العلامة العارف سيدي محمد بن أبي القاسم الشريف بارك الله في عمره عن قول جماعة من الأولياء: إنهم يصعدون إلى السماء مع قول الفقهاء إن ادعاء ذلك ردة فأجاب: بأنه صعود بالروح لا بالجسم وهو غير الصعود المنامي الذي هو للعامة بل هذا يقظة يكون للخاصة، وذلك أن الروح هنا في الدنيا كامنة في الجسم، فهي مثقلة بالجسم الترابي وفي الآخر ينعكس الأمر فيكون الجسم كامنًا في الروح، ولذلك تكون في الآخرة الغلبة للروح على الجسم، فالكاملون من الأولياء يقع لهم في الدنيا ما يقع للناس في الآخرة من غلبة أرواحهم على أجسامهم حتى يحصل

لهم في الدنيا مثل ذلك المكمون الأخروي؛ لأن خدمتهم للروح كما قيل:

عليك بالروح فاستكمل فضائلها فأنت بالروح لا بالجسم إنسان

وبذلك ينالون هاته الكرامة وهي صعودهم إلى السماء: أي صعود أرواحهم وحيث كان نظرهم للروح لا للجسم يقولون صعدنا إلى السماء أو إلى الجنة أو نحو ذلك، أما الصعود بالجسم فهو مختص بمن ورد في الشريعة صعوده كالمعراج النبوي. اهـ.

فكلام شيخنا هذا زادنا الآن فهمًا في كلام الغوثية حيث اتفق أنه ذكر طرفي الجمل الثلاث التي في الغوثية والطرفان هما: الناسوت واللاهوت، وهما كما مر الجسم والروح المتعلق بهما كلام شيخنا، فالجسم هو أول أطوار السالك والروح هو آخرها تأمل تهتد.

وبكلام شيخنا أيضًا فهمنا ما في البهجة من قول بعض العارفين في الجيلي جعل الملكوت الأكبر من ورائه والملك الأعظم تحت قدمه إشارة للقطبية، وأن الشيخ جميل اليدوي اختطف إلى عالم الملكوت وانتهى إلى مجلس فيه جمع من المشايخ فهبت عليهم نسمة أسكرتهم، فقالوا: هذه من طيب مقام الشيخ عبد القادر وألقى في سمعه: أي جميل هذا علم لا يدرك بوصف محجوب. اهـ.

فصعوده الملكوت صعود روحاني. وقال الحاتمي: كما أن الإنسان في نومه وبعد موته يرى الأعراض صورًا قائمة بنفسها تخاطبه وأجسادًا لا يشك فيها فالمكاشف يرى مثل ذلك في يقظته.

وقوله في الغوثية: ما ظهرت في شيء كظهوري في الإنسان معناه ظاهر بمعنى الحديث المشهور: «من عرف نفسه عرف ربه».

وقوله رضي الله عنه ثم سألت يا رب هل لك أكل وشرب. قال لي: يا غوث الأعظم أكل الفقير وشربه أكلي وشربي.

بيانه ما في تفسير الإمام الثعالبي في قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٤٥] نقلًا عن الفقير بنفسه العلية ترغيبًا في الصدقة كما كنى عن المريض والجائع والعاطش بنفسه المقدسة.

قال النبي ﷺ: «إن الله عزَّ وجلَّ يقول: يوم القيامة يا ابن آدم مرضت فلم تعدني قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين قال: أما علمت أن عبدي فلانًا

مرض فلم تعده، أما علمت إنك لوعدته لوجدتني عنده، يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني، قال: يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين، قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه، أما علمت إنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي. يا ابن آدم استقيتك فلم تسقني، قال: يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين، قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه، أما علمت إنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي»[1]. اهـ. واللفظ لصحيح مسلم.

قال ابن العربي: هذا كله خرج مخرج التشريف لمن كنى عنه وترغيبًا لمن خوطب. اهـ.

وقوله: خلقت الملائكة من نور الإنسان، وخلقت الإنسان من نوري، الإنسان هو النبي ﷺ، فالعالم كله من نوره، وهو من نور الله كما هو مشهور في غير كتاب.

وقوله: جعلت الإنسان مطيتي، وجعلت سائر الأكوان مطية له، أما كون الإنسان مطيته تبارك وتعالى، فإن الإنسان خادم لله حامل للعلوم وما يقرب إلى الله تعالى راتع في أرض الله آكل من رزق الله، ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: الآية ٥٦]. والإضافة تسوغ لأدنى ملابسة، وفي القرآن العظيم ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: الآية ٧٣]، وفي الحديث: «يا خيل الله اركبي» [٢٦/ق]، وأما كون الأكوان مطية الإنسان فظاهر لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [لقمان: الآية ٢٠]، وقوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ [المُلك: الآية ١٥] الآية وغير ذلك من الآيات الكريمة.

وفي خبر إلهي عن موسى عليه السلام: (أن الله أنزل في التوراة، يا ابن آدم خلقت الأشياء من أجلك وخلقتك من أجلي، فلا تهتك ما خلقت من أجلي فيما خلقت من أجلك). وقال الفذ الشهير عالم الأمراء وأمير العلماء سيدنا عبد القادر بن محيي الدين الجزائري الشامي مهاجرًا قدس سره في كتابه المواقف الروحية ما نصه:

قال لي سيدي محيي الدين يعني ابن عربي رضي الله عنه في واقعة من الوقائع: إن الله خلق الإنسان الكامل له ليظهر به تعالى وخلق العالم للإنسان الكامل ليظهر به:

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ١٩٩٠)، وابن حبان في صحيحه (١/ ٥٠٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٥٣٤).

أي الإنسان، فالعالم مخلوق بواسطة الإنسان وبسببه، وحيث كان العالم للإنسان والإنسان مخلوق له تعالى كان العالم مخلوقًا لله وذلك لكلام جرى بيننا، فإنه حصر بين أيدينا مؤلف من مؤلفات سيدنا رضي الله عنه: يعني ابن عربي ففتحته، فإذا أوله الحمد لله الذي خلق العالم له، فقلت له: العالم مخلوق للإنسان. قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [الجاثية: الآية ١٣] وليس تسخيره إلا سعيه في ظهوره وما به بقاء ظهوره والخطاب للإنسان. فأجاب رضي الله عنه بما تقدم. اهـ.

وقوله في الغوثية: الإنسان سري وأنا سره، معلوم أن بين الإنسان وربه أسرارًا لا يطلع عليها أحد منها الإخلاص.

روى أبو حفص السهروردي والقشير بسندهما إلى النبي ﷺ قال: «سألت رب العزة عن الإخلاص ما هو قال: سر من سري، استودعته قلب من أحببت من عبادي». ويفهم من كلام حجة الإسلام في الأحياء أن الكرام الكاتبين لا يطلعون على أسرار القلب وإنما يطلعون على الأعمال الظاهرة وعهدي بالمسألة خلافية. وقال سلطان العاشقين ابن الفارض:

ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا ... سرًا رقّ من النسيم إذا سرى

ووصف ذي السر بكونه سرًا لا يحتاج إلى بيان؛ لأنه من باب زيد عدل.

وقوله: لو عرف الإنسان مكانته عندي... الخ سيأتي معناه في قوله: إذا قال للشيء كن فيكون.

وقوله: ما أكل الإنسان شيئًا وما شرب قام إلى قوله ومتحركة هذا إشارة إلى حديث: «وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها»[1]. وفي رواية فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي رواه البخاري وغيره.

ومعنى الحديث اختلفت فيه إفهام العلماء، فقيل معناه: إذا أحببته كنت له في النصرة كسمعه وبصره ويده ورجله في المعاونة، وقيل: كنت حافظ أعضائه فلا

---

(١) رواه البخاري (٥/ ٢٣٨٤)، وابن حبان (٢/ ٥٨)، والبيهقي في الكبرى (٣/ ٣٤٦)، (١٠/ ٢١٩).

يصرفها فيما لا يحل، وقيل؛ كنت مسموعه ومبصره... الخ. أي لا يسمع إلا ذكري ولا يتمتع بصره إلا بكتابي، ولا يمد يده إلا لما فيه رضائي... الخ، وقيل غير ذلك في المؤمنين من جمل الحديث على حقيقته، لأنه يكون حلولًا واتحادًا وهو ضلال مكفر إجماعًا.

وقوله: في تمام هاته الجملة ساكنة ومتحركة بخفضهما تعميم لأفعال الإنسان فإن سكونه وتحركه بالله.

وقوله: من حرم عن سفري في الباطن ابتلى بسفر الظاهر... الخ. السفر الباطني شهير عند القوم وهو السير والسلوك إلى الله تعالى، ولا يخفى حسن تسببه طي المقامات بقطع المسافات والانتقال الباطني في المنازل العرفانية بالانتقال الظاهري في المنازل الأرضية، وفي حكم ابن عطاء الله لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين إذ لا مسافة بينك وبينه حتى تطويها رجلك.

وقوله: الاتحاد حال لا يعبر بلسان المقال كان سيدي على وفاء نفعنا الله به، يقول: المراد بالاتحاد حيث جاء في كلام القوم فناء مراد العبد في مراد الحق تعالى كما يقال بين فلان وفلان اتحاد إذا عمل كل منهما بمراد صاحبه. اهـ.

وقال: السعد في شرح المقاصد في الفصل الثاني من المقصد الخامس ما نصه وهٰهنا مذهبان آخران يوهمان بالحلول أو الاتحاد وليسا منه في شيء، الأول: أن السالك إذا انتهى سلوكه إلى الله وفي الله يستغرق في بحر التوحيد والعرفان بحيث تضمحل ذاته في ذاته تعالى، وصفاته في صفاته تعالى، ويغيب عن كل ما سواه، ولا يرى في الوجود إلا الله تعالى، وهذا الذي يسمونه الفناء في التوحيد وإليه يشير الحديث الإلٰهي: «أن العبد لا يزال يتقرب إلي بالنوافل [٢٧/ق] حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي به يبصر، وحينئذٍ ربما تصدر عنه عبارات تشعر بالحلول أو الاتحاد لقصور العبارة عن بيان تلك الحال، وتعذر الكشف عنها بالمقال ونحن على ساحل التمني نغترف من بحر التوحيد بقدر الإمكان ونعترف بأن طريق الفناء فيه العيان دون البرهان والله الموفق. اهـ. ما به الحاجة بلفظه.

وقول: الغوثية في الاتحاد لا يعبر بلسان المقال هو كذلك لضيق العبارة عن تأدية المعنى المراد للقوم.

وقوله: فمن آمن به قبل وجود الحال فقد كفر المراد والله أعلم بالإيمان هنا ادعاء هذا الحال وهو الفناء المشار إليه؛ لأن الإيمان هو التصديق ومن سمع عبارة

صوفية فادعى فهمها حق الفهم، وأظهر الإذعان لها يسرع إلى السامع القريب الاعتقاد أن ذلك الفاهم من أهلها إذا لم ينفها بقرينة يطمئن لها القلب، فالمراد آمن به إيمانًا نستنشق منه رائحة الدعوى فإن كان كاذبًا وهو معنى قبل وجود الحال، فقد كفر بالنعمة كما قال بعض رجال الرسالة القشيرية: من تكلم على حال لم يصل إليها كان كلامه فتنة لمن يسمعه ودعوى تتولد في قلبه وحرمه الله الوصول إلى تلك الحال. اهـ. ويحتمل آمن به أي اعتقده على ظاهرة قبل بيان معناه فقد كفر وهو بين والله أعلم.

وقوله: ومن أراد العبادة بعد الوصول فقد أشرك بالله العظيم إشارة إلى مقام المشاهدة الذي يحصل فيه البهت لصاحبه فينقطع عن الذكر إذ المشاهد لا يتحدث عنه، ويرى صاحب هذا المقام أنه إن ذكر الله في ذلك الحال فقد أساء الأدب ولكل مقام مقال، ومن لم يشاهد المناسب له الذكر ليذكر به صاحب الاسم كما ورد في بعض الهواتف الربانية: إذا لم ترني فالزم اسمي، وقد عقد صاحب الفتوحات المكية بابًا لمعرفة مقام ترك الذكر وأسراره وابتدأه بأبيات مطلعها:

لا يترك الذكر إلا من يشاهده وليس يشهده من ليس يذكره

قلت: حكى لي ثقة عن شيخ مشايخنا القطب الكامل الشيخ سيدي علي بن عمر وهو أُستاذ الوالد قال: رغبنا أن نجتمع بالشيخ سيدي علي في وقت الذكر في حضرته ويكون هو النقيب في الحضرة وهبنا أن نطلب منه ذلك، فتقدم له أكبر الإخوان وهو الشيخ فرج الساحلي وطلب منه ذلك فتغافل عنه فألح عليه فانتهره وقال له: أنت قبالتي وأنا أقول: يا فرج يا فرج ومضى مغتاظًا، فقد أشار رضي الله عنه أنه في ذلك الحين في هذا المقام.

وفي الميزان للشعراني قيل للشبلي متى تستريح؟ فقال: إذا لم أر لله ذاكرًا أي لأن الذكر لا يكون إلا في حال الحجاب من شهود المذكور فما تمنى الشبلي إلا حضرة الشهود؛ لأنها هي التي لا يرى لله تعالى فيها ذاكرًا بلسانه اكتفاء بالمشاهدة، وحضرة الحق تعالى حضرة بهت وخرس لشدة ما يطرق أهلها من الهيبة والتجلي. اهـ. فبان بهذا أن المراد بالعبادة هنا الذكر والوصول: أي إلى مقام المشاهدة والإشراك: أي العدول عن اللائق بالمقام والخروج عن الأدب اللازم من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين والعلم عند الله.

وقوله: الفقير الذي له أمر في كل شيء إذا قال للشيء كن فيكون هذا كقول الجيلي نفسه رضي الله عنه باسم الله من العارف ككن من الله، والمراد بالعارف هنا أو

الفقير في الغوثية هو الولي الذي قطع جميع عقبات السلوك، فإنه هو الذي يكرمه الله بإجابة مطلبه أيًا كان دون أن يدعو بلسانه بل يتوجه الهمة فقط كأهل الجنة لهم فيها ما تشتهيه الأنفس. كما قال سيدي مصطفى البكري، وذكر الإمام الحاتمي في باب فصول الحضرات حضرة الوجدان، قال: وهي حضرة كن يدعى صاحبها عبد الواجد بالجيم، وهو الذي لا يعتاص عليه شيء إلى آخر ما هناك.

قلت: والتعبير في كلام الغوثية بالفقير عنوان على افتقاره إلى الله وإن غناه بالله وتيسير مراداته بإيجاد الله فضلًا منه، ومن عناية الله به أنه لا يريد إلا ما يوافق القدر على ما سبق وقوعه في علم الله تعالى ولله في ذلك أسرار يعلمها الله ومن أعلمه من خلقه.

ومن كلام الجيلي قدس سره مخاطبًا للسالك ما نصه فحينئذٍ يضاف إليك التكوين وخرق العادات، فيرى ذلك منك في ظاهر الحكم وهو فعل الله عزَّ وجلَّ حقًا في العلم وهذه نشأة أخرى. اهـ.

وبما قررناه يظهر معنى قوله فيما تقدم لو عرف الإنسان منزلته عندي لقال في كل نفس من الأنفاس: لمن الملك اليوم، وهذا المقام المشار إليه في مقامات السلوك هو المقام الخلافة كما قاله البكري وغيره.

وفي المواقف الروحية للأمير ناصح الدين [٢٨/ق] السيد عبد القادر بن محيي الدين السابق ذكره قال في مبحث الإنسان الكامل المشار إليه ما نصه: إن الإنسان الكامل له الظهور بالاقتدار التام تتكون الأشياء عند قوله: كن أو قوله: بسم الله يحيي ويميت ويعز ويذل، ويعطي ويمنع ويُولّي ويعزل، ومع هذا الاقتدار الذي أعطيه فهو في نفسه العبد الذليل الذي لا تشرب عبوديته ربوبية: أي كبرياء بوجه ولا حال لا يظهر لأحد بما أعطاه لله وخصه به من التصوف في العالم أعلاه وأسفله. اهـ.

وهنا انتهى الكلام فيما يتعلق بالجمل التي جلبها من الغوثية نفعنا الله والمسلمين بأسرارها.

وجعلنا من الخبراء بجواهر بحارها ثم قال المعترض: ما ملخصه ولحق أحفاد الشيخ وزاد عليهم الشيخ علي الشطنوفي في مؤلفه البهجة الذي دونه في مناقب الشيخ الجيلي. قال ابن الوردي في تاريخه الكبير: إن في البهجة أمورًا لا تصح ومبالغات في شأن الشيخ عبد القادر لا تليق إلا بالربوبية، وكذلك قال ابن حجر وقال الكمال

جعفر ذكر أي الشطنوفي في البهجة غرائب وعجائب، وطعن الناس في كثير من حكاياته ومن أسانيده فيها. وقال ابن رجب في طبقات الحنابلة: لا يطيب على قلبي أن أعتمد على شيء مما في هذا الكتاب.

أقول: بالغ هذا البذيء في تنغيص الشيخ الشطنوفي صاحب البهجة ولحوم العلماء سم ساعة وما أضر إلا نفسه، ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئًا، وقد أثنى على الشطنوفي العلماء الدجلة كالحافظ السيوطي في حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، فإنه لما ذكره في طبقات العلماء المصريين حلاه بالإمام الأوحد وحسبنا هاتان الكلمتان تزكية من مثل السيوطي ومن شهد له خزيمة فحسبه:

يعرف الفضل لذي الفضـ ـل من الناس ذووه

وأما نقله المذكور عن ابن الوردي فقد أجابه الشيخ عمر بن عبد الوهاب الحلبي صادقًا بالحق لما عثر على قول ابن الوردي ونص جوابه أقول ما المبالغات التي عزيت إليه مما لا يجوز على مثله وقد تتبعتها، فلم أجد فيها نقلًا إلا وله فيه متابعون وغالب ما أورده فيها نقله اليافعي في أسنى المفاخر وفي نشر المحاسن وروض الرياحين، وشمس الدين الركن الحلبي أيضًا في كتاب الأشراف وأعظم شيء نقل عنه أنه أحيى الموتى كإحيائه الدجاجة ولعمري أن هذه القصة نقلها تاج الدين السبكي، ونقل أيضًا عن الشيخ ابن الرفاعي وغيره وإني لغبي جاهل حاسد ضيع عمره في فهم ما في السطور، وقنع بذلك عن تزكية النفس وإقبالها على الله تعالى إن يفهم ما يعطي الله أولياءه من التصريف في الدنيا والآخرة. ولهذا قال الجنيد التصديق بطريقتنا ولاية. اهـ.

قلت: كرامة الجيلي في إحياء الدجاجة حكاها أيضًا الزين المرصفي عصري الشعراني في كتابه داعي الفلاح، والشيخ علي قاري، ثم المحققون على جواز إحياء الموتى بأن الله للولي كرامة له وهي أعلى الكرامات، وممن نص على جوازه ابن حجر لأن كل ما ثبت معجزة لنبي صح وقوعه كرامة لولي كما قال السبكي وصاحب المعيار وغيرهما، نعم إذا نص قاطع أن لا أحد يأتي بمثله أصلًا كالقرآن فلا.

وقد وقع إحياء الموتى من أولياء كثيرين غير الجيلي وابن الرفاعي، كرابعة العدوية وأبي يوسف الدهماني والشيخ مفرج الدماميلي والشيخ الأهدل وغيرهم، بل وقع في القرن السالف من القطب شيخ أشياخنا سيدي علي بن عمر الشريف كما حدثنا به الثقات فلا يستغرب وقوعه من جناب الجيلي الذي امتلأت البسيطة بخوارق

كراماته في كل عصر، وانعقد الاجتماع على عظم ولايته ونفوذ تصرفه في كل مصر.

أما قول المعترض وكذلك قال ابن حجر، أقول: هذا من إيهامه الدال على عدم تحريه في العلم حيث أفهم أن ابن حجر وصف البهجة بمثل قول ابن الوردي ودونك ما قال ابن حجر فإنه قسم البهجة على ثلاث أقسام: ـ

القسم الأول: ما لا منابذة لقواعد الشريعة فيه بحسب الظاهر بل هو جائز شرعًا وعقلًا وهذا معظم الكتاب فإن ظهور الخوارق على البشر واقعة في الوجود ولا ينكرها إلا معاند.

القسم الثاني: ما تردد بين الأمرين فهذا ينبغي الجزم بحمله على المحمل الصحيح ولو بالتأويل.

القسم الثالث: منابذ لقوانين الشريعة في الظاهر فإن أمكن حمله بالتأويل على أمر نافع فذلك وإلا ينبغي اجتنابه. اهـ. ملخصًا واللفظ كله له وذلك أنه سئل عن تزييف ابن رجب للبهجة [٢٩/ق] الذي نقله هذا المعترض، فأجاب بالرد على ابن رجب في إطلاقه التزييف وفصل بما نقلناه عنه رحمه الله، ومن تأمل كلام ابن حجر لا يجد فيه مبتغى هذا المعترض واختلافه عليه بقوله، وكذلك قال ابن حجر وفيه صرح بما يزعمه هذا الباغي، فلا يبعد أن الإمام ابن حجر يقول ذلك حفظًا للفقه وسدًا للذريعة وقلبه معتقد صدق جميع ما في البهجة مؤولًا بما يليق، كما وقع للعز بن عبد السلام الملقب بسلطان العلماء في حاله مع سيدي محيي الدين بن عربي، فقد كان وُصِف ابن عربي في مجلس ابن عبد السلام بالزندقة ولم ينه عن ذلك، فلما اختلى به خادمه من تلاميذه وسأله عن قطب العصر، أجابه: بأنه ابن عربي، فتعجب السائل من عدم ذبه عنه فقال ابن عبد السلام ذلك مجلس الفقهاء فكذا رواه المجد صاحب القاموس.

قلت: وهو ملحظ حسن بالنسبة لمنصبها أعني العز وابن حجر، وكل شيء يباع في أسواقه على أن الإمام ابن حجر كان في أول أمره يحط على الصوفية، ومن ذلك وصفه للعارف بالله سيدي على ابن وفا الشاذلي عصريه بالقول بالاتحاد وإليه يشير في كتابه أنباء الغمر بقوله وشعر ينفق بالاتحاد المفضي إلى الإلحاد، والإمام ابن حجر هو المغنى بقول ابن وفا رضي الله عنهم جميعهم:

وظنوا بي حلولًا واتحادًا ... وقلبي من سوى التوحيد خالي

ولذلك قال المناوي في طبقاته دأب ابن حجر إذا ذكر أحدًا من الطائفة أن لا يبقي ولا يذر. اهـ. إلّا أنه رجع للطائفة وأذعن وصار من رؤوس أهلها كما أفاده الشعراني، وذلك أنه شرح أبياتًا من تائية ابن الفارض وقدم شرحه للشيخ مدين المصري ليكتب له عليها إجازة فكتب على ظهرها.

سارت مشرقة وسرت مغربًا   شتان بين مشرق ومغرب

ثم أرسل ذلك إلى الحافظ ابن حجر، قال الشعراني: فتنبه لأمر كان عنه غافلًا، ثم أذعن وصحب الشيخ مدين إلى أن مات. اهـ. بلفظه.

وحكى ذلك أيضًا العلّامة الحافظ الشيخ محمد أبو راس الغريسي في كتابة رحلته المشرقية الواقعة أوائل القرن المنصرم، فلعل تنكيت الحافظ ابن حجر على البهجة صدر منه قبل سلوكه طريق القوم، وربما يؤيد ذلك اعتماده على البهجة وإكثاره من النقل منها في كتابه غبطة الناظر ولذلك صار يقول: احذروا من الإنكار فإنه يوقع في العشار، وإن المنكر محروم، والمتعنت مذموم، والحق أحق أن يتبع، والباطل عن هؤلاء الأئمة قد اندفع، وقال أيضًا، أقل عقوبة المنكر على الصالحين أن يحرم بركتهم. اهـ. رحمه الله ورضي عنه.

هذا وقد تتبعت كتاب البهجة من أولها إلى آخرها بنظري العاجز، فما وجدت شيئًا منها مخالفًا للشرع أو العقل غير قابل للتأويل، فظهر لي أن المقصود من هاته الرسالة لا يتم إلا باستيعاب الأجوبة عن البهجة في الأمور العالية التي يتوقف فيها وحيث إن أكثرها مذكور في كتابنا هذا بالنظر إلى ما مضى وما سيأتي إما بالإجمال أو بالتفصيل، فالمناسب الختم بخاتمة تشتمل على ما بقي من مباحث البهجة إن شاء الله، وإن بقي شيء في البهجة لم نصرح به فهو داخل في مفاهيم منطوقاتنا ومشمول لكليات كلامنا كما يتنبه له ذو الملكة.

وقوله: ذكر أي صاحب البهجة فيها غرائب وعجائب.

أقول: كيف يترجم للأقطاب الأكابر بما يخلو من الغرائب والعجائب ومن يقدر على إحصاء عجائب مطلق ولي فكيف يمثل ذلك الإمام، وقد قال الشعراني في المترجمين للأولياء: إنما يذكرون بعض أمور على طريقة أرباب التواريخ وأهل الطبقات بل لو رام الولي نفسه أن يتكلم على مقام نفسه لا يقدر كما هو مقرر في كلام أصحاب الدوائر الكبرى. اهـ.

وقوله: وطعن الناس في كثير من حكاياته.

أقول: جوابه ما قاله الشعراني نقلًا عن الخواص ونصه الخلق على طبقات عامة وفقهاء ومتصوفة وصوفية وعارفون وكاملون ومكملون وأقطاب، فكل من كان في مرتبة من هذه المراتب أنكر ما وراءها ضرورة لعدم ذوقه له، فالفقيه ينكر على المتصوف، والمتصوف ينكر على الصوفية، والصوفية تنكر على العارفين وهكذا، والقطب لا ينكر على أحد لمروره على المراتب كلها، ومرادنا بالإنكار من حيث الفهم لا الإنكار من حيث الأحكام التي صرحت بها الشريعة. اهـ. فكيف نتعجب من إنكار مثل هذا الإنسان على مثل الإمام الجيلي وهما في الطرفين من تقسيم [٣٠/ق] طبقات الخلق.

ثم قال المعترض: ونقل أي ابن رجب حكاية النور الذي أضاء به الأفق للشيخ عبد القادر، ثم ظهر له أنه إبليس وأنه عرفه الشيخ بقوله قد أحللت لك المحرمات وإن الضوء انقلب ظلامًا، فقال ابن رجب بعد نقلها: وهذه الحكاية مشهورة عن الشيخ عبد القادر وليس لي اعتماد فيها على نقل مصنف هذا الكتاب أي الشطنوفي.

أقول: ظاهرة أنه غير منازع في نفس الحكاية وإنما يريد زيادة كلمة في تهمة الشطنوفي، والحكاية حكاها كثير من العلماء منهم الشعراني والشيخ مصطفى البكري والبوني في شرحه الأربعين، وصاحب نور الأبصار وغيرهم، وحسبنا في الحكاية ثبوتًا أنها حكاها إمام المحققين وموضح أسرار الدين الأستاذ أبو إسحٰق الشاطبي في كتابه الموافقات المسمى عنوان التعريف بأسرار التكليف رحمه الله وبعض المؤلفين يرويها بالمعنى، ولذلك يقع اختلاف في رواياتها والمعنى واحد.

ورواية الشعراني في اليواقيت قال: قال الشيخ عبد القادر ترأى لي مرة نور عظيم ملأ الأفق، ثم بدت لي فيه صورة تناديني يا عبد القادر أنا ربك وقد أسقطت عنك التكاليف، فإن شئت فاعبدني وإن شئت فاترك، فقلت له: اخسأ يا لعين، فإذا ذلك النور قد صار ظلامًا وتلك الصورة صارت دخانًا، ثم خاطبني اللعين قال لي: يا عبد القادر نجوت مني بعلمك بأحكام ربك وفقهك في أحوال منازلاتك، ولقد أضللت بمثل هذه الواقعة سبعين من أهل الطريق، فقيل للشيخ عبد القادر من أين عرفت أنه شيطان؟ فقال بإحلاله ما حرمه الله على لسان رسول الله ﷺ. اهـ.

والبكري قال: أجابه الجيلي بقوله: كذبت إنك شيطان إن الله لا يأمر بالفحشاء والواقعة كانت في بدايته رضي الله عنه والبوني بعد ذكره الحكاية، قال فبالعلم أرغم

أنفه، وطوى ما نشره من خيالاته ولفه، ظنه من تلك العصافير، التي تؤخذ بمجرد التصفير، وما درى الغبي أن شوامخ الجبال، لا تهزها نفخة ناموس الضلال، تربت يداه فيما ادعاه، وخاب مسعاه، فحاشى لله أن يضل وليًا تولاه، وهو يتولى الصالحين، في كل حين، مغرور جاهل بالمراد، حسب أن كل وحشي يصاد، وما درى أن الأسود الضارية، إنما الغبطة في السلامة منها والعافية. اهـ.

ولا مانع من أن هذا المعترض نظم هذه الحكاية في سلك اعتراضاته مشيرًا إلى استبعاد وقوعها؛ لأنه يستشكل الضروريات فضلًا على النظريات، فجوابه أنه لا يمنعه العقل ولا الشرع ولعله توقف لحديث أن الشيطان لا يتمثل نبي، يقول إذا استحال تمثله بالأنبياء فكيف بالباري جل جلاله، فقد أزال الإشكال في ذلك المحقق سيدي محمد الزرقاني في شرح المواهب نقلًا عن الشيخ أكمل الدين الحنفي شارح المشارق، وهو شيخ السيد الفنري[1]، وإن كان الإشكال هناك ليس من هذه الجهة؛ لأن ظهور إبليس للإضلال مُدَّعيًا أنه الباري، أمر مُسَلَّم مفروغ منه بل الإشكال من جهة إبليس تراءى لكثير وخاطبهم بأنه الحق ليضلهم فضل جمع مع أن عظمة الله أتم من عظمة كل عظيم هكذا أورده أكمل الدين.

ثم أجاب رحمه الله: بأن كل عاقل يعلم بأن الحق لا صورة له معينة توجب الاشتباه بخلاف النبي فصورته معينة معلومة وبأن مقتضى حكمة الحق أنه يضل من يشاء ويهدي من يشاء بخلاف النبي، فإنه متصف بالهداية ظاهر بصورتها ورسالته. إنما هي لذلك لا للإضلال فلا يكون منه إضلال لأحد البتة، فوجب عصمة صورته من أن يظهر بها شيطان. اهـ.

قلت: وقد وقع لشيخنا الأستاذ سيدي محمد بن أبي القاسم الشريف حال سلوكه ما يقرب من واقعة الإمام الجيلي كما حكاه عن نفسه حفظه الله في رسالة كان أجابني بها عن أسئلة سألته إياها سنة ١٣٠٦ قال بعد حكاية واقعة الجيلي المذكورة ما نصه: وقد وقع لي في ابتداء أمري ما يقرب من هذا وذلك أني كنت مختليًا أذكر اسمه هو هو هو فأتاني خطاب من الشيطان الرجيم، فقال لي: ما هذا هو الذي تذكره فقلت له: هو الأول والآخر، فقال لي: أنا الأول عبادة والآخر ممات. فقلت له: يا عدو الله هو الأول من غير ابتداء، والآخر من غير انتهاء واشتددت عليه بذكر الاسم

---

(١) هكذا بالأصل.

المذكور فخرج هاربًا مطرودًا، وعلى ظهره شعلة من نار فأحرقته وله صراط حتى غاب من الكون وانغمس في عين حامية.

ثم قال المعترض: وأما الحكاية المعروفة عن الشيخ عبد القادر أنه قال: قدمي هذه على رقبة كل ولي لله فقد ساقها [٣١/ق] صاحب البهجة عنه من طرق متعددة وأحسن ما قيل في هذا الكلام ما ذكره السهروردي في عوارفه أنه من شطحات المشايخ التي لا يقتدى بهم فيها ولا يقدح في مقاماتهم.

أقول: يأتي الكلام على هاته الحكاية مستوفي إن شاء الله وقوله: هنا من شطحات المشايخ. . . الخ، السهروردي لم يقل ذلك كما سيأتي بيانه وقوله: لا يقتدى بهم فيها، هاته الكلمة لم يقلها السهروردي، وإنما هي من كلام هذا المعترض؛ لأنه يكتب قشور الكلام وقد يكون ليس فيها لب من المعاني، وإلا فكيف يتصور الاقتداء بمن قال: قدمي هذه على رقبة كل ولي لله حتى ينهي عنه، أيتوهم أن المقتدي بالجيلي يقول: قدمي هذه على رقبة كل ولي لله، نعم قال العلماء: إذا عمل الولي شيئًا مخالفًا للسنة فسلم حاله ولا تقتد به كالولي اللاحن في الذكر أو الذي يصيح فيه، وكأقوال بعضهم الموهمة للاتحاد مثلًا وكالولي الذي أنكر عليه بعض علماء عصره عدم قصه شاربه لمخالفته للسنة فاعتذر له أن عدم قصة لحكمة، فلم يقبل وقد أتى ذلك العالم بالمقراض، فقال له الولي: قص شعرة فقصها، فسأل نهر من دم مغرف عذره، والقصة طويلة نقلها البكري في كتابه (السيوف الحداد. في أعناق أهل الزندقة والإلحاد). رواها عن الإمام النابلسي فمثل هذه الواقعة يقال فيها: لا نقتدي به في عدم إحفاء الشارب وإن تبينت لنا كرامته في ذلك.

ثم قال المعترض: ولما كان الشيخ أبو الفرج بن الجوزي عظيم الخبرة بأحوال السلف قلَّ من كان في زمانه يساويه في معرفة ذلك، وكان له أيضًا حظ من ذوق أحوالهم، وكان لا يعذر المشايخ المتأخرين في طرائقهم المخالفة لطريق المتقدمين وقد قيل إنه صنف كتابًا ينقم فيه على الشيخ أشياء كثيرة قال في كتابه إن عبد القادر أخطأ طريق الوعظ يشاهد قول الله: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ [النحل: الآية ١٢٥]، إلى أن قال المعترض: وأطال ابن الجوزي رحمه الله، وقد اختطفته الغيرة الدينية فأغلظ في كتابه المذكور على الشيخ وطائفته، وقال: وخلاصة الأمر أن عبد القادر مع ما كان عليه يجتهد بأن يقود الناس إلى الحق لكن اختلافه من أولاده وأحفاده على الغالب خرجوا عن سيرته إلى أن قال المعترض،

وللشيخ ابن الجوزي رحمه الله كتابان في هذا الموضوع مشهوران أطال بهما كل الإطالة ووضح ما يلزم إيضاحه.

أقول: إنما حذفت أسطارًا من عجرفته وإن كانت من اعتراضاته التي التزمت بعدم حذفها كراهة أن ألوث لساني بها ولو على سبيل الحكاية كما قيل:

لهم كلام هنا إن شئت تعرفه فاعرفه منهم ولا تعرفه من قبلي

على أني أجبت عنها بعد إسارتي إلى معناها فيما يأتي ثم إن ابن الجوزي من أشاهر العلماء، وما كان ينبغي التعرض له بغير الثناء الجميل وحيث عرضه هذا الباغي فلا محيص لنا عن التعرض له والظالم أحق بالحمل عليه.

وقت الضرورة لا يبقى به جزع والكف تضبط حد الصارم الذكر

والمشهور عن ابن الجوزي سامحه الله اعتراضه على عموم القوم، أما تخصيصه جناب الإمام الجيلي بالتأليف فلم نعثر عليه سوى ما قاله هذا الفضولي والعهدة عليه وإلا فالإمام الجيلي كأنه المعنى بقول القائل:

جبل الأنام على الخلاف وفضله في الناس مسألة بغير خلاف

ولنجلب ما قاله جهابذة العلم في حال ابن الجوزي مع اعترافنا بجلالة علمه ووفور فضله وإنما تحرير جزئيات المسائل مقيد ولا بد بقولهم: «الرجال تعرف بالحق لا الحق يعرف بالرجال».

قال ابن الأثير في تاريخه الكامل في حوادث سنة ٥٩٧ ما نصه: وفي هذه السنة في شهر رمضان توفي أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي الحنبلي الواعظ ببغداد وتصانيفه مشهورة وكان كثير الوقيعة في الناس لا سيما في العلماء المخالفين لمذهبه والموافقين له. اهـ.

ومثله في تاريخ الخميس وقال أيضًا ابن الأثير في ترجمة الحافظ ابن السمعاني في حوادث سنة ٥٦٢ ما ملخصه: وفيها توفي عبد الكريم بن السمعاني الفقيه الشافعي، وكان مكثرًا من سماع الحديث سافر في طلبه وسمع منه ما لم يسمعه غيره، وله التصانيف المشهورة منها ومنها ومنها... وعدد تآليفه، ثم قال ما نصه: وقد جمع مشيخته فزادت عدتهم على أربعة آلاف شيخ، وقد ذكره أبو الفرج بن الجوزي فقطعه فمن جملة قوله فيه: إنه كان يأخذ الشيخ ببغداد ويعبر به إلى فوق نهر عيسى، فيقول: حدثني فلان بما وراء النهر وهذا بارد جدًا، فإن الرجل سافر [٣٢/ق] إلى ما

وراء النهر حقًا وسمع في عامة بلاده من عامة شيوخه فأي حاجة إلى هذا التدليس البارد، وإنما ذنبه عند ابن الجوزي إنه شافعي وله أسوة بغيره فإن ابن الجوزي لم يبق على أحد إلا مكسري الحنابلة. اهـ.

وقال التفتازاني في ترجمة أبي عبد الرحمٰن السلمي صاحب الحقائق في التفسير بالباطن أستاذ قدوة العارفين أبي القاسم القشيري ما نصه: وقد طعن فيه ابن الجوزي كما هو دأبه في شأن الأئمة. اهـ.

وذكر العلّامة البوني التميمي المذكور سابقًا في كتابه مبين المسارب أن الإمام ابن عرفة وغيره حذروا من مطالعة كتاب ابن الجوزي المسمى (تلبيس إبليس) لأنه سب فيه القوم كالجنيد وغيره، وقال: هم قوم جاوزوا المجانين فذلك الكتاب من (تلبيس إبليس) على ابن الجوزي.

ثم قال البوني بأثره وقال الأجهوري في الفتاوى: لا تجوز قراءة كتب ابن الجوزي في المساجد بين العوام لكثرة ما نقله من الأحاديث الموضوعة، وقراءة مقامات الحريري أولى من قراءة كتبه؛ لأنها لا تعد كذبًا. اهـ.

قلت: ومن ذلك قدحه في حجة الإسلام الغزالي كما ذكره الشيخ مراد الأزهري في الفتح الكامل، ومن ذلك رسالته المسماة (عجالة المنتظر في شرح حال الخضر) قال فيها: القول بحياة الخضر هواجس ووسواس وطعن في أحاديث وجود الأبدال في الأمة ذكره الزرقاني في شرحه على المواهب بعدما شرح الحديث الوارد في وجود الأبدال في هذه الأمة الذي رواه أحمد والطبراني وغيرهما.

قال ما نصه وأورده ابن الجوزي في الموضوعات، ثم سرد أي ابن الجوزي أحاديث الأبدال وطعن فيها واحدًا واحدًا وحكم بوضعها، وتعقبه السيوطي بأن خبر الأبدال صحيح وإن شئت قلت: متواتر، ثم قال: مثل هذا بالغ حد التواتر المعنوي بحيث يقطع بصحة وجود الأبدال ضرورة. اهـ.

قلت: ولعل السيوطي لأجل إنكار ابن الجوزي ألف كتابه (الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد والنجباء والأبدال)؛ لأنه ذكر في أوله أنه بلغه إنكار بعض الناس أن في الأولياء أبدالًا ونقباء ونجباء وأوتادًا وقطبًا... الخ، ولنرجع إلى رد هذيانه، المؤذن بخذلانه ـ أعني هذا المعترض مؤلف الرسالة ـ إذ منه سمعناه وما بلغ المكروه إلا من نقل قوله: ولما كان الشيخ أبو الفرج بن الجوزي عظيم الخبرة... الخ.

أقول: ذلك أساس ليرسخ بزعمه ذم الجناب المطهر ويأبى الله إلا أن يتم نوره، وابن الجوزي غفر الله له إنما تخرج بسيدي عبد القادر الجيلي وبه تفقه، ولذلك كان حنبليًا كما أفاده الشيخ علي العدوي وغيره.

فهذا المعترض احتجب بالفرع عن الأصل وفي ألفية سيدي مصطفى البكري في مقام آخر:

وكل من تحجبه الظلال عن شاخص قد أمّه الضلال
وناظر تمنعه الفروع شهود أصل حبله مقطوع

وماذا عسى أن يصل ابن الجوزي إلى الجيلي في خصوص علم الظاهر من الكتاب والسنة بقطع النظر عن بحور علم الحقيقة، ثم أقول من باب تحسين الظن لا يبعد أن ابن الجوزي رجع في آخر أمره إلى حُسن الاعتقاد في الجنيد والجيلي وغيرهما من الأولياء والصالحين، إذًا العلم يهدي صاحبه إلى منهج السعادة ولو بعد حين.

وقول المعترض: إن عبد القادر أخطأ طريق الوعاظ إلى آخر وصفه للشيخ بما معناه أنه لا ملاحظة عنده في الموعظة قدس الله جنابه ليس الشأن في الواعظ أن يكون دائم اللين ولا دائم الأغلاظ على الموعوظين، بل الحكمة أن يعطي كل مقام ما يستحقه كما يعرفه من اطلع على سيرة النبي ﷺ، وسيرة الصحابة والسلف، فقد كان ﷺ في بعض خطبه يرى منه أصحابه شدة قوية حتى تنتفخ أوداجه ﷺ، ومنه حديث الذي سأله وهو ﷺ يخطب قائلًا: من أبي؟ فقال ﷺ: «أبوك فلان وكان يدعى لغيره». وسأله آخر: أين أبي؟ فقال: «في النار»[1] إلى آخر الأحاديث الواردة في نحو ذلك.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه كثيرًا ما يؤدب الناس بالسوط المشهور بالدِرة وهي بكسر الدال. جلد مركب بعضه على بعض.

وأما إفك هذا المعترض في نفي التهذيب وحسن الأخلاق عن الإمام الجيلي خلافًا للسلف فتبًا له ما أجهله، وعقله ما أرذله، وهل للسلوك الذي كان اعترف به للجيلي معنى غير التهذيب والتجلي بالفضائل والتخلق بالأخلاق [٣٣/ق] المحمدية

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٢٦٦٠)، ومسلم (٤/ ١٨٣٢)، وأحمد في المسند (٣/ ٢٠٦)، والترمذي (٥/ ٢٢٦)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٣٨)، وأحمد في المسند (٣/ ٢٠٦).

والجيلي سيد السالكين، وممد الواصلين، وأستاذ الأساتذة المحققين، ناديه موسم العلماء والعارفين، ومورده مزدحم للصالحين والطالحين، يقصده الموفقون لمزيد الهداية، والظلمة تجذبهم إليه سلاسل العناية، والكل بين يديه يطلب علاجه، وهو مطلع على كلٍّ ويخبر مزاجه، فيلقي للجميع علاج سقامه، وراء أوامه، إما بنفثات مقال، أو بإمدادات حال، وليس ما يصلح يزيد يصلح بعمرو، بل ولا علاج الواحد اليوم ينفعه سائر الدهر، فكانت الحكمة أن يعامل كل شخص بما يناسب، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب، وكأن هذا المعترض الباحث على حتفه يظلفه، بحسب موافقة الغافلين، ومجابرة الظالمين، هو الخلق الحسن المحمود في السنة كلا إنه أخطأ معناه، وأطلق الاسم على غير مسماه، فتلك المداهنة المذمومة، التي هي بخاتم النفاق موسومة، ولو طالع أحياء علوم الدين، ومثله من أنفاس المهتدين لعرف سيرة السلف، ونجا من مهاوي التلف، ففي الجواب المكتوب من سفيان الثوري للرشيد أوضح دليل، وكذا توبيخ الفضيل له وهو يكفكف دموعه مثل الصاغر الذليل، ومحمد بن واسع لما قال له الأمير ابن أبي بردة: ادع لي، قال: وما تصنع بدعائي وعلى بابك كذا وكذا كُلٌّ يقول إنك ظلمتهم يرتفع دعاؤهم قبل دعائي.

وتوبيخ عبد الله العمري للرشيد في مكة بما يبكيه حتى صار الرشيد يقول: إني لأحب أن أحج كل سنة ما يمنعني إلَّا رجل من ولد عمر ثم يسمعني ما أكره.

والإمام مالك حين حكم في حضرة الوالي وجماعة من العلماء يقتل رجل، فخاطبه الوالي والعلماء في شأنه متوقفين في ذلك قال الإمام مالك: والله الذي لا إلٰه إلا هو لا تكلمت في العلم أبدًا أو تضرب عنقه وسكت فكلم فلم يتكلم فارتجت المدينة وصياح الناس، وقالوا: إذا سكت مالك فمن يجيب، فضرب الوالي عنق المحكوم عليه، ثم بين لهم الإمام خطأهم فيما استندوا إليه في التوقف، وهكذا حال سائر الأئمة مع الولاة، وغيرهم من الفاتكين والقساة.

وطاوس اليماني لما خاطب هشام بن عبد الملك ولم يقل يا أمير المؤمنين عاتبه. فقال: خفت أن أكذب لأنه لم يتفق على إمارتك المؤمنون كلهم. قال حجة الإسلام بعد ذكر حكاية طاوس ومن خالط الناس ولم يحترز هكذا فليرض بكتب اسمه في جريدة المنافقين. اهـ.

أين معرفتك يا من يفسر الخلق الحسن بالمداهنة والنفاق؟ ولو كان القول بأن لازم المذهب مذهب راجحًا لحكمنا بكفره لقوله تعالى مخاطبًا لنبيه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ

خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: الآية ٤]، وهذا فسر الخلق بما فسره لكن خلاف العلماء رحمة.

أين أنت يا ذنب الذنب طفيلي ويقترح تطفلت على الطلبة فتركوك تسود القرطاس مع المبتدئين، فتجرأت بهذه المثابة على أكابر الأمة وعمد الدين، لا تطعم العبد الكراع فيطمع في الذراع، وما أحراك أن تخاطب بمثل قول سيدنا عمر أتتشبهين بالحرائر يا لكاع.

هذا وقد ذكر أصحاب كتب الطبقات والمناقب في ترجمة الجيلي ما نصه: كان مع جلالة قدره يقف مع الصغير والجارية، ويجالس الفقراء ويغلي لهم ثيابهم، وكان لا يقوم لأحد قط من العظماء ولا أعيان الدولة ولا ألم قط بباب وزير أو سلطان. اهـ. واللفظ للشعراني.

وقال أبو المظفر الواسطي: ما رأت عيناي أحسن خلقًا ولا أوسع صدرًا ولا أكرم نفسًا ولا أعطف قلبًا ولا أحفظ عهدًا وودًا من الشيخ عبد القادر رضي الله عنه. اهـ.

قلت: وقد عقد الجيلي قدس سره في الغنية فصلًا في حسن الخلق يحض عليه، وكل إناء يرشح بما فيه، وذكر هناك فصلًا غزير الفائدة في تأديب المريدين تعريفًا للأشياخ المرشدين حض فيه على الشفقة والرفق واللين رحمة بعباد الله، وتوخيًا لنفعهم على سبيل الإحسان ولولا الإطالة لجلبناه رضي الله عنه وأرضاه.

ثم قال المعترض نقلًا عن الترياق للواسطي بعد الثناء على الإمام الجيلي رأيت كتابًا في مناقبه وأخباره وكراماته جمعه الشطنوفي كتب فيه الجائز والمستحيل وجمع فيه الطم والرم... الخ.

أقول: انطلق نحو الصفحتين قدحًا في البهجة وفيما ذكرناه كفاية مع تكفل كتابنا هذا بخاتمة في الجواب على كلمات البهجة المشكل ظاهريًا.

ثم قال المعترض في صاحب البهجة: وتجرأ على الملائكة والأنبياء وخرق حد الأدب الشرعي.

أقول: بعين المواضع المذكورة فيها الملائكة والأنبياء عليهم السلام التي أشار إليها [٣٤٦/ق] المعترض وابتدأ بالأنبياء، ذكر الشيخ الشطنوفي في حال الأنبياء مع الإمام الجيلي في خمسة مواضع:

الأول: نقله عن الجيلي في رجوع السالك إلى إرشاد الخلق أنه يرجع في موكب الرسول ﷺ وأصحابه.

الثاني: كلام مثله.

الثالث: قول الجيلي رضي الله عنه وهو على ما من نبي ولا ولي إلا وقد حضر مجلس هذا الأحياء بأبدانهم والأموات بأرواحهم.

الرابع: قول الشيخ بقا رضي الله عنه حضرت مجلس الشيخ عبد القادر رضي الله عنه مرة فبينما هو يتكلم على المرقأة الثانية فأشهدت أن المرقأة الثانية قد اتسعت حتى صارت مد البصر وفرشت من السندس الأخضر، وجلس عليها رسول الله ﷺ والخلفاء الأربع، وتجلى الحق سبحانه على قلب الشيخ عبد القادر فمال حتى كاد يسقط، فأمسكه رسول الله ﷺ لئلا يقع.

الخامس: قول الشيخ القيلوي قدس الله سره رأيت رسول الله ﷺ وغيره من الأنبياء صلوات الله عليهم في مجلس الشيخ عبد القادر غير مرة، وإن السيد ليشرف عبده. اهـ.

وأي تجري على الأنبياء فيما ذكر والكلمة الأخيرة وهي قوله وإن السيد ليشرف عبده هي الجواب الشافي لصاحب القلب الصافي والعقل الوافي.

وفي الحديث الصحيح أنه ﷺ يعود المساكين ويجالس الفقراء ويجيب دعوة العبد، ويجلس بين أصحابه مختلطًا بهم حيثما انتهى به المجلس جلس، ومعلوم أن جميع الأنبياء عليهم السلام أحياء، كما حققه بالنقل والعقل فمعاملاتهم عليهم السلام للناس من حسن أخلاقهم وتواضعهم لا تنقطع نعم لو ادعى في البهجة رفعة الجيلي عليهم أو اختصاصه بشيء لم تصل إليه أيديهم أو حضورهم بمجلسه ليستفيدوا لم يقبل ذلك من الشطنوفي ولشنت عليه غارات المهتدين من حماة الملة وأنصار الدين، والشطنوفي نفسه حكى عن الجيلي أنه قال: أول أحوال الأنبياء غاية مراقي الأولياء بداية أفعال الرسل أقصى معارج همم العارفين.

قلت: وفي هذا التركيب العجيب ما لا يخفى من البلاغة المؤذنة بأن الأولياء لا يستنشقون رائحة لمقام الأنبياء ولو علوا ما علوا، ولعل المعترض قصد أيضًا ما يوجد في نسخ البهجة أن الجيلي كان يومًا يتكلم فخطا في الهواء خطوات، وقال: يا إسرائيلي قف واسمع كلام المحمدي، ثم رجع إلى مكانه فسألوه عن ذلك، فقال: مر

أبو العباس الخضر على مجلسنا عجلًا فخطوت إليه وقلت له ما سمعتم. اهـ. ووجهه والله أعلم أنه من باب إدلال الابن على أبيه الروحي؛ لأن الخضر عليه السلام له على الجيلي تربية في زمن سياحته ومجاهدته على يده كما حكاه صاحب البهجة نفسه والشعراني في الطبقات وغيرهما.

فهو كالولد الذي يرى أباه نجابته وثمرة تغذية أبيه له، ونداؤه بيا إسرائيلي كالمزاح، وقد كان النبي ﷺ يمازح أصحابه ولا يقول إلا حقًّا ولا نقص في نسبته لإسرائيل، فإنها نبوة لجده والد الأنبياء المفضلين سيدنا يعقوب، فإنه هو إسرائيل عليه الصلاة والسلام وحينئذٍ لا حرج في مقاله المشار إليه لا سيما وعند القوم أن سيدنا الخضر عليه السلام غير نبي بل من الأفراد أهل مقام القربة، وهو مقام فوق صديقية الأولياء ودون نبوة الأنبياء، وهذا المقام ارتقى إليه جماعة من أكابر أولياء هذه الأمة كما قاله الحاتمي وغيره وقد حررنا بقدر الإمكان ما يتعلق بسيدنا الخضر في رسالتنا المسماة برق المباسم في ترجمة شيخنا سيدي محمد بن أبي القاسم. والله أعلم.

وأما الملائكة فالشطنوفي ذكرهم في ثلاثة مواضع بالنظر إلى ما توهمه هذا المعترض:

الأول: قوله عن الشيخ موسى الزولي كيف لا أتأدب مع من تتأدب معه ملائكة السماء.

الثاني: قول الجيلي: أنا شيخ الكل يعني الإنس والجن.

الثالث: قوله لما قرأ القارىء بين يدي الشيخ كالمخاطب للملائكة إلى كم نُسبّح بحمدك ونقدس لك أفشيتم أسراركم وكتمنا، ثم قال: انزلوا يا ملائكة ربي احضروا فربما كان جمعنا أكمل من جمعكم. اهـ.

أقول: التحرير يستدعي ذكر مسألتين:

الأولى: تفضيل الملائكة على البشر والعكس، فالراجح في ترتيب الأفضلية أن الأنبياء أفضل من رؤساء الملائكة، ورؤساء الملائكة أفضل من عامة البشر وعامة البشر أفضل من عامة الملائكة، والمراد بعامة البشر هنا الصحابة والأولياء وليس المراد ما يشمل الفساق فإن مطلق الملائكة [٣٥/ق] أفضل منهم وإنما وصفوا أي خواص البشر غير الأنبياء بالعامة بالنسبة للأنبياء والأدلة مبسوطة في علم الكلام.

الثانية: قطبانية الإمام الجيلي فإنه هو قطب زمانه وغوث عصره كما ذكره الشعراني والحاتمي والبكري والحافظ ابن حجر العسقلاني وغيرهم.

والقطب يبايعه العالم كله ومن جملة من يبايعه الملائكة كلهم إلا العالون وهم المهيمون في جلال الله العابدون بالذات لا بالأمر كما يستثنى من البشر الجماعة المعروفون عند الأولياء بالمفردين ويقال لهم الأفراد وأول من يبايعه الملأ الأعلى على مراتبهم الأول، فالأول ويسأله كل واحد منهم سؤالًا في العلم الإلـهي فيجيبه بما يفيده مما أفاض الله عليه إلى آخر ما ذكره الإمام الحاتمي، وقد أفرد أعني الحاتمي للمبايعة القطبية كتابًا كبيرًا أشار إليه في الفتوحات سماه مبايعة القطب في حضرة القرب ضمنه مسائل كثيرة وعلمًا غزيرًا مما سئل عنه القطب، فأجاب أي قطب عصر الحاتمي نفعنا الله بجميعهم.

ومن كلام الولي الكامل الشيخ سيدي عبد الحفيظ بن محمد الخلوتي في رسالته المسماة نصرة المقتدى التي ألفها رضي الله عنه في عجائب الإنسان الكامل ما نصه: ومن أعجب العجائب أن يكبر الولي، وهو الإنسان الكامل ويتعاظم حتى لا تقف الملائكة الكروبيون على حد ابتداء أمره وغاية نهايته وكذلك حفظة أعماله لا تشهد له حسنة ولا سيئة ويصيرون يثنون عليه بخير إلى يوم القيامة. اهـ.

فبان بهذا صاحب البهجة لم يتجرأ ولم يقصد انتقاص الملائكة عليهم السلام، ويحتمل قوله فربما كان جمعنا أكمل من جمعكم أي بحضور النبي ﷺ أو غيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأي كمال فوق ذلك، بدليل أنه لم يقل فإني أكمل منكم وتعبيره بربما يقرب هذا المعنى؛ لأن حضور الأنبياء ليس مستغرقًا جميع أوقات مجالس الشيخ رضي الله عنه والمقام قابل لإطالة الكلام وما شرحناه يكفي. والله أعلم.

ثم قال المعترض: وكم نسب في هذا الكتاب للشيخ عبد القادر من الشطوحات والدعاوى العريضة والكلمات المتعلقة بتحقير أولياء الله، وقد بنى كتابه هذا على مقصدين:

الأول: إعلاء الشيخ عبد القادر على أعيان الأمة المحمدية من الأولياء وأهل حضرة الحق، وأنهم تحت قبضه وبسطه أذلاء لديه لا يرفعون رأسًا وكان الأمر تصوف ملك عضوض.

والثاني: إن فضل الله قد انحصر فيه وفي أتباعه، وهم خير الناس وأفضلهم وأحبهم إليه، كيف كانوا وختم كتابه غفر الله له بتراجم أحوال بعض أعيان الأولياء نقل ما قاله فيهم رجال عصرهم سترًا للقصد المضمر وأوضح المقصد، فذكر أن كل واحد من هؤلاء الرجال السابقين عن عهد الشيخ عبد القادر واللاحقين به، قالوا بشطحاته ونبهوا عليها واعترفوا أنها أمر من الله تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا، وما ذاك إلا بهتان صريح وزور مختلق على الشيخ وعلى بقية أحباب الله رضوان الله عليهم أجمعين.

أقول: قوله المقصد الأول وهو إعلاء الشيخ عبد القادر... الخ. يشير به إلى ما في البهجة من قول الجيلي: «قدمي هذه على رقبة كل ولي لله» وسيأتي الكلام عليها، ويشير به إلى نقل الشطنوفي بسنده إلى الحميدي. أنه قال: كان تحية الأولياء والأبدال والأوتاد للشيخ عبد القادر بعد قوله قدمي هذه... الخ.

السلام عليك يا ملك الزمان ويا إمام المكان يا قائمًا بأمر الله ويا وارث كتاب الله ويا نائب رسول الله، يا من السماء والأرض مائدته وأهل وقته كلهم عائلته، يا من ينزل القطر بدعوته ويدر الضرع ببركته. اهـ.

ونقله عن قضيب البان حين سئل عن الجيلي قال: كانت الأولياء الغيبيون يحضرون عنده بعد أن قال قدمي هذه... الخ، ورأيت رؤوسهم منكسة هيبة له. اهـ.

ونقله بسنده عن الشيخ البطائحي، قال: وجدت عند الشيخ أربعة رجال ما رأيتهم قبل فلما خرجوا من عنده سألتهم الدعاء. فقال لي أحدهم: لك البشرى أنت خادم رجل يحرس الأرض ببركته إلى أن قالوا: نحن وسائر الأولياء في حضرة أنفاسه وتحت ظل قدميه وفي دائرة أمره. فلما رجعت للشيخ قال لي قبل أن أخبره لا تُعلم أحدًا بما قالوا لك يا أخي، فسألته عنهم، فقال: هم رؤساء جبل قاف. اهـ.

ونقله عن ابن الهيتي. قال: دخلت بغداد مرة لزيارة الشيخ عبد القادر فوافيته فوق سطح مدرسته يصلي الضحى وصفوف من رجال الغيب واقفون، فقلت لهم: ألا تجلسون؟ قالوا: حتى يقضي القطب صلاته ويأذن لنا، فإن يده فوق أيدينا وقدمه على رقابنا، وأمره علينا كلنا فلما سلم أقبلوا إليه مبادرين يسلمون عليه ويقبلون يده. اهـ.

وقول الإمام الجيلي نازعني في حالي اثنان، فضربت أعناقهما في حضرة الله عزَّ وجلَّ. وقول الجيلي أيضًا: أنا سيفي مشهور إلى أن قال رضي الله عنه يا رجال يا

أبطال يا أطفال هلموا خذوا عن البحر الذي لا ساحل له. اهـ. إلى غير ذلك من نحو هذا الكلام المروي في البهجة بالأسانيد، وهذا كله ليس فيه ما يؤذن بتحقير أولياء الله كما زعمه هذا المعتوه، بل هو شرف لهم حيث عرفهم الله بغوث العصر وجمعهم به عالمين بمقامه عاملين باحترامه.

وقد عدّ سيدي محيي الدين ابن عربي من النعم معرفته بغوث زمانه اجتمع به بفاس سنة ٥٩٢، وحضر معهما جماعة من أهل الله معتبرون غير عارفين بالغوث، ولعل هذا قبل أن تحصل الغوثية للحاتمي، ثم احترام الأولياء لقطب الزمان أمر قهري، ذكر الحاتمي أن القطب هو واحد الزمان ويبايعه العالم كله حتى الجن والنبات إلى آخر ما ذكر من عجائبه وقد مر لنا طرف في حال الملائكة مع القطب، وفي الإبريز للعلامة ابن المبارك عن شيخه سيدي عبد العزيز أن الأولياء يحترمون القطب احترامًا كبيرًا حتى أنهم إذا حضر القطب في الديوان لا يقدر أحدهم أن يحرك شفته السفلى بالمخالفة فضلًا عن النطق بها، فإنه لو فعل ذلك يخاف على نفسه من سلب الإيمان فضلًا عن شيء آخر. اهـ. وسيأتي تمام الكلام في هذا المقام في مبحث قوله رضي الله عنه: قدمي هذه... الخ.

فنقول هذا المتعدي كان الأمر تصرف ملك عضوض جهل واضح وطيش فاضح فالصمت زين للعاقل وستر للجاهل.

تنبيهان:

الأول: كنّا يومًا في مجلس شيخنا سيدي محمد بن أبي القاسم الشريف رضي الله عنه فسأله بعض الإخوان عن قول الإمام الجيلي قُدِّسَ سرّه «إنما القطب خادمي وغلامي» قائلًا له أتوجد رتبة فوق القطبانية، فأجاب: نعم وهي الخلافة، وهذا كقول بعضهم أُنَزِّه شيخي عن مقام القطبانية بل هو أعلى. وبيان ذلك أن خلافة النبوّة هي التي كان فيها الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم، وقد قال النبي ﷺ: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تصير ملكًا عضوضًا»[1]، فكان يوم موت سيّدنا علي بقي من الثلاثين سنة ستة أشهر، وهي مدة ولاية ابنه سيّدنا الحسين رضي الله عنه، وعند تمام الستة أشهر التي كان فيها أمير المؤمنين سلّم في الولاية الظاهرية ووُلّي القطبانية وبه بدأت، فهو أول قطب في الأمة وبقيت عند الخلافة الباطنية، ولم تزل

---

(١) رواه ابن حبان (١٥/ ٣٩٢)، والبزار في مسنده (٩/ ٢٨٠).

في الأمة المحمدية يرتقي إليها مَن منحه الله ذلك، وهي أعلى من القطبانية وليس كل قطب ينالها. اهـ. باختصار من جوابه الذي تلقّيناه عنه مشافهة حفظه الله ونفعنا بعلومه.

الثاني: سألت شيخنا المذكور في بعض مجالس معه نفعنا الله به عن زيادة الكعبة لبعض الأكابر من الأولياء. فقال صحيح، وفي الحديث الشريف: «المؤمن عند الله أعز من الكعبة»[1]، والمراد به المؤمن الخاص، وقد قال تعالى: «ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن»[2]، ولم يقل وسعتني الكعبة مع أنها مضافة إليه تعالى الإضافة الخصوصية، فإنها تسمى بيت الله ومعنى سعة قلب المؤمن لله هو امتلاء القلب بجلال الله ومحبته وسره ونوره إلى آخر ما خصه الله به لا من باب الحلول والاتحاد، فلا غرابة في تبرك الكعبة بهذا المؤمن الخاص الذي صار قلبه محشوًّا بتلك البركات. اهـ. جوابه بلفظه.

قلت: وأشهر الأولياء بهاته الكرامة الجليلة الإمام الجيلي قدس الله سره لقوله:

كل قطب يطوف بالبيت سبعًا   وأنا البيت طائف بخيامي

وفي حاشية ابن عابدين على الدر المختار نقلًا عن البحر الكعبة إذا رفعت عن مكانها لزيارة أصحاب الكرامة ففي تلك الحالة جازت الصلاة إلى أرضها، ثم قال ابن عابدين: قال الخير الرملي: وهذا صريح في كرامات الأولياء فيود به على من نسب أمامنا إلى القول بعدمها. اهـ.

وقال السعد في شرح المقاصد بعدما تعجب من رد بعض الفقهاء: كرامة طي الأرض لإبراهيم بن أدهم ما نصه: والإنصاف ما ذكر الإمام النسفي حين سئل عما يحكى أن الكعبة كانت تزور واحدًا من الأولياء هل يجوز القول به، فقال: نقض العادة على سبيل الكرامة لأهل الولاية جائز عند أهل السنة. انتهى.

وقال اليافعي: وقد سمعنا سماعًا محققًا أن جماعة شوهدت الكعبة تطوف بهم طوافًا محققًا، قال: ورأيت من شاهد ذلك من الثقاة الأتقياء [٣٣/ق] بل من السادات العلماء، وفي كتاب (ربح التجارة للعالم المتفنن) للشيخ علي بن موسى الجزائري،

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) رواه الديلمي في الفردوس (٣/ ١٧٤)، وأورده العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ١٢٩، ٢٥٥).

قال سألنا شيخنا أبا عبد الله سيدي محمد صالح البخاري عن قول الجيلي كل قطب يطوف. . . الخ، هل ذلك حقيقة أم مجاز، فقال: لا مجاز في ذلك البتة بل الكعبة المشرفة بأحجارها الحسية تطوف بخيامه المباركة. اهـ.

وأما قول المعترض: المقصد الثاني أن فضل الله قد انحصر فيه وفي أتباعه وأنهم خير الناس. . . الخ، فجوابه: أما الكلام على الجيلي نفسه فقد تقدم ما فيه كفاية وما سيأتي أبين في المقصود، وأما أتباعه فليس في عبارات البهجة ما يدل على حصر فضل الله فيهم أو على أنهم خير الناس كقوله: إذا لكل من عثر به مركوبه من أصحابي ومريدي ومحبي إلى يوم القيامة، وهذا نقله أيضًا الإمام الشعراني في الطبقات عن الجيلي وضمانة الجيلي رضي الله عنه لمريده إلى يوم القيامة أن لا يموت إلا على توبة، وقوله: أخذت العهد على ربي أن لا يدخل النار أحد من أتباعي إلى يوم القيامة، ذكر ذلك أيضًا العلامة المسند الشيخ محمد بن عبد الرحمٰن الفلسي في المنح، وقال صح أن الشيخ عبد القادر قاله. اهـ.

وغير ذلك مما يرجع لهذا المنحى فإن قيل إن الشعراني وغيره تبعوا البهجة، فالأصل واحد قلنا لم يتعين ذلك لا سيما ومناقب الإمام الجيلي مدونة من قبل عصر الشطنوفي كما سبق أول الكتاب وهبهم تبعوه، فكيف لا نثق بمن وثق به أو لثلث النقاد ونقلوا مروياته بصيغة الجزم خصوصًا الشعراني، فهو بلديُه وأقرب إليه منا عهدًا، فإن بينهما المائة التاسعة وبعض الثامنة فقط، فأين ما ادعاه المعترض من حصر فضل الله في القادرية؟ وهل المغفرة من الله لطائفة أو منعهم من فضل مولاهم نعمًا يستلزم حرمان غيرهم؟ معاذ الله أن يعتقدها ذو طريقة على السنة، ثم ليس في البهجة ما يؤذن بأفضلية اتباع الإمام الجيلي كيف كانوا على اتباع غيره من المشايخ.

وأما قول الشيخ رضي الله عنه البيضة منا يألف والفرخ ما يقوم، وقوله لي: من كل طويلة فحل لا يقاوي ولي في كل أرض خيل لا تسبق. . . الخ. فهو لسان القطبانية العظمى كما يفهم من كلام الإمام ابن حجر وليت شعري لأي شيء يختص الاعتراض بأهل الطريقة الجيلي، ولا تجد طريقة إلا وأهلها نقلوا عن أشياخها من فضل طريقتهم وغُلو كعبها نحو كلام البهجة أو أكثر، فمن الإنصاف أن يجاب عن البهجة بما يجاب به عن غيرها.

وقد رأيت كلامًا للشيخ الملالي المؤلف الشهير نقله من خط العلّامة الأستاذ سيدي محمد السنوس مؤلف الكبرى وغيرها في علم الكلام، قال: ومما يدل

على أن الصادر من بعض الأولياء من التبشير بالجنة ليس مخالفًا للسنة صدور ذلك من متبوعهم الذي إنما شرفوا بالاقتداء به نبينا محمد ﷺ، فقد بشر جماعة من الصحابة بدخول الجنة وكان ذلك من معجزاته، وقد ثبت من قبل جمهور أهل السنة أن كل ما جاز أن يكون معجزة لنبي جاز أن يكون كرامة لولي، وإذا جاز أن يطلع على عاقبه أمره عند جماعة من المحققين جاز أن يطلع على عاقبة أمر غيره بأحرى.

وقول أئمتنا رضي الله عنهم بترك الحكم بالجنة أو بالنار في حق من لم يخبر عنه بذلك النبي ﷺ مرادهم باعتبار النظر إلى عمله من الطاعة أو المعصية إذ لا يحصل به قطع لاحتمال أمور لا تخفى. أما الجزم بذلك في طريق الكرامة للأولياء بما اطلعهم الله عليه من غرائب ملكه وملكوته، فليس بمراد لهم وإنما أطلقوا ولم يستثنوا هذا القسم نظرًا منهم إلى الغالب وندور من يصل من الأولياء إلى هذه الكرامة بل لندور من يتصف بأصل الولاية. اهـ.

ثم قال المعترض: ما ملخصه من هذيان نحو تسع صفحات، ومن العجائب ما نقله أي الشطنوفي بأسانيده الكاذبة عن الشيخ عبد القادر قال قدمي هذه على رقبة كل ولي لله، وإن الأولياء طأطأت رؤوسها له وأكثر اللغط والضجيج بنقل مثل ذلك على ألسن أعيان الأولياء كل ذلك كذب مختلق وطيش مذهب للدين وحاشا الشيخ عبد القادر من القول بمثل ذلك، فإنه كان من أنصار الشريعة ومن المقربين من الله والقريب لا يزال خائفًا وهذا شأن المحجوبين ولو صدرت منه، فهفوة سكر لا يؤاخذ عليها كما نبه عليه الشهاب السهروردي في العوارف وهي حالة من أحوال المريدين المبتدئين.

ثم نقل المعترض كلام العوارف الزاعم الاحتجاج به وهو مبحث التواضع كله على طوله، ومحل الحاجة [٣٨/ق] الذي اعتمده المعترض منه أن المشايخ بالغوا في شرح التواضع قصدًا لقمع نفوس المريدين خوفًا عليهم من العجب والكبر، فقل: إن ينفك مريد في مبادىء ظهور سلطان الحال من العجب حتى لقد نقل عن جمع من الكبار كلمات مؤذنة بالإعجاب، وكلما نقل من ذلك القبيل عن المشايخ لبقايا السكر وانحصارهم في مضيق سكر الحال وعدم الخروج إلى فضاء الصحو في ابتداء أمرهم، كقول بعضهم: قدمي على رقبة جميع الأولياء، وقول بعضهم: طفت في أقطار الأرض، وقلت هل من مبارز فلم يخرج إليّ أحد.

ونجعل لكلام الصادقين وجهًا في الصحة، ونقول: إن ذلك طفح عليهم في سكر الحال، فالمشايخ أرباب التمكين لما علموا في النفوس هذا الداء الدفين بالغوا في شرح الواضع تداويًا للمريدين. اهـ.

ثم نقل المعترض من فتوحات الإمام الحاتمي ما ملخصه أن صاحب العبودية مكلف في الدار الدنيا بأمور تشغله عن الإدلال ألا ترى عبد القادر الجيلي مع إدلاله لما حضرته الوفاة، وضع خده على الأرض قائلًا: هذا هو الحق الذي ينبغي أن يكون العبد عليه في هذه الدار بخلاف أبي السعود تلميذه، فإنه لازم العبودية المطلقة إلى حين موته. اهـ.

ونقل أيضًا من الفتوحات في باب الشطح: أن الشطح رعونة نفس، فإنه لا يصدر من محقق وما رأينا ولا سمعنا عن ولي ظهر منه شطح لرعونة نفس، وهو ولي عند الله إلا ولا بد أن يفتقر ويذل، فالشطح كلمة صادقة صادرة من رعونة نفس عليها بقية طبع تشهد لصاحبها ببعده من الله في تلك الحال، ثم نقل منها أيضًا في تعريف أهل منزل الهوية قوله: وأصحاب هذا المقام على قسمين منهم من يحفظ عليه أدب اللسان كأبي يزيد البسطامي ومنهم من تغلب عليه الشطحات لتحققه بالحق كعبد القادر، وهذا عندهم سوء أدب بالنظر إلى المحفوظ فيه.

ثم نقل أي المعترض من الجواهر والدرر للشعراني زاعمًا أن نص الشعراني هو قوله، قلت لشيخنا أي الخواص إني رأيت في بهجة الشيخ عبد القادر أنه لم يقل قدمي هذه. . . الخ، إلا بإذن، فقال: لو كان ذلك صحيحًا ما وقع منه ندم حين وفاته، فقد بلغنا أنه وضع خده على الأرض وقال: هذا هو الحق الذي كنا عنه في غفلة وندم واستغفر، ومعلوم أن الندم لا يكون عقب امتثال الأوامر الإلـٰهية، وإنما يكون عقب ارتكاب أهوية النفوس فتأمل ذلك.

ونقل عن الشعراني أيضًا في الكتاب المذكور عن الخواص أن الجيلي قال هذا الذي كنا عنه في حجاب الإدلال، قال المعترض: قال الشعراني: قلت للخواص في هذا دليل على عدم الأمر له بالتصريف والإدلال، قال: نعم لم يؤذن له ولكن من شدة صدقه تمم الله عليه حاله، فمات على كمال حاله.

ثم نقل من الشعراني أيضًا في اليواقيت بعد كلمة الجيلي قدمي هذه. . . الخ أن الأمر بذلك غير صحيح. ثم نقل المعترض من الفتوحات في الباب الثاني والعشرين من قال من الأولياء: إن الله أمره بشيء فهو تلبيس؛ لأن الأمر من قسم الكلام وهذا باب مسدود دون الأولياء من جهة التشريع. اهـ.

أقول: يشتمل كلامه مع اختلاطه على ثلاثة مطالب: ـ

الأول: تكذيب البهجة في نقلها أن الشيخ قال هاته الكلمة وأن الأولياء طأطأت رؤوسها له.

الثاني: على فرض صدورها منه، فهي من قبيل شطح الصالحين المغلوبين بالحال، فلا يعول عليها لأنها من بقايا النفس وليس الشيخ مأمورًا من الله بأن يقولها.

الثالث: الدليل على أنها ليست بأمر من الله رجوع الشيخ من الإدلال إلى التذلل عند الموت.

قلت: وسنحرر جميع ذلك إن شاء الله، وإن طال الكلام مع تتبع نقولاته، وتمييز صادقها من مختلقها، وبيان ما أخفاه وتصويب ما حرفه، وإظهار فساد فهمه في بعض عباراتهم، فيتميز الحق من الباطل، فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض والله الهادي إلى سواء السبيل.

المطلب الأول: تكذيبه أن الشيخ قال قدمي هذه الخ، أقول: ثبت وصح أن الشيخ سيدي عبد القادر نفعنا الله به قال: قدمي هذه على رقبة كمل ولي لله، كما ذكره الحافظ بن حجر وسيدي أحمد زروق، والإمام الشعراني وعالم الظاهر والباطن سيدي مصطفى البكري، والحافظ القصار الذي هو واسطة أسانيد علماء المغرب في الصحاح الستة وغيرها، والحافظ علي قاري، وصاحب جامع الأصول، والشيخ علي بن عمر المقدسي، والشيخ مراد [٣٩/ق] الشاذلي، وابن الحاج المانوي وغيرهم بحيث بلغت حد التواتر وكلهم يروونها بالجزم وإذعان الأولياء لا بد منه؛ لأنه لسان القطبية كما قاله الشريف القيلوي، وصرح البكري بإذعان الأولياء للجيلي لما قال ذلك، وقد تقدم ذكر لزوم إذعان الأولياء لقطب الزمان بما فيه كفاية.

المطلب الثاني: ادعاؤه أنها من قبيل الشطح وأن السهروردي نبه على ذلك.

أقول: هذا من تلبيسه؛ لأنه أوهم أن السهروردي في العوارف نبه على أن كلمة الجيلي شطح، ومن غباوته نقل عبارة العوارف كما تراها، ولم يفقه المخذول أن مبحث التواضع في العوارف إنما قصد به مؤلفه تربية المريدين، ومن كان قريبًا من منزلتهم والحال التي حكاها حال المبتدئين، كما صرح به قوله قصدًا لقمع نفوس المريدين خوفًا عليهم من العجب والكبر.

وقوله في وقوع الشطح من بعض الأشياخ لبقايا السكر عندهم إلى قوله في ابتداء أمرهم، وقوله بعد فالمشايخ أرباب التمكين لما علموا في النفوس إلى قوله تداويا المريدين. . . الخ، فكيف يتوهم ذو ذوق سليم أن الشهاب السهروردي يقصد الإمام الجيلي بأوصاف المريدين أو المتوسطين أو مطلق الأولياء، والجيلي من أكبر أكابر الأقطاب وهل يخفى على السهروردي قطب عصره مع أن الجيلي من أعظم شيوخه، كما ذكره كل من ترجم للسهروردي وله تنويه بذكر الجيلي في تآليفه بل أستاذ الشهاب السهروردي، وهو عمه أبو النجيب من سلسلة طريقتنا الخلوتية كان يجل الجيلي ويتأدب معه تأدب تلميذ، والحال أن عصريه وشيخهما معًا الشيخ حماد الدبلسي وأبو النجيب أحد من يروي عن الدبلسي أخباره بعلو مقام الجيلي قبل إبانه، فلا شك أن القائل في كلام السهروردي من تحت خضراء السماء مثل أو قدمي هذه على رقبة جميع الأولياء أو لم يبارز في أحد هو من أهل الشطح الذين لم يبلغوا مرتبة بعض خواص تلاميذ الجيلي وإن كانوا من الكبار ـ كما سيأتي ـ ومن كلام الإمام الجيلي التحدث بسر الولاية نقص. اهـ.

يعني ممن لم يبلغوا الكمال الأكمل كما سيتبين لك ذلك، فمن هذا القبيل قول السهروردي: فالمشايخ أرباب التمكين يعني كالجيلي لما علموا. . . الخ.

وأما الفرق بين ما يقبل فيه شطح وما لا يقبل فاعلم أن إفصاح بعض القوم عن مرتبته الربانية لا يطلق عليه شطح بالإطلاق، والنظر لمقام صاحبه من الكمال والنقص والأمر له بذلك وعدمه، فمتى كان مأمورًا به في سره فهو تحدث بنعمة الله، وإفصاح بمنن الله محمود ظاهرًا وباطنًا للأمن له من الفخر المضر ومتى أطلق عليه الشطح، فهو من قبيل المجاز والإمام الجيلي مأمور بأن يقول قدمي هذه. . . الخ، كما قاله الشيخ مراد الحنفي الشاذلي نقلًا عن أساتذة عظام، وقاله البكري وغيرهما فهي ليست من قبيل الشطح رأسًا، ولا يهولك ما سمعته من ذوي غوغائه ينجلي الغبار، ويظهر ما تحت الراكب فرس أم حمار.

قال الإمام الحاتمي في الفتوحات في باب الشطح بيتين وهما:

الشطح دعوى في النفوس بطبعها لبقية فيها من آثار الهوى
هذا إذا شطحت بقول صادق من غير أمر عند أرباب النهى

ثم قال: اعلم أيدك الله أن الشطح كلمة دعوى بحق تفصح عن مرتبته التي أعطاه الله من المكانة عنده أفصح بها من غير أمر إلٰهي لكن على طريق الفخر فإذا

أمر بها فإنه يفصح بها تعريفًا عن أمر إلـهي لا يقصد بذلك الفخر، قال عليه السلام: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» يقول عليه السلام: «ما قصدت الافتخار بهذا التعريف لكن أنبأتكم به لمصالح لكم من ذلكم، ولتعرفوا منة الله عليكم برتبة نبيكم عند الله».

والشطح زَلّة المحققين إذا لم يؤمروا به إلى أن قال في الأنبياء عليهم السلام: هم مأمورون بكل ما يظهر عليهم ومنهم من الدعاوى الصادقة التي تدل على المكانة والزلفى والتميز على الأمثال والأشكال بالمرتبة المثلى عند الله... الخ.

وذكر قول سيدنا عيسى عليه السلام: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: الآيتان ٣٠، ٣١] الآية، إلى أن قال: فهذه كلها لو لم تكن عن أمر إلـهي لكانت من قائلها شطحات، فإنها كلمات تدل على الرتبة عند الله على طريق الفخر بذلك على الأمثال والأشكال، وحاشا أهل الله أن يتميزوا عن الأمثال أو يفتخروا، ولهذا كان الشطح رعونة نفس، فإنه لا يصدر من محقق... الخ هذا كله في باب الشطح قبل الكلمات التي نقلها المعترض وافتتحها بقوله: إن الشطح رعونة [٤٠/ق] نفس... الخ أخفاه حيث رأى فيه أن إفصاح الأولياء بمكانتهم عند الله لا يكون لرعونة نفس أو يسمى شطحًا إلا إذا لم يكن عن أمر إلـهي، وقد نقلت لك ما أخفاه متصلًا بما نقله الحرف بإزاء الحرف، ومثل ما في الفتوحات في رسالة المسلك الجلي في حكم شطح الولي للعارف الكبير سيدي الكبير سيدي إبراهيم الكوراني المدني ألفها لما ورد سؤال في مثل ذلك من جاوة، وانظر قول الفتوحات الذي نقله المعترض فإنه قيد برعونه نفس ولو تنبه الغبي لها لحذفها، وقد أسقط أيضًا في خلال ما نقله من باب الشطح قوله وذلك المسمى شطحًا عندهم حيث لم يقترن به أمر إلـهي أمر به كما تحقق ذلك من الأنبياء عليهم السلام. اهـ.

وأما نقله عن الفتوحات في أصحاب منزل الهوية أن عبد القادر غلبت عليه الشطحات لتحققه بالحق وهذا عندهم في الطريق سوء أدب.

أقول: تقدم في كلام الحاتمي أن كلام الكمل المفصح عن مكاناتهم عند الله إذا كان بأمر فإنه لا يقال فيه شطح والجيلي مأمور بذلك، كما قدمناه نقلًا عن البكري وغيره، فيكون إطلاق الشطح في هاته العبارة الحاتمية مجازًا كما يدل له قوله لتحققه بالحق، وستعرف رتبه الجيلي عند الحاتمي كيف هي وأهل الشطح عنده ناقصون فتعين أن يكون هنا مجازًا.

وأما قوله سوء أدب، فالعلم أن العلماء المحققين قالوا كلمة تتعلق بجميع كلام سيدي محيي الدين بن عربي ومن لاحظ هاته الكلمة استراح قلبه من التوقف في كلامه رضي الله عنه، وهي أن محكم كلامه يقضي على متشابهه، ومطلقه يرد إلى مقيده، ومجمله إلى مبينه ومبهمه إلى صريحه. اهـ.

وأجروا هاته القاعدة في كلام كل معتبر من الأولياء والعلماء وهو مسلك متسع تخرج به الأفكار من مضيق التخرج إلى فضاء الحقيقة، فقوله هنا سوء أدب: أي عند من لم يتجاوز حدود الطريقة إلى بحر الحقيقة وهم المكابدون مشقة السير والسلوك الذين لم يصلوا إلى كمال القرب من ملك الملوك، ولهذا قال: وهذا عندهم في الطريق سوء أدب ففرق بين الطريقة والحقيقة إذ الأولى مجاهدة، والثانية مشاهدة وإلا فأهل الحقيقة يعلمون أن صنع الجيلي هو غاية الأدب ففي نفس الفتوحات في باب مقام ترك الأدب وأسراره ما نص محل الحاجة منه.

قال: فإنه أي أحد أصحاب هذا المقام مع الكشف وبحكمه لا مع الذين هم المحجوبون فيه، فهو يعاين علم الله في جريان المقادير قبل وقوعها فيبادر إليها فيطلق عليه بلسان الموطن أنه غير أديب مع الحق فإنه مخالف، بل هو في غاية الأدب مع الحق ولكن أكثر الناس لا يشعرون، ومنهم أي من أصحاب هذا المقام من يقام في الإدلال كعبد القادر الجيلي سيد وقته ومنهم ومنهم... الخ.

تأمل قوله: يقام، تعرف أن إدلال الجيلي ليس برعونة نفس بل بأمر من الله وبه ثبتت له السيادة، وتأمل قوله: لا مع الذين هم المحجوبون، فهؤلاء هم المشار إليهم قبل بقوله عندهم سوء أدب. وفي أول شرح الحاتمي لمسائل الإمام العارف الترمذي الحكيم التي أودعها في كتاب ختم الأولياء اختبارًا للمدعين، ذكر: أعني الحاتمي جماعة منهم الجيلي وأبو يزيد البسطامي فقال: هم أعلى من تحقق في طريق الله تعالى، والضابط لمذهبهم استيفاء الأدب المشروع مع الله. اهـ. فهذا كله تبيين لمجمل الحاتمي الذي نقله المعترض للشبه كما هو دأب الذين في قلوبهم زيغ.

ومن اللطائف رؤيا حكاها الشيخ أبو بكر العمادي الشافعي نزيل دمشق، قال: رأيت نفسي في الجامع الأموي وكل من فيه نصارى فاغتظت لذلك، وإذا رجل يقول لي: ادخل إلى الشيخ محيي الدين بن عربي فاشكُ إليه ذلك، فدخلت فوجدت الشيخ جالسًا في محراب المقصورة وبين يديه جماعة قليلة، وهو يدرس فشكوت إليه، فقال لي: لا تحزن هؤلاء النصارى هم الذين ضلوا بمطالعة كتبي.

وأما هؤلاء المسلمون بين يدي فهم الذين انتفعوا بكلامي وهم قليل والهالكون به كثير. اهـ.

هذا وقد أخفى المعترض من كلام الحاتمي أيضًا أسطارًا قبل محل الشبهة ونص الحاجة منها بعد الكلام على شهود رباني.

قال رضي الله عنه: فيظهر صاحب هذا الشهود بصورة الملك فيظهر بالاسم الظاهر في عالم الكون بالتأثير والتصريف والحكم والدعوى العريضة والقوة الإلهية كعبد القادر الجيلي، وكأبي العباس السبتي بمراكش لقيته وفاوضته أعطى ميزان الجود، وعبد القادر أعطى الصولة والهمة فكان أتم من السبتي في شغله. اهـ.

فإن بهذا أن قول الجيلي: قدمي هذه على رقبة كل ولي لله، ليس من قبيل الشطح لصدوره من كامل وأي كامل مثل واحد الزمان وغوث العصر والجيلي مأمور بها كما نقله الرواة الكثيرون وحاشاه من رعونة النفس ثم حاشاه.

ومن كلام اليافعي رحمه الله ما نصه: وأما من توهم لجهله بأولياء الله تعالى وفساد قلبه إن الشيخ عبد القادر قال: قدمي هذه... الخ بحظ نفس وهوى كامن في باطنه فهو يظن أن أولياء الله مثله منطوون على خبث الضمائر متصفون بصفات الرذائل، نعوذ بالله من الخذلان، وسوء الظن بالأولياء أهل العرفان، فإن من خضع له أكابر الأولياء هذا الخضوع، ورجع إليه العارفون بالله هذا الرجوع، وزفته العناية هذا الزفاف المشعر بعظيم جلالته، ورقص الكون جميعًا طربًا لولايته، وحمل في عالم القطبية، وتوج بتاج الغوثية، وألبس خلعة التصريف العام النافذ في جميع الوجود، ومشت أكابر الأولياء من الصديقين والبدلاء تحت ركابه بأمر الإله المعبود، واشتهرت كراماته وجمعه بين علمي الظاهر والباطن، يستحيل أن يكون قال ذلك بحظ نفس وهوى كامن. اهـ.

فإن قيل قد نقل المعترض من الفتوحات أن من قال من الأولياء إن الله أمره بشيء فهو تلبيس... الخ.

قلت: تلك مصيبة علية أعظم فإنه غير وحذف ابتغاء لصحة مشتهاه، ومن أعماه هواه، لا يدري في أي جحر تدخل يداه، ونص الفتوحات في الباب الثاني والعشرين الذي نقل منه كل من قال من أهل الكشف إنه مأمور بأمر إلهي في حركاته وسكناته مخالف لأمر شرعي محمدي تكليفي، فقد التبس عليه الأمر. اهـ. هذا نصه بحروفه.

ولم يتفطن النبي إلى قيد المنع الذي نقله في قوله وهذا باب مسدود دون الأولياء من جهة التشريع إذ يفهم من القيد أن ما لم يكن تشريعيًا فحصوله للأولياء جائز وبابه مفتوح، فالمعترض سارق في نقله لا يحسن ستر سرقته. وكذا ما نقله عن يواقيت الشعراني في قوله الأمر بذلك غير صحيح، فإنه أخذ الكلام مبهمًا وترك تمامه كمن قرأ ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾﴾ [الماعون: الآية ٤] ووقف بل ترك أول الكلام أيضًا لأن كلام اليواقيت فيما إذا فعل بعض المتصوفة أمرًا فليعترضوا عليه فقال: فعلته بأمر من الله نظير الأمر الجيلي في قوله: قدمي هذه... الخ.

فهل يصحّ أن يأمر الله تعالى بما يخالف الشريعة؟ قال الشعراني: الأمر بذلك غير صحيح ثم وضحه بقوله وإيضاح ذلك أنه ليس في الحضرة الإلـٰهية أمر تكليفي إلا وهو مشروع فما بقي للأولياء إلا سماع أمرها إلى أن قال: من قال إنه مأمور بأمر إلـٰهي مخالف لأمر شرعي محمدي تكليفي، فقد التبس عليه الأمر.

وفي الجواهر والدرر للشعراني سألت شيخنا رضي الله عنه عن مقام الإدلال والإعجاب في هذه الدار الواقع من بعض الأولياء والعلماء، هل هو نقص أو كمال؟ فقال: إن كان بإذن من الله فهو كمال وإلا فهو نقص كما أشار إليه حديث: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»[1]. اهـ.

وفي الإبريز أن الولي قد يؤمر من الله وقد ينهى. اهـ. فقد تبين أن القول بأن الجيلي مأمور بذلك لا يخطئه العقل ولا النقل وبالله التوفيق.

المطلب الثالث: الاستدلال على أن الجيلي ليس مأمورًا بقوله قدمي... الخ بأن حاله عند الموت انتقل من الإدلال المتذلل إلى الله.

أقول: الحاسد يورد أوصاف الكمال في سياق التنقيص ورحم الله القائل:

قلع الله عين سيىء ظن ... ينظر الفضل والمناقب عيبا
بجميل من الصفات فريد ... تحتويه أرد سبعين ريبا

وإلّا فالتذلّل والاستغفار، والاعتراف بالافتقار، عند الخروج من هذه الدار من أوصاف الأصفياء، بل من كمالات الأنبياء، فلا يحط من مقام الجيلي وضعه خده على الأرض، وكذا اعترافه أنه الحق الذي ينبغي أن يكون العبد عليه في هذه الدار

(١) تقدم تخريجه في أول الكتاب.

لعموم تعبيره بالعبد فهو تربية لنبيه ومريديه إذا لم يقل ينبغي أن أكون عليه فناء اختياره في اختيار الباري جل جلاله، وعلى فرض أنه يعني نفسه، فهو معلق بمحذوف، ومعناه مثلًا ينبغي أن أكون عليه لو لم يقمني الله في مقام العز والإدلال والتصرف السلطاني.

قال الحاتمي في الباب الثالث والسبعين من الفتوحات في الكلام على مراتب الأولياء ما نصه: ومنهم رضي الله عنهم رجل واحد في كل زمان وقد تكون امرأة آتية قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: الآية ١٨]، له الاستطالة على كل شيء شهم شجاع مقدام كثير الدعوى يحق القول حقًّا، ويحكم عدلًا، كان صاحب هذا المقام شيخنا عبد القادر الجيلي ببغداد كانت له الصولة والاستطالة بحق على الخلق، كان كبير الشأن أخباره مشهورة لم ألقه ولكن لقيت صاحب زماننا في هذا المقام ولكن كان عبد القادر أتم في أمور أخرى من هذا الشخص الذي لقيته وقد درج الآخر ولا علم لي بمن ولي بعده هذا المقام إلى الآن. اهـ.

ثم لا يفهم من كلام الفتوحات الذي نقله المعترض أفضلية أبي السعود على أستاذه الجيلي أخذًا من ملازمته للعبودية إلى حين موته؛ لأن العبودية والافتقار الكلي هي حال قطب الزمان ولا بد كما ذكره الحاتمي نفسه. والجيلي هو قطب وقته كما ذكره في الباب الثالث من الفتوحات.

وقال العارف ابن الأواني: كان حال الجيلي مع الله ترك الاختيار وسلب الإرادة. قلت: ولا يبعد أن يكون الجيلي أشار إلى ذلك بقوله في قصيدته الشهيرة:

أصحبت لا أملًا ولا أمنية أرجو ولا موعودة أترقب

والشيخ أبو السعود المشار إليه كان من الأفراد وممن أعلمه الله بخواطر القلوب، وكان له في التفويض إلى الله شأن عظيم ولكن لا يقصد الحاتمي أن يفضله على أستاذه الجيلي، بدليل ما ذكره في باب القواصم بعد ذكر قصة عن أبي السعود وذكر احتمالات في الباعث لأبي السعود على تلك القصة. قال: إن الله ما أخبرني بحال من أحوال أبي السعود حتى نلحقه بمنزلته، وقال أيضًا في أحوال منزل السادة الملامتية بعدما ذكر جماعة من أصحاب هذا المنزل منهم الجيلي، وأبو السعود ما نصه: قد انفردوا مع الله راسخين لا يتزلزلون عن عبوديتهم مع الله طرفة عين، لا يعرفون للرئاسة طعمًا لاستيلاء الربوبية على قلوبهم وذلتهم تحتها. اهـ.

وإذا عرفت أن كلًا من الجيلي وأبي السعود واغل في العبودية الكاملة والتفويض إلى الله، فما بقي إلا أن تقول فلم دخل أبو السعود خدر الخمول ولم يدخله الجيلي.

فالجواب: كما قاله الحاتمي واللفظ له: أن أصحاب المقام الذي فيه الشيخان مكّن الحق لهم التصرف والتصريف في العالم لا أمرًا لكن عرضًا، فمنهم جماعة تركوه فلبسوا الستر ودخلوا في سرادقات الغيب، واستتروا بحجب العوائد وأزموا العبودية والافتقار، وكان أبو السعود منهم ولو أمر بالتصرف لامتثل الأمر هذا من شأنهم.

وأما عبد القادر فالظاهر من حاله أنه كان مأمورًا بالتصرف، فلهذا ظهر عليه وهذا هو الظن بأمثاله. اهـ. فهل يعد هذا كله يظن أن الحاتمي يقصد تنقيص مقام الجيلي كما فهمه هذا الجاهل الحسود.

وأما ما نقله المعترض عن الجواهر والدرر للشعراني من مواضع زاعمًا أنه نصه فلا أصل لذلك، وقد تتبعت كتاب الجواهر والدرر الذي هو يناهز نحو الثلاثمائة صفحة، وتصفحت جميع مسائله المرة بعد المرة احتياطًا، فلا رائحة لذلك الكلام إلا في محل واحد لم يعين به قوله: قدمي هذه... الخ، ولا نفى وقوع الإذن للجيلي في الإدلال بل سلمه ولا ذكر التصريف رأسًا فضلًا على نفي الإذن فيه، ونسختي عتيقة مقابلة بالكتابة عليها منتسخة من الأصل الذي عليه خطوط مشايخ الإسلام كالناصر اللقاني، والشهاب الفتوحي الحنبلي وغيرهما، ودونك نص المحل المشار إليه بحروفه بعد نقله أعني الشعراني عن الخواص النهي عن الانبساط والزهو والحض على مراعاة العبودية بالذل والافتقار، قال: قلت له قد نقلوا عن سيدي عبد القادر رضي الله عنه ما لا يحصى من الإدلال والافتخار، فقال: قد نقلوا أن ذلك كان بإذن في سره من الحق، ثم مع ذلك فقد بلغنا أنه لما حضرته الوفاة. قال لهم: ضعوا خدي على الأرض فإن هذا هو الحق الذي كنا عنه في غفلة، فتمم الله عليه أمره قبل خروجه من الدنيا، ولقي الله تعالى بوصف الذل والانكسار، وهذه من عناية الله بأصفيائه فاعلم ذلك. اهـ. أرجع إلى ما نقله المعترض زاعمًا أنه من الجواهر وقابله بما هنا يتبين لك ما عنده من السفه، والتحري بالعجرفة وقول الجيلي: كنا عنه في غفلة هو محض تواضع من باب قول البوصيري:

ولا تزوّدت قبل الموت نافلة ولم أصل سوى فرضي ولم أصم

ومن أبعد الممكنات أن لا يعمل الإمام البوصيري نافلة ولا يصلي ولا يصوم سوى الفرض. والقول الفصل المزيل لكل وهم أن نقول لو كانت خاتمة العمر على هاته الحالة نقصًا لما اختارها الله ختامًا لسيد أنبيائه ﷺ مع عصمته من جميع النقائص، فإنه لما نزل قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ إلى قوله: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر: الآيات ١ - ٣] عرف ﷺ أنه نعيت إليه نفسه الشريفة بهذه السورة ولذلك تسمى [٤٣/ق] سورة التوديع، فعاش بعدها أيامًا أو شهرًا على الخلاف المبسوط في محله، وفي جميع تلك المدة لم ير ﷺ فيها ضاحكًا.

قال العارف بالله الصاوي في حاشيته الجليلة على الجلالين: وإنما أمر الله تعالى نبيه بالاستغفار مع إنه معصوم من جميع الذنوب صغيرها وكبيرها ليزداد في التواضع والافتقار، وليكون ختام عمله التنزيه والاستغفار، ترقيًا ورجوعًا إلى حضرة الحق فإنه وإن كان مشغولًا بهداية الخلق إلا أن مقام الصفوة والحضور والإنس أعلى وأجل. اهـ. باختصار.

تنبيهات:

الأول: من المعلوم عند القوم أن من أمات نفسه وهواه لا يتغير عليه حال عند الموت المعتاد، قال في اليواقيت: إن قلت ما المراد بقولهم: «العارفون لا يموتون وإنما ينتقلون من دار إلى دار».

الجواب: إن من مات الموت المعنوي بمخالفة نفسه حتى لم يبق له مع الله اختيار لا يعظم تألمه عند خروج روحه، فأهل الله لما علموا أن لقاه الله لا يكون إلا بالموت استعجلوه، فماتوا في حين حياتهم، فلقوا الله محبين للقائه فإذا جاءهم الموت لا يتغير عليهم حال ولا يزدادون يقينًا بانكشاف غطاء هذا الجسم وإلى الموت المعنوي، أشار ﷺ بقوله: من أراد أن ينظر إلى ميت يمشي على وجه الأرض، فلينظر إلى أبي بكر رضي الله عنه. اهـ. مختصرًا.

قلت: فكيف يتغير حال الإمام الجيلي عند وفاته بالمعنى الذي يتعقله هذا الأحمق وما بلغنا عن أحد من كبراء الأمة مات موتات الجيلي العديدة في حياته وأسمع ما قاله سيدي مصطفى البكري في ألفيته في أول فصل الموتات الأربع: وهي مخالفة النفس والجوع وتقشف اللباس واحتمال الأذى. قال:

والموت عند القوم موت العبد بلا اضطرار بل بمحض القصد

إلى أن قال:

وأخبر المحقق الرباني   مولاي عبد القادر الجيلاني
عن نفسه في حالة السلوك   والسير نحو ملك الملوك
بأنه قد مات ألف مرة   حتى فنى وجوده بالمرة
وبعد ما مات بها قد لبسا   ثوبًا بألف إذ لكأسها احتسى
وهذه فروع ذي الموتات   ذائقها كالخضر في الحياة

قلت: وإلى نحو ذلك أشار الجيلي بقوله في آخر حكاية أطوار سلوكه رضي الله عنه لحقت البقايا ونسخت الصفات وجاء الوجود الثاني. اهـ. ومع هذا كله فالإمام الجيلي لم ينقص خوفه من الله؛ لأن شدة الخوف تابع لعظم المعرفة.

قال الشعراني في الجواهر: كان الشيخ سيدي عبد القادر يقول: أعطاني الحق تعالى أربعين عهدًا وميثاقًا إنه لا يمكر بي، فقيل له: كيف حالك بعد ذلك، فقال: غير آمن. اهـ. وسيأتي إن شاء الله في أول الخاتمة مبحث الميثاق المشار إليه.

وقال الشيخ علي قاري لما قارب سيدي عبد القادر الوفاة، سأله ولده السيد عبد الجبار: ماذا يؤلمك من جسدك؟ قال: جميع أعضائي تؤلمني إلا قلبي فما به ألم وهو صحيح مع الله عزَّ وجلَّ. اهـ.

تأمل قوله صحيح مع الله فإنه يستنشق منه روح الإقبال، ونجح الأمال، وفتح الباب، وازدياد الاقتراب، وصفاء الوصال من كدر العتاب، ولكن يفهمها من لم يعقه زكام الجهل أو صداع الحسد أعاذنا الله من ذلك.

الثاني: صدرت كلمات كثيرة من أعلام الأمة، وأكابر الأئمة، يفسحون بها عن نعم الله عليهم، فعلى كلام هذا المعترض تحمل كلها على الشطح لرعونة النفس حينئذٍ لم يبق ولي كامل في الأمة، وهذا باطل بالضرورة، كقول أبي العباس المرسي: والله لو علمت علماء العراق والشام ما تحت هذه الشعرات، ومسك لحيته لأتوها ولو حبوًا على وجوههم، وكان أبو الحسن الشاذلي يأمر النقيب ينادي أمامه من أراد القطب فعليه بالشاذلي.

وقول سهل التستري: أنا حجة الله على الخلق، وأنا حجة الله على أولياء زماني.

وقول سيدي إبراهيم الدسوقي: كل ولي في الأرض خلعته بيدي ألبس منهم من شئت، وأنا بيدي أبواب النار غلقتها وبيدي جنة الفردوس فتحتها. وقول سيدي أحمد الرفاعي لما قال له تلميذه أنت الغوث، فأجابه الشيخ نزهني عن الغوثية، قال: أيش أقول في شأنك، قال: أنا ما يعجز عنه لسانك ويكل عن ذكره سمعك، وتنقطع فيه جوارحك، وينفذ فيه عمرك، ولا تصل إلى مرتبتي من ربي عزَّ وجلَّ.

هذا والشيخ الرفاعي من أشهر الأولياء عبودية وكسر نفس وتواضعنا نفعنا الله به. وقول سيدي أحمد البدوي نفعنا الله بأسراره [٤٤/ق]:

أنا الملثم سل عني وعن هممي ينبئك عزمي بماذا قلته بفمي
مذ كنت طفلًا صغيرًا نلت مرتبة وهمتي قد علت عن سائر الهمم
أنا السطوحي واسمي أحمد البدوي فحل الرجال أمام القوم في الحرم
لك الهنا يا مريدي لا تخف أبدًا واشطح بذكرى بين البان والعلم
إذا دعاني مريدي وهو في لجج في قاع بحر نجا من ساعة العدم

وقول سيدي محيي الدين بن عربي الحاتمي قدّس سره:

في كل عصر واحد يسمو به وأنا لباقي العصر ذاك الواحد

وقول سيدي عبد الغني النابلسي رضي الله عنه:

شمعتي أشرقت بنورك ربي وعليها حواسدي كالفراشِ
كلما حاولوا بأن يطفئوني أحرقوا بي فكان أمري فاشي
وأضاءت بالحق أنوار شمسي فراوني بأعين الخفاشِ
أتظن الكلاب إذ نبحتني أن تعييرهم يدنس شاشي
أو بأني في الناس أنقص قدرًا بكلام الأراذل الأوباشي
لا ومن خصني بزائد علم لم يعموا من ويله برشاش
وحباني رفعًا عليهم جميعًا بمقام عال شريف الحواشي
فانقشوا يا منافقين أو امحوا سأريكم فضية النقاشي
أولم تعلموا بأني نور لاح الكشف في الظلام الغاشي
فلتفروا أني طلعت شهابًا يا شياطين أو خذوا حرب جاشي

وإنظام سيدي عبد السلام الأسمر شهيرة أنا الأسمر أنا الأسمر الخ.

وقول سيدي المصطفى البكري: لو اجتمع على أهل مصر كلهم في المكالمة كبيرهم وصغيرهم ما شغلوا قلبي عن الله طرفة عين.

وقول تلميذ تلميذه شيخنا ابن عبد الرحمٰن: لو حجب عني رسول الله ﷺ طرفة عين ما عددت نفسي من المسلمين منذ عشر سنين.

وقد قال مثل ذلك أبو العباس المرسي ولكن قيل منذ أربعين سنة.

وقول الغوث التونسي الأستاذ سيدي أحمد بن عروس أنا رجلها من مطلع الشمس إلى مغربها أنا قلب الدنيا، وكل اصبع من أصابع يدي ورجلي يشفع في سبعين ألفًا.

وقول الأستاذ الشهير الشيخ سيدي أحمد التجاني شفعني الله في أهل عصري من يوم ولادتي إلى يوم حلول رمسي أي العصاة منهم.

وقول الإمام السيوطي في آخر نظم المجددين للدين بعد ذكره مجددي القرون السابقة:

وهذه تاسعة المئين قد أتت ولا يخلف ما الهادي وعد
وقد رجوت أنني المجدد فيها ففضل الله ليس يجحد

وهو ممن اجتمع بالنبي ﷺ يقظة، وكذا القطب التجاني المذكور قبله.

الثالث: كنت فيما مضى سألت شيخنا سيدي محمد بن أبي بلقاسم الشريف مشافهة عن قول الإمام الجيلي قدمي هذه... الخ، فأجاب بقوله: من أنكرها من الأولياء ولو آخر الزمان يقع به مثل ما وقع بالولي الذي أنكرها في عصر الجيلي. اهـ. ومثله وجدته للأستاذ القطب سيدي علي بن عمر المقدسي الشاذلي قال: من أنكرها في زماننا هذا أو بعده إلى يوم القيامة عزل كما عزل الذي بأصفهان انتهى.

ختام نافع وإلهام رافع

كنت في بعض السنين السالفة أنشأت استغاثة توسلًا بالقدم الجيلية المباركة وها أنا ذا أودعها هنا لتكون وسيلة لذوي العقيدة الحميدة من إخواننا لمشاهدة نفعها بحصول الفرج بإذن الله وهي:

مسحت بالقدم الشريفة ناظري ... وحشاشتي في باطني مع ظاهري
قدم الإمام المجتبى غوث الورى ... مولاي محيي الدين عبد القادر
قدم لها هام الفحول تطأطأت ... وبها ارتقوا معراج قرب فاخر
قدم لها سكان قاف أذعنوا ... والسيد من يأجوج دون مكابر
قدم حماها الله من سعى إلى ... ما فيه شوب من مساس صغائر
قدم لها من مهدها حفظ فلم ... تعبأ بألعاب الصبا كأصاغر
قدم لقد أحيت ليالي عمرها ... في روضة تسقى بجفن هامر
قدم مشت حفيًا على شوك الفلا ... لله دهرًا تحت قلب شاكر
قدم لها شهدت بصدق سياحة ... بيد العراق وكل بيت داثر
قدم أفاضت كل خير عم مذ ... داست مدارج فوق شم منابر
قدم لها انقادت ملوك الجن لا ... تدنو بقوتها لِخُلْفِ أوامر
قدم لها في الجو خطوات علت ... حسًا تشاهدها عيون الباصر [٤٥/ق]
قدم كم انتصرت لداعي غوثها ... بركاب عز تحت نقع ثائر
قدم تجير من استجار فمن طغى ... يمسي ثرى والله أعظم ناصر
قدم مزاياها الجميلة طبقت ... برًا وبحرًا من شذاها العاطر
قدم لها الأعلام تلثم خمصها ... من قاطن أو وارد أو صادر

مسحت تلك على فؤادي يستضيء ... وعلى مدارستي وذهني الفاتر
وعلى العلوم وما حفظت وفتحها ... والعقل والتوحيد زاد العابر
والعرض والأهلين مع ذريتي ... ومساكني ومجالسي والدائر
وعلى لساني والشفاه وراحتي ... والرزق والرأي الكليل القاصر
وعلى حياتي كلها وترحلي ... امضي لفردوس هنيء الخاطر
وعلى الأحبة أجمعين وكل ما ... ينمي لنا من غائب أو حاضر
وبها رددت إلى الحسود شرورة ... وبها أبرد نار مكر الماكر
وبها قَصَّمْتُ ظهور أعدائي وقد ... صاروا بسطوتها كأمس الدابر
وبها سعيت إلى المقاصد كلها ... وبها ظفرت بكل خير نافر
وبها تسارعت الإجابة في الدعا ... حصل المنا في حين حسوة طائر
ربي بذا المحبوب تاج الأصفيا ... وبجده سر الوجود الطاهر
برضوان ولطف شامل ... وبلوغ ما نرجو بطن ضمائر
ثم الصلاة على الحبيب وآله ... والصحب والجيلي كنز الذاخر

ثم قال المعترض: وهو ختام اعتراضاته ما ملخصه وما بقي تحت رين الشبهة إلا ما جاء في الغنية عن الشيخ عبد القادر أنه يقول بالجهة، قال في الغنية، وهو بجهة العلو مستوٍ على العرش محتوٍ على الملك، محيط علمه بالأشياء إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه، وذكر آيات وأحاديث إلى أن قال يعني الإمام الجيلي: وينبغي إطلاق صفة الاستواء من غير تأويل وكونها على العرش مذكور في كل كتاب أنزل على كل نبي أرسل بلا كيف، وذكر نحو هذا في سائر الصفات. اهـ.

أقول: خطأه في فهم كلام الغنية لا يلام عليه «ما على مثله بعد الخطأ» لولا فضوله في تداخله المضايق التي ليس لها بأهل، فإن كلام الغنية هو معنى التفويض الذي هو مذهب سلف هذه الأمة وبه قال أتباع الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: ومقابلة التأويل وهو مذهب الخلف.

قال الإمام العلّامة قدوة العارفين محيي السنة، ورئيس المتكلمين سيدي محمد السنوسي في شرح الوسطى ما نصه: ولم يقل بالجهة أحد من أهل السنة، وإنما قال بها طائفة من المبتدعة وهم الحشوية والكرامية.

ولقد لطخت الحشوية بهذا المذهب الفاسد بعض أئمة السنة، فربما نسبوه لأحمد بن حنبل رضي الله عنه إذ هم مقلدون له في الفروع، فأوهموا أنهم كما تبعوه في الفروع تبعوه في العقائد وحاشاه أن تكون عقائده مثل عقائدهم إذ إمامته في علم التوحيد على طريق أهل السنة مجمع عليها، وخبر مناظرته لأهل البدع وامتحانه معهم في ذات الله مشهور مستفيض، ثم قال: وما يوجد في بعض التآليف من تلطيخ بعض السلف به ففاسد لا يلتفت إليه ووهْم من نقل ذلك عنهم ما عرف منهم رضي الله عنهم من التوقف عن تأويل الظواهر المستحيلة نحو ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: الآية ٥] وما أشبهه فتوهم أن توقفهم عن تأويلها لاعتقادهم ظواهرها وحاشاهم من ذلك، وإنما وقفوا عن تعيين تأويل لها لتعدد التأويلات الصحيحة من غير علم بالمراد منها بعد قطعهم بأن الظواهر المستحيلة غير مرادة البتة، وما أقبح أن يظن السوء بما لا يليق به. اهـ. باختصار.

وقد أجاء في تحرير محل النزاع بين مذهبي الحنابلة والأشاعرة العلامة الكبير العارف الشهير سيدي إبراهيم بن حسن الكوراني الشهرزوري الشافعي نزيل المدينة المنورة ودفينها رضي الله عنه في رسالته إفاضة العلام ـ في مسألة الكلام ـ أبطل فيها ذم الشافعية للحنابلة في المعتقد، وذم الحنابلة للشافعية في ذلك ونزة الطائفين عن الباطل، وبيَّن أن كليهما من صميم السنة بعد اطلاعه على تآليف محققي الحنابلة وإمعان النظر فيها شحنها بما يستعذبه القلب السليم وقد نقل منها ملخص هذا المبحث تلميذه العلامة الجامع أبو سالم العياش رحمه الله في رحله في ترجمة شيخه المذكور وأطال بورقات.

قلت: وبالجملة فقد أرسى النظر السديد كما سمعت كلامهم على صحة المذهبين، وإن مرجع أحدهما وهو المشار إليه في العينة إلى التفويض ومرجع الآخر إلى التأويل، وكلاهما منزه للبارىء عما يليق بجلاله ودليل السلف في [٤٦/ق] التفويض قوله تعالى في المتشابه: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: الآية ٧] بناء على أن هذا محل الوقف، فيكون قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾ [آل عمران: الآية ٧] استئنافًا ودليل الخلف في تعرضهم للتأويل أن قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾ معطوف على ما قبله والاستئناف عن قوله: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ [آل عمران: الآية ٧] فمذهب التفويض أسلم، ومذهب التأويل أحكم وليتنبه أنه ليس المراد سلب التأويل عن السلف رأسًا فإن مذهبهم التأويل الإجمالي، ومذهب الخلف التأويل التفصيلي كما في مواقف

العضد، وهو ظاهر إذ لا محيص عن التأويل الإجمالي، فقول المفوضين في إطلاق الصفات من غير تأويل أي تفصيلي.

ثم هذه الوصمة التي تمشدق بها هذا المعترض في حق الإمام الجيلي قدّس الله ساحته عما يقول الجاهلون صنف في خصوص نفيها عنه العلامة الشهير الشيخ محمد المسناوي المغربي رسالة بها نحو التسعين صفحة لما فهم من بعض الدفاتر أن شيخًا من العلماء تكلم بمحضره بعض المتهورين بنسبة هذه العقيدة للإمام الجيلي، فأقرها ذلك العالم فانتصر الشيخ المسناوي للإمام الجيلي سلوكًا لمنهج الإنصاف بالرسالة المشار إليها وسماها «جهد المقل القاصر، في نصرة الشيخ عبد القادر» كما سماها أيضًا «رسالة النصرة لحامل راية كمال العرفان ومزيد الشهرة»، كما سماها «تنزيه ذوي الولاية والعرفان عن عقائد ذوي الزيغ والخذلان»، والأسامي الثلاثة بخط المؤلف كما وجدته في كنش العالم الشيخ محمد بن مسعود الجزائري بخطه رحمه الله.

قال المسناوي في أول رسالته بعد فاتحة خطبتها وسبب تصنيفها ما نصه أردت الآن تقييد ما ظهر ليكون عرضة للنظر، فيضاف بعد تأمله وخبرة إلى ما يراه الصيارفة النقادة من حصياء الفكر أو دره، ولم يمنعني من البحث في الكلام ما عرف من جلالة القائل؛ لأن الحق لا يعرف بالرجال عند العاقل، وإنما يعرفه بهم الإمعة الجاهل:

ولست بإمعة في الرجال أسائل هذا وذا ما الخبر

ورب عريق في التقليد من أبناء الزمان، يستعظم ذلك وينشد قول شاعر معبرة النعمان:

أرى العنقاء تكبر أن تصادا فعاند من تطيق له عنادا

وما درى الجهول بأن كل كلام يؤخذ منه ويرد، إلا ما صح لنا عن سيدنا محمد، وإنه لم يزل العلماء والفحول يبحث معهم فيما يقولون فاضل مماثل ونازل مفضول، ثم لا يخل ذلك بشيء من واجب أكبارهم، ولا ينقص شيئًا من على مقدارهم، فهذا سبيل لست فيه بأوحد.

قال الشيخ زروق رضي الله عنه في قواعده العلماء مصدقون فيما ينقلون، لأنه موكول إلى أمانتهم مبحوث معهم فيما يقولون لأنه نتيجة عقولهم والعصمة غير ثابتة لهم فلزم التبصر طلبًا للحق والتحقيق لا اعتراضًا على القائل. اهـ.

والحامل لي على هذا نصرة الشيخ الكامل، وتنزيه جنابه العلي عما لا يليق بمن هو دونه بمراحل عسى أن تكون لي عنده يدًا اعتدها من أوثق ما لدى مدخرًا، وأجدها بفضل الله يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرًا.

فنحن عبيد الدار حقًا ولم نزل نوالي مواليها ونحرس بابها

تقبل الله ذلك بمنّه، وأمدنا بتوفيقه وعونه، إلى آخرها وبنى الجواب في تلك الرسالة النفيسة على أربعة أوجه:

الأول: أن معتقد الحنابلة الذين منهم الإمام الجيلي التفويض الذي هو مذهب السلف.

الثاني: إن سلّمنا ظواهر ما تقوله الشافعية في الحنابلة في هذا المعتقد، فالشافعية نفسهم يحاشون الأفاضل من الحنابلة، ولم يصفوا بذلك إلا الرعاع كما صرح به الإمام السبكي في طبقات الشافعية وفي كتابه مفيد النعم، ومبيد النقم.

الثالث: إن سلّمنا تنزلًا صحة شمول الحكم للأفاضل وفرضنا وقوع هذه الحال، كما يفرض وقوع المحال، لا نسلم تناول ذلك لهذا الشيخ وأمثاله لخروج أصحاب الولاية الكبرى عن تقليد غير الشارع، ونقل أعني المسناوي في ذلك كلام جماعة كأبي طالب المكي والغزالي والحاتمي والسيوطي والشعراني وغيرهم، بل عين الشعراني اسم الجيلي ومحمد الحنفي الشاذلي في مثال السادة الخارجين عن تقليد غير الشارع.

الرابع: إن سلّمنا عدم خروج هذا الشيخ عن التقليد للمذهب في الفروع لا نسلم ذلك في العقائد والأصول لما نقرر ونسلم لدى الكافة من شهير ولايته [٤٧/ق]، وعلو مرتبته ومكانته، وإنه من أهل الخصوصية الكبرى والصديقية العظمى التي ليس فوقها إلا درجة النبوة وذلك ملتزم لكمال العرفان، الذي هو نتيجة مقام الشهود والعيان، الفائق بكثير لما يستفاد من النظر بالدليل والبرهان، وكيف يجامع كمال العرفان شيئًا من عقائد أهل الزيغ والخذلان، إلى آخر ما نسجه المسناوي من البرود العبقرية، ببلاغة سنية، وفصاحة سحبانية، ثم ساق في تنزيه عقائد أكابر الصوفية، كلام الرسالة القشيرية، والقواعد الزروقية، ونقل في ذلك كلام الأستاذ محمد بن أبي الفضل التونسي في شرحه تحرير المطالب على عقيدة ابن الحاجب وغيره.

قلت: ومع أننا انفصلنا على أن كلام الشيخ في الغنية وهو التفويض القائل به السلف، فقد قال الإمام اليافعي: ثبت رجوع الشيخ عن ذلك الاعتقاد أي القول بالتفويض إلى القول بالتأويل الذي هو مذهب الأشاعرة ولعله ظهر له رجحان ذلك لظهور فتن أهل الأهواء وتفسيرهم ما ورد من الآيات والأحاديث بما يوافق آرائهم الفاسدة وهذا الوجه في ميل الخلف للتأويل.

والإمام الشعراني قال: لعل كلام الغنية مدسوس على الشيخ رأسًا.اهـ.

قلت: وهبه كلام الشيخ فقد شرحناه بما يكفي ويشفي وقد زالت الإشكالات واتضحت الحقائق، وانكشف أذن المؤذن غراب ناعق.

الخاتمة في المباحث الباقية في البهجة إنجازًا لما وعدنا به

والعجب من هذا المعترض ومن كان على شاكلته كيف لم يدركوا حسن المقالات الجيلية التي اشتملت عليها البهجة وتناسب نطلعها ورقة انسجامها ولطف دقائقها واتساع حقائقها لكن لا يخلو الأمر من أحد سببين أما صدهم التعصب عن مطالعتها إن كانوا من أوعية العلوم أو طالعوها فقصرت إفهامهم عن اللحوق إلى مداركها فأفكارهم مريضة وبصائرهم رمدة تجاوز الله عنا وعنهم. والمباحث المشار إليها ثمانية: -

الأول: نقل الشطنوفي بالسند عن حماد الدباس شيخ الجيلي أنه قال في الجيلي: أخذ من الله المواثيق أن لا يمكر به.

قلت: الأصل في التخويف من العاقبة بهذا العنوان قوله تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: الآية ٩٩] صدق الله العظيم. ولكل مقام مقال، ولكل مذاق جمال، والأليق بهذا المقام ذكر تفسير الآية الكريمة من دواوين علماء الباطن الذين منهم أبو يزيد البسطامي القائل أخذتم علمكم ميتًا عن ميت وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت.

فنقول قال الشيخ إسماعيل حقي في تفسيره روح البيان نقلًا عن تفسير العارف الكبير نجم الدين الكبرى الشهير بالتأويلات النجمية ما نصه: مكره تعالى مع أهل القهر بالقهر ومع أهل اللطف باللطف، فلا يأمن مكر الله من أهل القهر إلا القوم الخاسرون الذين خسروا سعادة الدارين، ومن أهل اللطف إلا القوم الخاسرون الذين خسروا الدنيا والعقبى وربحوا المولى، فعلى هذا أهل الله هو الآمنون من مكر الله

تعالى دل عليه قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام: الآية ٨٢]. اهـ. باختصار.

ثم قال الشيخ حقي: واعلم أن الأمن من مكر الله تعالى قد عد كفرًا لكن هذا بالنسبة إلى أهل المكر دون أهل الكرم فإن كمل الأولياء مبشرون بالسلامة في حياتهم الدنيوية كما قال تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ [يونس: الآية ٦٤]، كما قال تعالى: ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [يونس: الآية ٦٢] لكنهم يكتمون سلامتهم لكونهم مأمورين بالكتمان وعلمهم بسلامتهم يكفي لهم. اهـ.

وقول الشيخ حقي: مأمورين بالكتمان أي في الغالب وبعضهم يؤمر بالتحدث بذلك كما حررناه سابقًا، ومنهم الإمام الحاتمي قال: في ذكر اجتماعه بجميع الرسل والأنبياء عليهم السلام مشاهدة عين واستفادته منهم فوائد. قال: وموسى عليه السلام أعطاني علم الكشف والإيضاح وعلم تقليب الليل والنهار إلى أن قال: فكان لي هذا الكشف إعلامًا من الله أنه لا حظ لي في الشقاء في الآخرة. اهـ.

قلت: ومقام الإدلال للجيلي الذي سألت أباطح القراطيس بمداد الكلام فيه في كتب كثيرة قرينة كبرى في ثبوت تحصيل الإمام الجيلي للمواثيق المشار إليها رضي الله عنه وعنهم.

المبحث الثاني: قول الشطنوفي إن الشهر يسلم على الإمام الجيلي ويحدثه والسنة والشمس الخ.

جوابه: سئل شيخ الإسلام أبو حفص عمر البلقيني عن قول سيدي عبد القادر تأتيني السنة، فتُسلم علي وكذا الشهر واليوم ولا تطلع الشمس ولا تغيب حتى تُسلم علي. فأجاب: رحمه الله بما نصه: اللهم ألحقنا بعبادك الصالحين. قال تعالى: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ٥٨﴾ [يس: الآية ٥٨] [٤٨/ق]، وقال تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾ [الرّعد: الآيتان ٢٣، ٢٤] الله جلّ جلاله سلّم على أوليائه والملائكة سلّمت على أوليائه، فما بال الشمس والقمر لا يسلّمان عليهم والمنكر يعذر مع حرمانه والله أعلم.

المبحث الثالث: قول الشطنوفي إن الإمام الجيلي قال: أنا على قدم جدي الرسول ﷺ من المشهور على كل لسان أن كل ولي على قدم نبي، فمنهم من هو

على قدم سيدنا محمد علي ﷺ ويقال له محمدي، ومنهم من هو على قدم غيره من الأنبياء وبيان ذلك كما قاله الحاتمي: إن الأقطاب المحمديين هم الذين ورثوا محمد ﷺ، فيما اختص به من الشرائع والأحوال مما لم يكن في شرع تقدمه ولا في رسول تقدمه، فإن كان في شرع تقدم شرعه وهو من شرعه أو في رسول قبله، وهو فيه ﷺ، فذلك الرجل وارث لذلك الرسول المخصوص، ولكن من محمد ﷺ فلا ينسب إلا إلى ذلك الرسول وإن كان في هذه، فيقال فيه موسوي إن كان من موسى، وعيسوي إن كان من عيسى، وإبراهيمي، أو ما كان من رسول أو نبي ولا ينسب إلى محمد ﷺ إلا من كان بمثابة ما قلناه مما اختص به محمد ﷺ. اهـ.

ثم لا يظن أن كل غوث محمدي أي على قدمه ﷺ بل يكون أغواث ولم تحصل لهم هاته المنزلة إذ ليست إلا لأفراد من الأكابر فالإمام الجيلي محمدي زيادة على القطبانية الكبرى.

فائدة: أفادنا الأستاذ سيدي محمد بن أبي القاسم الشريف المذكور سابقًا رضي الله عنه في بعض مجالسه الزكية أن الشيخ سيدي عبد القادر رضي الله عنه له انغماسات في ذات النبي ﷺ.

وفي بعض أوقاته تلك يعني الجيلي أنشد قوله:

أنا كنت مع نوح بأعلى سفينة ... بحارًا وطوفانًا على كف قدرة

وكنت وإبراهيم ملقى بناره ... وما يرد النيران إلا بدعوتي

وكنت وموسى في مناجاة ربه ... وموسى عصاه من عصاي استمدت

ثم قال شيخنا: فكلام الجيلي هذا مسند في الحقيقة إلى من انغمس فيه الجيلي وفني فيه وهو النبي ﷺ؛ لأنه هو وسيلة المرسلين وسائر المقربين وبما قرر شيخنا يفهم معنى قول الشبلي لتلميذه أتشهد أني محمد رسول الله فوافقه تلميذه فيما قال، ومثل هذا كثير عنهم.

وفي المواقف الروحية للعلامة الهمام الأمير سيدنا عبد القادر بن محيي الدين المذكور سابقًا ما نصه: كنت مغرمًا بمطالعة كتب القوم رضي الله عنهم منذ الصبا غير سالك طريقهم، فكنت في أثناء المطالعة أعثر على كلمات تصدر من سادات القوم وأكابرهم يقف منها شعري وتنقبض منها نفسي مع إيماني بكلامهم على مرادهم؛ لأنني على يقين من آدابهم الكاملة وأخلاقهم الفاضلة، وذلك كقول عبد القادر الجيلي

رضي الله عنه معاشر الأنبياء أوتيتم اللقب وأوتينا ما لم تؤتوه، وقول فلان وقول فلان. . . الخ، وكل ما قاله المؤوّلون لكلامهم لم تسكن إليه النفس إلى أن مَنَّ الله تعالى عليّ بالمجاورة بطيبة المباركة فكنت يومًا في الخلوة متوجهًا أذكر الله تعالى، فأخذني الحق تعالى عن العالم وعن نفسي ثم ردّني وأنا أقول لو كان موسى بن عمران حيًا ما وسعه إلا اتباعي على طريق الإنشاء لا على طريق الحكاية، فعلمت أن هذه القولة من بقايا تلك الأخذة وإني كنت فانيًا في رسول الله ﷺ ولم أكن في ذلك الوقت فلانًا، وإنما كنت محمدًا وإلَّا لما صح لي قول ما قلت إلا على وجه الحكاية عنه ﷺ، وكذا وقع لي مرة أخرى في قوله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»[١]. وحينئذٍ تبين له وجه ما قال هؤلاء السادة أعني أن هذا أنموذج ومثال لا أني أشبه حالي بحالهم حاشاهم ثم حاشاهم، فإن مقامهم أعلى وأجلّ وحالهم أتمّ وأكمل. اهـ.

المبحث الرابع: قول الشيخ سيدي عبد القادر: كل رجال الحق إذا وصلوا إلى القدر أمسكوا إلا أنا وصلت إليه وفتح لي منه روزنة فنازعت أقدار الحق بالحق للحق، فالرجل هو المنازع للقدر لا الموافق له. اهـ.

فسّره الشيخ اليوني التميمي في شرحه على رسالة سيدي علي عزوز بما نصه قوله: امسكوا هو معنى قول ابن عطاء الله سوابق الهمم لا تخرق أسوار الأقدار، وقوله: إلا أنا. . . الخ. هو ما أشار إليه الحديث الشريف الدعاء جند من أجناد الله مجند يرد [٤٩/ ق] القضاء بعد أن يبرم. اهـ.

قلت: والحديث الذي ذكره رواه ابن عساكر كما في جامع السيوطي، وقد فسر الشعراني كلام الجيلي الذي نحن بصدده بما هو أعلى وأدق، قال ما ملخصه: قلت لشيخنا أي الخواص: هل اطلع أحد من الأولياء على سر القدم المحتكم في الأخلاق، فقال: نعم يحكم الإرث لرسول الله ﷺ؛ لأنه لم يعط لأحد غيره، فقلت له: لِمَ؟ فقال: لما هو عليه من القوة التي أعطاه الله إياها، فلو أن أحدًا غيره اطّلع على ذلك ربما كان سببًا لفتور الهمّة عما كلف به من النهي عن المنكر ونحوه، فكان طيه عنهم رحمة بهم ليقوموا بما كلفوا، فلو أنه كشف للعبد فرأى أن الحق تعالى هو الذي أخذ بنواصي الناس إلى ما هم عليه لاستحيى العبد من المدافعة وقت الكشف،

---

(١) تقدم تخريجه في أول الكتاب.

فالرجل هو المنازع لأقدار الحق بالحق للحق لا الموافق لها كما قاله الشيخ عبد القادر الجيلي رضي الله عنه، وشرح هاته الجملة أن مراده بالأقدار التي ينازعها حضرة الإرادة المجردة عن الأمر فينازعها بالأمر الشرعي، فالإرادة هي أقدار الحق وقد نازعها بالحق الذي هو الشرع، ولو أنه لم يدافعها لعصي ربه. اهـ.

قلت: ومما يزيدنا فهمًا لهذا المعنى قولهم من نظر إلى الخلق بعين الحقيقة عذرهم ومن نظر إليهم بعين الشريعة مقتهم، فالإمام الجيلي من كماله الأكمل لم تثبطه إضاءة كشفه للحقيقة عن إجراء ظواهر الشريعة بالمدافعة الفعلية في وقت كشفه الصحيح والله أعلم.

المبحث الخامس: قول الإمام الجيلي قلبي في مكنون علم الله عزَّ وجلَّ وذكر أوصاف قلبه الزكي إلى أن قال فيما من الله به على قلبه الشريف أقعده مع أرواح أهل اليقين على دكة بين الدنيا والآخرة، بين الخلق والخالق بين الظاهر والباطن. اهـ.

أما كونه في علم الله المكنون فإشارة منه رضي الله عنه إلى حديث رويناه بالسند إلى صاحب مسند الفردوس بسنده إلى النبي ﷺ أنه قال: «إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله، فإذا نطقوا به لم ينكره إلا أهل العزّة بالله».

وقد ذكر الحاتمي هذا الحديث، ثم قال بعد الحديث ما نصه: هذا وهو من العلم الذي يكون تحت النطق، فما ظنك بما عندهم من العلم مما هو خارج عن الدخول تحت حكم النطق، فما كل علم يدخل تحت العبارات وهي علوم الأذواق كلها.

وأما قوله في وصف قلبه الطاهر أن الله أقعده بين كذا وكذا... الخ. فمعناه ظاهر كما يفهم من كلامه بعد أي لا يشغله إرشاده الخلق عن توجهه إلى الحق ولا العكس ولا تشغله الدنيا من الآخرة ولا العكس ولا الظاهر أي القيام بوظائف الشرع الكريم عن الباطن، وهو الغوص في بحور الحقيقة وإفادة أهليها منها ولا يشغله العكس ومثله في المعنى ما نقله في البهجة أيضًا في فصول مقالات الجيلي قدس الله سره في فتح الله للعارف، قال ينبت له جناحين جديدين ويرده إلى الخلق والوجود فيطير بين الدنيا والآخرة بين الخلق والخالق. اهـ.

ولا شك أن هذا الوصف الزكي حصل لقلب الإمام الجيلي في ميادين بأثر سلوكه؛ لأنه نتيجة الخلوص من مشقة العقبات يحصل لصاحب مقام النفس المرضية

وهو السادس قبيل الدخول إلى مقام النفس الكاملة، وهو سابع المقامات ونهاية منازل السلوك، كما أفاد جميع ذلك أستاذنا سيدي محمد بن أبي القاسم في بعض رسائله.

المبحث السادس: نقل الشطنوفي بالسند قول الشيخ ابن الهيتي في الإمام الجيلي أنه رأى النبي ﷺ يقظة، ونقله أيضًا عن الجيلي أنه قال أرى الملائكة هذه المسألة مفروغ منها لكثرة كلام الأعلام فيها جوازًا ومنعًا وانفصال المحققين منهم على جواز رؤية النبي ﷺ يقظة وكذا رؤية الملائكة، وحسبنا فيها تأليف الحافظ السيوطي المسمى (تنوير الحلك في إمكان رؤية النبي والملك)، فقد شفي الغليل بنقل الأحاديث من صحيحي البخاري ومسلم وغيرهما[1]، ثم سمي جماعة من سادات الأمة رأوا النبي ﷺ يقظة منهم الشيخ سيدي عبد القادر نقلًا عن الإمام سراج الدين بن الملقن وممن ذكر أن الجيلي رأى النبي ﷺ يقظة العلامة اللَّقاني في شرحه على الجوهرة عند قوله وتابع لنهجه من أمته.

المبحث السابع: نقل الشطنوفي حكاية الشيخ عبد الرحمٰن الطفسونجي، وملخصها أنه قال: لم أسمع بذكر الشيخ عبد القادر إلّا في الأرض وإن لي أربعين سنة في دركات القدرة، فما رأيته داخلًا ولا خارجًا فعلم بكلامه الجيلي مكاشفة قبل بلوغ [٥٠/ق] الخبر فأرسل يقول للشيخ عبد الرحمٰن: أنت في دركات القدرة ومن هو هناك لا يرى من هو في الحضرة، ومن هو في الحضرة لا يرى من هو في المخدع، وأنا في المخدع أدخل وأخرج من باب السر لا تراني بإمارة خرجت لك خلعة الولاية وطرازها سورة الإخلاص على يدي، فقال: صدق هو سلطان الوقت.

قلت: حكاها أيضًا الشيخ علي قاري، وسيدي مصطفى البكري، وغيرهما، وحكى الحاتمي ما يقاربها مما يتعلق بالشيخ محمد بن قائد الأواني مع الإمام الجيلي، قال: كان ابن قائد معربدًا في الحضرة بسُكره، فقال: مشيت على طريقي إلى الحق، فلم أر فيه قدمًا لغيري إلّا قدمًا واحدًا تقدمني فغرت، فقيل لي هي قدم نبيك فسكن جأشي فلما قربت وضعت لي منصة، فاستويت عليها وخرجت لي الخلع الإلٰهية، فخلعت علي، فقال: الشيخ عبد القادر مسكين ابن قائد حضرت في ذلك المجلس ومن عندي خرجت له النوالة يعني تلك الخلع، فقيل له أين كنت؟ فإنه ما شهدك، فقال: في المخدع، ثم ذكر صور الخلع، فعرفها ابن قائد، وقال: صدق الشيخ عبد القادر. اهـ.

---

(١) انظر: الفتح (١/ ٢٥٩، ١٢٠)، وشرح مسلم (١٥/ ٢٥).

ـ المخدع: بكسر الميم وفتح الدال المهملة هي الخزانة وفي ألفية البكري في فصل اصطلاحات القوم.

ومخدع موضع ستر القطب والـلـب عـلـم سـره لا تـنـبـي

والنوالة ما ينيله الحق أهل القرب من الخلع، ثم قال الحاتمي نفعنا الله بأسراره بعد الحكاية المذكورة القدم التي رآها ابن قائد هي قدم النبي، الذي هوله وارث لا القدم المحمدي وكذا إذا رآها غيره، يعني ولو يقال له قدم نبيك إلا الأقطاب المحمديون، كما هو تحريره.

ثم قال الحاتمي: وإنما قال في المخدع ولم يسمى مكان صوته وعينه بهذا الاسم ليعلم أن ابن قائد مخدوع حيث حكم بأنه ما رأى عبد القادر في الحضرة في معرض النفاسة عليه فإن حضرة محمد بن قائد في هذه الواقعة هي حضرته التي تختص به من حيث معرفته بربه لا حضرة الحق من حيث ما يعرفه عبد القادر أو غيره من الأكابر، فستر عنه مقام عبد القادر خداعًا، فافهم ذلك عبد القادر فقال: كنت في المخدع، وقوله من عندي خرجت النوالة يدل على أن عبد القادر كان شيخه في تلك الحضرة وعلى يديه استفادها، ولم يشعر بذلك محمد بن قائد، فإن الرجال في ذلك الوقت كانوا تحت قهر عبد القادر فيما يحكى من أحواله وأحوالهم، وكان الجيلي يقول هذا على نفسه، فيسلم له حاله فإن شاهده يشهد له بصدق دعواه. اهـ.

وقد تقدم لنا أن محمد بن قائد المذكور من الملامتية الذين هم في الطراز الأول من القوم، وقال الإمام الحاتمي في الكلام على الإفراد ومحمد بن قائد الأواني منهم شهد له بذلك الإمام عبد القادر الجيلي الحاكم في هذه الطريقة المرجوع إلى قوله في الرجال.

ثم قال الحاتمي: وهم أي الأفراد رجال خارجون عن دائرة القطب. اهـ.

تنبيه: قال البكري في شرح ورد السحر لعل حكايتي الطفسونجي وابن قائد وقعتا قبل حصول الإذن لحضرة الشيخ رضي الله عنه بقوله: قدمي هذه على رقبة كل ولي لله، فإنه حال قوله ذلك طأطأت له جميع أولياء عصره أعناقهم، فلم يبق من يجهل مقامه إذ ذاك، وكذلك يحمل قوله أي قوله الجيلي: عارضني رجلان في حال، فضربت أعناقهما بحضرة الله تعالى. إن المعارضة صدرت منهما قبل معرفتهما بأنه قطب الآوان وغوث الزمان فإن الأكابر من الرجال أهل أدب غض لا يتخطونه بحال. اهـ.

المبحث الثامن: قول الجيلي في آخر حكايته لمجاهداته رضي الله عنه ما نصه، فبرئت أدواء النفس، ومات الهوى وأسلم الشيطان. اهـ.

- إسلام الشيطان هنا إذعانه وتسليمه للإمام الجيلي وإلقاؤه السلاح، فلا يتعرض له بحال لإياسه منه لقول الشيطان كما حكى الله تعالى عنه في القرآن العظيم إلا عبادك منهم المخلصين، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ [الحجر: الآية ٤٢] أي المخلصين، ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ [الحجر: الآية ٤٢].

فإن قيل لِمَ لم تفسر إسلام الشيطان هنا بالإسلام الذي هو الإيمان، وهو ممكن حيث المراد به قرين الواحد من المؤمنين، والدليل عليه أن شيطان النبي ﷺ، أسلم كما ورد في الحديث الشريف وما صح معجزة يصح كرامة.

قلت: تحرير المسألة في إسلام شيطان النبي ﷺ أن لفظ الحديث كما رواه مسلم وأحمد عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «ما منكم من أحد إلّا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة، قالوا: وإياك، قال: وإياي. إلّا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا [٥١/ق] يأمرني إلّا بخير»[١] فوقعت الرواية بفتح الميم وضمها في قوله فأسلم، ومعنى رواية الضم فأسلم أنا من فتنته وكيده، والذي رجحه عياض والنووي فتح الميم وهو المختار وفسر بأنه آمن لقوله: فلا يأمرني إلا بخير، وقد صرح به حديث ابن عباس كما رواه البزار أن النبي ﷺ قال: «فضلت على الأنبياء بخصلتين كان شيطاني كافرًا فأعانني الله عليه، فأسلم، قال: ونسيت الأخرى»[٢].

فهذا الحديث نص في إيمانه وهو دليل على إمكان إيمان الشيطان القرين المؤمن، لكن قوله ﷺ: «فضلت على الأنبياء»، بكذا هو الذي صدني عن تفسير إسلام الشيطان في كلام الإمام الجيلي بالإيمان، فتفسير أسلم في هذا المبحث بالتسليم أسلم والله أعلم. إلى هنا انتهى بنا الكلام بعون ذي الجلال والإكرام، وقد حالت أعذار بمدة بين تأليفه وتبييضه حتى اشتاقت الأصحاب إلى إتمامه، وكاتبوني عليه من أفاضل الزمان وإعلامه، وممن خاطبني نظمًا تحريضًا على ذلك صاحبنا العالم الفصيح البارع الشيخ السيد محمد الكيلاني ابن الولي الكامل الشيخ سيدي

---

(١) رواه مسلم (٤/ ٢١٦٧، ٢١٦٨)، وأحمد في المسند (١/ ٢٥٧، ٣٨٥)، والشاشي في مسنده (٢/ ٢٥١)، والطبراني في الكبير (١٢/ ١١٠)، والأوسط (٣/ ٩٣)، والضياء في المختارة (٩/ ٥٤٧)، وابن خزيمة في صحيحه (١/ ٣٣٠).

(٢) انظر: شرح مسلم للنووي (١٧/ ١٥٧).

إبراهيم الشريف القادري كان الله له في الدارين، ونص مكتوبه بعد فاتحته نعم اذكر سيدي أن خير البر عاجله، وأقل المعروف آجله، وخدمة الملوك قاضية بالتشمير عن ساعد الجد، وكيف وللمعتنى بها غاية القرب منها ومنتهى الود؛ فحقيقة بهم أن يقيموا له كل أود، وأن يساعدوه ببلوغ كل مرام بلا نكد.

فسارع لجنات النعيم فمهرها ... وربك ذب عن كرام أئمة
وقاتل ردودات الحسود بقولة ... من الحق تنفي كل ليس وفرية
وقل إن عرضي والأحبة كلهم ... وقاء لعرض القطب تاج الأجلة
تكن وحياة الشيخ أقرب خادم ... لديه وتكسي العز في كل وجهة
فديتك لا تزهد فما زهدهم هدى ... ودام كلوم الدين وأقبل وصيتي
فلو كان رد بالمهمات لمتُّها ... ولكن بإنصاف وجوده فكرة
وحيث عدمنا من يدافع مثلكم ... طلبتم بفرض لا ينفل وسنة
خصصت بفضل فأحمد الله أنها ... لغرة مجدها كها دون شركة

وذلك من حُسْن ظنه وإلا فلست أهلًا لذلك وفضل الله واسع.

هذا وقد شاهدت كرامات للإمام الجيلي قدس الله سره زمان اشتغالي بهذا التأليف، ورأيت منه ما دلني على قبول له، وإن كان مؤلفه أحقر حقير وأعجز ضعيف، وبشرني رضي الله عنه في مبشرات ببشارات فيها خير الدارين إن شاء الله وليس هذا محل ذكرها نفعنا الله بنفحاته، أفاض علينا وعلى محبينا سجال فيوضاته، وقد جرت عادة بعض المؤلفين بتقديم ما ألفوه بين أيدي الملوك وإضرابهم فها أنا ذا أقدم تأليفي بين يدي حضرة خدمته به ولذلك أقول:

من يقدم مهديًا للأمرا ... ما به الفكر همي وانهمرا
فأنا أهدي كتابي للذي ... هو سلطان جميع الكبرا
غوث أهل الله والكل له ... خضع إلهام نهي أو أمرا
من يكن يعزل بالموت هذا ... نافذ الحكم وهبه قبرا
يا سليل المصطفى رغمًا لمن ... يخذل الحق وما أن قدرا
جئت من ريحانتيه زهرة ... طاب منها الكون عرفًا نشرا
سيدي أقبل من مقل جهده ... حركته غيرة فانتصرا
وورائي ناصروا دين الهدى ... نفعهم عم الفضا مبتكرا

كلهم أبرع علمًا وحجا	ويراعًا من عبيد يدرا
عارفًا معترفًا أن حما	كم إلى تصنيفه ما افتقرا
كلنا نقدي اسم هذا الغوث أن	رامه غمر بهضم وازدرا
بل تراب النعل نرعى قدره	واكتحال منه يشفي البصرا
وعلى الجيلي يا جلال تحيا	ت حب واعتقاد كبرا
تنتحي بغداد شوقًا ما سرى	بالرسالات نسيم سحرا

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: الآية ٤٣]، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران: الآية ٨]، ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: الآية ٢٠١]، اللّهمَّ إنا نسألك العفو والعافية والمعافاة في الدين والدنيا والآخرة، وصلّى الله على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم. وكان تمام تبييضه بيد مؤلفه في ربيع الأنوار ليلة المولد النبوي سنة ١٢٠٩.اهـ.

بشكرك اللهم نستزيد صنوف المكارم، وبالثناء عليك نذود سوائم طِباعنا عن المراتع التي يتوجه فيها لوم اللوائم، والصلاة والسلام على سيد ولد آدم، وعلى آله وصحبه والقاطعين ببيض القواضب هامة كل ظالم، والطائفين بسمر العوالي من حاد عن منهج الحق فاستأصلوا خوافيه والقوادم.

أما بعد فيقول مصحّح دار الطباعة، جمل الله بتوفيقه طباعه، في عنق المعترض على الغوث الجيلاني، وهي رسالة طابق فيها الاسم المسمى وكيف لا وهي مما نسجتها أنامل بارع الأكوان، الذي أصبحت تآليفه الجليلة على فضله أوضح برهان سليل أهل العلم والصلاح، من رزق الحظوة في مسالك النجاح، العالم الفاضل، الإنسان الكامل، الشيخ السيد محمد المكي ابن الولي الأستاذ الشهير سيدي مصطفى بن عزوز نفعنا الله به وبارك في أنجاله، بمحمد وآله، وكان تمام طبعه السني في شهر ربيع الأنوار بالمطبعة الرسمية التونسية عام عشرة وثلاثمائة وألف، من هجرة من خلقه الله على أكمل وصف صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم.

فهرس المحتويات

سرّ الأسرار ومُظهِر الأنوار
فيما يحتاج إليه باري الأبرار

فُتُوحُ الغَيْب

قلائد الجواهر
في مناقب الجيلاني

السيف الرّبّاني في عنق المُعتَرِض على الغوث الجيلاني